دار الكتب والوثائق القومية
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الكافي
في
تاريخ مصر القديم والحديث

تأليف
ميخائيل بك شاروبيم

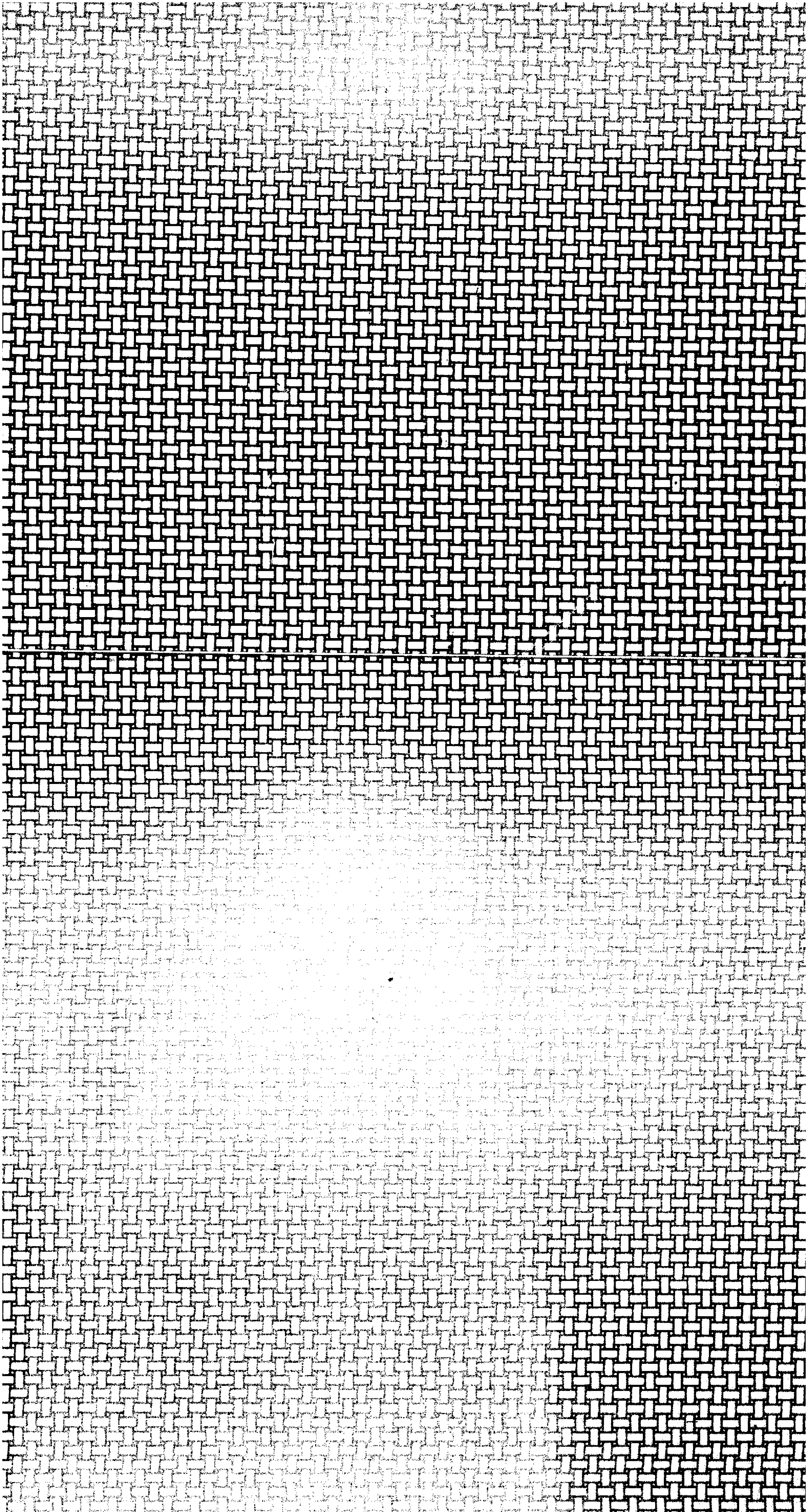
الجزء الخامس

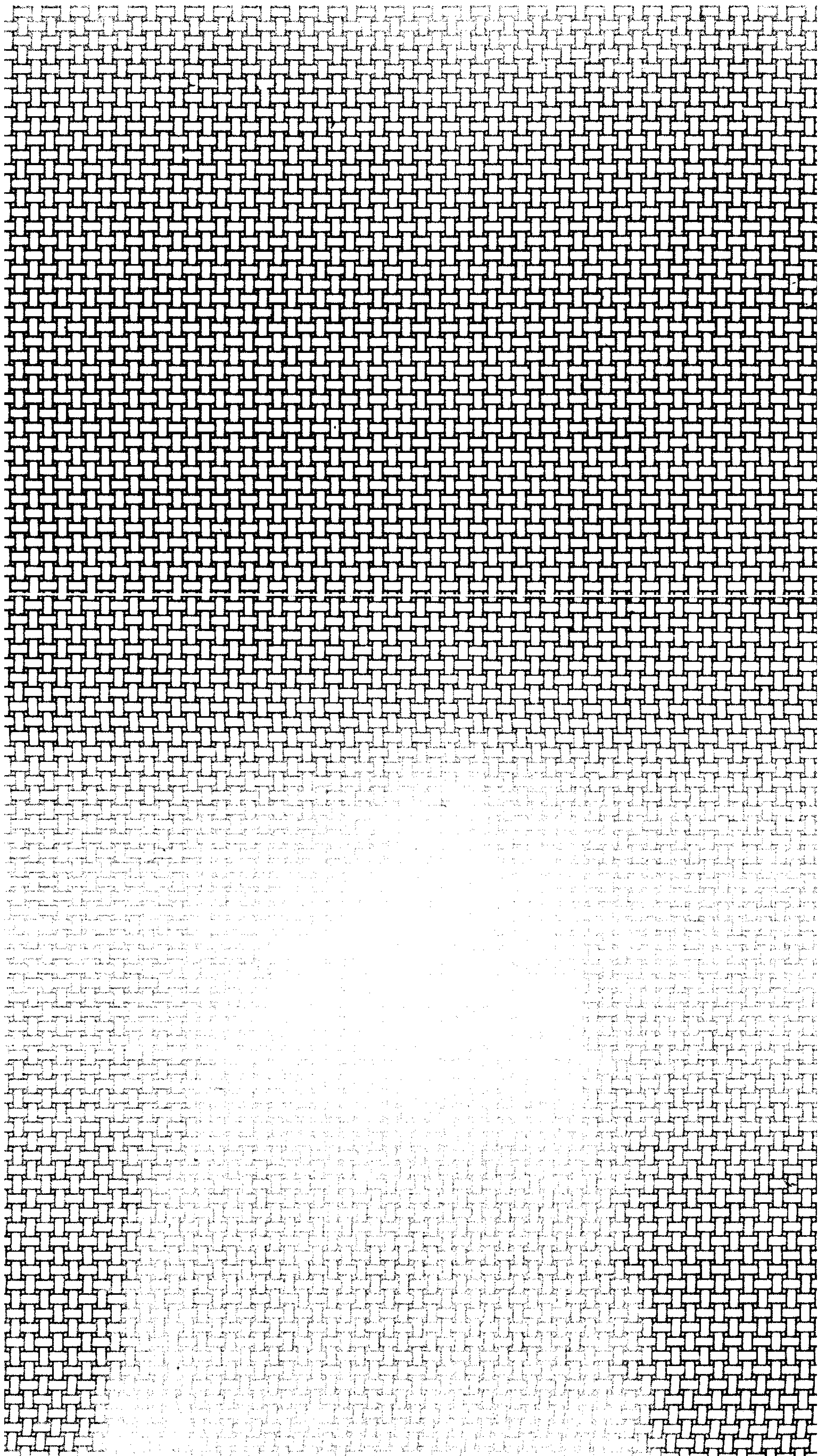
المجلد الاول - القسم الأول

تحقيق
الدكتور عبد الوهاب بكر



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨





الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لميخائيل بك شاروبيم

دار الكتب والوثائق القومية
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الكافى

فى

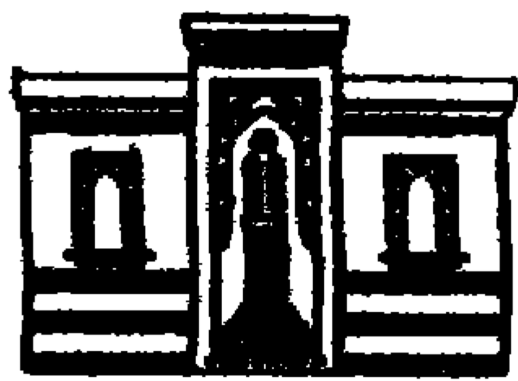
تاريخ مصر القديم والحديث

لميخائيل بك شاروبيم

الجزء الخامس

المجلد الأول — القسم الأول

تحقيق
الدكتور عبد الوهاب بكر



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨

شاروبيم ، ميخائيل .
الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث / لميخائيل شاروبيم ؛
تحقيق عبد الوهاب بكر . ـ القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ،
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، 1998 ـ
مج 5 ؛ 28 سم .
المحتويات : جـ5 . مج 1 ـ القسم الأول . ـ
تدمك 2 - 0139 - 18 - 977
٩٦٢

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب

المحتويات

الإهــــداء

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق

فالعلـــم وحـــده ليس يجـــدى

(حافظ)

فى عام ١٩٩٢ اتصل بى الأستاذ الدكتور/ يونان لبيب رزق ـ أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات ـ جامعة عين شمس ، وأشار إلى أن الجزء الخامس من (الكافى) فى حوزته وإنه يفكر فى إسناد أمر تحقيقه إلى .

فى ذلك الوقت أيضاً ظهر (الرقيب) أو حوليات مصر السياسية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢ لميخائيل شاروبيم محققاً بمعرفة الدكتور يونان لبيب رزق ـ وفى المقدمة التى قدم بها الدكتور/ بطرس غالى للكتاب ذكر أن المرحوم الدكتور/ زكى مبارك الذى كان يعلمه اللغة العربية فى الثلاثينيات بمدرسة الليسيه ـ ذكر له أن هناك جزءاً خامساً (للكافى) وأن على الأسرة أن تعنى بنشره ـ واستطرد الدكتور غالى فقال إن والدته المرحومه (صفية ميخائيل شاروبيم) طلبت منه فى إعقاب عودته من بعثته الدراسية إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩٤٩ أن يعنى بنشر عملين لجده (ميخائيل شاروبيم) لم ينشرا بعد ـ هما الجزء الخامس من (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) ـ و(الرقيب) .

ويبدو أن نوعاً من التعارف جرى بين الدكتور غالى والدكتور يونان لبيب أثناء اشتغال الأخير بقضية استرداد (طابا) ، وأن الحديث بينهما تطرق إلى مؤلفات جد الدكتور/ غالى ـ فعرض الأخير على الدكتور/ يونان أن يتولى مهمة نشر أعمال ميخائيل شاروبيم ـ وفاءاً من الحفيد لجده من ناحية ـ وتحقيقاً لرغبة الأم (صفية شاروبيم) فى نشر أعمال أبيها من ناحية أخرى .

وأخذ الدكتور يونان على عاتقه مهمة تحقيق (العملين) ـ فنشر (الرقيب) محققاً فى عام ١٩٩٢**** ـ ثم عهد إلى بتحقيق الجزء الخامس من الكافى . . . . وهكذا وصل إلى العمل .

**** ميخائيل شاروبيم (رقيب على أحداث مصر ـ حوليات مصر السياسية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢) تقديم دكتور/ بطرس بطرس غالى ، تحقيق ودراسة الدكتور / يونان لبيب رزق ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

يقع (الكافى) فى ثلاثة مجلدات ضخمة يبلغ عدد صفحاتها مجتمعة ١٢٣٨ صفحة من الفولسكاب (٢٩×١٩سم) ، وهو منسوخ على الآلة الكاتبة ، واعتنى صاحبه بتجليده تجليداً يوحى بأنه كان يعتزم حفظه وليس نشره .

يتناول العمل الفترة التاريخية الواقعة بين وفاة الخديوى توفيق فى يناير ١٨٩٢ ومصرع بطرس باشا غالى رئيس النظار فى فبراير ١٩١٠ .

ويتوقف ميخائيل شاروبيم عند هذا الشهر بصورة مبتورة ـ فقد كان يتحدث عن محاكمة (إبراهيم ناصف الوردانى) ويشرح إختلاف الأطباء والمحكمة حول حالته العقلية ومدى مسئوليته عما فعل ، وموقف الصحف القبطية منه ، وهجومها عليه ، وتكليف نظارة الداخلية لمحافظ العاصمة (بانذار) هذه الصحف بالكف عن هذا السلوك ـ وفجأة ينتهى العمل .

ولا تعرف ـ حتى الآن ـ أسباب ميخائيل شاروبيم فى إنهاء العمل على هذه الصورة المفاجئة ، اللهم إلا إذا كان قد انتوى استكماله فى مجلد رابع ، وهذا ما لانستطيع القطع به .

على مدى حولين استغرقنى تحقيق العمل . ولقد كانت النية منصرفة إلى إخراجه كله دفعة واحدة ـ لكن أسباباً كثيرة أدت إلى رجحان فكرة تقسيمه إلى مجلدين ، يغطى أولهما الفترة يناير ١٨٩٢ ـ ديسمبر ١٩٠٠ ، وهو المجلد الذى بين يدى القارئ الكريم . أما الثانى فيغطى الفترة يناير ١٩٠١ ـ فبراير ١٩١٠ ، وهو تقسيم أزعم أنه متوازن ، فقد انتهى المجلد الأول عند وقفة مقبولة هى نهاية القرن التاسع عشر .

وفقاً (لتوفيق اسكاروس) فإن (ميخائيل شاروبيم) ولد فى القاهرة فى إبريل ١٨٥٤ ـ وإلتحق بمدرسة (حارة السقايين) التى كان الأنبا كيرلس الرابع (١٨٥٤ ـ ١٨٦٢) قد أنشأها ليجنب أبناء هذا الحى من الأقباط مشقة السير إلى المدرسة البطريركية بالأزبكية ـ وكانت حارة السقايين تمثل (حارة النصارى) بالنسبة للقبط خلال القرن التاسع عشر .

فى مدرسة حارة السقايين تلقى (ميخائيل) مبادئ العربية والإنجليزية والفرنسية ، فلما استوفى تعليمه فيها انتقل إلى المدرسة البطريركية حيث الكاتدرائية المرقسية فى ذلك الوقت ـ وهناك تلقى تعليماً أعلى .

فى سن السادسة عشرة (١٨٧٠ تقريباً) كان شاروبيم قد انتهى من دراسته المحدودة ، فانخرط فى سلك الوظائف الحكومية ، فعمل فى (قلم التحريرات الأفرنجية) بنظارة المالية ، ثم اشتغل كمترجم ثم كسكرتير خاص لإسماعيل صديق باشا (المفتش) . بعد مصرع (المفتش) فى نوفمبر ١٨٧٦ عين شاوربيم ـ وكان فى الثانية والعشرين ـ أميناً ثانياً بجمرك الإسكندرية ، ثم أميناً لجمرك دمياط ـ فأميناً لجمرك بور سعيد عام ١٨٨٠ . وفى تلك السنة استقال شاروبيم من العمل بالجمارك وعاد إلى القاهرة ـ لكنه قبل بعد قليل وظيفة (مفتش) (بالمراقبة الثنائية) التى أنشئت فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ . وفى أعقاب الاحتلال البريطانى وفى ظل الفوضى الفاشية فى الإدارة المصرية قام المترجم ببعض المهام القليلة المتصلة بلوازم جيش الاحتلال .

إلى هنا ولانعرف لميخائيل شاروبيم أى ميزات ثقافية ـ فالرجل قد تلقى تعليماً بسيطاً ـ وخدمته فى الحكومة لم تتعد مجال التحريرات (أعمال الكتابة) ، والترجمة ، والسكرتارية ، وأمانة الجمارك ، فالتفتيش المالى أو الإدارى .

لكننا نراه ينتقل فجأة عام ١٨٨٤ (قاضياً) فى محكمة المنصورة الأهلية دون أن يكون لديه أى خبرات قانونية سابقة ـ صحيح أن أول شروط وضعت للإلتحاق بالعمل القضائى ونصت على ضرورة حصول القاضى أو عضو النيابة على (شهادة حقوقية إما من مصر أو أوروبا) كانت فى نوفمبر عام ١٨٩٣ وليس قبل ذلك ـ لكنه أصبح رئيساً للنيابة بنفس المحكمة وهى يومئذ أكبر نيابات القطر وأوسعها إختصاصاً .

بعد عشر سنوات من العمل فى القضاء عين ميخائيل شاروبيم مديراً لمصلحة التاريع (المساحة) ، ١٨٩٤ ـ وفى عام ١٨٩٩ نقل إلى وزارة المالية ناظراً لإدارة أملاك الميرى الحرة ، فمديراً للأملاك فى الاسكندرية حتى عام ١٩٠٣ . وفى ذلك العام تقاعد وهو فى سن التاسعة والأربعين ـ وظل فى مرحلة التقاعد حتى توفى عام ١٩١٨ عن ٦٤ عاماً .

تقول بعض المصادر أن شاروبيم ولد عام ١٨٦١ ـ لكن هذا التاريخ لايقبل عقلاً إذا وضعنا فى الإعتبار سنى الدراسة التى تلقاها فى مدرستى حارة السقايين والمدرسة البطريركية وهما لاتقلان عن عشر ـ إذ لا يتصور هنا أن يعمل الرجل سكرتيراً خاصاً لإسماعيل صديق وزير المالية عام ١٨٧٦ وهو فى سن الخامسة عشر ـ إذا وضعنا فى الإعتبار أنه بدء حياته الدراسية فى سن الخامسة أى عام ١٨٦٦ .

لايوجد فى السجل الثقافى أو الوظيفى لميخائيل شاروبيم ما يفيد البحث فى قضية تألقه ـ فدراسته فى مدرسة حارة السقايين ثم المدرسة البطريركية بعد ذلك لاتكفيان سبباً لتخريج مؤرخ كشاروبيم ألف (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) فى أربعة أجزاء ضمنها بدء الخليقة من أيام نوح عليه السلام مروراً بأولاده إلى المصريين القدماء إلى عهد الغزو الفارسى لمصر إلى عهد الإسكندر الأكبر فالبطالسة فالرومان حتى الفتح الإسلامى ـ ثم تاريخ العرب فى الجاهلية وظهور الإسلام ـ فالخلفاء الراشدون ثم عمر الفاروق فعمرو بن العاص حتى الفتح العثمانى والولاة العثمانيين على مصر ، ثم عصر محمد على وحياته وولايته وحوادث عهده وحروبه ـ ثم الثورة العرابية والثورة المهدية والاحتلال الإنجليزى حتى وفاة الخديوى توفيق ـ ثم هذا العمل الذى يحتويه هذا الكتاب .

وفوق هذا فقد ألف (التليد فى مذهب أهل التوحيد) و(رسالة عن الاستعمار) و(انجلترا فى شبه جزيرة العرب) و(رسالة فى مذهب الإسماعيلية) ـ إلى جانب رسائل أخرى فى الجراد والنحل والرصاص وماضى آسيا وحاضرها ، والجراكسة ، وبلاد الاشانتى ، والطباعة ، ومعدات الحروب وفلسفة النفس والخلود والرقص ، والإسلام فى الحبشة ــ أربع وثلاثون رسالة فى اختلاف موضوعاتها دليل على سعة إطلاع الرجل . وفوق هذا فقد كان ميخائيل شاروبيم هاوياً للموسيقى الشرقية ومتذوقاً لها ولاعباً على آلة القانون .

ونميل إلى قبول ما قال به بعض النقاد من أن إتقان ميخائيل شاروبيم للغات وسعة اطلاعه إنما جاء نتيجة لإنتمائه (لطبقة الأعيان) التى كانت تحرص على مظاهر الأبهة الطبقية التى كانت تتضمن الصالونات الأدبية ، والحديث اليومى باللغات الأوروبية واللقاء مع رجال الفكر والأدب إلى جانب اقتناء العربات ذات الخيول المطهمة وسكنى القصور الفاخرة .

ولعل إندماج ميخائيل شاروبيم داخل الطبقة الحاكمة ــ وهو ما هيأته له تركيبته الإجتماعية ــ قد أتاح له الكثير من أسباب المعرفة والاستنارة إلى جانب انتمائه الطبقى كسبب وجيه .

يعالج الجزء الخامس من (الكافى) فترة من تاريخ مصر تتميز بميزتين هامتين ــ أولاهما أن الفترة نفسها تقع فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين . أما القرن التاسع عشر فيكفى فيه القول أنه قرن التحول ــ ولو بالنسبة لمصر ــ إلى عصور الحداثة والتنوير ــ بعد قرون التخلف التى فرضها استعمار القرون السادس عشر حتى الثامن عشر ــ قرن القوميات ــ قرن الاستنارة ــ تطور الفكر ــ الترجمة ــ الانفتاح على الغرب ــ عصر الصحافة ــ الكتابة ــ تكون الرأى العام .

أما الميزة الثانية فهى ما أصاب مصر خلال الربع الأخير من ذلك القرن من أزمة مالية أتت بالتدخل الأجنبى فى شئونها ـ وما تبع ذلك من قيام ثورة ترفض هذا التدخل وترفع شعار «مصر للمصريين» ، ثم انتهى هذا كله باحتلال إنجليزى قلب كيانها وغير كل شيء فيها .

وجاء القرن العشرين لتشهد مصر تطوراً سياسياً خطيراً هو نتاج ربع قرن سابق من التدخل المباشر وغير المباشر فى شئون البلاد . فقامت الجمعيات السرية ، وظهرت الأعمال العنيفة وقامت الأحزاب السياسية ـ كل له ملته وإعتقاده ، وأقبلت البلاد على هذا كله أقبال العطش إلى الماء ينهل منه حتى يرتوى . وقامت الصحف والكتاب يحركون المجتمع من أسفله إلى قمته ، وظهرت أفكار الاستقلال والدستور والحكم الديمقراطى . . . وانتهى هذا كله بثورة عارمة مع نهايات العقد الثانى من القرن العشرين .

فى ظل هذا المناخ ظهر ميخائيل شاروبيم ـ ومصر على عتبات الخضوع للنفوذ البريطانى والفرنسى ، فشهد قيام المراقبة الثنائية التى هيمنت على الميزانية المصرية ، وشهد التذمر الوطنى من هذا التدخل ، وعايش الوزارة المختلطة ونوبار ـ والمحاكم المختلطة والنظام القضائى الحديث ـ وباشر مهمة القضاء فى ظل الاحتلال البريطانى ـ وشهد ضرب الإسكندرية وما تبعه من أحداث وسجل كل أحداث الثورة فى (الرقيب) .

كان شاروبيم فى نهاية الثلاثينات من عمره عندما بدأ فى تسجيل حوادث الجزء الخامس ـ فكيف كانت الأحوال فى مصر وقتئذ؟

كان قد مضى عقد كامل على الاحتلال الإنجليزى لمصر ـ استقرت لبريطانيا فيه أمورها فى البلاد ، وهيمن (عميد الاحتلال) كما يسمى شاروبيم (كرومر) على مقدرات الأمور بفضل خنوع (توفيق) الذى كان (كرومر) دائم التذكير له بفضل بريطانيا عليه فى بقائه فى كرسى الخديوية . كانت عناصر

تقرير دوفرين Dufferin قد تم ترجمتها إلى أفعال ـ فسيطر الاحتلال على الجيش المصرى وأخضعوه لقيادة بريطانية صارمة ـ وكذلك الحال فى البوليس ، وخضعت وزارة الأشغال لطاقم من مهندسى الرى الإنجليز الذين تلقوا تدريبهم فى كلية توماسون (Thomason) بالهند ، أداروا عمليات الرى وفق خطة توصل إلى تحسين الموارد الاقتصادية للبلاد بصورة تجعلها قادرة على سداد الديون . واحتل مناصب السيطرة فى الجهاز المالى موظفون بريطانيون مرتبطون تمام الإرتباط (بعميد الاحتلال) الذى كان يخطط لإخراج مصر من أزمتها المالية التى كان على رهان مع القوى الأوروبية بشأنها .

رويدا رويدا تغير شكل المهمة البريطانية فى مصر ، من سحق العصيان العسكرى وحماية المصالح الأوروبية فى مصر وإعادة تأكيد سلطة الخديوى الشرعية إلى (خطة إصلاح) وئيدة تهدف إلى خدمة المصالح الاستراتيجية والتجارية البريطانية وإعادة السيولة إلى المالية المصرية وتحسين أحوال مصر الاقتصادية للتمكن من سداد الديون .

وبعد أن كان الزمن المقرر لإنجاز المهمة سنوات قليلة ، إذا بالثورة المهدية تكتسح السودان معطيه للإنجليز مبرراً جديداً للبقاء بحجة ضمان الأمن والاستقرار فى البلاد خشية إلتحام ثوار السودان بثوار مصر .

وانكب بارنج بمدرسته الهندية على النظم الإدارية تعديلاً وتغييراً ، تساعده نخبة من خريجى المدرسة الإستعمارية الهندية . والواقع أن كرومر كان فى إندفاعه نحو الإصلاح الإدارى فى مصر ـ يرفع راية البقاء ولو لأطول فترة ممكنة ـ فقد كان يرى أن الجلاء دون إعادة تنظيم البلاد على نحو يضمن عدم عودة الإستبداد القديم والفوضى الداخلية ، أمر مستحيل . لكن الحرج زال على كل حال بقيام الثورة المهدية كما سبق أن أشرت ـ وأصبح من الممكن إطالة أمد البقاء فى مصر طالما استمر السبب فى البقاء قائماً .

ومع هذا فإن تغير السياسة البريطانية تجاه مصر بسقوط جلادستون وتولى سولسبرى الوزارة فى يونيو ١٨٨٥ ـ واتجاه الأخير نحو إيجاد حل للمسألة المصرية ـ لم يؤد إلى حل هذه المشكلة . فقد شرع الرجل فعلاً فى محاولة التسوية ، وعين السير هنرى درومندوولف للتباحث عام ١٨٨٥ مع الغازى مختار باشا حول قضايا عديدة ، من بينها تحديد موعد مناسب لإنسحاب بريطانيا من مصر . لكن فشل المفاوضات لإعتراض فرنسا وروسيا على نتائجها عام ١٨٨٧ واكبه تغير كبير فى أفكار سولسبرى ـ الذى بدأ يتبنى سياسة فحواها إمكانية الاحتفاظ بالتوازن الأوروبى وفى نفس الوقت إيجاد موضع قدم لمصالح بريطانيا فى أفريقيا التى ستكون محط أنظار أوروبا ومجال التنافس من أجل تكوين المستعمرات ـ وهذا الفكر الجديد كان يؤدى إلى إعادة النظر فى أهمية مصر الحيوية بالنسبة لبريطانيا لوقوعها على طريق المواصلات إلى الهند .

لذلك فإنه يمكن القول أن نظرة بريطانيا نحو قضية الإنسحاب من مصر بدأت تأخذ منعطفاً جديداً بعد فشل مفاوضات (درومندوولف ـ مختار) عام ١٨٨٧ ـ منعطف تمثل فى إعادة النظر فى مسألة ترك مصر ـ بدا أثره فى التسليم بمطالب (كرومر) من ضرورة إفساح المجال له وإطلاق يده فى أمور مصر .

ويبدو ذلك واضحاً من رصد مظاهر إدارة كرومر فى مصر بعد عام ١٨٨٧ ، فقد أصبح هو الحاكم الفعلى للبلاد التى كان خديويها لعبة فى يده ، ونوبار يؤيد إحتلاله بقوله (أنا مع الاحتلال ، ولكن ليس الإحتلال الإدارى) . ويكفينا الفقرة الأولى من إعلانه لنعرف موقفه من الوجود البريطانى فى مصر .

أصبح المعتمد البريطانى يختار منفذى سياسته من المعاونين الإنجليز ، وشكل هو والمستشار المالى والمستشار القضائى ثالوثا يحكم من (قصر الدوبارة) ـ وتدفقت على مصر أعداد كبيرة من الإنجليز ليشغلوا وظائف

الهندسة والقضاء والمالية والبوليس والجيش والإدارة والتعليم والصحة والمرافق العامة ـ وليديروا الوزارات والمصالح المصرية وفق تعليمات مهندس الإصلاح (كرومر)الذى كانت نصائحه ـ وفق تبليغ (الإيرل جرانفيل فى يناير ١٨٨٤) ـ أوامر لا ترد ـ صحيح أن الهيمنة الإنجليزية لقيت خلال الثمانينيات وأوائل التسعينيات بعض المقاومة لكنها كانت مقاومة لا تذكر وتتعلق بقضايا محددة (إخلاء السودان ١٨٨٤ ـ أزمة جهاز البوليس فى عهد نوبار (١٨٨٤ ، ١٨٨٧) ـ أزمة المستشار القضائى (سكوت) فى عهد رياض) إلا أن هذه المقاومة لم تحل على الاطلاق بين المعتمد البريطانى وتطبيق سياسته الحديدية على مصر .

ولقد ساعد على إزدياد سيطرة كرومر وإشتداد قبضته ، نظام الحكم الذى وضع لمصر بعد الاحتلال ـ سَلطة فردية تتمثل فى الخديوى ـ مجلس نظار ذو دور استشارى ـ صورة شكلية للحكم التمثيلى عبارة عن مجالس نيابية يتحدث فيها أصحاب المصالح فى البلاد دون إلتزام من جانب الحكومة بأى من آرائهم . فكانت هناك (مجالس المديريات) و(مجلس شورى القوانين) و(الجمعية العمومية) . ورغم ما قرره القانون الأساسى لهذه الهيئات النيابية من حقوق ـ كمناقشة الميزانية دون التعرض للبنود الخاصة بالتزامات مصر الدولية ـ هذا بالنسبة لمجلس شورى القوانين ـ وحق الموافقة على الضرائب قبل فرضها وضرورة الموافقة على القروض العامة ، وشق الترع ومد السكك الحديدية ، وترتيب ضرائب الأطيان حسب أنواعها ، وإبداء الرأى فى المسائل الاقتصادية والمالية والإدارية ، وهذا كله بالنسبة (للجمعية العمومية) ـ إلا أن الحكومة لم تكن ملزمة بشىء تجاه آراء أى من الهيئتين اللهم إلا بموافاتها مجلس شورى القوانين بأسباب رفضها لقراراته . أما مجالس المديريات فقد اقتصرت مهمتها على النظر فى الشئون المحلية فى (المديرية) .

على المستوى الاقتصادى فإن الاحتلال البريطانى حرص على تطبيق سياسة إصلاحية عازفة عن التورط فيما من شأنه المساس بتوزيع المصالح

المادية أو تغيير البناء الاجتماعى القائم فى البلاد ـ وكان فى هذه السياسة يصدر عن حقيقة أن مصر غارقة فى الديون التى يجب سدادها ـ وأن إصلاح المالية المصرية يتعين أن يتم بصورة تحقق التوازن بين الموارد والمصروفات. لذلك فإن حجر الأساس فى سياسته كان تحسين الرى لتحقيق سياسة زراعية تتخصص مصر فيها فى إنتاج القطن وتوسيع الرقعة الصالحة للزراعة.

وعاد نجاح سياسة الرى البريطانية بعائد اقتصادى كبير بدا أثره الرئيسى فى إرتفاع قيمة الأراضى التى كانت تستفيد من أساليب الرى الحديثة إرتفاعاً كبيراً ـ والتى كانت تتمتع بفوائد الرى هذه نتيجة تخصيصها لزراعة القطن فقط. لكن الشىء الذى لم يتنبه إليه المصريون هو أن ذلك المحصول الذى وجهت إليه بريطانيا كل عنايتها بحيث أصبحت مصر متخصصة فى إنتاجه، أدى إلى ربط الاقتصاد المصرى بالسوق العالمى. وهكذا أصبحت البلاد تحت رحمة خطر الإعتماد على المحصول الواحد. بكلمات أخرى فإن تبعية الاقتصاد المصرى للسوق العالمية الخاضعة للسيطرة الأميريالية تأكدت ـ وتواكبت هذه التبعية بالطبع مع هيمنة مالية على اقتصاد البلاد نتيجة (المديونية) التى أخضعت مصر لمؤسسات الرقابة المالية.

هكذا فإن دور مصر الاقتصادى أصبح فى ظل الاحتلال هو دور (الوحدة الإنتاجية المتخصصة فى إنتاج المواد الأولية ضمن إطار تقسيم العمل العالمى).

وفيما يتعلق بالتجارة فقد تركت بريطانيا الباب مفتوحاً للواردات الأجنبية لتغمر البلاد فى ظل مبدأ الحرية الاقتصادية الذى اتبعته فى مصر، وجاءت هذه الواردات متسلحة بجودة أوروبية عالية من ناحية، وبإنخفاض كبير فى الرسوم الجمركية التى كانت الحكومة قد عقدت إتفاقيات بشأنها منذ عام ١٨٨٤ ـ فكانت النتيجة المتوقعة هى التحول الاستهلاكى إلى المنتجات

الأوروبية فائقة الجودة ــ مما أدى إلى بوار الصناعة المحلية وكساد سوق المصنوعات المحلية .

لم يسمح الوجود البريطانى لرأس المال المصرى أن يدخل مجال المشروع الصناعى أو المالى ــ بل أبقاه داخل نظام إقتصادى لايخرج عن توفير المواد الأولية وذلك لربط الممول المصرى بالاستعمار وعدم السماح له بأكثر من دور الشريك الأصغر .

أوكل الاحتلال البريطانى سلطة الحكم إلى فئة الباشوات التركية ، لكنه كبح جماح سلطتهم عن طريق إلحاق أعداداً من المستشارين والمفتشين الإنجليز ــ هم الذين كانت مفاتيح الإدارة والسيطرة فى أيديهم .

هكذا كان شكل الحياة فى مصر حتى عام ١٨٩٢ عندما توفى توفيق فى السابع من يناير ليتولى السلطة بعده ، ابنه (عباس حلمى) ابن الثمانية عشر عاماً .

لم يرق لعباس أن يعيش هذا الجو الاستعمارى المسيطر وهو الشاب المتأجج حيوية ، فسرعان ما اصطدم بوزرائه (الدمى) المنفذين لسياسات المعتمد البريطانى ، واصطدم بالمعتمد البريطانى ورجاله . وسرعان ما التف الشعب حوله كبارقة أمل طالما كان يرنو إليها .

وتوالت الصدامات والأزمات (أزمة النظارة الفهمية يناير ١٨٩٣) و(حادث الحدود يناير ١٨٩٤) ــ وتعددت مظاهر إذلال الخديو الشاب وإفهامه أن البلاد لاتحتمل وجود سيدين فى وقت واحد ــ هكذا كان العقد الثانى من تاريخ الاحتلال البريطانى ، محاولة للاعتراض على الوجود الاستعمارى من جانب الخديو ، وإصرار من جانب سلطات الاحتلال على تأكيد وجودها واستمرار سيطرتها ، ووزارة عميلة تنفذ رغائب الاحتلال وأوامره رغماً عن أنف الخديو .

ومنذ ١٨٩٥ وحتى ١٩٠٨ تولت السلطة نظارة مصطفى فهمى باشا التى تعاونت مع الاحتلال تعاوناً تاماً فاستطاع أن ينفذ سياسته فى عهدها دون أدنى معارضة .

لكن روح المعارضة ظهرت فى التسعينيات ــ وعلى غير المتوقع ــ من مجلس شورى القوانين المسلوب السلطة الذى شرع منذ نهايات ١٨٩٣ يبدى إهتماماً بالقضايا التى تمس كيان البلاد ــ فاعترض على شغل الأجانب للوظائف العالية ، واعترض على مصروفات الجيش والبوليس ، وطالب بالحد من الوجود الأجنبى فى الجهازين ، وإنقاص الإشراف الإنجليزى فى مصالح الحكومة ، واستبعاد أو تقليل الوجود الأجنبى فى مجلس بلدى الإسكندرية ــ وإنقاص إعتمادات بعض المصالح التى يشرف عليها أجانب ــ وترشيد الأنفاق ، وتحسين أحوال التعليم .

واعتدت سلطات الاحتلال على كرامة المجلس الثائر بالقبض على رئيسه وبعض أعضائه والزج بهم فى السجن بتهمة شراء الرقيق (حادثة الرقيق يوليو ١٨٩٤) كدرس للمصريين لكى لايتجاوزوا حدودهم فى التعامل مع الاحتلال وسلطاته ــ وشكلت المحاكم المخصوصة عام ١٨٩٥ لمحاكمة من يجرؤون على مقاومة الاحتلال أو التصدى له ــ ولو كانوا أطفالاً ــ وكان هذا النوع من المحاكم هو الذى أجرى مأساة (دنشواى عام ١٩٠٦) .

وظهر مصطفى كامل عام ١٨٩٦ ينفخ فى رماد الحركة الوطنية ويحاول إيقاظها ــ وكون هو والخديو ثنائياً وطنياً رائعاً يقاوم الاحتلال ، واتجه مصطفى كامل إلى فرنسا يطلب العون ــ لكن تخاذل فرنسا أمام بريطانيا فى (فاشودة) عام ١٨٩٨ جعله يتجه نحو الجماهير لتشاركه كفاحه ضد المحتل .

وانضم محمد فريد إلى مصطفى كامل واتخذت الحركة الوطنية ــ بعد إنفصال مصطفى كامل عن الخديو ــ شكلاً جديداً ، فقد انتظم المثقفون من المهنيين حول مصطفى كامل الذى اتخذ من خريجى المدارس العليا دعامة لنضاله هو وحزبه ضد الاستعمار .

ونجحت استراتيجية مصطفى كامل فى العقد الأول من القرن واضطرت بريطانيا إلى العدول عن السياسة الكرومرية المتشددة وسمحت لأهل البلاد بقدر من المشاركة فى مسؤولية الحكم .

وخلال العقد الأول من القرن العشرين ـ ومع تطور الحركة الوطنية المصرية ـ ظهرت الاتجاهات السياسية المتباينة ـ فظهر (حزب الأمة) و(الحزب الوطنى) و(حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) و(الحزب الوطنى الحر) و(الحزب المصرى) ، واتخذ كل حزب لنفسه شرعة ومنهاجاً ـ وكان لكل حزب موقفه من الاحتلال والحياة الدستورية كما كان لكل منها أسلوبه فى معالجة القضية الوطنية .

هكذا كان شكل مصر عندما سجل ميخائيل شاروبيم تاريخها فى الجزء الخامس من (الكافى) . فترة حافلة بالأحداث الجسام : وفاة حاكم خانع ، ولاية حاكم شاب ثائر ، سلطة حاكمة تابعة ، استعمار غاشم جاثم على الصدور ، ممثل مستبد متعجرف للاستعمار ، جهاز إدارى خاضع لأوامر الاحتلال ، احتكاكات مستمرة بين المصريين والأجانب ، نفوذ أجنبى يحتمى بالامتيازات الأجنبية ، قضاء سيطرت عليه قوى الاحتلال ومن والاها ـ حركة وطنية ناشئة ـ اتجاهات سياسية متباينة . . . .

سجل شاروبيم كل ذلك فى هذا العمل الذى بين أيدينا ـ ولعلنا لانكون قد جاوزنا الحقيقة إذا قلنا أن شاروبيم سجل هذا كله بعدالة مدققة . . بل لقد كانت قدراته على معالجة القضايا بأناقة تتزايد كلما زادت القضية التى يعالجها خلافية . وفى مذاق تحليلى مميز عامل شاروبيم التاريخ . صحيح أنه كان كاتباً حولياً Chronicler بدء عمله التاريخى فى الأجزاء الأولى من الكافى منذ بدء الخليقة وقسم تاريخه ـ حتى فى الجزء الخامس ـ عاماً وراء عام وشهراً وراء شهر ـ ويوماً بعد يوم . لكنه كان كاتباً حولياً جديداً Neo Chronicler ـ فقد

تجنب (السجع) الذى كان أحد لوازم الكتابة التاريخية ، واستخدم أداة تعبير محكمة واقتصادية (الأسلوب المباشر) ــ وهى تلك التى اتخذت فى النهاية شكل الجمل القصيرة ذات البناء الاسنادى الموضوعى Subject - Predicate Construction ، مع ربط هذه الجمل واحدة بعد أخرى بصورة متصلة ، ومستخدماً الضم العربى المألوف للزمن باعتباره رابطة العقد الوحيدة . صحيح أن بعض كتابات شاروبيم تحمل بعض التماثل مع التاريخ الحولى العربى (العصور وسطوى) ــ وصحيح أن هناك بعض المقاطع الطويلة التى تصل إلى صفحات ، قد تعطى الإحساس بأن لاشىء ذو أهمية قد حدث سوى مرور الزمن . لكن الفحص المتأنى لكتابات شاروبيم الحولية يكشف حقيقة أن كتاباته كانت أكثر تثقيفاً من كتابات معظم معاصريه .

ناقش شاروبيم الحوادث التاريخية ــ وذهب وراء الأسباب التى وراء الحوادث ، وحلل بوعى وثبات كل ما تعرض له من حوادث .

لكن أهم ما يلاحظ فى كتابات ميخائيل شاروبيم هو حرصه على أن لايذهب بالأمر أبعد مما يلزم ــ فقد فضل ــ كلما كان ممكناً ــ أن يتجنب مخاطر المساءلة عن نقده بالاحتماء وراء من يزعم أنهم الناقدون ــ بكلمات أخرى فقد كان شاروبيم يحرس دعواه الشخصية بالحياد المطلق دون أن يتعرض للأذى . وكان هذا فى حد ذاته أمان وإغراء أكثر لشاروبيم من فكرة المقامرة الغير المحسوبة العواقب . وقد أعطى هذا الأسلوب لشاروبيم مجالاً كبيراً للتحليل والنقد ــ وهكذا فإن آراء وانتقادات شاروبيم وتحليلاته تنسب دائماً إلى (كتاب معينين) ــ (أصحاب التاريخ) ــ (بعض الكتاب) أو (حدثنى صديق ممن أعرفه) أو (قال بعض أصحاب العلم) الخ . . وفضلاً عن هذا فإن شاروبيم كان يعطى تقاريره صفة عدم القطعية كخط رجعة ، لادراكه فى كل الأوقات لما تثيره الموضوعات التى يناقشها من نزاع .

أما عن الموقف الوطنى لميخائيل شاروبيم فيبدو واضحاً من عداءه الصريح للوجود البريطانى فى مصر وممثليه ـ لكن عدائه امتد أيضاً ليشمل رموز وقته من رجال الحركة الوطنية . (فعرابى) عند شاروبيم (زعيم عصابة) دمر بلاده بينما كان ينعم باللذات ـ وجلب عليها الاحتلال والشقاء الذى تعانيه ـ و(مصطفى كامل) فى رأيه قائد للغوغاء وأهل الحرف والصنائع الحقيرة . و(محمد فريد) عنده (متهوس كبير) ـ أما (الشيخ على يوسف) صاحب المؤيد فهو (كالريح التى مرت على النتن فحملت نتنا) . وقد يلتمس لميخائيل شاروبيم بعض العذر فيما صدر منه نحو (عرابى) ، نتيجة لما ترتب على ثورته من احتلال بريطانى ـ وهو أمر فيه نظر ـ وما ترتب على هذه الثورة من مخاطر المت بطبقة الأعيان التى كان شاروبيم منها ـ لكن العذر فى حالة (مصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف) يصبح صعب التدبير .

ولقد كان لموقف شاروبيم هذا من رموز العمل الوطنى أثره الواضح فى موقفه فى النصف الثانى من التسعينيات من الوجود البريطانى ـ إذ نلحظ باستغراب شديد موقفاً جديداً يتسم بانهزامية شديدة ، وسلوك تبريرى واضح يبدو فى مناسبات غير قليلة ، فهو يهاجم زعماء الحركة الوطنية لمعارضتهم للوجود البريطانى ، ويدعو مواطنيه إلى عدم الانسياق وراء ما سماه بمهاتراتهم ، وحول هؤلاء الزعماء أثناء ذلك من (دعاة) إلى (أدعياء) ، وينصح بالإستسلام للوضع القائم وعدم مقاومته توقياً لجلب المشاكل وسوء الظن بالبلاد من جانب الغرب ـ كما أنه كان لايخفى مقته لفرنسا وسياساتها المعارضة لإنجلترا ويقول عنها أنها (جعجعة بغير طحن) .

وقد اختلف هذا الموقف من جانب شاروبيم عما كان عليه موقفه وقت كتابته (للرقيب) أو فى النصف الأول من التسعينيات فى العمل الذى نحن بصدده ـ فهل كان هذا راجع ليأس واستسلام من جانب الرجل لوضع استقر وسيطر ولم يعد يرى إمكانية التخلص منه ـ أم أن هذا كان حقداً على زعماء الحركة الوطنية بلغ حد اختلاط الأمور عليه؟

أيضاً فإن القارئ يستطيع أن يلمس هذه الروح عند شاروبيم فى مجال معالجته لقضايا مقاومة الاستعمار فى أماكن أخرى غير مصر . ويشعر المرء بنوع من الميل والانحياز عند الرجل ، للقوى الاستعمارية التى تواجه ثوار البلاد المقهورة .

ومن الأمور التى تحسب على ميخائيل شاروبيم إعجابه الواضح (بنوبار) رئيس النظار لأكثر من نظارة فى تاريخ مصر القرن التاسع عشر ، مع ما هو معروف عن الرجل (نوبار) وصنوه (رياض) من أنهما وغدان تاريخيان (historical villains) . وأحسب أن على المؤرخ لسيرة ميخائيل شاروبيم أن يغوص فى حيل أكروباتية بارعة لإختيار المبررات التى تصلح سببا لموقف الرجل من رموز الحركة الوطنية فى مصر ، أو حركات المقاومة للاستعمار فى الخارج ، أو إعجابه الشديد (بنوبار) .

هناك أمران جديران بالتسجيل فى شأن العمل الذى نحن بصدده ــ أولهما أن (الكافى) لم يكن تاريخاً سياسياً فقط ، فقد حرص ميخائيل شاروبيم على تسجيل كل الحوادث والمظاهر الاجتماعية خلال الفترة موضوع الدراسة ــ فأرخ للاحتفالات الشعبية والدينية ، مواكب طوائف الحرف ، عودة ركب المحمل ، ركب الحج ؛ سجل للكوارث الطبيعية كالفيضانات والزلازل والأوبئة التى كانت تلم بالبلاد ــ وصف مظاهر التقدم الحضارى التى شهدتها مصر فى زمنه ، فأرخ لمد خطوط الترام فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، وإنشاء خزان أسوان ، وإنشاء المصارف فى مصر ، وصدور العملات النقدية الورقية ــ وتحدث عن المجتمع المصرى وشرائحه ، والحراك الاجتماعى بداخله ــ وكتب عن الجريمة ومعدلات الزيادة والنقص فيها ، وناقش الأسباب المؤدية للزيادة بشجاعة تحسب له ــ وإن كنا نختلف معه فى أسبابه علمياً وفنياً .

أما الأمر الثانى فهو حرص ميخائيل شاروبيم على استخدام مصطلحات لاتتناسب وعصره فى تاريخه (الكافى) ــ فالبوليس هو (الشحنة) ، ورجال

البوليس هم (أصحاب الشحنة) ، وقائد البوليس هو (صاحب الشحنة) ـ وكبار موظفى الحكومة هم (أصحاب الخطط) ـ والمشايخ ورجال الدين هم (أصحاب العكاكيز) ـ والمجلس النيابى هو (دار الندوة) ، ورئيس الوزراء هو (صاحب السياسة) ، ووزير الحربية هو (صاحب ديوان الجيوش) . وقد صبغ هذا الأسلوب كتابات شاروبيم بنوع من (الكتابة التاريخية الجافة) فى وقت كان الإحساس من جانب المثقفين بأن الأشكال الكلاسيكية للتعبير لم تعد ملائمة للاحتياجات الأدبية الحديثة . ومن المستغرب أيضاً أن ميخائيل شاروبيم قد حرص على استخدام هذا الأسلوب الكلاسيكى فى الكتابة فى وقت كان التطور السريع للصحافة فى مصر قد وفر قوة دافعة لحركة الإصلاح اللغوى بدت آثاره فى تفشى الأسلوب الواقعى الصافى الصحفى فى الكتابات التاريخية . ومن يقرأ أعمال (مصطفى كامل) و(قاسم أمين) يستطيع أن يتبين هذا التأثير فى التغيير الأسلوبى الذى ساعد على إخراج ما أصبح معروفاً (بالأسلوب المباشر فى الكتابة) .

ومرة أخرى فإنه ليس من المتيسر تفسير أسباب لجوء المترجم إلى هذه الأنماط الكلاسيكية التى كان معاصروه من المؤرخين قد نبذوها إلى غير عودة .

وبعد .... فإن هناك الكثير ليقال عن (الكافى) وصاحبه ـ لكن هذا الجزء من (الكافى) قد أسهم ـ فى اعتقادى وأرجو أن أكون مصيباً ـ فى تسليط الأضواء على أحداث كثيرة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، وأعاد رسم صور جديدة لحوادث كانت مرتسمة بشكل أو بآخر فى أذهان البعض من المشتغلين بالتاريخ لمصر .

دكتور عبد الوهاب بكر

مصر الجديدة فى ١٨/١٠/١٩٩٤

الفصل الأول

عام ١٨٩٢

وفاة الخديو توفيق

ولاية الخديو عباس حلمى الثانى

أزمة الفرمان

أزمة السيطرة علي جهاز البوليس

أزمة المجلس الملى

نفي الأنبا كيرلس الخامس

الإضطرابات فى شرقى السودان .

الجـزء الخامـس
وأوانه ولاية الأمير عباس حلمى الثانى
وما جرى فى أيام ولايته من الاحداثات
عام ١٨٩٢

قال أصحاب الكلام إن الملك لايحصل إلا بالمطالبة ، والمطالبة غايتها الغلب والملك ، ولذا فيكون من المحتم على صاحب السلطان المغلوب على شأنه أن لايقصِّر فى المطالبة القوية بلسانه ويده ، لأنه إنما هو يطلب حقًا وسلطاناً قد سلمه الله إياه وأمَّنَه عليه وصرفه فيه بالقسط ، فلا يحل له التفريط فيه ، ولا العبث به ، ولا جعله معرضاً لإنتهاز الفرصة من الطامعين ، ولاهدفاً ضعيفاً يخرق سياج هيبته . فإن قصر فى شىء من ذلك فقد عرض نفسه لكل مظنة ورمية ، وطوح بها إلى مهواة الزوال ، فيذهب فى سبيل ذلك مأزوراً غير مأجور .

قال الإمام على بن أبى طالب : أمران جليلان لايصلح أحدهما بالتفرد ولايصلح الآخر بالمشاركة وهما الملك . والرأى[1] . فكما أنه لايستقيم الملك بالمشاركة لايستقيم الرأى بالإنفراد أ . هـ قلت ولايخفى على كل ذى بصيرة ما وراء اختلاف الأيدى وتباين العادات على الرعية ، ولاسيما فى الأحكام ؛ فقد يفضى ذلك إلى فساد العمران ، واضطراب الرعية ، فتحتم على صاحب الملك والسلطان ركوب الصعاب ومحاولة الأخطار فى دَفْع

---

(١) الصحيح أن يقال الرأى والملك وليس العكس .

هذا الفناء عن سلطانه ، ومَنْع المفاسد عن ملكه ، وزَجْر المغرض لها . فإذا كان محجوراً عليه ، مغلوباً على أمره ، لا كلمة له ، ولاجند ، ولاسلطان ، ولاحاشية ، ولامدبرين ، فلا يقدر على شيء من كل ذلك ، ولا يأمن الذل ثم الفناء .

وهذا كان حال الخديوى توفيق ، رحمه الله ، مع أصحاب الوظائف من رجال دولته ، أيام رئاسة الرئيس مصطفى رياض باشا[٢] إلى دخول الإنجليز ،

(٢) مصطفى رياض باشا(١٨٣٤ ـ ١٩١١) . هو مصطفى رياض بن اسماعيل أفندى الوزان بن أحمد الوزان بن حسن الوزران . ولد فى القاهرة ، وكان أبوه ناظرا لدار سك النقود(الضربخانة) المصرية . تخرج فى مدرسة المفروزة العسكرية ، والتحق منذ صباه بالوظائف فدخل خدمة الحكومة كاتبا بديوان المالية فى يناير ١٨٤٨ ،ثم التحق بوظيفة كاتب بالمعية فى عام ١٨٤٩ ،ثم إنضم إلى فرقة الموسيقى برتبة ملازم ، وترقى لرتبة اليوزباشى(نقيب) فى وقت قصير ـ فرتبة صاغقول أغاسى (رائد) ، فرتبة البكباشى(مقدم) . فى سنة ١٨٥٢ عينه عباس الأول(١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) ياورا(مرافق عسكرى) بمعيته ، ثم شمله برعايته فارتقى إلى رتبة ميرألاى(عميد) وتولى وظيفة المهردار(حامل أختام الوالى) . عين مديرا(للجيزة وأطفيح)ـ وفى عهد إسماعيل(١٨٦٣ـ ١٨٧٩) كان عضوا فى المجلس المخصوص (يماثل مجلس الوزراء الآن) . تولى منصب ناظر(وزير)الداخلية فى نظارة نوبار المسئولة الأولى(أغسطس ١٨٧٨ـ ٢٣ فبراير ١٨٧٩) . ثم جمع بين نظارة الداخلية والحقانية (العدل) فى نظارة الأمير محمد توفيق (١٠ مارس ١٨٧٩ـ ٧ إبريل ١٨٧٩) . فى سبتمبر ١٨٧٩ تولى رآسة النظارة(٢١ سبتمبر ١٨٧٩ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) وهى الوزارة التى وقعت فى عهدها حوادث الثورة العرابية(٩سبتمبر ١٨٨١) ، وفى نظارة محمد شريف باشا(٢١ أغسطس ١٨٨٢ـ ١٠يناير ١٨٨٤) تولى المترجم نظارة الداخلية إلا أنه قدم إستقالته منها فى ١٠ ديسمبر ١٨٨٢ لاعتراضه على الرحمة التى لقيها الثوار العرابيون فى محاكمتهم وتخفيف الأحكام الصادرة ضدهم من الإعدام إلى مصادرة الأملاك والنفى المؤبد . فى ١٨٨٨ شكل مصطفى نظارته الثانية(٩ يونية ١٨٨٨ـ ١٢ مايو ١٨٩١) . وعندما حدثت(أزمة النظارة الفهمية) فى يناير ١٨٩٣ واعترضت إنجلترا على تعيين حسين فخرى باشا رئيسا للنظارة الجديدة ـ كان البديل لحل الأزمة التى نشبت بين الخديو عباس حلمى(١٨٩٢ـ ١٩١٤) والمعتمد البريطانى ، هو تعيين المترجم رئيسا للنظارة فألف نظارته الثالثه(١٩ يناير ١٨٩٣ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤) .

إشتهر المترجم بالميل إلى الحكم المطلق ، ورفض نظام الشورى ، والإذعان للتدخل الاجنبى ، والتعاظم والكبرياء وعدم الاعتراف للشعب بحقوق الرقابة ـ ولقد كان هو العضو المصرى الوحيد في(لجنة التحقيق العليا) فى يناير ١٨٧٨ ،والتى شكلت من ممثلى الدول الأوروبية الدائنة لفحص شؤون الحكومة المصرية المالية .

ويذكر أن ثورة الجيش المصرى بزعامة أحمد عرابى باشا(٩سبتمبر ١٨٨١)قد قامت فى عهد وزارته ـ وكان استبداد هذه الوزراة احد الأسباب الرئيسية فى قيام هذه الثورة

ـ انظر عبد الرحمن الرافعى(الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى)ـ القاهرة ـ مكتبه الأنجلو المصرية ـ القاهره ١٩٦٦ـ الطبعة الثالثة ـ ص ٤٥ ـ ٤٩ .

ـ يونان لبيب رزق(تاريخ الوزارات المصرية) باشراف حسن يوسف ـ القاهرة ـ مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ـ الأهرام ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٥ ـ ص ٨١ .

وكما كان حاله مع السير بارنج[٣] ، عميد الاحتلال ، إلى زوال دولة الرئيس مصطفى رياض باشا . ولقد كان السير بارنج يظهر التجافى عن انتزاع السلطة

(٣) بارنج ـ إفلين بارنج ـ Evelyn Baring لورد كرومر Ist Earl of cromer (٢٦ فبراير ١٨٤١ـ ٢٩ يناير ١٩١٧)ـ قنصل بريطانيا العام فى مصر(١٨٨٣ـ ١٩٠٧) . خدم اولا(١٨٧٧ـ ١٨٨٠) فى مصر كقوميسير فى صندوق الدين ممثلا لبلاده حتى عين مراقبا عاما للدخل عند إعادة نظام المراقبة الثنائية فى١٨٧٩/٩/٤ . فى إبريل ١٨٨٠ ترك بارنج منصبه هنا للسير اوكلاندكولفن Aucland colvin ليعمل فى الهند كمستشار مالى لنائب الملك . وبعد احتلال إنجلترا لمصر رشح المترجم مع آخرين(لورد لانسدون lansdowne)و(لورد دربى Derby) ليكون قنصلا عاما لبريطانيا في مصر وتسلم عمله فى ١٨٨٣/٩/١١ . ينتمى المترجم إلى اسرة بارنج Baring البنكية الشهيرة فى انجلترا ، لكنه لم يكن من المشتغلين بالعمل المصرفى ـ كما أن اسرته لم تكن لها أى إهتمامات مالية بمصر .كان بارنج هو الإبن الثانى عشر من أسرة تتكون من ثلاثة عشر إبنا . عمل والده فى بنك إخوان بارنج لفترة من الزمن ، لكنه ترك هذا البنك فيما بعد بسبب الإسراف فى المضاربة . ورغم أن أسرة بارنج كان لها صلات بالطبقة العليا الإنجليزية ، إلا أنها لم تكن أسرة ثرية .تلقى المترجم تعليمه فى الكلية الحربية الملكية وولويتش wollwich وتخرج برتبة ملازم subaltern فى عام ١٨٥٨ . عمل كضابط مدفعية فى كورفو corfu ثم فى وزارة الحرب البريطانية war office . التحق عام ١٨٦٨ بكلية أركان الحرب وتخرج منها عام ١٨٧٠ .

تغير تاريخ بارنج عندما عين إبن عمه لورد نورثبروك northbrook نائبا للملكة فى الهند عام ١٨٧٢ حيث عينه سكرتيرا خاصا له هناك . فى الهند برزت قدرات أفلين بارنج الإدارية وطبيعته الأتوقراطية . وكسكرتير خاص لنائب الملك فقد تمتع بسلطات مخدومه .

فتحت الوظيفة التى نالها بارنج فى الهند المجال واسعا أمامه فيما بعد . فقد كانت بريطانياتبحث فى عام ١٨٧٧ عن شخص يمثل مصالحها المالية فى صندوق الدين caisse de la Dette الذى أنشئ حديثا فى مصر لحماية مصالح الدائنين الأجانب ، فاقترح لويس ماليت louis Mallet أحد المتعاطفين مع بارنج فى حكومة الهند India office تعيينه فى هذه الوظيفة ، ثم تركها ليشغل بعد ذلك وظيفة ممثل إنجلترا فى نظام المراقبة الثنائية عام ١٨٧٩ .

عندما عاد افلين بارنج إلى مصر كقنصل عام لإنجلترا فى مصر ، كان قد تشبع بما اسمى بالخبرة الهندية ـ Indian experience فى ادارة المستعمرات ، تلك الخبرة التى صاغت اسلوب ادارته فى مصر على مدى الفترة ١٨٨٣ـ ١٩٠٧ . خلال فترة عمله كقنصل لبريطانيا فى مصر كان بارنج هو الحاكم الفعلى للبلاد . ادخل اصلاحات على نظام الرى ، القضاء ، الجريمة ، الأمن ، نظام الادارة ، وغيرها من نظم الحكومة فى مصر ـ ولم يترك للادارة المصرية فرصة لادارة شئون البلاد التى طبق فيها سياستة الإدارية المعروفة(عقول بريطانية وأيد مصرية)ـ وهى سياسة إستعمارية استمدها من الخبرة الهندية . فى ١٨٩٢ منح لقب لورد Ist Earl of cromer واشتهر باسم لورد كرومر .

فى ١٩٠١ كان لوردكرومر قد بلغ الستين من العمر وتدهورت صحته ، لكنه كان راغبا فى البقاء بمصر بنفس صلاحياته . فى ذلك الوقت تحالفت ضده عدة عوامل جعلت من إستمراره فى منصبه كقنصل بريطانيا العام مستحيلا ، فقد بدء يفقد تعاطف وزارة الخارجية مع سياسته المتشددة ، كذلك فانه لم يتنبه إلى تنامى الشعور الوطنى فى مصر فى اوائل القرن العشرين ـ وجاءت حادثة دنشواى فى ١٩٠٦/٦/١٣ لتؤكد تراجع الحكومة البريطانية عن تأييد سياسة كرومر ، فكانت التضحية به أفضل من تعرض مصالحها فى مصر للضرر . فاضطر إلى الإستقالة من منصبه في مايو ١٩٠٧ .=

من الخديوى والاستبداد بها علناً ، وكان يجهد نفسه فى إبعاد هذه التهمة عنه . ولكنه ، والحق يقال ، قد انتزع ثمرتها من الأمر والنهى ، والحلّ والعقد ، والإبرام والنّقض ، واستبد بهذا كله سراً . وكان يوهم فيها المعارضين من أصحاب سياسات الدول أنه إنما هو مشير للأمير ، آخذ بأمره ، منفذ لأحكامه ، وليس له من صبغة الرئاسة والتصرف فى حكومة البلاد شيء .

وعندى أن التصرف والاستبداد بالأمر قد بلغ يومئذ ما وراء الغاية . فقد بات طوع أمره جباية الأموال ، وتقدير الخراج ، وفرض الفُرَض ، وإنشاء الترع والجسور ، وحماية الثغور ، وإرهاب الحكام والتصرف فى سائر الأحكام ، وقلب كل دستور . لا يد فوق يده ، ولاكلمة تعلو كلمته . وهذا هو معنى الغلبة والتسلط وحقيقتها علىَ المشهور عند أصحاب الكلام ، إذا لم نقل معنى الملك وحقيقته ، والملك لله الواحد القهار[٤] .

= انظر روبرت تيجنور Robert i. Tignor

Modernization and British colonial Rulein Egypt.1882-1914, princeton university press - princeton studies on the neareast USA - 1966. pp.,57 - 58 - 59 - 60 - 61.

ـ عبد الرحمن الرافعى(الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى)ـ مرجع سبق ذكره ، صـ ٣٩ـ ٤٠، ٥٠ـ

- Lexicon Universal Encyclopedia - Lexicon Publications. Inc. Newyork, N.y. 1983, Vol. 5. P., 357

ـ عبد المنعم الجميعى(الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) ـ القاهرة ـ دار الكتاب الجامعى ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٢ ـ ص ١٩٧ ، ٢٠٤

ـ عبد الرحيم عبد الهادى على(دور الخديوى عباس حلمى فى السياسة المصرية ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤) رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ١٩٨٧ ص ١٨ حاشية ٢ .

(٤) يكشف المؤلف فى هذه السطور عن رأيه الواضح والصريح فى شخصية لورد كرومر ـ فيبين أنه كان متصرفا ومستبدا بالامور ، متحكما فى جباية الأموال وتقدير الضرائب ، وفرض المصروفات ، وادارة الشئون الادارية للبلاد ، وإرهاب الحكام وقلب الدساتير ـ ومجمل حديث شارويبم أن كرومر كان هو الحاكم الفعلى للبلاد ، لا يد فوق يده ، ولا كلمة تعلو كلمته .

والمؤلف هنا ينتقد الخديو محمد توفيق نقدا مراً لخضوعه لقهر كرومر له وحجره عليه وتقييده لسلطته طوال فترة حكمه خلال عهده(١٨٨٣ـ ١٨٩٢) .

قبض الخديوى توفيق ، وهو يبرأ إلى الله مما حل بالبلاد على يديه ، ولعله كان يقول أن طريقه فى ما فعل هو الحق لا الباطل ، وأن فى تنكيله بالرئيس مصطفى رياض باشا ، ومحاربته لثوار العرابيين ، واستنجاده بجند الإنجليز ، لم يكن لقصد خفى ، أو لإيثار حقد ، كما قد يوهمه مُتوهِّم ، وينزع إليه الخصوم ، وأنه لم يكن يقدر على أن يدفع عن نفسه إلا بركوب هذا المركب الخشن ، لأن طبيعة الملك تقضى بالإنفراد بالمجد ، والترفع عن المشاركة أو المساهمة . فكل ما وقع من تلك الكواين كان وقوعه طبيعياً ، ساقته الحوادث بطبيعتها ، وأنه لم يكن يخطر له على بالٍ أن دولة الفرنسيس التى حشدت جيوشها فى مدينة طولون ، وأعدت للحرب عُدَّتَها الكاملة على ظهور السفن وشوانى النقل الكبار ، وأوقفت أسطولها أمام مدينة الإسكندرية كى لا تمكن الإنجليز من الإنفراد بالأمر ، تعود فتترك البلاد يوم الكريهة تتخبط بمكانها من الفتنة ، وتعرض عن استطالة دولة الإنجليز وتغلبها على مصر وأهلها . كما لم يخطر له على بالٍ أن دولة الإنجليز ، نصيرة الضعفاء ومعهد العدالة والحقانية ، التى سيَّرت أسطولها العظيم لكسر سورة الثائرين ، وأنزلت جيوشها لكبح شكيمة العرابيين ، وأقسم له كبارها وأصحاب الرأى المتبوع فيها أنهم لا يحولون ولا يزولون عن عدالتهم ، ولا يطمعون فى شىء من ملكه ولا سلطانه وأنهم دافعون عنه مؤيدون لعرشه . أقسموا له بالإيمان المغلظة ، ثم يعودون فيضربون بأيمانهم عرض الحائط ، ويُجْمعُون المرة بعد المرة على الاستبدال منه بولى عهده ، أقول إن لم يكن قد قال هذا وغيره فى حديث سهاده وسمير ليله ، فيكون ما اتهمه به خصومه من التحالف مع صاحب السياسة الإنجليزية على أن لا يكون له بعد إرجاعه إلى عرشه إلا صفة الوالى المقيد بقيود التابعية للدولة الإنجليزية ، ويكون ما رماه به أولئك الخصوم أمراً واقعاً لاشك فيه ، كما فشت القالة بذلك يوم دخوله فى

موكبه مدينة القاهرة ظافراً منصوراً ، وكان عجزه ، رحمه الله ، مقطوعاً به ، والله سبحانه يقول الحق وهو يهدى السبيل(٥) .

(٥) يحاول المؤلف هنا أن يلتمس للخديو توفيق العذر فيما تسبب فيه او فى دوره فى تاريخ مصر السياس خلال فترة حكمه ، من الإستنجاد بالقوى الأجنبية وقبول الإحتلال البريطانى والتنكيل بالعناصر الوطنية . ويبرر شاروبيم مسلك توفيق بما تعرض له ملكه من خطر الزوال ـ وكيف أنه كان يحاول الدفاع عن ذلك الملك الذى ورثه عن أبيه إسماعيل ، وأنه عندما طلب المساعدة الأوربية لم يكن يتصور أن تترك فرنسا الساحة بعد ذلك خالية لبريطانيا لتلتهم مصر ، وتقيده بعد ذلك بقيود التبعية ، والحق إن ماضى توفيق قبل أن يتولى الحكم لم يكن فيه ما يسترعى النظر ، او يدل على إتجاه معين فى سياسته ـ لكنه وقد شهد خلال فترة حكم أبيه المتاعب التى سببها له إسرافه ، وتدخل الدول الأوربية فى شئون مصر الداخلية خلال الفترة(١٨٧٥ـ ١٨٧٩) ، فقد كان هذا يبعث على الأمل فى أن يحيد عن الإنحراف ، على أن العامل الأهم فى حياة توفيق كان هو ضعف شخصيته وتردده وضعف رأيه ، وقلة شجاعته وحزمه ،

إستشعر توفيق الخوف من النفوذ الأوربى منذ الأيام الأولى لتوليه السلطة ، فنزل على إرادة الدولتين العظميين(بريطانيا وفرنسا) ، واتخذ من قنصليهما فى مصر مستشارين وناصحين له .

ولقد أنقذت الطوابير البريطانية توفيق من عزل محتمل عام ١٨٨٢ ، وأعادته إلى عرشه . وكان وضعه أبعد ما يكون عن الأمان ، وظل دائما هدف العدوان من الطبقات المصرية المتمفصلة ، وظل ألعوبة السلطة البريطانية ،

وفى مقابلة هذه الشخصية الضعيفة المترددة كان هناك إڤلين بارنج المعتمد البريطانى وقنصل بريطانيا العام فى مصرـ الذى كان يدير السياسة البريطانية فى البلاد فى شكل تحقيق أهداف إعادة السيولة SOLVENCY إلى المالية المصرية ، وإصلاح الأدارة ، وفى سبيل تحقيق هذه الأهداف فإن بارنج إستعان بالتبليغ البريطانى إلى الحكومة المصرية فى ٤ يناير ١٨٨٤ والذى قال فيه اللورد جرانڤيل Granville بأنه (مادام الإحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر فإن نصائح بريطانيا لمصر لابد أن تتبع ما دامت هذه النصائح تتعلق بإدارة مصر وسلامتها) . وقد ترجم هذا التبليغ والاحتلال العسكري البريطانى إلى سيطرة سياسية ـ بل أن بارنج هدد فى أعقاب تبليغ ٤ يناير ١٨٨٤ بأنه سيقوم بإدارة البلاد بنفسه إذا لم يقبل المصريون سياسة بريطانيا الجديدة .

ولما لم يكن لتوفيق ـ الغير مدعوم سياسيا ـ من مطامح سوى الإحتفاظ بعرشه ، فقد إستسلم للنفوذ الأوربى عامة ، ولسيطرة بارنج بصفة خاصة ولنظامه المسيطر ، وحل بارنج محله فى ادارة البلاد ـ ولم يجرؤ توفيق على مدى الفترة التى عاشها فى ظل نفوذ بارنج أن يعترض على أى جزئية من سياسات المعتمد البريطانى فى مصر .

ـ انظر عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) مرجع سبق ذكره ص ٢٦ ـ٢٧

ـ روبرت تيجنور - R.L Tignor, Ibid _ pp., 20.66. 67.

Afaf lutfi, - al - sayyid - Marsot, Egypt and cromer: A study in Anglo - Egyptian Relaltions (1968) .,london

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٥ ـ ١١٧ .

وصل فى ولاية الأمير عباس ابن الأمير توفيق وما وقع فى توليته من الأحداث

أقول لقد كاد وجه السياسة يتغير بموت الخديوى توفيق(٦) ، وبطمع سلطان الوقت السلطان (عبد الحميد خان ابن السلطان عبد المجيد) فى إعادة الكرة على دولة الإنجليز واستخلاص البلاد منها . فإنه لما تأدى إليه خبر موت توفيق باشا ، رسم إلى الصدر الأعظم(٧) بمراجعة سائر الفرامين السلطانية ، والخطوط الشاهانية(٨) التى برزت فى شئون الديار المصرية وما يحسن الوقوف عنده إذا مات أميرها . وكان عرش الإمارة فى اضطراب ، وجاء الخبر بذلك من دار السفارة الإنجليزية بدار السلطنة العثمانية إلى قونصلهم بمصر ، فشاع وتناقله الناس وقاد إلى هذا الأمر ، عند جماعة الأمراء من البيت العلوى ، نواشىء الغيرة ، ومكامن الحسد الذى بعثه فيهم انتقال وراثه(٩) الإمارة من أعقاب محمد على إلى الأمير توفيق بالعهد من أبيه إسماعيل وإلى ولد

---

(٦) ولد الخديو توفيق فى ٣٠ إبريل ١٨٥٢ وتوفى فى ٧يناير ١٨٩٢ عن اربعين عاما ، وتولى الخديوية المصرية ١٨٧٩ وهو في سن السابعة والعشرين .

(٧) الصدر الأعظم = لقب عثماني يقابل لقب رئيس الوزراء . فى أوائل عهد الدولة العثمانية كان صاحب المنصب يسمى بيرڤان pervane أو بيرڤانجى . وفى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ـ١٤٨١) سمي رئيس الوزراء فى القانون الأساسى للدولة(قانوننامة) وكيلى مطلق ، ثم تعدل الإسم إلى أولو وزير ULU vezir أو(وزيرى أعظم veziri Azam) ثم أصبح الإسم بعد ذلك هو (الصدر الأعظم) .
ـ إنظر عبد العزيز الشناوى(الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها)ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ص ٣٥٧ ـ ٣٧٠ .

(٨) خط شاهانى = قانون أوأمر أو كتاب صادر عن السلطان ـ يماثلها مصطلح(خط شريف) ومصطلح(خط همايون) . وكل الفرق بين الخط الشاهانى والخط الشريف أن الأخير يكون لما يصدر عن السلطان مكتوبا بخط يده وأمضاه بيده لا بخاتمه ، وتعتبر الوثائق الصادرة عن الديوان الهمايونى من معاهدات أو براءات خطوطا شريفة إذا كتب السلطان فى أعلاها أسطر أو كلمات ، وتسمى فى هذه الحالات أيضا خط همايون .
ـ انظر ردهاوس Red House توركچه ـ إنكليزجه لغت كتابى ـ محررى جيمس ردحاوص الإنكليزى ـ Cagari yayinlari ـ يكى طبعى ـ استانبول ١٩٧٨ ـ P.,853 .
ـ أحمد السعيد سليمان(تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل)ـ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٩ ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٩) كان النظام الذى قررته تسوية ١٨٤١ يقضى بأيلولة حكم مصر إلى أكبر أفراد أسرة محمد على وفقا للنظام الذى كان متبعا فى الدولة العثمانية . وفى عهدى عباس(١٨٤٨ـ ١٨٥٤) ، وسعيد(١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) فكر الواليان فى تعديل هذا النظام لصالح أبنائهما لكنهما لم يستطيعا . لكن إسماعيل (١٨٦٣ـ ١٨٧٩) كان أسعد حظا من سابقيه وشرع منذ أوئل عهده(١٨٦٣) فى الإتصال بالدولة =

توفيق من بعده . قيل فكانوا أشد الناس سعياً وراء إفساد هذا الأمر على الأمير عباس ، ولم تعطفهم عواطف الرحم لما وقر فى نفوسهم من الحقد ، ولا وزعتهم أواصر القرابة .

وكان الأمير عباس لما قبض أبيه بعيداً عن مصر بديار النمسا[١٠] ، فطير له الخبر بوفاته والشخوص عاجلاً . فركب من يومه باخرة

= والدول الموقعة على تسوية ١٨٤١ لجس النبض . ولم يكن هناك سوى الأمير مصطفى فاضل أخ إسماعيل غير الشقيق الذى سيكون اول ضحايا التعديل وكان منصبه كوزير للمالية فى حكومة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت يمكنه من النجاح فى إفشال مساعى أخيه . لكن مصطفى فاضل ابعد عن منصبه ورحل إلى فرنسا فى مايو ١٨٦٦ وصل إسماعيل إلى عاصمة الدولة للتفاوض بشأن تعديل نظام وراثة الخديوية المصرية ــ وفى الثامن من الشهر نفسه تم الاتفاق بين إسماعيل ووزراء الدولة على تعديل الجزية التى تدفعها مصر سنويا فتصبح ١٣٠ الف كيس(الكيس وحدة نقدية تركية تساوى خمسمائة قرش فى ذلك الوقت) وفى السابع والعشرين من مايو عام ١٨٦٦ أصدر السلطان الفرمان التالى :ـ

(حيث أننى قد أطلعت على طلبك المرفوع للأعتاب السنية الذى اوضحت فيه أن تعديل قاعدة التوارث المقررة فى الفرمان الشاهانى المؤرخ فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥٣ ومقدم إلى جدك محمد باشا حالة تقليده ولاية مصر بطريق التوارث المشمول ذلك الفرمان بخطى الهمايونى وأن إنتقال الولاية بطريق الإرث من الأب إلى الأبن من صلبه بحسب ترتيب البكورية هما أمران مناسبان لحسن إدارة مصر ونمو سعادة أهاليها . وحيث أننى اقدر من جهه أخرى مساعيك وبذل قصارى جهدك من تقليدك ولاية مصر فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية حق قدرها . وحيث أن مصر هى مقاطعة من مقاطعات مملكتى الأكثر أهمية . وحيث أنك مابرحت حتى الآن تبرهن على أمانتك وخلوصك نحو ذاتى الملوكية . ولما كان من مرادى أن أظهر لك بنوع سنى ساطع عظم ثقتى التامة بك ــ قررت بناء على هذا جميعه أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع إليها من الأراضى وكامل ملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولادك الذكور بطريق الإرث بالصورة نفسها إلى أكبر أولاد ذريتك . فاذا خلا منصب الولاية من والى ولم يترك الوالى المتوفى ولدا ذكرا ينتقل الإرث حيئذ إلى أكبر إخوته وإن لم يكن له إخوة فإلى أكبر اولاد كبير إخوته المتوفين الذكور . هذا القانون التوارث الواجب إتباعه من الآن فصاعدا فى مصر ....

ــ ووفقا لهذا الفرمان أصبح حكم الولاية المصرية محصورا فى نسل إسماعيل فقط بحيث يرث الحكم الإبن الأكبر فالإبن الأكبر لهذا الأبن وهكذا . وقد ظل هذا النظام معمولا به حتى خلعت بريطانيا عباس حلمى الثانى عن عرشه عام ١٩١٤ وعرضت الحكم على عمه حسين كامل بلقب سلطان فقبل . ومع وفاته عام ١٩١٧ عرض الحكم على أخيه أحمد فؤاد فقبله وأصبح سلطانا حتى عام ١٩٢٢ عندما تغير لقبه إلى ملك ، وورثة إبنه الوحيد فاروق فى عام ١٩٣٦ .

انظر فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ــ المجلد الخامس .

ــ عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) الجزء الأول ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

(١٠) إلتحق عباس(١٨٧٤ــ ١٩٤٤) بمدرسة عابدين التى أنشأها والده فى ميدان عابدين فى عام ١٨٨١ ، وفى عام ١٨٨٥ أرسله والده مع شقيقه محمد على إلى أوروبا حيث التحق بمدرسة(لانسى) بجنيف ، ثم تركاها بعد قليل إلى نيوشاتل بسويسرا والتحقا بعد ذلك بمعهد تريزيانوم الملكى بڤيينا بالنمسا .

انظر جرجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ــ ١٩١١ ــ ص ٣٣٢ ــ٣٣٣

ــ المصور ــ الخميس ٢٩ يوليو ١٩٣٧

قاصداً الإسكندرية . وسير صاحب سياسة الإنجليز كتبه إلى المابين والباب[١١] العالى بالتعجيل فى إرسال فرمان الولاية . فما هى إلا عشية وضحاها حتى برز أمر السلطان إلى (أحمد مختار[١٢] باشا) مندوب

---

(١١) المابين والباب العالى = ما بين كلمة عربية تعنى شيئا بين شيئين ـ إستخدمت فى اللغة العثمانية للإشارة إلى الهيئة الإدارية التى تتوسط العلاقة بين السلطان ورجال حكومته ، وهى هيئة من الموظفين الكبار فى الحاشية السلطانية تعمل بمثابة مستشارين للسلطان لكن(المابين) كمصطلح كان يعنى نظام الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية . فقد أطلق على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحريم والبلاط الداخلى . فى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان رجال الحاشية يقومون على خدمة السلطان ـ وكان يطلق عليهم المابينجية ومفردها(ما بينجى) .بمضى الوقت اصبح رجال المابين هم مجموعة المستشارين السياسيين والقانونين وعلماء الدين الذين يشيرون على السلطان فيما يتعلق بالقرارات السياسية . ويمكن أن نطلق على هؤلاء بلغة العصر الحالى مجموعة المستشارين أوصناع القرار السياسى .
غير أنه تجدر الإشارة إلى أن تطور (المابين) من القيام على خدمة السلطان لقص شعره وتقليم أظافره والباسه ولف عمامته ووضعها على رأسه ، إلى القيام بالمهام السياسية إنما ارتبط بالتطورات التى اصابت الامبراطورية العثمانية من الناحية السياسية ، وعلاقات الإمبراطورية الدولية .
لكن هذا التطور فى وظيفة(المابين) إقتصر فى الواقع على رجال(المابين) فى قصر يلدز yıldiz الذى كان السلطان عبد الحميد الثانى(١٨٤٢ـ ١٩١٨) يحكم منه الامبراطورية . اما (مابين) القصور السلطانية الأخرى فقد ظلوا كما كان معنى المصطلح فى بدايته عبارة عن مجموعة من الخدم الخصوصيين للسلطان . وقد حقق(المابين) فى سبعينيات القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد نكث عبد الحميد الثانى لعهوده الدستورية وتعطيله للدستور(المشروطية) وحل مجلس المبعوثان والأعيان ، حقق نفوذا كبيرا على (الباب العالى) مجلس الوزراء ، وانفرد بشئون الحكم .
اما(الباب العالى) فقد أنشىء فى عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ـ ١٦٨٧) ليكون مسكنا رسميا للصدر الأعظم(رئيس الوزراء) ومقرا لديوانه الذى تبحث فيه أمور الدولة
وبمضى الوقت أصبح هذا المقر رمزا لديوان مجلس الوزراء فى الإمبراطوية ـ وعرف فى التاريخ الحديث بالباب العالى sublime porte ، وهو مجلس الوزراء العثمانى .
انظر ردهاوس RedHouse مرجع سبق ذكره ص ١٦٥١,٣١٤ .
ـ عبد العزيز الشناوى(الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها) ـ الجزء الأول ـ مطبعة جامعة القاهرة
مكتبه الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٠ـ ص٣٧١-٣٧٢
(١٢) أحمد مختار باشا (١٨٣٩ـ ١٩١٨) قائد عثمانى مشهور إكتسب شهرة فى معارك الحرب العثمانية الروسية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ (كدكلر ١٨٧٨/٨/٢٥) ومنح لقب (غازى) من قبل السلطان عبد الحميد الثانى لهذا السبب . عندما إتفقت إنجلترا والدولة العثمانية على التباحث بشأن إدخال إصلاحات عسكرية وإدارية فى مصر فى أغسطس ١٨٨٥ ، عينه السلطان مندوبا ساميا لهذه المهمة ، فجاء الى مصر فى ديسمبر ١٨٨٥ وقدم عدة مقترحات تتعلق بالجيش المصرى وإخماد الثورة فى السودان ، رفضها السير درمندوولف Drummord Wollf المندوب البريطانى فى المباحثات فى أبريل ١٨٨٦ . وعندما اتفقت الدولة العثمانية وانجلترا على جلاء القوات الانجليزية بعد ثلاث سنوات فيما عرف باتفاقيه الآستانه (٢٢مايو١٨٨٧) ، عارضها مختاز باشا الذى استمر فى مصر رغم إخفاق =

الباب ، وإلى الرئيس مصطفى فهمى[١٣] باشا ، وهو :

= المفاوضات ، وصرح أن مهمته هى مطالبة انجلترا بالجلاء وهى مهمة لاتنتهى إلا بإتمام هذا الجلاء ، وأنه يعد نفسه إحتجاجا حيا على الإحتلال .
ظل مختار باشا فى مصر حتى عين رسميا مندوبا ساميا للدولة العثمانية فى مصر (١٨٩٥ ـ ١٩٠٦) . بعد انتهاء خدمته فى مصر عاد إلى بلاده حيث اشتغل بالأمور السياسية وانضم فى عام ١٩٠٩ إلى جماعات من المنادين بالتحديث فى الإمبراطورية أمثال عبد الله جودت وجلال نورى .
لكنه لم ينضم الى جماعة الاتحاد والترقى أو الاحزاب الاخرى المضادة وعرف عنه أنه سياسى فوق الأحزاب والسياسة . خلال الفترة ١٩٠٩ ـ ١٩١٢ شغل منصب رئيس مجلس الأعيان . خلال الأزمة السياسية التى صاحبت ظهور وسقوط (جماعة الاتحاد والترقى) عام ١٩١٢ عين السلطان محمد رشاد (١٩٠٩ ـ ١٩١٨) مختار باشا الغازى صدرا أعظما (رئيسا للوزراء) ٢٢ يوليو ١٩١٢ ـ ٢٩ أكتوبر ١٩١٢ .
حاول مختار أن يؤسس وزارة فوق الأحزاب ضم فيها عددا من رؤساء الوزارات السابقين((كامل باشا ، داماد فريد باشا ، حسين حلمى باشا) بهدف توحيد سياسيو الامبراطوية لمواجهة الأزمة الصعبة التى كانت تمر بها بلاده ، ولاضعاف حزب الإتحاد والترقى بابعاد أعضاء الوزارة المتفقين معه .
كانت أهداف أحمد مختار فى الوزارة هى التهدئة لبعض الوقت حتى تعالج القوى العظمى أزمة الهجمات البلقانية على الدولة أو حتى يقوى الجيش العثمانى وتتم تعبئته وفى ٤ سبتمبر ١٩١٢ نجح مختار باشا فى إنهاء الثورة الألبانية . ونجح بعد ذلك فى إنهاء الحرب الطرابلسية مع إيطاليا بعقد صلح أوشى ouchi (قرب لوزان بسويسرا) الذى قضى بجلاء القوات العثمانية من طرابلس وبرقة فى مقابل ترك إيطاليا جزر الدوديكاينز Dodecanse ، والاعتراف بالمركز الدينى للسلطان فى الأقاليم الخاضعة للسيطرة الإيطالية . فى أوائل أكتوبر نشبت الحرب البلقانية الأولى بتحرك مملكة الجبل الأسود إلى البانيا الشمالية وسنجق نوفى بازار وتوالت إعلانات الحرب من جانب باقى دول البلقان ، وأعلنت اليونان ضم كريت اليها رسميا ـ تدهور مركز الجيش العثمانى فى الحرب البلقانية وحاصرت القوات البلغارية ادرنه Edirne ثم حاصرت الجيش العثمانى المتقهقر عند خط دفاعه الجديد فى لوليبورجاز Luleburgaz ثم واصلت تقدمها إلى شطلجه Catalca أخر خطوط الدفاع قبل إستانبول . وبعد شهر من الحرب كانت كل تراقيا Thrace قد سقطت وكان البلغار يحاصرون أدرنه وإستانبول .
تعرض الغازى مختار باشا ووزارته لمظاهرات ساخطة فى كل أنحاء البلاد ، وهاجمه الاتحاد اللبيرالى وجماعة ضباط التحرير ، حتى اضطر إلى الاستقالة من منصبه فى ٢٩ اكتوبر ١٩١٢ ليخلفه كامل باشا(٢٩ اكتوبر ـ ٢٣ يناير ١٩١٣ .
انظر ستانفورد شو ، إيزل كورال شو Stanford Shaw & Ezelkural Shaw & (History of the Ottoman Empire and modern Tyrkey) _ vol . II _ 1808 - 1975 . cambridge University press 1977, pp., 159, 166 , 184 ,146 ,194 ,245 ,279 ,291, 293, 294, 430 .
ـ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٨٨٢-١٨٩٢) القاهرة - مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الثانية - ١٩٤٨- ص٦٩- ٧٥ .

(١٣) مصطفى فهمى باشا (١٨٤٠-١٩١٤) سياسى مصرى شغل مناصب الوزارة ورأسة الوزارة أكثر من مرة . ابن اليكباشى (المقدم) حسين أفندى التركى الأصل . ولد فى جزيرة كريت أثناء إقامة والده بها . تعلم بالمدرسة الحربية بالقلعة وتدرج فى مناصب الجيش المصرى حتى نال رتبة الفريق . عين مديرا للمنوفيه ثم محافظا للقاهرة ، وبورسعيد ، وناظرا للخاصة الخديوية ، وسر تشريفاتى (كبير رجال=

(إنه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا ، اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية إلى الأمير عباس ، ووكالة

= التشريفات) خديوى . عمل ناظرا (وزيرا) للاشغال فى نظارة محمد شريف باشا الثانية (٥ يوليو- ١٨ أغسطس ١٨٧٩) وكان قبل تعيينه يعمل محافظا للاسكندرية . عين ناظرا للخارجية فى نظارة محمد توفيق الثانية (١٨ أغسطس- ٢١ سبتمبر ١٨٧٩) وشغل نفس المنصب فى نظارة مصطفى رياض باشا الاولى (٢١ سبتمبر ١٨٧٩- ١٠ سبتمبر ١٨٨١) وتولى نظارة الخارجية أيضا فى نظاره محمد شريف باشا الثالثة (١٤ سبتمبر ١٨٨١- ٤ فبراير ١٨٨٢) ، وفى نظارة الثورة العرابية التى رأسها محمود سامى البارودى باشا (٤ فبراير - ٢٦ مايو ١٨٨٢) شغل منصبى نظارة الخارجية والحقانية (العدل) وزامل زعيم الثورة أحمد عرابى ناظر الجهادية والبحرية . ثم ابتعد عن العمل الوزارى خلال الفترة (يونيو١٨٨٢- يناير١٨٨٤) ليعود للعمل كناظر للمالية فى نظارة نوبار باشا الثانية (١٠يناير ١٨٨٤- ٩ يونيو ١٨٨٨) . وفى نظارة مصطفى رياض باشا الثانية (٩ يونيو ١٨٨٨- ١٢ مايو ١٨٩١) شغل المترجم نظارة الحربية والبحرية .

شكل مصطفى فهمى باشا نظارته الاولى (١٤ مايو ١٨٩١- ١٧ يناير ١٨٩٢) وبدأ بذلك عهدا من الاستسلام التام والخضوع المطلق لسلطة الاحتلال البريطانى ، وقد كان اختياره اختيارا بريطانيا بكل معنى الكمة ، فإيفلين بارنج Baring يقول عنه أنه (إداة طيعة فى أيدى الممثل البريطانى فى القاهرة ، ولورد ملنر Milner يصفه بأنه (أول رؤساء النظار المصريين المتعاطفين مع الإنجليز بلا تحفظ ، ذلك أنه مقتنع تماما بأن مصر تحتاج إلى الإرتكان إلى دولة كبرى وأنه ليس مثل إنجلترا فى هذا) . وطوال فترة نظارته لنظارة الحربية والبحرية فى نظارة مصطفى رياض الثانية كان يتوارى خلف السردار ويتنازل عن وجوده وكيانه كما وصفته إحدى الصحف الفرنسيه القاهرية .

تسبب مصطفى فهمى بسياسته الموالية للإحتلال البريطانى فى حدوث أزمة النظارة فى يناير ١٨٩٣ . ذلك أنه مع وفاة الخديو توفيق فى السابع من يناير١٨٩٢ وتولى الخديو عباس حلمى الثانى السلطة لدى عودته من الخارج فى ١٧يناير ، قدم مصطفى فهمى باشا إستقالة نظارته إتباعا للعرف الجارى ، فأقر عباس بقاءها . لكن سياسة مصطفى فهمى الخاضعة للنفوذ البريطانى وتبعيته للمعتمد البريطانى لم تسمح للخديو أن يتحمل التعاون معه لأكثر من سنة . استغل عباس حادث ارسال كولز باشا Coles مفتش عموم البوليس فى ذلك الوقت منشورا إلى مديرى المديريات بتعليمات دون أن يطلع الناظر المختص عليه (وكان مصطفى فهمى هو ناظر الداخلية إلى جانب رأسته للنظارة) ليطلب من مصطفى فهمى الإستقالة لكن الرجل وقد كان معتمدا على مساندة المعتمد البريطانى له ، إعتذر عن الإستقالة طالبا إستشارة المعتمد البريطانى أولا .

أقال الخديو مصطفى فهمى وعين حسين فخرى باشا رئيسا للنظار (١٥ يناير ١٨٩٣- ١٨يناير١٨٩٣) . لكن المعتمد البريطانى رفض ذلك وقامت أزمة بين الحكومة الخديوية والحكومة البريطانية ، وأبرق مجلس الوزراء البريطانى إلى وكيله فى مصر بما نصه (إن الحكومة البريطانية تنتظرأن يؤخذ رأيها فى المسائل الخطيره مثل مسألة تغيير النظارة ، وأنه فى الوقت الحاضر لاتبدو أى ضرورة للتغيير ، لذلك لاتستطيع الحكومة البريطانية أن توافق على تعيين فخرى باشا .

تم تسوية الأزمة باستبعاد تعيين مصطفى فهمى رئيسا للنظار ، وتعيين مصطفى رياض باشا فى نظارته الثالثة (١٩يناير ١٨٩٣- ١٥ابريل١٨٩٤) .

شغل مصطفى فهمى منصب ناظر الحربية والبحرية فى نظارة نوبار الثالثة(١٥ أبريل ١٨٩٤- ١٢نوفمبر١٨٩٥) . مع نفور عباس الشديد من نوبار رئيس نظاره لأسباب كثيرة أهمها موقفه المتصلب من مسألة عودة جد عباس ، الخديو السابق إسماعيل من منفاه ليموت فى مصر بعد =

أعمال الحكومة إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعة الوزراء ، إلى حين وصول الخديوى عباس . وانه برفع هذا القرار إلى أعتاب المتبوع الأعظم ، صدرت الإرادة الشاهانية بالموافقة عليه) انتهى بنصه .

= اشتداد المرض عليه ، رغم علم نوبار برغبة عباس فى عودة جده الى مصر ـ إشتدت رغبة عباس فى التخلص من نوبار . ولقد وصلت رغبته هذه حد اقتراح تعيين (مصطفى فهمى) عميل بريطانيا رئيسا جديدا للنظار .

شكل مصطفى فهمى نظارته الثالثة التى تعد أطول الوزارات المصرية عمرا فى تاريخ مصر السياسى (١٢نوفمبر ١٨٩٥- ١١نوفمبر ١٩٠٨) .

ـ شهدت وزارة مصطفى فهمى الثالثة والأخيرة عدة أحداث هامة من بينها :ـ

- إستعادة السودان(١٨٩٦-١٨٩٨)
- توقيع إتفاقية الحكم الثنائى (يناير١٨٩٩) والتى أصبحت انجلترا بمقتضاها شريكا لمصر فى السيادة على السودان .
- حادثة فاشودة(١٨٩٨-١٨٩٩) التى حاولت فيها فرنسا أن تضع يدها على أراضى مصرية فى السودان .
- توقيع الوفاق الودى(ابريل١٩٠٤) بين بريطانيا وفرنسا والذى نفضت فرنسا فيه يدها من اى تداخل فى الشئون المصرية تاركة لبريطانيا الهيمنة الكاملة على مصر .
- تصاعد الحركة الوطنية المصرية بزعامة مصطفى كامل .
- قيام الحياة الحزبية فى مصر (الحزب الوطنى١٩٠٧- حزب الأمة - حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وغيرها) .
- حادثه دنشواى (١٣يونيو ١٩٠٦) .
- حادثه طابا(يناير- مايو١٩٠٦) والتى تنازعت فيها الدولة العثمانية وسلطات الإحتلال البريطانية فى أحقية مصر فى ضم سيناء .
- إستقالة اللورد كرومر المعتمد البريطانى من منصبه فى مايو ١٩٠٧ .
- قيام (سياسة الوفاق) البريطانية التى كان من مقتضاها السماح للعناصر المصرية بقدر أكبر من المشاركة فى إدارة شؤون بلادها- وذلك بتعيين السير إلدون جورست Eldon gorst معتمدا لبريطانيا فى مصر ، وتقاربه من الخديو عباس حلمى .

مع ظهور سياسة الوفاق وغياب (كرومر) المساند لمصطفى فهمى أدرك الأخير أنه لم يعد له مكان فى النظارة ، فقدم استقالته فى ١١ نوفمبر ١٩٠٨ متذرعا بسوء صحته ، وبذلك طويت صفحة هامة من صفحات التعاون مع الإحتلال البريطانى .

ومما يذكر أن الزعيم الوطنى(سعد زغلول) صاهر المترجم بالزواج من ابنته صفية(١٨٩٦)

ـ مذكرات سعد زغلول- تحقيق عبد العظيم رمضان ـ الجزء الأول ـ القاهرة- مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ ص ١٤٣ حاشية٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعى (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ١٨٩٢ ـ ١٩٠٨) الطبعة الرابعة ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٦٢ ـ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ .

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٤ ـ ١٤٦ .

ـــــــــــ (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ـ ١٩١٤) ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠ ـ ص١٨ الأهرام ١٩٥٠/٧/١٢ .

ـــــــــــ (طابا : قضية العصر) القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ ١٩٨٩ـ ص٤٦ .

فاجتمع جماعة الوزراء عند وصول هذا الأمر، وقرروا تبليغه إلى جميع قناصل الدول، وأن يوالوا الاجتماع فى صبح كل يوم حتى يصل الأمير عباس. أقول وسمعت بعض أصحاب المراتب العالية يقول: إنه لما تأدى إلى باب السلطان خبر موت توفيق باشا، عَقَدَ فى الحال مجلساً حافلاً بأصحاب الوظايف وأهل الخطط وكبار رجال الدولة، وتناجوا فى الأمر طويلاً، وذكروا ما لدولة الإنجليز فى ديار مصر من الحول والطول، ودواعى بقائها محتلة للبلاد، وأحوال القائمين بأمرها، حتى لقد أبان لهم السلطان ما فى نفسه من النزوع إلى تضييق دائرة امتيازات الإمارة المصرية(١٤)، وسلبها شيئاً من حقوقها التى ورثتها، وأنه إنما عمد إلى التعجيل بصدور أمره بولاية الأمير عباس إتقاءاً للخطر الداهم، حتى تجيء الساعة فينزع إلى تغيير الأحوال. قال: «لأن سياسة هذا الوقت لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر»(١٥) أ.هـ.

(١٤) كانت الدولة العثمانية قد منحت مصر فى ١٨٤١ حق إدارة شبه جزيرة سيناء وإقامة حاميات صغيرة فى أماكن متعددة بما فى ذلك العقبة- وكان ذلك رغبة من الدولة العثمانية فى تأمين طريق الحج البرى للحجاج المصريين. مع تولى الخديو عباس الثانى مسند الخديوية أرادت الدولة العثمانية استرجاع العقبة ومواقع الوجه، المويلح، ضبا، وشبه جزيرة طور سيناء مستندة إلى أن الحج قد أصبح بحريا ولا حاجة لاسناد هذه الإمتيازات إلى مصر لزوال السبب.
فى فرمان تولية الخديو عباس حلمى الثانى أستبعدت الدولة حق مصر فى إدارة العقبة، ضبا، المويلح، الوجه وشبه جزيرة سيناء. وقد ترتب على ذلك أزمة سياسية عرفت بأزمة فرمان١٨٩٢، تدخلت فيها بريطانيا واضطرت الدولة العثمانية إلى قبول تسوية مفادها جلاء مصر عن العقبة والمراكز الواقعة شرقها (ضبا والمويلح والوجه) فى مقابل إعتراف الدولة العثمانية بإدارة مصر لبقية سيناء من خط يمتد من (شرق العريش إلى غرب العقبة). وتأكد فى المراسلات المتبادلة خلال شهر أبريل ١٨٩٢ بين الخديوية المصرية والدولة العثمانية، وبين الأخيرة وبريطانيا، أن شبه جزيرة سيناء هى (الأراضى المحددة شرقا بخط متجه فى الجنوب الشرقى من نقطة قرب العريش إلى رأس خليج العقبة).
ـــ أنظر يونان لبيب رزق (طابا قضية العصر) مركز الأهرام للترجمة والنشر ـــ القاهرة١٩٨٩ ـــ ص٦٤ ـــ ٦٦.
ـــ عبد الرحمن الرافعى (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ١٨٩٢ ـــ ١٩٠٨) الطبعة الرابعة ـــ القاهرة ـــ مكتبة النهضة المصرية ـــ ١٩٦٢ ـــ ص ٣٢١ ـــ٣٢٢.
- Correspondence respectig the Turco -Egyptian Frontier in the Sinai Peninsula - Egypt No.2 (1906).
- The Times, tuesday, April 17,1906.

(١٥) عندما وقع الإحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر ١٨٨٢ كانت الدولة العثمانية منشغلة بمشاكلها الخاصة وكانت قد فقدت وضعها كإمبراطورية، وأصبحت خارج تصنيف الدول العظمى، ولم يعد لها وزن فى الشئون الدولية. كانت أملاك الدولة قد وقعت منذ منتصف القرن التاسع عشر نهبا للقوى الإستعمارية التي راحت تقتطع منها ماتريد، فاستولت فرنسا على الجزائر (١٨٣٠). ولم تبذل =

أقام الناس ولاحديث الهم إلا انتظار شخوص الأمير وجلوسه على عرشه ، وتخوفهم من نزوع السلطان إلى التطويل فى الأمر والتعليل ، على عادته ، عند وقوع الحوادث الجسام . فلما كانت العشاء الأخيرة من ليلة رابع عشر يناير من السنة ، أى سنة اثنين وتسعين وتسعمائة وألف سنة(١٦) ، وصلت الباخرة التى تقل الأمير إلى مياه الاسكندرية ، وكانت فى انتظارها على ظهر البحر طرادة من طرادات غفر السواحل . فلما بانت الباخرة أطلق ربان الطرادة سهماً نارياً لإعلام أصحاب المراصد بوصولها ، فتنبه إلى ذلك المرابطون

= الدولة أى محاولات جادة لاسترداد هذه الولاية . وفى أول حولية نشرتها الدولة العثمانية سنة ١٨٤٧ لم تكتب ولاية الجزائر في جدول الولايات العثمانية ، وكان هذا إعترافا من الدولة بضياع حقوقها فى هذا القطر . وفى ١٨٨١ لم تحرك الدولة ساكنا عندما احتلت فرنسا تونس . وبالنسبة لمصر فقد تركت الدولة القوى الأوروبية تتدخل فى شئونها دون اعتراض خلال عهود عباس وسعيد وإسماعيل ، وتسللت الإدارات الدولية التى فرضها التدخل الاوروبى على الولاية كالمحاكم المختلطة وصندوق الدين والمراقبة الثنائية والوزارات المصرية التى بها عناصر أوروبية دون اعتراض جاد .

وعندما خلع إسماعيل فى يونيو ١٨٧٩ فإن خلعه كان بناءاً على طلب الدول العظمى (فرنسا وبريطانيا) . وفى أغسطس ١٨٨٢ وافقت الدولة العثمانية على أن تشاركها بريطانيا فى إعادة الإستقرار فى مصر اثناء الثورة العرابية بالقوة . فلما سحقت الجيوش الإنجليزية المقاومة المصرية أبلغت انجلترا السلطات العثمانية بأن الموقف قد حسم وأنه لم تعد ثمة حاجة إلى إرسال قوات عثمانية إلى مصر .

ودخلت إنجلترا مصر فى ١٨٨٢ باسم حماية الخديو والمصالح الأوروبية وبحجة سحق العصيان العسكرى مؤكدة للعالم أجمع أن إحتلالها لمصر هو احتلال مؤقت . ولم تحرك الدولة العثمانية ساكنا إزاء هذا الإحتلال راضية باعتراف إنجلترا بالسيادة العثمانية عليها ، ودخلت فى مفاوضات مع إنجلترا عام(١٨٨٥- ١٨٨٧) من أجل تسوية القضية المصرية . وانتهت هذه المفاوضات بالفشل . واكتفت بعد هذا بإبقاء ممثلها فى مصر (الغازى مختار باشا) كمظهر حى على احتجاجها على الإحتلال البريطانى لولاية من ولاياتها .

وهكذا فإن الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية على مصر لم تبذل أى جهد حقيقى لاسترداد مصر من دولة الاحتلال .

ـــ انظر ارجمندكوران Ercumend Kuran (السيادة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسى للجزائر (١٨٢٧- ١٨٤٧) ترجمة عبد الجليل التميمى ـــ الطبعة الثانية ـــ تونس ١٩٧٤ ، ص٧٦ ـــ ٧٧ .

ـــ أحمد عبد الرحيم مصطفى (مصر والمسألة المصرية) القاهرة ـــ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ ـــ ص٢٧٧ ـــ ٢٩٣ .

ـــ (تاريخ مصر السياسى من الإحتلال إلى المعاهدة) القاهرة- مكتبة سعيد رأفت ـــ ١٩٦٧ .ص٢،٧ ـــ ١٠

(١٦) صحة التاريخ هو ١٤يناير ١٨٩٢ ـــ وقد ترك ميخائيل شاروبيم فراغا لكتابة التاريخ الهجرى ـــ ولكنه لم يكتبه ـــ وهو عام ١٣٠٩ .

بطابية كوم الناضورة[١٧] ، وأبلغوا جماعة الوزراء بالخبر . ولما صارت الساعة السادسة والنصف صباحاً أطلقت طابية القضاء[١٨] ثلاثة مدافع تبشيراً بمقدم الأمير . فاجتازت به الباخرة البوغاز فى الساعة السابعة ، فأطلقت المدافع حينئذ من ساير السفن الراسية فى الميناء ، وظلت الباخرة سائرة حتى رست بين الدارعتين : المحروسة ومحمد على ، فتسلق جميع جند السفن سارية سفنهم ، وجعلوا يهتفون بالدعاء للأمير بين عزف الموسيقى بالنشيد الأميرى . وصعد إلى ظهر الباخرة أمراء البيت العلوى ، والوزراء ، وأصحاب المراتب والخطط ممن حضر للقائه ، فعزوه وهنأوه بالإمارة .

فلما صارت الساعة الثامنة نزل الأمير فى زورق خاص ومعه أخوه الأمير (محمد على) وعمه (الأمير حسين)[١٩] إلى قصر رأس التين[٢٠] ، فأطلقت المدافع من الدوارع المصرية والإنجليزية وجميع القلاع والحصون ، واستقبله الجند بهتاف الترحيب والدعاء ، ولاقاه على السلم

(١٧) طابية كوم الناضورة : إحدى قلاع الدفاع عن الاسكندرية ، وتقع داخل المدينة ولاتطل على البحر ــ يفصل بينها وبين الميناء الغربى للمدينة عدة عوائق تفصلها عن الميناء ــ يقع على جنوبها طابية صالح ، ويقع شمالها الميناء الشرقى ــ أما طابية كوم الوكة فتقع خلفها ــ وتمر سكة حديد الرمل شمال الطابية . ولم تشارك هذه الطابية فى الدفاع عن الإسكندرية فى ١١يولية ١٨٨٢ .
ــ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الانجليزى) مرجع سبق ذكره ص ٣٨٤ ــ ٣٨٧ .

(١٨) طابية القضاء : صحتها طابية الآطه وهى كلمة تركية تعنى (جزيرة) وتنطق أضه ada ــ حرفها المصريون إلى قضاء ، فالقضاء ــ تقع طابية الآطة شرقى شبه جزيرة رأس التين بالإسكندرية ، وشرقى حمام الأنفوشى . وقد تعرضت هذه الطابية للتدمير من جانب مدرعات الأسطول البريطانى فى ١١ يوليو ١٨٨٢ .
ــ ردهاوس Redhouse مرجع سبق ذكره ــ ص١٣٧ .
ــ عبد الرحمن الرافعى (المرجع السابق) ص ٣٨٦ ــ ٣٩٣ .

(١٩) الأمير محمد على توفيق هو شقيق الخديو عباس حلمى ، وابن الخديو محمد توفيق ــ أما الأمير حسين فهو حسين كامل إبن الخديوى الأسبق إسماعيل ، وعم عباس حلمى الثانى ــ وسلطان مصر(١٩١٤-١٩١٧) .

(٢٠) قصر رأس التين بناه محمد على لسان فى داخل البحر بالإسكندرية ، وجدده وأصلحه الملك فؤاد ــ وهو يقابل قصر عابدين فى القاهرة كمقر رسمى للحاكم .
ــ المصور ، الخميس ٢٩يوليو ١٩٣٧ .

قاضى القضاة ، وشيخ الإسلام ، ومفتى الديار[٢١] ، والعلماء ، ومقدم الجيوش

(٢١) كان من بين مظاهر السيادة العثمانية على مصر ، إرسال قاضى عسكر إلى مصر ليتولى شئون القضاء فى الولاية . بدأ هذا النظام منذ عام ١٥٢١ فى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ــ ١٥٦٦) ، وظل هذا المنصب قائما حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان قاضى القضاة هذا أو قاضى عسكر يقضى مدة تتراوح بين سنة إلى سنتين فى منصبه ثم يعود الى الآستانة ليحل محله قاضى عسكر آخر .

كان قاضى عسكر هو أهم شخصية عثمانية بعد الباشا الحاكم وقد تغير لقب قاضى عسكر بمضى الوقت فصار يسمى (مولانا قاضى القضاة بمصر المحمية) وأحيانا كان يسمى (قاضى الديوان) وتارة أخرى كان يسمى (مولانا النائب) .

وفى عهد محمد على (١٨٠٥- ١٨٤٨) ظل قاضى عسكر أفندى أو قاضى القضاة يأتى من إستانبول . ولقد كان محمد شريف أفندى (والد محمد شريف باشا رئيس النظار الأسبق ١٨٢٦ــ ١٨٨٧) قاضيا لقضاة مصر عند مولد إبنه عام ١٨٢٦ .

وعندما تولى إسماعيل خديوية مصر(١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) ، وسعى إلى تقليل مظاهر السيادة العثمانية على الولاية ، اتفق مع الدولة العثمانية على أن تكون تولية قاضى القضاة بأمر من الخديوى ، وأن تكون ولاية هذا القاضى لمدة خمسة سنوات ــ وذلك فى مقابل مبلغ من المال يدفع للدولة . وبناءاً على ذلك إختار إسماعيل (عبد الرحمن نافذ أفندى) وهو قاضى تركى ليتولى وظيفة قاضى القضاة فى مصر ــ وظل هذا القاضى شاغلا لمنصبه لمدة خمسة عشر عاما متصلة حتى وفاته فى الثامن عشر من فبراير عام ١٨٩١ .

ويبدو أن قاعدة اختيار مصر لقاضى القضاة قد أصابها تعديل فى أعقاب خلع إسماعيل ، فقد صدرت إرادة شاهانية (أمر سلطانى) فى مارس ١٨٩١- أى فى عهد الخديو توفيق بتعيين عبد الله جمال الدين أفندى شيخ إسلام (الروملى) قاضيا لقضاة مصر ــ وقد حضر هذا القاضى الى مصر يوم ٣١ مارس ١٨٩١ واستقبل استقبالا رسميا ونزل ضيفا على فخرى باشا ناظر الحقانية فى ذلك الوقت ثم استقبله الخديوى توفيق مقابلة رسمية فى سراى عابدين فى الأول من أبريل ١٨٩١ ، ثم توجه إلى المحكمة بموكب حافل حيث باشر مهام وظيفته .

فى عام ١٨٩٢م كان قاضى قضاة الديار المصرية (السيد عبد الله جمال الدين افندى) يباشر مهام وظيفته فى المحكمة الشرعية الكبرى بشارع بيت القاضى بالقاهرة ــ وكان نائبه هو عبد الكريم أفندى السيوفى ــ وكان أعضاء المجلس الشرعى هم المشايخ عبد القادر الرافعى وعبد الرحمن النواوى وراشد افندى . وفى عام ١٩٠٤ كان يحيى أفندى عبد الرحمن فاضل هو قاضى القضاة ولم يحدث تغيير فى وضع قاضى القضاة التركى حتى تاريخ وضع مصرتحت الحماية البريطانية وعزل الخديو عباس فى عام ١٩١٤ .

ويقصد بشيخ الإسلام منصب شيخ الجامع الأزهر ، وقد كان منصبا مصريا بحتا ، وكان صاحبه يجمع فى بعض الأحيان بينه وبين منصب الإفتاء ــ كالشيخ محمد العباسى المهدى (١٨٢٧ ــ ١٨٩٧) إذ كان شيخا للإسلام (أى شيخ الجامع الأزهر) ومفتى الديار المصرية . وكان والده الشيخ محمد أمين المهدى هو مفتى الديار المصرية الأسبق . وكان السيد مصطفى العروسى شيخا للجامع الأزهر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وفى عام ١٨٩٢ كان الشيخ محمد الإمبابى شيخا للجامع الأزهر (شيخ الاسلام) . وكان الشيخ محمد العباسى المهدى مفتيا للديار المصرية .

ــ أنظر رؤوف عباس حامد(مذكرات محمد فريد ــ القسم الأول ــ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) القاهرة ــ عالم الكتب ١٩٧٥ ص٨٢،٧٩ ، ٨٤ ، ١٧٧ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ .

ــ عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) الجزء الثانى ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ــ ١٩٤٨ ــ مكتبة النهضة المصرية- ص٢١٠ .=

الإنجليزية ، وأمراء البحر ، وقناصل الدول . فلما استقر به المقام طيروا الخبر بوصوله إلى المابين الهمايونى[٢٢] . فجاء الرد من باشكاتب المابين يقول :

«قد عرض لأعتاب صاحب النعم ، والمنة العظمى ، تلغرافكم السامى الأكرم ، المشتمل على وصولكم فى هذا اليوم إلى الإسكندرية ، المعرب عن صداقتكم وعن عبوديتكم ، وعن عرض الشكر والحمد منكم لأعتاب مولانا ملجأ الخلافة السنية . وقد استوجبت مسارعتكم الفخيمة العلية بإبراز دلايل الصدق والشكر ، على هذه الصورة ، إرتياح ومحظوظية الحضرة العلية السلطانية . فامتثالاً للأوامر الرفيعة الشأن المبينة لعالى الالتفات من لدن المقام الجليل الشاهانى[٢٣] قد بادرت بتبشيركم وإبلاغكم ذلك جميعه» . انتهى بنصه .

=ـــ عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) الجزء الأول ـــ الطبعة الثانية ـــ القاهرة ـــ ١٩٤٨ ـــ مكتبة النهضة المصرية- ص ٢٧٩ ، ٢٨٢ .

ـــ ليلى عبد الطيف أحمد (الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى)- القاهرة- مطبعة جامعة عين شمس- ١٩٧٨- ص٢٤٣-٢٤٧ .=

ـــ الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية ـــ الجزء الأول ـــ المطبعة الأميرية ببولاق ـــ القاهرة ـــ ١٩٣٧ .

ـــ لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ـــ ١٩١٤) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـــ القاهرة ١٩٨٤- ص٢٠٤ ـــ ٢١٥،٢٠٦ ـــ ٢١٦ .

ـــ إبراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل لعامى ١٨٩١-١٨٩٢) بدون تاريخ أو مكان الطبع ـــ ص٥٣ ، ٧٠ ، ٧١ .

ـــ أوراق محمد فريد ـــ المجلد الأول ـــ مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ـــ ١٩١٩ ـــ تحقيق عاصم الدسوقى ـــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ١٩٧٨ ص٥٢ .

(٢٢) راجع الحاشية رقم ١١ص٣ من النص .

(٢٣) المقام الجليل الشاهانى : الشاهانى وصحتها شاهانه هو مايتعلق بالسلطان أو صاحب السيادة ، وتعنى ملكى أو سلطانى ـــ واللقب يعنى المقام الجليل السلطانى نسبة إلى السلطان فيقال ممالك محروسه شاهانه أى ممالك محروسه سلطانية ـــ أما شاهانية فهو تحريف عربى لكلمة شاهانه السابق شرحها .

ـــ أنظر ردهاوس Redhouse مرجع سبق ذكره ص ١١١١ ـــ ١١١٢ .

وكان لما وصلت الباخرة التى تنقل الأمير إلى ميناء تريستا[٢٤] ، أرسل الأمير إلى الباب العالى على جناح البرق . رسالة ضمنها خالص الشكر لصاحب الخلافة ، فجاءه الرد بالمدح والثناء .

وما صارت الساعة الثامنة والنصف من صبح ذلك اليوم حتى برز الأمر بعمل التشريف ، وجلس الأمير فى صدر القاعة الكبرى[٢٥] وإلى جانبه أخيه الأمير (محمد على) وجماعة الوزراء فدخل عليهم العلماء والرؤساء الروحانيون ، ومقدم العسكر الإنجليزى ، وكبار الجند المصرى ، ووكلاء الدول الأجنبية ، وقضاة المحاكم على اختلافها ، وجميع أصحاب المراتب ، وأهل الخطط والأعيان والتجار ، فعزوه وهنأوه .

ولما صارت الساعة التاسعة ركب الأمير إحدى مركبات التشريف ، وركب معه عمه (الأمير حسين) ، وسار من قصر رأس التين إلى محطة الباب الجديد[٢٦] ، وخلفه سائر الأمراء والوزراء وأصحاب الوظائف لعهد جده

---

(٢٤) تريستا Trieste : مدينة تقع فى شمال شرقى إيطاليا وعلى خليج تريستا عند رأس البحر الأدرياتيكى وعلى بعد ١١٠ كيلو مترات شمال شرقى مدينة ڤينيسيا Venice . نظرا لموقعها على الجانب الشمالى الغربى لإيستريا Istria على الحدود اليوجو سلافية ، فانها كانت محل تنافس وتنازع بين ايطاليا ويوجو سلاڤيا . يقطن المدينة خليط من الايطاليين والسلوڤينيين ، والكروات ، وبعض الجماعات المتكلمة بالألمانية . خضعت مدينة تريستا للنمسا طوال أغلب الفترة ١٣٨٢ ـــ ١٩١٨ ، وكانت ميناءا إمبراطوريا حرا من ١٧١٩ إلى ١٨٩١ ومع قيام الحرب العظمى ١٩١٤- ١٩١٨ كانت الميناء الرئيسى لامبراطورية النمسا والمجر . إحتلت إيطاليا المدينة عام ١٩١٨ وحصلت عليها رسميا فى العام التالى وفق معاهده سان چرمان Saint Germaine . فى عام ١٩٤٣ سقطت المدينة في يد الألمان . وفى ١٩٤٥ استولى عليها اليوجوسلاڤ . من ١٩٤٧ الى ١٩٥٤ أديرت المدينة وضواحيها كأقليم تريستا الحر ، وقسمت إلى منطقتين تحت الاشراف اليوجوسلافى ، والأنجلو أمريكى . فى عام١٩٤٥ ضمت المدينة وجزء صغير من الإقليم إلى ايطاليا ، وذهب الجزء الباقى الى يوجوسلاڤيا .

انظر Lexicon Universal Encyclopedia- Ibid Vol. 19-p., 297

(٢٥) القاعة الكبرى بقصر رأس التين : كان قصر رأس التين فى ذلك الوقت (١٨٩٢) . وفيما بعد هو القصر الرسمى لخديو مصر فى الإسكندرية ـــ وكان يقابل قصر عابدين فى القاهرة .
- راجع حاشية ٢٠ص٤ .

(٢٦) محطة الباب الجديد : أنشئت فى عام ١٨٧٦ لتكون محطة للركاب من الإسكندرية إلى داخلية البلاد ، وهى نفسها محطة محرم بك ـــ وكان يقوم منها ستة قطارات يوميا تمر على عدة محطات تنتهى بمحطة القاهرة .
ـــ انظر إبراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل) مرجع سبق ذكره ـــ ص ١٧٧ .

إسماعيل . وكان الطريق مزدانا بالأعلام والرياحين ، والناس محتشدون على طوله يمنة ويسرى ، وهم يضجون بالدعاء إليه . فلما بلغ المحطة ركب القطار ، فأطلقت المدافع تباعاً من كل صوب ، فوصل القاهرة فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وركب تواً بين صفوف الجند إلى قصر عابدين[٢٧] ، وكان قد سبقه جماعة الوزراء إلى باب القصر واصطفوا على يمين ويسار الداخل . فما هو أن بلغ ميدان القصر حتى انتظم عقد جماعة المستقبلين من كبار القوم وأهل المناصب ، فترجل ووقف فى باب القصر وحيا الجميع . فتقدم إليه الرئيس مصطفى فهمى[٢٨] باشا وقرأ بين يديه الأمر السلطانى القاضى بولايته الذى وصل على جناح البرق ، فصدحت عند ذلك الموسيقى بالنشيد الشاهانى[٢٩] ، وهتف الجند بالدعاء[٣٠] ، ثم تقدم إليه وكلاء الدول ، وألقى أحدهم بين يديه خطاب ترحيب وعزاء ، فأجابه بالشكر ، ثم صافحهم واحدًا واحدا ، ثم صعد مع أخيه الأمير وجماعة الوزراء والأمراء إلى قاعة التشريف الكبرى ، فتقدم إليه العلماء والمشايخ فعزوه وهنأوه وانصرفوا .

---

(٢٧) قصر عابدين : بنى فى عام ١٨٧٤ فى وسط القاهرة على اطلال قصر كان يمتلكه (عابدين بك) أحد المماليك . ضم اليه إسماعيل مساحات من الأراضى التى تجاوره ، بلغت تكاليف بنائه ٧٠٠,٠٠٠ جنيه . أصبح منذ عهد إسماعيل مقر الحكم بعد أن ظلت القلعة وقصر الجوهرة مقر الوالى حتى عهد محمد على وخلفائه . فى عام ١٩٢٢ أنشأ الملك فؤاد (١٩١٧- ١٩٣٦) قاعة للعرش فى القصر ــ إستغرق إنشاؤها عامين وأصبحت جاهزه للمراسم عام ١٩٢٥ صممت هذه القاعة على الطراز العربى ، وبلغت مساحتها ٤١٦ مترا يمر الداخل اليها ببهو على الطراز الأوروبى صفت على جدرانه صور محمد على باشا ومن خلفه على حكم مصر من ذريته .

- المصور الخميس ٢٩ يوليو ١٩٣٧ ــ مرجع سبق ذكره .

(٢٨) كان مصطفى فهمى باشا هو رئيس النظار وقت وفاة الخديو محمد توفيق ، وتولى الخديو عباس حلمى الثانى ــ انظر حاشية١٣ .

(٢٩) النشيد الشاهانى : السلام السلطانى ، وهو ماكانت تعزفه الموسيقى كالسلام الوطنى فى الوقت الحالى .

(٣٠) الدعاء : كان الجنود يهتفون بعد عزف النشيد الوطنى بعبارة (أفندمز چوق ياشا) أى يعيش أفندينا كثيراً ــ وكلمة أفندينا تعنى ولى الأمر (الخديو) .

ــ انظر رد هاوس Redhouse مرجع سبق ذكره ص ١٦٠ .

وبعد أن استراح الأمير قليلاً ركب مع أخيه فى قلة من الجند وسار إلى قصر القبة[٣١] ، حيث تقيم والدته ، فبات ليلته وقضى باقى نهاره التالى . وعاد يوم الأثنين إلى قصر الإمارة لعمل التشريفة الكبرى . فرفع إليه الرئيس مصطفى فهمى باشا عن نفسه وعن جماعة الوزراء عريضة يلتمسون فيها أقالتهم من مناصبهم عملاً بسنة أصحاب الوزارات فى الممالك الأروبية عند وفاة صاحب الملك ، فرد عليهم رداً جميلاً إلى أن يقول : «واعتماداً على الثقة التى كانت لطيب الذكر المغفور له والدنا بكم ؛ لايسعنا التخلى عن الوزراء الذين اختارهم لذاته الكريمة ، ولذا استصوبنا بقاءكم مع رفقائكم كل منكم فى المسند الذى عهد إليه . وإننا واثقون بأنكم تعاونونا على القيام بهذا العبء الثقيل الذى فوض أمره إلينا» .

أقول وكما كان القوم يرقبون مقدم الأمير ويتخوفون من إبطائه ، فقد باتوا أيضاً يحسبون لإبطاء وصول فرمان الولاية حساباً كبيراً ، وكان أهل بيته والعائشون فى نعمة أبيه أشدهم خوفاً وتطيراً ، وقد أشغلهم ما شاع وتحدث الناس به من أنه لما رست الباخرة التى كانت تقله فى ميناء (تريستا) جاءه الأمر من المابين على جناح البرق بالشخوص إلى دار السلطنة توا لنوال رضاء المتبوع الأعظم ، وأخذ فرمان الولاية من يده . قالوا وأن الأمير لما لم ير له مسلكاً فى هذا الغرض أجاب يعتذر ، وأبحر من يومه إلى الإسكندرية . وقيل أنه جاءه الطلب وهو بويانا[٣٢] ، عاصمة النمسا ، قبل أن يبارحها .

---

(٣١) قصر القبة : بناه ابراهيم باشا بعدالعباسية فى طريق الخانقاه بجوار قبة الأمير يشبك من مهدى الدوادر . آل من بعده إلى إبنه مصطفى باشا ثم اشتراه إسماعيل مع حدائقه وملحقاته في ديسمبر ١٨٦٦ ــ أعاد بنائه عام١٨٦٩ ثم وهبه لابنه توفيق .
ــ محمد حسام الدين إسماعيل (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل ١٨٠٥ ــ ١٨٧٩) رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب جامعة أسيوط ١٩٩٤ .

(٣٢) ويانا : ڤيينا عاصمة النمسا ، وقد درج مؤرخو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على كتابتها هكذا نظرا لأنها بالالمانية تسمى Wien لكن حرف W فى الالمانية ينطق ڤ ــ فيفترض أن يكون نطقها ڤين وليس وين ــ أما كتابتها ويانه فيرجع إلى أن الكلمة تكتب فى الإنجليزية Vienna وبالفرنسية Vienne .
ــ أنظر أوراق محمد فريد ــ المجلد الأول ــ مذكراتى بعد الهجرة - مرجع سبق ذكره ص ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، وأماكن متفرقة .

وبرز الأمر إلى سردار العساكر المصرية بجعل سائر كبار الجند على أهبة حلف اليمين ، أى (يمين الطاعة) ، لعرش الإمارة . فلما كان يوم الأربعاء سابع عشر جمادى الثانية من السنة ، أى سنة تسع وثلثمائة وألف ، اجتمع جميع كبار العسكر ومقدمى الجند من المشاة ، والركبان وأصحاب المدافع ، والمهندسين ، وأصحاب الخدمة ، وهم على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب ، ووقفوا صفوفاً متراصة . وأقبل (الشيخ الإمبابى) ، شيخ الإسلام(٣٣) ، (ويوسف شهدى باشا) ، صاحب ديوان الجيوش(٣٤) . ووقف الشيخ فى مقدمة تلك الصفوف وفى يده صورة يمين القسامة فتقدم نحوه كبار وصغار الضباط وحلفوا كلهم على السيف والمصحف هكذا :

(٣٣) الشيخ الامبابى : محمد الامبابى(١٨٢٤- ١٨٩٦) عين شيخا للإسلام (شيخ الجامع الأزهر) فى ١١ ديسمبر عام ١٨٨١ فى عهد نظارة محمد شريف باشا الثالثة ١٤ سبتمبر ١٨٨١ــ ٤فبراير ١٨٨٢ ــ خلفا للشيخ محمد العباسى ، لكنه عزل من منصبه بعد فشل الثورة العرابية وحل محله الشيخ العباسى ــ وعندما غضب الخديو توفيق على العباسى أعيد الإمبابى لمشيخة الإسلام مرة أخرى ، وكان شيخا للإسلام فى عهد الخديو عباس الثانى .
ــ انظر الكسندر شولش (مصر للمصريين ــ ازمة مصر الإجتماعية والسياسية ١٨٧٨ ــ ١٨٨٢) تعريب رؤوف عباس حامد ــ القاهرة ــ دار الثقافة العربية ــ ١٩٨٣ ــ ص ٢٤٠ حاشية ٦٨ ــ ص٢٤١ وحاشية ٦٩ ، ص٢٤٢ .

(٣٤) يوسف شهدى باشا ، صاحب ديوان الجيوش(١٨٤٠ــ١٨٩٩) مملوك سابق لعباس الأول (١٨٤٨ــ ١٨٥٤) . أوفد فى بعثة فى عهد عباس لتعلم الطب فى برلين ، وكانت سنه أربعة عشر عاما ــ لكنه تحول الى الفنون العسكرية . عاد إلى مصر فى عهد سعيد وترقى فى الجيش واشترك فى حرب الحبشة والروسيا . كان يحمل رتبة اللواء عام ١٨٧٦ . إنحاز الى الخديو توفيق أثناء الثورة العرابية . عين رئيسا لقومسيون التحقيق الذى نظر قضايا العرابيين عند إعادة تنظيم الجيش المصرى . فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٢ كان المترجم قائدا لأحد اللوائين الذين تألف منهما الجيش المصرى الجديد ــ فكان قائدا للواء الثانى المؤلف من الأورط (الكتائب) الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة ، بينما تولى اللواء جرانفيل Granville باشا قيادة اللواء الأول المؤلف من الأورط الأولى حتى الرابعة . كان ناظرا للحربية والبحرية فى نظارة مصطفى فهمى الأولى (١٤مايو ١٨٩١- ١٧يناير١٨٩٢) ، واستمر فى النظارة بعد موافقة عباس حلمى على استمرارها حتى١٥ يناير ١٨٩٣ . كان ناظرا للحربية والبحرية فى نظارة حسين فخرى باشا الأولى (١٥يناير ١٨٩٣ــ ١٨يناير١٨٩٣) كذلك فقد شغل نفس المنصب فى نظارة مصطفى رياض باشا الثالثة ١٩يناير ١٨٩٣ ــ١٥أبريل١٨٩٤) .أما مصطلح صاحب ديوان الجيوش فيقصد به ناظر الحربية والبحرية .
ــ انظر يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ص ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨ .
ــ وزارة الحربية والبحرية ــ المتحف الحربى ــ أورطة البنادق الثانية المشاة ــ القاهرة ــ المطبعة الأميرية ببولاق- ١٩٣٨ ، ص١٧ .
ــ أحمد عزت عبد الكريم (تاريخ التعليم فى مصر ــ عصر عباس وسعيد ــ ١) الجزء الأول ١٨٤٨ ــ ١٨٦٣ . القاهرة ــ مطبعة النصر ــ ١٩٤٥ . ص١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٤٨ .
ــ ألكسندر شولش مرجع سبق ذكره ــ ص ١٨٩ ــ حاشية ٢٢ .
ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ص ١٧٢ .

«أقسم بالله ثلاثاً ، وبكتبه المنزلة عموماً ، وبرسله ، وذمتى ، وشرفى ، وإعتقادى ، أن أكون صادقاً مخلصاً أميناً للحضرة الفخيمة الخديوية ، ولحكومتها السنية ، مطيعاً لجميع أوامرها الكريمة ، ولجميع الأوامر الحقة الصادرة إلى من رؤسائى ، منفذاً لإرادة الجناب الخديوى بالبر والبحر داخل القطر المصرى وخارجه ، معادياً لمن يعاديه ومسالماً لمن يسالمه . مدافعاً عن حقوق بلادى ، ومحافظاً على سلاحى لا أتركه من يدى لعدو أبداً حتى أذوق الحمام والله على ما أقول وكيل[٣٥]» . انتهى بنصه .

فلما أتموا ذلك أقبل الأمير من القصر وعليه لباس الجند وشاراتهم ، ممتطياً جواده ، وخلفه صاحب ديوان الجيوش[٣٦] ، وكبار جند الحرس .

وسار فى محازات الصفوف ، فصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى ، وهتف الجند بالدعاء ثلاثاً . وما زال على هذا حتى مر بجميع الصفوف ، ثم عاد إلى موقف بالميدان قد أعدوه له ، ورفعوا فيه العلم العثمانى ، ووقف تحت ذلك العلم وحوله جماعة الوزراء والكبراء ، فصارت الصفوف تمر أمامه ثلاثاً . فلما أتموها وقف سردار العسكر المصرى[٣٧] أمام الأمير فى حلقةٍ من أركان الحرب

---

(٣٥) لايختلف يمين القسامة الذى كان يقسمه رجال الجيش منذ مائة عام عن يمين الطاعة الذى يقسمه رجال القوات المسلحة المصرية فى الوقت الحالى- باستثناءبعض التعديلات التى استلزمتها ظروف العصر . والقسامة تعنى الأيمان تقسم على الأولياء فى الدم .
ـــ أنظر مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ـــ مكتبة لبنان ـــ بيروت ـــ ١٩٨٧ص٢٢٣ .

(٣٦) صاحب ديوان الجيوش : ناظر الحربية والبحرية يوسف باشا شهدى ـــ راجع حاشية ٣٤ ص٥ .

(٣٧) سردار العسكر المصرى : هو قائد الجيش المصرى ، وكان ذلك الوقت هو الفريق السير فرانسيس جرانفيل باشا Fransis Granville الذى تولى سردارية الجيش المصرى فى أوائل أبريل ١٨٨٥ بعد استقالة الجنرال السير ايفلين وود Evylen wood ، وقد ظل جرانفيل فى منصبه هذا حتى استقال فى أبريل عام ١٨٩٢ ليتولى سردارية الجيش بدلا منه الجنرال هوراتيو هربرت كتشنر (١٨٥٠ ـــ ١٩١٦) والذى كان يشغل وظيفة أدجوتانت جنرال Adjutant General (رئيس إدارة الجيش) .
ـــ انظر وزارة الحربية ـــ المتحف الحربى ـــ أورطة البنادق السادسة المشاة القاهرة ـــ المطبعة الأميرية ببولاق ـــ ١٩٣٨ـــ ص١٣ـــ ١٥ .
ـــ الوقائع المصرية ١١ أبريل ١٨٩٢ .

وهتف[٣٨] بالدعاء للأمير ، فأجابه جميع العسكر ، فشكره الأمير وحيا الجميع وعاد إلى القصر كما أقبل .

وتفشى الخبر فى ذلك اليوم بأن قد أخذ الأمير لنفسه قيادة الجيوش ، وأنه لايلبس من يومه فى المباهاة والولائم الكبرى إلا لباس الجند ، فتحدث الناس فى ذلك كثيراً ، وترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى ، وتطيروا من حشد الجنود فى ذلك[٣٩] .

وظهرت الحركة فى سائر دواوين الإمارة ، وتابع الوزراء اجتماعهم بديوان الوزارة[٤٠] ، وأكثر الرئيس[٤١] من الترداد على قصر الإمارة . وما هى إلا أيام حتى

(٣٨) كان أداء يمين الطاعة للخديو يوم الثلاثاء ٢٦يناير ١٨٩٢ فى ساحة قصر عابدين . وكانت تلك أول مرة يقسم فيها رجال الجيش يمين الطاعة للحاكم . ولما كان الجيش المصرى فى ذلك الوقت تحت قيادة ضباط إنجليز ، ويحتل الضباط المصريون مناصب القيادة الثانوية ، فقد أدى الضباط الوطنيون يمين الطاعة باللغة العربية واضعين أيديهم على القرآن الكريم بين يدى شيخ الجامع الأزهر .
أما الضباط البريطانيون فقد حلفوا اليمين أمام السردار جرانڤيل باشا باللغة الانجليزية ، ثم استعرض الخديو القوات المصطفة راكبا جواده ومتشحا بكسوة الفريق .
ــ أنظر (مذكرات محمد فريد ــ القسم الأول ــ تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص١٠٩ ــ ١١٠ .

(٣٩) حرص عباس منذ أن تولى خديوية مصر على العناية بالجيش الذى كان تحت السيطرة البريطانية والذى لم يكن البريطانيون يسمحون لأى وطنى بالتداخل فى شؤونه أو قيادته .
ويبدو أن عباسا أراد أن ينازل الوجود البريطانى فى مجال السيطرة على الجيش ــ فحرص على ارتداء الزى العسكرى وأكثر من المرور على وحدات الجيش فى أوقات التعليم والمناورات ، وعنى بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم وتدريبهم .
وقد أحدث هذا المسلك الغير مسبوق من جانب خديو مصر أثره السئ عند الضباط الإنجليز ، وعرضوا شكواهم على المعتمد البريطانى الذى دبر وكبار قادة الجيش البريطانيين حادثة يذلون فيها الخديو وينالون من مهابته أمام جيشه لكى تعود لهم السيطرة الكاملة عليه .
وبالفعل فإن أزمة الحدود الشهيرة عام ١٨٩٤ كانت خطة لإهانة الخديو عباس ومنعه من الإقتراب من النفوذ البريطانى فى الجيش المصرى .
- أنظر عبد الرحمن الرافعى (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ .

(٤٠) يكاد يشى إستخدام ميخائيل بك شاروبيم لمصطلح (الوزارة) بأن الجزء الخامس من «الكافى» الذى بين ايدينا قد كتب خلال العقد الثانى من القرن العشرين . فمصطلح (نظارة) هو الذى كان مستخدما للوزارة منذ إنشاء الوزارة المصرية فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ وحتى عام ١٩١٤ عندما انفصلت مصر كولاية عن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها ، ولم يستخدم مصطلح وزارة إلا فى ذلك التاريخ .
- أنظر يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارت المصرية) مرجع سبق ذكره- ص ١٥ .

(٤١) الرئيس : المقصود به هنا رئيس النظار ــ أى رئيس الوزراء .

طيروا الخبر إلى الآفاق بإبطال رسوم الباطنطة(٤٢) المفروضة على النزلاء بسائر البلاد المصرية ، والعونة(٤٣) المعروفة بالسخرة ، وهى تسخير أهل القرى فى إقامة الجسور ، وتطهير الترع والخلجان ، وحفر المساقى ، وإبطال كل ما يتعلق بهذه المحنة من الأحكام ، وما يتبعها من الحدود ، فلم يبق من أذيالها سوى غفارة جسور النيل إبان الفيضان .

واسقطوا أيضاً ثمن الملح إلى ما يناسب حالة الفقراء ، ليبطل تهريب الملح الجبلى ، المعروف بالملح البرانى ، ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً ، وتفاءلوا بالخير وتوقعوا رخاء الأسعار . وجاءت إلى قصر الإمارة رسائل الشكر والدعاء من كل صوب وناحية ، ثم شاع الخبر بعزم الأمير على افتتاح مجلس شورى نواب البلاد(٤٤) . وما هى إلا عشية وضحاها حتى أقبل النواب من بلادهم إلى القاهرة ، وطاف بعضهم على بيوت أهل المراتب العالية مسلمين .

---

(٤٢) ألباطنطة : تحريف عربى للكلمة الإنجليزية Patent وتعنى الإمتياز أو حق ممارسة عمل ما ، أو براءة أختراع . ويقصد بها رسوم الترخيص بمزاولة المهنة .
كانت هذه الضريبة قد صدرت فى ٩ يناير ١٨٩٠ ، وتقرر بمقتضاها منع مزاولة أى حرفة إلا بعد دفع رسوم التصريح بمزاولتها حتى أصدرت نظارة مصطفى فهمى باشا الأولى ١٤مايو ١٨٩١- ١٥يناير ١٨٩٣ قرارها (بإبطالها) .
- أنظر (مذكرات محمد فريد القسم الأول تاريخ مصر من ابتدا سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره - ص٨١ ، ١١٠ .
- جابرييل باير Gabriel Baer
Studies in the Social History of Modern Egypt .
ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال (دراسات فى التاريخ الإجتماعى لمصر الحديثة) مكتبة الحرية الحديثة - جامعة عين شمس ١٩٧٦ - ص ٣١١ .

(٤٣) العونة : هى السخرة Corvee ، وهى العمل غير المأجور الذى كان المصريون يؤدونه الزاميا بنص القانون . فقد كان من حق الحكومة قبل عهد عباس الثانى أن تلزم الأهالى بالريف بإقامة الجسور ، وتطهير الترع والقنوات والمصارف وحفر المساقى . وفى ١٩ ديسمبر ١٨٨٩ (أى فى عهد وزارة رياض الثانية ٩ يونيه ١٨٨٨ - ١٢مايو ١٨٩١) صدر أمر عال بإلغاء العونة . مع بقاء خفر وملاحظة جسور النيل على الأهالى وأعمال مواجهة خطر الفيضان مقابل ضريبة جديدة علي الاطيان قيمتها ٤,٥ قرش علي كل فدان على أن لايزيد مايتحصل من هذه الضريبة عن ٠٠٠و١٥٠جنيه سنويا .
أنظرعبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره ــ ص١٧٠ .
ــ مذكرات محمد فريد القسم الأول تاريخ مصر من ابتدا سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ــ ص١١٠ .

(٤٤) مجلس شورى النواب = المقصود هو مجلس شورى القوانين المنشأ بمقتضى القانون النظامى الصادر فى أول مايو ١٨٨٢ والذى الغى فى ١٣يوليو ١٩١٣ لتحل محله الجمعية التشريعية .
ــ انظر عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ص ١٩١ ــ ٢٠٤ .
ــ عبد الرحيم عبد الهادى على (دور الخديو عباس حلمى الثانى فى السياسة المصرية ١٨٧٤ ــ ١٩٤٤) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٨١ــ ١٨٦ ، ١٩١ ــ ٢٠٦ .

فلمـا كـان غـرة رجب الفـرد من السنة ، أى سنة تسع وثلثـمـائة وألف للهجرة[٤٥] ، ركب الأمير فى موكبه بلباس الزينة والتشريف الكبرى ، وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا ، وسار إلى سراى ديوان وزراة الأشغال العمومية ، حيث مجلس الأعيان ، فاستقبله على باب السراى جماعة الوزراء ورئيس النواب ، وكلهم بكسوة التشريف . فصعد إلى قاعة التشريف ، فوقف بين يديه جميع النواب وحلفوا اليمين القانونى ، ثم دخل قاعة الجلسة ، ووقف بينهم يقول :

«يسرنا أن نعلمكم فى اجتماعنا اليوم أول مرة بكم أننا مع غيابنا عن ديارنا كنا نتتبع أعمالكم بكل الاهتمام مفتخرين بوجود هيئة فى[٤٦] القطر تنوب عن أهاليه . فكونوا على يقين من أنه غاية مقصدنا المحافظة على امتيازات هذه الهيئة المرتبط بها نجاح مصر ومستقبلها . ولذلك كان من أول ما اهتممنا به أن جمعناكم حولنا ، ويسرنا أن نبشركم فى أول اجتماعكم هذا بأننا بالاتفاق مع هيئة حكومتنا قد قررنا إلغاء الضريبة التى كنتم وافقتم على ربطها فى جلستكم المنعقدة فى خامس عشر ديسمبر عام تسع وثمانين وثمانمائة وألف ، فى نظير إلغاء العونة بتمامها ، وتنقيص ثمن الملح ، وإلغاء عوائد ورخصنامات الصنايع[٤٧] .

---

(٤٥) غرة رجب سنة ١٣٠٩= ٣٠ يناير ١٨٩٢ .
ــــ انظر (مذكرات محمد فريد القسم الأول تاريخ مصر من ابتدا سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص ١١٠ .
(٤٦) يقصد مجلس شورى القوانين راجع حاشية ٤٤ .
(٤٧) أشرنا فى الحاشية ٤٣ إلى أن إلغاء العونه في ديسمبر ١٨٨٩ لم يكن كليا ، فقد ظل الأهالى ملزمون بخفارة وملاحظة جسور النيل وأداء الأعمال العاجلة لمواجهة خطر الفيضان ــــ فضلا عن أن ضريبة قدرها ٤,٥ قرش قد فرضت على كل فدان مقابل إلغاء العونه . لذلك فإن قرار عباس حلمى الثانى الذى اورده شارويم يعنى إلغاء ضريبة الأربعة قروش ونصف التى سبق تقريرها على كل فدان فى مقابل إلغاء العونه ، وليس الغاء العونه نفسها ، فقد كان قد تم إلغاؤها فى عهد رياض .
وقد اختلف جورجى زيدان مع محمد فريد فى تحديد تاريخ إلغاء الضريبة التى قررت فى ١٩ ديسمبر ١٨٨٩ . فبينما ذكر الأول أن تاريخ الإلغاء كان ٢٨ يناير ١٨٩٢ ، أفاد الثانى بأن هذا حدث فى يوم السبت٣٠ يناير ١٨٩٢ . كذلك فقد ذكر الرافعى فى كتابه (مصر والسودان فى اوائل عهد الإحتلال) =

وإننا إذ نقـوم الآن بواجب مـقـدس لنذكـر أن الفـضل فى اتخـاذ هذه الإجراءات التى من شأنها تخفيف الأحمال عن عاتق الأهالى إنما هو راجع لحسن إدارة وحكمة ساكن الجنان والدنا الأبرّ، ولما بذله من الحزم والثبات فى تدبير إيرادات الخزينة واستعمالها بغاية الاقتصاد . وإننا سنثابر على انتهاج المنهج الذى اختطه لنا . وأملنا أنه بمعونة الله ومعاضدة الأمة تكون مساعينا وأعمالنا عائدة على مصر بالسعادة والرفاهية إن شاء الله» أ . هـ .

وبعد ذلك عاد إلى مقر الإمارة كما أتى . فلما كان اليوم التالى اجتمع سائر النواب ، وذهبوا إلى قصر الإمارة وتمثلوا بين يدى الأمير ، وتلا (حسن باشا[٤٨] حلمى) رئيسهم جواب النواب على خطاب الأمير وكله شكر وابتهال إلى الله تعالى ، وتوسل بأنبيائه وخيرة أصفيائه بأن يحفظ الأمير مؤبد السعد ، ومؤيد المجد ، وأن يبقى ساحته مخط رحال الآمال ، ومنبعاً للمكرمات فى كل حال ، ثم قبلوا يده وانصرفوا .

= مستندا إلى الوقائع المصرية عدد ٢١ ديسمبر ١٨٨٩ ، أن ضريبة الأربعة قروش ونصف السابق الإشارة إليها فى حاشية ٤٣ قد قررت بالأمر العالى الصادر فى ١٩ ديسمبر ١٨٨٩ . وذكر شارويم فى ص ٧ أن مجلس شورى القوانين كان قد وافق على ربط هذه الضريبة فى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٨٩ .

أما عوائد ورخصنامات الضائع فالمقصود بها ضريبة الباطنطة (رسوم الترخيص بمزاولة المهنة) .

- انظر (مذكرات محمد فريد القسم الاول - تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص ١١٠ .

- جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى إلى الآن) مرجع سبق ذكره ص ٢٤٣ .

(٤٨) حسن باشا حلمى : أحد أعضاء مجلس شورى القوانين المعينين الدائمين منذ ١٨٨٣/١١/٢٠ . عندما عين على باشا شريف وكيل المجس منذ نوفمبر ١٨٨٣ رئيسا له فى ٧ سبتمبر ١٨٨٤ بعد وفاة سلطان باشا رئيسه ، عين حسن باشا حلمى وكيلا له بدلا من على باشا شريف .

لم يكن حسن حلمى باشا رئيسا لمجلس شورى القوانين عند زيارة عباس حلمى الأولى للمجلس بل كان على باشا شريف الذى ظل رئيسا له حتى استقال فى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٤ إثر تورطه فى حادثة الرقيق التى سنتعرض لها فى حينه وكان حسن حلمى باشا هو وكيل المجلس فى ذلك الوقت .

ذكره محمد فريد فى مذكراته فى أول أكتوبر ١٨٩٤ بأنه (من الباشوات الأتراك الذين لايفقهون فى أمر البلاد شيئا إلا قولهم (أن الدواء للفلاح الكرباج) كما أن إسمه ورد فى القائمة التى قدمها عبد الرحمن الرافعى عن اعضاء الجمعية العمومية التى أدارت البلاد منذ يوليو ١٨٨٢ .

- انظر ابراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل) مرجع سبق ذكره ص ٥٨ .

- (مذكرات محمد فريد القسم الأول- تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـــ ص ٢١٧ .

- عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٨٨٢ - ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ص١٨١ .

وجاءت وفود سائر الدول الكبرى لتقديم مراسم التهانى للخديوى بارتقائه منصة الإمارة ، فأحسن وفادتهم ، وأدب لهم المآدب العظيمة ، وأولم الولائم الفاخرة . وزار هؤلاء الوفود المعاهد العلمية ، ومحال الآثار والعاديات ، والمساجد ، وقبور الخلفاء ، وغير ذلك ثم رحلوا .

وجاء الخبر إلى ديوان الخديوى بأن المناقشة بين المابين وسفير الإنجليز بدار السلطنة على أشدها لنزوع السلطان إلى تأجيل إرسال فرمان الولاية[٤٩] إلى أجل غير محدود ، وأن (رستم باشا) ، سفير الباب العالى بديار الإنجليز ، سأل اللورد شلبورى[٥٠] صاحب السياسة الإنجليزية

(٤٩) يرجع السبب فى تأجيل الدولة إرسال فرمان الولاية الى عباس الثانى حتى أبريل ١٨٩٢ إلى نزوع السلطان إلى استبعاد شبه جزيرة سيناء من إدارة مصر . وقد تدخلت دولة الإحتلال فى ذلك الوقت وأصرت من خلال المفاوضات بين سفيرها فى الآستانه على أن تبقي المنطقة المتنازع عليها كما كانت خلال عهود الولاة السابقين (محمد توفيق وإسماعيل) وفى نهاية الأمر وافقت الدولة العثمانية على إرسال برقية الى عباس حلمى بتاريخ الثامن من أبريل ١٨٩٢ تضمنت قرار الدولة العثمانية باستعادة (الوجه) وضمها إلى ولاية الحجاز ، وكذلك مواقع (ضبا) (والمويلح) والعقبة . وأما بالنسبة لشبه جزيرة سيناء فقد تقرر إبقاؤها على ماكانت عليه فى السابق (أى تحت إدارة مصر مثلما كان الأمر عليه خلال عهد إسماعيل وتوفيق) .
وقد اعتبرت دولة الإحتلال هذه البرقية مكملة لفرمان التولية ، وتم قراءة الفرمان فى ١٤ ابريل ١٨٩٢ ، وانتهت بذلك ازمة الفرمان المشهورة .
- انظر الحاشية ١٤ ص ٣ .
- مذكرات محمد فريد القسم الأول ـــ تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص١١٩ - ١٢١ .
Egypt No2 (1906) Correspondence respecting the Turco- Egyptian Frontier - op. cit.

(٥٠) اللورد شلبورى : صحتها الورد سالسبورى Salisbury ـ روبرت سيسل Robert Cecil , 3rd marquess of Salisbury المركيز الثالث لسالسبورى (٣فبراير ١٨٣٠- ٢٢ أغسطس ١٩٠٣) رئيس وزراء بريطانى ودبلوماسى ،كان شخصية بارزة عامة لمدة نصف قرن . أنتخب للبرلمان عام ١٨٥٣ عن المحافظين Conservatives ، استقال (١٨٦٧) إحتجاجا على مناصرة حزبه للإصلاح البرلمانى . حصل على لقب اللوردية عام ١٨٦٨ ، وبعد ست سنوات إنضم بتردد إلى وزارة بنيامين دزرائيلى Bengamin Disraeli وأصبح وزير الدولة للهند . فى عام ١٨٧٨ أصبح وزيرا للخارجية ، واستعرض قدراته كدبلوماسى فى مؤتمر برلين (١٨٧٨) . خلف المترجم دزرائيلى فى زعامة حزب المحافظين بعد وفاته(١٨٨١) ، وخدم لفترة قصيرة كرئيس للوزارة (يونيو ١٨٨٥ـ يناير ١٨٨٦) ، ثم تبعت ذلك وزارات اطول(١٨٨٦ـ١٨٩٢) عندما ساند الليبراليون الثائرون إجراءاته ،(١٨٩٥ـ ١٩٠٠) ، (١٩٠٠ـ ١٩٠٢) عندما رأس حكومة وحدة إئتلافية من اليبراليين(الأحرار) والمحافظين . وخلال أغلب هذه المدة كان وزيرا للخارجية ، مؤديا عمله بأسلوب إسترضائى وغير ظاهر بشكل مباشر مؤسس على إعجابه بسلفه لوردكاسلرى lord Castlereagh الذى عاش فى القرن التاسع عشر (١٧٦٩ ـ ١٨٢٢) . ترأس سالسبورى كإمبريالى معارض قضية توسع الإمبراطورية البريطانية . قاوم إتجاه أواخر القرن التاسع عشر الداعى إلى تشكيل تحالفات مع القوى الأجنبية ، ونبذ خطط عقد ميثاق مع المانيا . إعتزل فى عام ١٩٠٢ للتقدم فى السن واعتلال الصحة .
انظر - lexicon universal Encyclopedia vol. 17 - p.,3

رأيـه فـى تعييـن الـوقـت الـذى تطـرح فيـه مسألـة احتـلال جيـوشهـم بـديـار مصـر على بساط البحث فأعرض عنه ولم يلتفت(٥١) إليه .

قالوا وبينما كان رستم باشا يغدو ويروح إلى مقر صاحب سياسة الإنجليز فى طلب تعيين أجل الجلاء على(٥٢) سفيرهم فى دار السلطنة يشدد على رجال المابين فى طلب التعجيل بإرسال فرمان الولاية ، فكان السلطان يطاول ويبعث كتبه فى ذلك تباعاً إلى كبار الدول لعله ينال مأرباً .

---

(٥١) منذ أن وضعت بريطانيا يدها على مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ لم تستطع أن تعلن صراحة وضع مصر تحت حمايتها . بل كانت تصريحاتها الرسمية تشير دائما إلى إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك نظرا لتعهداتها السابقة واحتراما لقواعد القانون الدولى ، وأن مهمتها يجب أن تقف عند الاتفاق مع الباب العالى على التفاع عن الخديو ضد الفتن السياسية والإحتفاظ بالحالة الحاضرة فى وادى النيل .

وفى عام ١٨٨٥ دخلت الحكومة البريطانية فى مفاوضات مع الدولة العثمانية بقصد تحديد موعد للجلاء عن مصر ، وقد استمرت هذه المفاوضات حتى يوليو حتى يوليو ١٨٨٧ وانتهت إلى غير نتيجة . فقد تضمنت إتفاقية الآستانة فى ٢٢ مايو ١٨٨٧ بنودا تعطى بريطانيا الحق فى إعادة قواتها إلى مصر ، كما إحتفظت برقابتها على الجيش . وكان لها الحق فى إرسال جنود إلى مصر وإحتلالها فى حالة إضطراب الأمن فيها ــ وذلك رغم أن الإتفاق نص على الجلاء عن مصر بعد ثلاث سنوات . وكانت أهم عناصر الإتفاقية هى الإعتراف من جانب الدولة صاحبة السيادة بحق بريطانيا فى إعادة إحتلال مصر .

ولقد ترتب على أخفاق مفاوضات(١٨٨٥ــ ١٨٨٧) المعروفة (بمفاوضات درومندولف) أن ظلت بريطانيا باقية فى مصر تطبق سياستها الإصلاحية ببطء شديد وتصدر التصريحات تلو التصريحات بعدم وجودنية لها فى البقاء فى مصر . وبحلول عام ١٨٨٨ بدءت بريطانيا ترتب لبقائها فى مصر بصورة تجعل من المقبول القول بأن ذلك العام يسجل مرحلة جديدة من السياسة البريطانية فى مصر . إذ تركزت جهود الخبراء البريطانيين على تحقيق الإستقرار المالى فى البلاد وضمان السيولة المالية لمصر وقدرتها على سداد الديون ، ووضع مخطط طويل الأمد للإصلاح الإدارى ، والتصرف بصورة تدعو للإعتقاد بأن بريطانيا باقية فى مصر حتى يتم تنفيذ الإصلاحات .

وتدفق الخبراء البريطانيون على مصر لشغل الوظائف المؤثرة فى الإدارة المصرية ــ وتركز وجودهم فى نظارة الأشغال العمومية ، ونظارة المالية ، والجيش ، والبوليس ، والتعليم . وتم رسم سياسة زراعية تجعل من مصر بلدا متخصصا فى إنتاج القطن ــ وهو ما أدى إلى ربط الإقتصاد المصرى بالسوق العالمى ــ وبقى الممول المصرى يعمل فى إطار دور محدد داخل النظام الإقتصادى الذى رسمته بريطانيا لمصر ــ وبذلك ظلت مصالحه الإقتصادية مرتبطة بالوجود البريطانى ــ ولم تكن بريطانيا خلال فترة وجودها فى مصر تهتم على الإطلاق بمطالب الدولة صاحبة السيادة بتعيين وقت تطرح فيه مسألة الإحتلال . لقد كان ذلك وقت التوازنات الدولية والمصالح الإمبريالية ، وهو وقت تراجعت فيه أهمية الدولة خطوات كثيرة إلى الوراء .

ــ أنظر (مذكرات محمد فريد ــ القسم الأول ــ تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) ــ مرجع سبق ذكره ص ١٨ ـ ٣٦ .

ــ القضية المصرية ١٨٨٢ ــ ١٩٥٤ ــ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ١٩٥٥ ــ ص ٢١ ـ ٢٨ .

ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره ــ ص ٦٩ ـ ٧٥ .

(٥٢) على سفيرهم : إذا بسفيرهم .

وظل الحال على هذا وداعية السلطان بمصر أحمد مختار باشا[٥٣] يلح على الأمير بالشخوص إلى دار السلطنة ، والأمير لا يقوى على ذلك لممانعة الإنجليز ، وتكبيرهم للأمر ، وتهويلهم فى سوء العاقبة ، حتى لقد كان السير بارنج إذا رأى من الغازى مختار باشا إطالة فى جلوسه بمجلس الأمير أخذته الحيرة ، وعرته الرجفة ، وخوف الرئيس مصطفى فهمى باشا من عاقبة ذلك ، ودفعه إلى مناجاة الأمير سراً ، ورده عن قصده .

ومما زاد الباب العالى تخوفاً ، والسلطان لجاجاً ، احتلال رجل ألمانى الجنس اسمه (فريدون)[٥٤] (لجون شرمه) ، احتله عنوة . وتحرير الخبر أن الرجل قدم إلى القاهرة واجتمع بقنصل جنرال ألمانيا ، وأسر إليه داعى حضوره ، وأنه يريد احتلال (جون شرمه) على ساحل البحر الأحمر . قيل ، فلم يجرأه القنصل على ذلك ، وخوّفه من العاقبة ، ثم أشار عليه بمكالمة السير بارنج قبل إنقلابه إلى (شرمه) . فكلم السير بارنج وأسر إليه خبر بعثته . قيل ، فهون عليه بارنج الأمر ، وسهل إليه طريق الذهاب ، وهو يرمى بذلك إلى معاكسة السلطان ، ورده عن مشاغبتهم بطلب تحديد أجل الجلاء عن مصر . فانقلب الرجل إلى (شرمه) ومعه جماعة قيل أنهم من مقدمى العسكر الألمانى وكبار أركان

---

(٥٣) عن أحمد مختار باشا القوميسيرالعثمانى بمصر ـ راجع حاشية ١٢ .

(٥٤) صحة الأسم هو بول فريدمان Paul Friedmann ، وهو يهودى ألمانى زار مصر خلال عام ١٨٩٠ واتصل بالمعتمد البريطانى فى القاهرة وعرض عليه رغبته فى إقامة مستوطنة على ساحل خليج العقبة فوافقه على ذلك .

فى أواخر عام ١٨٩١ عاد فريدمان إلى المويلح على الساحل الشرقى للخليج ومعه عشرون ألمانيا واشتروا أرضا هناك بالمخالفة لقوانين الدولة العثمانية ودخل فى منازعات مع أهالى المنطقة من الأعراب . وقد إنتهت المسألة بطرد فريدمان هذا وفشل مشروعه ـ لكنه نبه الصحافة المصرية إلى الخطر القادم من أوربا ـ كما أن الحادث حرك رغبة السلطات العثمانية فى إقتطاع شبه جزيرة سيناء من الإدارة المصرية ـ حسبما جرى بعد ذلك فيما يسمى(بأزمة فرمان ١٨٩٢) .

أنظر د .يونان لبيب رزق(طابا قضية العصر) ـ القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٩ ص٦٤

ـ أمل محمد فهمى (العلاقات المصرية العثمانية على عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤) رسالة ماجستير غير منشورة ـ جامعة عين شمس ـ كلية البنات ـ ١٩٩٢ ـ ص٦٥ .

الحـرب ، وقيل أنهم من مهندسى القلاع ، وقال آخرون أنهم من كهنة اليهود آتون للاستعمار واستثمار ذلك الصعيد(٥٥) .

(٥٥) بدأت دعوة الهجرة إلى فلسطين تتخذ مع نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر شكلا متعصبا من جانب يهود أوربا . فقامت جمعيات مختلفة فى أوربا عامة وروسيا خاصة تدعو إلى ما يسمى (بحب صيون) . فى عام ١٨٨١ أخذت هذه الحركة قوة دفع كبيرة دعمت دعوتها لمحاربة الإندماج وتشجيع الهجرة إلى فلسطين ، عندما أغتيل إسكندر الثانى قيصر روسيا (١٧ إبريل ١٨١٨ــ ١ مارس ١٨٨١) وتعرض يهود روسيا لموجة من الإضطهاد ــ إلى جانب فرض السلطات القيصرية قيودا على الجاليات اليهودية ، مما أشعل حماس الهجرة فى نفوس الشباب اليهودى من الروس . على هذه الصورة أخذت جمعيات(حب صهيون) تنشط وتنتشر دعوتها وتجمع الأموال لشراء أراضى فلسطين لتوطين اليهود .

فى عام ١٨٨٢ أنشأ المتحمسون من جماعة (حب صهيون) جماعة جديدة أطلقوا عليها إسم (بيلو) وهى الأحرف الأولى للكلمات العبرية (بت يعقوب ليخ ونيلحا) ومعناها(يابيت يعقوب هلم فنسلك فى نور الرب ــ من أشعيا ٢ :٥)، وانصرفت هذه الجماعة إلى تشجيع إستعمار فلسطين . وكانت هذه هى موجة الهجرة الأولى (العلياه الأولى) ، ويسمى أصحابها (بالبيشوف الجديد) تمييزا لهم عن قدامى يهود فلسطين(اليشوف القديم) .تميز مهاجرو(بيلو)او (اليشوف الجديد) بالرغبة فى إستعمار الأرض والإرتباط بها وإنشاء المجتمع اليهودى المستقل ، فأنشأوا المستعمرات الزراعية . وخلال عامى ١٨٨٢ ــ ١٨٨٣ أنشأ هؤلاء المغامرون مستعمرات (ريشيون صهيون = الأولى فى صيون)(بتاح تكفا)(روش بينا = حجر الزاوية)و(يسود همعلاه = أساس الصعود) ــ وكان للثرى اليهودى الفرنسى (إدموند دى روتشيلد) دور كبير فى دعم نشاط هذه الجماعة ماديا . وفى ١٨٨٧ تحول إسم الجماعة إلى (حوفيفى صهيون = أحباء صهيون) وتمكنت من إنشاء العديد من المستعمرات التى استولت على أراضيها بالشراء أو التحايل برغم تنبه السلطات العثمانية إلى الخطر الصهيونى فى فلسطين وحظرها الهجرة اليهودية ومنع إقامة المستعمرات فيها منذ أبريل عام ١٨٨٢ .

آمن اعضاء هذه الحركة بأن إستعمار الأرض وممارسة العنف ضد أصحابها هو الوسيلة الأساسية للإقامة فى الأرض الجديدة ، ولذلك فإن مؤسسى مستعمرة(بتاح تكفا) إتخذوا شعار (المحراث والسيف) شعارا لهم تعبيرا عن العقائد الصهيونية التى تجمع بين إستعمار الأرض وممارسة العنف ضد أصحابها .

ومن رواد اليهود المتعصبين الذين آمنو بالقوة سبيلا لتحقيق غايتهم ، الكولونيل البرت جولد سميث Albert goldsmith الذى نادى بغزو فلسطين بالقوة المسلحة ، وطالب فى عام ١٨٨٣ بإنشاء منظمة شبه عسكرية تعمل على ضمان أمن المستعمرات .

وقد خرج الألمانى بول فريدمان ــ السابق الإشارة إليه فى الحاشية السابقة ــ بمشروع استعمارى فى نهاية القرن التاسع عشر بهدف إحتلال أرض مدين midianـ الساحل الشرقى لخليج العقبة وشماله ــ بالقوة العسكرية ، باعتبارها منطقة قليلة السكان يمكن تثبيت إقدامه فيها وإتخاذها نقطة وثوب إلى فلسطين . فقام فى أواخر ١٨٩١ بتجهيز جيش صغير من اليهود المتحمسين وجهز له الأسلحة والمعدات ــ وقام بتدريب هذا الجيش فى غاليسيا والمجر ، ثم أبحر به إلى (أرض مدين) ، وهناك اصطدم بأهالى المنطقة وفشل مشروعه على الصورة التى وردت بالحاشية السابقة .

أنظر(العسكرية الصهيونية ــ المجلد الأول ــ المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ــ النشأة والتطور ١٨٨٧ــ ١٩٧٧) تقديم محمد حسنين هيكل ــ مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ــ مؤسسة الأهرام ــ القاهرة ١٩٧٢ ص ١ ــ ٢٠ .

ولم يستقر بهذا العدد المقام حتى كثروا ، وبانت عدتهم ، وأخذوا يضيقون على العربان الضاربين هناك أسباب الرزق ، ويمنعونهم عن الماء والكلأ . ونزع فريدون(٥٦) إلى محاكاة الملوك فى تحجبهم ومركبهم ، وناصب أولئك العربان العداء ، فقام بعضهم فى وجهه فمزق شملهم . وسار إلى المويلح والوجه وغيرهما ، فالتقى بالمويلح بجماعة من العساكر السلطانية فطلب منهم الجلاء عنها لأنها من أملاكه وحدود سلطانه ، فقالوا له : «نحن عيون على ثوار(٥٧) اليمن ، وهذا البلد للسلطان ، فمن أنت وما شأنك؟» قال : «أنا صاحب هذا الصعيد ، فإن لم تجلوا عنه قاتلتكم» . فأخذوا أهبتهم لقتاله ، فلما أنس منهم القدرة على الظفر به قفل راجعاً إلى شرمه .

يقال وسيَّر إلى سردار العساكر المصرية يعيب عليه ترك المويلح للعساكر السلطانية ، ويستفزه إلى إجلائهم عنها(٥٨) . فكلم السردار الرئيس مصطفى

(٥٦) صحتها فريدمان .

(٥٧) فتح العثمانيون اليمن عام ١٥٣٨ واستمر حكمهم فيه حتى عام ١٦٣٥ عندما إضطروا للجلاء عنه مكتفين بمناطق نفود لهم فى تهامة والمنطقة الساحلية اليمنية .ثم الحديدة والمخلاف السليمانى . فى عام ١٨٦٤ قامت ثورة(بن عائض) فى عسير . واضطر العثمانيون إلى العودة إلى فرض نفوذهم على اليمن مرة أخرى . فعادوا إليه عام ١٨٧٢ واستولوا على صنعاء . لكن الحكم العثمانى فى اليمن لم يتمتع بأى إستقرار ، فقد قامت ضده ثورات قبائل الحدا(١٨٧٢) خولان(١٨٧٣) ــ حاشد وأرحب (١٨٧٦ وما قبلها) ــ وثورة جبل البخارى . فى عام ١٨٩١ ثار اليمن بقيادة الإمام الزيدى (المنصور بالله محمد بن يحيى محمد بن إسماعيل بن حميد الدين) وثارت قبائل البستان عام ١٨٩١ إيضا ، وقبائل همدان (١٨٩١) وحاصروا صنعاء عام ١٨٩٢ ــ تمكن فيظى باشا حاكم مكة السابق من القضاء على الثورة واستمر واليا على اليمن (١٨٩٢ــ ١٨٩٦) حتى ثار اليمن من جديدعام١٩٠٤ وعقد الصلح بينه وبين الأتراك(١٩١١) ثم تركوه بعد الحرب العظمى عام ١٩١٨ بصفة نهائية .
ــ فاروق عثمان أباظة (الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ــ ١٩١٨)ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٦ ص ٢٤ــ ٨٤،٧٢،٣١ ، ٩٢ ، ١٣٢ ــ ١٤٦ .

(٥٨) كانت مصر تحتفظ وفق ترخيص من السلطان العثمانى بقوات (ضبطية) فى كل من الوجه ،المويلح ، ضبا ، والعقبة على الساحل الحجازى Hedjaz littoral ــ وكذلك فى شبه جزيرة سيناء لأغراض تأمين مرور المحمل المصرى بطريق البر .فلما وقعت أزمة الفرمان عام ١٨٩٢ ، تم سحب الوجود المصرى من الوجه والمويلح وضبا والعقبة ، واتفق على (الحفاظ على الوضع القائم فى شبه جزيرة سيناء) كتسوية للأزمة التى نشبت بين الدولة ومصر (يناير ــ إبريل ١٨٩٢) . انظر يونان لبيب رزق (طابا قضية العصر) مرجع سبق ذكره ــ ص ٦٥

فـهمى باشـا فى ذلك ، وحبب إليـه التعجيل فى تسيير فصيلة من العسـاكـر المـصـرية ونفر من الضبـاط الإنجليـز ليـحـتلوها ، فـأجـابه إلى ذلك . فـسـارت العسـاكـر إلى ذلك البلد واحتلوه عنوة . فلمـا تأدى خبر ذلك إلى السلطان أكبره جـداً ، أولاً لأن تلك المـواقع لم تعط مـصـر إلا للمـحـافظة على طريق الحج براً ، فلمـا بدلوا من طريقه بحـراً أهملت مـصـر تلك المـراصد ، وتركـتهـا خـاوية على عـروشـهـا(٥٩) ، ثانيـاً أن التـغـاضى عن الـسلطنة فى أمـلاكـهـا إلى حـد إعطائهـا للأغراب كالسلعة الخاسرة ، ومنحهم حق التصرف فيها ، فى حين أنها جزء من جـزيرة العـرب ، مـمنوع بحكـم المـعـاهدات الدوليـة التنازل عن شىء منهـا ، ولاسـيمـا لإقـامـة المـسـتـعـمـرات على مـقـربة من الطور والقـدس الشـريف أحـد الأماكن الثلاثة(٦٠) المقدسة .

وأرسـل إلى سفـيره فى عـاصمـة الإنجليز بأن يشدد فى طلب فتح بـاب المخابـرة فـى الجـلاء عن مصر ، والاحتجاج على ما وقع (بالمويلح) (وضبا) (وشـرمـه) . فـفـعل السـفـيـر وشـدّد فى الطلب ، وبالغ فـى الاحـتـجـاج ، وكـلـم الغـازى مختـار بـاشـا الأمـيـر فى ذلك أيضـاً ، وأغلـظ فـى القـول مـع الرئيـس مـصطفـى فـهـمـى باشـا ، ورمـاه بسـوء النيـة والعـمـل علـى قطـع كـل اتصـال بيـن الأميـر ومتبـوعـه(٦١) . فاجتمـع جماعـة الـوزراء لذلـك مـراراً كثيـرة والسير بارنج يحـضـهـم من وراء حـجـاب برفـض مطالـب السلطـان ، والإصـرار علـى بقـاء العسـاكـر المصريـة فى تلك المرابط(٦٢) .

---

(٥٩) مع إفتتاح قناة السويس كممر مائى يصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر عام ١٨٦٩ ، تضاءلت أهمية الطريق البرى للحج وأصبح الطريق إلى الأماكن المقدسة يتم براحتى السويس ـ ومن هناك يركب الحجاج البواخر إلى(ينبع) أو جدة .

(٦٠) الأماكن الثلاثة المقدسة هى(مكة المكرمة) ـ (المدينة المنورة) ـ (والقدس الشريف) .

(٦١) السلطان عبد الحميد الثانى(١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) .

(٦٢) المرابط المعنية هى(ضبا) (الوجه) (المويلح) و(العقبة) .

وظل الحال على هذا حتى كبرت الفتنة ، واشتدت عزائم السلطان بوسوسة دولتى الروس والألمان ، ومؤازرة دولة الفرنسيس(٦٣) . وأبدى الغازى

(٦٣) حرصت فرنسا منذ عهد ريشيليو Richelieu(١٥٨٥ - ١٦٤٢) على مقاومة تأسيس إتحاد يضم المقاطعات الألمانية المتباعدة . فلما حاربت بروسيا النمسا فى سادوا Sadwa(١٨٦١) وهزمتها أحست فرنسا بقرب تحقيق هذه الوحدة التى تخشاها - فى عام ١٨٧٠ تطورت الأمور ودخلت فرنسا فى حرب مع بروسيا(الحرب السبعينية) ، وانتهت هذه الحرب بهزيمة فرنسا فى ١٨٧١ وتوقيعها صلح فرانكفورت frankfurt فى ١٠ مايو ١٨٧١ الذى حصلت بمقتضاه المانيا (التى كانت قد توحدت فى ١٨ يناير ١٨٧١) على مقاطعتى الألزاس واللورين . لكن هذه الاتفاقية أنتجت ما عرف(بالسلم المسلح)فى أوروبا والذى إستمر حتى عام ١٩١٤ . خلال هذه الفترة عمد اوتوفون بسمارك Otto von Bismark(١٨١٥ ـ ١٨٩٨) مستشار المانيا إلى تطبيق سياسة عزل فرنسا عن القوى الأوروبية بهدف تفادى إنتقامها من هزيمة ١٨٧١ ، إلى جانب الإستعداد العسكرى . وقد نشأ عن هذا المسلك حالة خطيرة فى العلاقات الدولية ، وأصبح مبدأ القوة هو السائد بين الدول ، وأضحى التهديد بالحرب من أقوى العوامل فى السياسة الدولية . وفى ظل هذا الموقف المشتعل دخلت القوى الأوروبية فى أشكال من الإرتباطات والمحالفات التى تهدف إلى إقامة ترتيب للقيود والضوابط الدولية من خلال التكتل التنافسى . فقد أقام بسمارك أسلوب الأحلاف المتنافسة وليس أسلوب العصبة العالمية الشاملة ، وأقام ميزانا للقوى ولم يقم توافقا بين القوى . كان بسمارك يخشى إنتقام فرنسا فتقارب مع النمسا ،وتصادق مع روسيا القيصرية ـ وتم عقد الوفاق الثلاثى three Emperors league فى ١٨٧٢ وبه تم عزل فرنسا . لكن مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ والذى أرغمت فيه روسيا على التنازل عن مكاسبها التى حصلت عليها فى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ـ ١٨٧٨) وفق معاهدة سان ستفانو .san stephano ، وانحياز المانيا إلى النمسا وتأييدها لمطامعها فى البلقان أدى إلى فتور المشاركة الروسية فى الوفاق ـ واضطرت المانيا إلى عقد ارتباط دولى جديد مع النمسا عام ١٨٧٩ إتفق فيه على أن يساعد كل من الطرفين الآخر إذا هاجمته روسيا ـ والإحتفاظ بالحياد إذا هاجمت إحداهما دولة أخرى(والمقصود بها فرنسا)ـ فإذا إنضمت روسيا إلى فرنسا فقد إتفقت الدولتان على العمل معا . وقد أنتج ذلك نفور روسيا من المانيا . وفى ١٨٨٢ إنضمت إيطاليا إلى هذا الحلف رغم تعارض مصالحها مع النمسا ـ وظل هذا الإتفاق يتجدد كل ثلاث سنوات ، وفى ١٩٠٢ أصبح يتجدد من تلقاء نفسه فى نهاية كل ثلاث سنوات حتى عام ١٩١٤ . وفى ١٨٨١ نجح بسمارك فى معاودة الإتصال بروسيا وتجديد تحالف القياصرة الثلاثة بمعاهدة وقعت فى برلين إتفقت فيها النمسا والمجر ،والمانيا ، ورسيا على المحافظة على الحياد الودى وعلى حصر الحرب فى نطاق محلى إذا وقع صدام بين إحداها وبين دولة رابعة ـ وكان يعنى إحتمال إنطباقه على فرنسا ، إنجلترا ، تركيا ـ وفى ١٨٨٤ تجدد التحالف ثم انتهى عام ١٨٨٧ .

شرع بسمارك إلى جانب ذلك ـ فى تشجيع إنجلترا وفرنسا على مشروعات التوسع فيما وراء البحار ، فاحتلت إنجلتر مصر عام ١٨٨٢ ، واحتلت فرنسا تونس ١٨٨١ .

وفى ١٨٨٢ تحالفت كل من إيطاليا والنمسا وألمانيا فى معاهدة تحالف ثلاثى تساعد بمقتضاه النمسا وألمانيا إيطاليا فى حالة هجوم فرنسا عليها . واتفقت إيطاليا على مساعدة المانيا إذا هاجمتها فرنسا . وفى حالة هجوم دولتين أخريين(كان المقصود روسيا وفرنسا) على واحد أو إثنين من الأطراف المتحالفة فان كل الدول الموقعة على معاهدة التحالف يجب أن تدخل الحرب متحدة ـ ومع هذا فقد اشترطت إيطاليا ألا توجه المعاهدة إلى بريطانيا .=

مختار باشا فى ذلك من الدهاء وحسن السياسة ورباطة الجأش ما أعجز السير بارنج عن مناهضته ، وأخاف الأمير على حداثة عهده بالسياسة . وظهرت على الرئيس مصطفى فهمى باشا دلائل الحيره ، فصار يتخبط بمكانه من البُهْت واللجاج ، آخذاً بإشارة السير بارنج .

حدثنى صديق ، قال : كانت فعال الرئيس مصطفى فهمى باشا فى هذه المحنة على أشد ما تكون من الغلظة والعناد . وكان إذا رأى من الغازى مختار باشا ثباتاً فى القول ، وأصالة فى الرأى ، أو قوة فى البرهان تأفف ، ولاذ بالمغالطة والمهاترة المعيبة ، آخذاً بقول السير بارنج والعمل بإشارته . فقد أحبت نفسه الاستكانة ، وأخلدت إلى السمع والطاعة إلى ذلك الطاغية . قال والحاضر يشهد لذلك والماضى أشبه بالآتى ، ما برح الرجل عبداً لراتبه وعالة

=وفى ١٨٨٣ عقدت النمسا والمجر معاهدة سرية مع رومانيا اتفقت الدولتان بمقتضاها على تأييد ومساندة كل منهما للأخرى فى حالة هجوم روسيا عليها ـ وفى الحال إنضمت المانيا إليها ـ وتبعتها إيطاليا عام ١٨٨٨ .

وبدلا من تحالف القياصرة الثلاثة الذى مات عام ١٨٨٧ تم إحلال ترتيب آخر بدلا منه ضم روسيا والمانيا وعرف باسم معاهدة إعادة التأمين Re - Insurance treaty فى يونية ١٨٨٧ .

كانت هذه المعاهدة موجهة بالفعل ضد النمسا والمجر . وهكذا فإن المعاهدات التى حفظت السلام فى أوربا تعارضت فى أغلب الأحوال مع بعضها البعض ـ ولم تستطع فى النهاية أن تمنع من التقارب الفرنسى ـ الروسى عام ١٨٩١ ، والذى إنتهى بتحالف عام ١٨٩٣ .

وهكذا فإن العالم كان منقسما وممزقا ومتكتلا ضد بعضه البعض ـ ومن ثم فان وسوسة روسيا والمانيا للسلطان ، ومؤازرة فرنسا له كان أمرا واردا .

انظر جون جاراتى وبيتر جاى John A. Garraty& peter Gay

The columbia History of the world. Dorest – USA, Eigth Edition, 1987. pp., 968– 980.

ـ أ . ج . جرانت ، هارولد تمبرلى(أوربا فى القرنين التاسع والعشرين ١٧٨٩ـ ١٩٥٠) ـ ترجمة محمد على أبو درة ولويس إسكندر ـ القاهرة مؤسسة سجل العرب ـ ١٩٦٧ ـ ص ٥٩ ـ ٧٥

ـ محمد قاسم وحسين حسنى (تاريخ القرن التاسع عشر)ـ القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٣٨ـ ص ٢٣٦ـ ٢٤٢ .

ـ هـ . ا . ل . فيشر(تاريخ أوربا فى العصر الحديث(١٧٨٩ ـ ١٩٥٠) ـ تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ الطبعة السادسة ـ ١٩٧٢ ـ ص ٢٨٦ ـ ٣٠٢ .

على منصبه فلا حول[٦٤] ولا . = . هـ .وجاءت كتب الصدر[٦٥] الأعظم إلى الغازى مختار باشا بأن طور سينا ، وخطها إلى مدينة السويس ، هى للإمارة وتخم لها ، وأما (المويلح وضبه وشرمه) وخطهم فهم من أملاك السلطنة ، ومنفذ سلطانها على جزيرة العرب ، فلا يصح التفريط فى شىء منها ، وأن التعجيل فى الجلاء منها واجب حتماً ، والإبطاء مفسدة عاقبتها غير محمودة[٦٦] . فكلم الغازى الرئيس بذلك ، وألقى عليه تبعة كل إبطاء فى الجلاء ، وشاع خبر ذلك بين الناس ، فتحدثوا به فى السر والجهر ، وتخوفوا من إصرار الإنجليز على عنادهم وبهتهم ، وكادوا يقطعون كل أمل فى إرسال الباب العالى لفرمان الولاية ، إن لم يتأذن الله بزوال عقبة تلك العقبة ، وينكف السير بارنج عن شناعته وتشويشه .

وظل الحال على هذا أياماً حتى أفلح الغازى مختار باشا فى سعيه ، وثاب صاحب سياسة الإنجليز إلى رشده ، وأوعز إلى السير بارنج بالإقلاع عن ذلك العناد وترك (المويلح وضبه وشرمه) ، أما (العقبة) فلا ، لإنها من تخوم الإمارة

---

(٦٤) يهاجم شاروبيم مطصفى فهمى باشا رئيس النظار(١٤مايو ١٨٩١ـ ١٧ يناير ١٨٩٢)(١٧ يناير ١٨٩٢ ـ ١٥ يناير ١٨٩٣) لخنوعه لسلطات الإحتلال البريطانى واستسلامه لتعليمات المعتمد البريطانى (إڤلين بارنج) الذى يصفه بالطاغية ـ وفى هذا المقام فإن ميخائيل شاروبيم يكشف عن ميله للدولة صاحبة السيادة وللخديو عباس ، ويعبر عن رفضه لسياسة خضوع الوزراء المصريين للإحتلال ، ويرفض الوجود البريطانى . لكن شاروبيم إتخذ فى تعليقه على الأحداث ونقده لها(أسلوبا غير مباشر) . فهو ينسب النقد والهجوم إلى(صديق حدثه) فيقول(حدثنى صديق) ثم يطلق العنان لنفسه فى الهجوم أو النقد أو التحليل الذى يراه متقيا بذلك تهمه نقد الحاكم أو المسئول . وقد إتبع شاروبيم ـ على ما سنرى هذا المسلك فى صفحات تاريخه هذا فى مناسبات كثيره ، وأتفق مع جاك كرابس چونيوJack crabbs, Jr فيما ذهب إليه من أن شاروبيم كان حريصا على تجنب النقد الشخصى بالاحتماء وراء معان أخرى من التفسير التاريخى . . . . واتخاذه جانب الحياد خشية التعرض للأذى ـ والبعد عن المغامرة .
ـ أنظر چاك كرابس چونيور Jack crabbs,Jr., (كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ـ دراسة فى التحول الوطنى) ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ـ الألف كتاب الثانى ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة ١٩٩٣ـ ص١٨٦ .

(٦٥) هو أحمد جواد باشا Ahmet Cevat (٤سبتمبر ١٨٩١ ـ ٨ يونيو ١٨٩٥) .
انظر ستانفورد شو S. Shaw, (History of the Ottoman Empire and modern turkey) -
Ibid., p., 439

(٦٦) راجع الحاشية ٥٨ ـ ص ٥٩ .

وأملاكها إلى (طور سينا) ومدينة السويس ، فعمل الوزراء محضراً بذلك وأبلغوه إلى الغازى فلم يرضه .

يقال أنه لما أبلغه الرئيس خبر ذلك أخذ منه الغيظ مأخذه ، وقال متى رأيناكم تدفعون عدوكم عن بلاد سلمتها إليكم يد الخلافه تفضلا منها وإحساناً . وها هى مصوع(٦٧) وزيلع وغيرها شهود على ما أقول . فسكت الرئيس ، ولم يبد جواباً .

وجاءت كتب الباب العالى إلى الغازى بالتعجيل وترك الإبطاء . وبينما الحال على هذا ، وإذا بالصيحة قامت فى دار ندوة الإنجليز ، وعلت ضوضاء أصحاب شوراهم كعادتهم عندما يحسون بالحركة فى (مابين) السلطان . ووقف شمبرلين(٦٨) ، زعيم المنشقين وحليف المحافظين أنصار الاستعمار ، على منبر

---

(٦٧) كانت الحكومة البريطانية قد طلبت من حكومة شريف الرابعة ٢١ أغسطس ١٨٨٢ ـ ١٠يناير١٨٨٤ إخلاء السودان فى أعقاب استشراء ثورة المهدى وهزيمة الجنرال هكس Hicks فى شيكان (٥نوفمبر١٨٨٣) . لكن شريف رفض ذلك وإستقال ، ووافق الخديوى توفيق على الإخلاء فى ٧ يناير١٨٨٤ . وفى ظل وزارة نوبار الثانية (١٠يناير١٨٨٤ ـ ٩ يونيو ١٨٨٨) تم إخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية من نواحيه ، وجرى تنفيذ الاخلاء بمعرفة جوردون باشا Gordon حاكم عام السودان . فى يونيو ١٨٨٥ قررت الحكومة المصرية جعل حدودها الجنوبية فى(كوشة) ,وفصلت البلاد التى بين أسوان ووادى حلفا عن مديرية إسنا وجعلتها محافظة مستقلة باسم (محافظة الحدود) .

وتنفيذا لقرار إخلاء السودان فقد أخلت مصر(مصوع) من حاميتها عام ١٨٨٥ ، واحتلتها إيطاليا بالإتفاق مع إنجلترا فى نفس العام ـ واستولت إنجلترا على(زيلع)و(بربرة) عام ١٨٨٤ ، كما إستولت فرنسا على (تاجورا) و(چيبوتى) .

ـ انظر عبد الرحمن الرافعى(مصروالسودان فى اوائل عهد الأحتلال ١٨٨٢ـ ١٨٩٢)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٩ ـ ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٤١ـ

(٦٨) شمبرلين = جوزيف شمبرلين chamberlain,joseph (٨يوليو١٨٣٦ ـ ٢ يوليو ١٩١٤) ، زعيم سياسى بريطانى ، ومن أشهر رجال الدولة الرجعيين فى زمانه . إدارى كفء ، مفاوض بارع ، ومتحدث جيد . ولد شمبرلين لعائلة من التجار فى لندن . فى سن الثامنة عشر ذهب إلى برمنجهام Birmingham وتولى إدارة عمليات شركاته هناك حيث حقق نجاحا كبيرا . دخل شامبرلين مجال السياسة فى المحليات مدفوعا بشعور إجتماعى قوى ، وكعمدة لبرمنجهام(١٨٧٣ـ ١٨٧٦) أدخل تحسينات فى مجال رفاهية المدينة . إنتخب شامبرلين للبرلمان عن الأحرار فى ١٨٧٦ ، وخدم فى حكومة ويليام جلادستون william gladstone كرئيس للجنة التجارة Board of trade (١٨٨٠ ـ ١٨٨٥) ، لكنه عارض اصلاحات جلادستون المتعلقة بالحكم الذاتى . Home Rule Bill لأيرلندا Irelad وإنفصل عن الحكومة .

وكزعيم للأحرار الأتحاديين ، الذين أرادوا المحافظة على الوحدة مع إيرلندا ، فقد دخل شامبرلين حكومة المحافظين برآسة سالزبورى عام ١٨٩٥ ، وأصبح وزيرا للمستعمرات ، ورغم أن سياساته التوسعية ساعدت على إشعال الحرب الجنوب أفريقية South Africon war (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) ، فإن قدراته الإدارية وجاذبيته الشعبية public appeal رفعت من إعتبار منصبه . فى ١٩٠٣ كان مقتنعا بأن (حرية التجارة) لم تعد مجدية وبأن أقطار الإمبراطورية البريطانية ينبغى أن تتقارب بشكل اكثر بواسطة نظام التعريفات الإمبراطورية ، لذلك فإنه ترك منصبه ليقود حملة من أجل هذه الموضوعات . وقد أدت المباحثات التى تلت ذلك إلى إنقسام حزب المحافظين ، الذى هزم فى إنتخابات ١٩٠٦ . اعتزل شامبرلين السياسة بعد ١٩٠٦ .

ـ انظر lexicon universal Encyclopedia – Ibid .pp., 273 – 274

الخطابة يقول : لسنا والله براحلين عن أرض وطئتها أقدام جنودنا ، ولا نحن تاركين لها ، كما يتوهم ضعفاء العقول منا ومن أولئك المشايعين لنا ولاعزم لنا إلا البقاء فيها أبد الدهر . أوهل يحل الجلاء عنها وقد أرقنا فى سبيل احتلالها دماء الأبطال ، وأضعنا بدرات المال؟! فمن قال غير هذا فهو عدو لوطنه ، أو هو مفتون لاخبرة له بالأمور . فثوبوا إلى رشدكم ، ولاتكونوا من الخاسرين أعمالاً .

وقام فيلسوفهم مورلى[٦٩] ، أحد مقدمى حزب الأحرار فى دار ندوتهم ، أيضاً يقول : «من ظن ياقوم ، إنا جماعة الأحرار ، وعدنا بالجلاء عن أرض الفراعنة ، فهو واهم ومغالط . على إنا لم نقل عن زعيمنا (غلاد ستون)[٧٠] سوى إنه يحب الجلاء وفاءً بوعدنا إلى جميع الدول وللمصريين أنفسهم بعد الحيطة الكافلة لتحقيق الجلاء ، لا أن نعجل به ونترك البلاد لغيرنا من الطامعين ، فيعبث بما أحدثناه فيها من النظام وما شيدناه من المدنية على أسس العدالة والعمران . فافقهوا هداكم الله ..أ .هـ .

---

(٦٩) مورلى = الفيسكونت جون مورلى viscount,John Morley (٢٤ ديسمبر ١٨٣٨ ــ ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣)ــ أحد أقطاب حزب الأحرار البريطانى . قدم كوزير الدولة لشئون الهند مشروع إصلاحات مورلى ــ منتو Morley -- Mento مع نائب الملك اللورد منتو Lord Minto .ظل عضوا فى مجلس العموم البريطانى خلال السنوات (١٨٨٣ ــ ١٨٩٥) (١٨٩٦ــ ١٩٠٨) قبل أن يحصل على لقب لورد peer . خدم كذلك كوزير اول لأيرلندا (١٨٨٦ ، ١٨٩٢ ــ ٩٥) . كتب مورلى تراجم لڤولتير voltaire (١٨٧٢) ، ريتشارد كوبدن Richord Cobden (١٨٨١) ،اوليڤركرمويل Oliver cromwell (١٩٠٠) ، ويليام جلادستون william gladstone (١٩٠٣) ،
ــ انظر Lexicon Universal Encyclopedia, Ibid, vol.13 – p.,581

(٧٠) جلادستون = ويليام ايوارت جلادستون gladstone, willam Ewart (٢٩ ديسمبر ١٨٠٩ - ١٩ مايو ١٨٩٨) ــ شخصية سياسية بريطانية من القرن التاسع عشر ــ رأس وزارة الأحرار أربعة مرات . إبن لتاجر من ليڤربول ــ تعلم فى كلية ايتون Eton وأوكسفورد Oxford . دخل البرلمان عام ١٨٣٢ عن حزب التورى (Tory)(المحافظين الآن) . كان جلادستون كلاسيكيا واسع المعرفة ومرتبط بالكنيسة الانجليكانية . حاول أن يطبق الأخلاق على السياسة . أصبح فى عام ١٨٤٣ رئيسا للجنة التجارة والصناعة تحت رأسة السير روبرت بيل Robert peel ،وشاركه فى دعم القضايا الليبرالية بما فى ذلك الغاء قوانين القمح عام ١٨٤٦ . إنضم جلادستون إلى الدوائر الليبرالية بعد الانقسام الذى اصاب حزب التورى ، ووجد أفكاره متفقة مع ريتشارد كوبدن Richard cobden وجون برايت John Bright . خدم كوزير للمالية فى إئتلاف اللوردأبردين Aberdeen (١٨٥٢-١٨٥٥) ، وفى عام ١٨٥٩ كان مستعدا لتولى نفس المنصب كليبرالى فى حكومة بالمرستون Palmerstone ، مستكملا الإصلاح الضريبى وعاقدا معاهدة تجارية مع فرنسا . فى عام ١٨٦٥ طور جلادستون أفكارا ليبرالية تتعلق بحقوق المنشقين عن كنيسة انجلترا non conformists . سحب الإعتراف disestablishment بكنيسة أيرلندا ، والإصلاح الانتخابى . كان جلاد ستون على وشك أن يصبح=

فلم ترجع هذه الصيحة السلطان عن عزمه ، ولم ترده عن قصده ، ولم ينكف الغازى مختار باشا عن التشديد فى طلب التخلى عن (العقبة) كما تخلوا عن (المويلح والضبه وشرمه) . وكتب الباب العالى متتابعة بذلك ، فلما رأى الأمير ما فى كثرة الأخذ والرد من المشاغبة والتشويش ، أبدى شيئاً من الحزم والتفطن ، وجمع إليه الوزراء وكلمهم فى الأمر طويلاً ، وسير إلى صاحب السياسة الإنجليزية يستميله إلى التخلى عن (العقبة) أيضاً ، وإزالة تلك العقبة من طريق السلام ، فأجابه إلى ذلك ، فتخلوا عنها لحراسة العساكر السلطانية إلى حين ، وطيروا الخبر بذلك إلى المابين والباب العالى[٧١] .

= ويليام الشعب people.s william عندما رفعه موت بالمرستون واستقالة اللورد جون رسل John Russell إلى زعامة الأحرار عام ١٨٦٦ .

تميزت أول وأنجح وزارة لجلادستون(١٨٦٨ــ ١٨٧٤) بسحب الإعتراف بالكنيسة الإيرلندية ، قانون الأراضى الإيرلندى ، إلغاء الإختبارات الدينية بالجامعات ، المنافسة المتساوية فى الخدمة المدنية ، قانون الإقتراع السرى ، وإصلاحات أخرى . ومع هذا فقد أسهم الإنحياز نحو الإنجليكانية فى قانون التعليم(١٨٧٠)إلى هزيمته الإنتخابية عام ١٨٧٤ .

إستقال جلادستون من زعامة الأحرار عام ١٨٧٥ ، لكنه عاود دخول الساحة السياسية(١٨٧٦) ليعاقب منافسه المحافظ بنيامين دزرائيلى Benjamin Disraelli لعدم المبالاة بما كان يسمى بالفظائع التركية فى البلقان Turkish atrocites . عاد جلادستون إلى السلطة عام ١٨٨٠ . نفذت حكومته الثانية فى ١٨٨٤ قانون الإصلاح الثالث Reform Act لكنها فقدت الثقة بسبب بعض النكسات الإستعمارية وخاصة الفشل فى إنقاذ الجنرال جوردون Charles George Gordon فى الخرطوم ، وسقط جلادستون عام ١٨٨٥ .

فى حكومته الثالثة قصيرة العمر(١٨٨٦) حاول جلادستون دون نجاح أن يمنح أيرلندا حكما ذاتيا Home Rule لكن أتباعه وزملائه إنقسموا حول هذا الموضوع نتيجة إفتقاده للقدرة على التعامل معهم . قاد جوزيف شامبرلين Joseph chamberlain المرتدين من الأحرار الإتحاديين ، الذين فضلوا الإتحاد المستمر بين بريطانيا وأيرلندا . سيطرت قضية الحكم الذاتى مرة أخرى على حكومة جلادستون الرابعة (١٨٩٢ــ ١٨٩٤) ــ وفشل قانون ثان للحكم الذاتى فى ١٨٩٣ ــ وتسبب ذلك فى تحويل الأحرار عن السياسات الداخلية البناءة . إستقال جلادستون فى النهاية عام ١٨٩٤ بسبب نزاع حول ميزانية البحرية ــ لكن السلام وتخفيض النفقات بقيا أقوى إتجاهاته . فشل جلادستون فى تحقيق مطمحين ــ إلغاء ضريبة الدخل ، وتسوية القضية الأيرلندية ــ وأبدى لمسة من عدم الثقة فى المسائل الخارجية والإستعمارية ، ومع هذا فإن جلادستون شكل الحزب الحر liberal party فى العصر الفيكتورى victorian era .

ــ انظر Lexicon universal Encyclopedia – Ibid., vol.9 p., 196

(٧١) يشير شاروبيم هنا إلى الأزمة التى فجرتها الدولة عند وفاة الخديو توفيق فى يناير ١٨٩٢ عندما تضمن الفرمان الصادر بتولية الخديو الجديد إن تكون الحدود المصرية طبقا للخط الذى تضمنته الخريطة المرفقة بفرمان عام ١٨٤١ ، والذى لم يكن موضع التطبيق فى ذلك الوقت . وقد إنتهت الأزمة فى إبريل ١٨٩٢ بتسوية تقوم على أساس جلاء مصر عن العقبة والمراكز الواقعة شرقها (ضباء والمويلح والوجه) فى مقابل الإعتراف العثمانى بإدارة مصر لبقية سيناء من خط يمتد (من شرق العريش إلى السويس تبعا للخط المرسوم على خريطة عام ١٨٤١ .

ــ أنظر يونان لبيب رزق (طابا قضية العصر) . مرجع سبق ذكره ــ ص٦٤ ــ ٦٥

وفرح الناس بانفراج تلك الأزمة ، ولكنهم ظلوا على تخوفهم من إبطاء وصول فرمان الولاية ، وكلهم مجمع على مطاولة السلطان وإبطائه ما برحت الدولة المحتلة على ما هى عليه من البهت والعناد وإرتكاب اللجاج . ورأى السير بارنج تفطناً من الخديوى وثباتاً فى الرأى ونزوعاً إلى جعل مخابراته مع صاحب السياسة الإنجليزية فى الملمات ، والإعراض عنه كما فعل فى خلاف (العقبة) ، فأكبر ذلك جدا وأعظمه وأنحى على الرئيس مصطفى فهمى باشا باللايمة ، وخوفه من عاقبة ذلك على نفسه ومنصبه ، ثم شاع أنه لايصل فرمان الولاية من دار السلطنة حتى يكون صاحب السياسة الإنجليزية قد ولى كبيرا من كبرائهم على رقابة ديوان الأمير وصرَّفه فى شوراه ، فلا يأتى الأمير أمرا إلا باستشارته ، ولا يعمل عملاً إلا برأيه فهو كالوصى على القاصر ، أو القيم على السفيه الذى لايحسن التصرف . وتفشت القالة بذلك حتى بلغت مسامع الأمير ، وزادوا فى الإرجاف بطلب المدد للعساكر المرابطة بالإسكندرية وعلى التخوم من أقرب المرابط فى الأملاك الإنجليزية كمالطا أو قبرص أو جبل طارق ، كأن الفتنة قامت من أقصى البلاد إلى أقصاها . يقال وهذا من عمل السير بارنج وتهديده للأمير حتى يرجعه عن قصده ويكبح شكيمته(٧٢) .وكلم سفراء السلطان الدول المصدقة

(٧٢) كانت علاقات المعتمد البريطانى بعباس حلمى الثانى خلال السنة الأولى من حكمه جيدة ـ ويكشف خطاب بارنج إلى اللورد سالسبورى فى نهاية ازمة الفرمان (إبريل ١٨٩٢) عن رغبة من جانب كرومر فى أن يبين إنه وعباس يعملان معا بصورة طيبة . لكنه كان يكشف بوضوح أيضا كيف أن بارنج لم يستطيع أن يقيم قدرات عباس كزعيم لمصر وكيف أنه مال إلى معاملة الخديو باستخفاف فيما يتعلق بوضعه كحاكم لمصر .

يقول بارنج فى خطابه هذا إلى سالسبورى : كان الوضع خلال الأسبوع أو الأسبوعين الأخيرين ، حساسا جدا . فأولا ، كان الخديو الصغير البائس مقيدا كلعبة الشطكوك shuttle cock بين مصالح متنافسة ، لكنه تصرف جيدا . إن الخديو ذاميول أوروبية عالية تحول بينه وبين التمكن من السيطرة على الجزء الشديد الإسلام من الشعب ...... وكل هذه المصالح الدبلوماسية دفعتنى إلى المقدمة ، لكنى آمل أن أستطيع الإعتزال حالا عن الإنتباه الشعبى ، وعندما نصبح فى أوضاع أفضل ، سأكون قادرا على السيطرة على تعليم الخديو الصغير . إننى لا أستطيع أن أجعله مسلما ، لكنى سأحاول أن أجعله يبدو كذلك . إن عباسا يماثل فتى مهذب وذو عقل صحى متخرج حديثا من كلية إيتون أوهارو Eton – Harrow ـ وهو ليس على الإطلاق خاليا من الذكاء ، لكنه متبرم=

على الاتفاقيات المبرمة مع محمد على باشا بعد حروبه ، فى أمر التخوم المصرية ، فوافقوا السلطان على دعواه ، وقالوا أن التخوم المقررة بالفرمان المعطى إلى محمد على باشا ، يخرج جميع أراضى (العقبة) حتى (الطور) والسويس من الأملاك المصرية . وحببوا إلى السلطان مناهضة الدولة الانجليزية ومغالبتها على الأمر ، فأكبر صاحب سياسة الإنجليز ذلك وأنحى على السلطان باللايمة ، وقلب له ظهر المجن ، وقال أن احتلال جيوشنا لمصر جعل لنا حقوقا لا يضارعها حقوق ، وخصنا بحق الإشراف على سائر شئونها ، وتقويم المعوج منها رضى الخديوى وسلطانه أو لم يرضيا(٧٣) .

= لدرجة كبيرة بالازهر ، المشايخ ، ورمضان والأعياد الدينية ، إلخ . إننى فى الحقيقة أتمنى لو لم يكن متمدينا إلى هذا الحد" .

Baring to salisbury. No 177. April 15. 1892. Cromerpapers. PRO.fo 63 Modernization and British Colonial rule inEgypt, 1882 - 1914) Ibid., pp.. 156 -(N.14) - 157 Robert Tignorl منقوله عن

لكن الاوضاع فى خريف ١٨٩٢ كانت قد تغيرت بصورة عكسية . فقد أصبح الموظفون البريطانيون فى مصر مغالين فى إستنكارهم لتدخل عباس فى برامجهم ـ وكتب ولفرد سكاون بلنت Wilfrid Scawn Blunt يقول (كانت هناك عناصر من المعارضة الأقوى للنظام الإنجليزى هنا أكثر من أيام توفيق) ، ولاحظ أحد الموظفين البريطانيين خلال الصيف ـ وأثناء غياب كرومر فى الأجازة ـ أن البريطانيين كانوا يعترضون فى كل خطوة ، وأن الصيحة البريطانية كانت(عودة كرومر) لاعادة الأمور إلى نصابها . وقد عزا (بلنت) التغيرفى إتجاه عباس إلى التأثير الذى كان للقنصل الفرنسى Reverseaux والقوميسيير العثمانى الغازى مختار باشا عليه . كان عباس مع بدايات ١٨٩٣ يجمع شتات العناصر اليائسة والناقمة والوطنيين خلفه .

— Robert tignor (Modernization and British Colonial Rule in Egypt) Ibid., p., 157

(٧٣) عندما احتلت بريطانيا مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ اعلنت أن غرضها هو إعادة سلطة الخديو ، وقمع ثورة أحمد عرابى ، ثم الجلاء بعد ذلك . وكان من المتعذر تغيير مركز مصر الدولى دون مصادقة الدولة العثمانية صاحبة السيادة الشرعية عليها ، والدول التى شاركت فى التوقيع على معاهدة لندن ١٨٤٠ . وكان الحل الذى ابتكرته بريطانيا لإعمال سياستها في مصر فى ظل هذا الوضع القانونى هو إلزام مصر بنصائحها ـ أى أن نصائح بريطانيا لمصر ملزمة .

ولقد حدد اللورد جرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا مركز بلاده فى مصر فى ١٨٨٣ فى برقية بعث بها إلى الدول العظمى قال فيها(إنه وإن كانت القوات البريطانية باقية فى مصر إلى الآن لصيانة النظام العام فإن حكومة جلالة الملكة تنوى سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد وتستطيع بوسائلها تثبيت سلطة الخديو ، وإلى أن يحين ذلك فإن مركز حكومة جلالة الملكة بإزاء سموه يقضى عليها ببذل (نصائح) لتتأكد من أن النظام الذى سيوجد سيكون مرضيا ويحتوى على عوامل الاستقرار والتقدم) .

لكن بريطانيا عادت فى يناير ١٨٨٤ لتكشف عن طبيعة هذه (النصائح) ، وكيف أنها ملزمة لمصر . إذ قال جرانفيل فى برقيته إلى إفلين بارنج(ولا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم أنه من الواجب ، مادام الإحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر ، أن تتاكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة إتباع النصائح التى ترى إسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها =

وهب أصحاب صحفهم إلى السباب والشتائم وأكثروا من الجلبه والصياح ، ونادوا بالويل والحرب على السلطان وأصحاب شوراه . ويعجبنى ماقاله صاحب «رائد لندن» رداً على أولئك الشتامين وترجمته : قد أصبحت الصحف الإنجليزية على شدة اهتمامها بأمر الديار المصرية من التصانيف التى تطالع قتلاً لأوقات الفراغ والبطالة ، لا سيما بعد الحوادث الأخيرة ، وفشل العساكر الإنجليزية فى وقائعهم المعلومة ، فإنه لما تم فشلهم وتولى الهزم صاحب ساستنا فزعت أصحاب تلك الصحف إلى ستر الحقائق وإخفاء أمر ذلك ، وأجهدوا النفس فى بيان أن تغيير الخديوى توفيق بولده الأمير الشاب ليس له أقل تأثير على البلاد أو على السياسة المتبعة فيها ، غير أن كل هذه الترهات دلت على ما أصاب سياستنا من الهزم وما تولى أصحابها من الفشل .

يقول أولئك الشتامون أكلة لحوم بنى آدم ، أن قلق أصحاب السياسة الإنجليزية وارتباكهم فى هذه الآونة ، إنما هو مترتب على موت الخديوى توفيق وولاية ولده الذى لم يبلغ الثامنة عشرة ونحن نقول لقد أصاب والله من قال أن الأمير (عباس) ذكى حاذق ، قوى الشكيمة ، بل أعلم الناس بأحوال بلاده ، وله فيها آراء خصوصية بالرغم من حداثته ، وأنه ليس بذى ضلع مع الإنجليز ولا هو ألعوبة فى يد السير بارنج .

= للخطر ، ويجب على الوزارء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على إتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة ، وإن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا إقتضت الحال إستبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزاراة ، أوشغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على إستعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة) . ومعنى هذا أن إنجلترا فى مصر كانت ترغمها على إتباع (النصائح) وهو أمر يتفق مع ما جاء فى أقوال شاروبيم من أن رضاء الخديو أو السلطان ليس له أى تأثير على سياسة المحتل فى مصر .

ـ إنظر عبد الرحمن الرافعى(مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ـ ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٩ .

قال : «والعجب أن هذه الصفات المحمودة ، التى كان يجب أن يسر لها سادتنا حماة مصر ورعاة المدنية وأنصار الإنسانية ، قد أغضبتهم وجعلتهم فى دهشة وحيرة . والعجب أنهم يحاولون إخفاء ذلك وستره عن الناس ، ولم يجسر أكبر كبير بينهم على إبدائه خوفاً من تفنن أعدائهم فى الشماتة بهم . ولكن صيحات أصحاب صحفهم المتتابعة ، بإيعاز من أقيال[٧٤] سياستهم ، قد دلت على أن لاثقة فى المستقبل ، وأنهم يوجسون خيفة من إفلات تلك الفريسة من أيديهم ، فتستقل تحت يد أميرها .

قال : «ولقد تهوس أصحاب بعض تلك الصحف الشتيمة إلى أن قالت : عندما قبض الخديوى توفيق كان خليفته الأمير شاب لايزال ، وأن من أصالة الرأى وحسن السياسة أن يقام له مجلس أوصياء ، تعين الدولة الأنجليزية أكثر أعضائه . ولكن لنكد الطالع لم تحز هذه الآراء عند أصحاب الحل والعقد قبولاً فتحولوا عنها إلى طرق أخرى وأغراض سافلة ، فلم يفلحوا أيضا .

وقد كان ذلك لأن الأمر لا يتعلق باستمالة دول أوروبا فقط ، وهى تعلم بما خفى وما ظهر من أمد بعيد ، بل بالتغلب على الخديوى والأخذ بتلابيبه حتى يرضخ إلى سلطانهم ويحتمى بحمايتهم . ولذلك فقد جعلوا منذ رجوعه إلى تخت الإمارة يقصون عليه حديث أن كل ما فى ديار مصر من خير وإصلاح إنما هو من عمل أيديهم ، حتى لقد كادوا يثبتون لديه بالبرهان القوى أن (سيزوستريس) ملك مصر والنوبة لم يكن لعهده إلا معتمداً انجليزياً ينوب فى (منفيس) عن سيدة البحار الإنجليزية التى كانت صاحبه الشوكة والمجد والسلطان فى ذلك الزمان» .

قال : «وأما الفرنسيس ، إثابهم الله فليس لهم فى ديار مصر والقارة السوداء إلا الشأن الثانى . وإذا كانوا قد منحوا قناة السويس تفضلاً فإنما كان ذلك لتقع فى قبضة الدولة الإنجليزية ، وإن تكن ، عافاها الله ، قد مانعت فى فتحها وكادت تضرم بسببها يومئذ نار الفتنة بين الدول . نعم قد رأينا بأعيننا كل هذا

(٧٤) أقيال = رؤساء

الإفك مسطوراً بحرفه على صحفات صحفهم المأجورة من أهل المراتب القابضين على زمام الأمور، وهى، علم الله، أشبه شئ بالخرائط الجغرافية التى نشرها دعاتهم فى ديار الهند ليوهموا الناس بأن دولة الروس وألمانيا ودولة الفرنسيس إنما هى مقاطعات صغرى لا أهمية لها بالنسبة للدولة الإنجليزية الضخمة والواسعة الأرجاء».

قال: «ومجمل القول أن اولئك السياسيين لم يفزعوا إلى تلك الجعجعة إلا ليأخذوا بتلابيب الأمير ويجعلونه طوع أمرهم. فإذا فشلت ريحهم كما هو المنظور، وخابت آمالهم، وأضاعوا كل حيطة، عدلوا إلى الشدة لعلهم ينالون أرباً. فلقد سمعنا أصحاب صحفهم الناطقة بلسان (سالسبورى) زعيم سياستهم يقولون بملء أفواههم إنه إذا لم يعدل الأمير عن منهاجه هذا ويتبع نصحهم ويأخذ بقولهم فى سائر شؤونه، كان فى منصبه أشد ذلاً وتحقيراً من جورج الأول[٧٥] . . . أحد ملوكهم».

قال: «ولم يقف هؤلاء الأفاكون عند هذا الحد من المين[٧٦]، بل تطرفوا إلى القول بأنه يجب على الأمير أن يفقه إلى أن بقاء الأسرة العلوية على تخت الإمارة المصرية يتوقف على نفوذ الدولة الإنجليزية وانفساح كلمتها فى دياره» أ.هـ.

---

(٧٥) جورج الأول = ملك إنجلترا وسكوتلندا وإيرلندا (٢٨ مارس ١٦٦٠ ـ ١٢ يونيو ١٧٢٧) ـ منتخب elector هانوفر Hanover. ارتقى إلى العرش البريطانى عند وفاة الملكة آن Anne فى ١٧١٤ طبقا لقانون الوراثة Act of settlement الصادر عام ١٧٠١ الذى إستبعد الممثلين الشرعيين الرومان الكاثوليك من أسرة ستيوارت Stuart من العرش لصالح البيت البروتستنتى فى هانوفر المنحدر من إبنة جيمس الأول (١٩ يونيو ١٥٦٦ ـ ٢٧ مارس ١٦٢٥). ولد فى هانوفر وتلقى تعليما عسكريا وفنونا دبلوماسية. أصبح منتخبا لهانوفر عام ١٦٩٨. بعد ارتقاءه عرش بريطانيا ظل المانيا فى أهدافه وارتباطاته. كان هدفه الثابت هو عظمة هانوفر، ونتيجة لاستخدامه للأسطول البريطانى فإنه نجح فى ضم بريمن Bremen وفردن verden إلى هانوفر فى الحرب الشمالية الكبرى great Northernwar (١٧٠٠ ـ ١٧٢١). فى إنجلترا تسبب چورج الأول فى كثير من الجدل بسب دعمه المتصلب لحزب الهويج Whig party ضد حزب التورى Tory، وبسبب ميله إلى العمل بنصائح مستشاريه الهانوفريون Hanoverians. مثلت ثورة اليعاقبة Gacobites فى عام ١٧١٥، وعدة مؤامرت يعقوبيه تهديدات لأمن عهده.

ـ تعارك چورج مع زوجته صوفيا دوروثيا sophia Dorothea (١٦٦٦ ـ ١٧٢٦) التى طلقها وسجنها (من ١٦٩٤ حتى وفاتها) عقابا لها على الإدعاء بعدم امانتها، كما تعارك مع إبنه الأمير چورج الذى اتحد مع خصومه.

ـ انظر Lexicon Universal Encyclopedia, Ibid. vol.9– p.,llo

(٧٦) المين = الكذب

ـ إنظر (مختار الصحاح) مرجع سبق ذكره ـ ٢٦٧

وبينما صاحب السياسة الإنجليزية يحذر الأمير ويخوفه من عاقبة الخروج عن طاعته ، ويعمل على قطع كل اتصال بينه وبين سلطانه ، إذ جاء الخبر من المابين إلى ديوان الأمير بأن الخليفة أحسن إليه بالنيشان المجيدى المرصع فأكبر جماعة الإنجليز هذا الخبر ، وأدهشتهم فعال السلطان ورباطة جأشه . فرفع الأمير من يومه مراسم الشكر على جناح البرق إلى الباب العالى ، واندفع أصحاب الصحف المحلية يمتدحون فى عمل السلطان ، ولكنهم كانوا يتساءلون (متى يصل إلى الأمير فرمان الإمارة؟) .

حدثنى صاحب من أصحاب الخطط من الإنجليز المقربين من باب السير بارنج ، قال : «أو تعلم ماسبب إبطاء السلطان فى إرسال فرمانه؟» قلت : «لا» . قال : «لبث الخديوى توفيق ماشاء الله بعد الثورة العرابية محباً لنا آخذاً بقولنا ، ذاهبا مذاهبنا فى الستر والجهر ، حتى اشتمل عليه صاحب سياستنا وأحبه وخلطه بنفسه ، فصرَّفنا فى سلطانه فتصرفنا ، أحكامه طوع أغراضنا فى سائر نقضه وإبرامه ، ودعمنا قاعدة سياستنا على ماقضت به مرافقنا واستلزمه اشفاقنا على (هندنا) . وملأنا الخطط والمناصب العالية بالمهرة من قومنا حتى نلنا سائر حاجياتنا ، ولم يبق علينا إلا الكماليات . فكان السلطان ورجال دولته ينظرون إلى هذا كله بعين السخط والقلى وهم عاجزون عن أن ينالوا منا ومنه منالاً حتى قبض الله عليه . فلما انتقلت الإمارة إلى ولده الأمير عباس ، ولم يكن فى قدرة السلطان الممانعة فى ذلك ، لأن حاله بالأمس غير حاله اليوم ، فزع إلى تقليل الإمتيازات والحقوق الممنوحة لإمارة مصر بحكم الفرمانات والمعاهدات الدولية ، وفسخها وإرجاع سلطة الباب العالى إلى ماكانت عليه قبل حروب محمد على باشا المشهورة فلم يفلح . وقد كان ذلك لأن الأمر لا يتعلق به وبرجال (مابينه) فقط ، بل بسائر الدول الموقعة على الاتفاقيات المبرمة لعهد محمد على باشا . وكيف ينال رضاها وهى اليوم على اختلاف فى الرأى وتباعد فى الأغراض ، وعين صاحب ساستنا ساهرة لاتغمض عن سد تلك الفرجة من ناحيتها؟» .

قال: «وسمعنا بعض أصحاب الكلمة فى دار السلطنة العثمانية يقولون إذا ظل صاحب السياسة الإنجليزية على عناده فى طلب بقاء (العقبة والطور) وما يتبعهما تابعتين للإمارة المصرية وعلى بقاء اسطولنا واقفا أمام الاسكندرية، طاول السلطان فى إرسال فرمانه، وربما امتنع عن إرساله جملة».

فهذا القول الهراء أضحكنا وجعلنا على قدم الاستعداد لدفع كل طارئ وإبعاد كل محنة ومتابعة قصدنا إلى الغاية، وماله لايرجع إلى رشده ويقلع عن غلوائه؟ أفلا يرى سفننا تمخر فى طول البحار وعرضها، وتتهدد سواحل مملكته بمدافعها الضخام، وهى كما تعلم لا عدة فيها ولا عدد، وهو قد ألف الاستكانه، واعتمد على أحاديث لفقت من المستضعفين ممن يدعون العلم بمستقبل الأيام تزلفاً واستدراراً لنعمه، ويغفل عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التى اقتضت عدم الجلاء؟»

فقلت يارعاك الله! أو يحنث صاحبكم فى أيمانه ويزيل عن نفسه عدالتها؟ فقد سمعناه ينادى حيناً بعد حين بأن جلاء جيوشكم مقطوع به متى عادت الأمور إلى سابق مجراها. فلما استتبت السكينة واجتمعت قلوب الرعية على محبة أميرها، عاد صاحبكم يقول بأن الجلاء واقع بعد تحسين طرق جباية الخراج وتنظيم خطط الإمارة وتعليم أهل المراتب كيف يديرون الأعمال وينتصبون للشورى. فلما أنس من القوم القدرة على العمل، وأنهم قد لبسوا جلدتكم وظهروا لكم فيها، وهم أشد منكم غيرة على بلد فيه منبتهم ومنه رزقهم وبه يقبرون، فزع إلى غير ذلك من المقالات الفاسدة، وقلب تلك الوعود وجهة أخرى، وصيرها إلى ما هو متعارف عند سائر الخلق، يأخذه الخلف عن السلف حتى أعيت أصحاب التدبير حيلكم وأفسدتم عليهم تدابيرهم، فذكرتنى فعال صاحبكم هذه بقصة (أزهر)، أحد علماء العرب، مع (أبى جعفر المنصور) لعهد خلافته».

فتبسم وقال : «إنى أحب سماع مايرونه[٧٧] قصاص العرب ، فقل لى ماذا كان؟

قلت : «(كان أبو جعفر) أيام (بنى أمية) أعنى أيام خلافتهم ـ يجلس مستترا فى حلقة (ازهر السمان) . فلما افضت الخلافة الى (ابى جعفر) اتاه (ازهر) فرحب به وساله (ماحاجتك) فقال (دارى متهدمة ، وعلى أربعة آلاف درهم) فوصلة باثنى عشر الفا وقال (قد قضينا حاجتك يا ازهر فلا تأتنا طالبا) فاخذها وارتحل . ولما كان بعد سنة أتاه فسأله أبو جعفر (ما حاجتك ياازهر) قال (جئت يا أمير المؤمنين مسلما) ، قال (قد أمرنا لك باثنى عشر الفا واذهب فلا تأتى لنا طالبا ولا مسلما) فأخذها وانصرف . ولما كان بعد سنة أتاه فقال (ما جاء بك ياازهر) قال (أتيت ياأمير المؤمنين عائداً) : فقال (أنه يقع فى خلدى إنك أتيت طالبا وقد أمرت لك باثنى عشر ألفا فخذها ولا تأتى الينا طالبا ولا مسلما ولا عائدا) فاخذها . فلما مضت السنة أقبل فقال (ما جاء بك يا ازهر) فقال (دعاء كنت اسمعك تدعو به ياأمير المؤمنين جيت لاكتبه) ، فقال (ويحك أنه دعاء غير مستجاب وقد دعوت الله به أن لا آراك فلم يستجب لى وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا وكن على شأنك فقد اعيتنى فيك الحيل) .

والعجب أن صاحبكم قد قيد الجلاء بشرط لاحد له ، وهو شرط الإصلاح ، ولا حد قط للإصلاح ولو بلغت مصر إلى الشأو الذى وصلت إليه دولتكم . فالاحتلال إذا غير محدود ، وما أنتم فاعلوه الآن بخطط الإمارة من القلب والإبدال لا يمكن معه تقدير زمن الإصلاح الذى يطلبه صاحبك ، فيكون الجلاء إذا على عاتق الدهر حتى يأتى اله بالفتح أو بأمر من عنده .

يقول السير بارنج فى كتابه المفتوح ، الذى بعث به إلى صاحب سياستكم ، أن المصريين غير أكفاء لتولى شؤونهم ، وهم خاملو الأذهان

(٧٧) يرونه = يرويه

لايدركون كيف يطالبون بمالهم من الحقوق كأمة راقية . فبماذا يصفهم يا ترى لو طالبوكم بصوت واحد بالجلاء العاجل؟ فقال : «هون عليك يا هذا وثق بأن سنى الاحتلال طوال» ، ثم ودع وانصرف .

وبينما الناس على ما هم عليه من التخوف من إبطاء وصول فرمان الولاية ، إذ جاء الخبر إلى ديوان الأمير الرئيس مصطفى فهمى باشا بقيام الباخرة العثمانية «عز الدين» من دار السلطنة تقل الوفد المرسل مع المشير(أحمد أيوب) باشا ، الحامل لفرمان الولاية . ففرحوا بذلك ، ورسم الأمير إلى (محمود شكرى) بك رئيس أقلام ديوان التركية بالقيام إلى الإسكندرية مع جماعة من أمراء العسكر وقوام القصر للقاء رجال الوفد حسب الرسوم والمباهاة المعتادة . فباتوا ليلتهم تلك بقصر الإمارة برأس التين ، وأصبحوا يوم الاثنين ثامن رمضان من السنة ، أى سنة تسعة وثلثمائة وألف[٧٨] للهجرة ، وقد ظهرت الباخرة «عز الدين» أمام بوغاز الاسكندرية .

فلما صارت الساعة السادسة صباحاً ، عبرت البوغاز ومرت بين السفن المصرية الراسية فى الميناء ، فرفعوا لاستقبالها الأعلام والرايات العثمانية ، واصطف رجال جميع تلك السفن على ساريتها ، وأطلقت المدافع إيذاناً بتحية «عز الدين» وهتف جند البحر بالدعاء للسلطان . فلما رسا اليخت صعد إليه جميع من حضر من القاهرة من أهل المراتب وأصحاب الخطط ومحافظ البلد ، وسلموا على المشير وبلغوه سلام الأمير .

---

(٧٨) ثامن رمضان عام ١٣٠٩هـ = السادس من إبريل ١٨٩٢ .
وقد اختلف التاريخ الذى قدمه شاروبيم لقدوم الوفد العثمانى الحامل لفرمان التولية عن التاريخ الذى قدمه محمد فريد ـ فبينما ذكر شاروبيم أن الوفد وصل إلى الإسكندرية فى الثامن من رمضان ١٣٠٩ الموافق السادس من إبريل عام ١٨٩٢ ـ ذكر محمد فريد إن الوفد وصل فى الرابع من إبريل عام ١٨٩٢ .
ـ انظر (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ٠ تاريخ مصر من إبتداءسنه ١٨٩١ مسيحية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٨ .

وكان رجال الوفد ستة ، هم : (أحمد أيوب باشا) حامل الفرمان ، (وحسين باشا) اللواء ، أحد رجال الخاصة السلطانية ، (وأحمد عفيف) باشا ، أحد مأمورى التفتيش العسكرى ، (وشمس الدين) بك ، مدير قلم الشاهبندرية [٧٨مكرر] فى وزارة الخارجية ، (وغالب بك) ، التشريفاتى الثانى بوزارة الخارجية ، (وتوفيق بك) ياور سر عسكر ، واثنان من مقدمى جند القصر السلطانى .

وكان قد اجتمع على رصيف قصر الإمارة برأس التين العلماء والرؤساء الروحيون ومشايخ الطريق ، وأصحاب العكاكير[٧٩] ، وقاضى البلد والمفتى ، وأصحاب الوظائف وكافة أعيان البلد . فلما صارت الساعة التاسعة والنصف ، نزل المشير فى زورق خصوصى ومعه محافظ البلد (ومحمود بك شكرى) المهمندار[٨٠] وشوقى باشا .[٨١] ونزل باقى رجال الوفد فى زوارق أخرى ، فصدحت الموسيقى من الدارعه «محمد على» بالسلام الشاهانى ، وهتفت عساكرها بالدعاء مع بحارة السفن الأخرى . فلما وصل زورق المشير إلى رصيف القصر أطلق واحد وعشرون مدفعاً من البحر ، ثم ركب المشير مركبة من مركبات إسطبل الإمارة . وكانت الطريق من قصر رأس التين إلى محطة الباب الجديد مزينة بالإعلام والرايات وأصحاب الشرطة مصطفين ذات اليمين

(٧٨مكرر) قلم الشاهبندرية = إدارة الموانى بوزارة الخارجية
ـــ انظر ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١١٢

(٧٩) أصحاب العكاكيز = فئة المشايخ من رجال الدين الإسلامى الذى يتعاطون الأحكام الشرعية أو يجلسون فى مجالس القضاء الشرعى ـ أو العلماء من رجال الأزهر .
ـــ انظر ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣١٣ .

(٨٠) مهمندار = صحتها ميهماندار Mihmandar ـ الموظف المكلف باستقبال كبار الزوار للدولة ـ التشريفاتى الذى يستقبل كبار ضيوف الدولة ويسهر على راحتهم .
ـــ انظر ردهاوس Redhouse مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٠٤٧ .
ـــ س . حاييم S. Haim فرهنك كوچك(فارسى ـ انكليسى)ـ فرهنك معاصر ـ طهران ـ ١٩٨٤ ـ ص ٧٣١ .

(٨١) شوقى باشا = محمد شوقى باشا ـ ناظر الدائرة الخاصة ، وصهر المشير مختار باشا الغازى القوميسير العثمانى .
ـــ انظر إبراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل)ـ مرجع سبق ذكره .
ـــ ص ٤٠ ـ ص٢٢ ـ ٢٣ من النص

وذات الشمال ، والناس محتشدين على جانبى الطريق . فسار إلى محطة السكة الحديد ، وقابله الجند هناك بالتعظيم ، فركب القطار وركب معه جميع من حضروا للقائه .

ولما وصل إلى القاهرة استقبله رئيس التشريفات والوزراء وسردار الجيش المصرى وجماعة العلماء وقاضى قضاة مصر والمفتى وجميع أهل المراتب وأصحاب الخطط والأعيان والوجهاء . وأطلق من قلعة الجبل واحد وعشرون مدفعاً وصدحت الموسيقى بالنشيد الشاهانى ، وأنزلوه مع رجال الوفد بقصر المنيرة ، فزاره الأمراء والكبراء وأهل المراتب وأصحاب الخطط والعلماء .

فلما كان غروب ذلك اليوم انتقل إلى قصر الإسماعيلية(٨٢) ، واجتمع بالمشير (أحمد مختار) باشا لحظة لطيفة ، ثم عاد إلى مقره فزاره الأمير فى اليوم الثانى فرد له الزيارة بقصر الإمارة(٨٣) بعابدين . وفرح الناس بانفراج الأزمة ووصول الفرمان بعد طول الانتظار ، وجعلوا يتأهبون لعمل الأفراح ، وزينوا البيوت والحوانيت بالأعلام والمصابيح . وشاع الخبر بأن سيقرأ الفرمان فى يوم الخميس العاشر من رمضان أو يوم السبت الثانى عشر . وتفشت القالة بذلك ، فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قامت صيحة أصحاب الصحف المحلية ، وانقلبت الأحوال انقلابة أخرى . ذلك أنه لما أكثر سفير الإنجليز من الإلحاح تارة على السلطان وتارة على الصدر الأعظم بالتعجيل فى إرسال فرمان الولاية ، وشدد

(٨٢) إشترى إسماعيل موقعه فى أغسطس ١٨٧١ ضمن مجموعة أراضى وعقارات بجزيرة العبيط . كان حد الموقع البحرى طريق كوبرى قصر النيل ـ القبلى حديقة أحمد باشا ـ الشرقى طريق الشيخ يوسف الموصل للقصر العالى ومصر القديمة ـ الغربى البحر الأعظم ـ هدم فى بداية القرن الحالى وموقعه الآن المنطقة التى بها وزارة الخارجية وجامع عمر مكرم ومجمع التحرير ـــ كان مقرا للخديو توفيق قبل أن يصبح مقر القوميسير العثمانى منذ ديسمبر١٨٨٥ ـ راجع الأهرام العدد ٣٩٢٧٣ فى ١٦/ ٦/ ١٩٩٤ ـ راجع ص ٢٣من النص
ـــ محمد حسام الدين إسماعيل (وجه القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل)- مرجع سبق ذكره ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠

(٨٣) قصر الإمارة بعابدين = قصر عابدين المقر الرسمى للخديو منذ عهد إسماعيل
ـــ إنظر الحاشية ٢٧ ص ٤٧ .

تشديده وأكثر من وعده ووعيده إن هم مسوا خط (العقبة) وما معه والطور وما يتبعه بشئ ، ولم يتركوه للإمارة المصرية . وقد كان السلطان يرى أن هذه الفرصة خير معين له على استرجاع بعض الشئ من امتيازات الإمارة .

وخشى السلطان عاقبة التوطيل[٨٤] فرسم بقيام المشير (أحمد أيوب) باشا ومن معه كارها ، ولم يأذن للصدر الأعظم بتبليغ السفير خبر قيام الوفد ولا ما فى الفرمان من القيود والمواد .

فلما نقل عيون السفير إليه خبر قيام الوفد ، أكبره جدا وعده إهانه له وتحقيرا . وسير فى الحال إلى صاحب السياسة الانجليزية يخبره بالخبر ، فأرسل صاحب السياسة إلى السير بارنج يقول : «أن[٨٥] خف فى وجه المشير أحمد أيوب باشا ، ولا تأذنوا بقرآءة الفرمان حتى يأتيك كتابى» . فأبلغ السير بارنج الرئيس مصطفى فهمى باشا ذلك . ، وسأله الممانعة فى قراءة الفرمان . فأجابه الرئيس إلى ماطلب ، ولم يبد رأياً ، وكلم الأمير فى ذلك فأدهشه الخبر ، وأكبر الطلب جداً ، وجمع إليه فى الحال قنصلى الروس والفرنسيس وتيكران[٨٦] باشا ناظر الخارجية المصرية ، فتكلموا فى ذلك طويلا .

---

(٨٤) التوطيل = التطويل

(٨٥) خف = حف من الحفاوة   قراءة إجتهادية
ـــ إنظر (مختار الصحاح) ص٦١

(٨٦)تيكران او تيجران Dikran – Tigrane دابرو بجرادونى Dapro Bigradoni ـ سياسى أرمنى متمصر ولد ومات بالقاهرة (١٥/٤/١٨٤٦ـ ٢٨/٦/١٩٠٤)ـ أبوه هو (ستيبان آبرو) عضو لجنة إنشاء السدود والقناطر فى عهد محمد على ـ وأمه (إيماسياركس) الإنجليزية الجنسية ـ تلقى تعليمه الأولى فى المدرسة الأرمنية بالقاهرة ثم أكمل دراساته في باريس ،لندن ، وسويسرا . بدأ حياته الوظيفية (ككاتب إفرنكى) بالرتبة الخامسة بمصلحة السكك الحديدية المصرية عام ١٨٦٤ . فى عام ١٨٦٥ نقل إلى نظارة الخارجية بوظيفة (مسود) . فى عام ١٨٦٧ حصل على الرتبة الرابعة ، فالثالثة عام ١٨٦٩ ، فالثانية عام ١٨٧٠ ـ عمل بوظيفة (مسود كاتب سر) . فى عام ١٨٧٥ رفت من نظارة الخارجية بالاستغناء لكنه عاد إليها عام ١٨٧٦ بوظيفة (مسود كاتب سر) ثم (رئيس قلم أفرنكى) . فى عام ١٨٧٨ نقل إلى مجلس النظار بوظيفة (سكرتير خصوصى جنرال) مع (نوبار) ومنح رتبة صنف المتمايز الثانية ـ فى الفترة ١٨٧٩ـ ١٨٨١ عمل (سكرتيرا) بنظارة الخارجية ـ أصبح وكيلا لنظارة الخارجية ـ عام ١٨٨١ ـ حصل على رتبة ميرميران (باشا) فى أكتوبر ١٨٨٢ـ ثم رتبة (روم إيلى بكلر بكى) عام ١٨٨٧ـ ظل وكيلا للخارجية حتى عام ١٨٩١ . تولى نظارة الخارجية فى نظارة مصطفى فهمى الاولى (١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٧ يناير ١٨٩٢) والتى إستمرت حتى يناير ١٨٩٣ ، ثم فى نظارة حسين فخرى (١٥/١/١٨٩٣ ـ ١٨/١/١٨٩٣)ـ ثم نظارة رياض الثالثة =

وأبلغ تيكران باشا خبر ما وقع الاتفاق على تبليغه إلى الباب العالى فى شأن خطى (العقبةوالطور) إلى المشير مختار باشا ، وطالت المكالمة فى ذلك بينهما إلى مابعد غروب ذلك اليوم ، ثم رفعوا النتيجة إلى المابين .

واستدعى الأمير المشير (أحمد أيوب) باشا وسأله الوساطة فى فض الخلاف القائم بشأن (العقبة)وما معها ، وفى ترك خط الطور إلى الإمارة المصرية كما هى الآن .

وعلم الناس بحرج موقف الأمير فى هذه المحنة واستكانة رجال دولته وأنهم قد وانوا[٨٧] باتباع السير بارنج والانقياد إليه ، وأن مكان الأمير غير مكانهم . وأقبل السير بارنج على الأمير يسأله أن يأذن بمنع قراءة الفرمان حتى يذعن السلطان إلى إجابة مطالب الدولة الإنجليزية . وقال له : «إن فعلت ذلك همت الأساطين الإنجليزية كلها إلى تعضيدك وإعلاء كلمتك فوق سائر الكلم» . فلم يجبه الأمير إلى ذلك ، وعاب على السير بارنج تشديده وتسرعه .

يقال : كان الخديوى بعد انصراف السير بارنج من عنده منشغل البال ، شديد البلبال ، فأرسل من فوره يطلب جماعة الوزارء ، فلما حضروا عقد مجلسهم وكلمهم فى الأمر طويلا ، ثم قال : «ليعلم كل منكم أن رفض قراءة الفرمان كفران بنعمة السلطان وعصيان لطاعة الله ورسوله وولى الأمر . فإن لصاحب سياسة الإنجليز هوى فى أمر من الأمور الهامة عنده ، فليخابر الباب

= (١٩يناير ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤/٤/١٥) . تزوج عام ١٨٨٣ من (زيبا) إبنة نوبار وأنجب مرجريت عام ١٨٨٥ ـ هارميناك عام ١٨٨٦ .

ـ دار المحفوظات العمومية ـ ملف خدمة ديكران باشا دابرو ١٨٢٦٦ ، محفظة ٦٢ ، عين ٤ ، دولاب ٢٩ .

— Adams, Francis (The New Egypt , asocial sketch) London – 1993. p. 54

— Cromer (Modern Egypt) – London , 1908. pp., 630 – 634

ـ آرداشيس كارداشيان (وثائق تاريخ الأرمن فى مصر) ٣ أجزاء ـ ڤينسيا ١٩٨٦ـ ج ٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ وقد حصلت على هذه المادة العلمية من السيد / محمد رفعت الإمام ـ فله جزيل الشكر .

(٨٧) وانوا = أى ضعفوا .

ـ انظر (مختار الصحاح) مرجع سبق ذكره ـ ص٣٠٧ .

العالى فى شأنها ، ولا يطوح بنا إلى عمل لا نرضاه نحن ولا أهل النصفة» قيل فامتقع لون الرئيس مصطفى فهمى باشا ، وقال : «الرأي عندى أن لا سبيل إلى غير ما أشار به السير بارنج ، ولا تصح قراءة الفرمان حتى يأتنا(٨٨) الإذن بذلك من لورد سلسبورى صاحب السياسة الإنجليزية ، مادامت جيوشهم بين ظهرانينا» .

قيل ، فأغضب هذا القول الأمير وأقلقه ، فاشتد على الرئيس فى الردوعاب عليه ورماه بالجبن والمين . فصمم الرئيس على مقالته وانقاد إليه بقية الوزراء ، وانصرفوا من مجلس الخديوى على غير هدى .

فجاء السير بارنج إلى قصر الأمير ، وقال له أن كل مخالفة تقع لما رسم به صاحب السياسة الإنجليزية منذ الساعة تعد لدى الدولة الإنجليزية بأسرها ضرباً من الاستنكاف من استشارة حكومة جلالة الملك وخرقاً لسياج سياستها التى تتبعها منذ واقعة التل الكبير إلى الآن ، والأمير يعلم أن الدول الثلاث المتحالفات ، يعنى بهن ألمانيا وإيطاليا والنمسا ، معضدات لهذه السياسة ، فالتأنى واجب ، والمخالفة مفضية إلى الندامة . ومضت على هذا أيام لم يكف فيها السير بارنج عن الغدو والرواح إلى قصر الإمارة ، والأمير دائب على مشاورة قناصل الدول والاجتماع بهم فى كل يوم ، حتى لقد طلب وساطتهم لدى سفرائهم في دار السلطنة لعلهم يفضون هذا الخلاف . فكتبوا جميعهم إلى السفراء فى ذلك ، فما هو إلا أن جاء أمر السلطان إلى المشير (مختار باشا) بأن قل للأمير أن الذات السلطانية أحب الناس للأمير وأحفظهم على حقوق وامتيازات الإمارة المصرية ، وأن فرمان الولاية لايختلف فى شئ ما عن فرمان أبيه محمد توفيق باشا . فأبلغ المشير خبر ذلك إلى الأمير ، وبسط إليه ولاء السلطان وحبه للبيت العلوى .

(٨٨) يأتنا = يأتينا

فلما كان اليوم التالى أبلغ قونصلا الروس والفرنسيس الأمير أيضا بأن قد جاءهما الخبر بقبول السلطان وساطة السفراء فى بقاء (الطور) وما يتبعها للإمارة كما هى ، وإضافة خط (العقبة) وحصونها إلى (ولاية الحجاز) . ولم يبارحا قصر الإمارة حتى دخل المشير (مختار) باشا على الأمير ورفع إليه خبراً قد ورد إليه من المابين ونصه : «بلغوا عنا الأمير أن خطوط البحر الأحمر لا تدخل فى أراضى مصر المعطاة بالفرمانات السلطانية ، بل هى إحسان على حدة لحفظ طريق الحج الشريف إجابة لعريضة المرحوم محمد على باشا ، وقد استرجعنا حصن (الوجه) من نحو الخمس سنين ، ثم (ضبا) (والمويلح) من أشهر وأضفناها إلى ولاية الحجاز ، وأخيرا أمرنا بإضافة (العقبة) وحصنها وخطها للحجاز أيضا . وأما خط (الطور) وإدارته فتستمر على حالتها الراهنة بأن أمَّنّا عليها فخامتلو دولتلو عباس باشا ، كما أمَّنّا قبله سلفاءه . فأبلغوا تلغرافنا هذا للمسند الخديوى أ .هـ بنصه .

فرفع الأمير فى الحال مراسم الشكر إلى المابين ، وشاع خبر ذلك ففرح الناس وزال مابهم من الخوف . ولكنهم رأوا فى الرئيس مصطفى فهمى باشا عضواً أشلاً تجاه السياسة الإنجليزية فى مصر . قالوا وما ضره لو أظهر إلى أميره خلاف ما يبطن من ترجيح المصلحة العثمانية على المصلحة الإنجليزية ، ولم يقف فى وجه مولاه وقفة العنيد حتى ملأ صدره هماً وقلبه حزناً وغماً! قال بعضهم وإنما هو كما قال الله تعالى لنوح عليه السلام فى شأن ولده : «إنه ليس من أهلك إنه عمل خير صالح[٨٩] فلا تسألن ماليس لك به علم . . .»

واجتمع الوزراء وأهل المراتب بقصر الإمارة ليقرروا استقدام أصحاب الوظائف العالية وأهل الخطط والوجهاء وأعيان البلاد للاحتفال بقراءة الفرمان ، فكتبوا بذلك إلى المديرين والمحافظين .

(٨٩) خير صالح = (قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) ـ هود (٤٥)٠

فلما كان يوم الخميس السابع عشر من رمضان من السنة ، أى سنة تسعة وثلثمائة وألف للهجرة ، الرابع عشر من ابريل سنة اثنين وتسعين وثمانمائة وألف للميلاد ، فى نحو الساعة التاسعةاصطفت الجنود المصرية والانجليزية من مشاة وركبان فى رحبة قصر الإمارة على شكل مربع ، وكانوا قد أعدوا للمدعويين شوادر(٩٠) ثلاثة ، على يمين ويسار مدخل القصر للواجهة البحرية ، وكلها مفروشة بالطنافس وفوقها الرايات والأعلام العثمانية . فأقبل المدعوون من كل رتبة وصنف ، فجلس القناصل ووكلاء الدواويين وأصحاب الخطط ومديرو الإدارات وموظفو المجالس الأهلية والمختلطة فى الشادر الذى على يمين سلاملك(٩١) القصر ، وجلس العلماء والرؤساء الروحا نيون ورجال شورى البلاد وأعيان المدن فى الشادر الذى على يساره ، وجلس أصحاب الصحف والأعيان الأجانب والتجار الوطنيون وموظفو الدواويين فى الشادر الثالث أمام جناح القصر الأيسر ، وكلهم بملابس الزينة والتشريف .

فلما صارت الساعة العاشرة صباحاً ، وقد انتظم عقد هذا الاحتفال أقبل الأمير من قصر الإمارة إلى مظلة أقيمت له ، وحوله الأمراء من البيت العلوى ، والمشير مختار باشا ، ثم أقبل أيضا المشير (أحمد أيوب) باشا حامل الفرمان فى عربة من عربات التشريف وخلفه كوكبه من الفرسان فحيته الجنود بالسلام العسكرى ، واستقبله على سلم السلاملك رئيس التشريفات مع أصحاب المراتب فى الديوان الخديوى ، ولاقاه الامير على رأس السلم وحياه ، فسلم إليه

(٩٠) شوادر = مفردها شادر والكلمة أصلها فارس وتنطق (جادر) بالجيم المشربة وفتح الدال أو كسرها ـ وقد تضم فتصبح شادُر ـ وتعنى الخيمة والمعطف والملاءة والقناع وغطاء الخوان ـ وتعنى فى التركية الخيمة ـ وفى مصر يطلقها المصريون على المحل التجارى الذى تباع فيه الأخشاب . وفى النص يقصد بها الصيوان الذى يقام لاستقبال الناس فى الأفراح والمآتم .
ـ إنظر أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٧٩ ص ١٣٣

(٩١) سلاملك = الجناح المخصص لاستقبال الرجال فى القصر
ـ انظر ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٧١

المشير فرمان الولاية ، فأخذه وقبله وناوله إلى المهردار[٩٢] محمود شكرى بك ، ففض أختامه وقرأه على الناس كافة . فلما انتهى من قراءته قرأ أيضا الإرادة السلطانية القاضية بشبه جزيرة سينا تابعة للإمارة المصرية ، وقد كان السير بارنج قنصل جنرال الإنجليز يراها ضرباً من الإشكال وعلة من علل تأجيل قراءة الفرمان . فقد كان يطلب أن تقرأ قبل قراءة الفرمان ، ووافقه على ذلك الرئيس مصطفى فهمى باشا فلم يقبل الأمير وأصر على قراءتها بعد الفرمان . فوقع الأخذ والرد على ذلك يوما وبعض يوم حتى نال الخديوى أربه .

لما تمت قراءة تلك الإرادة صدحت الموسيقى العسكرية بالنشيد السلطانى ، ونادى سردار الجيوش المصرية[٩٣] بالدعاء للسلطان ثلاثاً ، فنادت الجنود كذلك وأطلقت قلعة الجبل مائة مدفع ومدفع ، ثم هتف سردار العساكر بالدعاء للخديوى ثلاثاً ، فأجابه كذلك جميع العسكر ، وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى ، فصعد الخديوى إلى قاعة التشريف ومعه المشيران (مختار باشا) (وأحمد أيوب باشا) وجلسا برهة لطيفة ، ثم قام المشير (أحمد أيوب) باشا وصافح الخديوى وانصرف إلى مقره بقصرالمنيرة .

وأقبل المدعوون لعمل التشريف ، فدخلوا على الأمير ورفعوا إليه مراسم التبريك ، ورأيته عندما اقتربنا من مقامه مقطب الوجه تظهر عليه دلائل التفكير . فلما غربت شمس اليوم تلألأت البلد بالأنوار وازدحمت الشوارع

---

(٩٢) المهردار = Muhrdar حامل الأختام ـ وهى وظيفةمن الوظائف العالية بالقصر السلطانى أو الخديوى
ـ انظر ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٠٤٥ .

(٩٣) سردار الجيوش المصرية = هو الجنرال هربرت هوراتيو كتشنر باشا الذى عين فى ١٣ أبريل ١٨٩٢ فريقا وسردارا للجيش ورئيسا لأركان الحرب ـ بدلا من الفريق السير فرنسيس جرانفيل باشا الذى إستقال من هذه الوظيفة
ـ إنظر الوقائع المصرية ١١ أبريل ١٨٩٢ .
وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ١٧ .

والطرقات بالمتفرجين والمتفرجات من كل جنس . وفى منتصف الساعة التاسعة مساء ركب الأمير فى موكبه وأخذ يتجول فى وسط تلك الجموع التى غصت بها الشوارع وسائر المسالك . حتى إذا كانت الساعة العاشرة عاد إلى قصر القبة .

وبينما الناس فى شاغل ببهجة هذه الأفراح عن تتبع سير الحوادث وما وقع منها قبل ساعة قراءة الفرمان ، كان الشجار قائم بين الرئيس (مصطفى فهمى) باشا والمشير (مختار) باشا ، والحدة آخذه من كليهما مأخذها . ذلك أنه لما كانت ليلة الرابع عشر من رمضان ، احتشد فى جامع القلعة الكبير الخلق الكثير من الأمراء والكبراء وأهل المراتب وأصحاب الخطط والعلماء والأعيان ، وبينهم المشير (مختار باشا) والمشير (أحمد أيوب) باشا للإحتفال بتذكار وفاة (محمد على باشا) على العادة المألوفة فى كل عام . واتفق جلوس الرئيس (مصطفي فهمى) باشا بجانب المشير (مختار) باشا والمشير (أحمد أيوب) باشا ، فجعلوا يتسامرون لحظة ثم قادهم السمر إلى المناجاة فى الباعث على تأجيل قراءة فرمان السلطان وفى الامتناع عن ترك خط العقبة كطلب السلطان ، فأظهر الرئيس غلظة في القول وشدة فى الرد ، فعاب عليه المشير مختار باشا جموده وانقياده وراء (السير بارنج) ، ونقم عليه نزوعه إلى العداء ، وقال له : «لقد صرتم وجماعة الوزراء شيعة للإنجليز ، وحرباً على سلطانكم . فخير لك أن تتخلى عن هذا المنصب ليتولاه من هو أجرأ منك وأقرب إلى نصفة أميره وسلطانه . قيل ، فامتعض الرئيس ورد على المشير رداً خشناً ، واشتد اللجاج بينهما والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير .

وبينما هما على هذا أقبل الخديوى بموكبه ومعه الأمير محمد على فسكتا ، وقام المحتشدون لاستقبال الخديوى . فجلس فى صدر الإيوان وأخذ الفقهاء والمقرئين فى تلاوة الأوراد ، ثم انصرفوا جميعا . يقال ، هبط الرئيس من قلعة الجبل مقطب الوجه ، كاسف البال وقد أخذته غمة

شديدة فبات ليلته وأصبح فاجتمع بالسير بارنج برهة ، ثم قفل راجعاً إلى ديوانه . فما هى الا ساعة او بعضها حتى جمع الوزراء ، فاجتمعوا بالرئيس برهة ثم انصرفوا . فشاع الخبر بأن سيتخلى الوزراء جميعاً عن مناصبهم ، وتفشت القالة بذلك بين موظفى الدواوين . وظهرت صحف الأخبار فى غروب ذلك اليوم طافحة بحديث ذلك الشجار وخبر مكانة الرئيس عند صاحب السياسة الإنجليزية .

حدثنى صديق من أصحاب الوظائف العالية بمجلس الوزراء قال : لقد كنا نظن أن مافطر عليه الرئيس من الدعة والسكون وإخلاده إلى طاعة الانجليز ، حتى لم يكن قط يواقع محرما فى سياستهم إلى هذا الحيز ، تحول دون مغاضبة المشير (مختار) باشا ومخاشنته ، وهو لعمرى الحق لم يأت أمراً فرياً ، حيث أخلص له النصح وحضه على العدول عما هو عليه من العداء لسلطانه ، وحذره من عاقبة الاستكانة ، وأن لا يكون فى منصبه من المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورتموا للمذلة[٩٤]» .

فقلت : «يرحمك الله! ربما كان الحق من وراء مايقولون ، وعهدى بك النصفة وعدم نقل الأخبار قبل تمحيصها» .

فقال : «والله إنى لكما تعهد . واعلم أنه لما وصل فرمان الولاية بعد ذلك التسويف والتعليل ، وقد كاد الناس يقطعون من وصوله رجاءً وأملاً لتقلب صاحب سياسة الإنجليز فى أغراضه وتلونه فى مقاصده على ما اشتهر ، وإصرار السلطان على وجوب ترك خطى (العقبة والطور) وما بينهما . ولم يدر فى خلد أحد من أهل المراتب وأصحاب السياسات أن السير بارنج يفزع إلى المشاغبة والتشويش ، ويكيد كيداً فى شخص الرئيس . فإنه لما اجتمع الرئيس والوزراء بحضرة الأمير لتعيين اليوم الذى يتلى فيه الفرمان مانع الرئيس فى ذلك وقال :

(٩٤) تعبدهم القهر ورتمو اللمذلة = إستبعدهم القهر واستسلموا للمذلة ـ قراءة ترجيحية

لا يتلى حتى نعرف ما اشتمل عليه من الأحكام أولاً ، وما جاء فيه معلقاً بخط (الطور) وما يتبعه ثانياً ، فإن بدا لنا فيه خلاف رفضناه . وها هى الدولة المحتلة قائمة بجنبنا تناهض عدونا وتعزز مقامنا .

فراجعه الأمير ، وقال : لا يصح أن تكون شيعة لغير خليفتنا ، ولا يليق أن نكون حربا على سلطاننا[٩٥] ، وكلنا يعلم بأن قد جاء الخبر اليقين إلى المشير مختار باشا بأن الفرمان لم يختلف فى شئ عن فرمان المرحوم أبى ، ولم يتضمن شيئاً عن خط الطور وما معه . فالامتناع إذاً عن قبوله جريمة كبرى ، وخروج عن طاعة سلطاننا ، وإنى لعلى يقين من إنكار جماعة الإنجليز لعملك . فإن أنت لم ترجع إلى رشدك ، سفه الناس قولك ، وغضوا منك بالقدح فى شأنك والتكذيب لمدعياتك .

فأصر الرئيس على قوله وعضده جماعة الوزراء ، وانفض مجلسهم يومئذ على غير طائل . وعلم المشير (مختار) باشا بالخبر ، فأكبره وأبلغه إلى المابين على جناح البرق ، فقام له أهل المابين وقعدوا ، وكلم السلطان سفيرى الروس والفرنسيس فى ذلك .

فلما كان الرابع عشر من رمضان ، وقد اجتمع جميع الوزراء والكبراء وأهل المراتب والعلماء والفقهاء بجامع القلعة ، جلس المشير (مختار) باشا مع

---

(٩٥) يكشف شاروبيم هنا عن أن مصطفى فهمى باشا رئيس النظار لم يكن يقيم وزنا للعلاقات بين الدولة صاحبة السيادة والولاية التابعة مصر ـ وبالتالى للعلاقة بين المتبوع (السلطان) و(التابع) ، وأن كل ما كان يعنيه هو أن يعمل وفق هوى المعتمد البريطانى (إيڤلين بارنج) ـ وأن (عباس حلمى) لم يكن يقف ساكتا إزاء هذا المسلك من جانب رئيس نظاره ـ فكان يعاتبه ويؤنبه .
ويقول (عباس حلمى) فى مذكراته أن مصطفى فهمى لم تكن له سوى سلطة محدوده على المصريين ، وأن موقفه كان مصبوغا بالتسليم تجاه المحتلين ، وأنه لم يترك فرصة لمحاربة الباب العالى ، وأنه كان معاديا لسياسة التعاون مع تركيا ، وأن سياسته كانت العمل على إبعاده (أى عباس) عن الخلافة .
ـ انظر (عهدى) ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ١٨٩٢ ـ ١٩١٤ـ ترجمة جلال يحيى ، مراجعة إسحق عبيد ـ تقديم أحمد عبد الرحيم مصطفى . القاهرة ـ دار الشروق ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣ ـ ص ٦٢ .

الرئيس مصطفى باشا ، فكلم المشير الرئيس فيما بدر منه من القول لأميره ، وعاتبه ثم عاب عليه رأيه .

وقال : والله إنها لرئاسة مفضية إلى رسوخ قدم المغتصبين . ولسوف تنتقض العقدة ، وتجتمع القلوب إلى غيركم ، وفى ذلك إتلاف دنيا وأخرى .

فكشف الرئيس عند ذلك عن وجه الغضب وخاشن المشير فى القول ، فبهت الحاضرون . وبينما هم على هذا أقبل الخديوى ، فسكتا ثم انصرف الجمع وكلهم يظنون وقوف المعارضة عند هذا الحد ، ولم يدر فى خلد أحد أن الرئيس يفزع إلى هذه الاستطالة بعصاء السير بارنج ، فخاب ظنهم . فقد بات وأصبح وهو يطرق بابه ، وحدثه بخبر ما وقع مع المشير (مختار) باشا . يقال ، فأظهر التأفف بهتا وتغريرا ، وأوعز إليه بالتخلى عن الرئاسة تجسيماً للفتنة وتهويلاً باستفحال الخطب ، وأن يطير الخبر بذلك إلى الباب العالى .

فجاء الرئيس إلى ديوانه وجمع إليه الوزراء فتناجوا لحظة ، ثم حرروا محضراً بواقعة الحال وبعثوا به إلى المابين ، وأرسلوا فى طلب المشير(مختار) باشا ، فجاءهم فلم يحفلوا به ، فعاتبهم ، وقال : «لست أدرى كيف تعدون نصيحتى لشخص الرئيس تداخلا فى أعمال الإمارة؟» فقال : «نعم هى كذلك ، ولا صبر لى على ذلك البتة» . فأجاب المشير إذا كنت كما تقول فما رأيك إذاً فى عمل السير بارنج وتصريفه أحكام الإمارة طوع أغراضه فى رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها . إنه لشئ عجاب!»

فأطرق الرئيس ، وقال : قد رفعنا الأمر إلى الباب العالى ، وسياستنا أملت الجواب ، فلا سبيل للجدال الآن .

فقام المشير حانقاً وانصرف غاضباً . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى وصل جواب الباب العالى على جناح البرق بأن ثقة السلطان بمندوبه السامى لدى الإمارة المصرية عظيمة ، ورضاه عنه كثير . فأجفل الرئيس ، ولعله كاد يذوب خجلاً .

وجاء الأمر السلطانى أيضا إلى المشير (أحمد أيوب) باشا بأن لا يبارح مصر حتى يفض هذا الخلاف بالاتحاد مع الأمير فصدع بالأمر ، وقد كان على قدم الرحيل . وجمع الأمير سائر الوزراء والرئيس ، وتناجوا فى الأمر طويلا ، وكثر اجتماعهم تارة بقصر القبة ، وتارة بقصر الإمارة بعابدين . وقد أعيا الرئيس الغدو والرواح إلى قصر (السير بارنج) ليعلمه بخبر كل ما قيل ويقال . وما زالوا على هذا حتى تمثل المشير (أحمد أيوب) باشا يوما بحضرة الأمير وأبلغه خبر وقوع الصلح بين الر ئيس والمشير (مختار) باشا . وجاء أيضا الرئيس وأبلغ الأمير خبر ذلك ، وجاء معه السير(بالمر) ، المستشار[٩٦] المالى ، وكلم الأمير بما لم تصل إلينا معرفته .

---

(٩٦) السير بالمر = سير إلوين بالمر Elwin palmer المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية (اكتوبر ١٨٨٩ ــ سبتمبر ١٨٩٨) . فى سبتمبر ١٨٩٨ عين مديرا للبنك الأهلى المصرى ــ وحل محله المستر الدون جورست Eldon Gorst مستشارا ماليا فى سبتمبر ١٨٩٨ حتى عام ١٩٠٤ .
كانت الدول الأوروبية قد فرضت نظام الرقابة الثنائية Dual control على الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) حينما ارتبكت المالية المصرية فى عهده(١٨٧٦) . فلما فرضت إنجلترا وفرنسا عليه تعيين وزيرين أوروبيين فى الوزاره المختلطة (١٨٧٨) أبطل العمل مؤقتا بنظام المراقبة الثنائية .
فى عهد توفيق أعيد العمل بنظام المراقبة الثنائية ، وخول الرقيبان حق حضور جلسات مجلس النظار والاشتراك فى مداولاته مع بقاء إختصاصاتهما الأصلية فى رقابة شئون مصر المالية .
بعد الإحتلال البريطانى (سبتمبر ١٨٨٢) سعت بريطانيا لدى حكومة شريف باشا (٢١ أغسطس١٨٨٢ــ١٠ يناير ١٨٨٤) إلى الغاء المراقبة الثنائية . وبالفعل فإن الحكومة اصدرت فى ١٨ يناير ١٨٨٣ مرسوما بإلغاء الرقابة الثنائية .
ولقد كان هذا عملا طيبا من جانب حكومة شريف باشا لو أنه كان لحد ذاته . لكن شريفا طلب فى فبراير ١٨٨٣ من الخديوى توفيق الإستعانة(لوقت مابأحد الأجانب تكون درايته عونا لها فى حل المسائل المالية) . وبالفعل فإن الخديو أصدر فى الرابع من ذلك الشهر مرسوما خديويا بتعيين بريطانى (السير اوكلاند كولفن Auckland colvin) (مستشارا ماليا لدى حكومتنا) له حق حضور جلسات مجلس النظار ــ البحث والنظر فى المسائل المالية .
ثم إستمر تعيين المستشارين الماليين من البريطانيين فقط حتى إتفق على الغاء هذا المنصب ومنصب المستشار القضائى عام١٩٣٦ بعد توقيع المعاهدة الأنجلو ــ مصرية . ورغم القيود التى قيد بها اختصاص المستشار المالى إلا أن العمل جرى على طغيان نفوذه على سلطان الحكومة المصرية ، وبقى هذا المستشارحتى عام ١٩٣٦ صاحب الحول والطول فى شئوون مصر المالية .
ــ إنظر (مذكرات سعد زغلول ــ الجزء الأول) تحقيق عبد العظيم رمضان ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ــ القاهرة ١٩٨٧ ــ ص ٢٢٦ حاشية ١٥٤
ــ الوقائع المصرية ١٨٩٨/٩/٣ ، ١٨٩٨ /١٠/٢٢
ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ــ ١٨٩٢)ــ مرجع سبق ذكره ص ٣٣ ــ ٣٨

قال ، واعلم أن (بالمر) هذا هو يد(السير بارنج) القابضة على عنق الهيئة الحاكمة ، وقدمه الساعى وراء كل قصد ، وكلمته المطاعة فى طول البلاد وعرضها . فهو الكل فى الكل وفوق الكل ، حتى لقد جعل لشخصه فى تحرير جريدة الوقائع ، يعنى جريدة الإمارة الرسمية ، مركزا اختصاصيا بتكذيب ما تذكره جميع الصحف المحلية والأجنبية من حوادث أصحاب الوظائف ، أو ماتنتقده من عسف أهل المراتب ، أو غير ذلك مما يرى هو فيه مساً لحرمته والغض منه بالقدح فى عمله وتكذيب مدعياته .

قال ، والعجب أنه لما علم بأنه قد جرت العادة منذ القدم أن من يحضر من كبار الدولة بفرمان الولاية للأمير يعطى من الخزينة قدرا من المال لايقل عن عشرة آلاف ذهبا ، وقد وقع ذلك لمن جاء بفرمان الولاية للخديوى توفيق ، امتعض وكاد يغرر بالرئيس كى يبطل هذه العادة ويخرجها من الإباحة الواجبة إلى الحظر الممقوت ، حتى لقد كلم السير بارنج الأمير فى ذلك . فلما هم المشير(أحمد أيوب) باشا ومن معه بالرحيل ، تقدم إلى الأمير فى أنه لم يقبل مالاً ولا هدية ولا تحفه ولا شيئا من حطام الدنيا قط ، وأنه مأمور بذلك من جانب المرجع الأعلى ..

فأرسل الأمير بخبر ذلك إلى (بالمر) فأعرض ولم يحفل به ، وقد كان هو والسير بارنج يريدان بهذه المكيدة الشنعاء التفنن فى الشمات بالسلطان ورجال دولته .

قال ، مما هو معروف عنه إنه يد السير بارنج ورجله ، فهو مختال فخور ، نازع إلى كسب المال وتخليد الأثر وبعد الصيت ، على خسة فى الحسب وضعة فى الأصل . فاستفرغ وسعه فى الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها ، هذا مع التوسعة على صنائعه من الإنجليز فى أحوالهم بالمال والجاه وإنصافهم فى أعطياتهم ، وتقديمهم على أصحاب المراتب وأهل الخطط من المصريين ، حتى لقد اتخذ له عيوناً من زعانف النزلاء وحرافيش

الدخـلاء ، فـقلده فى ذلك أصـحـاب الوظائف من الإنجليـز واتبـعـوا اثاره حـذو النعل بالنعل واقـتـفـوا طرقـه ، بأسـهـم مناهج الاقـتـداء ، حـتى كـان مـانرى اليـوم وسوف نرى ماسيكون والله الخلاق العليم(٩٧) أ . هـ .

(٩٧) فى منشورسرى كتب عام ١٩٠٥ لإرشاد الموظفين البريطانيين الجدد فى الجهاز الإدارى المصرى ـ شرح كرومر «الخلفية التاريخية» لقصة (الإحتلال المدنى) للإدارة المصرية فقال :(إن الإحتلال البريطانى لمصر ذو خاصية ليس لها سوابق . فبينما الإحتلال يكون عادة نتيجة لهزيمة فى الحرب ، فإن هدف بريطانيا فى حالة مصر كان لحفظ النظام وإعادة الإستقرار للسلطة الشرعية للخديو وحكومته . لهذا فإن الإحتلال البريطانى لمصر يتميز بأنه إحتلال ودى ، عن طريق الموافقة المتبادلة للأطراف المعنية ، ولايقلل من أى ناحية إعتبارات الإستقلال فيحول البلاد إلى بلد مهزوم . عندما بدأ الإصلاح ، كان المعتقد أن الهدف المنظور يمكن تحقيقه عن طريق تقليل أو تحديد عدد الموظفين البريطانيين بقدر الإمكان . كان واجب هؤلاء الموظفين فقط هو إرشاد ونصح الموظفين المحليين الذين تستقر فى أيديهم كل عناصر العمل التنفيذى للإدارة . . . . ومع مضى الوقت ، ومع تزايد وضوح المهمة التى نذرت الحكومة البريطانية نفسها لها ، فقد وجد أن صيانة هذا النظام لا تتوافق مع المصالح الحقيقية للبلاد ، وأن مساعدة إنجليزية أكثر ضرورية إذا كان المطلوب هو تحقيق الأهداف المطلوبة . تم تعيين عدد صغير من كبار الموظفين بسلطات تنفيذية . وبالتزامن مع هذه التعيينات ، وضع عدد معتدل من الرجال الإنجليز فى الوظائف المساعدة ذات الأهمية الأكبر أو الأقل ، لكن المبدأ كان دائما هو أن تحكم مصر بواسطة المصريين أنفسهم . ولسوء الحظ ، ومع أسف السلطات المسئولة عن التوسع المتوالى فى التدخل التنفيذى البريطانى ، فإن هذا المبدأ لم يثبت نجاحا . لقد أوضحت التجربة أن الموظف المحلى أيا كان إبتهاجه وترحيبه بنصيحة وتعليمات رئيسه الإنجليزى ، فإنه لم يصل بعد إلى مرحلة التطور الثقافى التى تساعده على تنفيذ هذه التعليمات بكفاءة ، ولم يصل إلى مستوى الشجاعة الأخلاقية الكافية لمواجهة الذعر الناجم عن المسئولية . . . . . إن الهدف الأول والوحيد الذى ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا هو الإيثار المطلق . إنه بكلمات قليلة ، أن نسبغ على قوم يعد ماضيهم واحدا من أكثر التواريخ باعثا على الأسى فى التاريخ ، المزايا والإمتيازات التى لم يتمتعوا بها على أيدى الأجناس الأجنبية العديدة التى سيطرت عليهم حتى اليوم ، وأن نسعى بأقصى طاقاتنا أن ندرب ، بالمثل والنموذج أجيال المصريين الذين قد يأخذون مكاننا وينفذوا تقاليد الإدارة) .

ليس من الصعب معرفة لماذا حرص كرومر وسكرتيره (هارى بويل) على أن لا يقع هذا المنشور السرى فى أيدى المصريين الذين قد يستخدمونه ضد الإحتلال البريطانى . لكن الأكثر إثارة لم يكن هذه الثقة بالنفس المتغطرسة والمستبدة التى تمثل عنصر أساسيا فى الإمبريالية الناجحة ، كان الإصرار الواضح الذى أعلن به كرومر أنه كان يعلم المصريين أن يحكموا انفسهم بأسرع ما يمكن . ولقد كان هناك عدد قليل من الإنجليز الذى يعرفون أنهم كانوا يخدعون أنفسهم ـ لكن أغلب الإنجليز كانوا مضطرين للإذعان لافتراءات كرومر ـ وخاصة أولئك الذين كانوا يعملون تحت إدارته .

فى عام ١٨٩٦ كتب ألونزومونى Alonzo Money القوميسير البريطانى فى صندوق الدين ـ والذى لم يكن تحت سيطرة كرومر ـ مقالا للتوزيع الخاص بين أصدقائه ، قال فيه إن دعوى بريطانيا أنها تطيل أمد الإحتلال من أجل التثبت من فعالية إصلاحاتها ـ كانت دعوى زائفة Bogus .

وفى كتابه The Future of Egypt الصادر عام ١٩٠٨ قال ادوارد ديسى Edward Diecy إن شخصية كرومر جعلته ينحاز دون وعى نحو نظام من الحكم الأوتوقراطى المؤسس على موظفين بريطانيين صغار يتبعونه تماما .=

فلما كان يوم الأحد السابع عشر ابريل من السنة ، أى سنة اثنين وتسعين وثمانمائة وألف ، والعاشر من رمضان سنة تسع وثلثمائة وألف للهجرة ، برح الوفد القاهرة إلى الإسكندرية ومعهم (محمود شكرى) بك المهمندار ، (وتوفيق بك) أحد رجال الديوان الخديوى ، (وشوقى باشا) صهر المشير مختار باشا . وكان فى انتظاره بمحطة الباب الجديد محافظ البلد والعلماء والمشايخ والأعيان ، فساروا بهم إلى قصر المحافظة فلبثوا برهة لطيفة ثم انتقلوا إلى بيت (الناضورى) بك ، أحد وجوه البلد ، فتناولوا إفطار الصوم عنده ، حتى إذا صارت الساعة الثانية ، أى بعد العشاء الأولى ، نزلوا جميعا إلى الباخرة (عز الدين) . وأصبحوا وقد أقلعت الباخرة . فصدحت الموسيقى بالسلام السلطانى ، وأطلقت الدارعة محمد على واحد وعشرين مدفعاً وطير محافظ البلد الخبر بسفرهم إلى الديوان الخديوى والباب العالى .

سافر الوفد وبقى المشير (مختار باشا) فى قصر الإسماعيلية تكتنفه العيون والجواسيس من كل جانب ، وأصحاب الشحنة(٩٨) لهم من أتباعه فى كل يوم شأن ، حتى لقد بلغ المين والإفك بصاحب الشحنة مبلغه ، فرفع إلى السير بارنج بشكوى يشكو فيها أعمال المشير ، ويقول إنه دائب على تحريض الناس لإيقاظ الفتنة ومعاكسة السياسة الإنجليزية بمصر . فأكبرالسير بارنج

=ويقول كرومر فى الفصل الذى خصصه عن(الموظفين البريطانيين) فى كتابة Modern Egypt أنه كان فى مصر عام ١٨٩٦(٨٤٤٤) موظفا مصريا فى الجهاز الإدارى فى مقابل ٦٩٠ موظف أوروبى . فى عام ١٩٠٦ كان هناك ١٢٠٢٧ مصريا و ١٢٥٢ أوروبيا .
وأيا كانت أسباب كرومر التى أبداها لتبرير أرقامه فإن الحقيقة الباقية هى أنه فى العقد الأخير من نظامه تزايد عدد الأروبيين المشتغلين فى إدارة مصر إلى أكثر من ٨٠٪ . وبالطبع فان الغالبية العظمى منهم شغلت أكثر المناصب عظما ومسؤلية ـ بما تحمله هذا المناصب من تأثير قوى فى سير الحياه الأدارية فى البلاد .
ـ انظر بيتر مانسفيلد (The British ın Egypt) peter Mansfield Weidenfeld and Niconlson – London – 1978 – pp., – 176
ـ راجع أيضا القوائم التى قدمها إبراهيم عبد المسيح للوظائف التى شغلها البريطانيون فى نظارات المالية والأشغال ، والحقانية ، والحربية ، والداخلية ، ومصلحة السكك الحديدية
ـ (دليل وادى النيل)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٢ ـ ٦٥

(٩٨) أصحاب الشحنة = رجال الشرطة

الأمر وسير بالقصة إلى الأمير بعد أن وقع عليه ماشاء ، وسأله إيقاف المشير عند حده وإلا ساءت العاقبة . قيل وأوعز إلى أحد المشايخ الذين يدعون الورع والعمل بما يأمر به الدين والسير على مقتضى سنن الأنبياء والصالحين ، فكتب الشيخ رسالة وفرقها بين الناس ، وكل مافيها الحط من كرامة المشير ورميه بالتهم الفاضحة ، ويقول فيها بعد كلام طويل : «واعلم إنه لاينفع عبدا أن يشفى غيظه بهلاك نفسه ، أو يجر النفع لها بإظهار خسة فى أصله أو بدعة فى دينه أو منكر فى رأيه أو أن يلقى الناس بوجهين أو يمشى بينهم بلسانين» ، إلى أن قال : «فلا يحفل الناس به ولكنهم يعدونه من سقط القول وهزر الكلام» .

وعجز السير بارنج عن نكاية المشير ، وأخفق سعيا فى منع قراءة فرمان الولاية وتكبير مسألة خط الطور ، فلم يطق الصبر على ذلك ، وقامت صنائعه تملأ الفضاء ووعداً[٩٩] ووعيداً حتى استنكر عمله ألصق الناس به . وامتنع المشير عن لقاء زائريه أياماً لمرض ألم به ، فظن صنائع الرئيس مصطفى باشا وأنصار السير بارنج أن قد دبت إلى مهاده عقارب تلك السعايات ، وأنه لن يلبث أن يأتيه أمر السلطان بالشخوص إلى دار السلطنة ، وأرجفوا بذلك أياماً .

فلما كان يوم عيد الفطر أول شوال على المشهور ، احتشد الأمراء والوزراء وأصحاب المراتب وأهل الخطط ومقدمو الجند ، والعلماء والقضاة ورجال المحاكم الأهلية والمختلطة ، وكلهم بملابس الزينة والتشريف ، بقصر الإمارة بعابدين ليرفعوا مراسيم التهانى بالعيد للأمير ، وإذا بالمشير وقد أقبل فى موكبه وحوله الحرس من العسكر السلطانى ، فشخصت إليه العيون ومدت الأعناق ، فشق طريقه وسط تلك الجموع المحتشدة وخلفه حاشيتة وأصحاب ديوانه ، وصعد إلى قاعة التشريف ، ودخل مع جماعة الأمراء من البيت العلوى ، فهنأوا الأمير بالعيد ونزلوا . وجعل المدعوون يدخلون للمعايدة على الرسم والترتيب المعتاد حتى تم التشريف وانقضت أيام العيد برسومها .

---

(٩٩) ووعدا = وعدا

ولم يبطل الإرجاف بقرب استدعاء المشير إلى دار السلطنة وإراحة الديار من دسائسه . واتفق أن عاوده المرض فاحتجب أياماً أخرى ، فزاد الإرجاف ، وكثر تطواف صنائع الرئيس حول قصره وتساؤلهم عنه ، وتكلم أصحاب الصحف المرتزقة من بيت السير بارنج فى ذلك ، وأشاروا إلى أمر يقع فى مستقبل الأيام فى سياسة الاحتلال ، فتنقلب له الأحوال انقلابة كبرى .

ولما كان سابع شوال من السنة حصل الاحتفال بفتح الجسر الجديد(١٠٠) ، الذى أنشئ بين (بولاق القاهرة) (وامبابه) لاتصال خطوط السكك الحديد القبلية والبحرية معا ، فاحتفلوا بفتحه احتفالا عظيما ، حضره الأمير وحاشيته وسائر الأمراء والكبراء والوزراء ومقدمو الجند وقناصل الدول ، ولم يحضره المشير(مختار) باشا . فوقف الأمير على رأس الجسر وحوله سائر المدعوين ، وتقدم أحد أصحاب الهندسة وجعل يفتح صينية الجسر ، وطولها ثمانية وخمسين مترا ووزنها مائة وخمسين ألف كيلو جرام ، وحده بواسطة دولاب صغير معد لذلك ، فأعجبنا منظره جدا . ثم أشار الأمير فسيروا يخته «نسيم النيل» وما معه من البواخر ، فسارت تشق البحر مارة من فتحة الجسر . ثم أمر فاقفلوه وتقدم نحو المدعويين وصافحهم وانصرف عائدا إلى قصر القبة .

وقد علمت من أصحاب الهندسة أن هذا الجسر أعظم الأعمال وأنفعها ، فيه ست قناطر طول كل منها اثنان وستين متراً ، وقنطرتان كل منها أربع وستين متراً ، ومنظرتان فى طرفيه صغيرتان كل منها احدى عشر متراً ، وهو فى عرض ثلاثة عشر متراً ، وفى وسطه سكة حديدية إلى جانبها طريقان للراجل . وله فتحة من وسطه تدور بآلة سهلة للغاية ، وكله من الحديد والصلب والفولاذ ،

(١٠٠) الجسر الجديد = هو كوبرى إمبابه الموجود حاليا والذى يصل بين بولاق وإمبابة ـ وقد إفتتح فى الخامس من مايو عام ١٨٩٢ = ٧شوال ١٣٠٩ .بلغ طوله ٥٠٠ متر ـ وبلغت نفقاته ٨٢٠٠٠ جنيه ـ وكانت القطارات المتوجهة إلى الصعيد تنقل على معدية بخارية إلى بر إمبابة قبل إنشائه .
ـ إنظر (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) ـ مرجع سبق ذكره ص ١٢٣ .

وفيه من المعدن مايبلغ وزنه مائة وثلاثين ألف كيلو جرام ، بحيث تمر عليه أثقل مركبات وقاطرات السكة الحديد ، وأعظم أحمالها إلى ثمنمائة ألف كيلو جرام ، كما ثبت ذلك بالتجربة .

قالوا وكان الابتداء فى عمله فى شهر مايو عام تسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، وتم بناؤه فى عامين اثنين ، وبلغت تكاليفه اثنين وثمانين ألف جنيه أو يزيد قليلا . وكان الذى أشار ببنائه الكولونيل منكريف[١٠١] ، وكيل الأشغال العمومية ، وعنى كثيرا بتتميمه فى ذينك العامين ، فتم على ماأراد ، وسارت عليه قطورات الحديد من الأقصر إلى القاهرة فالاسكندرية فدمياط فرشيد فالسويس وبورسعيد ، فكان نفعه عظيما للغاية .

قلت ، لم يحضر المشير(مختار) باشا حفلة ذلك اليوم ، فلما تفشت القالة بذلك ظن الناس أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن الرجل راحل لا محالة . فلما كان العاشر من شوال ، برح القاهرة إلى الإسكندرية ومعه بطانته وسائر خدمه وأتباعه وأحماله ، فقالوا إنه راحل عنا إلى دار السلطنة ، وقد نالا منه ، الرئيس والسير بارنج ، وأفلحا سعياً فى قهره وكبح شكيمته ، والأمر على غير ماكانوا يتوهمون فقد كان سفره إلى الإسكندرية ليقضى بها فصل الصيف على عادته

---

(١٠١) الكولونيل منكريف = سير كولين سكوت مونكريف Sir colin Scott– Moncrieff مهندس رى بريطانى سابق في الهند وبورما ـ تعاقدت معه الحكومة المصرية عام ١٨٨٣ بناء على نصيحة اللورد دوفرين Dufferin لتحسين نظام الرى المصرى . تسلم فى عام ١٨٨٣ مسئولية الرى فى البلاد . فى ١٨٨٤ أصبح سكوت مونكريف وكيلا لوزارة الأشغال بادئا السيطرة الأنجلو ـ هندية على الرى المصرى ، وجالبا مجموعة من المهندسين الإنجليز الذين تدربوا فى كلية الهندسة الهندية (توماسون Thomason) ـ أمثال جارستين Garstin ووليام ويلكوكس wiliam willcocks.

خلال فترة عمله التى إنتهت عام ١٨٩٢ كان كولين سكوت مونكريف هو المسيطر على الرى المصرى ـ خلفه السير وليام جارستين .

ـ انظر روبرت تيجنور Robert L . tignor
(Modernization and British colonial Rule in Egypt, 1882 – 1914), Ibid., pp., 53,110,112 – 120, 197.

– إبراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٤٥
– (مذكرات سعد زغلول)ـ الجزء الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٦٤٢ ـ حاشية ٢١٠

فى كل عام ، فلما وصلها نزل (بقصر نمرة ثلاثة) على ضفاف المحموديه ، فزاره أصحاب المراتب والعلماء وأعيان البلد .

وانقلب تخوف اصحاب الرأى من تأخير وصول فرمان الولاية ، وتهديدات صاحب سياسة الانجليز ، وارجاف السير بارنج وصنائعه ومكابرة الرئيس لمولاه الامير ، الى رجوع الانجليز ثانية الى احتكار وظائف الشحنه فى عنصرهم واقصاء انباء[١٠٢] البلاد ، ورضاء الرئيس بذلك طائعا مختارا . وقد كان السير بارنج سعى سعيه فى ذلك لعهد رئاسة الوزير(نوبار)[١٠٣] باشا فلم يفلح ، اذ قام الوزير فى وجهه ومانعه واشتد عليه ، وكتب إلى صاحب سياسة الانجليز فى

---

(١٠٢) أنباء = أبناء

(١٠٣) نوبار توباريان = (١٨٢٥ ـ ١٨٩٩) سياسى أرمنى الأصل ـ ولد فى أزمير عام ١٨٢٥ ـ تلقى تعليمه فى سويسرا وفرنسا ـ الحقة عمه بوغوص بك Bogos ناظر خارجية محمد على باشا بأعمال الترجمة عند الوالى عام ١٨٤٢ . عمل سكرتيرا خاصا لإبراهيم باشا ، وإتخذه عباس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) سكرتيرا خاصا أيضا . فى عهد سعيد (١٨٥٤ـ ١٨٦٣) عمل مديرا للسكك الحديدية . أصبح أبرز وزراء إسماعيل (١٨٦٣ـ ١٨٧٩) ، وكان مبعوثه فى الأستانة ومفاوضا باسمه هناك . هو صاحب مشروع المحاكم المختلطة ـ أول رئيس نظارة مصرية مسئولة (٢٨ أغسطس ١٨٧٨ ـ ٢٣ فبراير ١٨٧٩) . تزايدت المعارضة لسياسة حكومته الميالة لتحقيق مصالح الدائنين الأجانب ، وظهرت فى عهده إتجاهات برلمانية معارضة قوية ـ وقع فى عهد وزارته اول تمرد عسكرى للجيش المصرى عندما تظاهر الضباط المصريون فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ إحتجاجا على إصدار نوبار لقرارت تمس مصالحهم المعيشية . ترك (نوبار) مصر إلى أوروبا حتى إستدعى فى يناير ١٨٨٤ ليشكل نظارته الثانية (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩ يونيو ١٨٨٨) ، وفيها قبل النصيحة البريطانية بإخلاء السودان المصرى . لكنه مع هذا دخل فى صراع مع الوجود البريطانى حول النفوذ فى الإدارة المصرية (إنى فى صف الإحتلال . . . ولكن ليس الإحتلال الإدارى)
أقاله الخديو توفيق فى التاسع فى يونيو ١٨٨٨ ـ شكل نظارته الثالثة (١٥ إبريل ١٨٩٤ ـ ١٢ نوفمبر ١٨٩٥) لكن صحته كانت قد بدءت فى التدهور ، ثم جاءت مسألة رغبة الخديو السابق إسماعيل فى العودة إلى مصر بعد أن إشتد عليه المرض ورفض نوبار الموافقة على ذلك خشية (أن تحدث شيئا من الإرتباك مع الإنجليز) لتملأ قلب عباس الثانى نفورا منه ، وقد بلغ هذا النفور حد قبول تشكيل (مصطفى فهمى باشا) عميل الإنجليز للنظارة الجديدة .
كانت تيجران باشا Tigrane وكيل الخارجية المصرية ، وناظرها فى عهد نظارة مصطفى فهمى الأولى (١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٧ يناير ١٨٩٢) ، ونظارة حسين باشا فخرى (١٥ يناير ١٨٩٣ ـ ١٨ يناير ١٨٩٣) ونظارة مصطفى رياض باشا الثالثة (١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤) زوجا لابنته .
ـ إنظر الكسندرشولش (مصر للمصرين) مرجع سبق ذكره ص ٦١ ـ حاشية ٢
ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٤ـ٥٥ـ ٥٩ ـ ٦٠ ، ١١٧ ـ ١٢٢ ، ١٤١ ـ ١٤٣ .
Larousse universel – Tom second – paris – Libraire Larousse – p., 391

رابع عشر مايو عام أربع وثمانين وثمنمائة والف للميلاد يقول ماترجمة[١٠٤] «تفضلتم على بان ارسل لكم مشروعا لاصلاح حال الشحنه . فاقول ان مايرغب فيه ليس فقط مجلس الوزراء بل كل أعضاء مجلس شورى البلاد رغبة شديدة هو أن تكون الشحنة فى كل مديرية تحت إدارة المدير مباشرة . وبادخال هذا الاصلاح على النظام الحالى يوضع حد لتنازع السلطة الحاصل بالمديريات ، وبالتالى للخلل الذى كان النتيجة الطبيعية لذلك ، ويمنع الاستبداد من رجال الادارة الذين يتعذر مراقبتهم وهم منتشرون فى القرى والبلدان . يستخدمون تلك المناصب للاستبداد بمشايخ البلاد واهلها معا ، وبالجملة يزول الخوف المستحكم بالاهالى الآن من ان يروا باعينهم آجلا أو عاجلا مفتش الشحنه الإنكليزى يخلف المدير الوطنى» . قال «وملخص القول ان الرأى الاساسى لهذا المشروع الكبير إنما هو حصر سلطة الشحنه فى المدن ، وتكليف مشايخ البلاد وغفرها فى القرى بحفظ النظام والامن جريا على تقاليدنا التى الفناها منذ القدم . والواجب ان نرجع إلى تلك التقاليد التى قد متعت البلاد بأمن وطمانينة تامة سنوات عديده . وأما قولكم باننا اذا عدنا الى تلك العوائد القديمة وعهدنا بادارة الشحنة الى جماعة المديرين فلا نأمن خطر ان نرى هؤلاء المديرين يرجعون الى سابق هفواتهم الاستبداديه ، وما يتبعها من النتائج الوخيمة فمردود . لآن إزالة تلك الهفوات السابقة لاعلاقة لها قط بالنظام الذى أرى لزوم ترتيبه الان ، وسبها[١٠٥] القانون الذى كان معمولا به من قبل ، وهو لايبيح معاقبة المجرم الا اذا اقر بالذنب واعترف به صريحا أو ثبت جنايته بشهادة شاهدين عيانين . وكانت المحاكمه لذلك العهد لاشكل محدد لها ولاقانون للمرافعات وكان الوصول الي تقرير الشهادات لايتيسر الاباستعمال طرق لاترضاها الانسانيه . ولكن مع وضع القانون الحالى ، واقيمت مرافة قانونية

(١٠٤) ترجمة = ترجمته

(١٠٥) وسبها = وسببها

بارشاد محكمة يعرفون قضائها(١٠٦) مواجبهم امتنعت كل اسباب العنف والشدة وحل محلها الرفق واللين . وفوق ذلك فان التحقيق الجنائى فى جنحة أو جناية لم يعد فى أيدى المديرين أو اصحاب الشحنة ، بل هو فى ايدى القضاة الذين هم غرباء عن هيئة الإدارة جملة . وبذلك ينتفى الاستبداد وتسقط اسبابه ، فلا يبقى امرا سريا ويشهر كل شئ . واذ قد تبين ذلك ، فسواء كانت الشحنة تحت أمر المدير مباشرة أو كما هى عليه الآن أى بأن تكون فقط تحت طلبه ، فلا سبيل للخوف من رجوع الاستبداد كما تتوهمون ، ولقد سألتنى أيضا عن مشروعاتى بشان وزارة الداخلية ولاسيما كيف انظم تفتيشا ومعاونة ترونها ضرورية اذا تغير النسق الحالى ، لاخفى(١٠٧) عليك ان ، وزارة الداخلية هى فى نظرى ونظر كل عارف باحوال البلاد حياة القطر وروحه ، والغريب مهما تولى فيها من المناصب فلابد من أنه يوجد بها الخلل والارتباك ومهما تكن وبرحه(١٠٧مكرر) ومنصبه إزاء وزيرها المصرى ، فانه يكون هو لا محالة الوزير الحقيقى ولكن بغير مسئولية ولا تبعة ، لأنه لايكون له اسم الوزير ولا اختصاصاته الرسميه . فتقع تبعة كل عمل على هامة الوزير المصرى الذى يكون مع المفتش الأجنبى أو المعاون كالعضو الأشل الذى لاعمل له ، فيصبح المركز حرجا على كليهما ولا يكون من وراء ذلك الا تكاثر الاغلاط ، ويقع التنازع ، فتكون العاقبة وخيمة . ولست اقصد بذلك ان لاتكون مراقبة على وزير الداخلية ، ولكن اليس عليه مراقب طبيعى فى شخص رئيس الوزراء؟ وأليس كل إدارة الداخلية مرعية فى كل فروعها ، وأن يكن ذلك غير مباشرة بنظر أصحاب الوظائف الأجانب (بالدومين) (والدائرة السنية) ، والمشاريع ، والصحة والمهندسين من أبنائكم ، والتجار الأجانب المنبثين فى طول البلاد وعرضها؟

(١٠٦) واقيمت مرافه قانونية بارشاد محكمة يعرفون قضائها مواجبهم = وإقامة مرافعة قانونية بإرشاد محكمة يعرف قضاتها واجباتهم . ،

(١٠٧) خفى = يخفى

(١٠٧مكرر) وبرحه = درجته

وفوق ذلك رجال شورى البلاد ، ثم فوق كل هؤلاء الا توجد ملاحظة صحية؟ ولا اخطئ إذا قلت مراقبة قوية من جانب الحقانية ورجالها كالنائب العمومى ووكلائه . إذن فهناك يجب ان نجد المراقب الحقيقى على سائر أعمال الإدارة وهناك مقره الصحيح ، وهؤلاء لا يثقل على أحد ولايتهدد أحدا بأن يأخذ منه مركزه . ولا أرى غير هذا السبيل الذى يمكن معه وحده توطيد وطنية[(١٠٨)] حقة ، وتحسينها واصلاحها والوصول إلى النحو الذى تريده حكومة جلالة الملكة . ولقد حاول بعض السادة الانجليزقبلا ان يحققوا التقدم فى مصر وتوطيده بنوع من المراقبة على اصحاب الوظائف واهل الخطط من ابناء البلاد ، يقوم بها موظفين من الانجليز . وعندى ان عاقبة هذا العمل اذا اشتد الى نهايته تكون استبدال موظف بموظف ، وهى نتيجة غير محموده . وعليه افلا يكون من النصفة ان تعملوا بما قلته لكم فى ذلك قبل الآن أيضا ، ولو على سبيل التجربة ، ثم يكون لكم الخيار فى تركه إذا لم ينطبق على ماتنتظرونه ، وتكون حكومة جلالة الملكه قد حفظت لنفسها حق اختيار طريقة أخرى ترى أنها أكثر موافقة وأضمن نجاحا فى تقدم البلاد[(١٠٨مكرر)] أ .هـ . فوقف صاحب

---

(١٠٨) وطنية = إدارة وطنية أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(١٠٨مكرر) كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٣ كليفوردلويد Clifford lloyd الذى كان يشغل وظيفة الحاكم المقيم Resident Magistrate فى أيرلندا ليعمل بوظيفة المدير العام للإصلاحات Director – General of Reforms كوسيلة للتخلص منه بعد أن كان قد فقد شعبية كبيرة هناك . وفى مصر بدء (لويد) إصلاحاته بإصدار الأمر العالى الصادر من الخديو فى ٣١ديسمبر ١٨٨٣ بتتبيع البوليس المصرى لقيادة المفتشين البريطانيين ومنحه سلطات تخرجه عن التبعية (لمديرى المديريات) ،وكان هذا يعنى بكلمات أخرى إنتقال السلطة من المديرين المحليين والإقليميين إلى إيدى البريطانيين .

قاد (نوبار) رئيس النظار (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩يونيو ١٨٨٨) ، الذى كان قد جعل من نفسة شخصية لا يمكن الاستغناء عنها عند البريطانيين خلال أزمة إخلاء السودان ـ قاد الهجوم ضد(لويد) . وكان محمد ثابت باشا ناظر الداخلية قد إستقال فى مارس ١٨٨٤ إحتجاجا على غطرسة (لويد) الذى كان قد قبل وظيفة وكيل نظارة الداخلية ـ وهى ثانى إستقالة إحتجاجا على التدخل البريطانى فى الشئون المصرية بعد إستقالة رئيس النظار (شريف باشا) فى يناير ١٨٨٤ . بدء(نوبار) هجومه بالشكوى إلى (بارنج) المعتمد البريطانى بانيا جدله على اساس (أن نظارة الداخلية . هى الحياة الخاصة للبلاد) .

ولما كان دور (نوبار) فى تأييد بريطانيا فى قضية الجلاء عن السودان لازال حديثا ـ فقد اضطرت بريطانيا على مضض إلى التخلى عن رجلها(لويد) وأيدت (نوبار) فى موقفه ـ الأمر الذى ادى إلى إستقالة (لويد) فى سبتمبر ١٨٨٤ .=

السياسه الانجليزيه يومئذ عند ذلك ولم يقو على مناهضة الوزير(نوبار باشا) لقوة حجته ورجحان برهانه وشدة شكيمته ، ووقعت المغاضبة بينه وبين السير بارنج من ذلك اليوم بسبب ذلك . ونال الوزير منه حطا وتقريعا حتى لقد سعى فى خلعه وكاد يظفر به ، لو لم يعاجله الخديوى توفيق هو بالخلع(١٠٩) من مسند الوزارة على ماتقدم بيانه مفصلا فى محله ، والحق من وراء مافعل الخديوى .

ظن أهل الرأى أن الرئيس (مصطفى فهمى) باشا لايمكن السير بارنج من اعادة تلك المحنة ، وهو اعلم الناس بما كان من امرها لعهد الوزير نوبار باشا ، وقالوا انه إن لم يتأس بالوزير فى حزمه وقوة عارضه ، اضاع مابقى من وظائف الامارة لاهل البلاد ، وطوه(١١٠) بنفسه الى موقف النقد والتعيب ، وفتح للناقدين فرجة أخرى أكثر شناعة من فرجة فرمان الولاية وأوسع مجالا . فما هو الا أن

=ــ إنظر ــ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ــ ١٩٢٢) رسالة ماجستير غير منشورة ــ كلية الآداب ــ جامعة عين شمس ــ ١٩٧٧ ــ ص ٢٤٠ ــ ٢٥٩ .

ــ روبرت تيجنور R.Tignor
(Modernization and British colonial Rule in Egypt, 1882 – 1914) Ibid., pp., 70 -73

ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٧ ــ ١٦٠

ــ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص١١٩

(١٠٩) إثر مناقشة بين الخديو توفيق ونوبار فى مجلس النظار فى بعض المسائل المعروضة على المجلس فى يونيو ١٨٨٨ أرسل الخديو إليه كتابا ذكر فيه (إنه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس ، وما هو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الأراء ، مما رأيت معه إستحالة بقائك فى منصبك . فلهذا قد فصلتك من وظيفتك ، وعهدت براسة الوزارة وتشكيل هيئة جديدة إلى صاحب الدولة رياض.باشا)

وتكشف صيغة خطاب الإقالة عن تفاقم الخلاف بين الخديو ورئيس نظاره إلى حد كبير . ويعزو يونان لبيب رزق هذا إلى أن الخديو توفيق لم يغفر لنوبار أنه قد جره إلى معركة (إعادة تنظيم جهاز البوليس) التى إنتصر فيها (بارنج) هذه المرة ــ كما أن المعتمد البريطانى كان يهدد الخديو فى ذلك الوقت بإمكانية إعادة (الخديو السابق إسماعيل)إلى عرشه الذى فقده عام ١٨٧٩ لصالح إبنه (توفيق) . وكان على توفيق أن يختار تأييد (نوبار) أو تأييد (سلطة الإحتلال)ـ فانحاز إلى الإخيرة وضحى برئيس نظاره .

ــ إنظر عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٦٥ .

ــ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ــ ١٢١ ــ ١٢٢ .

(١١٠) وطوه = وطوح

لبس جلدة هؤلاء الانجليز وظهر فيها ، ولم يخش لوما ولا عتبا وولى اربعة منهم رئاسة الشحنة بمديريات الاقليم البحرى[١١٠مكرر] ، فأكبر الأمير فعاله وراجعه فى

(١١٠مكرر) عندما انتصر (نوبار) على (كليفورد لويد) فى معركة (تنظيم العلاقة بين البوليس والمديرين) ، تلك المعركة التى إنتهت باستقالة(لويد) من منصبه وبقاء(نوبار) فى منصبه كرئيس للنظار (راجع حاشية ١٠٨مكرر) ـ لم يكن يعنى ذلك تعديل أنظمة (لويد) ، فقد ظل (حاكم الإقليم) المسئول بحكم وظيفته أمام ناظر الداخلية عن إدارة إقليمه ـ لا يملك أى سلطات على جهاز البوليس فى الإقليم الذى يحكمه ـ إذ ظل المفتش الأوروبى الذى خلقت وظيفته بمقتضى الأمر العالى الصادر فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٣ ومارس ١٨٨٤ هو الواسطة بين (البوليس) و(حاكم الإقليم) أى المدير . ودخل جهاز البوليس إعتبارا من أول يناير ١٨٨٤ مرحلة الإزدواجية La dualité dans les provinces ـ وهو اصطلاح نقصد به(عدم تعيين المسئول عن صيانة الأمن العام فعلا) .(فالمدير) التابع للنظارة هو المسئول الوحيد بحكم القوانين واللوائح عن الأمن العام من ناحية ، (والبوليس) بحكم كونه الجهاز الذى يتولى حفظ الأمن العام ومنع الجريمة يتبع(مفتش عموم البوليس) ويدير الأعمال المتعلقة بالأمن العام ـ وكل من الطرفين له رجاله . فالمدير يتبعه (نظار الأقسام ـ مأمورى المراكز) والبوليس يتبعه (مفتشى البوليس ـ مساعدو المفتشين الكونستابلات والضباط) من خلال قيادة (نائب مفتش عموم البوليس) الذى لاصلة له إلا(بمفتش العموم) ـ وبالطبع فقد كان المفتش العام ونوابه ومساعدوه من الإنجليز .

على هذا الشكل ظل البوليس يدار حتى عام ١٨٩٤ ـ نظام إزدواجى لارابط بين طرفيه سوى قضية الأمن العام . لذلك فقد كانت النتيجه المتوقعة هى الإحتكاك بين عناصر جهاز الإدارة (ناظر الداخلية ـ المديرون ـ المأمورين ـ نظار الأقسام) وبين عناصر جهاز البوليس (مفتش عموم البوليس ـ نواب مفتش عموم البوليس ـ أعوانهم من العسكريين) . ولقد ذكرنا من قبل أن بريطانيا إكتفت (لنوبار) بنصر واحد فقط ـ هو التضحية (بكليفورد لويد) دون التضحية بنظامه .

فى ٢٥/٨/ ١٨٨٤ أصدر (نوبار) بوصفه ناظرا للداخلية منشورا إلى المديرين ألغى فى أولى مواده مسمى(إدارة عموم البوليس) وجعل تسمية جهاز البوليس هى (قسم الضبط والربط) ، وألحقه كقسم تابع لنظارة الداخلية . وفي الماده الثانية قرر نوبار إخضاع (البوليس في المديريات والمحافظات لأوامر المديرين والمحافظين مباشرة) ، وأخضعت المادة الثالثة (بوليس الأقسام والمراكز تحت أوامر نظار الأقسام ومامورى المراكز) . لكن (نوبارا) نسى حقيقة (الوجود البريطانى) الذى كان يمارس وفقا لمنشور (جرانفيل) فى يناير ١٨٨٤ حماية مقنعة ـ فمن ناحية لم يذكر (نوبار) في منشوره ما ينص على نسخ ما يخالف مواده ـ ومن ناحية أخرى وتبعا لذلك ـ فقد أعتبر الجهاز الأخر (تفتيش عموم البوليس) هذا المنشور (موجها لتابعى نوبار فقط من المديرين ونظار الأقسام) . ظلت الأمور على هذا الحال حتى نوفمبر ١٨٨٧ عندما توفى (مفتش عموم البوليس) الإنجليزى ، وإستغل(نوبار) هذه المناسبة ليسترد (النظام الإدارى) من يد الإنجليز . فتقدم فى عام ١٨٨٨ باقتراح بإعادة تنظيم البوليس يدور على محور رئيسى هو الغاء منصب مفتش عموم البوليس ، ووضع البوليس تحت إشراف المديرين ، (ولو لأغراض الأمن العام) . ومع اعتراض (بارنج) المعتمد البريطانى على اقتراحات (نوبار) فان الأخير أرسل (تيجران باشا) وكيل نظارة الخارجية إلى إنجلترا ليشكو (بارنج)ـ وفى نفس الوقت فإن (بارنج) أرسل إلى حكومته تقريرا حذرها فيه من تكرار ما فعلته عام ١٨٨٤ عندما نصرت(نوبار) على(لويد) ـ بحجة أن هذا سيمثل ضربة بالغة القسوة للهيبة البريطانية ، وهدد بأن(هذه الدورة هى مرحلة إختبار ـ وأن النظام الذى وضعته بريطانيا فى مصر على وشك الإنهيار) .

من حسن حظ (نوبار) أن بريطانيا كانت فى ذلك الوقت على خلاف مع فرنسا بشان تركيز الأخيرة لأسطولها البحرى فى (البحر المتوسط) ، ولم يكن الوقت مناسبا لتفجير المشاكل فى مصر ـ فنصحت بريطانيا (بارنج) بتأجيل النزاع ـ لكن (بارنج) لجأ إلى (الخديو توفيق) واستطاع التأثير عليه مستغلا موقفه السئ مع الدولة العثمانية فى ذلك الوقت واحتمالات خلعه من منصبه ، وظروف وجود (الخديو السابق إسماعيل) فى الآستانة ، فاستجاب(توفيق)وأقال نوبار فى ٩يونيو ١٨٨٨ .=

الأمر فلم يذعن . فانتقل الأمير إلى الاسكندرية فى صبح سادس عشرى شوال غاضبا على الرئيس استهتاره ، وعلى جماعة الوزراء تخاذلهم وتدنيهم بالأمة الى مواطن التأخر وحضيض الذلة . اقول وصاحب المرتبه اذا كان اسمى من منصبه زانه وزان نفسه ، وإلا حط منه وحط من نفسه ، ويؤخذ شانه فى مرتبته من تغيره وثباته . فمن ولى ولاية وكان اسمى منها لم يتغير لها ، او كانت اسمى منه تغير لها . وانظر الى ما جرى (لعمر بن عبدالعزيز) احد خلفاء بنى امية . اذ سأل فى خلافته احد المقربين عن رجل يوليه .

فقال له ما تقول فى فلان ، فقال مصنوع له وليس بصاحبها ، قال ففلان قال سريع الغضب بعيد الرضاء يسأل الكثير ويمنع القليل ، قال ففلان قال يكافئ الاكفاء ويعادى الاعداء ويفعل ما يشاء ، قال ما فى واحد من هؤلاء خير . وروى أن عبد الملك بن مروان قال لجلساته ولونى[(١١١)] على رجل استعمله ، فقال أحدهم انى أدلك يا أمير المؤمنين على رجل أن دعوته أجابك ، وأن تركته لم يأتك وهو فلان ، فولاه من يومه . ولقد احسن عملا واصاب لان هذه الصفة من اقوى الادله الداله على شكيمة الرجل وعزة نفسه

= وتستمر قصة الصراع(حول جهاز البوليس) في فصولها حتى عهد (عباس) . ففى الثانى من يناير ١٨٩٣ أصدر كولز باشا coles نائب مفتش عموم البوليس منشورا إلى المديرين يطلب فيه أن تكون (جميع المخاطبات التى تختص بأعمال الضبط ، وتعيين العمد والمشايخ والخفراء) موجهة إلى(مفتش عموم البوليس) وليس إلى ناظر الداخلية .
وكان هذا أقصى ما يمكن للخديو أن يتحمله من رئيس نظاره (مصطفى فهمى باشا) المتخاذل والمتعاون مع سلطات الإحتلال ـ فقامت (ازمة النظارة الفهمية) التى سيأتى دورها فى صفحات مقبلة .
ـ إنظر عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤٠ ـ ٢٨٥
ـ (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩٢ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٨ ـ ١٣٩
ـ شارلز ادوارد كولز . charles Edward Coles
(Recollections and Reflections) – The Saint Catherine press – London – 1918 pp., 50 –53
ـ يونان لبيب رزق(تاريخ الوزارات المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٢١ ـ ١٢٢ .
(١١١) لجلسات ولونى = لجلساته دلونى

والعكس بالعكس . وطلب أحدهم من صاحب الشريفه(١١٢) يوما أن يستعمله ، فقال له أنا لا نستعمل على عملنا من يريده . فانظر ما فى هذا الرد من الحكمه البالغه . ثم أعلم أن العامل العالم لقدر نفسه ومكانه من أبناء وطنه يأنف وهو حر مختار أن يكون كالآلة الصماء ، تديرها يد الأغراض والغاية ، فلا يروق له إلا خصلة من اثنتين . أما العمل على قاعدة يأنس إليها ، ويكون هو العامل ، وأما التنحى ، وهو المتنصل من التبعد اللائذ إلى مناصى السلامه ، ولم يغره الحطام ، فان غنى الشرف خير من غنى المال والله يقول الحق ويهدى السبيل .

تولى الإنجليز رئاسة الشحنة فتصرفوا فى نظامها ، وفسخوا قوانينها ورسومها ، واختصوا فى عملها بجماعة من النزلا ، فضاع الامن وكثرت اللصوصية . ووقف أهل الشقاوة فى طرق البلاد ودروب القرى ، وانحشوا(١١٣) فى ايذاء الناس فى الليل والنهار ، بلا حياء ولا مبالاة ، ففزع اهل البلاد الى المديرين فى سد هذه الفرجة المزعجة ، فلم يقدروا على اتيان شئ بمكانهم من العز والهزم(١١٤) . فجاءت وفود بعض المدن الى الرئيس وشكوا له حالهم ، وعابوا على الإنجليز فعالهم . وأقسموا بالإيمان المغلظه أن الرجل من أهل القرى إذا خرج من داره لحاجة وكل جاره بحراسته حتى يعود ، وإلا صار طعمة للاشقياء ، وغنيمة لأهل الشقاوة . وعظمت جراءة اللصوص وقحتهم حتى سطوا على قصر الامارة بحلوان(١١٥) فى ليلة خامس عشر القعدة ، فاخذوا شيئا كثيرا من الامتعه الثمينه والفرش والبسط والطنافس الهندية والرياش الفاخرة ، فكان لتفشى خبر ذلك بين الناس دهشة . وذكروا جراءه اللصوص لعهد رئاسة

---

(١١٢) الشريفة = الشريعة ــ قراءة ترجيحية .

(١١٣) وانحشوا = وأفحشوا

(١١٤) بمكانهم من العز والهزم = العبارة غامضة لكن المحتمل أن يكون المقصود هو عجز المديرين عن حفظ الأمن نتيجة لسلب سلطاتهم من جانب الإنجليز المسيطرين على جهاز الأمن .

(١١٥) قصر الإمارة بحلوان = لم يكن قصر الإمارة فى حلوان ، وإنما كان فى (عابدين) بالقاهرة . أما القصر فى ضاحية حلوان فقد كان القصر الخاص بالخديو توفيق .

مصطفى رياض باشا ، حتى لقد قال لى احد اصحاب الخطط يوما (ياسبحان الله ، أفلا ترى الى كل رئاسة يتولاها (مصطفى) كيف تنتاب الناس النوائب وتتحيقهم(١١٦) المصائب ، فلا تذهب أيامها الا وقد أذهبت منهم الصبر ، وتركتهم وهم على احر من نار الجمر ، ومكنت أهل اللصوصيه من أموالهم وعيالهم وأرواحهم . قال وقد زاد هذا الرئيس الطين بلة بتسليم أولئك الإنجليز زمام الشحنة ، وهم لايعرفون من عادات البلاد وأخلاق أهلها بشئ ، وماضره لو تأسى بالوزير نوبار باشا ، ورفع السير بارنج عن قصده فيدفع بذلك عن نفسه وأميره معرة العجز عن المقاومه والمدافعه . وانظر كيف يجاهر بالالتصاق بهم ، والبراءة من أن(١١٧) البيت العلوى ، وهو واخواله من صنائعهم وغرس نعمتهم الخلف منهم عن السلف . فخليق ان يسلك مع أميره النهج القديم ويتنزه عن المين والافك المفضيين إلى الدمار ، ويسارع إلى حسم ذلك الداء المتوقع بالإمارة قبل تعاصيه أ . هـ وصاح يومئذ أصحاب بعض الصحف المحليه لصيحة أهل البلاد ، ونادوا الأمن الأمن يا أصحاب الشحنة . فقام عند ذلك صبية ممن تابعوا الإنجليز على أغراضهم ، ومن لا أخلاق لهم وجعلوا يرسلون الرسائل إلى أصحاب صحف الإنجليز يمتدحون فيها باسم نواب الأمه المصرية أعمال السير بارنج ، ويثنون الثناء الجميل على أهل المراتب وأصحاب الخطط من الإنجليز ، ويقولون أن أيام الاحتلال خير من الأيام الحالية ، وأن الناس أصبحوا فى هناء ، وعيشهم فى رخاء ، وأنهم بالنيابه عن الأمه بأسرها لاينسون ماهم فيه من الخير العميم ، ولاينكرون ذلك الفضل الجسيم ، ويذكرون الانجليز ابد الدهر . فقام عليهم اصحاب الصحف المحلية واوسعوهم تقريعا وتونيبا(١١٨) وفندوا مزاعمهم بالبرهان . وممن طعن فى مذاهب اوليك الصبية

(١١٦)وتتحيقهم = وتتحيفهم
(١١٧) آن = آل
(١١٨) وتوينبا = وتأنيبا

(صاحب المؤيد)[١١٩] حيث قال بعد كلام : (لقد رزئ المشرق فى الاعصر الخالية بادعاء النبوات ، فكان تلقاء كل نبى صادق جملة من أولئك الأدعياء . فلما تلاشت مزاعم النبوات خلفتها المهدوية التى ماخلت من ادعيائها بلد من البلدان المشهورة فى الشرق وقد قدر الله ان تطمس معالم المهدوية الكاذبة شيئا فشيئا ، وما اوشكت هذه ان تزول حتى خلفتها فى الديار المصرية (النيابه عن الأمة) . فقد اصبحنا وفى اذاننا كل يوم طنين من دعى يزعم انه نائب عن الأمة فيما يقول ، وترجمان حالها الصادق ، وانى الوطنى الغيور الذى لاينطق عن الهوى والغايات ، بل بالآيات البينات والمعجزات الباهرات . وقد انتهى

---

(١١٩) صاحب المؤيد = الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد (١٨٦٣ ـ ٢٥ اكتوبر ١٩١٣) ـ من بلدة بلصفورة من أعمال سوهاج ـ كان إبوه ناظرا لزراعات إحدى الأسر الثرية بسوهاج ـ تلقى مبادئ العلوم الدينية على الشيخ حسن العدوى ـ أرسله أبوه إلى القاهرة لاستكمال تعليمه بالازهر ـ إشتغل بالصحافة فى جريدة (القاهرة الحرة) التي إنشأها (أحمد فارس الشدياق)ـ أصدر (جريدة المؤيد) فى عام ١٨٨٩ وظهر العدد الأول منها فى أول ديسمبر من تلك السنة ـ كان مديرها السيد / أحمد ماضى يشارك المترجم فى تحريرها ، ثم استقل على يوسف بها من نوفمبر ١٨٩١ ـ كانت سياسة الجريدة وطنية إسلامية ولاقت إنتشاراً كبيرا حتى كان لها قراؤها فى مراكش حتى الهند ، ومن تركيا حتى زنجبار ـ تمتع على يوسف بعلاقات واسعة مع شخصيات علمية وأدبية وسياسية ـ وساهمت شخصيته وروح جريدته فى إزكاء الروح الوطنية بالبلاد .

كان على يوسف ذا حظوه كبيرة فى القصر الخديوى وتمتع بصداقة عباس حلمى الثانى ـ أسس (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) فى أواخر ١٩٠٧ ، والذى كان من اهم مبادئه (تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات لاستقلال مصر الإدارى) ، والإلتزام بخط القصر السياسى .

أثار زواج المترجم من إبنة السيد/ عبد الخالق السادات(شيخ السجادة الوفائية) أزمة سياسية واجتماعية كبرى عام ١٩٠٤ بسبب إختلاف المجتمع المصرى وقتئذ حول كفاءته للزواج من إحدى الأسر ذات النسب الشريف ـ لكن الخديوى أيد المترجم فى هذا الزواج ـ إثر وفاة الشيخ عبد الخالق السادات عام ١٩٠٧ أصدر الخديوى قرارا بتعين المترجم شيخاً للسجادة الوفائية وأصبح يلقب(بالسيد) ـ عين مندوبا فى(الجمعيةالعمومية) فى الهيئة النيابية الرابعة(٨مارس١٩٠٢ ـ ٥ مارس ١٩٠٧) ـ رشح نفسه فى إنتخابات مجلس شورى القوانين فى الهيئة النيابية الخامسة(٢٥ فبراير ١٩٠٨ ـ٢٠ يونية ١٩١٣)عن مدينة القاهرة وفاز ـ لكن المحكمة الإستئنافية حكمت بعدم صحة إنتخابه .

ـ انظر(مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الأول) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٧١ ـ٧٢ ـ ٣١٤ ـ ٣١٥ ، ٤٥١،٣١٩ .

ـ (أوراق محمد فريد ـ المجلد الأول ـ مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٨ ص ١٢٠ ـ ١٢٢

ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٢ ـ ١١٧ .

ـ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢) مرجع سبق ذكره ـ ص١٦٩

اليه الرأى كما انتهى إليه اليراع ، واحاط عمله بكل شئ ، فأصبح هو الأمه وهو البلاد ، وهو السائل ، وهو المجيب ، وهو الحاكم وهو المحكوم . وفى الحقيقة أنهم نواب النوائب جلاب المصائب . اللهم سحقا لاولئك الكاذبين حتى لايكون فى الأمة ادعياء بدعة ودعاة ضلال) أ . هـ وقد ظن الناس ان اولئك الصبية مدفعون[١٢٠] الى هذا من الرئيس واعوانه وصنائعه . وعندى انهم انما هم مدفعون[١٢١] اليه من دعاة الاحتلال وزعانف الدخلاء ، والمرتزقة اللاصقين بباب (السير بارنج) ، المروجين لسياسته فى طول البلاد وعرضها ، ولا يد للرئيس فى الامر ولا صنائع له الا انسبائه واشتينهم[١٢٢] .

وبينما كانت أصحاب الصحف تقارع أولئك الصبية وتناضلهم ، بالقدح فى أعمال الرئيس لذهاب الأمن من سائر البلاد وتعيب عليه التصاقه بالسير (بارنج) ، وقد عظمت مكانة (بارنج) عند صاحب سياسة الانجليز فمنحته ملكتهم لقب (لورد) فصار (لورد كرومر) وهو من ألقاب الأشراف أركان دولتهم ، كان فريق من كبار الطائفة القبطية يطالب كيرولس[١٢٣] بطريركهم باعادة هيئة

---

(١٢٠) مدفعون = مدفوعون

(١٢١) مدفعون = مدفوعون

(١٢٢) واشتينهم = وأشباههم قراءة إجتهادية

(١٢٣) كيرلس = كيرلس الخامس ـ بطريرك الأقباط الأرثوذكس (نوفمبر ١٨٧٤ ـ أغسطس ١٩٢٧) ـ ولد فى قرية تزمنت بمديرية بنى سويف حوالى عام ١٨٢١ . كان إسمه (حنا) قبل دخول سلك الرهبنة ـ هاجر أبواه إلى مديرية الشرقية ـ تعلم فى الكتاتيب ـ فى سن العشرين انتظم فى سلك الرهبنة بدير البراموس بوادى النطرون ـ ثم عين رئيسا له ـ بعد وفاة الأنبا ديمتريوس الثانى(يونيو ١٨٦٢ـ يناير ١٨٧٠) ظل الكرسى البطريركى شاغرا نحو خمس سنوات ـ ثم خلفه كيرلس بطريركا باسم (كيرلس الخامس) ـ أمضى فى رأسة الكنيسة القبطيّة ٥٣ عاما ـ عاصر عهود(اسماعيل)(توفيق)(عباس)(حسين كامل)و(فؤاد) ـ تميز عهده بحدوث أكبر نزاع فى تاريخ الكنيسة القبطية عندما دخل فى صراع حول السلطة مع أعيان الاقباط عام ١٨٩٢ وعلى رأسهم بطرس باشا غالى الذى إتهمه ومناصروه برغبته فى الإستئثار بها(السلطة) دون ممثلى الشعب القبطى ـ انتهى النزاع بانتصار فريق بطرس غالى وصدور أمر الخديو بابعاد(كيرلس) إلى دير البراموس فى سبتمبر١٨٩٢ـ أعيد إلى منصبه مرة أخرى فى يناير ١٨٩٣ ـ إنشأ الكثير من الكنائس بالقاهرة ـ أنشأ المدرسة الإكليريكية لتخريج رجال الدين عام ١٨٩٣ ـ أنشأ فى بولاق مدرسة الصنائع ومدرسة التدبير المنزلى للبنات ـ خلفه الأنبا يؤنس عام ١٩٢٨ .

ـ رياض سوريال(المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) ـ مكتبة المحبة ـ القاهرة ١٩٨١ ـ ص ٢٨ ـ ٢٩

مجلسهم[١٢٤] الملى ، الذى تم تشكيله لعهد الخديوى إسماعيل باشا ، ولما كان البطريرك كحال ملوك وامراء كل دولة فى طورها الثانى من الغلبه والملك ، اعنى به طور الاستبداد بقومه والانفراد دون كل احد بالسلطة ، وكان معينا[١٢٥] باصطناع بعض اواسط القوم ، واتخاذ الانصار من طغمة القسيسين ، شذ عن قصدهم . فطاولوه وأكثروا من بعوثهم اليه والى من خلطهم بنفسه من أصحاب الأمن والصفصفة[١٢٦] لعله يرجع عن هواه ، فامتنع ولم يلو على شئ . وجاءه أيضا أعيان الطائفة من مشرق البلاد ومغربها يسترضونه فلم يرض ، ويستعطفونه فلم يعطف ، ولم يكن له الا كلا . فلما فزغ[١٢٧] صبر القوم وذهبت تدابيرهم أدراج الرياح ، اجتمع ناس منهم فى دار أحدهم بخطة حارة[١٢٨] السقايين ،

(١٢٤) المجلس الملى = فى أعقاب وفاة البابا ديمتريوس الثانى (١٨٦٢- ١٨٧٠) ظل كرسى البطريركية شاغرا حوالى خمس سنوات أدار شئون الكنيسة أثنائها الأنبا مرقص مطران الإسكندرية الذى لم تكن أحواله الصحية تسمح له بالاشراف الفعلى على الكنيسة وشئونها - إجتمع نفر من أعيان الأقباط وطالبوا بتشكيل(مجلس ملى) يرعى شئون الأقباط وينظم أوقافهم ويشرف على مدارسهم ويرعى أحوال فقرائهم ويحكم فى أحوالهم الشخصية - تزعم هذه الحركة بطرس غالى بك (باشا فيما بعد) - فى ١٦ يناير ١٨٧٤ إجتمع أعيان الأقباط ومعهم الأنبا مرقص مطران الإسكندرية والقائمقام البطريركى وأجروا إنتخاب المجلس الملى الأول(فبراير ١٨٧٤- مارس ١٨٨٣) - إنتخب هذا المجلس الأنبا كيرلس الخامس فى أول نوفمبر ١٨٧٤ - لكن كيرلس إعترض على هذا المجلس وطالب الحكومة بإلغائه - لكن الخديوى توفيق رفض ، وأصدر أمره إلى رئيس النظارمحمد شريف باشا فى ٣ مارس ١٨٨٣ بإعادة تشكيل المجلس وعمل لائحة جديدة له وإبلاغ البطريرك المعترض بذلك - تم إنتخاب المجلس الجديد فى مارس ١٨٨٣ وصودق على تشكيله وصدربه أمر عال فى ١٤ مايو ١٨٨٣ - مع بدايات تشكيل المجلس الملى الثالث (يونيو ١٨٩٢) عاد النزاع مرة أخرى بين الأنبا كيرلس وأعيان الأقباط بزعامة بطرس غالى باشا - لمالم يصل الفريقين إلى تسوية للمشكلة طلب الإقباط من الحكومة إبعاد الأنبا كيرلس إلى دير البراموس فأبعد فى سبتمبر ١٨٩٢ هو والأنبا يؤنس مطران الإسكندرية وقتئذ إلى اديرة خارج العاصمة - وعين أسقف صنبو وقوسقام قائمقاما للبطريرك .
- المرجع السابق - ص ٥٨ ، ١٩٤ - ١٩٨ .

(١٢٥) معينا = معنيا .

(١٢٦) الأمن والصفصفة = اللغو والسفسطة قراءة إجتهادية .

(١٢٧) فزغ = فرغ .

(١٢٨) حارة السقايين = تجمع الإقباط منذ زمن طويل فى أحياء خاصة بهم ، فداخل أسوار القاهرة عندما كان لها أسوار كانت هناك (حارة الروم) التى ذكر المقريزى أنه كان بها دير للنساء وكنيسة قبطية فى عهد المماليك ، وكانت لاتزال هناك كنيسة فى العهد العثمانى - كما ذكر المقريزى كنيسة أخرى فى (حارة زويلة) . أما خارج أسوار القاهرة فكانت هناك حارات نصارى أخرى قديمة على مقربة من الخليج وقنطرة سنقر جنوب غرب القاهرة ،وبالقرب من بركة السقايين ، بالناصرية ، ونحو=

وتحالفوا على كتاب الله أن ينصروا الحق ، ويخذلوا الباطل ، وأن يدأبوا على السعى حتى ينالوا أمنيتهم . وكتبوا من يومهم إلى سائر أبناء الطائفة يستدعونهم للاجتماع بالدار البطريركيه[١٢٩] لتجديد انتخاب أعضاء المجلس . وعلم البطريرك بخبر ذلك ، فسير من يقول إلى محافظ البلد أن نفرا من أبناء الطائفة تحالفوا على أمر يريدونه بالدار البطريركيه فى غد أو بعد غد ، فأرسلوا لنا من مأمورى الحكومة من يمنعوا اجتماعهم . فسير إليه المحافظ جماعة من المأمورين ونفرا من أصحاب الشحنة ، فاخذوا بأطراف الطرق ووقفوا بباب الدار البطريركيه . فجاء الناس زمرا يتقدمهم مقدمى هذه النهضة الميمونه ، وهم على أتم مايكون من الإحتشام والسكينه . فوقف أصحاب الشحنه فى طريقهم ومنعوهم من الدخول ، فامتنعوا ولم يبدوا معارضة ولا سمع لأحدهم صوتا ، ورجعوا من حيث أتوا . وشاع خبر ذلك فاكبره الناس وأعظموه جدا . وكثر اجتماع أصحاب هذه النهضة وهم بين تفكير وتدبير على سد هذه الفرجة من ناحية البطرك . ففزعوا إلى أولياء الأمر ورفعوا إلى الأمير قصتهم فأحلها محلا . وعلم البطريرك بما فعلوه فاستقدم من فوره جميع المطارنه والأساقفه ورؤساء الديارات وولاء[١٣٠] الشريعه بالاقاليم القبليه والبحرية ، فحضوا[١٣١] إلى

= الغرب قليلا (حارة السقايين) ـ كما كان هناك حى صغير بالقرب من جامع بن طولون ، وآخر فى حى قوصون(قيسون) فى جنوب القاهرة ـ مع تدهور(ميناء مصر القديمة) فى القرن الخامس عشر إنتقل سكانه الأقباط إلى مواقع أخرى فى المدينة ـ وسبب هذا تحولات فى مساكن القبط كان أكبرها فى حارة النصارى الواقعة شمال بركة الأزبكية ـ التى كانت تعرف(بالمقس) . ضمت هذه المنطقة تجمعات قبطية فى الجانب الغربى منها مثل(درب الإبراهيمى) (درب الجبرونى)(درب لعظمية) (الدرب الواسع) و(درب القبيلة) ـ وفى القرن السابع عشر ضمت هذه المنطقة (درب الجنينة) و (درب طياب) .

ـ نيللى حنا (بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ دراسة إجتماعية معمارية) ترجمة حليم طوسون ـ العربى للنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٩٣ ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠ .

(١٢٩) حتى ١٧٩٨ كان بطريرك الأقباط يقيم فى حارة الروم ـ وفى عام ١٧٩٩ إنتقل مقر كرسى البطريركية إلى (الدرب الواسع) بالأزبكية (شارع الكنيسة المرقسية) ـ كان ذلك عندما أنشئت الكنيسة المرقسية الكبرى بالأزبكية فى ذلك الوقت .

ـ رياض سوريال(المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) ـ مرجع سبق ذكره ص ٢١١

(١٣٠) وولاء = ولاة

(١٣١) فحضوا = فحضروا

القاهرة ، فعقدوا مجمعا بينهم وظل أمرهم مكتوما أياما ثم ظهر أنهم قرروا فيما بينهم ماسيتلى عليك بنصه :

الذى يسمع منكم يسمع منى ، واذى[١٣٢] يرزلكم يرزلنى ، والذى يرزلنى يرزل الذى أرسلنى . لوقا ص ١٠أية - ١٦ .

بسم الله الرؤوف الرحيم

بعد حمد الله تبارك وتعالى فى سمائه ، نقول نحن المطارنه والاساقفه ورؤساء الكهنه الموقعين على هذا ، الذين اجتمعنا بامر غبطه[١٣٣] الأب البطريرك ، نحت[١٣٤] رئاسة سيادته بهيبة[١٣٥] مجمع روحى على صفة المجامع المقدسه التى أسست عليها الكنائس ، بقوانين مؤيده رسوليه ، تطبيقا للأوامر الالهيه المنصوص عنها بالكتب المقدسة المرعيه . انه باجتماعنا بالدار البطريركية مركز الخلافة الرسولية عن (القديس مار مرقس) أحد حوارى سيدنا (يسوع المسيح) بمدينة المحروسة ، تلى علينا اعلان من سيادة الأب البطريرك موضحا به أسباب طلبنا والمشروع المقتضى المداولة فيه .

(١٣٢) واذى = والذى(الذى يسمع منكم يسمع منى والذى يرذلكم يرذلنى . والذى يرذلنى يرذل الذى أرسلنى - إنجيل لوقا - الإصحاح العاشر - آية ١٦
(١٣٣) غبظة = غبطة
(١٣٤)نحت = تحت
(١٣٥) بهيبة = بهيئة

وأعطاء القرار النهائى عنه بالتطبيق لنصوص الكتب المقدسة ، والقوانين الرسولية المستديمة الإجراء ، المعمول بها فى الدين المسيحى ، والكنائس الأورثوذكسيه من عهد سيدنا (يسوع المسيح) إلى الأن . وبتصفح الأعلان المذكور علم أن البعض من أبناء الطائفة بمصر متطلبون أعادة تشكيل مجلس من إبناء الطائفة ، والبعض غير موافقين على هذا المشروع . وأنه سيق[١٣٦] تشكيل مجلس من أبنائها دفعتين ولم تحصل منه فوائد . وبطلب المحررات والقرارات واللوائح التى كانت عملت بخصوص المجلسين المذكورين وتلاوتها ، تبين أنه فى مدة خلو الدار البطريركيه من وجود بطرك ، وكان المتنيح(أنبا مرقص) مطران الإسكندريه وكيلا بها ، طلب تشكيل مجلس من أبناء الطائفه للإتحاد معه فى نظر أشغالها ، بمقتضى أعراض[١٣٧] منه للمعية السنيه رقم ١٥ الحجة سنة ١٢٩٠[١٣٨] ، وعلى حسب التماسه صدر الأمر العالى إلى محافظة مصر فى ١٨ منه نمرة ١٧ عرض بإجابة طلبه . إلى أن تولى البطريركية سيادة البطريرك الحالى ، ونظر لديه عدم ظهور فوائد من المجلس المذكور ، إستغنى عنه الحال لعدم لزومه ، بوجود جنابه كمدد إسلافه الآباء البطاركه . وأنه فى شهر جا سنه[١٣٩] ١٣٠٠ ، غرض [١٤٠] من بعض أبناء الطائفة وقتها للمعية السنيه بالتماس إعادة تشكيل المجلس على أساس المجلس السابق تشكيله ، وصدر الإمر العالى لرئاسة مجلس النظار بتاريخ ٤ جا سنة ١٣٠٠ نمرة (١) بإجابة التماسهم ، وصار تبليغه إلى جناب البطريرك

(١٣٦) سيق = سبق
(١٣٧) اعراض = يعنى طلب أو إلتماس
(١٣٨) ١٥ الحجة ١٢٩٠هـ = ٣ فبراير ١٨٧٤
(١٣٩) رمز العثمانيون للشهور الهجرية بحروف معينة ـ فكان(باء) رمزا لشهر رجب ـ(ج) لجمادى الآخرة ـ (جـ) لجمادى الأولى ـ(ذ) لذى الحجة ـ(ذا) لذى العقدة ـ (ر) لربيع الثانى ـ(را) لربيع الأول ـ(ش) لشعبان ـ(ص) لصفر ـ(غ) غرة محرم ـ (ماه المحرم) شهر محرم ـ(ن) لرمضان ـ(ل) لشوال ـ أما شهر (جا) سنة ١٣٠٠ فكان يقابل مارس ١٨٨٣ ـ راجع ليلى عبد اللطيف (الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى)ـ مطبعة جامعة عين شمس ـ ١٩٧٨ ص ٤٤٠ ـ ٤٥٨
(١٤٠) غرض = عرض

بإفادة منه رقم ١٤ مارس سنه ١٨٨٣ نمرة (٢٣) . ولما كان ذلك المشروع غير موافق للأوامر الألهيه والقوانين الرسولية ، ولم تكن له سابقة ، فعرض من الأب البطريرك للمعيسة[١٤١] السنية بتاريخ ٧ جا سنه تاريخه نمرة (٢٤) ولرئاسة مجلس النظار فى تاريخه نمرة (٢٥) بالتماس رفض هذا الطلب وأقرار البطريكخانة على عوائدها القديمه ، فما كان يستجاب سوى بورود أفادة لحضرته من رئاسة مجلس النظار بتاريخ ٩ منه نمرة (٢٥) بالزامه بتنفيذ هذا الطلب ، حيث سبق صدور الأمر العالى بالموافقه عليه ، وتعين من قبل الحكومه مندوب لاجراء ذلك . وبحسب ما كان وقتها ، وما جاءت به الأوامر المذكورة أنفا ، جعل إنتخاب هيئة مجلس من أبناء الطائفة ،وسنوا لائحه بمعرفتهم مقتضاها إختصاصه فى نظر جميع ما يتعلق بالاوقاف والمدارس والكمائس[١٤٢] والمطبعه وفقراء الطائفه ، وما يتعلق بأبناء الملة من الدعاوى والأحوال الشخصية ، وتنفيذ القوانين المتعلقه بالكنائس والأديرة والقسوس والرهبان ، وإدارة البطريكخانة وما يتعلق بها . وابتدأوا فى العمل مدة وجيزة . ولما لم تحصل منه فوائد عائدة بالنجاح ولا التقدم فى شىء ما ، صار تمشية الأعمال كما كانت حسب السوابق . وأنه فى هذين اليومين تبالغ لحضرة البطريرك أن البعض من أبناء الطائفه ساعين فى تحرير أكتتاب بطلب أعادة تشكيل المجلس المذكور ، ويقرون[١٤٣] البعض أسماهم مفهمينهم أن هذا الطلب هو بناء على رغبة جنابه ، وأنه فى يوم الاثنين ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١ حضر لطرف سيادته البعض منهم يطلب منه تنفيذ مشروعهم . فمع تفهيمهم بعدم وجودسوابق بتشكيل مجلس من أبناء الطائفه ، ومع سبوق تشكيله

(١٤١) للمعيسة = للمعية

(١٤٢) والكمائس = والكنائس

(١٤٣) ويقرون البعض أسماهم = يعنى أن بعض أبناء الطائفة الذين كانوا يحررون طلب إعادة تشكيل المجلس كانوا يضعون أسماء أبناء الطائفة فى الكتاب ويحثونهم على الموافقة على مطلبهم زاعمين أن البطريرك يرغب فى ذلك .

دفعتين ولم يحصل منه فوائد ، سيما أن بعض بنود اللائحه من الضرورى تعديلها بحضور حضرات المطارنه والأساقفه والإكليروس ، فما كان يحصل إذعان ، والبعض تهور فى الكلام . فتحرر من سيادته إلى عطوفتلو رئيس مجلس النظار فى ٤ يوليو سنة ١٨٩١ نمرة (٨٧) والمعية السنيه فى تاريخه نمرة (٨٨) بالصفة المذكورة . وأنه لما أطلع جنابه على تذاكر مجموعة بامضاء حضرة(سعد بك ميخائيل[١٤٤]) بطلب إجتماع هيئة بالبطريكخانه ، ونظر لديه أن هذا التجمع ربما يأتى منه ما يخل بالنظام والآداب ، فضلا عن الشقاق بين أبناء الملة ، تحرر لسعادة محافظ مصر بمنع ذلك ، وقد حصل والترم[١٤٥] يطلب حضرات المطارنه والأساقفة ، ورؤساء الأديرة والمدن ، بصفتهم رؤساء الملة ومجالسها ، لأجل المداولة معهم فى هذه المسأله ، وإعطاء الرأى النهائى ، وعرضه للحضرة الفخيمه الخديويه حسما للنزاع . فلذلك قد حصلت المداوله فى هذه المسألة فى جلسات متعددة ، وطلب البعض من حضرات من كانوا حضروا[١٤٦] بأطرف البطريرك لسماع أقوالهم ، ومناظرة ما هو مدون بالطلبات المحررة من إبناء الطائفة معهم ، فأولا تعين كل من حضرات (القمص إسحاق) وكيل شريعه (فيشه النصارى) (والقمص سيداروس) وكيل شريعه (شبين الكوم)(والقمص عبد المسيح) وكيل شريعة (الزقازيق) ، لأجل توجههم لحضرات المتطلبين الطلبات والتكلم معهم فى شان الهدوء ومنع الشقاق ، ليتيسر إرتباطهم بالمحبة الروحية والخضوع للأب البطريرك ، ومناظرة ما يكون موافقا . ولما توجهوا وتقابل حضرات مطران الاسكندريه ورئيس دير البرامون ورئيس دير أنبا أنطونيوس ورئيس دير أنبا بولا مع بعض حضرات أبناء الطائفه وحصل التكلم معهم فى

---

(١٤٤) سعد بك ميخائيل = إحد أعضاء المجلس الملى الأول(١٨٧٤ ـ ١٨٨٣) . كما كان عضوا فى المجلس الملى الثانى (مارس ١٨٨٣ ـ يوليو١٨٩٢)

ـ رياض سوريال(المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٦٠

(١٤٥) والترم يطلب = والتزم بطلب

(١٤٦) باطرف = بطرف

شأن ذلك فما أمكن . ثم تحرر من المجمع رسميا بطلب كل من حضرات (سعد بك ميخائيل)(ومقار بك عبد الشهيد) (ويوسف بك وهبه) (وجرجس أفندى[١٤٧] خليل)لحضورهم ومعهم المكاتبات المبين بها الطلبات الممضية من بعض أبناء الطائفه ، فلم يحضروا فى الميعاد المعين . وبعد إنتظارهم مدة تعين كلا من حضرات أسقف المنيا وأسقف صنبوا[١٤٨] وقوسقام ، (والقمص فلتأووس) خادم بكنيسة المرقيسة بمصر (والقمص إسحاق) وكيل شريعة (فيشة) ، ليتوجهوا لحضرات الوجهاء المومى إليهم ليدعوهم بالحضور حسب

(١٤٧) مقاربك عبد الشهيد ـ يوسف بك وهبة ـ جرجس أفندى خليل = كان مقاربك عبد الشهيد عضوا فى المجلسين المليين الأول والثانى ـ وكان جرجس أفندى خليل نائبا فى المجلس الملى الأول ، وعضوا فى المجلس الملى الثانى ـ وشغل مقاربك عضوية المجلس الملى الثالث (يوليو ١٨٩٢ ـ مارس ١٩٠٦) ـ أما يوسف بك وهبة فكان نائبا فى المجلس الملى الثانى وعضوا فى المجلس الملى الثالث .
ـ المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٦٠

(١٤٨) صنبوا وقوسقام = تألف النظام الدينى لطائفة الأقباط الأرثوذكس من رئيس دينى هو بابا وبطريرك الكرازة المرقسية ، ومقركرسيه القاهرة . وتشمل رئاسته الأقباط الأرثوذكس فى القطر المصرى والسودان وفلسطين وأثيوبيا وأريتريا ، ويلقب ببابا وبطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية (بنتابوليس) وسائر أفريقيا والشام . كان يعاون البطريرك فى الرعاية الدينية فى مصر ستة عشر مطرانا يحمل كل منهم لقب(أنبا) ، وكان توزيعهم حسب مراكز كراسيهم وأبروشياتهم هو : إسنا والأقصر ـ أسيوط ـ أخميم ـ جرجا ـ البلينا ـ أبو تيج وطهطا ـ بنى سويف والبهنسا ـ القليوبية والجيزة ومركز قويسنا ـ الفيوم ـ قنا وقوص ـ صنبو وقسقام وديروط ـ المنيا والأشمونين ـ منفلوط وأبنوب ـ البحيرة وبلاد الغربية ـ الدقهلية وبلاد الغربية ومحافظة دمياط ـ المنوفية .
وكان للأقباط فى نهايات القرن التاسع عشر سبعة أديرة منها أربعة بالوجه البحرى كائنة فى وادى النطرون بالبحيرة هى : دير العذراء الشهير بالبراموس ـ دير العذراء الشهير بالسريان ـ دير الأنبا بيشوى ـ دير الأنبامقار . وثلاثة أديرة بالوجه القبلى هى : دير العذراء الشهير بالمحرق بأسيوط ـ دير الأنبا أنطونيوس ـ دير الأنبا بولا ، والأخيران فى الجبل الشرقى لكن أملاكهما فى (بوش) بمحافظة بنى سويف . وكان يرأس كل دير رئيس برتبة (قمص) . يرأس البطريرك المجمع الإكليريكى العام المقدس . وكان يتألف من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة ، للنظر فى الشئون الكنسية العليا ومحاكمة المطارنة والأساقفة وسن القوانين الدينية . كما يرأس المجلس الملى العام . وهو مجلس مؤلف من ١٢ عضوا نائبا من العلمانيين (غير رجال الدين) للنظر فى إدارة أوقاف البطريركية ومدارسها . والقضايا المستأنفة والكلية من قضايا الأحوال الشخصية ـ ويرأس المجلس الروحى المؤلف من أربعة قمامصة للنظر فى الشكاوى الخاصة برجال الإكليروس الأخرين . والقوانين الكنسية هى القوانين التى يعمل بها المجمع المقدس . وللمجلس الملى العام لائحة صادرة بأمر عال صادر فى مايو ١٨٨٣ ويحكم فى الأحوال الشخصية بمقتضى كتاب الأحوال الشخصية المستمد من(المجموع الصفوى) ـ ولكل أبروشية مجلس ملى فرعى مؤلف من خمسة أعضاء علمانيين يرأسهم المطران أو الأسقف .
ـ وزارة المالية ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٩٣٢ ـ ص١٥٦ـ ١٥٩ .
ـ قلينى فهمى باشا (أعمال الملوك) ـ مطبعة كوستاتسوماس ـ القاهرة ـ ١٩٤٧ ـ ص ٣٦ ـ ٣٨ .

سابقة الطلب ، فلما توجهوا لحضراتهم وتكلموا معهم فى شأن ذلك فما كانوا يقبلون الحضور سوى بصفة رسميه بهيئة مجلس يدعون فيه الأب البطريرك حسب طلبهم . ولما أن صار إستدعاء حضراتهم مرارا ولم يقبلوا الحضور ، وفهم أنهم مصممين على تشكيل المجلس فقد صار البحث فى الكتب المقدسه عما يجب فى هذه المسألة بحسب مقتضات أصول الدين المتبعون العمل بمقتضاها حضرات الروساء ، بحسب الخلافة الرسولية طبقا لما جاءت به الأوامر الإلهيه ، فوجد على لسان متى البشير (ص ٢٨ آية ٢٠) (وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كل الايام إلى إنقضاء العالم) . وقوله على لسان لوقا البشير ص ــ ١٠ ــ ١٦ (الذى يسمع منكم يسمع منى ، والذى يرزلكم يرزلنى ، والذى يرزلنى يرزل الذى أرسلنى) . وقوله على لسان بولس الرسول إلى جماعة العبرانيين ص ١٣ :٧ : ١٧ إلى الشعب (تذكروا مدبريكم الذين يخاطبوكم بكلام الله ، إذ تقيدون نظركم فى نفوذ تصرفهم ، فاقتدوا أمانتهم ، وأطيعوا مديريكم ، وأزعنوا لهم ، لأنهم يسهرون عن أنفسكم ويعطون حسابا عنكم) إلى أن قال (فان هذا موافقا لكم) . وقوله تعالى على لسان يوحنا الرسول فى رسالته الأولى ص ٤ ــ ٦ ــ (نحن من الله ؛ فمن يعرف الله يسمع منا ، ومن ليس هو من الله فليس يسمع منا) . وما جاء به فى أعمال الرسل ص ٤ ـ ٣٢ وكان للجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول عن ماله أنه خاص له بل كل شىء كان لهم مشاعا ، ولم يكن فيهم محتاج لأن الذين يمتلكون حقول ومنازل كانوا يبيعونها ، ويأتون بأثمانها ويضعونها لدى الرسل . وكان الرسل يعطون لكل واحد كنحو حاجته . وهذا موافق لقوله تعالى فى الكتب العتيقه فى السفر الخامس (صيروا لكم حكاما فى جميع قراكم التى يعطيكم الله ربكم يحكمون فيها بين الناس إلخ) وقوله على فم أشعيا النبى ص ٦١ ـ ٢٦ (أما أنتم فتدعون كهنه الرب ، وتسمون خدام الهنا وتأكلون ثروة الامم على مجدهم تتأمرون) . ثم جاءت به أقوال الآباء

فى القوانين . قول الرسل فى قانون ٣٨ (فليكن مال الكنيسة معروفا معزولا عن مال الأسقف ، لأن له سلطان على ماله يصنع ما يحب ، ولا يذهب شيئا من مال الكنيسة بل كل متاعها ومالها يكون فى يدى الأسقف ، يتولى حفظه وصيانته ، وقسمته بين الكهنة الخ) ..... وما ورد فى قانون ٣٩ أيضا (فأن نأمر بتسلط الأسقف على كل مال الكنيسة ، إذا كان مهذبا لينا ، إذ إستئمانه على نفوس الناس المكرسة ، فقد ينبغى أن يؤتمن على مال الكنيسة) ، وما ذكر فى قانون ١٤ من قوانين مجمع أنقرة الإقليمى من قرى غلاطيه (أنه كل ما كان للكنيسة من عقار أو منازل أو متاع أو ثياب أو اوانى أو مزارع أو كروم أو مواشى أو غير ذلك ، فليكن محفوظا بأيدى خائفى الله الكهنة الأمناء) . ثم وما ذكر بالباب الرابع من مجموع القوانين . (وليس لأحد أن يحل ولا يربط شيئا من سنن الكنيسه ، بل فى كل شىء يكونون خاضعين للأب البطريرك والرؤساء) لأن الأب البطريرك فضلا عن كونه خليفة الرسول فهو بمعنى الأب للبنين ، وله السلطان على جميع الرؤساء والشعب والكنيسة) . ثم فى مادة (٢) يذكر أن (الأب البطريرك له تفويض كل الامور العامة ، وتنفيذ الأحكام وقطع المنازعات ، وتقدير العطاء للمستحقين ، يصرفه بأوقاته ، ولتقليد الرئاسة لمستحقيها ، وتسلم أموال الصدقات للأكفاء الأمناء) . وما ورد بالباب الخامس أيضا (يجب عليكم أن تحبوا الأسقف مثل الأب ، وتخافوه كملك وتكرموه مثل سيد ، ويجب أن تعطيه ، وهو يحسن تدبير ما يأخذ ، لأنه اختاره الله لتدبير الكنيسه ولا يجب أن تحاسبه) . وما ورد فى باب ٤٣ أيضا بأن (الحاكم هو رئيس الكهنة ، وهو البطرك أو الأسقف ، أو من يستخلفه أى يستنيبه منهم ، كل واحد فى كرسيه) . وفى فصل (٢) منه مذكور أن (من شروط البطريرك أو الأسقف هو فصل المنازعات ، وقطع المخاصمات صلحا أو جبرا ، وإيصال الحقوق لمستحقيها والحجر على من هو ممنوع التصرف ، والنظر فى الأوقاف وحفظ أموالها ، وتمييز فروعها ، وقبض متحصلها وصرفه فى سبيلها ، والنظر فى

أمر الأيتام والمحجور عليهم ، وتنفيذ الوصايه كما يقتضيه الشرع ، واستخلاف من يصلح للاحكام ، وتفحص أمنائه وخدامه . وأن يكون الحكام هو رؤساء الكهنه والكهنه) . وما ورد أيضا فى باب (٩) مادة ٩٢ (إن كل الاحكام التى تكون فى الإكليروس لا يؤتى بها نحو الأراخنه[١٤٩] بل نحو الأسقف ، أو أول القسوس ليحكم فيها عليهم ، وليس الأراخنه الذين يحكمون على الكنيسة ، بل الكنيسة التى تحكم على كل واحد) . وما ذكر (بمجمع نيقية) بأنه (إذا خالف أحد ما أبديناه وقلناه فهو يقاوم الله) . ثم وما ذكر به أيضا أن (للأساقفة الاجتماع للنظر فيما يحدث فى أمر الكنائس ، ويحلون الشكوك والخصومه . ومتى أجتمعوا ونظروا فى أمر وأصدروا حكما فلا يضادد أحد ما حكموا به عليه ، ومن يخالف فهو يقاوم الله) . ثم وما ذكر فى القانون الثالث أن (البطريرك له الحق أن يقطع من يستحق القطع من الأساقفه والكهنه والشمامسه والرهبان والعلمانين ، إذا مرقوا عن الدين ، وجدفوا

(١٤٩) الأراخنة = مصطلح شهير في التاريخ القبطى يقصد به(الأقباط من غير رجال الدين) الذين كانو يشاركون فى صنع القرار فى أوساط الأقباط بحكم ما كان لهم من نفوذ سياسى أو إقتصادى فى الدولة . من هؤلاء (المعلم بشارة) فى القرن السابع عشر ـ الذى رشح البابا مرقس للكرسى البطريركى ،وهيأ المناخ فى الأوساط القبطية لوصول البابا إلى كرسى البابوية ـ والمعلم إبراهيم جوهرى فى نهاية القرن الثامن عشر ، قدم خدمات لفقراء الأقباط وشارك فى صيانة وبناء كنائس عديدة ـ ولعب دور الوسيط بين الدولة والكنيسة ـ وقام بدور المستشار للبابا يوحنا . كان هذا يعنى أن هذا النفر من العلمانيين الذين كانوا يسمون (بروساء طائفة الأقباط فى مصر) كان لهم دور فى صناعة القرار القبطى . إستمد الأراخنة دورهم من كونهم كبار الموظفين لدى الدولة وخاصة فى وظائف الإدارة والحسابات والجباية ، فكانوا أقرب إلى ولاة الأمور من الكنيسة ـ وفصل ولاة الأمور التعامل مع هذا النفر من الأقباط عن التعامل مع رجال الكنيسة . إنخرط هذا النفر من العلمانيين فى الشئون القبطية بما فيها الكنيسة . وبالتالى كان لابد أن يكون لهم دور .ولقد كانت الكنيسة فى حاجة لنفوذهم الأدبى والمادى ـ ومن يشارك بالمال لابد أن يشارك فى صناعة القرار . ولعل هذا التفسير لمسألة الأراخنة يصلح لأن يكون الجذور التاريخية لنشأة (المجلس الملى القبطى) . فالمجلس الملى تاريخيا هو هؤلاء الأعيان وكبار القبط الذين لعبوا دورا هاما فى حياة الكنيسة والذين كانوا يرغبون فى أن يكون لهم دور فى إدارتها ـ وقصة الصراع بين(أراخنة) القرن التاسع عشر(بطرس باشا غالى ومقاربك عبد الشهيد وسعد بك ميخائيل ويوسف بك وهبة وجرجس إفندى خليل) وغيرهم تعتبر مثالا نموذجيا لشكل العلاقة بين أعيان الأقباط والكنيسة ومدى تأثير الأولين على أحوالها .

ـ رفيق حبيب ومحمد عفيفى(تاريخ الكنيسة المصرية)ـ الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٩٤ ـ ص١٦٢ ـ ١٦٦ .

علـى المسيح وتبعـوا الهراطقة أو غيروا سنن الكنيسـه) ، وكثير مثل هذه الأقوال الإلهيه والرسولية . إنما للإختصار قد توضح ما ذكر (تأمل) .

القرار على ذلك

بما أنه قد تبين مما ذكر وجوب عدم تداخل أحد من الشعب فى تدبير أمور الكنيسة ومتعلقاتها ، فحينئذ ما جاءت به أفكار أبناء الطائفه من نحو تشكيل مجلس منهم وسن لوائح هو مخالف للأوامر الإلهية والنصوص الرسوليه المنوه عنها ، ومضى عليه الإتباع بموجبها نحو التسعة عشر قرنا من المسيح إلى الآن ، فضلا عن أن خلافة (مار مرقس) هى مصريه ثابته مستمرة الخلافه لكل بطريرك يصير تقليده الرئاسة ، وسلكوا فى تلك المدة مائة وأحد عشر بطريركا ، وهم متمسكون بالقواعد السالفه الذكر خلفا بعد سلف ، والرؤساء والرعية مطيعين ومتعاونين ، ولم يحصل فى تلك القرون ما يضاد ذلك

وحيث لم يمكنا أن نوافق على سلب حقوق الكنيسة وشرف رؤسائها المأمور بها من الإله ، وتسليم شعبها لقيادة من لم يكن لهم السلطة من نذر يسير ، لأن المحاسبين على الرعية يوم الدينونه هم الرؤساء كقوله تعالى نحوهم «إرعوا رعية الله التى أؤتمنتم عليها وأقامكم عليها الروح القدس أساقفه» ، فلهذا قد قررنا نحن هيئة هذا الجمع المقدس بالموافقة على ما جاءت به الأوامر والنصوص المذكورة آنفا ، وعدم حلها أو شىء منها ، بل التمسك بها والعمل بمقتضاها فهذا هو حكم المجمع .

وحيث أن سيادة الأب البطريرك أشار بقوله أنه جارى أستدعاء بعض أولاده الكهنة للنظر فى الأمور المذكورة بالمساعدة بحسب ما يراه ، وأنه عند الأحوال العمومية جارى إستدعاء بعض حضرات الأراخنه للمراوية معهم ، وهذا هو شأن سيادته فكل ما يراه ويأمر به نحو ذلك ، فهذه الأمور من حقوق سيادته وسلطنته المقدسه . ونلتمس من سيادة الأب البطريرك أن يرفع قرارنا

هذا لدى سمو الخديوى الأفخم لتشريفه بأنوار المطالعه ، ويسمح بصدور أوامره الكريمه بالتصديق على ذلك لراحة الكنيسة وشعبها وأستدامتها على قواعدها الدينيه كما السوابق ، وجميعنا رافعون أكف الضراعة لدى البارى تعالى أن يديم لنا سموه العالى وأنجاله الكرام ووزرائه الفخام على ممر الليالى والأيام . تحريرا فى ٣ أبيب سنة سبع وستمائة والف(١٥٠) للشهداء .ويلى ذلك تواقيع من حضروا . أنتهى بنصه وفصه ، ولم نأت على تفصيله هنا مما عليه من الركاكة وسماجة التعبير إلا ليعرف القارىء من خلال سطوره ما كان عليه هذا الحادث فى نظر البطريرك والملتفين من جماعة القسيسين والرهبان . ولما أتموا محضرهم هذا سير البطريرك فى طلب وفد من طالبى المجلس فامتنعوا من الذهاب إليه ، فسافر البطريرك من يومه إلى الإسكندريه ومعه مطرانها حيث كان الخديوى توفيق فى مصيفه ، ورفع إليه محضر المجمع وشكا ما يلاقيه من أبناء الطائفه ، وقال أن إرجاع هيئة المجلس ضرب من التفريق بين أبناء الأمه ومدعاة سقوط الكنيسة ، وتفريق شمل أبنائها . قيل وأطلع الخديوى على بعض رسائل سريه لم تصل الينا معرفتها ولا أدى ما هو الشىء المكتوم عن الناس فى طلب تشكيل مجلس ملى . وعاد البطرك إلى القاهرة ، فاحتفل بقدومه جماعة مع أصحاب الصنائع والطبقة الوسطى ، وزينوا الطريق الموصل إلى الدار البطريكية بالأعلام والأنوار ، وقرعوا الأجراس إجلالاً له .(١٥١) قلما أستقر به المقام زاره بعض المحازبين ، ثم أحتجب عن الناس . وظلوا على هذا الحال أشهر معدوده ، فظن البسطاء أن قد قضى على الطالبين بالمجلس وتفرق

(١٥٠) ٣ أبيب سنة ١٦٠٧ للشهداء = يوافق يوليو ١٨٩١ ـ وقد إتخذ الإقباط تقويمهم مبتدءاً بعام ٢٨٤م وهو العام الذى تولى فيه الإمبراطور دقلديانوس ـ فعرف بتقويم الشهداء ـ وهو تقويم شمسى يسير على النظام اليوليانى . فاتخذ نظام السنة الكبيسة كل أربع سنوات ـ وعلى ذلك فإنه لمعرفة السنة القبطية يطرح ٢٨٤ من السنة الميلادية لنحصل على التاريخ القبطى . أما شهور السنة القبطية فهى كيهك ـ طوبة ـ أمشير ـ برمهات ـ برمودة ـ بشنس ـ بؤونة ـ أبيب ـ مسرى ـ توت ـ بابه ـ هاتور
ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ وزارة المالية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ ١٩٣٢ ـ ص٢٩ ـ ٤٧ .
ـ رياض سوريال (المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣٢

(١٥١) قلما = فلما

جمعهم ، وفاتهم قول الحكيم الشاعر :

أحسنت ظنك بالايام مذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحصل الكدر

وبينما الناس فى تفكير فيما سيكون وراء هذا السكون ، وقد كبرت آمال طغمة القسيسين وكادن(١٥٢) دعوتهم تتسع ، إذ نهض رجال (جمعية التوفيق) بالقاهرة ، وهى جمعية أدبية تأسست لهذا العهد على قاعدة المساواة والإخاء ، والعمل على تقويم ما أعوج من أمور الطايفة القبطيه ، وإصلاح ما أختل من دنياها ، كالمدارس والأوقاف ومرتبات الفقراء وذوى البيوتات ، وكل رجالها من الشبيبة المتعلمة الراقية ، وبينهم أصحاب القلم والخطباء والفصحاء ، وجعلوا يحضون الناس على طلب إعادة مجلسهم الملى ، تارة بإلقاء الخطب المؤثرة فى النفوس ، وأخرى بنشر المقالات التاريخية ، ورفعوا القصص إلى وزارة الداخليه وديوان الخديوى ، فكثر حينئذ دعاتهم فى البلاد شرقا وغربا ، وعمت دعوتهم هذه . فلما إستيقنوا من فلاحهم أنشأوا لجمعيتهم فروعا فى سائر المدن الكبرى فتوفرت شيعتهم ، ثم أنضم هؤلاء جميعا إلى أعضاء المجلس ، فكانوا جيشا قويا على الجهاد فى ذلك المعترك ، وجاءت وفودهم من المدن إلى القاهرة يطالبون التعجيل فى تشكيل المجلس ، وكلموا البطريرك فى ذلك ، وشددوا فى الطلب . ورأى البطرك أن دعوة رجال جمعية التوفيق قد(١٥٣) أنفخست ، وربما أنقلب المحازبون له وانفضوا من حوله ، فأرسل رسالة إلى جميع الكنائس نصها :

من كيرلس عبد رسول سيدنا يسوع المسيح بنعمة الله بطريرك الكرازه المرقسية ، إلى حضرات المطارنه والأساقفه والكهنة والرؤساء ، والشمامسة

(١٥٢) وكادن = وكادت
(١٥٣) إنفخست = تفشت قراءة ترجيحية

والعمد والأعيان وكافة أولادنا الشعب المسيحى أجمعين ، بمحروسة مصر ، والاقاليم القبلية والبحرية ، والثغور والقرى ، بالقطر المصرى ، والأقاليم الحبشية والنوبه ، حفظكم الله بيمينه الحصين آمين . بعد إهداكم البركات وصالح الدعوات أسبغ الله علينا وعليكم جزيل نعمته العلويه . أما بعد . فنعلمكم أيها الموقرون المحترمون أن القرار المسطر بهذا ، هو صورة الصادر من المجمع الإكليركى ، الذى كان صار أنعقاده بالعام الماضى ، من حضرات المطارنه والأساقفه ، ورؤساء الأديرة والكنائس ، الموقعين عليه بالدار البطريركيه بالمحروسه ، الموضح به من لهم الحق فى نظر مصالح الكنائس والأديره ، وخدامها والأوقاف ، والدعوى وغيرها ، وكافة الأمور الجارى نظرها . وحيث أن الموضح بالقرار المذكور هو الحقيقة والمعتمد عليه بعموم الكنيسه منذ إنشائها للآن ، ونحن مازلنا محافظين على ذلك القانون ، ولا يمكننا قط العدول عنه فى أى شىء ما ، حسب ما كان عليه أسلافنا . وهذا القرار صار معتبرا قانونا كباقى قوانين الآباء ، ومن المحتم الضرورى إتباعه ، والعمل بموجبه على ممر الدهور والأوقات . فقد لزم إرساله لطرفكم بهذه الرسالة ، لأجل إعتماده واعتباره قانونا بالكنيسة ، كباقى قوانين الآباء ، وإتباع العمل بموجبه وعدم الخروج عن شىء منه ، وتلاوته بكافه الكنائس مرات على عموم الكهنة والشعب وحفظه بها ، ومن يخالف نصوصه أو يعارض فيها يكون خالف الله تعالى . وعلى بنى الطاعة تحل البركه ، نعمة ربنا يسوع المسيح ، فلتكن مع جميعكم آمين . تحريرا فى الدار البطريركيه بالمحروسه فى خامس وعشرين بؤونه سنة ثمانيه وستمائه وألف للشهداء[١٥٤] . إنتهى بنصه

وكان لذلك العهد قد مات الخديوى توفيق ، وتولى الإمارة ولده (عباس حلمى) الثانى ، فقام جماعة من أصحاب الوظائف وأهل الخطط ، وألفوا منهم

(١٥٤) ٢٥ بؤونة سنة ١٦٠٨ للشهداء = يونيو ١٨٩٢
ــ تقويم سنة ١٩٣٣ ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٩ ــ ٤٧

هيئة أيضا بزعامة بطرس باشا[١٥٥] غالى ، وهو يومئذ وكيل نظارة الحقانيه وجعلوا يسعون فى أصلاح ذات البين ، ويلحون على البطريرك بالإقلاع عن ذلك العناد ، وأن يثوب إلى رشده فيرتاح من عناء الأعمال ، كما كان عليه السلف الصالح ، فلم يقبل . قلت . رحم الله أولئك السلف ، فلقد كانوا بحالة من التقشف والحصر ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، والابتعاد عما فيها حتى قبضهم الله وليس لأحدهم شىء من الحظ والمتاع فى دنياه ، إلا من أضله عمله ، فآب إلى قبره بإثمه ، وولج الدينونه عن بابها وهم قليلون . وظل الحال على هذا شهرين أو يزيد ، فلما كان شهر يونيه من السنه أى سنة أثنتين وتسعين وثمنمائه وألف للميلاد ، برح بطرس باشا القاهرة إلى الأسكندريه حيث كان الأمير بمصيفه[١٥٦] زبسط له مطالب الطائفه ، وممانعة البطرك فى إعادة تشكيل المجلس ، وأعطى كل فريق حقه من الأدلة ، فوافق الأمير على مطالب الطائفه ورسم بتشكيل المجلس على ما كان عليه لعهد أبيه وجده ،

---

(١٥٥) بطرس باشا غالى =(١٨٤٦ ـ ١٩١٠) سياسى مصرى ـ ولد فى بنى سويف ـ أكبر أبناء غالى بك نيروز الذى كان موظفا بالدائرة السنية ـ تعلم بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة ـ أرسله والده إلى أوروبا لإتمام دراسته ـ عين بعد عودته كاتبا بمجلس التجارة ، فموظف بنظارة الحقانية ، فوكيلا لها عام ١٨٨١ . سكرتيرا لمجلس النظار علاوة على وظيفته . شارك فى وضع قانون المحاكم الأهلية ـ عين ناظرا للمالية عام ١٨٩٣(نظارة حسين فخرى باشا ١٥ يناير ـ ١٨يناير ١٨٩٣) ونظارة مصطفى رياض باشا(١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤)ـ وناظرا للخارجية فى نظارة نوبار الثالثة (١٥ إبريل ١٨٩٤ ـ ١٢ نوفمبر ١٨٩٥)ـ وكذلك فى نظارة مصطفى فهمى باشا الثالثة(١٢ نوفمبر ١٨٩٥ـ ١١ نوفمبر ١٩٠٨) ، فرئيسا للنظار(١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ـ ٣١فبراير ١٩١٠)ـ إغتاله شاب متطرف (إبراهيم ناصف الوردانى) فى ٢١ فبراير ١٩١٠ـ كان له نشاط كبير فى المجتمع القبطى واعتبر ممثلا للطائفة القبطية فى تسعينيات القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ـ شارك بدور كبير ورئيسى فى أزمة(المجلس الملى) عام ١٨٩٢ التى ترتب عليها عزل البابا كيرلس الخامس بطريرك الأقباط من سبتمبر ، ١٨٩٢ وحتى يناير ١٨٩٣ .

ـ يونان لبيب رزق(تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٠

ـ الكسندر شولش(مصر للمصريين ـ أزمة مصر الإجتماعية والسياسية ١٨٧٨ـ ١٨٨٢) ترجمة رؤوف عباس حامد ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٤ ـ حاشية ١٢٤

ـ مذكرات سعد زغلول ـ ج١ ـ تحقيق عبد العظيم رمضان ـ ص ٢٤٤ ـ حاشية ٢٠٢

ـ قلينى فهمى باشا(أعمال الملوك)ـ مرجع سبق ذكره ص ٣٦ ـ ٣٨

(١٥٦) زبسط = وبسط

وسير بذلك الى(عبد الرحمن[١٥٧] رشدى) باشا ناظر الماليه ومتولى رئاسة مجلس الوزراء لغيبة الرئيس يدیار[١٥٨] الفرنجه . وعاد (بطرس باشا) إلى القاهرة ، وشاع خبر ما رسم به الأمير ، فأكبر البطريك الأمر وأعظمه جدا ، وركب إلى (عبد الرحمن رشدى) باشا وكلمه فى ذلك ، وأراه شيئا من القصص والمحاضر التى بعث بها أهل البلاد بمنع إعادة المجلس ، وأطال القول فيما يترتب على هذه المحنة من الفرقة والخصومة بين العائلات . يقال كان يكلم الرئيس وعيناه تزرف الدمع إشفاقاً ، وقيل ملىء تغيظا وغضبا . وانصرف وبات تشكيل المجلس أمراً مقضيا . فلما كان أخريات شهر يونية سير بطرس باشا كتبه إلى أبناء الطائفة ، يدعوهم إلى الحضور فى تاسع عشرى الشهر فى الساعة الثالثة بعد الظهر لإنتخاب أعضاء المجلس . ففى ذلك اليوم جاء جماعة من أصحاب الشحنة إلى الدار البطريركية ، وأخذوا بمضايق طرقها وأبوابها من الداخل والخارج ، ووقف نفر منهم عند الباب الخارج يمنعون الناس من الدخول إلا من بيده ورقة الدعوة ، وجاء أيضاً مأمور من مأمورى الحكومة يشهد واقعة الحال ، فلما تكامل حضور المدعوين وانتظم عقد إجتماعهم إفتتحوا الجلسة بإسم الخديوى ، وتلى على الحاضرين أمر الخديوى إلى (عبد الرحمن رشدى) باشا بوجوب تشكيل المجلس على النحو المقرر بلائحته . فتم إنتخاب إثنى عشر عضوا ، إثنى عشر نائبا وجلهم من الشبيبة المتعلمة . فلم يحضر البطرك بينهم فى ذلك اليوم . فلما تأدى إليه خبر ذلك أخذته[١٥٩]

---

(١٥٧) عبد الرحمن رشدى باشا = ناظر المالية فى نظارة إسماعيل راغب باشا (١٧ يونيو ـ ٢١ أغسطس ١٨٨٢)ـ شارك فى التوقيع على الرد المصرى إلى الأميرال سيمور seymour برفض إنذاره بضرب الإسكندرية فى ١٠ يوليو ١٨٨٢ ـ عمل ناظرا للمالية فى نظارة مصطفى فهمى باشا الأولى (١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٧ يناير ١٨٩٢)

ـ انظر عبد الرحمن الرافعى(مصر والسودان فى اوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ـ ١٨٩٢) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٢

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارت المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٦ ، ١٢٦ ـ ١٢٧

ـ عبد الرحمن الرافعى(الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٨٠

(١٥٨) يديار = بديار

(١٥٩) رجعة = رجفة

رجعة الغضب ، وسير الكتب فى يومه إلى سائر الكنائس يقول فيها «إن شبان جمعيه التوفيق المحتشدين بالقاهرة ومن التف حولهم قد زادوا فى التهور ، وبالغوا فى الشمات بنشر النشرات المهيجة ضد الكنيسة وطقوسها ، وهم يغررون بالبسطاء ويطوحون بهم إلى طلب نزع إيرادات الأوقاف ـ والديارات والكنائس وأملاكها من يد الدار البطريركية ، وتسليمها إلى جماعة من المخالفين والتسلط على طغمة القسيسين والرهبان وغير ذلك . ويدعو الناس فى كتبه إلى بتر سعايات أولئك الصبيه ، وأن يضربوا بنشراتهم ورسايلهم تلك عرض الحائط ، وأن يتمسكوا بطاعته ، وأن يدفعوا عنهم وعن كنيستهم معرة العجز عن المقاومة ، وإلا حاق بهم الذل والمسكنه . وكثر غدوه ورواحه تارة إلى ديوان الوزارة ، وتارة إلى ديوان الشحنه ، ومعه مطران الاسكندريه المقول عنه أنه علة هذا البلاء والخصام . وأستعان على بث نفثات صدره ببعض إصحاب الصحف المحلية (كصاحب الوطن)(وصاحب الأهرام)(وصاحب المؤيد)(وصاحب[١٦٠] النيل) وغيرهم . فأعانه بعضهم وانتصروا لمدعياته : وأنبث جماعة القسيسين بين وضعاء الطائفة وزعانفها ، يبغضونهم فى إعادة تشكيل المجلس ويخوفوهم من عاقبة عمله ، ودفعوا بهم إلى رفع القصص إلى صاحب الشحنة وديوان الوزارة وقصر الإمارة ، بالشكوى من أعتداء إخوانهم على البطريرك ، والتظلم من إحداث ذلك الحدث بالملة ، وقام على رأس هؤلاء الوضعاء عصامى إسمه (إبراهيم بك الوهابى) فكان أشدهم نفاقا وبهتا . فدس جماعة القسيسين فى بيوت أهل الوجاهة فبذروا بينهم بذور الشقاق والفرقه .

---

(١٦٠) أنشئت جريدة (الوطن) عام ١٨٧٧ بمعرفة ميخائيل عبد السيد ـ وكانت تنتقد سياسة الخديو إسماعيل صراحة واتسمت بطابع سياسى وأدبى . وقد أدار الصحيفة جرجس ميلاد . وصدرت النيل عام ١٨٩١ . ، أما الأهرام فقد أصدره سليم وبشاره تقلا فى الإسكندرية عام ١٨٧٥ـ وصدرت المؤيد فى أول ديسمبر١٨٨٩ .

ـ راجع إبراهيم عبده(تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) ـ ط٤ ـ مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ ص ٧٣.٦٦ ، ١٥٣ ، ٣٣٥ ـ ٣٣٦

ـ عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى(عبد الله النديم ودوره فى الحركه السياسية والإجتماعية) دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ الطبعة الإولى ـ ص ٢١

فانقسم كل بيت على نفسه ، وغاضب الأب إبنه لأنه من المطالبين بالمجلس وعيره بذلك وناداه (بياتوفيقى) ، نسبة إلى جمعية[١٦١] التوفيق ، وافتتن الناس فتنة كبرى حتى لم تخل دار فى مدن وقرى الإقليمين من سعد[١٦٢] وحرام .

فلما كان السادس عشر من شهر يوليو من السنه ، أى ثانى عشرى الحجة سنة تسع وثلثمائة وألف للهجرة ، أمر الأمير على إنتخاب أعضاء ونواب المجلس ، وجاء الأمر بذلك إلى ديوان الرئيس ، وأشاعت عيون (إبراهيم بك) خبر ذلك بين العامة وزعر الطائفه ، فهاجوا وماجوا ، وتألبوا زمرا عند دار البطريركية ، وهم فى ضجيج وعجيج . وترامح بعضهم خلف بعض وتهوس مثل

---

(١٦١) جمعية التوفيق = جمعية التوفيق القبطية - تأسست عام ١٨٩١ وقامت تنادى بالإصلاح - وقفت إلى جانب العناصر المعارضة للبطريرك كيرلس الخامس أثناء أزمة(المجلس الملى) عام ١٨٩٢ - تألفت من بعض وجهاء الأقباط المهتمين بإصلاح الكنيسة أمثال (رفله جرجس [أول رئيس لها] . جندى بك إبراهيم صاحب جريدة الوطن . ميخائيل بك شاروبيم مؤلف(الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) - عطيه بك وهبه - مرقس بك سميكة - مينابك إبراهيم - الدكتور إبراهيم منصور . عند إنتخاب رفله جرجس عضوا بالمجلس الملى العام(١٨٩٢) تنحى عن رأسة الجمعية فتولاها ميخائيل بك شاروبيم (١٨٩٢- ١٨٩٦) - وفى عام ١٨٩٦ تولى الرأسة الدكتور إبراهيم منصور - أصدرت مجلة (التوفيق) التى إستمرت فى الصدور ثم إحتجبت - أسست أول مدرسة صناعية للأقباط - ومدرسة أخرى للبنين ببركة الرطلى - وأنشأت فروعا ثلاثة لها فى الإسكندرية وطنطا والفيوم وقام كل فرع بإنشاء مدرسة قبطية - تعد ثانية الجمعيات القبطية فى مصر بعد الجمعية الخيرية القبطية(١٨٨١) .
- رياض سوريال(المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) مرجع سبق ذكره - ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- رفيق حبيب ومحمد عفيفى(تاريخ الكنيسة المصرية) مرجع سبق ذكره - ص ١٦١ .

(١٦٢) سعد وحرام = كان الميل إلى التكتل فى تجمعات متنافسة ومتصارعة من المظاهر الملحوظة فى تاريخ الشرق الأوسط . كان نصيب مصر من هذا التكتل خلال القرن الثامن عشر كتلتى(سعد وحرام) اللتين تحولتا بعد ذلك إلى كتلتى (الفقارية)و(القاسمية) المملوكيتين . ويمكن تتبع حزبى (قيس)و(يمن) فى بلاد الشام حتى أيام الدولة الإسلامية وتحالفاتها القبلية . وفى لبنان أعقب إنقراض هذا العداء القديم ظهور تحزب جديد بين (اليزبكية) و (الجانبلاطية) . كان التحزب من هذا النوع مستترا وكامنا على ما يبدو فى كل الأوقات - لكنه كان يتخذ شكل الظاهرة السياسية عندما كانت الأداة الحكومية تصاب بالضعف وعدم القدرة على اداء مهمتها . وهكذا فإن القرنين السابع عشر والثامن عشر - عندما كانت السلطنة والإدارة العثمانية فى أضعف حالاتهما - كانا ذروة الصراع الحزبى فى كثير من الولايات العثمانية بما فيها مصر . وقد خمد هذا الإنقسام فى القرن التاسع عشر مع قيام الدولة الحديثة المركزية .

p.m.Holt (Egypt and The Fertile crescent (1516 – 1922 – Cornell Vniversity – Ithaca and London, 1980 .p..4

(إبراهيم بك الوهابى) آخرون أيضا ، فاتخذوا عميان(١٦٣) البيات المعروفين ، وعرفان(١٦٤) الكنائس أعوانا على دس الدسائس بين العائلات ، وتوسيع نطاق هذه المحنة ، فكانوا أشر الذكور ، لاينكفون عن التطواف فى الليل والنهار ، بعضهم يقود بعض وهم على أشد ما يكون من النشاط ، فقد كانوا يتلمسون الأزقة والحارات ، ويلجون البيوت بلا حشمة ولا تأدب ، حتى لقد تم فيهم المثل العامى المطروق . (أعمى يجر أعمى ويقول له ليله سعيدة إللى اجتمعنا) . وأفلح أولئك العميان سعيا ، فكبرت الفتنة ، وشكا أعوان الشحنة من ذلك إلى صاحبها ،فرفع الأمر إلى الرئيس (عبد الرحمن رشدى) باشا ، فكلم الرئيس البطريرك فى ذلك وحذره من العاقبة ، وسأله أن يسرح تلك الجموع المتحشدة على بابه ، وأن يأمر (إبراهيم بك) ومن معه بالإقلاع عن هذا الخروج ، والكف عن معاندة السلطة الحاكمة . فلم يلتفت إلى ذلك ، وكأنه كان يرى أن إبقاءه فى كرسيه مقرون بهذا الحرج . وأجتمع أعضاء المجلس الملى ، وتناجوا فى الأمر طويلا لعلهم يجدون خلاصا للطائفة من هذه المحنة ، فاتفقوا على خلعه أولا من رئاسة المجلس ، وثانيا من إدارة أعمال الدار البطريركية ، ورفعوا إقرارهم إلى رئاسة مجلس النظار ، وقد أنصبغت الفتنة بصفة سياسية ، فمد إليها قناصل الدول أعناقهم ، وكلم بعضهم بطرس باشا فى شأنها . قيل وعايبه بعضهم ، وبعضهم عاب عليه تجمله(١٦٥) تبعة تلك الزعامة ، وأشار بعضهم بالعدول عن هذا الأمر جريا(١٦٦) لشيخوخة البطرك حتى يقبضه الله إليه ، وعلم الأمير بخبر ما هو جارى ، ونقلت إليه العيون من أخبار فعال الرهبان وطغمة القسيسين ، وشكوى صاحب الشحنة ما أقلقه ، فأرسل فى طلب

---

(١٦٣) البيات = البيعات ــ أى كنائس النصارى .
ــ مختار الصحاح ــ ص ٢٩

(١٦٤) عرفان = عرفاء ــ ومفردها عريف ــ وعريف الكنيسة هو القائم على الخدمات اليومية بها كحرق البخور وتنظيف الأثاث ومساعدة الكهنة

(١٦٥) تجمله = تحمله

(١٦٦) جريا = حفظا ــ قراءة ترجيحية

الرئيس وكلمه فى نزع كل عمل من يد البطرك وتفرغه للأعمال الدينية لا غير ، وأن يقام له وكيلا يناط به إداره الدار البطريركية ، بمعاضدة المجلس الذى تكون له الرئاسة عليه أيضا ، حتى تنفسح الأزمة وتتفرق تلك الغوغاء . ورسم باجتماع الوزراء فاجتمعوا فى ثامن عشر يوليو من السنه فقر قرارهم على ما يأتى :

قد اطلع مجلس النظار فى جلسته المنعقدة تحت رئاسه الحضرة الفخيمة الخديوية فى يوم الخميس رابع المحرم ، أفتتاح سنة عشر وثلثمائة وألف للهجره[١٦٧] على المكاتبة المحررة من جناب بطريرك الأقباط الأرثوذكس ، إلى رئاسة مجلس النظار ، بتاريخ عشرين يوليو بعدم إقراره على تجديد مجلس الطائفة الصادر باعتماد إنتخاب إعضاء نوابه الإرادة السنية ، المؤرخة ثالث عشرى ذى الحجة سنة تسع وثلثمائة وألف[١٦٨] وتبلغت صورتها لجنابه من رئاسة مجلس النظار ، بافادة تاريخها تسعة عشر يوليو ، بالقول من جنابه أن وجود هذا المجلس مخالف للدين ، وإطلع إيضا على صورة القرار الصادر بتاريخ إثنين وعشرين يوليو من مجلس طائفة الأقباط ، المرغوب به بناء على الأسباب الموضحة فيه ، رفع الأنباء(كيرلس) البطريرك من رئاسة المجلس ، ومن إدارة كل ما يتعلق بشئون الطائفة ، وأن ينتخب المجلس من يلزم ليكون وكيلا للبطريكخانة ، ورئيسا للمجلس . فلدى المذاكرة والمداولة فى هذا الطلب رؤى :

حيث أن جناب البطريرك لم يقر على تجديد مجلس الطائفة ، بالقول أن وجود هذا المجلس مخالف لقواعد الدين ، مع أنه علم لمجلس النظار من تلاوة الأوراق والمحاضر التى عرضت عليه فى جلسة سابقة ، أنه موجود مجلس

(١٦٧) ٤ محرم ١٣١٠ = ٢٩ يوليو ١٨٩٢
(١٦٨) ١٣ ذى الحجة ١٣٠٩ = ١٧ يوليو ١٨٩٢

لطائفة الأقباط يدير شؤونها منذ نحو العشرين سنة ، وصادر باعتماده أوامر سنية منذ ستة وتسعين ومائتين وألف للهجرة[١٦٩] ، وأن هذا المجلس هو الذى انتخب جناب البطريرك الحالى ، وأن لائحته الصادر عليها الأمر العالى الرقيم رابع عشر شهر مايو سنة ثلاثة وثمانين وثمنمائة وألف ، كان وضعها بالاتحاد مع جنابه ، وعقب المباحثة فيها معه بندا بندا ، وأن جنابه هو الذى التمس التصديق عليها من لدن حكومة الجناب العالى ، وبعد إستحصاله على هذا التصديق أعلنها للمطارنة والأساقفة والقسيسين للعمل بموجبها ، وجرى نفسه هو عليها عده سنوات مشاركا للمجلس ومترأسا عليه .

وحيث أن مجلس طائفه الأقباط أوضح فى قراره البادى الذكر ، أن جناب البطريرك قد أمتنع من مدة عن تنفيذ أحكام اللائحة ، رغبة منه فى حب الاستقلال بالأعمال ، ولم يعدل عن خطته هذه رغما عن تكرار المساعى ، وتوسط كثيرين من أعيان الطائفة .

ومع صدور الأوامر السنيه باعتماد أعضاء ، وتولى مجلس الطائفة الذين صار إنتخابهم مؤخرا وتبليغها إليه لم يزعن[١٧٠] لها .

وحيث أن هذه الحالة داعية لتزايد الضرر ، ولتعطيل الأعمال بعكس ما هو مرغوب من وضع اللائحة وتشكيل مجلس لطائفة الأقباط . فبناء على هذه الأسباب ، وعلى رغبة مجلس طائفة الأقباط الصادر باتحاد آراء أعضائه ، قد وافق مجلس النظار على رفع الأنبا (كيرلس) من رئاسة مجلس الطائفة ، ومن إدارة كل ما يتعلق بشؤونها ، وأن المجلس المذكور ينتخب من يلزم ليكون وكيلا للبطريكخانة ، ورئيسا على المجلس ، ويعرض عنه للحكومة السنية لاعتماد تعيينه . إلى أن قال . وقد وافق الأمير على هذا القرار ورسم إلى الرئيس (عبد الرحمن رشدى) باشا بتنفيذه .

(١٦٩) ١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م
(١٧٠) يزعن = يذعن

فلما شاع الخبر بذلك بين الناس هاج من فى الدار البطريركية من جماعة القسيسين والرهبان وماجوا ، ووقف بعض الغوغاء وزعر الطائفة على بابها يوسعون الناس سبا ، ويتحككون بالمارة من وجهاء الطائفة ، وظل الحال على هذا أياما وعقلاء الناس يسعون فى إصلاح ذات البين . وأنس بطرس باشا ميلا من العقلاء إلى مطاولة البطرك فى الأمر ، فأعجبه ذلك ، وكلم البطرك فى أنه يكفل له إسترضاء أبناء الطائفة بتعديل بعض مواد قانون المجلس التى يطلب جماعة القسيسين تعديلها ، وأن يكتب بذلك صكا بشرط أن يحفظ هذا الصك عند (إبراهيم بك الوهابى)٠، مع صك يكتب من البطرك بقبول تعيين الوكيل الذى يختاره المجلس ، وأن يرسل منشورا إلى سائر الاساقفة ورؤساء الكنائس بالإقلاع عن دس الدسائس ، والكف عنه[١٧١] كل أمر يؤدى إلى الفرقه بين أبناء الطائفة ، وبشرط بقاء هذا الاتفاق شرا[١٧٢] مكتوما ، لايعلم به أحد حتى يشرع فى العمل به بعد أيام ، فوافق البطريرك على ذلك . فما هى إلا أيام قبل إن يحل الأجل المتفق عليه بينهما حتى شاع خبر الاتفاق ونشرت أكثر الصحف مواده ، فتكلم الناس فيه واتخذه جماعة القسيسين والرهبان والمحازبين لهم برهانا على فساد مواد قانون المجلس ، ومخالفتها للقواعد الشرعية . وأذاع أصحاب تلك الصحف أيضا صورة الإتفاق المعطى من البطرك إلى (إبراهيم بك الوهابى) ، فكان القولان على طرفى نقيض فى سائر عباراتهما ، وكان بطرس باشا لم يطلع على صك البطرك بعد تحريره ، اعتمادا على حسن ظنه (بإبراهيم بك) ، وعلى أن الخلاف القائم ليس هو من الذاتيات فى شىء . فلما كان ثانى عشرى أغسطس من السنة ، إجتمع سائر أعضاء المجلس ، وقرروا فى ما بينهم أن يبعثوا برساله إلى البطرك ، يفصلون فيها أدوار هذا الخلاف من يوم نزوع البطرك إليه ، إلى اليوم الذى ظهر فيه الاتفاق الذى أبرم بينه وبين بطرس باشا ، وأذاع

---

(١٧١) عنه = عن
(١٧٢) شرا = سرا

ما فيه أصحاب الصحف المحازبة . فبعثوا إليه بتلك الرساله مع وفد من أبناء الطائفة ، وهو متحصن بدار المطرانية بالإسكندريه بإغراء مطرانها . فتسلمه وقال سنرسل بالرد قريبا إن شاء الله . فعاد الوفد وأخبر بما صار . وفى اليوم التالى أرسل إلى (بطرس باشا) يقول أنه قابل بنصوص الاتفاق الأخير المبرم مع الباشا بغير تأويل ولا تصحيف ، وأنه حرر منشورا وأعلنه بجريدة (الوطن) ، فأزال هذا المنشور كل خلاف وفرقة حتى لقد جاءت إليه رسائل التهانى من كل فج ، وأنه يرجو أن يبقى الباشا على خطة السلام ، كما أنه هو لا يحب إلا السلام عملا بقوله تعالى (طوبى لصانعى الصلح والسلام) . وما هو أن تلى هذا الجواب على أعضاء المجلس حتى أخرج أحدهم نسخة من صحيفة (النيل) وتلى عليهم أيضا منشورا أصدره البطرك فى اليوم الذى بعث فيه جوابه على رسالة بطرس باشا ، وفى هذا المنشور رد على مدعيات أعضاء المجلس ونفى لقولهم ، وهو يقدح فى طريقتهم وما كمن فى نفوسهم من حدة على شأنه وتعويلهم على تهدات[١٧٣] وصكوك قديمة ، قد مضى عليها حين من الدهر ، ثم طلب من أصحاب النصفة وأهل الرأى أن يحكموا بينهم وبينه .

واهتم أعضاء المجلس بانتخاب أحد الأساقفة للرئاسة ، تسكينا لهرج العامة ، إذ هم يعتقدون بأن لا كرامة للمجلس ، ولا حرمة ولا وقار إذا لم يرأسه أحد رجال الدين . وجعل بعض الأعضاء يخابر جماعة الأساقفة خفية فى ذلك ، حتى مال (أسقف جنو[١٧٤]) ، فقرر المجلس إنتخابه ، وأرسل طلبا بذلك إلى مجلس الوزراء فوافق عليه ، ورسم الأمير فى سابع عشرى أغسطس بتنفيذه . وجاء الطلب إلى الأسقف من وزارة الداخليه على جناح البرق ، بالشخوص إلى القاهرة . فأرسل الأسقف بخبر ذلك إلى البطريرك وهو متحصن بالإسكندرية وأنه منحدر إلى القاهرة من يومه . فأكبر البطريرك الأمر وأعظمه

---

(١٧٣) تهدات = تعهدات
(١٧٤) جنو = صنبو

جدا وأحس بفساد تدابيره . وأرسل فى الحال إلى أسقف بنى سويف على جناح البرق يقول (إذا مر بك اليوم أسقف صنبو شاخصا إلى القاهرة قف فى وجهه واوقع عليه الحرم ، واقطعه من كل رتبة كهنوتية) . فوقف أسقف بنى سويف بالمحطة فى جمع من الغوغاء . فلما أقبل القطار دنا من نافذة العربة التى تقل الأسقف وقال له (أنت محروم . أنت مقطوع من كل رتبه ، فأذهب حيث شئت) . قيل فأجفل (أسقف صنبو) وتغير لونه ولم ينطق ببنت شفة . ووصل القطار إلى القاهرة ، فاستقبله مأمور من قبل وزارة الداخلية ، وآخر من أعوان صاحب الشحنة وعضو من أعضاء المجلس ، وأنزلوه فى بيت أحدهم إلى (الدرب الإبراهيمى) (بالقبيلة) ، وقد حضر معه نفر من الرهبان ، فذهبوا إلى الدار البطريركية لينزلوا بها على عادة الرهبان ، فوجدوا الأبواب مقفلة والغوغاء قد ملأت الدرب . فهموا بالرجوع فأخذهم الزحام من كل جانب ، وصاحت العامه فى وجوههم ، وأوسعوهم شتما[١٧٥] وتهزا ولكما ورفسا بالأقدام ، وجعل الصبية ينادونهم (يامحرومين ياملاعين) ، وهم لا يرون للخلاص سبيلا حتى قيض الله لهم نفراً من أولئك العميان المداعين [١٧٦] إلى تجسيم الفتنه ، فتعرف بعضهم ببعض أولئك الرهبان فأخرجوهم من وسط ذلك المعمعان ، ففروا لا يلون[١٧٧] على أحد ، والصبيه من يصيحون[١٧٨] (بيامحرومين) .

وأرسل البطرك فى ذلك اليوم رسالة إلى صاحب جريدة (النيل) يرمى فيها أعضاء المجلس الملى بالتهم الشنعاء ، ويقول أنهم علة كل شقاق وتفريق ، وهم العاملون على توسيع نطاق الفتنة ، وهم أصل البلاء الذى تحيف أبناء الطائفة . وقام نفر من أبناء(الكنيسة الغربية) يعيبون على الناشئة القبطية فعالها ، ويرمونها بالإفك والإستطالة على المقام البطريركى ، وينصحون إليها

---

(١٧٥) وتهزا = ونهرا

(١٧٦) المداعيين = الداعين

(١٧٧) يلون = يلوون

(١٧٨) يصيحون = خلفهم يصيحون أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

بالرجوع عن متابعة هذه الشوائن المعيبة . والله يعلم إن كان ذلك عن محض الإخلاص ، أو هو لحاجة فى النفس . لأننا لم نرى فى أخبار المتقدمين من أهل الكنيسة الغربية شبه لذلك عند وقوع المغاضبة بين الأقباط وبطاركتهم . فلما كات[١٧٩] صبح الأربعاء حادى وثلاثين أغسطس جاء إلى الدار البطريركية جميع رجال المجلس ، ومعهم مأمور وزارة الداخليه ، وآخر من ديوان الشحنة ، وجماعة من الجند ، فوجدوا بابها مقفل . فتقدم مأمور الشحنه وقرع الباب قرعا متتابعا ، فلم يجيبه أحد . فجعل يتابع القرع ، ولبث على هذا ساعة أو يزيد ، ثم سمع صوت من وراء الباب يقول (من هذا الذى يزعجنا بقرع بابنا) فأجابه مأمور الشحنة باسم الحضرة الفخيمة الخديوية أطلب منك أن تفتح الباب فقال (لاأفتح إلا بأمر السيد البطرك) فناداه ثانية وثالثة باسم الحضرة الفخيمة الخديوية أطلب منك أن تفتح الباب وهو فى كل مرة يقول (لا أفتح إلا بأمر من السيد البطريرك) . فقال له المأمور وما أسمك قال (بولس البراموسى) . فعند ذلك أنصرف الجمع ، وأوقف صاحب الشحنة جماعة من العسكر على الأبواب الثلاثة للدار البطريركية ، لمنع الخارج منها . وبعد لحظة جاء محافظ البلد فطاف بالأبواب وانصرف .

وعظمت الفتنة وأتسع نطاقها ، وكثر تألب طالبى المجلس ، فقام فيهم الخطباء والمتكلمين يبدون[١٨٠] تبعيد البطرك إلى ديره بالبراموس ، وتبعيد مطران الإسكندريه النافخ فى أضرام هذه الفتنة إلى دير(أنبا بولا) بالجبل الشرقى لمديرية بنى سويف . فاجتمع جماعة منهم برجال المجلس وطلبوا منهم باسم الأمة أن يفضوا تلك الغوغاء من حول البطرك بتبعيده ، وأن يقضوا على الفتنة نبعيد[١٨١] مطران الاسكندريه إلى دير أنبا بولا ، وأن يترلفوا[١٨٢]

(١٧٩) كات = كان
(١٨٠) يبدون = يؤيدون
(١٨١) نبعيد = بتبعيد
(١٨٢) يترلفوا = يتزلفوا

بهذا العمل إلى الأمه التى أنشبت فيها الفرقة أظافرها . فاجتمع رجال المجلس بالأسقف الرئيس وأعضاء المجس [١٨٣] الروحى وتناجوا فى ذلك ، فكانوا فى أمر تبعيد البطرك على إختلاف ، وعلى إتحاد فى الحكم بتبعيد مطران الاسكندريه . وتوالى إجتماعهم أياما ، ثم إتفقوا جميعا وحكموا بتبغيد[١٨٤] الإثنين . وكتب الأسقف إلى الرئيس رشدى باشا يقول (لما صدر الأمر الكريم لعطوفتكم بتاريخ أول أغسطس بتعيينا وكيلا لبطريكخانة الأقباط ورئيسا لمجلس الطائفة ، وبناء عليه صدر لنا تلغراف من سعادة وكيل الداخليه بتاريخ ٢٦ أغسطس بطلب حضورنا إلى مصر باكر اليوم المذكور ، قد حضرنا حسب الامر فاتضح لنا أن أبواب البطريكخانة أغلقت ، بقصد منعنا من الدخول فيها . وكذلك فى هذا اليوم أمتنع من فتح الابواب أيضا . وباجتماع المجلس فى يوم تاريخه مع المجلس الروحى الذى تعينت أعضاؤه فى هذا اليوم تحت رئاستنا ، قر رأيهم على القرار المرسل طيه لعطوفتكم نلتمس أنه متى وافق يصدر الامر باعطائنا المساعدة اللازمة بالكيفية الموضحة بالقرار المذكور وهو :

«حيث أن إجراءات جناب البطريرك من نحو مخالفته لأوامر الحكومة السنية ، وعدم إتفاقه مع الطائفة ، ورفضه قبول مجلس بالكلية ، معلوم لدى الحكومه بما كتبه أرباب مجلس الطائفة ، عند التماس رفعه من رئاسة المجلس ومن إدارة شئون الطائفة . وحيث أنه بعد صدور الأمر الكريم بما ذكر ، سعت الطائفه مرارا لديه بواسطة بعض الوجهاء للصلح معه حسما للنزاع ، وتسكينا لهذه المحادثه ، التى شغلت الطائفة والحكومة معا . وفضلا عن هذه المساعى لم نجد ثمرة ، فإنه استمر على بعث أعوانه فى الجهات لتحريض العامة على الهياج ، وتلفيق التلغراف إلى المعية السنية . وزيادة على ذلك فانه إشتكى بكتابة منه إلى بعض مأمورى الدول الأجنبية ، وأرسل أخيرا منشورا

(١٨٣) المجس = المجلس
(١٨٤) بتبغيد = بتبعيد

يطلب فيه قسوسا وغيرهم لطرفه بالاسكندريه لزيادة الهرج . وحيث أنه بناء على الأمر الكريم الذى أجاز لمجلس الطائفة إنتخاب وكيل للبطريكخانة ، ووكيل للمجلس قد إنتخب جناب (إسقف صنبو) وصدر الأمر العالى بتعيينه . وفى يوم تاريخه للحضور إلى مصر أرسل جناب البطرك تلغراف للإكليروس بمصر وإلى (إبراهيم بك مليكه الوهابى) . . . . هل تجمع قصد منع الأسقف وأن يحتفظوا كاللازم[١٨٥] ، وهلم جرا . إلى أخر ما جاء فى هذا القرار ، مما يشير إلى حرمان البطرك للأسقف بطريقة غير قانونية ، وامتناع من فى البطريكخانة من إطاعة أمر الحكومة ، والتماس[١٨٦] صدور بإبعاد[١٨٧] البطريرك إلى دير البراموس فى مديرية البحيرة ، وحضرة المطران الى دير (أنبا بولا) فى بنى سويف) إنتهى نصه . فلما تقدم هذا القرار الى هيئة مجلس الوزراء وافقوا جميعا عليه . فقد أعيتهم الحيل فى سد هذه الفرجة من ناحية البطرك والمطران . وقد أقلقهم رد أمر الأمير ، وقفل أبواب البطريركية فى وجه رجال الحكومة ، وأعياهم نداء صاحب الشحنة المتواصل باشتداد الأزمة ، وتجمع الغوغاء والوضعاء من أبناء الطائفة حول الدار البطريكية تعظيما للفتنة ، ورفعوا قرارهم الى ديوان الأمير . فلما كان العاشر من صفر من السنة ، أى سنة عشر وثلثمائة وألف للهجرة[١٨٨] ، أرسل الأمير أمرا إلى مجلس الوزراء يقول فيه .«حيث إنه اقتضت إرادتنا المؤرخه ثامن المحرم من السنة ، رفع الأنبا(كيرولس) البطريرك من رئاسة مجلس طائفة الأقباط الأورثوذكس ، ومن إدارة كل ما يتعلق بشؤنها ، والتصريح لمجلس الطائفة المذكورة أن ينتخب من يلزم ، ليكون وكيلا للبطريكخانة ورئيسا للمجلس ، ويعرض عنه لحكومتنا لاعتماده . وحيث أن المجلس المذكور انتخب الأنبا (أثناثيوس) أسقف كرى[١٨٩] (صنبو) فى

---

(١٨٥) هل تجمع قصد منع الأسقف وأن يحتفظوا كاللازم = للتجمع بقصد منع أسقف صنبو والإحتفاظ بأبواب البطريركية مغلقة ــ عدلت الجملة لتتفق مع السياق

(١٨٦)والتماس = فإن المجلس يلتمس إستبدلت الكلمة بهذه العبارة ليستقيم المعنى .

(١٨٧) صدور بإبعاد = صدور قرار بإبعاد أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(١٨٨) ١٠صفر ١٣١٠ = أى أول سبتمبر ١٨٩٢

(١٨٩) كرى = كرسى قراءة ترجيحية

مديرية أسيوط لهذه الوظيفة ، وصدق على انتخابه بمقتضى أمرنا المؤرخ خامس صفر سنة عشر وثلثمائة وألف . وحيث أنه قد ثبت أن الأنبا قد أصدر تعليمات بعدم الإنقياد لأوامرنا . وترتب على هذه التعليمات منع الوكيل المنتخب قانونا ، ومنع مندوبى الحكومة الذين كانا معه عن الوصول إلى محلات البطريكخانه ، المشتملة على دار البطريركية والكنيسة والمدرسة مع تكرار طلب ذلك بأمر الحكومه . وحيث أن البطريرك المومى إليه عصى أوامرنا ، وزاد على ذلك أنه حاول بما أظهره من المنشورات والدعوات أن يحرض فريقا من أبناء طائفته على مخالفة أوامرنا ولو اقتضى ذلك لتكدير الأمن ، وساعده على هذه الإجراءات مطرن[١٩٠] الإسكندريه . وحيث أن مجلس طائفة الأقباط باتحادهم مع المجلس الروحى قد التمس من حكومتنا بقراره المؤرخ حادى ثلاثين أغسطس إصدار أمرنا للأنبا كيرولس البطريرك بإقامته فى (دير البراموس) (ببرية شيهات) وإقامة الأناء[١٩١](يونس) مطران الإسكندريه بدير الأنبا بولا بالجبل الشرقى ، لأجل حصول الهدوء والسكينه فى الطائفة . وحيث أنه يجب منع دوام الحالة الحاضره التى من شأنها إيجاد الهياج والشقاق بين الطائفه ، وتدبير الأمن العام حتى يتيسر لمجلس الطائفة القيام بالمأموريه المندوب لها قانونا .

فبناء على ما عرضه علينا مجلس النظار قد أمرنا بلزوم توجه (الأنبا كيرولس) البطريرك (لدير البراموس ببرية شيهات) ، والأنبا (يونس لدير (الأنبا بولا) فى الجبل الشرقى . وعدم مبارحتهما هذين الديرين وأصدرنا أمرنا هذا لإجراء مقتضاه أ . هـ بنصه .

وشاع خبر ذلك بين الناس ، ففزع العامة والغوغاء من أبناء الطائفة الى الدار البطريركية (بالقبيلة) ، وهم فى جلبة وضوضاء يريدون لقاء البطريرك قبل

(١٩٠) مطرن = مطران
(١٩١) الأناء = الأنبا

ذهابه لظنهم وجوده بها ، فلاقاهم جماعة العميان ونفر من القسيسين ، وزينوا لهم الهرج ، وقالوا لهم أطلبوا بطريرككم من أصحاب الأمر ، ولا تتركوه يبرح من دياره . فترامح القوم كالحمير المستنفرة وعلا صياحهم ، وجلو(١٩٢) يتساءلون(اين هو بطركنا) . فقام عليهم أصحاب الشحنة المرابطون على الأبواب ، ومزقوا شملهم وفرقوا جموعهم بضرب العصى ، وأمسكوا نفرا منهم ليذهبوا بهم الى بيت الشرطة فلاذوا جميعا بالإختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل .

فلو تسأل الايام ما اسمى مادرت وابن مكانى ما عرفن مكانيا

واختفى(ابراهيم بك الوهابى) مقدم اولئك الوضعاء عن الناس ، فطلبه بعضهم ، فكان كمن قمس(١٩٣) في الماء او عرج به الى عنان السماء . فلما كان يوم الخميس الثامن من شهر سبتمبر من السنة ، أى سنة اثنتين وتسعين ، سار محافظ الاسكندريه الى حيث البطريرك بالمرقسية ، وأبلغه أمر الأمير القاضى بتبعيده مع مطران الاسكندرية فى صباح الغد . ولم ينصرف من عنده جتى جاء نفر من العسكر واستلموا ابواب المكان يمنعون الخارج منه والداخل اليه ، وباتوا ليلتهم على هذا . واصبحوا وقد حضر المحافظ ومعه مندوبان من ماموري الحكومه ، فأركبوا البطريرك فى عربة مع احد المامورين ، وأركبوا المطران فى عربة اخرى من(١٩٤) المامور الثانى وساروا بهما الى محطة الباب الحديد وانلوا(١٩٥) كل واحد منهما فى عربه من عربات القطر بعيدا عن الآخر . فلما وصل القطار الى محطة دمنهور ، انزلوا البطريرك ونقلوه الى قطار (كفر داود) . فلما وصلها سار فى ركب من عربان اولاد على ، ومأمور الحكومه حتى ادخلوه الدير . وأما المطران فقد كان فى انتظاره بمحطة القاهرة نفر من اصحاب

---

(١٩٢)وجلوا = وجعلوا

(١٩٣) قمس = قاموس البحر وسطه ومعظمه ـ والكلمة تستخدم فى الحديث عن المد والجزر ـ ويقصدها بها هنا الإختفاء كما يتلاشى الموج فى حالة الجزر بعد المد ـ مختار الصحاح ص ٢٣٠

(١٩٤) من = مع

(١٩٥) الحديد وأنلو = الجديد وأقلوا

الشحنة وأحد مأموريها ، فلما وصل القطار انزلوه من العربه وأحاط به اصحاب الشحنه ومندوب من نظارة الداخليه ، وساروا به سعيا على الاقدام الى محطة السبتيه ، فاركبوه فى القطار القائم الى بنى سويف ، فوصلها بعد ظهر يوم الجمعه سابع شهر سبتمبر ، وسار فى اليوم التالى الى دير(انبا بولا) . وأصبح يوم السبت وقد جاء الى الدار البطريركيه مندوب وزارة الداخليه ومأمور من ماموري الشحنه ، وفر[١٩٦] من العسكر وبعض اعضاء المجلس الملى . وكان اصحاب الشحنه قد احاطوا بالدار من كل صوب ودرب . فوجدوا الباب مقفلا فقرعوه مرات ففتحوا لهم ، فدخلوا ولبثوا برهة حتى اقبل الأسقف الوكيل ومعه احد اعضاء المجلس الروحى ، ومأمور من الحكومة ، فلبثوا مع الأسقف لحظة اخرى ثم انصرفوا .

وظن الناس أن قد ذهبت الوحشة وزال الهرج ، وأقلع المهيجون عن غيهم ، فلم يصب ظنهم المرمى . إذ قام جماعة العميان يحضون البسطاء والوضعاء من أبناء الطائفه الى ترك كنائسهم وإقامة شعائرهم الدينية فى الكنائس الملكية[١٩٧] فرارا من الحرم الذى أوقعه البطريرك على من يخالف طريقته . فانقادوا لترهاتهم وهجروا كنايسهم التى بالقاهرة والفسطاط ، وجعلوا يصلون

(١٩٦) وفر = ونفر

(١٩٧) الكنائس الملكية = ظلت الكنيسة المسيحية واحدة تضم كل أتباع المسيح منذ القرن الميلادى الأول وحتى القرن الخامس ـ فى المجمع المسكونى الرابع فى(خلقدونية) عام ٤٥١م ظهر الأنشقاق نتيجة الخلاف حول طبيعة المسيح ـ فقال البعض بالطبيعة الواحدة له وهؤلاء سموا(بالأرثوذكس)ـ ومنهم الأقباط الأرثوذكس والسريان الأرثوذكس ، والأرمن الارثوذكس واليونان الأرثوذكس ـ أى الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية بصفة عامة . أما البعض الآخر فقد قال بطبيعتين للمسيح وهؤلاء ، والخلقدونيون وخضعوا لروما وإنطاكية ـ اما الأرثوذكس فقد خضعو لقيادة الإسكندرية ـ وأصبح المسيحيون فريقين أحدهما يتبع بطريرك الإسكندرية الأرثوذكسى ـ وفريق ظل يتبع فكر كنيسة روما أى قرارات مجمع خلقدونيه وهؤلاء سموا (بالملكيين) نسبة إلى تبعية بطريركهم إلى الملك فى روماـ .
لكن القرن الثالث عشر شهد تغيرا بالنسبة للملكيين الأقباط (الكاثوليك) عندما حاول بطاركتهم البيزنطيون تحويلهم إلى الطقوس البيزنطية بمعنى ضم الكاثوليك الأقباط إلى كرسى بيزنطة وإبعادهم عن كرسى روما ـ وهكذا فإن صراعا دار بين كرسى بيزنطة وكرسى روما ـ لكن المحصلة النهائية كانت وجود كنيسة كاثوليكية فى مصر إلى جانب الكنيسة الأرثوذكسيه ـ والأولى هى الكنيسة الملكية .
ـ رفيق حبيب ومحمد عفيفى(تاريخ الكنيسة المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٨٤ ـ ٨٨ .

بالكنائس الملكية ، وتزاحموا على أبوابها تزلفا إلى أصحاب هذه البدعة . حتى الذين كـانوا لم يعـرفـوا إلى كنائسـهم طريقـا . وظهـر(إبراهيم بك الوهابى) من مخبأه واستأجر بعض أصحاب الصحف المحلية فجعلوا ينادون[١٩٨] بالوكيل والحرب من وراء كراسيهم . ودس إلى بعض الأساقفه ، فتركوا كراسيهم ، وأغلق بعضهم كنائس أبروشيته . وأوفدوا نفرا من بعض البلاد ليرفعوا إلى الأمير ظلامة الطائفة ويلتمسوا إرجاع البطريرك من منفاه . وقالوا أن أولئك الوفود من علية الطائفة ووجهاء الملة . وكان بينهم رجل من نزلاء بنى سويف وأصله من قرية (بياض النصارى) بالجبل الشرقى ، طويل اللحية أبيضها عريضها ، لا هو فى العير ولا فى النفير ، قالوا أنه كبير القبطة وعظيمها بمدينة بنى سويف ، والله يعلم والناس كلهم يعلمون أنه فى عجز عن طلب المعاش بالوجوده[١٩٩] الطبيعيه للكسب . وتمثل بعض أولئك البعوث بحضرة الأمير فشكوا له من الفرقة الواقعة بالطائفة ، والمشاغب المترتبة على إقصاء البطريرك إلى ديره ، والتمسوا الصفح عنه . وتكلم ذلك العظيم (البنى سويفى) بحضرة الأمير بكلام كله سخافة ، فأعرض الأمير عنه ضاحكا وصرفهم جميعا . ثم شاع أن الأمير يفكر فى إرجاع البطريرك إلى مقره لوساطة[٢٠٠] قيصر الروس ، وخوف الإنجليز فى تداخله فى الأمر . وتحقق الخبر بما أذاعته شركة (هافاس) التلغرافية عنه[٢٠١] مكاتب جريدة الاستاندرد الانجليز[٢٠٢] فى عاصمة الألمان ، حيث قالت «أرسل المكاتب إلى صاحب الجريدة يقول : الظاهر أن الدولة الروسية عازمة على معاكسة دولتنا الإنجليزية بمكيدة أخرى ومتحنة[٢٠٣] كبرى ، ذلك أن الأمير عباس حلمى قد رسم بتبعيد بطريرك الأقباط الذى هو الرئيس الروحى

---

(١٩٨) ينادون = يندون قراءة ترجيحية
(١٩٩) بالوجوده = بالوجوه قراءة ترجيحية
(٢٠٠) لوساطة = بوساطة
(٢٠١) عنه = عن
(٢٠٢) الإنجليز = الإنجليزى
(٢٠٣) ومتحنه = ومحنة

للأحباش وصاحب كرسى الإسكندرية ، بدعوى المخالفة والخروج عن الطاعة الواجبة للعرش الخديوى ، فلما علم جلالة قيصر الروس بخبر ذلك ، أو هو المسيو (شتسكين)[٢٠٤] صاحب السياسة الروسية أوعز إلى أئمة الدين الروسى بأن يطلبوا من المسيو(شتسكين) مراسلة الأمير فى ذلك ، ويقال أن دولة الفرنسيس مساعدة لصاحب تلك السياسة على ذلك . وقد عقدت الخناصر على اتخاذ هذه المسألة ذريعة للتشويش علينا والمناصبة لنا ، وغل أيدى رجالنا بمصر عن العمل ، فليحذر صاحب سياستنا والسلام» أ .هـ .

وتكلمت فى ذلك أيضاً بعض أصحاب الصحف الأخرى الأجنبية ، وصبغوا المسألة بصبغة جديدة . فاجتمع فى يوم الجمعة ثامن عشرى أكتوبر فى بيت (بطرس باشا غالى) بالفجالة جماعة من المحازبين للبطريرك ، وآخرون من أعضاء المجلس الملى ، وتناجوا فى الأمر طويلا وفيما فعله أنصار البطريرك ، تجسيما للفتنة وتعظيما للفرقة أصوات[٢٠٥] بعضهم باللوم والتقريع ، وبعضهم بفحش القول والمهاترة . وطلب بعضهم إسترجاع البطريرك إلى كرسيه ، مخالفهم[٢٠٦] البعض الآخر ، ثم انصرفوا على غير طائل . وأصبحوا يوم السبت تاسع عشرينه وقد اجتمع جماعة ممن أوفدوهم من البلاد وزعماء الحركة ، يقال بلغ عددهم ثلاثين . ودخلوا على الرئيس (مصطفى فهمى) باشا ، وكان قد عاد من ديار الفرنجه ، وشكوا إليه عن تبعيد البطريرك وسألوه الشفاعة عند الأمير ، فوعدهم خيرا وصرفهم عنه . وارتأى جماعة من وجهاء الملة أن يجتمعوا بالطريرك[٢٠٧] فى منفاه ويسألوه ترك العناد وفض هذا الخصام الذى أفضى إلى تلك الفرقة . فساروا إلى الدير ، ودخلوا عليه فى غروب يوم

(٢٠٤) شتسكين = وزير خارجية روسيا
(٢٠٥) للفرقة أصوات = للفرقة . وعلت أصوات ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى
(٢٠٦) مخالفهم = فخالفهم
(٢٠٧) بالطريرك = بالبطريرك

الثلاثاء عشر ديسمبر ، فسلموا عليه وحادثوه ساعة ثم انفضوا من حوله . وأصبحوا وقد جلسوا معه وكلموه فى الأمر وتلطفوا معه فى المقال ، وهونوا عليه واستعطفوه فلم يعطف ، وقال (انى مبعد بأمر أمير البلاد ، وممنوع من كل تصرف ، فلا تصح مكالمتى قط فى شىء من شئون الملة إلا إذا أمرنى الأمير بذلك) فقالوا (قد جئنا بعد طلب الإذن من صاحب الأمر) . فقال (أرونى الإذن الذى تحصلتم عليه) . فكلموه فى أمر ـ الحرم ـ وفيما يترتب عليه من إنقسام العائلات على بعضها ، ووقوع الفرقة بين الآباء والبنين وشمات الأغراب ، ولجوا بطلب الإعفاء عما فات . قيل فأخذته رجفة الغضب وزاد فى حرم الأسقف الوكيل وقال أنه مقطوع ومفروز من شركة الكنيسة . ثم قام غاضبا ودخل حجرته وأغلق بابها . فاندهش القوم وبهتوا وبعضهم ينظر إلى بعض ، ثم انفضوا وعادوا إليه ثانية غروب اليوم ولاطفوه وقال[٢٠٨] «حيث قد تم ـ الحرم ـ على الأسقف الوكيل كما قلت فسرحه يرجع إلى كرسيه . واختار لنا من ترضاه وكيلا عنك» فقال لا أختار قط نائبا عنى بل وأقول أن كل من يقبل هذا المنصب ويرضاه لنفسه يكون تحت الحرم والقطع من شركة الكنيسة» .فعند ذلك غضب القوم وانفضوا من حوله ، وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد خرجوا يريدون القاهرة . فلما بلغوها حدثوا أعضاء المجلس بما جرى لهم . حدثنى شيخ من أهل التقوى وهو من أصدقاء المرحوم أبى قال «قال يا بنى أصحاب الكلام إن التجربة مرآة العقل ، والغرة ثمرة الجهل ، ولذلك حمدت آراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار وينابيع الأخبار ، فلا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم . قالوا وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا زكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حنكة وتجربة ، حتى لقد اختلفوا فى العقل المكتسب إذا تناهى وزاد فى الإنسان ، هل يكون فضيلة أم لا . فقال معظم العقلاء إنه فضيلة إذا كان مجموع آحاد ، والآحاد فضائل ، ولا شك أن كثرة الفضائل فضيلة . أما الشىء المحدود

---

(٢٠٨) وقال = وقالوا

فتكون الزيادة فيه نقضا من المحدود ، كالتهور فى الشجاعة والتبذير فى الكرم . وأما الزيادة فى العقل المكتسب فزيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما قد كان . ولقد كنا نظن أن شيخوخة البطريرك ، وطول ممارسته للأمور ، وكثرة التجارب ، وتقلب الأيام ، وتصرف الحوادث ، وقد مرت على عيوبه وجوه الغير ، وتصدت لأسماعه الأخبار وآثار العبر . كل هذا لا يمكن الهوى والعجب من نفسه ، لأن الهوى أبعد من أن ينفذ فيه حيلة الحازم المحتال ، وهو أغمض مسلكا فى الجنان وفى الروح فى الجثمان ، وأملك بالنفس من النفس ، ولا أن يطوح بشيخوخته إلى ذلك المعترك .

وإنى أقول لك الحق أنى لا أحب المحاباة وأبغض الأخذ بالوجوه . فقد كنا نسمع لذلك العهد أنه مكره لا بطل ، أنه مسوق إلى هذا السخف والعظمة من حيث يدرى ولا يدرى . فلم نعزله ورمينا أولئك الذين حوله من طغمة الإكليروس ولا سيما منهم مطران الإسكندريه والمتصدين لزعامة هذه المحنة بالعسف والمين والفجور . وقلنا يومئذ أنهم هم النافخون فى خطرام[٢٠٩] الفتنة ، والعاملين على الفرقة بين أبناء الطائفة . فلما سعى إلى ديره أولئك الوجهاء واستعطفوه ، فلم يعطف وسألوه العفو عما فات فلم يعف ، وطلبوا منه تعيين نائبا عنه فزاد فى الحرم واشتد فى الغضب ، وكبرت فيه عزازة النفس والعجب ، ونسى أنه ذلك الرجل الذى قضى عليه منصبه وزيه وشاراته وكل ما هو حوله بأن يكون وقافا عند الكتاب ، عاملا بما فيه ، عارفا بأنه سبحانه جلت قدرته قد استعطف الخلق ونبههم إلى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يعفو هو عنهم ، وحذرهم من الحقد والبغضاء ، وتوعدهم كثرا . واعلم يابنى أن أولى الناس بالرئاسة أحقهم بالرأفة والرحمه ، ولأن يثنى عليك باتساع خير من أن تنسب إلى ضيقه ، وإقالة العثرة موجبة إقالة عثرتك من ربك ، وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك ، وعقابك موصول بعقاب الله تعالى

(٢٠٩) خطرام = ضرام

لك ، والله يحب العافين ، وهب أنه صادقا فى مدعياته ، محقا فيما ذهب إليه ، متفطنا لنا[٢١٠] وقع لهذا العهد من تغيير الأحوال وانقلابها ، فلا يجمل به أن يتوهم كمالا فى نفسه بذلك ، واحتياجا إليه واستصغارا لمن خالفه ، والناس كما تعلم مجمعون على تسفيه رأيه ، ناقمون على محاسبته لهم فى معاملتهم إياه بمقدار مايتوهم فى نفسه ، متغيظون من حقده على من قصر له فى ما يتوهمه من ذلك ، حتى أدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه ، وجلب عليها العناءالعظيم من ايجاب الحق لنفسه وإسناد الباطل إلى الناس . وربما انفضوا من حوله إذا ظل على هذا ، لما فى طباع البشر من التأله ، وقل أن يسلم أحد منهم لأحد فى الكمال والترفع عليه ، إلا أن يكون ذلك نوع من القهر والغلبة والإستطالة ، وليس هو فى شئ من ذلك البته ، لتغير الأحوال وانقلابها كما قدمنا . وأحرى به أن لا يتمسك فى الحاضر بالأمر المعدوم من أعوام ، ويلبس للأيام لبوسها . ولا خفا أن أهل هذه البضائع الدينيه لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ماعندهم الخواص ممن أقبل على دينه وليس على وجه الاضطرار والتصميم ، فقد يقع الإستغناء عنهم فى الأكثر لاعتقادهم التفضيل عن الناس بشرف بضاعتهم ، واستنكافهم عن الخضوع لأهل الجاه وأصحاب الأمر ، كما وقع من الطريرك إليم[٢١١] ، والله سبحانه قد نهاهم عما يفعلون فقال لهم (أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبأى شئ يملح) . قلت لك يابنى أن الأحوال تبعلت والعادات انقلبت انقلابتها . وبضاعة هؤلاء الناس الذين يتاجرون فيها بين الناس تقضى عليهم التواضع والحنان والمسامحة والعفو وترك العناد ، والابتعاد عن الهوى والعجب ، وخليق به أن يثوب إلى رشده ، ويسامح من أخطأ إليه ، ويعفو عمن قصر له فى شئ مما يتوهمه ، فيكون قد عمل صالحا ، لأن الأفعال لابد من عود آثارها على النفس . فأفعال الخير تعود بآثار الخير ، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك ، وأجدر به أن يقرب إليه أهل

(٢١٠) لنا = لما

(٢١١) الطريرك وليم = البطريرك اليوم قراءة ترجيحية

العقل والأدب ، والرأى والأصالة والشرف والحصافة وذوى الكمال ، لأن يضم مجلسه الأفاكين النمامين آكلين لحوم الناس المشتغلين بالمحالات والمكاذب من الحكايات على خلق الله ، يتقربون بهذا إليه فى سبيل التزلف والحاجة إلى رضائه ، والله من وراء ما يقولون) أ . هـ فأعجبنى مقاله وشكرته ، فانصرف وهو يدعو الله بزوال هذه المحنة . وسار أعضاء المجلس الملى فى عملهم سيرا حثيثا لعلهم يدركون الغاية التى انتدبتهم الطائفة لأجلها ، فلم يقدروا على ذلك لوقوف مقدمى الفتنة وطغمة الإكليروس فى سبيلهم ، واسترداد(٢١٢) الحكره بكثرة الوفود من البلاد ، ووقوفهم على باب الرئيس مصطفى فهمى باشا ، وباب قصر الإمارة ، واشتغال الأمير عن الأمر بانقلاب السياسة وتغير الأحوال ، وتراكم الشكاوى على ديوانه من أهالى الإقليم القبلى من فداحة الخراج ، واشتداد أصحاب الجباية ، وضعف الزروعات ونقص الحاصلات ، حتى لقد قال أهل مديريتى جرجا وقنا بأن الفدان من أرضهم لم تزد غلته فى سنتهم تلك عن الأردب . وهذا من الحوادث التى لم يسبق لها مثيل فى ما غيره من الأعوام . واتفق فى غضون ذلك حلول عيد الأضحى فى يومه من السنة ، أى سنة تسع وثلثمائة وألف للهجرة ، فأرسل أهل مديرية جرجا إلى قصر الإمارة على جناح البرق فى ذلك اليوم يقولون .(طلع بدر هذا العيد المبارك الأكبر يذكرنا أوقاتا تشرفت فيها أفواهنا بلثم الأعتاب السنية ، وتهللت وجوهنا لمشاهدة الأنوار الخديوية ، ولسوابق الأقدار حالت دوننا ودون هذه الفرصة فى اليوم المعظم مع إخواننا عمد باقى المديريات ، أسباب تيببت عن إنفاق الغنى ، وضياع الفقير ، وذهاب الحق ، وهلاك المحصولات التى متوسطها من الفدان أردب فقط . وقد عدمت الموجودات ، وجرفت المنازل ، وثقلت الديون ، وساءت الحالة ، وزادت التشديدات والحجوزات ، وأصبح الغنى والفقير يقلب كفيه ، فتلك أسباب تثبت مباديها لسمو خديوينا من عهد المغفور له توفيق

(٢١٢) واسترداد الحكره = واشتداد الحركة ـ قراءة ترجيحية

باشا ، ولعدم التمكن معها من تقديم الرسوم مباشرة ، بادرنا بتقديم إخلاص عبوديتنا لسمو خديوينا العباس الأعظم ، لا زال متوجا ناصية العصور بتاج السعادة على ممر المواسم والأعياد ، متشفعين بإحسانه العظيم وفيضه العميم أن يتداركنا بإنفاذ ما شرع به المرحوم والد حضرته العلية ، من تخفيف الضرائب عنا فى عامنا الحالى قبل تفاقم الخطب ، وضياع التدبير ، وفى مشاهدة النظر ما يغنى عن الخبر) . انتهى نصه .

وكان الخديوى توفيق لعهده قد كلم القابضين على زمام خزينة الحكومة ورجال صندوق الدين بحاجة أهالى مديرتى قنا وجرجا إلى تخفيف الخراج عليهم ، للجهد الذى أصابهم ، والفاقة التى تحيفتهم ، فوافقوه يومئذ على(٢١٣) ، ولكن المنية وافته قبل أن يبلغ الأرب . فلما تولاها الأمير عباس ، وكان ما كان من وقوع الوحشة بينه وبين سياسة الإنجليز ، والمغاضبة مع لورد كرومر على ما مر بك بيانه ، أوعزوا إلى الرئيس (مصطفى فهمى) باشا بترك هذا الأمر إلى حين . وسير القابضون على زمام الخزينة إلى المديرين وأصحاب الجباية بالتشديد فى طلب الخراج ، وما تأخر منه فى الأعوام التى مضت ، فشددوا فى الطلب وهددوا وحبسوا غلات الناس وحاصلات أرضهم ، وباعوا ماشيتهم وما وجدوه من حاجيات أصحاب المزارع ، ففزعوا إلى باب الأمير وديوان الرئيس وجاء جماعة منهم إلى القاهره ، ووقفوا فى طريق الأمير وصاحوا(إرحمنا يا أفندينا يرحمك من فى السماء) فلام الأمير الرئيس فى ذلك ، قيل وأغلظ فى القول . فرفع الرئيس الأمر إلى اللجنة المالية التى قوامها أهل المراتب فى الإمارة من الإنجليز ، وأرجعوا أصحاب تلك الظلامة خائبين . ولقد تغالى أصحاب الحل والعقد بإيعاز لورد كرومر فى تكثير المغارم والمكوس ، إرضاء لأصحاب الديون من الأجانب والنزلاء ،حتى لقد ضربوا على إستخراج الرمال من الصحارى جعلا ، ومنعوا من نقلها إلى القاهرة وغيرها ، إلا برخصة تعطى

(٢١٣) على = على ذلك ــ أضيفت كلمة ذلك ليستقيم المعنى

من هندسة وزارة الأشغال العموميه ومكسا(٢١٤) يدفع عند دخولها المدن ، فى حين أن هذه المغارم القليلة ، فى جانب ما فى خزينة الإمارة ، ستكون حجر عثرة فى سبيل عمران البلد ، لاسيما وأن النفقات على البناء فى القاهره وضواحيها ومصر وما يجاورها كثيرة لبعد مقالع الأحجار ومواضع الرمال وسائر أدوات البناء .

واتفق ذهاب الأمراء والكبراء وأهل المراتب إلى الإسكندرية لتقديم مراسيم التهانى للأمير بحلول العام الجديد لسنة عشرة وثلثمائة وألف للهجرة . وقد استهل المحرم بيوم الإثنين خامس عشرى يوليو(٢١٥) سنة إثنتين وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، وتاسع عشر أبيب سنة ثمان وستمائة وألف للشهداء ، فسافر أيضا جماعة من أصحاب مقالع الأحجار ومواضع الرمال إلى الإسكندريه ، ووقفوا للأمير فى طريق قصر الإمارة برأس التين . فلما تمت المعائدة وانقضى عمل التشريف وانحدر الخديوى من قصر رأس التين يريد قصر الرمل ، ترامى بعض أولئك القوم على عربته وصاح البعض الآخر(الفاتحه لأفندينا إرحمنا يا أفندينا من إنجليز نظارة الأشغال ، وابعد عن عبيدك إيذاء مصطفى فهمى باشا) ، ورفعوا إليه ورقة سطروا فيها ظلامتهم ، فأخذها بيده وتلطف معهم فى الكلام وسارت به العربة ، فتبعها بعضهم فأرجعهم الحراس قهرا . وقد اجتمعت حولهم الغوغاء ، وزعر جهة(السيالة) والصيادين ، ففرقهم أصحاب الشحنة . وأرسل الشعراء إلى قصر الإمارة فى ذلك اليوم قصائد التهانى والتبريك ، ومنها قصيدة عامرة الأبيات لأحمد شوقى أفندى نزيل عاصمة الفرنسيس الآن وهى :

---

(٢١٤) مكسا = المكس هو الجباية ـ مختار الصحاح ص ٢٦٣

(٢١٥) الأول من محرم عام ١٣١٠ هـ يوافق ٢٦ يوليو ١٨٩٢م .

– gere L .Bacharach(A Near East Studies Hand Book – 570 – 1974 –University ofwahisngton press – 1974 .

لهـــواك فى قلبى منازل ... هيـات تهـدمـهـا العـوازل
أنا مـن مـلكـت فــــؤاده ... فـافـعل بـه مـا أنت فـاعل
والله مــــا بى فـــقــــده ... ولكن سـمـاعك كل قـائل
فـبـفـرط كـبـرك لا تجب ... لى فيك غير الدمع سائل
لـم لـفــتـــه لـك لـم ترد ... هـا إدعـيــهـا لى دلائل
ليت يحـــمـــدنى على ... حسن التفاتك الف عازل
لـك رمح قـــد بـالطيف ... مـــســدد لا شك قـاتل
لا تثنه يعـــمـل ودعـــه ... كـمـا أراه فـهـو عـادل
(شـعـراء مـصـر ألا أسـا ... ئلكم وأشـعـركم أسـائل)
هل فـات عـبـاس بنُ تو ... فـيق بن إسـمـاعيل نائل
والجــــد عم يمــــينه ... والمكرمـات لهـا شـواغل
مـــولاى هذا العـــام فى ... أعتاب قـدسك خير نازل
فــــاهناء بـه واسـلم لـنا ... عـيـد طويل العـمـر شـامل
أنت المــؤمل خـــيــره ... والخـيـر فى مـا أنت آمل
الـقـطر مـــــزدان بـنورك ... فى ثيـاب الـفـخـر رافل
والجـــيش هز لـواءه بك ... يا ابن عـشـاق الحجـافل
يبدى جناحيه قوى القلب ... مـــرجـــو المـــخـــائل
والعـصـر خـيـر أمـوره ... مـا أنت يا مـولاى حـامل
عـصـر شـمـوس سـعـوده ... آراؤك البـيـض الاصـائل

وجاء الخبر بعد أيام من المابين إلى ديوان الأمير بأن قد أهدى السلطان إلى الأمير النيشان العثمانى المرصع ، وأنه بعث به من الباب العالى إلى الغازى(مختار باشا) ليقدمه إلى الأمير . فاستغرب الناس خبر إرساله إلى

(مختار باشا) فى حين أن الأقوال كانت مترادفه ، والآراء مجمعة على وجوب سفر الأمير إلى دار السلطنة ، ليقلده صاحب الخلافة ذلك النيشان بيده . وعندى أنه لما علم صاحب سياسة الإنجليز بعزم الخديوى على الشخوص إلى دار السلطنه ، حسب لذلك حسابا ، واهتم له كثيرا ، وعمل على الحيلولة بين الأمير ومتبوعه . فلم تفلح سياسة السلطان ، وأرسل النيشان إلى الغازى (مختار باشا) كارها ، فسلمه الغازى إياه وهو بين وزرائه ، فقبله وقبل فرمانه ورفع إلى المابين شكره على جناح البرق ، وأفاض فى بيان ولائه وخالص عبوديته إلى عرش الخلافة العظمى ، فجاءه الجواب بالرضاء وحسن الإلتفات . وأعقب ذلك أن تم الإتفاق بين مقدم جيوش الإنجليز المحتلة للبلاد ، وبين الأمير على التبديل من حرس قصر الإمارة برأس التين الإنجليز القائمين على حراسته من يوم تخريب حصون وقلاع الإسكندرية إلى ذلك الوقت بحرس من العساكر المصرية . فانسحب أولئك الإنجليز إلى (طابية القضاء) ومعاقل الباب الجديد وعسكروا بها . وأشاع خبر ذلك وتفشى بين الناس فتحدثوا به وعزوه إلى تواطؤ الأمير وسلطانه على مناصبة الإنجليز ، ومناهضة صاحب سياستهم ، واقتلاع دولة احتلالهم من أصولها ، وجعل عاليها سافلها . وتكلمت أصحاب الصحف المحليه بشىء من مثل هذا الكلام ايضا ، وقال أصحاب الصحف الأجنبيه باجتماع كلمة سياسيى الدولتين الروس والفرنسيس على مطالبة الإنجليز بتحديد أجل موعد الجلاء ، حتى لقد قالوا أن الفرنسيس يقولون أن مصر لديهم جمعا تعد الثانية بعد الألزاس واللورين[٢١٦] التى اغتصبها الألمان ، وأن

(٢١٦) الألزاس واللورين = Alsace – lorraine ـ إقليمين تاريخيين فى شرقى فرنسا ـ ظلت الألزاس جزءا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى عام ١٦٤٨ حتى أضيفت إلى فرنسا وفق معاهدة ريسفيك Ryswick عام ١٦٩٧ . كانت اللورين جزءا من مملكة لوثارينجيا Lotharingia التى إنقسمت عام ٩٥٩ إلى دوقيتى اللورين الأعلى Upper Lorraine .واللورين الأسفل Lower Lorraine أصبحت اللورين الأعلى هى اللورين الحديثة ، وصارت مستقلة كدوقية لكن قتالا طويلا حولها ظل مستعرا حتى ١٧٦٦ . بين ١٨٧١ ـ ١٩١٨ ضمت الألزاس (الراين الإسفل Bas – Rhin والراين الأعلى Haut – Rhin) والجزء الشرقى من اللورين (إدارة موزيل mo selle) الآن إلى المانيا بعد الحرب البروسية ـ الفرنسية المعروفة بالحرب السبعينية(١٨٧٠) ـ من ١٩١٩ ـ ١٩٤٠ إمتلكت فرنسا المنطقة ـ ثم عادت من ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ إلى المانيا ، وبعد هزيمة المانيا فى=

الإهتمام بها لهذا العهد ضرب من الحزم وأصالة الرأى . وعندى أنها(جعجعة من غير طحن) فإن الدولة التى قد أضاعت رشدها فى سائر أدوار المسألة المصرية كما بيناه فى محله ، وحطت من قدرها فى قومها حتى صاروا شيعة للإنجليز وحربا لعدوهم ، لا يدركها الفلاح ولا يكون منتهى قدرتها إلا النداء بالويل والحرب بمكانها من الفشل والهزم . ولاخفى أن مكان الإنجليز من مصر لهذا العهد غير مكانهم منذ عشر سنين ، وحالهم غير حالهم ، فقد صاروا أعظم قوة وأشد شوكة وأعز أنصارا وحامية . وهم فى سياستهم شديدى الصبر على المكاره ، لا يمكنون عدوهم من مناهضتهم ولا الإعتداء عليهم ، وأيضا فهم يؤنسون من الرئيس وجماعة الوزراء تجلة وكرامة لم تكن لهم من قبل . وقد امتاز قنصلهم لورد كرومر بمصر بأنه متبوع الرأى مسموع لبكلمة(٢١٧) . فالركون إلى أولئك السياسيين والتمسك بوعودهم فى معنى ذلك ضرب من الحق(٢١٨) والسماجة ، وكل قول فيها مغالطة تحار فيها ألباب الحفاظ . والحق من وراء ما يقولون .

وانصرفت أفكار الناس عن مغامز تلك السياسات وملامز أصحاب الرئاسات أو كادت إلى التحدث بأخبار فيضان النيل وزيادته المتواصلة فى ذلك العام ، أى عام ثمان وستمائة وألف للشهداء . فقد بلغ من الزيادة الغاية التى لم يصل إليها منذ أعوام ، فاهتم لذلك مهندسى الرى اهتماما عظيما ، وسيروا المأمورين إلى الأقاليم القبلية والبحرية لمراقبة الجسور والقناطر ، وأكثروا من الحراس فى الليل والنهار وشددوا على المديرين والمحافظين بالسهر

= الحرب العالمية الثانية أعيدت إلى فرنسا عام ١٩٤٥ .
تشكل سلسلة التلال المحيطة بالمنطقتين حواجز تحمى المواصلات وتعوق الغزو . وتمثل متز Mets ،نانسى Nancy ، فردون Verdun ،ثيونفيل Thionville وتول Toul مراكز طرق ومدن حصون تحمى الثغرات التى بين سلسلة التلال . ومعركة فردن Verdun تعد أحد اكبر معارك التاريخ فى الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)
ـ انظر - Lexicon univeral Encyclopedia – vol . I – p., 311.

(٢١٧) ليكلمه = الكلمة (٢١٨) الحق = الحمق

والإلتفات . فلم يغن ذلك كله شيئا وجاءت الأخبار إلى وزارة الداخليه وديوان الخديوى بحدوث قطع فى جسر السكة الحديدية ما بين (منفلوط) (وبنى قرة) بمديرية أسيوط باتساع خمسين مترا ، وآخر فى جسر النيل بمديرية جرجا فى مقابل(الحوشة الشرقية) (لميت القائد) باتساع عشرين مترا ، وآخر(بدير مواس) ، وآخر(ببنى مزار) وغيرهما بمديريه بنى سويف ، وآخر (بكفر بركات) بمديرية الجيزه ، وآخر (بأبى رجوان) بمديرية الجيزه أيضا . وانحدرت المياه من سائر تلك القطوع بشدة عظيمه ، فأغرقت الزرع الضرع[٢١٩] ، وخربت البيوت وهدمت غيرها من المبانى . فكبر خوف الناس وأهالى المدن والبلدان وسائر القرى ، وفزع بعضهم إلى الجوف الشرقى وبعضهم إلى الجبل الغربى فرارا من طغيان المياه . وأسقط مهندسى الإنجليز فى أيديهم وتعاصى عليهم الأمر جدا . وأرسلوا[٢٢٠] (فورستر) مفتش عموم الرى على جناح البرق يستقدم (جارستين)[٢٢١] وكيل وزارة الأشغال العمومية على عجل ، ويخوفه من عاقبة الإبطاء ، وسير ناظر الأشغال العموميه إلى المديرين والمحافظين بأن يعملوا بالأمر الخديوى الصادر فى سنة سبع وثمانين وثمنمائة وألف مختصا بحفظ

---

(٢١٩) الضرع = والضرع

(٢٢٠) وأرسلو ا = وأرسل

(٢٢١) جارستين = بناء على نصيحة اللورد دوفرين Dufferin بالإهتمام بالمياه عام ١٨٨٣ تم تعيين كولين سكوت مونكريف Colin Scott – Moncrief وكيلا لوزارة الأشغال العمومية ١٨٨٤ وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٨٩٢ عندما خلفه السير ويليام جارستين William Garstin الذى ظل وكيلاً لنظارة الأشغال حتى فبراير ١٩٠٨ عندما خلفه المستر ويب Webb ـ شارك جارستين فى مشروعات تعلية خزان أسوان (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) ، ومشروعات زيادة الإستفادة من مياه النيل ـ إعتمد عليه كرومر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى الحصول على المعلومات اللازمة عن سلوك المصريين واتجاهاتهم بفضل شبكة مهندسى الرى الإنجليز الذين كانوا يتبعونه . لكن الشك فى صحة معلومات مهندسى الرى الإنجليزى عن سلوك المصريين دعت كرومر إلى الإعتماد على سكرتيره الشرقى الشهير(هارى بويل Harry Boyle) .

ـ إنظر (مذكرات سعد زغلول) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤٦ حاشية ٢١٠ ، ٥٠٨ وحاشية ٩٠٩ فى نفس الصفحة .

ـ روبرت تيجنور Robert Tignor

Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882 - 1914 - Ibid - PP., 110. 197, 223 - 224, 272.

الجسور والأعمال الواقية من الغرق ، وهو إذا بلغ إرتفاع النيل أربعة وعشرين ذراعا بمقياس مصر ، أو تراءى للمديرين والمحافظين إمكان حدوث خطر ، على الجسور ولو لم يبلغ مقياس النيل أربعة وعشرين ذراعا ، فيجوز لهم أن يطلبوا مساعدة كل إنسان قادر على العمل بنفسه للمحافظة على الجشور[٢٢٢] ومنع طغيان المياه فى الجهة التى يخشى فيها من حدوث ضرر ، بحيث يكون الطلب من الجهات الأقرب للمحل الذى يخشى منه . وأن من يمتنع عن المساعدة أو يمنع غيره عنها يعاقب بالحبس من عشرين يوما إلى ثلاثة شهور ، وبغرامة من مائة قرش إلى ألف قرش ، وأن الحكم فى ذلك يكون من هيئة مشكلة برئاسة المدير أ .هـ وشدد الأمير على أصحاب الرى من الإنجليز بالسهر والالتفات ، وسير بذلك أيضا إلى جميع المديرين والمحافظين . وأكثرت وزارة الداخليه من إرسال كبار وصغار المأمورين إلى الجهات القبلية والبحرية لمعاونة أصحاب الدركات[٢٢٣] . وكثر مرور المديرين بالجسور والقناطر الداخلة فى حدود مديرياتهم . وقام الأمير من الإسكندرية فى صبح السبت ثالث ربيع الأولى من السنة أى سنة عشر[٢٢٤] إلى رشيد ، ومعه رجال ديوانه ليرى بنفسه ما فعله أصحاب الرى لوقاية البلاد . وسار من هناك بحرا إلى القناطر الخيرية ، وانحدر منها إلى دمياط ، وبات بها ليلة ثم قفل راجعا إلى مزرعته (بإدفينا) ، ثم قام منها إلى (رشيد) ثانية . والأخبار تأتى إليه فى كل يوم بطغيان المياه وتخريب

(٢٢٢) الجشور = الجسور

(٢٢٣) أصحاب الدركات = مفردها (درك) ــ ويقصد به منطقة محددة للحراسة أو المراقبة ــ كدركات الخفراء ــ ودركات مراقبة جسور النيل أثناء الفيضان ــ والمصطلح أكثر إستخداماً فى مجال الأمن لتحديد مسئولية (صاحب الدرك) ــ هو هنا خفير أو رجل شرطة ــ عن دركه .
ــ انظر عبدالله محمد عزباوى (عمد ومشايخ القرى ودورهم فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ــ دار الكتاب الجامعى ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة ــ ١٩٨٤ ــ ص ٦٧ ــ ٦٨ .
ــ قانون البوليس المصرى سنة ١٨٩٣ ــ الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣١١ هجرية ــ سنة ١٨٩٤ ــ الباب الخامس عشر (الخفر) ــ الفصل الثانى (واجبات الخفر) .

(٢٢٤) أى عام ١٣١٠هـ .

الجسور وتهديم المنازل ، وإهلاك الحرث والنسل ، رغما عن سهر الحراس ، وتطواف المديرين والمأمورين ، وأصحاب الدركات ، وصعود وهبوط البواخر بالنيل بأصحاب الرى والمهندسين . فكان الخوف عظيما على القاهرة ومصر القديمة وضواحيها لا سيما من الجهة المعروفه بدير[٢٢٥] الطين . وكان أصحاب الرى يقولون أن الأضرار التى اصبت[٢٢٦] زروعات الأقاليم القبليه والتى يحتمل أن تصيبها إلى آخر فيضان هذا العام قليلة ، فى جانب الأضرار الكثيرة التى قد تصيب أطيان وزروعات الأقاليم البحرية ، فيما لو حدث قطع واحد فى أحد جسور النيل ، لأنه إذا أمكن أن يتلف فى الأقاليم القبلية مزروعات ثمانية أو عشرة آلاف[٢٢٧] بحدوث ثمانية أو عشرة قطوع ، فقد تعم أضرار القطع الواحد فقط بالأقاليم البحرية خمسين أو ستين ألف فدانا دفعة . قلت . إذن شتان بين ما حدث فى الأقاليم القبلية من الأضرار المشير للخزينه إحتمالها وتعويضها على أصحاب الزروعات ، وبين ما يحصل فى الأقاليم البحرية من الأضرار الغير محتملة ، ولذلك كان الخوف عظيما ومسئولية أصحاب الرى عظيمة ، واهتمام أصحاب الكلمة بالأمر كبيرا ، والتشديد بالمزاولة والسهر واتخاذ الوسائل الواقية مترادفة ، حتى اختلط على جماعة الإنجليز الحابل بالنابل وظهر للناس عجزهم وقلة خبرتهم بطرق الرى وحفظ البلاد من الغرق[٢٢٨] . ومن غريب ما وقع أن مركبا يقل

---

(٢٢٥) دير الطين = قرية قديمة فى منطقة بركة الحبش قرب مصر القديمة على شاطىء النيل بمحافظة الجيزة .
ـ انظر محمد رمزى.(القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥) ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣ ـ المجلد الثانى ـ الجزء الثالث ـ ص ١٤ .

(٢٢٦) اصبت = أصابت

(٢٢٧) آلاف = آلاف فدان أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٢٨) يتهم شاروبيم خبراء الرى الإنجليز بالفشل فى مسائل الرى ، والعجز وقلة الخبرة بطرق الرى وحفظ البلاد من الغرق .
والواقع أن هذا الإتهام فيه نظر . فقد اتجه إهتمام بريطانيا منذ بداية الإحتلال إلى قضية الرى باعتبارها السبيل الوحيد لتحقيق السيولة Solvency للوفاء بالديون . وبناء على نصيحة اللورد دوفرين Dufferin بجلب خبراء رى من الهند فقد تم استدعاء Colin Scott - Moncrif الذى=

جماعة من المسافرين ايتا(٢٢٩) من ناحية (الروضة) بالأقاليم القبلية فى نحو العشاء الاولى(٢٣٠) ببلدة (قلنداويل)(٢٣١) ، فدفع به التيار قليلا إلى جسر البحر ،

= كان قد عمل فى الهند لسنوات طويلة ، حيث تولى منصب وكيل وزارة الأشغال ومستشارها — وبدوره إستدعى أربعة مهندسين من ذوى الخبرة الهندية ، ثم توالى وصول المهندسين (ويلكوكس Willcocks — روس Col. Justin Ross . براون Sir Hanbury Browm — فوستر E. W Foster — برى Arnold Perry — لانجلى Langley — وسترن Col J. H Western — ريد A Reid — جارستين William Garstin — رو Roux — هيوات Hewat — كليفتون Clifton — ستنت Stent — ويلسون Wilson —وريشموند Ernest Richmond) .

شرع المهندسين الإنجليز فى محاولة إصلاح القناطر الواقعة على فرعى النيل (دمياط ورشيد) التى كان (محمد على) قد أقامها فى الثلاثينيات — والتى كانت بها عيوب فنية تحول دون الاستفادة منها الاستفادة المرجوة . فى نفس الوقت فإن عمليات طويلة الأمد لتعميق القنوات والترع وإزالة الطين منها جرت على قدم وساق على امتداد شبكة الرى فى مصر — وانتهى هذا كله بتوفير المياه اللازمة لتحويل الرى من رى حياض Basin إلى رى دائم Perennial

أدخل مهندسو الرى الإنجليز نظام الرى بالمناوبة (سبعة أيام رى يعقبها سبعة أيام إنقطاع) — ثم شرعوا فى إجراء أبحاث لإقامة خزانات للمياه Reservoirs ، وأخيراً انتهوا إلى إقامة سد أسوان الذى استغرقت أبحاث إقامته الفترة (١٨٩٠ — ١٨٩٤) فى ١٩٠٢ .

بإتمام إصلاح القناطر الخيرية عام ١٨٩٢ ، وتعميق شبكة الرى — فإن الاحتلال البريطانى نجح فى إنجاز عملية تحويل مصر إلى مزرعة للقطن ، المحصول النقدى Cash Crop الذى كان يكفل تحقيق الهدف البريطانى من سداد ديون مصر . للحيلولة دون تدخل القوى الأوروبية المنافسة لبريطانيا .

من هنا فإن السياسة البريطانية فى مصر كانت تحرص على ألا تحرم وزارة الأشغال من أى تمويل لمشروعات الرى حتى لو كان مصدر التمويل هو الإستدانة — فمنحت مصر مليون جنيه عام ١٨٨٤ من أجل مشروعات الرى خصماً من تسعة ملايين جنيه خصصت كقرض من جانب المؤتمر الدولى المعقود ١٨٨٤ — ١٨٨٥ للنظر فى المالية المصرية . نتيجة لهذه الجهود فقد تضاعف محصول القطن خلاله لفترة ١٨٨٣ — ١٩٠٣ .

فى ١٨٩٠ خصص مبلغ ٩٠٠,٠٠٠ جنيه للرى — وبعد عام ١٨٩٤ خصص قسم كبير من الفائض السنوى لأعمال جديدة .

أنظر ويليام ويلكوكس "Sixty years in the East" Sir William Willcocks William Blackwood & Sons Ltd. Edinburgh and London - 1935 - PP . 89 - 90, 98, 100 - 103, 107, 111 - 112, 117, 120, 123, 127 - 128, 138, 144, 151, 155 - 156, 165 - 167, 171 - 172

— روبرت تيجنور (The "Indianization" of Egyptian Administration under British Rule) Robert L Tignor) Middle East Journal, XVI (Spring 1962).

— روجر أوين Roger Owen .

"The influence of lord Cromer's Indian Experience on British Policy in Egypt 1883 - 1907" - St. Antony's papers - Number 17 - Middle Eastern Affairs - Number Four - 1965

(٢٢٩) أيتا = كان أتيا أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٣٠) العشاء الأولى = لعل المؤلف يقصد وقت الغروب .

(٢٣١) قلنداويل = قلنديول .

فظن الموكلون بحراسة الجسر أنهم آتون لقطعه ، فرموهم فى الحال برصاص البنادق فقتلوا أربعة منهم ، وجاء الصايح إلى سائر المراصد ففزعوا جميعا إلى حيث ذلك المركب وضبطوه وأخرجوا من قتلوا ، وتحققوا أنهم براء مما اتهموا به وراح دمهم هدرا . ومع كل هذا السهر والإهتمام فقد انقطع السد فى فم ترعه رشيد وطغت المياه على سائر المزارع فأهلكتها ، وانكسرت أيضا أبواب ترعة السوسية(٢٣٢) فانحدرت المياه على زروعات (بهادة) (وسنديس) (وضافر) (والخرقانية) (وكفر سليم) وأبو الغيط(٢٣٣) وأهلكتها جميعها وخربت دورها . فخرج الناس على وجوههم بما خف من متاعهم ، وأقاموا بالعيال على الجسور وادروب(٢٣٤) . فاهتم أولى الأمر بشأنهم وأرسلوا إليهم الخيام لمأواهم وبعض الأزواد لمئونتهم وأرسل إليهم أهل البر أيضا شيئا من الأذرة والحلبة والقمح والايدام(٢٣٥) ، وأرسل آخرون بعض الأكسية . وجاء الخبر إلى ديوان الخديوى وإلى وزارة الداخليه بطغيان (خور بركة) فى مدينة ضواكر(٢٣٦) طغيانا عظيما جدا ، فكسر السد الذى عنت الحكومة ببنائه فى العام الفائت وهدم كثيرا من البيوت وأهلك الدواب . وقد زاد الطين بلة أن أمطرت غزيرا لم يسبق له قط مثيل ، فأهلك زرعها وأمات بعض ضرعها ، وخرب كثيرا من بيوتها ، فخرج الناس على وجوهم فرارا من سقوط ما بقى منها ، وجرى الماء فى شوارعها ودروبها جريان الأنهار . والعجب أن هذه الكواين كلها لم تكن لتخفف شدة رجال الخزينه من الإنجليز ، ولا من غلظة قلوب أصحاب الجباية . فقد انبثوا

---

(٢٣٢) الباسوسية . وهى ترعة تروى محافظة القليوبية وجزءا من محافظة الشرقية . كان رأسها يقع عند قرية باسوس . وطولها ١٥٠٠٠ متر . راجع هيلين آن ريڤلين (الاقتصاد والإدارة فى مصر – ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى – دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٧ – ص ٣٣٢ .

(٢٣٣) بهادة ، سنديس ، ضافر ، الخرقانية ، كفر سليم ، وأبو الغيط – قرى تابعة لمحافظة القليوبية – راجع تقويم سنة ١٩٣٣ – مرجع سبق ذكره – ص ٤٠٩ .

(٢٣٤) وادروب = والدروب .

(٢٣٥) الإيدام = الإدام – ما يؤتدم به كقولك أدم الخبز باللحم .
– إنظر (مختار الصحاح) ص ٤ .

(٢٣٦) ضواكر = طوكر قراءة ترجيحية .

فى مشرق البلاد ومغربها يجمعون الخراج فى آجال جمعه ، ويشددون على الخلق فى دفع ما عليهم من المتأخرات فضلا عن خراج السنة الجديدة ، فوقع عند ذلك الهرج بين أهالى الأقاليم القبليه وقاموا فى وجوه أولئك الجباة ، وأرسل أهالى مركز برديس[٢٣٧] بمديرية جرجا عرائض الشكوى إلى باب الأمير وديوان الخزينة ، وقالوا أن حاصلات العام قليلة جدا ، وبيعت فى أوائل السنة بأبخس الأثمان ثم جاءهم النيل بما لم يكن بالحسبان ، فأهلك حرثهم وضرهم ، فضلا عما قاسوه من التعب فى حفظ الجسور ، وسد القطوع . وقد نضب ما كان بأيديهم من المال وأصبحوا فى حاجة زائدة إلى زراعة النبارى[٢٣٨] وبلغة العيال[٢٣٩] ، حتى لقد باعهم التجار الأردب القمح بمائة وخمسين قرشا والأردب الفول بمائة وثلاثين . قالوا وقد زاد اليوم على ذلك مبادرة جباة الخراج إلى تحصيله . فإن لم تؤجل المطالبة وتخفف الضرائب منذ اليوم ، أو يؤجل طلب الباقى وتقسيطه على السنوات القابلة ، وإلا نزحوا عن الأوطان إلى أرض الله الواسعة . وظل الحال على هذا والناس فى شدة عظيمة حتى أخذ النيل فى الهبوط ، فانحدر عن الأراضى ، وزال عنهم بعض الخوف ، وسرح المأمور بعض الخفراء وأصحاب المراصد القائمون بالحراسة فى الليل والنهار ، وكانت عدتهم مائة ألف وثلاثة آلاف وستمائة من الأشداء .

---

(٢٣٧) برديس = مدينة قديمة تابعة للبلينا على الضفة الغربية للنيل فى إقليم جرجا (سوهاج حالياً) .
ـ إنظر محمد رمزى (القاموس الجغرافى) المجلد الثانى ـ الجزء الرابع ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢٣٨) النبادى = محصول نيلى يزرع فى الأراضى المرتفعه التى تحتاج إلى رى صناعى ، تمييزا له عن الدميرى وهو محصول نيلى يزرع فى الأراضى المنخفضه .
ـ هيلين آن ريفلين (الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر) ـ ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ ـ ص٢٢٣ ، ٤٣٤

(٢٣٩) وبُلغةُ العيال = البُلغةُ ما يتبلغ به من العيش ـ أى ما يسد رمق العيال .
ـ إنظر (مختار الصحاح) ص ٢٦ .

ولم تكد لتطمين(٢٤٠) الناس بعد الخوف من طغيان النيل ، حتى تفشت القالة بزحف عثمان دقنه(٢٤١) نصير المهدوية بخيله رجله من مكمنة إلى سواكن(٢٤٢) ليقاتل من بها من المرابطين وأصحاب المراصد . وظهرت الحركة

---

(٢٤٠) لتطمين = لتطمأن .

(٢٤١) عثمان دقنه = أحد كبار قادة الثورة المهدية ــ إنضم إليها منذ بداياتها ، وتألق اسمه أثناء عمليات إخلاء السودان من القوات المصرية ــ ترجع أصوله إلى أكراد (ديار بكر) الذين حضروا إلى سواكن مع السلطان سليم (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) بعد الفتح العثمانى لمصر واختلطوا بقبائل الهوتنتوت Hotentot ومنها قبيلة الدقناوى ــ ولد فى سواكن ونشأ بها واشتغل بالتجارة مع السودان والحجاز ، وبالرقيق ــ إنضم للدعوة المهدية منذ قيامها وظل على مبادئها وحارب فى صفوفها حتى سقوطها عام ١٨٩٨ ــ عينه المهدى أميرا على السودان الشرقى وظل يحارب هناك حتى أُسرَ فى ١٨ يناير ١٩٠٠ وأرسل إلى رشيد . وفى عام ١٩٠٨ أرسل إلى وادى حلفا .

انظر القائمقام سعد الدين الزبير (الزبير باشا رجل السودان) ــ الطبعة الأولى ــ شركة ستاندارد للطباعة ــ القاهرة ١٩٥٢ ــ ص ١٨٩ ــ حاشية ١ .

ــ وزارة الحربية والبحرية (أورطة البنادق الرابعة المشاة) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٤٢ .

(٢٤٢) سواكن = ميناء سودانى على البحر الأحمر تقع على خط عرض ٩ - ١٩ شمالاً وعلى خط طول ٣ -٣٧ شرقا ــ كان هذا الميناء ومصوع يخضعان للسيادة العثمانية ويطلق عليهما إسم ولاية الحبش منذ القرن السادس عشر : إعتبرا من ملحقات ولاية الحجاز ثم ولاية اليمن حتى أدخلهما محمد على فى حدود السودان الشرقى عام ١٨٤٦ بعد أن استأجرهما من الدولة العثمانية ــ سقط حق مصر فى الميناثين عندما تخلف عباس الأول (١٨٤٨ ــ ١٨٥٤) عن دفع الايجار فأعيدا إلى الدولة عام ١٨٤٩ . فى عام ١٨٦٥ أحيل الميناءان إلى مصر مقابل ٧٥٠٠ كيس (٣٧٥٠٠) جنيه تدفع سنوياً إلى خزينة جدة ــ أصبح الميناءان حكمدارية واحدة منذ ذلك الوقت بعد أن أضيف إليهما مديرية (التاكا) ــ لكن الميناءان فصلاً بعد أيام وأصبح كل منهما محافظة مستقلة عن الأخرى . تبعت سواكن بلاد (سنكات) (طوكر) (عقيق) (هيدوب) (ترنكيتات) . فى ١٨٧٠ تأسست محافظة سواحل البحر الأحمر من سواكن ومصوع والتاكه وبقية البلدان الأفريقية المطلة على البحر الأحمر حتى بربرة ــ ولقب محافظها بلقب (مدير عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر ــ وقد فصلت سواكن عن مصوع فى نفس العام ، ثم أعيدتا مرة أخرى إلى بعضهما البعض فى عام ١٨٧٢ ــ فى عام١٨٧٧ ألحقت سواحل البحر الأحمر بحكمدارية السودان . فى عام ١٨٨٤ أخلت الحكومة المصرية السودان بناءاً على نصيحة دولة الإحتلال ــ وحاصرت قوات المهدى السودان الشرقى (سواكن وطوكر وسنكات) . مع سقوط طوكر فى نوفمبر ١٨٨٣ وسنكات فى فبراير ١٨٨٤ إحتلت إنجلترا (سواكن) وعينت محافظا إنجليزيا لها ــ وقد ظلت سواكن تابعة لمصر ولم تخل حتى عمليات استعادة السودان عام ١٨٩٦ .

ــ إنظر عبد العليم إبراهيم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) رسالة ماجستير غير منشورة ــ جامعة عين شمس ١٩٨١ ــ ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٨٨٢ ــ ١٨٩٢) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٢ ، ١٢٠ ــ ١٢٢ .

ــ وزارة الحربية والبحرية (أورطة البنادق الرابعة المشاة) مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٨ .

فى منازل الجند بالعباسية وقلعة المقطم ، وجاء الطلب من كتشنر باشا[٢٤٣] سردار العساكر المصرية وهو بسواكن بحشد الجنود وإرسال العدد والأزواد . فاهتم لذلك جماعة الإنجليز وأخذوا فى الأهبة . وكان لما رأى(دقنه) من إخلاد العساكر المصرية إلى السكون والراحة وعدم التعرض له بشىء وأن لمومه تكاد لذلك تنفض من حوله لقلة الأزواد ، وتعذر الحصول على شىء منها ، تقدم بلمومه إلى ضواحى (سواكن) وجعل يناوش أصحاب المراصد ، ويقلقهم فى الليل والنهار . فخاف جماعة الإنجليز شره وأرسلوا فى سلخ جمادى الأولى من السنة أى سنة عشر ، كتيبة من الفرسان وأصحاب الهجن[٢٤٤] لإستكشاف مواقعه . وسار أيضا القائم مقام (ترفن) فى نفر من المشاة إلى (هبولا) التى تبعد زهاء ثلاثين فرسخا عن سواكن وابتنى بها حصنا خفيفا من الحجارة والرمل . فلما أحس (دقنه) بخروجهم من سواكن ، إنسل بلمومه إلى بلدة (باركويت) على بعد ثلاثين ميلا منهم . وجاء خبر ذلك إلى

(٢٤٣) كتشنر باشا سردار العساكر المصرية = هوراشيو هربرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener (لورد كتشنر Ist Earl Kitchener) (٤ يونيو ١٨٥٠ ـ ٥ يونيو ١٩١٦) ـ جنرال بريطانيا الأول فى بداية القرن العشرين . أصبح ضابطاً بسلاح المهندسين الملكيين عام ١٨٧١ ، ثم إلتحق بالجيش المصرى عام ١٨٨٣ ـ وفى خلال تسع سنوات أصبح قائده العام (سردار الجيش المصرى) (١٨٩٢) فى ظل هذه الوظيفة أسس كتشنر سمعته عندما أعاد فتح السودان وهزيمة المهديين ، وانتصاره فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨ . فى نفس ذلك العام جنبت سياسته الحازمة أمام الفرنسيين فى (فاشودة) إمكانية قيام حرب مع فرنسا . بعد الخدمة كحاكم للسودان ، أصبح فى ١٨٩٩ رئيساً لأركان حرب فريدريك سلى روبرتس Fredrick Sleigh Roberts فى الحرب الجنوب أفريقية South African War ثم خلفه كقائد عام فى ١٩٠٠ . تعرض كتشنر للنقد لاعتقاله المدنيين الأوروبيين المستعمرين (Afrikaner) فى معسكرات الإعتقال . تشاحن عندما كان قائداً عاماً فى الهند (١٩٠٢ ـ ١٩٠٩) مع نائب الملك (لورد كيرزون Lord Kurzon) حول السياسة العسكرية ، لكن الحكومة البريطانية ساندته وعينته (فيلد مارشال) . من ١٩١١ ـ ١٩١٤ كان كتشنر الحاكم الفعلى لمصر عندما عين قنصلاً عاماً لبريطانيا هناك .

مع بداية الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أصبح كتشنر وزيراً للحربية ، وكان أول ضابط عامل يحصل على هذا المنصب . رفع عدد الجيش من ٢٠ إلى ٧٠ فرقة ، لكنه تعرض للوم لنقص الذخيرة على الجبهة الغربية .

غرق عندما أصاب طوربيد سفينته بينما كان فى مهمة إلى روسيا فى عام ١٩١٦ .

ـ انظر Lexicon Universal Encyclopedia Vol 12- p.. 91.

(٢٤٤) أصحاب الهجن = راكبى الجمال .

سواكن ، فأخرج السردار ثلاث فرق ورسم بانضمامها إلى عسكر القائمقام (ترفن) ومهاجمة (ذقنه) فى مكمنه . فأحس (دقنه) بذلك ، فسير جماعة من عسكره إلى ضاحية (سواكن) ، فسلبوا ما وجدوه من الماشية ، وقتلوا نفرا من الرعاة ، وهموا بمهاجمة أصحاب المراصد ، فرموهم بقنابل المدافع ، فرجعوا على أعقابهم . وجاء آخرون أيضا إلى جهات (عقيق) فنهبوا ماشيتها وجرحوا أصحابها . وسير دقنه دعاته إلى بعض مشايخ العشائر الضاربة (بوادى عقيق) يدعوهم إلى شق عصا طاعة الدولة ، والجهاد فى الإنجليز ، فلم يوافقوهم . فسار دقنه بمن معه من الجنود والمتطوعة إلى بلدة (اميت) وعسكر بها ، وكان الظن به أنه ينزل على (سكنات)(٢٤٥) أو ما يجاورها ، فأرسل السرداد(٢٤٦) طائفة من الفرسان وراكبى الهجن للإستكشاف ، فلم يعثروا على أحد . وتتابع وصول المدد من القاهرة إلى سواكن على ظهور السفن وشوانى النقل ، مزال(٢٤٧) بعض الخوف عن أهل البلد وضاحيتها ، وإطمأنت قلوب العشائر المصافية للدولة وجاءت البشائر بذلك إلى ديوان الخديوى ، فطير خبر ذلك إلى الآفاق . فما هى عشية أوضحاها حتى أرسل السردار يقول أن قد وصل الدراويش إلى (خور بركة) وهاجموا قريب الزوال حصن (تماديب) فى عدة كبيرة من المشاة والركبان ، وقطعوا خط الإتصال بين الحصن (وتوكر) فقاتلتهم الجنود من وراء المتاريس ورمتهم بقنابل المدافع فلم يتراجعوا ، وجعلوا يوالون الهجوم الكرة بعد الكرة مستقتلين ، والجنود تدافع حتى تغلبت عليهم ، فتراجعوا وتركوا قتلاهم فى ساحة الحرب فكانوا سبعة عشر قتيلا .

ووصل الخبربما وقع إلى عثمان دقنه بناحية (أميت) التى تبعد عن سواكن زهاء ثلاثين ميلا ، قيل فحزن جدا ونادى فى أصحابه بالأهبة والاستعداد للزحف على (طوكر) ثانية ، وأقسم أنه يفتحها ولا يترك فيها حجرا

---

(٢٤٥) سكنات = سنكات ، قرية جنوب سواكن بين سواكن والطيب ــ انظر الخريطة ملحق (٧) .
(٢٤٦) السرداد - السردار .
(٢٤٧) مزال = فزال .

على حجر . وعلم السردار بذلك فسير إلى القاهرة فى طلب زيادة ألفين مقاتل على عدد العساكر المصرية ، فأجابه مجلس الوزراء إلى ذلك . قالوا حتى يقوى الجيش على الزحف على العدو والقعود له بالمراصد . وجعلت وزارة الحرب تحشد ذلك العدد ، والأخبار ترد فى كل يوم باقتراب (دقنه) بجيوشه ، ووصول النجدة تلو النجدة إليه (بخور بركة) وخلف (وادى حلفا) حتى خيل للناس أن الحرب على الأبواب ، فلم يعجب الأمير حالهم ولا أحل أخبارهم محلا من التصديق . قيل وكلم لورد كرومر فى ذلك وأظهر له الإعراض عن هذه الترهات والأراجيف التى ما أنزل الله بها من سلطان . قيل فتأفف اللورد من ذلك وعبره سبة وإهانة ، وهو يرى أن لا كلمة فوق كلمته ولا أمر غالب على أمره . فما هى إلا أيام حتى جاءت صحف الإنجليز طافحة بالإفك والبهتان على الأمير ، ومنها جريدة التيمس قد فزعت إلى صاحب سياسة الإنجليز تناديه بالويل والحرب من الأمير ، وتستفزه إلى الضرب على يده عله يرجع إلى رشده فلا يخالف بعد ذلك للورد كرومر إمرا ، ولا يرد إشارة . وكثر غدو ورواح اللورد كرومر إلى ديوان الرئيس ومقر(بالمر) المستشار المالى أياما ، وأهل المراتب فى دهشة مما يرون ويسمعون .

حدثنى صديق من كبار ديوان الأمير قال (أو تدرى بما رمانا وأميرنا به لورد كرومر فى شخص صاحب التيمس من التهم الشائنة فى عرف أهل السياسات؟) قلت أعلم بعضها وغاب عنى البعض الآخر فقال (رحل اللورد إلى مصيفه وصدره يلتهب غيظا وحقدا لمغاضبة جرت بينه وبسن(٢٤٨) الأمير ، ذلك بأنه لما كان عند جلوسه على عرش الإمارة يأنس منه اللين والتسامح ، والإبتعاد عن التحرش للكباير المفضية إلى أذهاب النفوذ الإنجليزيه(٢٤٩) الذى صار غالا(٢٥٠) فى أعناق أهل المراتب وأصحاب الخط من المصريين ، طمع فى

---

(٢٤٨) بسن = بين .
(٢٤٩) الإنجليزية = الإنجليزى .
(٢٥٠) غالاً = غلا .

استكانته واستيقن من ضعفه ، فجعل يتصرف فى أحكام الإمارة طوع أغراضه فى رجالها وسائر نقضها وإبرامها كما كان يفعل الخديوى توفيق . فأنس من الأمير إستنكافا وميلا إلى مشاركة فى الأمر ، إذا لم تقل إستبدادا بالأمر كله ، فلم يكن منتهى قدرة اللورد على الأمير بمكان ، من ميل الدول واشتمال السلطان عليه إلا التحايل فى إرهابه . وتهديده بقلب تخت الإمارة إن ألجىء إليه ، فلم ينل مأربه وظل الأمير على شأنه ، فسافر اللورد إلى مصيفه وهو يضمر للأمير السوء ، وسعى سعيه لدى صاحب السياسه الإنجليزيه ، فلم يسمع إلا كلا ولا ، فعاد إلى القاهرة ونار الغيظ تتأجج فى احشائه ، فحدثه أصحاب ديوان ورجال الرى من الإنجليز بما أبداه الأمير من الهمة فى التطواف على مراصد النيل ، وما بذله من العناية بامر الجسور ، وسهره على مراقبة أعمال أصحاب الرى ، ووقوفه على أمور قد أخفاها عنه بعض أهل الحل والعقد وجهها[٢٥١] أو تجاهلها بعضهم ، فحركوا حفائظه ، وأثاروا ما كمن فى نفسه من الحقد على الأمير ، والحسد على شأنه ، والرجل كما تعلم والناس طرأء[٢٥٢] يعلمون انه فخور مختال ، لا يطيق الصبر على ذلك ، ولا يريد إلا أن يتعبدنا القهر وتكتنفنا الذلة ، وتكون له الغلبة على كل حال . فعند ذلك فزع إلى صاحب سياستهم فى سد هذه الفرجة من ناحية الأمير ، وحسم الداء المتوقيع[٢٥٣] بنفوذهم من قبله ، وأوعز إلى(صاحب التيمس) ففزع إلى الباب وانحتى[٢٥٤] على الأمير ورجال ديوانه شتما وتقريعا ، حتى لقد قال بأنهم يقفون مسالك سلطانهم ورجال مابينه[٢٥٥] ، وأن الأحوال بعد موت الخديوى توفيق تبدلت وكأن الأمير عاد بعد غيبة اللورد كرومر فى مصيفه خلق جديد ومنشأة

(٢٥١) وجهها = وجهلها .
(٢٥٢) طرأء = طرا .
(٢٥٣) المتوقيع = المتوقع .
(٢٥٤) وانحتى = وأنحى .
(٢٥٥) ما بينه = يقصد (المابين) السلطانى ــ راجع حاشية ١١ ص ٣٧ .

مســتأنفة . قال فإذا ظل الحال على هذا ونحن على ما نحن عليه اليوم من الغفلة وعدم التفطن ، انقلبت الأمور إنقلابة أخرى ، وطمع الأمير فى إنتزاع حقنا والتغلب علـينا ، وعظم بغض أهل البــلاد لنا وحقــدهم علـينا ، وتنشأ بنوهم وأعقابهم فى مثل ذلك ، حتى يصير ذلك خلقا لهــم وسـجية . وقال غير ذلك من الهراء وفحــش القــول شـيئا كثيرا لاأذكره ، فقل لى بحقك أنى لنا ذلك وقد كشرت[٢٥٦] المذلة والإنقياد لأولئك القوم سورة[٢٥٧] وطنيتنا حتى فقدناها جملة . ولا خفاك أن من كان هذا حاله عجز عن المدافعة ، ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة ، اللهم إلا إذا فنى هذا الجيل ومنشأ[٢٥٨] جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ، ولا يسام بالمذلة ، وهيهات هيهات ، فقلت سبحان الحكيم العليم ، أ .هـ ويعجبنى ما نقلته بعض الصحف الألمانية عَن إمبراطورهم وليم[٢٥٩] . أن بعض خواصه قرأ

(٢٥٦) كشرت = كسرت .

(٢٥٧) سورة = ضورة .

(٢٥٨) ومنشأ = ونشأ .

(٢٥٩) وليم = ويليام الثانى William II إمبراطور ألمانيا ، وثالث إمبراطور ألمانى (٢٧ يناير ١٨٥٩ ـ٤ يونيو ١٩٤١) ـ لم يصل والده فريدريك الثالث Frederick III إلى العرش إلا عام ١٨٨٨ عندما كان يقترب من الموت . عارض ويليام المبادئ الليبرالية النسبية التى اعتنقها والديه ، وتمسك بالسياسات المحافظة التى اعتنقها جده ويليام الأول William I ، لكنه افتقد شخصية وقدرة القاضى التى كانت عند جده . لم تؤهله تربيته العسكرية ليعالج أمور بلاده عندما خلف والده فى ١٥ يونيو ١٨٨٨ . جلب شبابه ، وقلة خبرته ، والرغبة فى الحكم الفردى صداماً حاسماً مع المستشار أوتو فون بسمارك Otto Von Bismark الذى عارض التوسع فى قرارات الرعاية الاجتماعية ـ التى كان ويليام يرغبها مؤقتاً ليواجه الإشتراكيون ـ الديمقراطيون التابعين لأوجست ببل August Bebel (٢٢ فبراير ١٨٤٠ ـ ١٣ أغسطس ١٩١٣) .

مع سقوط بسمارك فى ١٨٩٠ توسع ويليام فى سلطاته بالتدريج واعتمد لدرجة كبيرة على مستشارين عسكريين غير مسئولين بدلاً من رجال الدولة المدنيين . وبسبب تقلبه ، وضعف قدرته على الحدس ، وابتعاده عن الإلتزام بالمنهجية ، فإنه لم يكن قادراً على تنسيق سياسة الحكومة . أبدى مستشاروه چورج ليو George Leo ، جراف فون كابريڤى Graf Von Coprivi ، شلودڤيج Chlodwig ، فيرست تسو هوهنلوهه ـ Furst zu Hohenlohe ـ شيلينج ڤيرست Schilling Furst - برنهارد Bernhard ، فيرست فون بيلوف Furst Von Bulow ، وثيوبالد فون بيتمان هولڤيج Theobald Von Bethmann Hollweg ـ أبدوا إقتراحات فاترة بتقديم تنازلات لإحداث التحول التدريجى لملكية يسودها كبار الملاك ورجال الصناعة إلى دولة أكثر إستجابة للأغلبية الشعبية . ومع هذا فإن هذه الاقتراحات إعترض عليها من جانب ويليام الذى أصر على الإستبدادية absolutism ومعارضة الإشراف البرلمانى . وقد حجب الإزدهار المادى الكبير الفشل فى تحقيق إصلاح سياس هادف .=

له رسالة(لصاحب التيمس) عما ينويه الإمبراطور نحو الدولة الإنجليزية ، كلها إفك وزور وبهتان . فما أتمها حتى قبض الإمبراطور على كتفه وقال . ويحك أقسم أنه لا تطمئن قلوب أهل المعمور من الأرض ولن تسكن ريحهم حتى يرون صاحب التيمس معلقا على خشبة فتأمل .

وانس الرئيس مصطفى فهمى باشا من الأمير إعراضا أقلقه . فشكا إلى اللورد كرومر ما يلاقيه من متاعب الرئاسة بعد نزوع الأمير إلى الإشراف على سائر الأعمال والاستبداد بالأمر دونه ودون كل أحد ، ثم احتجب عن الناس أياما فظنوا أن(٢٦٠) يتمارض على عادته عند اشتداد الأزمة ووقوع المعارضة بينه وبين الأمير ، ثم تفشت القالة بعزمه على ترك الرئاسة والتخلى عن المناصب جملة . فلم يمض أيام حتى تحققوا مرضه ، واشتداد علته التى هى ذات

= هدف ويليام فى مجال السياسة الخارجية إلى تعزيز وضعية ألمانيا ، معبراً عن وطنية عالية النغمة فى أحاديثه الحربية بصورة أزعجت أوروبا ، كما ساند التوسع الإستعمارى ، وبناء الادميرال الفريد فون تربيتز AL Fred Von Tirpitz لأسطول حربى كبير .
هجر ويليام روابط بسمارك مع روسيا عام ١٨٩٠ ، ورغم محاولات أخيرة للتحالف ، فإنه نفرّ إبن عمه نيقولا الثانى Nicolas II قيصر الروسيا ؛ بافتقاره للباقة . أما بريطانيا التى أغضبها تشجيع ويليام للبوير فى برقيته (١٨٩٦) للرئيس الجنوب أفريقى بول كروجر Paul Kruger فقد كانت منزعجة من الإمبريالية الألمانية والتنافس التجارى ، والتهديد الألمانى البحرى . قوت محاولة ويليام أخافة فرنسا المتحالفة (أزمة مراكش ١٩٠٥ ــ ١٩٠٦) من الروابط مع بريطانيا وروسيا ــ وشجع التوسع النمساوى فى البلقان ، متباعداً كثيراً عن شروط التحالف الألمانى ــ النمساوى .
تذبذب ويليام بين السلام والحرب فى يوليو ١٩١٤ ؛ وكانت مسئوليته التراجيدية فى تحمله لمسئولية إشعال الحرب الثقيلة عام ١٩١٤ من خلال صليل السيوف ، ومساندته للنمسا ، وتزايد إسطوله ، وموافقته على خطة الحرب التى وضعها جراف فون شليفن Graf Von Schlieffen .
ابتعد ويليام عن الشعب الألمانى بانضمامه لقوى الجيش خلال الحرب (١٩١٤ ــ ١٩١٨) وربط الملكية بناتج الحرب . وساهم فى الهزيمة بدعم خطط الضم بعيدة المدى ، وحرب الغواصات الغير مقيدة ، التى جلبت التدخل الأمريكى ، وبمعارضته إقتراحات السلام والإصلاح الداخلى .
فقد ويليام السلطة لصالح قادة الحزب فى الرايخستاج Reichstag ولدكتاتورية بول فون هندنبرج Paul Von Hindenburg (١٩١٦ ــ ١٩١٨) وإريك لودندورف Erich Ludendorff . عند توقيع هدنة نوفمبر ١٩١٨ هرب ويليام إلى هولندا حيث تنازل عن العرش فى ٢٨ نوفمبر من نفس السنة ؛ ومات فى المنفى هناك . نشرت مذكراته بترجمة إنجليزية عام ١٩٢٢ .
انظر Lexicon Universal Encyclopedia - Vol 20 - P . 157

(٢٦٠) أن = أنه

الصدر ، وظهرت الحركة فى داره بتردد الأطباء والمعيدين ، وأكثر اللورد كرومر من الغدو والرواح فى الليل والنهار ، واهتم لمرضه جماعة الإنجليز إهتماما عظيما ، وعاده جميع أطباؤهم ومقدمى عسكرهم . وقامت زوجة اللورد بتمريضه أياما حتى لقد كانت تهتم براحته فى الليل والنهار وبطعامه ، فتطهى له المرق وتسخن الحليب بنفسها وتناوله إياه بيدها ، وتعاون أهله على ماهم فيه من ذلك . وطال مرضه وعظم خطره والناس يتوقعون موته فى كل لحظة ، حتى أهله وذوى قرباه .



الفصل الثانى

عام ١٨٩٣

أزمة النظارة الفهمية

نظارة مصطفى رياض باشا

(١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤)

عودة كيرلس الخامس من المنفى

المناوشات حول سواكن

وباء الكوليرا فى مصر

وصل فى مرض وغرض

عام ١٨٩٣

طال مرض الرئيس واشتدت علته وايئس[١] الناس من برئه حتى طبيبه . وعرف الأمير ذلك واستيقنه . فلما كان يوم الأحد سابع عشرى جمادى الثانية من السنة ، أى سنة تسع وثلثمائة وألف للهجرة ، وخامس عشر يونيه عام ثلاث وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد[٢] سير أحمد شكرىَ باشا[٣] إلى الرئيس يعوده ويقول له ، الأمير يقرأك السلام ويقول لك تخلى عن الرئاسة واتركها لمن يختاره هو . قيل فلما سمع الرئيس هذا رفع رأسه عن وسادته وقال (هل يرضى بذلك لورد كرومر؟ فسحوا لى الأجل حتى أستشيره ولا أتخلى عنها حتى يشير هو بذلك) . فتركه (شكرى) وعاد ، فأخبر الأمير بما جرى . فاستقدم الأمير فى الحال أحمد فخرى[٤] باشا وزير المعارف وحادثه برهة ثم قال (قد وليتك

---

(١) وايئس = ويأس .

(٢) ١٥ يونيو ١٨٩٣ = صحتها ١٥ يناير ١٨٩٣ .

(٣) أحمد شكرى باشا = المقصود هو محمود باشا شكرى أحد رجال الحاشية وليس أحمد شكرى باشا الذى كان يشغل وظيفة وكيل نظارة الداخلية فى ذلك الوقت .

ـ إنظر (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٩ .

(٤) أحمد فخرى باشا = المقصود هو حسين فخرى باشا ـ إبن الفريق جعفر صادق باشا ـ چركسى . ولد بالقاهرة عام ١٨٤٣ ـ عمل بالحكومة عام ١٨٦٣ ـ سافر إلى باريس لدراسة القانون وعاد عام ١٨٧٤ حيث عمل بنظارة الحقانية . شغل منصب ناظر الحقانية فى نظارة رياض الأولى (٢ سبتمبر ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) ، ونظارة شريف الرابعة (١٨٨٢/٨/٢١ ـ ١٨٨٤/١/١٠) ، وكذلك شغل نفس المنصب فى نظارة رياض الثانية (١٨٨٨/٦/٩ ـ ١٨٩١/٥/١٢) ، ثم عاد لشغل منصب ناظر الحقانية فى نظارة مصطفى فهمى الأولى (١٨٩١/٥/١٤ ـ ١٨٩٢/١/١٧) .
إعترض على سياسات الإنجليز فى مجال القضاء المصرى فى نهايات عام ١٨٩٠ عندما كان ناظراً للحقانية فى نظارة رياض الثانية (١٨٨٨/٦/٩ ـ ١٢ مايو ١٨٩١) ، وأُخرِجَ من نظارة مصطفى فهمى (١٨٩١/٥/١٤ ـ ١٨٩٢/١/١٧) فى ١٤ ديسمبر ١٨٩١ وعين بدلاً منه إبراهيم باشا فؤاد رئيس محكمة الاستئناف . =

الرئاسة مع وزارة الداخلية ، فقم بتشكيل الوزارة على مافيه مصلحة البلاد) فقبل يده وانصرف . وبات وأصبح يوم الإثنين ثامن عشريه وقد أتم تشكيل الوزارة ، ورفع إلى ديوان الإمارة محضرا بذلك . فكان (بطرس باشا غالى) لوزارة المالية (وأحمد مظلوم) باشا للحقانية (وتكران باشا) للخارجية (ومحمد زكى باشا) للأشغال العمومية (ويوسف شهدى باشا) لوزارة الحرب . وعلم لورد كرومر بما جرى ، فأكبره جدا وكاد يتميز غيظا ، ودخل على الأمير بقصره وراجعه فى الأمر ، وقال إن حكومة جلالة ملكة الإنجليز لاترضى خلع (مصطفى فهمى) باشا ولن تطيق الصبر على هذا وجنودها فى طول البلاد وعرضها . قيل فلم يلتفت الأمير إلى ذلك وقال إن تنصيب الوزراء حق من حقوق الإمارة بحكم الفرامانات السلطانية فإن شئت وليت وإن شئت عزلت . فقام لورد كرومر غاضبا وسير الخبر على جناح البرق إلى صاحب سياسة الإنجليز . فما هى إلا عشية أوضحاها حتى جاءه الجواب بأن شدد فى طلب بقاء (مصطفى باشا) فى منصبه ولا تسلم فى إسناد الرئاسة إلى (أحمد فخرى) باشا . فأبلغ اللورد مقالة صاحبه إلى الأمير وضرب له أجلا أربع وعشرين ساعة . فيسر[٥] الأمير فى طلب أهل المراتب وأصحاب الوظائف العالية والوزراء ، والمشير (نوبار) باشا ، والمشير (مصطفى رياض) باشا (والمسيو ريفرسو) قنصل جنرال الفرنسيس ،

= وقد علق أحمد فريد على هذا الحدث بقوله (والمحقق أن استعفاء فخرى باشا هو إقالة محضة بناء على طلب (بارنج) قنصل إنكلترا ومستر سكوت مستشار الحقانية لعدم موافقته لبعض مشروعات سكوت . ولقد نال حضرته جزاء بقائه فى الوزارة بعد تعيين سكوت الذى كان هو من أكبر المعارضين فى تعيينه ثم بعد إستقالة رياض باشا من الوزارة فلو كان استقال هو أيضاً فى إحدى هاتين الفرصتين لخرج بشرفه إلا أنه آثر البقاء فى المنصب على حفظ شرف الاسم فطرد من الوزارة . . . الخ) .

ـ إنظر يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٨٤ .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص ٩٦ ـ ٩٧ ، ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٥) فيسر = فسير .

وتناجوا فى أمر ذلك طويلا . ثم أرسل الأمير إلى ساحب[٦] السياسة الإنجليزية يقول (لست بتارك حقامن حقوق منصبى المؤيدة بالفرمانات السلطانية) . وأبلغ ذلك إلى سائر قناصل الدول وإلى اللورد كرومر أيضا . وكان لما أتم أحمد فخرى[٧] باشا تشكيل هيئة وزارته شمخ جماعة الموظفين من الإنجليز بأنوفهم ، ولم ترعنوا[٨] للهيئة الحاكمة ، وامتنعوا عن الذهاب إلى مراكز وظائفهم ، وكشفوا لها وجوه البغض والإستنكاف . فعلوا ذلك من أنفسهم وقيل بإيعاذ[٩] من لورد كرومر ، تعظيما للفتنة وتهديداً للأمير . وجاءت رسائل التهانى إلى ديوان الأمير من مشرق البلاد ومغربها . وحضر عمد وأعيان البلاد كافة ، فدخلوا على الأمير وهنأوه بعزل (مصطفى فهمى) باشا ، ثم طاف بعضهم على بيوت الوزراء والأمراء مهنئين أيضا . واجتمع المشير (مختار) باشا فى غروب ذلك اليوم بالأمير وأبلغه خبر رضاء السلطان عما جرى واستحسانه لحزم الأمير وثباته . وجاء العلماء والمشايخ وأصحاب العكاكيز فهنأوه أيضا .

وقام (تكران باشا) (وبطرس باشا غالى) بالوساطة بين الأمير ولورد كرومر لعلهما يرجعان اللورد عن قصده ، أو يخففان من حزم الأمير فلم يفلحا . واشتدت الأزمة وكبرت المغاضبة ، وكثر الأخذ والرد يوما وبعض يوم ، وليس للورد كرومر هم سوى إقصاء (فخرى باشا) عن مسند الرئاسة . فلما تحقق (فخرى باشا) إستحالة التوفيق بين أصرار الأمير ومكابرة لورد كرومر ، وربما افضى ذلك إلى حدوث تسوء[١٠] عواقبه خلع نفسه مختاراً واعتزل المنصب .

---

(٦) ساحب = صاحب .

(٧) أحمد فخرى = حسين فخرى .

(٨) تدعنوا = يذعنوا .

(٩) بايعاذ = بإيعاز .

(١٠) حدوث تسوء = حدوث ماتسوء .

فاستدعى الأمير عند ذلك مصطفى رياض[١١] باشا وولاه الرئاسة مع وزارة الداخلية ، وقيل بل لورد كرومر هو الذى طلب تقليده الرئاسة إذا كان ثمت لاسبيل إلى بقاء (مصطفى فهمى) باشا فيها . أخبرنى أحد رجال تشريفات الأمير بأنه لما تنازل أحمد فخرى[١٢] باشا عن كرسى الرئاسة وعزم الأمير على

---

(١١) بعدما تولى عباس مسند الخديوية فى يناير ١٨٩٢ شرع فى إنتهاج سياسة مقتضاها إعتبار (كرومر) ممثلاً لدولة أجنبية (أعطتها أوروبا مأمورية إحتلال بلادى عسكرياً ، حتى يتم إعادة النظام الذى كان قد تأثر بالهياج الذى بدت أسبابه باقية على غموضها) .

وكانت هذه السياسة تتعارض مع بقاء (مصطفى باشا فهمى) رئيس النظار (١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٧ يناير ١٨٩٢) (١٧ يناير ١٨٩٢ ـ ١٥ يناير ١٨٩٣) الذى كان معروفاً بالتسليم تجاه سلطة الاحتلال والخضوع الكامل لها . وكان طبيعيا أن تصطدم الإتجاهات المتعارضة .

لذلك فإن عباساً شرع فى البحث عن ذريعة يقيل بها مصطفى فهمى الذى كان يستند إلى سلطة اللورد كرومر فى البقاء فى النظارة . وحانت الحظة المناسبة عندما أرسل كولز باشا Coles نائب مفتش عموم البوليس منشوراً إلى المديرين يطلب فيه أن تكون جميع المخاطبات التى تختص بأعمال الضبط ، وتعيين العمد والمشايخ والخفراء) موجهة إلى مفتش عموم البوليس وليس إلى ناظر الداخلية .

إعتبر عباس هذا المسلك من جانب أحد كبار الموظفين الإنجليز دليلاً على ضعف نظارة مصطفى فهمى ـ وبالتالى فإنه أرسل (محمود شكرى باشا) أحد كبار حاشيته إلى رئيس النظار يدعوه إلى الإستقالة . لكن مصطفى فهمى رفض وطلب إستشارة المعتمد البريطانى فى هذا الأمر .

أهاج هذا المسلك خديو البلاد فأصدر أمره بإقالة مصطفى فهمى باشا وتكليف حسين باشا فخرى بتشكيل النظارة (١٥ يناير ١٨٩٣ ـ ١٨ يناير ١٨٩٣) .

إعترض اللورد كرومر على قرار الخديو ـ وتمسك الخديو فى المقابل بحقوقه فى تعيين النظارات وإقالتها . وثارت الأزمة السياسية المعروفة بأزمة النظارة الفهمية ـ وفيها أصرت بريطانيا على ضرورة الأخذ بنصيحتها فى قضايا النظارات وشخصيات من يتولونها .

وعندما أحس عباس بحرج موقفه وعدم قدرته على مواجهة سلطة الإحتلال ، إضطر مذعناً إلى قبول حل وسط بإقالة نظارة (حسين فخرى) وتعيين مصطفى رياض (١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤) . وبذلك فإن إنجلترا استطاعت أن تلقن الخديو الشاب درساً مفاده أن السلطة العليا فى مصر لها وليس له .

ـ إنظر الخديو عباس حلمى (عهدى ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٩ ـ ٦٥ .

ـ (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٨ ـ ١٤١ .

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٢ ـ ١٣٧ .

(١٢) أحمد فخرى باشا = حسين فخرى باشا .

تسليمه إلى (مصطفى رياض باشا) قام لورد كرومر يطالب الأمير بأمور أربعة : أولهم إرجاع مصطفى فهمى باشا إلى مسنده ، ثانيهم عزل (تكران باشا) وإقصاء روليه[١٣] بك عن بلاط الأمير ، ثالثهم تعهد الأمير بصك يكتبه أن لا يعزل بعض الوزراء أو كلهم إلا بالإتفاق مع وكيل الدولة المحتلة ، ورابعهم عدم معاقبة الموظفين الإنجليز الذين لم يزعنوا[١٤] للهيئة الحاكمة أيام هذه الأزمة . فعفا الأمير عن أولئك الإنجليز ، ولكنه لم يقبل شيئا من بقية الطلبات حتى رد كيد كرومر فى نحره . أقول وقد حركت فعال لورد كرومر هذه ومعاندته للأمير حفايظ اصحاب سياسات الدول ، فقامت صيحة أصحاب صحفهم الناطقة بلسانهم ، وأخذت الدولة الإنجليزية من كل جانب . وقال صاحب جريدة (النوقوقرميا) الروسية (لقد صار من المحتم على دولتى الروس والفرنسيس أن تسألا الإنجليز بيانات عما أتاه لورد كرومر من الغلظة والجفاء ، حتى لا يحسب سكوتهما رضى خفى عن أن تصبح ديار مصر مستعمرة للإنجليز) . وقام صاحب سياسة الفرنسيس فى وسط رجال دار ندوتهم فقال (لاخفاكم أن

---

(١٣) روليه بك = لوى رويبه Louis Rouillet أستاذ عباس حلمى للقانون الدولى فى الأكاديمية الشرقية بڤيينا ـ طلب عباس من الإمبراطور فرانسوا جوزيف أن يتركه تحت تصرفه فى مصر ـ عينه عباس رئيساً للقلم الأوروبى فى بلاطه ـ عرف عنه ميوله الفرنسية وتشجيعه لعباس فى محاولاته التخلص من النفوذ البريطانى ـ سويسرى الجنسية . أعتمد عباس عليه وعلى فريق مكون من الفرنسيين بوترون M Boutron رئيس اللجنة المختلطة لأملاك الدولة ، برونيير M Prunieres رئيس المحكمة المختلطة من الدرجة الأولى فى القاهرة ، برونت M Pront المندوب الفرنسى فى إدارة السكك الحديدية المصرية ، وأرستيد جاڤييو M Aristide Gavillot الصحفى فى وكالة هاڤاس Havas ـ إعتمد عليهم فى إقامة مركز للدعاية لصالح إستقلال مصر ـ وتمكن من خلال هذه المجموعة من إقامة إتصال مصرى مع العالم الخارجى ، وإفهام أوروبا آمال مصر ، وإيجاد مدافعين عنها فى البرلمان الفرنسى ـ وشاركهم هذه المشاعر دى رڤرسو M de Reverseaux قنصل فرنسا العام فى مصر ـ كان مكروهاً من جانب سلطات الإحتلال البريطانى لسياسته المعادية للوجود البريطانى فى مصر والميل نحو عباس ـ توفى فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٧ .

ـ إنظر الخديو عباس حلمى (عهدى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٧ ـ ٤٨ ؛ ٨٦ ـ ٨٧

-R Tignor (Modernization and British Colonial Rule in Egypt 1882 - 1914) Ibid .- P., 155

ـ عبد العزيز رفاعى (أحمد شفيق المؤرخ ـ حياته وأثاره) ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ص ٣٢ .

(١٤) يزعنوا = يذعنوا .

الدولة الإنجليزية فى شخص وكيلها السياسى بمصر ، قد تظاهرت بالشدة على أمير البلاد وجاهره[١٥] بالغلظة ، فكان من المحتم أن وكيل جمهوريتنا بعاصمة الإنجليز يكلم صاحب السياسة الإنجليزية فى ذلك ، وستفحص حكومة دولتنا هذه الحالة بسكون ورباط جأش . إذ لايمكن لجمهوريتنا ولا لحكومات أوروبا كافة أن تتغاضا[١٦] عن أى عمل يمس حقوق الأمير أو شروط العهده المبرمة بشأن ديار[١٧] مصر) . وأرسل السلطان إلى سفيره يديار[١٨] الإنجليز أن (قل لصاحب سياستهم أن كل عمل يأتيه الإنجليز ضد أمير مصر سواء يمس مال[١٩] الفرمانات الشاهانية أو ذات الأمير ، فإن السلطان يعتبرها كأنها ذاتياً وضد السلطنة العثمانية بأسرها) . فقام لذلك صاحب السياسة الإنجليزية وقعد ، وفزع إلى سفراء الروس والفرنسيس ــ والألمان فى سد هذه الفرجة من ناحيتهم ، وسير إلى السلطان يقول أن حكومة جلالة الملكة لم يدر فى خلدها أن تغير شيئا من الإتفاقيات والعهود المبرمة فى شئون مصر ، وأن ماحدث أخيرا لايدعو إلى شئ من ذلك . واتفق أن ذهب الأمير إلى المشهد

(١٥) وجاهرة = وجاهرت .

(١٦) تتغاضا = تتغاضى .

(١٧) شروط العهدة المبرمة بشأن ديار مصر = عندما أرسل محمد على (١٨٠٥ ــ ١٨٤٨) جيوشه لفتح بلاد الشام عام ١٨٣١ كان يرسم بيده تاريخ العلاقات المصرية ــ الأوروبية . ففى أعقاب الأزمة الدولية التى أثارها النزاع بينه وبين السلطان العثمانى ــ فرضت أوروبا نفسها على طرفى النزاع بعد هزيمة (إبراهيم باشا) فى الشام . فوفقا لمعاهدة لندن (١٨٤٠) والخط الشريف الصادر عن السلطان فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ــ وفرمان يونيو من نفس العام ، تحدد وضع مصر الدولى حتى إعلان الحماية البريطانية فى عام ١٩١٤ ــ وتم تسوية العلاقات بين الدولة صاحبة السيادة والولاية الثائرة على أساس إعادة ربط (الولاية) بالأمبراطورية العثمانية على أساس التبعية التامة ــ لكن مصر تميزت عن باقى الولايات العثمانية بأن أصبح الحكم فيها وراثياً فى أسرة محمد على طبقاً لقاعدة الأرشد فالأرشد . كما أن التسوية جعلت من الدول الأوروبية حكماً بين الولاية والدولة صاحبة السيادة .

ــ راجع أحمد عبد الرحيم مصطفى (علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) دار المعارف ١٩٦٧ ــ ص ٥ ــ ٧ ــ والملاحق أرقام (١) ، و(٢) ص ٢١٣ ــ ٢٣٤ .

(١٨) يديار = بديار .

(١٩) يمس مال = يمس .

الحسينى(٢٠) لصلوة الجمعه ، وعلم الناس بذلك فاحتشدوا فى تلك الخطة وتراحم(٢١) جميعهم ، فلما خرج من الجامع صاحوا جميعا بالدعاء له ، وأكثروا من الصياح حتى كادت تميد الأرض من ضجيجهم ، وتبعوا عربته إلى الموسكى فالعتبة الخضرة(٢٢) ثم تقدم فريق منهم وأمسك بلجم الخيل يريد حل سيورها وجر العربة بدلها ، ووقف أحد الشبيبة القبطيه على مرتفع بين تلك الجماهير وخطب فيهم مهنئا الأمير ومقبحا فعال كرومر ، ثم نادى بالويل والحرب على أهل المراتب وأصحاب الخطط من الإنجليز ، فصاح الناس لصيحته ، فأشار الأمير بيده إلى من تقدم لجر العربة أن إتركوها فتركوها . فسار

(٢٠) المشهد الحسينى = المسجد الحسينى بالقاهرة .

(٢١) وتراحم = وتزاحم .

(٢٢) كانت جزءاً من الضفة الشرقية لبركة الأزبكية ــ فى ثلاثينيات القرن الثامن عشر إبتنى بها التاجر الشهير محمد داده الشرايبى قصراً سمى بالعتبة الزرقاء وسميت المنطقة باسمه ــ وكان يقع تجاه جامع أزبك ــ فى أربعينيات القرن الثامن عشر انتقلت ملكية القصر إلى الأمير رضوان كتخدا فجدده وزخرفه ووسع حديقته وأقام على بابه أعمدة رخامية ملفوفة فسمته العامة قصر الثلاث وليات ــ فى سبعينيات القرن الثامن عشر انتقلت ملكية العتبة الزرقاء إلى محمد بك أبو الدهب عندما تزوج بمحظية رضوان كتخدا ــ وعرفت الدار منذ ذلك الوقت بدار الدفتردار . فى عام ١٨٠٣ إحترق القصر فى فتنة العسكر ــ وآل بعد ذلك إلى طاهر باشا الكبير ناظر ديوان الجمارك ببولاق ــ بنى طاهر باشا داراً بجوار القصر ووسع فى أبنيته لكنه مات قبل الإنتهاء منه فآل إلى إبنه أحمد طاهر باشا ــ عند وفاته عام ١٨٥٢ آل إلى عباس حلمى الأول والى مصر (١٨٤٨ ــ ١٨٥٤) فعمره وجعله مقراً لوالدته وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت (العتبة الخضراء) . فى عصر إسماعيل وأثناء مرحلة إعادة الإنشاء والتعمير التى كانت تستهدف تحديث القاهرة وإعادة بنائها على النمط الباريسى الذى صممه المهندس الفرنسى هوسمان Haussman ــ عهد إسماعيل إلى بير جران Pierre Gran مهندس الطرق والكبارى الفرنسى بإعادة تخطيط القاهرة الحديثة وعينه مديراً لمصلحة الأورناطو Ornato (التنظيم) . قام (جران بك) بإعادة تخطيط القاهرة عام ١٨٧٤ على هيئة شبكة من الشوارع تربط بين إثنى عشر ميدانا ــ كان ميدان العتبة الخضراء (العتبة الزرقاء سابقاً) هو أحدها .

ــ على باشا مبارك (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة) ــ الطبعة الثانية ــ مطبعة دار الكتب ــ القاهرة ــ ١٩٧٠ الجزء الثامن ــ ص ١٠٥ ــ الجزء الرابع عشر ــ ص ٧٦ .

ــ عبد الرحمن الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار/ تحقيق حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، والسيد إبراهيم سالم . لجنة البيان العربى ــ القاهرة ــ ١٩٦٧ ــ الطبعة الأولى ــ الجزء السابع ــ ص١٧٨

ــ أندريه ريمون (القاهرة ، تاريخ حاضرة) ترجمة لطيف فرج ــ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ــ القاهرة ــ ١٩٩٣ ــ ص ١٩٩ ، ٢٧٠ ــ ٢٧٤ .

إلى قصر القبة وتفرق الناس . قيل ورأى ذلك لورد كرومر بعينى رأسه ، فأزعجه جدا وتولاه الخزى ، واحتجب عن الناس يومين أو ثلاثة ، ثم ذهب إلى ديوان الرئيس (مصطفى رياض) باشا وأبلغه خبر أن صاحب السياسة الإنجليزية قد أصر على إرسال ثلاثة آلاف مقاتل مددا لجيشهم المحتل ، نظرا لأن الحوادث الأخيره تنذر بتكدير صفو الراحة . فأبلغ الرئيس خبر ذلك إلى الأمير فلم يلتفت إليه ، وشاع أمره بين الناس فأكبروه وتحدثوا به . فما هى إلا أيام حتى جاء كتاب صاحب السياسة الإنجليزية إلى ديوان الأمير بأن زيادة الجيش لايفهم منها أن الأمن ذاهب أو أن النظام مشوش ، ولكن التنقلات التى حصلت من أشهر فى معسكرات الجيوش قد دعت إلى إرسال أربعمائة من المشاة الفرسان إلى مصر ، وهذا العدد لايترتب على إرساله شيئا من الأهمية أو الظنون . وأخبر سفير الإنجليز بعاصمة الفرنسيس صاحب السياسة الفرنساوية أن إمداد جيش الإحتلال لايستفاد منه أقل تغيير فى السياسة ، ولا أقل تعديل فى التأكيدات التى سبقت بشأن الاحتلال . فلم يكتف صاحب سياسة الفرنسيس بذلك ، وسير إلى سفيرهم بديار الإنجليز بأن يسأل لورد روزبرى[٢٣] صاحب السياسه الإنجليزية ، أن يعين الحوادث والأسباب التى أوحبت[٢٤] أتخاذ مثل هذه الوسائل ، فأكد له لورد تروزبرى[٢٥] أن لاشئ فى الأمر البتة ، سوى أن التنقلات

(٢٣) لورد روزبرى = Rosebery. Archibald philip Primorse. 5th Earlof روزبرى ، أرشيبالد فيليب بريموروس ، الأيرل الخامس لروزبرى ـ (٧ مايو ١٨٤٧ ـ ٢١ مايو ١٩٢٩) ـ رئيس وزراء بريطانيا من ٣ مارس ١٨٩٤ ـ ٢١ يونيو ١٨٩٥ . قاد وزارة ممزقة وغير فعالة . خدم كإمبريالى ليبرالى كوزير للخارجية فى وزارات ويليام إيوارت جلاد ستون William Ewart Glodstone (١٨٨٦ ، ١٨٩٢ ـ ١٨٩٤) . لم يستطع الحزب الليبرالى المتحزب على نفسه أن يمرر أي تشريع من وراء المحافظين المتحدين ، فى ظل وزارته التى لم يتجاوز عمرها خمسة عشر شهراً ، واستقال روزبرى عندما رفض مجلس العموم إجراءاً ليبراليا صغيراً . تسبب دعمه لحرب البوير (١٨٨٩ ـ ١٩٠٢) وتأسيسه للحماية على أوغندا (١٨٩٤) فى غربته عن حزبه . ثم أصبح الصدع كاملاً عام ١٩٠٥ عندما أعلن روزبرى معارضته للحكم الذاتى الأيرلندى . كتب روزبرى عدة كتب بما فى ذلك تراجم لويليام بت William Pitt .
راجع Lexicon Universal Encyclopedia - Vol 16 - P .314 .

(٢٤) أوحبت = أوجبت .

(٢٥) تروزبرى = روزبرى

فى الجيش هى التى أوجبت هذه الزيادة ، وسير كتبه بهذا المعنى إلى سائر الدول فى سد هذه الفرجه من ناحيتهم أيضا ، وانكف لورد كرومر عن الغدو والرواح بين مقر الرئيس وقصر الإمارة ، حتى ظن الناس أنه مريض أو هو يتمارض تحجبا .

وتعفاضى[٢٦] الرئيس (مصطفى رياض) باشا عن هذه الكبائر ونسى شأنها ، وأغفل أمرها وفزع إلى الفتنة القائمة بين الطائفة القبطية وبطريركها ، وجعل يعرض باستفحالها ويهول باشتدادها ، وصوب مذاهب البطريرك ومدعياته ، ويلح على الأمير بالعفو غنه وإرجاعه إلى كرسيه ، حتى لقد جعلها سهر ليله وحديث نهاره ، وعاب على (بطرس باشا غالى) ما اتهمه به تنصار[٢٧] البطريرك . وكان لما خلصت له الرئاسة وتصدر ولده محمود باشا[٢٨] القاعة التى أعدها فى دارهم للقاء أصحاب الحاجيات ، ذهب اليه (إبراهيم بك الوهابى) زعيم أنصار البطريرك من الغوغاء ووضعاء الطائفة ، وكلمه فى الوساطه لدى أبيه فى إرجاع البطريرك من منفاه ، قيل وأرشاه بقدر من المال ، وأطنب فى تلك المغالطة ، فأقسم أنه يعيده رغم أنف كل مكابر ، وكلم أبوه فى ذلك وأكثر له من التقريع على (بطرس باشا) ، وحسن إلى بعض قناصل الدول أن يزينوا لأبيه مناهضة الخديوى وإرجاع البطريرك ، لتعظم مكانته وتكبر هيبته فى القلوب . فاندفع الرئيس بتيارهم لا يلوى على شئ[٢٩] . واشتد على الأمير فى طلب ذلك ،وأشار إلى بطرس باشا بأن يزين إلى أعضاء المجلس الملى للطائفة القبطية أن يرفعوا إلى الأمير محضرا بالتماس العفو عن البطريرك ومطران الإسكندرية ، ففعلوا كارهين ، فعفى عنهما فى ثالث عشر رجب الفرد عام عشر وثلثمائة وألف

---

(٢٦) وتغفاضى = وتغاضى .
(٢٧) تنصار = أنصار .
(٢٨) باشا = باشا .
(٢٩) من الواضح أن ميخائيل بك شاروبيم كان من أنصار بطرس باشا غالى والجماعة التى تطالب بإقامة المجلس الملى ـ وبالتالى فإنه كان يعارض فى عودة البطريرك من منفاه .

للهجرة[٣٠] ، وكتب بذلك إلى مديرى البحيرة وبنى سويف ، فأبلغاهما خبر العفو عنهما . وسافر أسقفا إسنا وأخميم وبعض موظفى الدار البطريركية إلى (دير البراموس) ليأتوا بالبطريرك ، وطيروا الخبر بذلك إلى سائر الكنائس والديارات . فلما كان يوم الأحد ثامن عشر رجب الفرد عام عشر وثلثمائة وصلوا به إلى القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان الناس ساعة وصولهم وقوفا على طول الطريق من محطة السكة الحديد إلى شارع كلوت بك فالدار البطريركية ، وكانت الدور المطلة على تلك الخطة وبعض الحوانيت مزينة بالأعلام والرياحين . وحمل الصبية وبعض تلاميذ المدارس القبطية أغصان الزيتون وزعف النخل ، واصطفوا على جانبى الطريق . ووقف جماعة القسيسين والرهبان وعرفان[٣١] الكنائس علي رأس الدرب الموصل إلى الدار البطريركية ، وهم فى زيهم الكنائسى يحملون الشموع والمباخر والصلبان ، فمر البطريرك بعربته فى وسط تلك الجموع بين التهانى المتواصل والضجيج المرتفع إلى عنان السماء . ومازال حتى دخل الدار البطريركية ، فدقوا عند ذلك الأجراس وأقاموا الصلوة . وكان الأمير قد سافر مع وزرائه ورجال ديوانه إلى (جرجا) للإحتفال بفتح الخط الحديدى الموصل الى الصعيد الأعلا ، فأرسل البطريرك إلى ديوانه على جناح البرق يشكر من تعطفه بالعفو عنه ، ويعد بملازمة الهدوء والسكينة . وما شاع خبر عودته حتى تزاحم على بابه المسلمين والمهنئين ، وقدم كثير من أهل البلاد إلى القاهرة للسلام أيضا . فما هو أن استقر به المقام حتى استقال سائر أعضاء المجلس الملى وتركوا مراكزهم ، فجعل هو يتصرف فى الأمور كما كان فى أوقافها ، ومدارسها ، ودياراتها وسائر نقضها وإبرامها ، وأطلق يد بعض القسيسين فصرفوا الأمور طوع أغراضهم ، فذهب الشئ الذى أحدثه أعضاء المجلس هباءاً منثوراً ، وعادت الأحوال إلى إنقلابتها . ورجع الخديوى من

(٣٠) ١٣ رجب عام ١٣١٠ = ٣١ يناير ١٨٩٤ .
قارن (مذكرات محمد فريد ــ القسم الأول ــ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) ــ ص ١٤٣ .

(٣١) وعرفان = وعرفاء

رحلته فى الصعيد الإعلا فاهتم أهل القاهرة لذلك اهتماما عظيماً ، وزينوا البلد بالأعلام والزهور ، وتراحم[٣٢] الأمراء والوزراء والكبراء وأصحاب الخطط والعلماء ، والرؤساء الروحيين للسلام عليه . فسير البطريرك إلى ديوان الأمير فى طلب الإذن بالمثول بالحضرة ، فعين الأمير أجلا للقائه . فلما حل الأجل سار البطريرك إلى قصر الإمارة ومعه (أسقف صنبو) الذى كان خلفا له فى الرئاسة أيام منفاه ، ومطران الإسكندرية علة كل هذا البلاء ، وجماعة القسيسين . فقابلهم الأمير وحادث البطريرك لحظة ، ثم أوصاه بالخلود إلى السكينة والإقلاع عن المشاغبة المغضبة[٣٣] إلى ابتعاد القلوب عنه ، فدعا للأمير . وقاموا جميعا وانصرفوا ، فزاروا الرئيس (مصطفى رياض) باشا وولده ، وشكر البطريرك إلى سعيه ، وعادوا إلى الدار البطريركية . أخبرنى من كان معهم فى ذلك اليوم أنهم لما صاروا فى صحن الدار بين الجمع المحتشد ، تقدم أحد الشيوخ الرهبان وأمسك بيد البطريرك يقبلها ثم صاح عفى الله عما سلف ، قالها ثلاثا ، وإذا بقايل يقول ولايرونه «أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم» فتطير القوم من ذلك ، وتذكرت فى الحال قول (نصر بن سياد) إلى (مروان الجعدى) من ملوك بنى أمية عند ظهور دعوة بنى العباس بخراسان يحذره من ذهاب ملكه .

أرى خلل الرماد وميض نار ... فيوشك أن يكون لها ضرام
وأن النار بالعودين تذكو ... وأن الحرب أولها الكلام
فقلت تجاهلا ياليت شعرى ... أ أيقاظ أمية أم نيام

وتفرق الناس على ذلك وهم يتحدثون بقول ذلك القائل .

قلنا فيما تقدم بك بيانه أن جماعة الانجليز استبدوا بكل شئ لعهد وزارة (مصطفى فهمى) باشا ، وتصرفوا فى سائر أحكام الإمارة طوع أغراضهم ، حتى لم يبق لوزارة الداخلية من السلطة على المديرين والمحافظين إلى يوم

(٣٢) وتراحم = وتزاحم .
(٣٣) المغضبة = المفضية .

مـرض (مصطفى باشـا) إلا تقييدهم[٣٤] بإرسـال كتبهم الخاصة بشئون وظائفـهم باسم وزير الداخليـة ، لا خـلافه مـن أصحـاب المـراتب مـن الإنجليز ، الذين ملئـوا فضـاء تلك الـوزارة بأسـماء ونعوت مختلفة . فلما مرض (مصطفى فهمى) باشـا واشتدت علته وايئسوا[٣٥] من شفـائه ، عمد كولس[٣٦] باشـا أحد كبار الضبط[٣٧] من الإنجليز بتلك الوزارة إلى القضاء على تلك البقيـة البـاقيـة إلى ذلك العـهد فأرسل منشـورا إلى سـائر المـديرين والمحافظين ينهـهم[٣٨] عن مكاتبة وزير الداخلية فى شئ مما يختص بشئون الضبط ، وأن تكون كتبهم فى ذلك باسم ستل[٣٩] باشـا الإنجليزى ، الذى صار

(٣٤) تقييدهم = تقيدهم . (٣٥) وايئسوا = ويأسوا .

(٣٦) كولس باشا = Charles Edward Coles شارلز إداورد كولز (١٧ نوفمبر ١٨٥٣ ــ ١٨ نوفمبر ١٩٢٦) ــ إبن الماچور چنرال جوردون كولز Gordon Coles ــ إلتحق بإدارة البوليس الهندى فى بومباى فى سن العشرين عام ١٨٧٣ . فى عام ١٨٨٣ وبعد الإحتلال البريطانى لمصر أعير إلى الحكومة المصرية الخاضعة للنفوذ البريطانى والتى كانت تمر بمرحلة الإصلاح الشامل تحت إشراف السير إيفلين بارنج Evlyn Baring . عمل المترجم لمدة عام ببوليس الإسكندرية برتبة كولونيل Colonel ولقب (بك) . فى عام ١٨٨٤ نقل كولز إلى القاهرة نائبا للمفتش العام للبوليس لمنطقة القاهرة Deputy Inspector - General of the Cairo Division ومنح رتبة اللواء ولقب باشا . فى عام ١٨٨٩ نقل إلى الإسكندرية كمفتش عام لبوليس الوجه البحرى حتى عام ١٨٩٠ . فى عام ١٨٩٠ نقل المترجم مفتشاً عاماً للبوليس فى القاهرة حتى ١٨٩٤ عندما عين حكمدارا لبوليس القاهرة حتى ١٨٩٧ . فى عام ١٨٩٧ عين مفتشاً عاماً للسجون حتى عام ١٩١٥ . يعتبر (كولز باشا) ــ فى مجال دراسة تاريخ البوليس المصرى ــ أحد عمد المدرسة الهندية فى الإدارة الإستعمارية ــ تلك المدرسة التى أدخلها (كرومر) فى مصر .
ــ راجع Coles Pasha "Recollections and Reflections" The Saint Catherine Press London - 1918

(٣٧) الضبط = الضباط . (٣٨) ينهـهم = ينهاهم .

(٣٩) ستل باشا = ضابط إنجليزى بالجيش المصرى ــ شغل وظيفة سرڤيور جنرال وكوارتر ماستر جنرال Surveyor and Quarter.- Master General مدير إمدادات الجيش حتى ١٨٩٢/٤/١٥ عندما عين مفتشاً لعموم البوليس بدلاً من «كتشنر» الذى عين سرداراً للجيش المصرى ورئيساً لأركان الحرب .
حدثت فى عهده (أزمة البوليس) عندما أصدر (كولز باشا) أحد نواب مفتش العموم (منشوراً) للمديرين يأمر فيه بأن تكون «جميع المخاطبات التى تختص بأعمال الضبط ، وتعيين العمد والمشايخ والخفراء» موجهة إلى (مفتش عموم البوليس) فى ٢ يناير ١٨٩٣ . وقد ترتب على ذلك أزمة إقالة (مصطفى فهمى باشا) رئيس النظار ورفضه الأنصياع لأوامر الخديو (عباس حلمى الثانى) ــ ورفض السلطات البريطانية نظارة حسين فخرى باشا فى ١٨٩٣/١/١٥ ــ ثم ما تلا ذلك من تعيين (مصطفى رياض) رئيساً للنظار كحل وسط .
ألغيت وظيفته فى ١٨٩٤/١١/٣ عندما أصدر (عباس حلمى) أمراً عالياً (بإلغاء نظام البوليس الحالى) بناء على إقتراح (نوبار) رئيس النظار الذى كان قد تولى النظارة فى ١٥ إبريل ١٨٩٤ ــ وإحلال نظام (مستشار الداخلية) بدلاً من النظام السابق .
ــ راجع الوقائع المصرية فى ١٨٩٢/٤/٢٣ .
ــ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ــ ١٩٢٢) ص ٢٨٤ ــ ٢٨٧ ــ مرجع سبق ذكره .

أمر ذلك من أخص وظائفه . فصدعوا بالأمر إلا نفرا منهم شكا من تعذر الجرى على هذا النسق من الترتيب . وعلم الأمير بذلك فأكبره ، وراجع الإنجليز فيه وكلم لورد كرومر وقويت حجته يومئذ ، بما ظهر من عجزهم عن إيقاف أهل اللصوصيه عند حدهم . وطال الأخر[٤٠] والرد بين الأمير ولورد كرومر والوزراء أياما ، وجرت المغاضبة بين الأمير ووزرائه ، وبينه وبين لورد كرومر من جراء ذلك ، وكان من وراء تلك المغاضبة ما مربك بيانه ، وكيف قامت صيحة أصحاب الصحف على اختلافها ، حتى أقلقت صاحب سياسة الإنجليز وأحرجته . ويعجبنى ماكتبه صاحب جريدة الديبا[٤١] الإفرنسية فى ذلك حيث قال (لقد تكلم أصحاب الصحف كلها عن أسباب وبواعث الحركة الأخيرة التى حدثت بمصر ، فقال بعضهم أن (لإسماعيل باشا) جد الأمير عباس يدا فى أحداثها ، وقال آخرون أنها من دسائس التحالف الثلاثى[٤٢] أى تحالف ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، أو من أعمال الروس والفرنسيس ، وعندنا أن ليست الحقيقة فى شئ من ذلك البتة . بل هى أمير حازم دفعه الإنجليز إلى نهاية الصبر ، وخلط معه لورد كرومر خلط من يرغب فى الأمر من حيث ينهى

---

(٤٠) الأخر = الأخذ .

(٤١) ديبا = المقصود Debat وهى كلمة فرنسية تعنى المجادلة أو المنازعة .

(٤٢) التحالف الثلاثى = Triple Alliance ــ تحالف عقد عام ١٨٨٢ ما بين ألمانيا ، والنمسا ــ والمجر ، وإيطاليا . وفرت بنوده تحالف أعضائه فى العمل عند تعرض أى من الأعضاء للهجوم من جانب قوتين أو أكثر . ترجع أصول هذا التحالف الذى وضع أسسه المستشار الألمانى أوتو فون بسمارك Otto Von Bismark ــ ترجع أصوله إلى التحالف الثنائى Dual Alliance الذى عقد عام ١٨٧٩ بين كل من ألمانيا ، والنمسا ــ والمجر ، والذى أضيفت إليه إيطاليا عام ١٨٨٢ . كانت ألمانيا مدفوعة برغبتها فى عزل فرنسا ؛ وكانت إمبراطورية النمسا ــ والمجر تسعى للدعم ضد روسيا ، منافستها فى البلقان ؛ أما إيطاليا التى كانت تخشى التوسع النمساوى ــ المجرى ، فإنها كانت تريد من يساعدها فى تحقيق مطامحها الإقليمية فى شمال أفريقيا . وقد ظل هذا التحالف يتجدد دوريا حتى قيام الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) . فى نفس الوقت فإن سلسلة من الاتفاقيات الثنائية Bilateral أنتجت الوفاق الثلاثى Triple Entente (١٩٠٧) بين كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا . وهكذا فإن أوروبا إنقسمت إلى معسكرين قاتلاً بعضهما فى الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) ، فيما عداً إيطاليا التى تنكرت للتحالف الثلاثى وانضمت لقوى الوفاق عام ١٩١٥ .

-Taylor, A.J P., "The struggle for Mastery in Europe, 1848 - 1918 (1945, repr 1971"

- lexicon Universal Encyclopedia - vol 19 - PP., 301 - 102

عنه ، حتى يرى المنهى عنه أن فيـه لذة وفكاهة . أى نهم[٤٣] نهاه عن السلطة والإستطالة ، وشدد عليه فى ذلك حتى صار يرى فيها لذة وهناء ، فأقبل عليها طامعا حتى أخذ بتلابيبها . ولقد كان من الهين عليه الوصول إلى غايته من غير ضجيج ولامغاضبة ، ولكن كان ينقض[٤٤] لذلك الوقت والإصطبار . فقد كانت هيئة وزارة (مصطفى فهمى) فى إنحلال وزوال ، وكان يجب على لورد كرومر أن يفطن لذلك وأن يعلم أن تلك الآلة الصـمـاء التى أدارها حـينا من الدهر قـد ضعفت ، وهو لو فعل لهان عليه تبديل الوزارة قبل أن يسقطها الأمير بأيام ، ذلك بأن يحسب لوفاة (مصطفى) باشا حسابا ، فيتقدم الأمير فى استبداله بآخر . فـلا يلبث أن يتم له ذلك فى الحال لوفعل ، وتتخلص البلاد من تلك الهيئة البائدة إلى هيئة مصرية محضة ، ولكن الأمير لزم الصبر والسكون بما فى قدرته من حسن السياسه وكمال الروية ، فلم يستهويه الغرض ولم يهجم على الأمر دفعة . حتى ظهر ذلك المنشور الذى بعث به ذلك العظيم الإنجليزى إلى سائر المديرين والمحافظين والحكام فى حينه[٤٥] ، فاقتحم الأمير المعمعان بإقدام وحزم ، حتى التقى به مع لورد كرومر فى معترك الخصام ، ولكن قد كان الأمير فى ذلك المعترك أثبت موقفا وأقوى حجة من خصمه وتأذن الله سبحانه بنفاذ أمره .

أما شأبيب الكلام وهزر القول الذى كانت تمطره أصحاب صحف الإنجليز على الأمير فلم تكن شيئا مذكورا فى جانب قوارص الانجليز ، أهل المراتب وأصحاب الخطط بمصر . فإن جريدة (الإجبسيان[٤٦] غازت) لسان حالهم قامت

(٤٣) نهم = أنه قراءة ترجيحية .
(٤٤) ينقض = يقتضى قراءة ترجيحية .
(٤٥) يقصد منشور كولز باشا Coles . نائب مفتش عموم البوليس فى ٢ يناير ١٨٩٣ .
ـ انظر الحاشية (٣٩ ـ ص ١٧٤) .
(٤٦) الاجبشيان غازيت = Egyptian Gazette ـ صحيفة أجنبية ظهرت فى الإسكندرية فى نهايات عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) وكانت تمثل صدى الرأى الإنجليزى ، وحازت ثقة الجالية البريطانية فى مصر واعتبرت الجريدة الرسمية للقنصل البريطانى فى مصر . تميزت Egyptian Gazette بإثارة النواحى الدينية في خصومتها للحركة المصرية ، وكانت ترمى المصريين بالتعصب الدينى ـ لم تستطع السلطات المصرية قبل الإحتلال البطش بالصحيفة لتمتعها بالإمتيازات الأجنبية رغم أن قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ سوى بين الصحف جميعا . مع قدوم الاحتلال أصبحت Egyptian Gazette تمثل الفكرة الإنجليزية فى مصر وتمتعت برعاية الوجود البريطانى كقوة إحتلال .
ـ إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) ـ مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ الطبعة الرابعة ـ ص ٢٧١ ـ ٢٨٨ .

تقول من الإفك والمين والسفسفة ، ما يجل عنه خزم الأمير ويعلوا علو كبيرا .ثم لكى تتم أمرها من مرضاة أهل الإحتلال لم تغفل عن أن تعرض بدولة الفرنسيس ، وشخص غلادستون(٤٧) فى عرض(٤٨) كلامها أيضا . ولكن ذلك لم يجد أهل الإحتلال نفعا ، لأنهم ماعتموا حتى رأوا من الأمير ما لم يكن لهم فى حسبان . رأوا كيف أنه أحتمل غلظة لورد كرومر بكل جلال وحزم ، فأصبح الحب له يزداد فى قلوب الرعية ، وكيف قامت مصر بأسرها متهللة فرحة تتنهد تنهد المريح ، وكيف وأقبلت(٤٩) الرسائل على ديوانه من مشرق البلاد ومغربها ، كلها خضوع وتهنئة له على حزمه وثباته فى موقف ذلك المعترك ، حتى أن لورد كرومر لما دخل قصر الإمارة يوم ثامن يناير لم يكد يخلص إلى باب الأمير من كثرة الجموع المحتشدة فى رحاب القصر من الوفود والأعيان ، ووجهاء البلاد والأجانب والنزلاء . ولما كان يوم الجمعة التالى وقد ركب الأمير فى موكبه للصلوة ، إحتشد الناس وطلبة المدارس حول عربته وجعلوا يصيحون (ليحيا الأمير ليسقط أصحاب الإحتلال) ، وسار جماعة منهم إلى محل أصحاب جريدة المقطم(٥٠) المأجورة إلى أولئك الإنجليز ، ونادوا بالويل والحرب عليهم . ولما كانت ليلة الأحد أقبل الأمير على المرسح الخديوى المعروف (ب أوبرا) لحضور تشخيص إحدى الروايات الكبرى ، فما هو أن رآه المتفرجون

(٤٧) غلادستون = جلادستون Gladstone ـ راجع حاشية ٧٠ ص ٦٥ .

(٤٨) عرض = معرض .

(٤٩) وأقبلت = أقبلت .

(٥٠) جريدة المقطم = صحيفة يومية سياسية أنشأها يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس فى ١٨٨٨/٤/٢٩ بإيعاز من المعتمد البريطانى لتكون متحدثاً باسم المصالح البريطانية فى مصر وتحت رعايتها ـ نالت حظوة سلطات الإحتلال وأمنت تعرض السلطات المصرية لها لتمتعها بحماية المعتمد البريطانى ـ وبلغ من نفوذها فى دوائر الحكومة أنها استطاعت أن تنشر بعض الأحكام القضائية قبل النطق بها بعدة أيام ـ كما أنها كانت تدافع عن أصدقاء الإنجليز المصريين كمصطفى فهمى باشا ـ وقد هاجمها طلاب المدارس المتظاهرين فى ٢٠ يناير ١٨٩٣ تأييداً للخديو عباس حلمى لموقفه من المعتمد البريطانى أثناء أزمة النظارة الفهمية يناير ١٨٩٣ .
ـ إنظر إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٠ ـ ١٦٥ .

حتى وقفوا جميعا إجلالا ، وقابلوه بالتصفيق والتهليل وصدحت الموسيقى بسلامه أربع ، بين التصفيق والهتاف ، وكان المرسح غاصا بالحضور من أهل البلاد والأجانب على إختلافهم ، وليس بينهم من جماعة الإنجليز إلا النذر القليل من أهل المراتب وأصحاب الخطط ، فزاد هذا الإجلال لورد كرومر علما بشعائر الأجانب من نحو الأمير بعد أن عرف شعائر أهل البلاد من قبل .

ولقد كان من هذا الإحتفال وتلك الشعائر أن زاد غيظ الإنجليز ، وحرك حفايظهم ، وليس من ينكر أنهم كانوا يعرفون أنهم أساؤا السيرة فى العشر سنوات التى مضت ، ولكنهم لم يكونوا يحسبون أن القوم يجرأون على أن يكشفوا لهم عن وجوه البغض والحسد إلى هذا الحد ، وقد (جنت على نفسها براقش) لأنهم إندفعوا وراء تيار الكهرباء والحدة إلى أكثر مما يسمح به العقل السليم ، حتى صاروا فى حاجة إلى القوة واستعمال القسوة حتى يتمكنون من الخروج من ذلك الموقف المخيف . ولا خفى أن الإحتلال فى مصر ، أمر كان بإشارة أصحاب السياسة الإنجليزية لمقتضايات[٥١] وأحوال كانت فى ذلك العهد . غير أن بعوث الإنجليز ووفودهم الذين توركوا فى المناصب العالية فى ديار مصر لايرون هذا الرأى ، بل يقولون أن الإحتلال لم يكن إلا لجاههم ، وأن الغاية منه حفظهم فى مناصبهم وجماكيهم وعلوفاتهم[٥٢] ، حتى سقطوا هذه السقطة الشائنة ، ففزعوا إلى رجالاتهم وأصحاب سياستهم فى سد هذه الفرجة

---

(٥١) لمقتضايات = لمقتضيات .

(٥٢) العلوفة كلمة عربية تعنى المواد الغذائية اللازمة للإنسان والحيوان ـ وتعنى كذلك الراتب فى الإدارة العثمانية سواء للعسكريين أو المدنيين .
كانت العلوفة تحسب على أساس الأجر اليومى ، وتعطى لرجال أوجاف الإنكشارية مرة كل ثلاثة أشهر هجرية .
جمعها (علائف) و(علوفات) ـ أما الجماكى فمفردها جامكية . من (جامه) الفارسية بمعنى اللباس ـ فى الإصطلاح هى الجراية أو الراتب الشهرى .
ـ إنظر أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٥٢ ، ٥٩ .

المزريه . وبعد أن كانوا يقولون بالأمس أن حب المصريين لأميرهم من علائم الوطنية والإخلاص أصبحوا وهم يقولون اليوم أنه من دليل الهرج والثورة ، وأنه قد أعاد أيام الفتنة العرابية ، فأقاموا الجنود فى المعسكرات وأرسلوا الطائف والحراس يجولون الشوارع والطرقات فى الليل والنهار ، وأنزلوا فريق(٥٣) من جند قلعة الجبل لحراسة مرسح (الأوبرا) فى تلك الليلة ، ليمنع من حدوث ماتوهموه أن يحدث ولا أصل له ، وأصبحت الفنادق ومنازل السائحين لا تفتح على من بها خوفا ورهبة ، وبقيت شركة بواخر كوك(٥٤) ـ الإنجليزية لا تأتى بأحد من السواح لخوفهم من شئ يحدث . وسيروا فى طلب النجدة لجند الإحتلال ، وصاحوا صيحة الخوف والوجل . فلما سمع صاحب السياسة الإنجليزية هذه الصيحة وقد أصر عليها أذنه ، سكن ريحهم وزال عنهم ذلك الرعب كأن ذلك المدد القادم قد محا الفتنة قبل قيامها ، وقبل أن تطأ أقدامه أرض الفراعنة . قال وعندنا أن طلب هذا المدد وإن كان قد حرك خواطر بعض القوم فى الخارج ، فإنه لم يفعل من ذلك شىء بديار مصر ، لأن أهل الحل والعقد فيها يعرفون أن أصحاب سياسة الإنجليز لا يجسرون على عمل هذا مرضاة لشعبهم . وقد اتفق أثناء ذلك أن بعض العساكر الإنجليزية فى البحر الأحمر كانوا قادمين من الهند ، وقد مر مثلهم من مالطة ، فجاء الأمر إلى كبارهم بأن ينزلوا القادمين من الهند فى الإسماعيليه ، والقادمين من مالطا فى الإسكندرية ، فكان ذلك سرورا لهؤلاء الجند ، إذ عرفوا أنهم سيقضون شتاهم تلك فى أحسن بلاد الله وأعدلها هواء وأرقها إهلا . ولما كانت قلوب سائر المصريين ملأ(٥٥) بالفرح بأميرهم ، لم تتحرك لمقدم هؤلاء الجند حفايظهم ولا أظهروا لهم عبوسة ولا جفاء ، سيما

---

(٥٣) فريق = فريقاً .

(٥٤) شركة بواخر كوك = شركة تأسست عام ١٨٤١ بواسطة تاجر إنجليزى (توماس كوك Thomas Cook ١٨٠٨ ـ ١٨٩٢) بهدف تنظيم رحلات إقتصادية . تطورت الشركة بواسطة إبنه جون ماسون كوك John Mason Cook الذى تولى إدارتها عام ١٨٩٢ ، ونظم رحلات وخدمات سياحية حول العالم .

أنظر -Larousse Universel - Paris - librairie Larousse - 1922 - P. 521

-lexicon Universal Encyclopedia. vol 19 - P. 252

(٥٥) ملأ = ملأى .

وأنهم أعلم الناس بأن زيادة خمسمائة مقاتل على جيش الإحتلال أو نقص مثلهم منه لا يغير من سياسة البلاد واحتلالها ، وأن الناس طرأ[٥٦] يرجون أن يكون هذا الحادث حدا للسياسة السابقة ، وبداية لسياسة جديدة رشيدة ، تكون عقباها الإنجلاء عن البلاد ١ .هـ .

أقول وجعل الرئيس (مصطفى رياض) باشا يتصرف فيما أعرض عنه جماعة الإنجليز منها[٥٧] شئون وزارة الداخلية ، وقد رجع هواه بنفسه إلى شأنها لعهد رئاسته السالفة ، فاهتم بصغائر الأمور ، وشدد على المديرين والمحافظين ، وأصحاب الخطط بالسهر على أداء وظايفهم حقها ، والإقلاع عما ألفوه من الراحة والدعة لعهد رئاسته[٥٨] السلف[٥٩] ، والغض من أصحاب الصحف الذين اتخذوا من تقربهم من مجالس الحكام رزقا حراما . ومال بالتقريع على بعض رجاء[٦٠]-القضاء الأهلى ورؤساء النيابات لأمور أسرها ففى[٦١] نفسه يوم كان لا سلطة له إلا على داره ومزرعته ومن فيها من الوضعاء والمرتزقة ، وناهض أحمد شكرى[٦٢] باشا وكيل وزارة الداخلية ، يريد تخليه

---

(٥٦) طرأ = طرا .

(٥٧) منها = من قراءة ترجيحية .

(٥٨) رآسته = رآسة .

(٥٩) السلف = يقصد نظارة سلفه مصطفى باشا فهمى .

(٦٠) رجاء = رجال .

(٦١) ففى = فى .

(٦٢)أحمد شكرى باشا = أحد كبار رجال الإدارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ـ كان مديراً لأسيوط فى الثمانينيات وانضم إلى (نوبار) رئيس النظار (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩ يونيو ١٨٨٨) فى صراعه مع المعتمد البريطانى حول قضية السيطرة على جهاز البوليس ـ عمل وكيلا لنظارة الداخلية فى عهد نظارة مصطفى فهمى باشا (١٤ مايو ١٨٩١ ـ ١٥ يناير ١٨٩٣) . تعرض لنقمة مصطفى رياض باشا رئيس النظار (١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ ابريل ١٨٩٤) لتساهله مع الإنجليز فى محاولاتهم السيطرة على جهاز البوليس والإدارة ، فنقله فى ١١ مارس ١٨٩٣ محافظا لعموم القنال وعين إبنه (محمود باشا رياض) وكيلا للداخلية بدلا منه . فى أعقاب (أزمة الحدود ـ يناير ١٨٩٤) وفصل محمد ماهر باشا وكيل نظارة الحربية من منصبه عين محافظاً للقنال بدلاً من أحمد شكرى باشا الذى أحيل إلى المعاش كطلبه فى ١٨٩٤/٢/١٢ . مع تولى نوبار باشا النظارة (١٥ إبريل ١٨٩٤ ـ ١٢ نوفمبر ١٨٩٥) أقيل (محمود باشا رياض) من منصبه كوكيل للداخلية واستدعى (احمد شكرى) لتولى منصبه بدلا منه فى الحال . وفى ١٥ نوفمبر ١٨٩٤ أحيل إلى المعاش وتولى وكالة الداخلية إبراهيم باشا نجيب بدلاً منه .

ـ إنظر (مذكرات محمد فريد القسم الأول تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢١ .

ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٧٠ .

عن منصب الوكالة لولده (محمود باشا) . وقد ذهب مع الأغراض والحقود ، ومازال حتى أقصاه إلى بورسعيد وولاه محافظتها ، فسار إليها مقهورا . وجاء (محمود باشا) فتولى الوكالة وجعل يتصرف فيما بقى لأبيه فى تلك الوزارة من السلطة . أخبرنى صديق من أصحاب الوظائف بها أنه لما دانت الرئاسة للرئيس (مصطفى رياض) باشا رأى أن يفرغ إلى ولده (محمود) مسندا يطيب له فيه المقام بالقاهرة ، حيث كان مبعدا عنها فى بورسعيد ، وهو ممن حصل لهم ترف الحياة ونعيمها ، واستحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا ، حتى واصلوا الليل بالنهار فى القيام بشؤنها وعوائد أحوالها ، فكشف إلى (أحمد شكرى باشا) وجه المغاضبة ، فكان إذا أتى عملا صالحا فى منصبه عابه وانحنى[٦٣] عليه بلا لائمة[٦٤] ، وإن تغافل وترك حبلها على غاربها قرعه وأشبعه من قارص الكلام ، والرجل صابورا[٦٥] عاقلا ساكن القلب كأنه قد من حديد . وكان أصحاب الوظائف من الإنجليز بوزارة الداخلية يحبونه ويفضلونه على غيره ، ويدفعون عنه إيذاء الرئيس ما استطاعوا ، فلم يغن عملهم شيئا وظفر الرئيس ببغيته ، واستمال الأمير إلى استبداله بولده (محمود) . فلما كان أحد الأيام دخل محمود ومعه بعض زعانف الموظفيين على (أحمد شكرى باشا) وهو على كرسى الوكالة ، وجلس أمامه بلا حشمة ولا وقار ، ثم التفت إليه وقال (ما بال الباشا لم يترك لنا كرسيه وقد تبوأناه منذ الساعة؟) فقال أحمد شكرى باشا (إنى لا أعلم شيئا مما تقول ، ومع ذلك بارك الله لك فيه) . ثم جمع أوراقه وذهب إلى داره واحتجب عن الناس . فما هو إلا بعض ذلك اليوم حتى جاءه الأمر بالذهاب إلى بور سعيد ليتولى محافظتها ، فأذعن كارها وسار إلى بورسعيد ولم يأخذ شيئا معه سوى بعض الثياب وخادما لخدمته . فأكبر أهل الرأى

---

(٦٣) وانحنى = وأنحى .

(٦٤) بلا لائمة = باللائمة .

(٦٥) صابوراً = صابراً ـ قراءة ترجيحية .

ذلك ، وعابوا على الرئيس تطاوله . قال بعضهم ولا خفاك أن أفضل الرؤساء من كان شكره بين الناس ، لكل واحد منهم فيه قسطه ، ليس أحدا أحق به من أحد ، وقد عرفنا من هذا الرئيس الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء ، وإن أحسنت لم يحمدك ، وإن أسأت أذاقك مر العذاب . ولقد كان أهل التفطن يقولون أنه إذا عادت اليه الرئاسة ثالثة فجليق به أن يعود نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوى النصيحة ، والتجرع لمرارة قول الحق ، ولا ينبغى أن يطلق لنفسه عنان هواها ، ولا أن يكون سريع الغضب ، لأن الغضب مع القدرة على المغضوب عليه لقاح الشر والندامة ، وقد اتصل به حديث رئاسته التى سلفت ، وكيف كانت أيامها غبراء كلها خطوب وكروب ، وكيف كان آخرها الهرج وخروج الخوارج عن طاعة أمير البلاد . ثم كان ما كان من إحتلال الإنجليز للبلاد وتصريفهم أحكامها طوّع أغراضهم ، فى رجالها ، وجبايتها ، وأهل خططها ، وسائر نقضها وإبرامها ، وامتطائهم صهوة التغلب على كل شئ . وها هو منتضى برأس مأذنة جامع قلعة الجبل ، وعساكرهم تشق فى حدف البلاد صعدا وهبوطا ، وسفن حربهم تمخر بمدافعها أمام الإسكندرية وبور سعيد والسويس ذهابا وإيابا ، وغير ذلك من آثار أعمالهم التى جاوزت أخبارها حدود القاصية من الممالك . يرى كل هذا بعينه ويسمع حديثه بأذنيه ، وهو ذلك الفخور المختال الذى لايرضيه إلا أن يكون متبوع الرأى مسموع القول موطأ العقب ، ولا حول ولا قوة إلا[٦٦] بالله أ.هـ .

قلت فلما رأى الأمير من الرئيس (مصطفى رياض) باشا شيئا من التطرف فى التافه اليسير ، مما لم يحفل به جماعة الانجليز من شئون البلاد

---

(٦٦) يكشف الكاتب عن كره عميق لمصطفى رياض باشا رئيس النظار ، وينتقد سياساته فى إدارة البلاد ، ويأخذ عليه قصر نظره ورعونته ، ويحمله مسئولية الثورة العرابية التى جرت فى عهد نظارته الأولى (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) بسبب سوء تصرفه وحمقه ، كما يتهمه بمحاباة أقاربه وتعيينهم فى المناصب الكبرى .

الاقتصادية، وقد كانوا أعرضوا عنه مواربة وتضليلا ، لم يعجبه ذلك ، قيل وكلم الرئيس بوجوب التأنى وعدم العجلة ، وحزره[٦٧] من العاقبة ، ثم تركه . واتفق أن تخلف بعض الوزراء عن الحضور الى قصر الإمارة فى الاوقات المعتاد ذهابهم فيها مع الرئيس . فكلم[٦٨] الناس فى ذلك وقالوا ، قد رجع الرئيس إلى ماضى أعماله مع الأمير إسترضاءا لعميد الاحتلال- لورد كرومر والتقرب منه زلفا ، وأنه لايلبث الحال على ذلك طويلا حتى تتحرج الصدور وتتقلب الأمور انقلابتها الماضية . وقد زادت هذه الظنون بتقرب المشير (مختار) باشا من الأمير ، وتردداه الكثير على قصر الإمارة ، وملازمة الأمير فى كثير من الحفلات الرسمية . وشاع الخبر بوصول طايفة من العساكر الإنجليزية الى ثغر الإسكندرية ، فكادت تقوى الظنون باشتداد الأزمة ، وإندفاع لورد كرومر فى غلوائه ووعيده وتهديده لمقام الإمارة . فقد كان لما اشتد مرض الرئيس(مصطفى فهمى) باشا وكبرت علته ، وأيس الخديوى من شفائه ، ورسم بولاية (فخرى) باشا ، فقامت قيامة العداء بين الأمير ولورد كرومر كما مر بيانه فى حينه . وكان كرومر إلى ذلك العهد صاحب القول الفصل والكلمة السرعة[٦٩] فوق كل كلمة . لم يطق الصبر يومئذ على مابدى[٧٠] من الأمير ، وسير كتبه إلى صاحب السياسة الإنجليزية بأن عجلوا بإرسال الجند مددا للمرابطين ، فقد ظهرت حركة يراد بها قلب كل النظام الذى أحدثه الإحتلال الإنجليزى ، وأن إقدام الأمير على خلع مصطفى باشا فهمى سيترتب عليه تغيير حالة موظفى الإنجليز بالخديويه المصرية والحكومة الإنجليزية ، وينشأ عنه اضطراب . وطلب بشدة من صاحب سياستهم إنذار الأمير بما جاء فى مذكرة

---

(٦٧) وحزره = وحذره .
(٦٨) تكلم = فتكلم .
(٦٩) السرعة = المشرعة ـ قراءة ترجيحية .
(٧٠) بدى = بدا .

اللور[٧١] جرانفل ناظر الخارجية الإنجليزية الذى تم دخول الإنجليز فى مصر على يديه على عهد الخديوى توفيق ، وهى (ينبغى أن بين لكم جليا - يعنى للخديوى توفيق - إن المسائل المهمة التى فيها خطر على إدارة مصر وسكانها ، لابد لإنجلترا مادامت جيوشها محتلة مصر وقتيا ، أن يرجع فيها إلى مشورتها بعد أن تتملاها الحكومة المصرية نظرا واعتبارا ، واعلم الوزراء المصريين والمحافظين والمديرين أن إنجلترا مضطرة لقبول هذا النظام مادامت مسئولة عن مصر . وأن الوزراء والحكام الذين لا يجرون فى مجراه يفصلون عن وظائفهم[٧٢]) أ .هـ .

---

(٧١) اللور = اللورد .

(٧٢) فى عهد نظارة شريف باشا الرابعة (٢١ أغسطس ١٨٨٢ ـ ١٠ يناير ١٨٨٤) ومع إتجاه الوجود البريطانى فى مصر إلى إخلاء السودان بعد تفشى الثورة المهدية فيه ـ تقدم (شريف) فى ٢ يناير ٨٨٤ بمقترحات فحواها الإصرار على الدفاع عن السودان ومقاومة الثورة المهدية وعدم إخلائه ـ فقد طلب إرسال عشرة آلاف جندى تركى إلى سواكن ـ وإبلاغ الباب العالى أن مصر قد قررت إرجاع إدارة سواحل البحر الأحمر وشرق السودان إلى الدولة ـ وأن تقوم مصر بإعداد جيش قوامه ١٥,٠٠٠ جندى للسيطرة على مناطق نهر النيل الممتدة حتى الخرطوم لحماية الأراضى المصرية . لكن بريطانيا اعترضت على مقترحات (شريف) حيث كانت تعتقد بعجز مصر عن الدفاع عن الخرطوم فى ذلك الوقت ، كما أنها كانت ترفض عودة الوجود العثمانى إلى شرقى السودان مع ما يصاحبه هذا الوجود من تزايد النفود العثمانى فى البحر الأحمر الذى كانت ترغب فى الإنفراد بالسيطرة على مياهه وخاصة بعد فتح قناة السويس .

فى تلك الظروف بعث اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا بتبليغه الشهير إلى (شريف) فى ٤ يناير ١٨٨٤ وفيه قال «لا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم أنه من الواجب ، مادام الإحتلال البريطانى المؤقت قائماً فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة إتباع النصائح التى ترى إسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على إتباع السياسة التى تراها . ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لايسير وفقاً لهذه السياسة . وإن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين ، سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة»

وقد تبع ذلك إستقالة شريف فى ٧ يناير ١٨٨٤ ليحل محله (نوبار) الذى وافق على تشكيل النظارة على أساس قبول النصيحة البريطانية لإخلاء السودان .

ـ انظر يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٧ .

فجاء الأمر إلى لورد كرومر بتبليغ هذا الكلام إلى الأمير ، فأبلغه إياه ، فلم يبد استغرابا ولا أظهر لينا ، بل شدد يومئذ فى الطلب ، وأصر على خلع مصطفى فهمى باشا . وكأنه كان يعرف أن هاته العادة هى عصاة كرومر التى يتوكأ عليها ، وله فيها المآرب الأخرى . فبسير لورد كرومر إلى صاحب سياستهم يقول (سلمت نسخة من أمركم إلى الخديوى ، وأخبرته أنه إذا رضى إرجاع الرئيس (مصطفى فهمى) باشا إلى منصبه ، فلا أعترض على تغيير وزيرى المالية والحقانية ، وإلا تركت حكومة الملكة وشأنها مع الوزراء الجدد) . قال (وقلت له إنى لا أرى تكليفه بمجاوبتى على الفور ، بل أدع الجواب إلى الصباح إذا لم يدعنى هو قبل ذلك) . قال (ومن قولى له أيضا) أن وقت التسليم لم يفت ، وأنى أرجو بإلحاح أنه يرضخ لقولى ، وإلا تجسم الأمر وتضخم ، فلم يجبنى بشئ أعرف منه مايمكن التعويل عليه فى جوابه . قال وقد علمت من أوثق المصادر وأصحها أنه أن أفلح الخديوى فى عمله هذا اليوم ، كانت خطوته الثانية فى خلع جميع الموظفين الإنجليز الذين هم فى خدمة الحكومة المصرية) . فجاءه الجواب أن (شدد فى الطلب ، وقل للأمير إذا أبى الجرى على مشورتكم أنه يتحمل تبعة عمله العظيمة ، ويكون مسئولا عن كل مايحدث) . ففعل ولم يلتفت الأمير إلى شئ من ذلك ، وقال لايصح إرجاع (مصدفى[٧٣] فهمى) باشا قط ، ولا العدول عن هذا العزم جملة . فلما أبلغ لورد كرومر صاحب سياستهم خبر ذلك ، هاله الأمر وأرسل إلى كرومر يقول (قل للأمير أن حكومة جلالة الملكة تقبل عزمه ، على أن تكون حالاته معها ودية على الدوام كنهاية للمسألة وأن سلامة حاكمته[٧٤] قد سببت سرور حكومة جلالة الملكة) قال (وعلى كل حال فإننا سنستعد لحادث كهذا قد يتجدد فى مستقبل الأيام) . وعادت دولة الفرنسيس إلى جعجعتها فى مثل هذه الظروف ،

---

(٧٣) مصدفى = مصطفى .

(٧٤) حاكمته = حكمته .

فأوعزت إلى سفيرها فى عاصمة الإنجليز بأن يقيم الحجة الشديدة على عمل لور[٧٥] كرومر مع الخديوى ، وأن إشتداده على الخديوى قد أحرج صدره ، وأنه لولا ذلك ما كان الأمير يأتى تغييرا فى وزرائه رغما عن الدولة الإنجليزية ، على أن هذه الفعال وتلك الشدة المبالغة لامثيل لها فى سابق تاريخ الإحتلال ، ولعل الدول كافة تعتبره كما تعتبره دولة الفرنسيس عملا مستحدثا لضم مصر إلى الأملاك الإنجليزية ، مما يخشى من عقباه . فأجابه صاحب سياسة الإنجليز بأن الإشتداد قد حصل ، ولكنه من جانب الخديوى الذى عجل بتغيير وزارته بلا إعلام ولا استشارة ، واختار لها رئيسا رجلا لا يوافق الظروف مطلقا ، على أنه إذا أطلقت للخديوى الحرية فى تعيين من يريد ، فتح بذلك بابا لمثل الخلل الذى كان على عهد جده إسماعيل . أما القول بأن العمل لم يسبق له مثيل فهو كذلك ولكن من جانب الخديوى ، فإن المرحوم والده كان لا يأتى نقضا ولا إبراما إلا بمشورة حكومة جلالة الملكة . وأما القول باشتداد لور[٧٦] كرومر وغلظته ، فإنى لم أفهم مالذى يقصده به ، لأن الخديوى قد اختار لرئاسة وزرائه رجلا لا يمكن قبوله فاقيمة[٧٧] الحجة عليه .

رأى لورد كرومر أن قد غلبه الأمير على أمره ، ورأى أن الجرائد العربية وبعض الجرائد الأجنبية ، ولا سيما منها الفرنسية قد أنحت عليه باللائمة وقبحت فعاله ، وأن جماعة من الشبان وآخرون من أواسط القوم جعلوا يسخرون به إذا مر فى الطرق ، ويسمعونه قارص الكلام حتى لقد علقوا رسمه على بعض جدران المجتمعات العمومية بأشكال الهزؤ والسخرية ، فهاله هذا الأمر وأزعجه جدا ، وسير إلى صاحب سياستهم يقول (لا أزال خائفا من الحالة هنا ، فقد حدث أمس مظاهرة للخديوى تتهدد الأمن والنظام ، وإن الجرائد الإسلامية

(٧٥) لور = لورد .
(٧٦) لور = لورد .
(٧٧) فاقيمة = فأقيمت .

شديدة التعنيف والملائمة علينا ، فلهذا أرى مع القانه وكبر[٧٨] قائد جيش الإحتلال أن حاميتنا غير كافية ، وأن لابد من إعلامكم بالحاجة إلى زيادتها) . فأجابه على الفور (هل أنتم تخشون إضطرابا وخللا بالأمن العام؟ وهل قائد الحامية مستعدا ليكون مسئولا عن سلامة الحامية) فأجاب بأن لابد من الزيادة على كل حال . فجاءه الخبر من يومه بأن قد تقرر زيادة الحامية بتاتا فواصلونا بالأخبار أ . هـ فما هى إلا أيام حتى قدمت تلك الزيادة على ظهور الشوانى الكبار ، ونزل بعضها برأى الشين[٧٩] وبعضها (بمحلة مصطفى باشا) برمل الإسكندرية ، وبعضها بقلعة القاهرة ، فلم يحفل الناس بها ولا حسبوا لمجيئها حسابا . واهتم الوزراء بتقرير النفقة اللازمة لذلك ، فكانوا فى تقديرها على خلاف إذ كان بعضهم يرى عدم تكليف الخزانة بها ما دامت البلاد آمنة مطمئنة لا خوف عليها ولا هى من الإضطراب والخلل فى شىء ، وبعضهم كان يرى أن الإباء مجلبة للجلبة والضوضاء ، وأن لا بد من سد هاته الفرجة من جانب الدولة الإنجليزية . وبعد أخذ ورد تقررت تلك الزيادة وأضيف إلى ما قبلها من النفقة ، وفاز لورد كرومر بعض الفوز أو كله ، فجعلت العساكر تطوف بالشوارع زمرا وتجلس فى الحانات على مرأى من الناس وتتسابق إلى مكان الريب والفجور بلا خشة[٨٠] ولا خجل . فكان العامة والسوقة يوسعونهم سبا وشتما وهم لا يلتفتون إلى ذلك البتة .

وعندى أن الأمير ما كان ليعاكس الإنجليز فى عمل من أعماله حتى وفى تنزيل مصطفى فهمى باشا من حلق مجده لولا أن لورد كرومر حمل عمله محل العداء منه عليه وخاصمه ، فخاصمه وشدد فى تنفيذ رأيه . ولو كان كرومر أو بالحري جماعة الإنجليز فى مصر يصلحون من حقه الإصلاح ، ويقومون العوج

(٧٨) القانه وكبر قائد = القادة وضباط .
(٧٩) برأى الشين = برأس التين .
(٨٠)خشة = خشية .

منهم ، ويعاملون أهل البلاد بالتى هى أحسن ، فلا يعدون عليهم أنفاسهم المصرية ذنوبا ، لمالوا إليهم بقلوبهم ، ومدحوهم بألسنتهم ، وأغضوا عن عيوبهم ، وغفروا سيئاتهم المتراكم بعضها فوق بعض ، وجرت الأمور بين الفريقين على سنن المحاسنة ، وانقطعت أسباب المغاضبة ، ولكن أنى لهم ذلك والقوم الإنجليز الذين بيدهم مقاليد سائر الأمور غلاظ القلوب جفاة الطباع لا يعرفون من سنن المناصب التى قلدهم إياها لورد كرومر سوى التخضع إليه وملازمة ركابه ولقاء أهل البلاد بأنوف شامخة ووجودة[٨١] مقطبة ، لأنهم من طينة مصرية . ومما أهاج العداء يومئذ بين الفرنقين[٨٢] نداء أصحاب صحف الإنجليز بضم البلاد إلى أملاكهم جملة والتخلص من مماحكات الدول التى أثقلت ظهورهم ، ومعاكسات الأمير التى أحرجتهم وأوغرت صدورهم . وظلو على هذا الصياح والجلبة حينا حتى ظن الناس أن الأمر واقع لا محالة وأن الخلاص من ذلك اليوم عسير . قلت . والتبجح بضم البلاد إلى أملاكهم أمر متفشى بين أهل الحل والعقد منهم منذ تسلط جندهم على الهند ، وأخذهم بأعناق أهلها كما مر بك بيان ذلك فى محله . ولم تكن صيحة أصحاب صحفهم اليوم بالأولى فى بابها ولا هى بالنغمة المستحدثة فى نوعها . فقد سئل (لورد كولى) أحد أقطاب ساستهم عام تسع وخمسين وثمنمائة وألف للميلاد (الشيخ غلاد ستون) عن رأيه فى ضم مصر إلى أملاكهم الإنجليزية ، وعما إذا كان قد حان الوقت لاستخلاصها من مخالب الترك فقال (لا حاجة بنا إلى مصر وما نحن فيها إلا كرجل ذى عقار له أرض فى طرف البلاد وأرض فى آخرها ، فلا يضطره ذلك العقار إلى شراء كل ما بينهما من الأراضى ، بل يكفيه له طريق مأمون وسكان مسالمين) وقد سأله (لورد كلارندون) عام ستة وخمسين وثمنمائة وألف للميلاد رأيه فى هذا الصدد أيضا

(٨١) ووجوده = ووجوه .
(٨٢) الفرنقين = الفريقين .

فقال (كيف يمكن لدولتى الإنجليز والفرنسيس اللتين ضمنتا للسلطان أملاك[٨٣] والذب عنها ، أن ترجعا الآن فتأخذا مصر منه قسرا ، بل هما إذا فعلتا ذلك حركتا العالم بأسره ، وكان الأمر شؤما على كل هيئة من هيئات الحكومات الإنجليزية التى تقدم على فعله) أ . هـ وقد أحتدم الأخذ والرد فى هذه الآونة أيضا فى دار الندوة الإنجليزية ، وقام فريق من المتطرفين ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور على أصحاب الحل والعقد ويرميهم بالتهم الشنيعة ويلصق بهم وصمة خلف العهود ونكث الوعود وعقد النية على ضم مصر إلى المملكة الإنجليزية ، والتشنيع على لورد كرومر وتقبيح تصرفه مع الأمير وتجاوزه حدود اللياقة والتأدب اللذين هما أول واجب على من يتولى زعامة الإحتلال فى أرض الفراعنة . فاضطربت الأحوال عند ذلك وجعل أهل الحل والعقد يهونون الأمور على أولئك الناقمون ــ ويقلبون الحقائق ويدافعون عن سياستهم فى مصر ويمتدحون من سياسة لورد كرومر وأصحاب الخطط والمانصب[٨٤] من الإنجليز الذين معه ، حتى لقد قال (لابوشير) الذى يعدونه ثانى الأمراء بعد شيخهم غلادستون فى مجلس أعيانهم[٨٥] أن العمل بمنشور لور[٨٦] غرانفل الذى مر بك ذكره أمر واجب وضربة لازب بعد أن أصبح الأمير وسائر المصريين لا يطيقون الصبر على إحتلالنا للبلاد ، ويعملون على الروق[٨٧] من رقابتنا حتى لقد هبوا يتشبهون بالأمير لاند يين[٨٨] فى طلب الإستقلال

---

(٨٣) املاك = أملاكه .

(٨٤) المانصب = المناصب .

(٨٥) مجلس اعيانهم = مجلس اللوردات House of lords .

(٨٦) لور = لورد .

(٨٧) الروق = المروق .

(٨٨) بالاميرلانديين = بالأيرلنديين ــ أيرلندا هى ثانى أكبر جزيرة فى الجزر البريطانية ــ تقع غرب جزيرة بريطانيا العظمى Great Britain ، ويفصلها عنها القنال الشمالى North Channel ، البحر الأيرلندى Irish sea وقناة سان جورج St. George Channel . تنقسم سياسياً إلى أيرلندا الشمالية ، وجمهورية أيرلندا . أسست القبائل الكلتية Celtic حضارة متميزة فى أيرلندا القديمة . فى القرن الثامن غزا النورديون Norsemen المنطقة وظلوا بها حتى شتتهم الملك الأيرلندى بريان بورو Brian Boru عام ١٠١٤ ــ ظلت أيرلندا حرة من التدخل الأجنبى لمدة ١٥٠ عام حتى منحها البابا إدريان الربع VI Pope Adrian (؟١١٥ ــ سبتمبر ١١٥٩) إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا (١١٥٤ ــ ١١٨٩) فى=

الداخلى والتخلص منا ما استطاعوا . فحذار حذار وبدار إلى الحيطة والتأهب

= القرن الثانى عشر ـ خالقا بذلك صراعاً أنجلو ـ أيرلندى لمدة ثمانمائة عام . بدأ التنافس الدينى المرير بين الكاثوليك الأيرلنديين والبروتستانت فى القرن السادس عشر بعد محاولة إنجلترا فرض البروتستانتية على أيرلندا الكاثوليكية . هب الثوار الأيرلنديون مراراً فى عهد هنرى الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) ، واليزابيث الأولى (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) ، وأوليفر كرومويل Oliver Cromwell (١٦٤٩ ـ ١٦٥٨) . فى عام ١٨٠٠ صدر قانون الاتحاد The Act of union الذى وحد بين إنجلترا وأيرلندا ـ وترتب على ذلك إلغاء البرلمان الأيرلندى ومثلت أيرلندا فى البرلمان البريطانى . ترتب على عمليات التهييج التى قام بها الزعيم الأيرلندى دانيال أوكونيل Daniel O'connel تمرير قانون التسامح الكاثوليكى Cotholic Emancipation Act فى عام ١٨٢٩ . لكن التطورات السياسية تضاءلت أمام مجاعة البطاطس الكبرى (١٨٤٥ ـ ١٨٤٩) Great Potato Famine التى مات خلالها أكثر من مليون من الجوع والأوبئة وهاجر بسببها حوالى مليون وستمائة ألف أيرلندى إلى الولايات المتحدة الأمريكية . لكن رغبة الأيرلنديين فى السيادة الداخلية ظلت قائمة بإصرار .

فى سبعينيات القرن التاسع عشر قامت حركة وطنية بزعامة شارلز ستيوارت بارنل Charles Stewart Parnell مطالبة بالحكم الذاتى ـ برلمان منفصل فى ظل الوحدة ـ إصلاح زراعى . نجحت هذه الحركة فى كسب كل مقعد برلمانى له أغلبية كاثوليكية . أعطت هذه الكتلة الصلبة من أصوات الناخبين (بارنل) وخليفته جون ردموند John Redmond نفوذاً ضخماً فى السياسة البريطانية بينما لم يستطع أى حزب بريطانى أن يفوز بأغلبية واضحة فى مجلس العموم . منذ تسعينيات القرن التاسع عشر عبرت القومية عن نفسها فى نهضة أيرلندية أدبية تمثلت فى أعمال الشاعر ويليام بتلر ييتس William Butler yeats والكاتب الروائى شين أوكيزى Sean O'casey وجون ميلينجتون سينج John Millington Synge ، وأنتج هذا فى النهاية حركة شين فين Sinn Fein السياسية التى أسسها أرثر جريفيث Arthur Griffith .

خلال السنوات المتأخرة من القرن التاسع عشر والسنوات المبكرة من القرن العشرين حاولت الحكومات البريطانية الليبرالية أن تعطى حكماً ذاتياً لأيرلندا أو إستقلال ذاتى أيرلندى Irish autonomy فى المسائل الداخلية .

كانت الحكومة البريطانية قد فرضت ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على أيرلندا قانون الاتحاد Act of Union ، الذى ألغى البرلمان الأيرلندى فى مقابل تمثيل أيرلندى فى البرلمان البريطانى . مع فشل حركة الإبطال Repeal Movement التى قادها دانيال أوكونيل Daniel O'connell خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر وبواكير أربعينياته ـ إتخذ التهييج من أجل إبقاء الحكم الذاتى الايرلندى شكلان : المطالبات باستقلال تام بتأثير وضغط جماعة الفين Fenians وفيما بعد بقيادة جماعة شين فين Sinn Fein ، ومطالبات أكثر إعتدالاً لحكم ذاتى فى إطار المملكة المتحدة . تأسس الحكم الذاتى لأيرلندا Home Rule for Ireland أو الحزب الوطنى Nationalist Party عام ١٨٧٠ بزعامة إسحاق بط Isaac Butt وتولى قيادته من ١٨٧٩ ـ ١٨٩١ الديناميكى شارلز ستيوارت بارنل Charles Stewart Parnell . تسيد هذا الحزب السياسة الأيرلندية بعد ١٨٨٤ ، عندما ساعدت ديمقراطية الحقوق الانتخابية Democratization of the Franchise ، فلاحيه وطبقته الدنيا الوسطى Lower - Middle - Class فى إنتخاب حوالى ٨٠٪ من أعضاء البرلمان فى إنتخابات متعاقبة . وعن طريق التوظيف الذكى للتعويق Obstructionism فى البرلمان ، والمدعوم بمظاهرات تحت السيطرة الحريصة ، والتهديدات باستخدام العنف فى الريف الأيرلندى ، وبدعم مالى من المهاجرين الأيرلنديين ـ الأمريكيين ـ عن طريق هذا كله نجح بارنل Parnell فى حث الحزب الليبرالى البريطانى على المصادقة على الحكم الذاتى . وفى عام ١٨٨٦ وعام ١٨٩٣ قدم رئيس الوزراء ويليام جلادستون William Gladstone عدة مقترحات غير ناجحة للحكم الذاتى . ومع هذا فقد قسم الموضوع الحزب الليبرالى ، وخلق معارضين للحكم الذاتى بما فى ذلك جوزيف شامبرلين Joseph Chamberlain ، وانضموا إلى حزب المحافظين كاتحاديون ليبراليون Liberal Unionists . =

بدار وإلا ساءت العاقبه وتعذر الخلاص . قال الراوى فما أنتم(٨٩) الرجل كلامه حتى أهتزت أكتاف الأعيان خوفا ونظر بعضهم إلى البعض نظرة الواجف ، ثم وافقوا على تسيير النجدة إلى عسكرهم بمصر ، وعلى إستحسان ما بدى(٩٠) من كرومر بحضرة الأمير ، واعتبار منشور لورد جرانفل تنزيل من عزيز حكيم ما دام الإحتلال فى مصر إذا لم يكن أبد الدهر ، وجاءت صحف أخبارهم بهذه الأنباء فأكبرها الناس وأعظموها جدا ، وأنحى أصحاب الصحف المحلية على صاحب السياسة الإنجليزية وكرومر وأوسعوهما وخزا وطعنا بقارص الكلام ، وكشفوا لكرومر عن كثير من الشوائن المزرية المعيبة ، حتى لقد قال بعضهم أن جماعة الإنجليز لمعذورين أو هم مغررون ، فقد خبرتهم(٩١) صاحب التيمس عن مخبرة(٩٢) الإنجليزى عن ضيعته المصرى عن هى بنابى قابض الارواح قليل(٩٣) الأفراح أن كرومر أثابه الله بين ظهرانى المصرين وأميرهم ، ومن فى مشرق البلاد ومغربها .

= فى ١٩١٢ قدمت حكومة هربرت أسكويث Herbrt Asquith الليبرالية ، التى احتاجت إلى الأصوات الأيرلندية من أجل البقاء فى الحكم ، قدمت قانوناً ثالثاً للحكم الذاتي . ولما كانت سلطة (الڤيتو) Veto فى مجلس اللوردات ـ والتى كانت قد عطلت قانون الحكم الذاتى عام ١٨٩٣ قد تقلصت ، فقد بدا أن تمرير القانون سيكون محققا . ومع هذا فقد استفز هذا عاصفة من الإحتجاج من البروتستنت فى إقليم أولستر Ulster الشمالى . ومع تسلحهم فقد بدوا على وشك أن يقوموا بعصيان مسلح . وعندما تم إصدار قانون الحكم الذاتى فى النهاية فى عام ١٩١٤ ، فإن أولستر استبعدت من شروطه . وفوق هذا فإن إعماله تأجل لمدة الحرب الأولى التى كانت قد قامت فى أغسطس ١٩١٤ .

مع نهاية الحرب خلف نفوذ الحزب الجمهورى شين فين Sinn Fein نفوذ نظيره (القومى) . ورفض برلمان شين فين الثورى (D'ail Eireann) قانون حكومة أيرلندا الصادر عام ١٩٢٠ والذى وفر الحكم الذاتى مع برلمانات منفصلة فى شمال وجنوب أيرلندا . وفى النهاية وقع ممثلو شين فين فى ديسمبر ١٩٢١ معاهدة أعطت جنوب أيرلندا إستقلالاً فعلياً باسم دولة أيرلندا الحرة Irish Free state .

ـ انظر Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 10. P , 212 - Vol. 11, PP., 261 - 265 -

The Concise Columbia Encyclopedia - Columbia University Press - New - york 1983 - PP., 416 - 417.

ـ هـ . أ . ل . فيشر (تاريخ أوروبا فى العصر الحديث (١٧٨٩ ـ ١٩٥٠) ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ـ ١٩٧٢ ـ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .

(٨٩) انتم = أتم .

(٩٠) بدى = بدا .

(٩١) خبرتهم = أخبرهم .

(٩٢) مخبرة = مخبره .

(٩٣) عن ضيعته المصرى عن هى بنابى قابض الأرواح قليل الأفراح = إستبعدت ليمكن فهم باقى النص .

أندى على الاكباد من قطر الندى .·. وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

فسبحان من بيده تصاريف الأمور .

قامت كل هذه الضجة بين أصحاب الصحف المحلية والإنجليزية ولورد كرومر لا يلوى على شيء ولا ينفك عن التقريع على الأمير والحط من كرامته لدى دول أوروبا عموما ودولة الإنجليز خصوصا . ولم يوقفه سقوط وزارة (سلسبورى) صاحب سياسة المحافظين وارتقاء غلادستون شيخ الأحرار مصة[٩٤] الحكم عند حد من الشمات والتونيب ، حتى لما سأله مراسل جريدة وستمنستر غازت الإنجليزية يوماً قالا[٩٥] وأنا ترى فى الثورة التى كادت تقع فى القاهرة ، ولم يكن أحد يعلم بها هلا كانت خطرا حقيقيا على الإحتلال؟ فقال له نعم كانت خطرا عظيماً ولكن قد بالغت الجرائد الإنجليزية فى أمرها وأخطأت معرفة حقيقة مركزها . فإن القول بأن القاهرة منشأ لها كان خطأ ، بل هى إذا نشأت كان مصدرها مدن الأرياف ومنها كان يجب أن يخشى على الأمن بالعاصمة ، وذلك لأن التعصب[٩٦] الدينى لا يزال أشد عوامل التهديد

(٩٤) مصة = منصة .

(٩٥) قالا وأنا = قائلا وما .

(٩٦) التعصب الدينى = كمنت مشكلة الإحتلال البريطانى ــ وبالتالى ممثله فى مصر (كرومر) فى عدم الفهم الصحيح لمسألة الوطنية المصرية . فمنذ الإحساس بالخطر الغربى على بلاد الإسلام فى القرن التاسع عشر ، ظهرت دعوة المصلح الإجتماعى (جمال الدين الأفغانى) فى التجمع الإسلامى ضد الهجمة الغربية . وتبلور هذا بعد ذلك فى جعل مصر قاعدة للشرق ومقراً للكفاح المقدس ضد الغرب المتهجم . ترجم الإنجليز هذا إلى أن الإسلام يريدها حرباً مقدسة ضد الغرب المسيحى بهدف الدفاع عن الإسلام ضد الغازى الكافر ــ وكان الفهم البريطانى للحركة الوطنية المصرية هى أنها : Within Certain segments of Egyptian Society, opposition to British rule and the goal of independence had to be couched in the religious idiom

«بين قطاعات معينة من المجتمع المصرى فإن معارضة الحكم البريطانى وهدف الاستقلال يجب أن يبطنا بلهجة دينية» . وهكذا فإن الإحتلال البريطانى كان ينظر إلى مشاعر المصريين تجاهه على أنها نوع من التعصب الدينى .

ويمكن قراءة هذا التصور الغير صحيح للقضية الوطنية فى كتابات Cromer فى (Modern Egypt)

- Peter Mansfield (The British in Egypt)

- Robert Tignor (Modernization and British Colonial Rule in Egypt - 1882 - 1914)

وأعمال أخرى .

فى مصر ويجب علينا أن نراقبه أشد المراقبة ، لأنه قد تصادفه أوقات لا يلبث أن يظهر فيها ، وفى مثل هذه الأوقات ينبغى السهر والإنتباه وأن يعلم الجميع أننا على أهبة وأستعداد ، وأخذون الإحتياطات الواقية ، وهو ما فعلناه فى هذه الآونة كما تعرف . فقال المراسل أيمكن أن يكون إتصال بين هذه الثورة التى كادت تظهر تقريبا وبين إرتقاء غلادستون منصة الأحكام؟ قال هذا لا مساحنه(٩٧) فيه لأن العرب يزعمون إلى(٩٨) هاجهم يكون أنجح فى خلافة غلادستون منه فى خلافة سلسبورى . أما نحن أصحاب السياسات فليس لنا أن نكون فى شىء من سياسة الأحزاب ، بل إن واجبنا أن نساعد على استمرار السياسة التى علينا أن نتبعها هنا ،والذى يقلقنا فى ذلك إنما هو سرعة الإنقلابات والمعاكسات ، ولكن ما دمنا عارفين ما يجب علينا فعله وعلى من ينبغى نعتمد فقل أننا قد عرفنا كل ما يجب عرفانه . فقال المراسل إذن أنتم راضون بغير شك لأنكم لا تجهلون الآن أنكم يؤيدكم أغلبية من حزب الأحرار فى كامل رغائبكم كما كانت تؤيدكم فيها أغلبية المحافظين . قال أثبت(٩٩) وإن أكبر مقوى لعزائمنا أن نرى الأمة الإنجليزية مهتمة أن تتبع سياسة وطنية فى الشئون الخارجية ، أما أنا شخصيا فلا أميل إلى السياسة القائله بضم مصر ، ولا أعتقد تمام الإعتقاد أننا رغبنا بعض الشىء فى قدومنا إلى هذه البلاد ، بل أرى أن أمامنا صعوبات وأخطار كثيرة بشأن مصر كل سنة ، ولا يبعد أن يكون الأمر من هذا القبيل الآن حتى لا نجد أقل مكافأة على سابق أتعابنا ، ولكن الذى أشعر به أنا(١٠٠) إذا تركنا مصر لنفسها وتخلينا عن واجبنا فيها فإن جميع إصلاحاتنا تذهب معنا من جهة ، وتوضع الأحوال المصرية كلها أمام أوروبا مرة أخرى من جهة ثانية ، ولكن بطريقة لا يمكن معها الحل إلا كما حصل من

(٩٧) مساحنة = مشاحنة .
(٩٨)إلى هاجهم = أن هياجهم .
(٩٩) أثبت = أصبت .
(١٠٠) انا = أننا .

قبل . ولا خفى[١٠١] أن فى ذلك معاودة للعمل من بدئه ، وهو منتهى الجهل . إلى أن قال ولقد كان من سعدنا أن أمورنا كانت معلقة بالخديوى توفيق ولا سيما عند توليه الأريكة الخديوية ، فقد كان رجلا دستورى الأخلاق راض عن منصبه على ما كان عليه من الدستورية ، وبذلك توصلت وإياه إلى التساهل المتبادل بيننا حتى فى الأمور التى كنا على إختلاف نظر فيها ، لأنه كان يعلم أننى لا أحب المشاكل ولا أسعى إليها ولا أميل إلى إذلاله وإخضاعه إلى إرادتى ، وبذلك كان مركز[١٠٢] لا حد له ، والدليل على وجوده أنه وجد . ولكن كان يظهر أنه لابد من زواله أخيرا لأن دولتنا لا تقدر أن تبقى واقفة فى موقف واحد أبد الدهر . فقال المراسل ولا سيما متى أنقلب الطبع الخديوى من الحالة الدستورية إلى الحالة الإستبدادية كما قلت . قال نعم ولذلك كان لا بد لنا من وضع نظام جديد بشروط جديدة لأن الأمير الحالى ذو طباع تخالف طباع أبيه بل هو يميل فى أخلاقه إلى جده إسماعيل ، ويرى أن الوزراء فى كل دولة ليس لهم أن يشيروا بل أن يطيعوا ، ولكنه لا يزال شابا لم تحنكه التجارب ولا مرت عليه أحوال العصيان كأبيه ، ولعله يجهل ما عليه الدولة الإنجليزية من القوة وما هى عليه أوروبا من الشدة والبأس . قال وربما أخفاء[١٠٣] أصحاب الصحف الإنجليزية فى قولهم أنه عقبة فى طريق الإصلاح أو أنه ميال بالطبع إلى الثورة والفوضى ، بل إن الذى يطلبه إنما هو الإستقلال التام ومراقبة جميع الأمور بين يديه . ولكنه لو علم متاعب الإداره المصرية وأدرك ما ورائها من المصاعب لما أقدم على ذلك أ . هـ قلت ومهما بالغ لورد كرومر فى إطراء الخديوى توفيق وأمتداح طباعه وخضوع[١٠٤] لصاحب السياسة الإنجليزية ، فإنه كان يعلم والناس طرا يعلمون أن الخديوى رحمه الله لما أشتدت عليه الأزمة

---

(١٠١) خفى = يخفى .
(١٠٢) مركز = مركزه .
(١٠٣) إخفاء = أخطأ قراءة ترجيحية .
(١٠٤) وخضوع = وخضوعه .

واستحكمت خلقاتها ، وأدرك سر سياسة الإحتلال وضعفه أمام جبارها العنيد بكى كثيرا وندب سوء حظه وحظ بلاده ، وهم بالرجوع إلى سواء السبيل فلم يفلح وخانته الأقدار فانكمش حتى قبض حزينا مقهورا رحمه الله .

واتفق بعد هذه الحوادث أن استأذن مراسل (جريدة الوستمنستر) الإنجليزية بالدخول على الأمير بدار الإمارة فأذن له وقابله بوجف(١٠٥) باش وأكرم لقايه . فقال المراسل عسى أن تكون قد زالت الأسباب التى أوجبت سوء التفاهم بين الأمير ولورد كرومر وعادت الأمور إلى مجاريها . فقال الأمير إنى أقول لك الحق أنى رجل لا يحب التكلف ولا المواربة ، ولذا فإنى لا أضمر إلى لورد كرومر سوءا ولا أريد له إلا الخير ، ولكنى أكره من(١٠٦) خيلائه . ثم قال وما قولك فى خروج الإنجليز من ديارنا؟ فقال المراسل أظنهم لا يخرجون أبد الدهر . فعند ذلك قطب الأمير وجهه وقد علتع(١٠٧) حرة الغضب وقال كيف وقد وعدونا بالجلاء العاجل وعاهدونا عليه فى السر والجهر ، ولا أخالهم يخلفون الوعد وينكشون(١٠٨) العهد وعهدنا بهم كرام فالوعد عندهم دين . قم(١٠٩) أقبل على المراسل وجعل يحادثه فى أمور أخرى . فلما هم المراسل بالإنصراف ومد يده ليصافح الأمير هز الأمير يده وقال له بتبسم (ودرت(١١٠) أن فكرك(١١١) ببقاء الإحتلال بين ظهرانينا لا يصادف الحقيقة إن شاء الله) فلما زاع(١١٢) خبر ذلك بين الناس وتناقله أصحاب الصحف الإنجليزية وغيرها زادت الظنون بأهل الحل والعقد من الإنجليز حتى لقد داخلهم الخوف من جند الحرس الخديوى ، وظنوا أنهم على قدم الخروج والعصيان مع الأمير أوهم واهمون . فلم تكن إلا أيام حتى

(١٠٥) بوجف = بوجه .
(١٠٦) من = منه .
(١٠٧) علتع حرة = علته حمرة .
(١٠٨) وينكشون = وينكثون .
(١٠٩) قم = ثم .
(١١٠) ودرت = وددت .
(١١١) فكرك = أفكرك .
(١١٢) زاع = ذاع .

نقلوهم إلى سكواكون(١١٣) واستقدموا من كان بها من الجنود الأخرى . فتحدث الناس فى ذلك كثيرا ، وعاد أصحاب الصحف المحتلة إلى نغمتهم الأولى أياما أخرى . وكتب(بوشيذ) صاحب جريدة (بيرستون سوسيتى نيوز الإنجليزية) وكأنه أراد أن يشجع الأمير على مقاومة السياسة الإنجليزية والحط من كرامة كرومر فقال (أعجبنا منكم أيها الأمير الجليل ذلك الحزم العجيب والفكر الثاقب اللذين أخلفت بهما ظن أولئك السياسة(١١٤) الذين يزبنون بلاء(١١٥) خطاء أحوال العالم كله فى أدوارهم الضيقة ، لأنهم عند ما توفى المرحوم والدك هنأوا أنفسهم بأنك ستتبع خطته وتحذو حزوه(١١٦) فى كل أدوار أمورك . فمثلاك(١١٧) شابا رصينا مطيعا يلبى كل طلب وكل إشارة ، مشربا مبادىء السلطة السائدة اليوم ، وهى أن لا يكون الملك إلا خادم جميع وزرائه خاضعا لهم ما دام حيا يرزق . أجل لقد خاب ظنهم ووقعو فى دهشه أشد وأعظم من الدهشة التى لحقت بأهل السياسة جميعا يوم تبوأ فردريك(١١٨) الكبير عرش

---

(١١٣) سكواكن = سواكن .
(١١٤) السياسة = الساسة .
(١١٥) بلاء خطاء = بالأخطاء قراءة ترجيحية .
(١١٦) حزوه = حذوه .
(١١٧) فمثلاك = فمثلوك قراءة إجتهادية .
(١١٨) فردريك الكبير = فردريك الثانى ملك بروسيا Fredrick II, King of Prussia (٢٤ يناير ١٧١٢ ـ ١٧ أغسطس ١٧٨٦) ـ يعرف باسم فردريك العظيم أو الكبير ، حكم بروسيا من ١٧٤٠ ـ ١٧٨٦ . ولد فى برلين وكشف عن إهتمام مبكر بالأدب والموسيقى أوقعه فى نزاع مع والده الدكتاتورى فردريك ويليام Fredrick William . لم يفهم فردريك ويليام الإتجاهات الثقافية التى لولى العهد الصغير وفرض عليه تربية عسكرية صارمة . فى ١٧٣٠ حاول فردريك أن يهرب من استبداد أبيه بهجر البلاط الإمبراطورى . لكن والده قبض عليه وسجنه فى قلعة كيسترين Kustrin ، حيث أرغمه على مشاهدة إعدام صديقه الحميم الملازم كاته Katte . بعد عام من السجن صمم فردريك على إستعادة ثقة أبيه فتولى قيادة أحد ألوية الجيش وأغرق نفسه فى واجبات إدارية ، وتعلم كل ما يستطيعه عن السياسة والحرب حتى ورث والده فى ٣١ مايو ١٧٤٠ .
فى أول عهده غزا فردريك سيليزيا Silesia إحدى ممتلكات أسرة هابسبورج Habsburgs في النمسا . ولما كان قد إدعى ملكية هذا الإقليم فقد أمضى الثلاثة وعشرون عاما التالية مدافعا عن نصره الغالى . أظهرت الحملات البارزه فى حرب الوراثة النمساوية War of Austrian Succession (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع Seven years war (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) مواهبه العسكرية الغير عادية وساعدته على تقوية وضع بروسيا كقوة قائدة فى النظام الأوروبى الدولى .
ولكى يحافظ على مكاسبه فإن فردريك إتبع فترة سلام بعد ١٧٦٣ ، ودون أن يعطل التوازن=

مملكة بروسيا . ولا أخالك أيها الأمير إلا أنك عارف بما جاء فى تاريخه . أنه لما تولى هذا الملك العظيم زمام الأمور لم تكن له مكانة مذكوره فى عيون أصحاب السياسات حتى قالوا عنه لا يصلح إلا للنفخ فى المزمار والإلتذاذ برغد العيش ونعيم الترف ، ثم كيف كان أمره بعد ذلك وكيف أنه أدهش العالم كله بتدويخه إحدى الدول ورفعه أوروبا إلى حرب هائلة عظيمة .

= العالمى فإنه تباحث مع روسيا والنمسا فى شأن التقسيم الأول لبولندا . ومن خلال دبلوماسية قادرة نجح فردريك فى الحصول على كل غرب بروسيا باستثناء دانزج Danzig وثورن Thorn غالقاً الفجوة بين شرق بروسيا وبراندنبرج Brandenburg . ومع هذا فقد كان إهتمامه الأكبر هو إعادة إصلاح ممتلكاته التى مزقتها الحرب بدلاً من التوسع الإقليمى . خلال السنوات الثلاث والعشرون من عمره أدخل فريتز العجوز (Old Fritz) ـ كما كان يسميه رعاياه ـ سلسلة من الإصلاحات طويلة المدى جعلت من نظامه نموذجاً لاستبداد القرن الثامن عشر المستنير .

من أهم إصلاحات فردريك إلغاءه التعذيب فيما عدا فى جرائم التآمر ، والسماح ببعض حرية القول والصحافة ، والتسامح الدينى ، والترحيب بالجيزويت Jesuits فى بلده التى تسودها البروتستنتية . أما اليهود الذين كان يعتبرهم (عديمى الفائدة للدولة) فقد استبعدوا من سياسته .

أصلح أيضاً نظام بروسيا القضائى مرحليا وأقام إجراءات متجردة وفعالة فى المحاكم وأعاد تنظيم القوانين الموجودة فى شكل قانون موحد Single Code . لكنه كان أقل تقدماً فى مجال الإصلاح الاجتماعى ، فقد دافع عن التمايز التقليدى فى الرتب والإمتيازات ، جزئياً لإعتماده على النبلاء فى تشكيل بيروقراطيته وجهازه العسكرى من الضباط . خفف فردريك الأعباء عن عاتق فلاحى أملاكه الخاصة ، لكنه لم يفعل الكثير لتحسين أحوال الأقنان المقيدين فى الأملاك الخاصة بالأرستقراطية المعروفة باسم اليونكرز Junkers .

شكل فردريك سياساته الإقتصادية بالتطبيق لمبادئ المركانتيلية Mercantilism (نظام إقتصادى نشأ فى أوروبا خلال فترة إنحلال الإقطاع لتعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومى الصارم للإقتصاد الوطنى بأكمله ، وإنتهاج سياسات تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الإحتكارات التجارية الخارجية) التى كانت فى عهده بهدف أن يجعل من بروسيا دولة ذات إكتفاء ذاتى ـ فحدد تصدير المواد الخام ، ونصب حواجز جمركية ضد البضائع الأجنبية ، وأزال كثيراً من الرسوم الداخلية . دعم فردريك صناعة المعادن والنسيج لمقابلة احتياجات جيشه وشجع مشروعات جديدة عن طريق منح الإحتكارات لبعض المنتجات كالبورسلين ، الحرير ، والتبغ . وسعى إلى تحسين الزراعة عن طريق إستخدام أساليب علمية فى تربية الماشية والدورات المحصولية من أوروبا الغربية . لم يؤمن فردريك بتفويض السلطة أو تشجيع المبادرات . وكان يصر على الإشراف على كل الأمور بنفسه . لكنه مع هذا رفع المستويات المهنية فى الخدمة المدنية عن طريق البطش بالمرتشين والمهملين .

لم تذهب أعمال (فريتز العجوز) سدى . فعند موته فى ١٧ أغسطس ١٧٨٦ كان تعداد سكان بروسيا ستة ملايين ، وجيشها ٢٠٠,٠٠٠ رجل ، وترك لخلفه فردريك وليام الثانى (٢٥ سبتمبر ١٧٤٤ ـ ١٦ نوفمبر ١٧٩٧) خزينة عامرة وبيروقراطية منظمة وفعالة . ولسوء الحظ فإن نظامه المركزى الحكومى إحتاج قيادة قادرة عند القمة ، لكن هؤلاء الذين خلفوه على العرش البروسى افتقدوا الطاقة ، الذكاء والتفانى .

- Lexicon universal Encyclopedia - vol. 8 - PP.. 291 - 292

لا جرم إنك أيها الأمير ضحكت كثيرا عندما قرأت فقرات الكتاب الأزرق ، وكتب صاحب السياسة الإنجليزية التى سن لك فيها سنة لا تتخفاها فى مستقبل أيامك . على أننا نعلم والناس كلهم يعلمون بأنك ربيت تربية من مبادئها اللين والخضوع لبلوغ الأمانى ، فكان عليك أما أن تكون كما أنت من ذوى العزم والحزم الذى لا يتزعزع والإرادة الثابتة ، وإما أن تقنع بالذل بين النعمة الواسعة وأيات الإجلال والتعظيم . ولكنك حرصك(١١٩) الله قد اخترت الصفات الأولى وهى المثلى ، فقهرت بها السياسة الإنجليزية حتى شهد كل من لم يضلله الغرض أن مقامك قد ارتفع إلى أعلا عاليين(١٢٠) ، وأحدقت بك العيون حتى تن(١٢١) خصومك الذين ساءهم ما فعلت لم يسعهم إلا أن يعترفوا بمزاياك ويقدروا بسالتك حق قدرها ، ولقد أحسنت كل الإحسان فى ما أتيته مع صعوبة موقفك ومقتبل شبابك والدسائس الجمة التى تتهدد مركزك . وقد تبينا من ذلك أنك خلو من الدعة الشرقيه بل ربما أخذنا عنك بأنك غربيا أكثر الغربين(١٢٢) فى نهاية مدنيتك وآدابك . ولا آتى دليلا على ذلك أكثر من أنك سهمت(١٢٣) إلى مراسل تلك الجريدة الإنجليزية المهمة بلقائك ، وقد كان العالم كله لا يعرفك من رسائل كرومر الملأى بأغراض(١٢٤) التى سودت بميسبتها وكذبها وحده صحف الإنجليز من كتاب سياستهم الأزرق الذى هو خلاصة تلك الأراجيف التى قل فيها الصدق وابتعدت عنها اللياقة والأدب . أما الآن وقد أدنيت من مجلسك ذلك المحرر فسمع قولك ورأيك فى الأحوال الحاضرة وعرف آمالك وأميالك من نحوها وأنت غير هياب ولا وجل من مكاشفة الناس بما فى نفسك مما يخفيه كثيرون من ملوك أوروبا خشية منهم ، فقد دللت دلالة أخرى جديدة على أنك من الحذق والمهارة بمكان رفيع . لأن

---

(١١٩) حرصك = حرسك .
(١٢٠) عاليين = عليين .
(١٢١) تن = أن .
(١٢٢) الغربيين = من الغربيين .
(١٢٣) سهمت = سهلت .
(١٢٤) بأغراض = بالأغراض .

ذلك المراسل خلافا لمعتاد أمثاله قد خرج من مجلسك فكتب ما رأى وسمع ، وكل حديثه ثناء عليك وإعجاب بك ، وأى نعم فإن عدوالك(١٢٥) خصومك) هذه القائلة هزوة ، فبوركت من هفوة علم بها جماعة الإنجليز ما خبأه عنهم لورد كرومر من المسائل التى تستميلهم إليك فى كثير من وجوهها .

وأيم الحق إن كثيرا من تصريحاتكم لذلك الكاتب عليها مسحة الشهامة والصدق اللذين يستكبران كل الإكبار فرجع(١٢٦) السياسة بإخلاف الوعود والنفاق المتراكم بعضه فوق بعضه . فقلت كلمتك فى ذلك كما قال ماتريخ(١٢٧)

---

(١٢٥) عدواً لك = عدولك . (١٢٦) فرجع = رجع .

(١٢٧) ماتريخ = مترنيخ Metternich. Klemens. Furst von (١٥ مايو ١٧٧٣ ــ ١١ يونيو ١٨٥٩) . وزير خارجية النمسا (١٨٠٩ ــ ١٨٤٨) ومستشارها Chancellor (١٨٢١ ــ ١٨٤٨) . قاد الإمبراطورية النمساوية إلى النصر النهائى فى الحروب النابليونية Nopaleonic Wars . وأسس وضع النمسا المركزى من قلب أوروبا فى توازنات القرن التاسع عشر . ولد فى كوبلنز Coblenz من الراينلاند Rhineland . صحة إسمه هو كليمنز فنزل نيبوموك لوثار فون مترنيخ Klemens Wenzel Napomuk Lothar von Metternich ، وينحدر من أسرة من أصحاب لقب الكونت الإمبراطورى imperial Counts ذوى الأصول النبيلة الذين حكموا رعاياهم ودانوا بالولاء فقط لإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة . شهد الإضطرابات المبكرة للثورة الفرنسية وهو طالب فى ستراسبورج Strasbourg ومينز Mainz ، حيث تناقضت هذه الإضطرابات بحدة مع الإعتقاد الأوروبى المتفشى فى النظام الإجتماعى العقلانى المتوازن . وانتهى من هذا إلى أن الحكومة اللازمة لمنع الثورة هى تلك المستنيرة مع الحزم .

فى ١٧٩٤ أجبرت الجيوش الفرنسية مترنيخ على اللجوء إلى فيينا Vienna حيث تزوج (١٧٩٥) من اليانور فون كاوينتز Eleanore von Kaunitz حفيدة المستشار النمساوى السابق Wenzel Anton von Kaunitz . وبعد هذا الزواج المفيد صعد مترنيخ قدما فى سلك الخدمة الدبلوماسية النمساوية كسفير إلى سكسونيا Saxony (١٨٠١) ، بروسيا (١٨٠٣) ، وأخيراً فى فرنسا (١٨٠٦) . فى باريس مدح نابليون وأعجب به ، حتى رغم أنه كان يتآمر للحرب ضده بالتعاون مع وزير الخارجية النمساوى يوهان فيليب فون شتاديون Johan Philipp von Stadion .

ورغم دوره فى التسبب فى الحرب عام ١٨٠٩ ــ تلك الحرب التى انتهت بمهانة لبلاده فى معركة واجرام Wagram ، فإن مترنيخ خلف (شتاديون) كوزير للخارجية . عندئذ سعى لتحالف مع فرنسا . وكانت ضربته الكبيرة هى تزويجه مارى لويس Marie Louise (١٨١٠) إبنة الإمبراطور فرانسيس الأول Francis I (الإمبراطور فرانسيس الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة سابقاً) إلى نابليون . وبعد حملة نابليون الروسية الكارثة فى ١٨١٢ خلص مترنيخ النمسا بإخلاص من إلتزامها نحو فرنسا وتعهد بوساطة مسلحة أملا أن يحث نابليون على الإنسحاب من وسط أوروبادون إدخال الروس . وقد رفض نابليون ، ولكن حتى بعد إعلان النمسا الحرب فى ١٨١٣ فإن مترنيخ واصل المباحثات المصممة لحفظ قوة فرنسا وحلفائها الألمان كقوة مقابلة ضد روسيا وبروسيا . وبدعم بريطانى فإن مترنيخ حافظ على المبادرة السياسية خلال حروب التحرير فى ألمانيا ــ وبفضل معاهدة باريس (٣٠ مايو ١٨١٤) سعى إلى جعل فرنسا قوية باعتدال تحت حكم أسرة البوربون الذى أعيد إحياؤه . فى مؤتمر فيينا (سبتمبر ١٨١٤ ــ يونيو ١٨١٥) ظهر مترنيخ الذى كان قد أصبح أميراً (١٨١٣) كشخصية مؤثرة للغاية . وبدعم من لورد كاسلريه =

وسمبـــــرك(١٢٨) أقطـــاب السـياسـة لخصـومهـم حتـى

= Castlereagh البـريطانى وشـارلز دى تاليـران ـ بريجـورد Charles de Talleyrand - Preigord الفرنسى ، حدد مترنيخ التوسع الإقليمى البروسى والروسى . خلق مترنيخ التعاهد الألمانى German Confideration تحت زعامة النمسا ، مباعداً بذلك بين روسيا وبين المركز القيادى فى ألمانيا . وفى إيطاليا تحققت السيادة النمساوية بضم لمباردیا Lombardy والبندقية Venetia والأقاليم الأللّيرية Illyrian Provinces . وهكذا فإن النمسا أصبحت مركزا لمنطقة حاجزة منظمة بين فرنسا وروسيا .

رغم النظام الدولى الذى أنتجه نظام مترنيخ ، فإنه قد خيب رجاء وآمال الشعوب وولد نوعاً من عدم الارتياح . ومنذ ذلك الوقت بدء دور مترنيخ القمعى يتزايد . وفى مؤتمرات تروباو Troppau (١٨٢٠) ، ليباخ Laibach (١٨٢١) ، وڤيرونا Verona (١٨٢٢) حبذ ميترنيخ تدخل القوى الكبرى ضد الثورات ، وزاد من إنحياز النمسا مع بروسيا وروسيا فيما سمى بالتحالف المقدس Holy Alliance ضد التغيير كان مترنيخ نشطاً فى الشئون الداخلية النمساوية ، لكن نفوذه كان قليلاً على الإمبراطور فرانسيس Francis وخليفته فردیناند الأول Ferdinand I . وسواء أكان جديراً أم لا ، فإن مترنيخ أصبح رمزاً للقمع وهدفاً مرشداً لثورات ١٨٤٨ التى أقصته عن السلطة .

-Lexicon Universal Encyclopedia - vol 13 - PP., 349 - 350

(١٢٨) سمبرك = بسمارك Bismark, Otto von (١ إبريل ١٨١٥ ـ ٣٠ يوليو ١٨٩٨) . رجل دولة بروسى ، مهندس الوحدة الألمانية ، ووسيطٌ سياسات القوة الأوروبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولد فى شيس هاوزن Schonhausen بإقليم براندنبرج Brandenburg . إنحدر والده من سلك النبلاء البروسيين ، أما أمه فكانت من البورجوازية العليا . تسبب ضيقه بدراسة القانون والبيروقراطية فى تحوله إلى إدارة أملاك العائلة فى براندنبرج . وهناك تحول إلى الأفكار الأصولية الدينية اللوثرية التقية Pietist .

خلال ثورات ١٨٤٨ اكتسب سمعة سياسية كرجعى متطرف ، دعم قمع الثورات والقيادة المستمرة للنمسا فى ألمانيا . وكوزير بروسى فى الاتحاد التعاهدى الألمانى German Confideration فى فرانكفورت (١٨٥١ ـ ١٨٥٩) تبنى بسمارك الخط المستقل لما يسمى بالألمانية real Politik (السياسة الواقعية . سياسة مبنية على عوامل عملية ومادية لا على عوامل نظرية أو أخلاقية) ، داعماً سياسة مؤسسة على المصالح البروسية ، دون إعتبار للأيديولوچيات أو حب الخير Humanitarianism . وفى ذلك الوقت دعم بسمارك الوحدة الجمركية (Zollverein) ضد النمسا ، وحبذ التعاون مع نابليون الثالث ، وعارض التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى لصالح السادة الشرعيين . بعد تمثيل قصير لبروسيا فى سان بطرسبرج Saint Petersburg وباريس ، استدعى إلى الوطن ليصبح رئيساً للوزراء Minister President ووزيراً للخارجية لوليام الأول ملك بروسيا .

بعد إعلان سياسة (الحديد والدم) تحدى بسمارك مجلس النواب البروسى ، الذى حُبِسَ فى نزاع دستورى مع الملك ، بإدخال إصلاحات الجيش ، والإدارة دون ميزانية مصدق عليها ، وإتباع سياسة خارجية مستقلة . جلبت دبلوماسيته حروباً ظافرة مع الدنمارك (حول شلزڤيج ـ هولشتين Schleswig - Holstein) عام ١٨٦٤ ، والنمسا (حرب الأسابيع السبعة ، ١٨٦٦) ، ونتيجة لذلك فإن المجلس مرر قانوناً للعفو indemnity bill (كان يعفو فى الواقع عن انتهاكات بسمارك الدستورية) وصَوّتَ بالموافقة على الميزانيات السابقة . مع إستبعاد النمسا بالقوة من ألمانيا فقد تشكل الإتحاد التعاهدى الألمانى الشمالى (١٤ يوليو ١٨٦٧) تحت الرقابة البروسية . ووفق دستور الدولة الجديدة احتفظ الملك البروسى بالرقابة والسيطرة على الجيش وصنع السياسة ، وأصبح بسمارك المستشار مسئولاً أمامه فقط . مثل البوندسرات Bundesrat (المجلس الفيدرالى) مصالح الولايات المنفصلة ، بينما تم تأسيس حق التصويت العام للذكور البالغين =

يتـهظهـم[١٢٩] بها تحـت وقـر حـقـوق عـرشك التى يريدون الذهاب بها .

وليس من ينكر أنه لما احتلت الجيوش الإنجليزية مدينة الإسكندرية ، قال لورد كرانفيل[١٣٠] لدول أوروبا أنه لم يفعل ذلك إلا ليقرر للعرش الخديوى

= فى عام ١٨٧٠ أحدثت برقية إمز Ems الشهيرة (رسالة من ويليام الأول إلى نابليون الثالث) ومساندة بسمارك لأمير من أسرة هوهنزولرن Hohenzollern كمرشح للعرش الأسبانى ، أحدثت الأثر المرغوب فيه فى استفزاز فرنسا لدخول الحرب السبعينية Franco - Prussian War . هزمت فرنسا بسرعة وأعلنت الإمبراطورية الألمانية (بما فى ذلك الولايات الألمانية الجنوبية) فى فرساى Versailles فى ١٨ يناير ١٨٧١ وأصبح بسمارك أميراً ومستشاراً ألمانيا . تم الاحتفاظ بدستور ١٨٦٧ ، وأحتفظ بسمارك برقابة مدنية على الجيش مع ويليام . وهكذا فإنه أصبح قادراً على إحباط حرب مانعة Prevntive War فى السنوات التالية .

إتجهت سياسة بسمارك الخارجية نحو الحفاظ وتقوية الامبراطورية الألمانية التى كان يراها متخمة إقليمياً ، يتحقق أمنها عن طريق تنظيم مصادرها السياسية والدبلوماسية فى أوروبا وعزل فرنسا دبلوماسيا . فعندما تمزق حلف الأباطرة الثلاثة Three Emperors League (١٨٧٣) مع روسيا والنمسا نتيجة للتنافس حول البلقان ، سعى بسمارك للتوسط كسمسار أمين (honest Broker) فى مؤتمر برلين (١٨٧٨) . جلب العدوان الروسى ـ ضد رغبات ويليام ـ التحالف الثنائى مع النمسا (١٨٧٩) ، الذى أصبح التحالف الثلاثى Triple Alliance عندما انضمت إليه إيطاليا (١٨٨٢) . ومع هذا فإن بسمارك سعى إلى ربط روسيا إلى هذا التحالف بإحياء حلف الأباطرة الثلاثة (١٨٨١ ـ ١٨٨٧) ومن خلال معاهدة إعادة التأمين Reinsurance Treaty (١٨٨٧ ـ ١٨٩٠) . وكسب أيضاً التعاون البريطانى .

أما فى الداخل ، فبالتحالف مع الوطنيين الأحرار National Liberals (١٨٦٧ ـ ١٨٧٧) مد بسمارك سلطات الحكومة الإمبراطورية ، تبنى سياسات Laissez - Faire الإقتصادية ، وحارب ضد السلطة السياسية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى حرب الثقافة (Kulturkampf) . سبب نمو حزب المركز الكاثوليكى Catholic Center Party والتحديات التى خلقها كساد إقتصادى بين ١٨٧٣ ـ ١٨٩٦ ، إنفصال مع الليبراليين وهجر سياسة Laissez Faire . وبدعم من المحافظين ونقض بقايا الليبراليين الوطنيين إعتمد بسمارك سياسة من التعريفة الجمركية الواقية ، قمع الديمقراطيين الإشتراكيين Social Democrats بزعامة أوجست بيبل August Bebel ، وزيادة إجراءات رفاهية إجتماعية للمواطنين بما فى ذلك التأمين ضد المرض ، الحوادث ، والشيخوخة . ترتب على تزايد قوة الإشتراكيين ورغبة الإمبراطور الجديد ويليام الثانى فى استمالة شعبه إليه ، طرد بسمارك فى ١٨ مارس ١٨٩٠ . وحتى وفاته فى ٣٠ يوليو ١٨٩٨ كرس بسمارك وقته للهجوم على خلفائه وإملاء مذكراته .

وحد بسمارك ألمانيا وحافظ على السلام الأوروبى لجيل كامل ، ولكنه خلد أيضاً السيادة العتيقة للأرستقراطية البروسية (Junkers) والشريحة العليا من الطبقة الوسطى ، إلى جانب تقليد من التعصب المشايع والمعارضة الشخصية . وفى ظل ويليام الثانى ، ساهم نظام بسمارك التحالفى (بتعديلات حاسمة) فى قيام الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وسقوط الامبراطورية الألمانية .

- Lexicon Universal Encyclopedia, vol 3 - PP . 248 - 299

(١٢٩) يتهظهم = أيقظتهم قراءة إجتهادية .

(١٣٠) كرانفيل = جرانفيل .

حقه المطلق بعزل وزرائه متى شاء . وفى كل سنى هذا الاحتلال ما برح لورد كرومر ينادى بملء فيه بأنك السيد المطلق اليد المتبوع الكلمة ، وأنت فى الحقيقه مكره على تنفيذ راغيبه[١٣١] من وراء حجاب .حتى لقد بلغ بهم النفاق والبين إلى حد أنهم أبطلوا مجلس النواب المؤسس عام إثنين وثمانين بدعوى أنه مقلل من نفوذ العرش الخديوى ومذهب لسلطته ، والأمر على عكس ما يوهمون . فإن كان ما يدعيه لورد كرومر حقا وما ينادى به لا مراء فيه فها قد حكمت بعائب[١٣٢] رائك وسلكت النهج القويم ، فلم يبق له من مساغ فى تهديدك ولا سبيل إلى وعيدك ، لانك مشيت على مهد ، واستعملت حقك الذى من أجله جاء الإنجليز إلى مصر كما يزعمون . ولقد أصبت فيما فعلته لسد الدعوى التى رفعها لورد جرانفيل إلى ممالك أوروبا ، وقام لورد كرومر يثبتها أمامهم . دعوى أنك متوبع[١٣٣] الرأى فى عزل وزرائك متى شئت . فكيف حل لهم اليوم ممانعتك فى استعمال ذلك الحق المؤيد بالفرمانات السلطانية وأقوالهم هم الشفهية والكتابية . وإنا لمعجبون بالطريقة العجيبة التى بينت فيها حقيقة ذلك الأمر للعالم كله ، كما أنا معجبون فوق ذلك بشأنك وقوة جأشك وفوزك الحسبى[١٣٤] الذى كللت به فوزك الأدبى بعزل أولئك الضعفاء الجناء[١٣٥] خدام لورد كرومر واستبدالهم بآخرين من محبى الوطن ، المخلصين لأبنائه وقد أصبح مركزك الآن متينا ، والشرق كله يعتبرك أنك منشئ حركة وطنيه عظيمه . وإناء[١٣٦] لعندنا رجاءا عظيما بمستقبلك بعد ما رأينا من بدائع أعمالك فى هذا الشباب النضير وما ستراه كذلك أن شاء الله . فتهم[١٣٧] أيها

---

(١٣١) راغيبه = أراغيبه .
(١٣٢) بعائب رائك = بصائب رأيك .
(١٣٣) متوبع = مستقل قراءة ترجيحية .
(١٣٤) الحسبى = السياسى .
(١٣٥) الجناء = الجبناء .
(١٣٦) وإناء = وإنا .
(١٣٧) فتهمم = فنعم .

الأمير الكبير هذه الصفات التى جمعت فيك ، وهى حسن التصرف السياسى ، والحزامة ، واتقاد الفكر ، ومتابعة الرأى الصائب فى كل مشروعاتك . وأنا لمؤكدون أنك تبقى لك ذكرا عظيما مجيدا فى التاريخ إن شاء الله) أ .هـ وما تتناقل[١٣٨] أصحاب الصحف المحلية هذا الكلام حتى أعجب أصحاب الرأى ، ولكنه أخاف أصحاب النظر البعيد ، فقالوا أن فيه شرا مخبوءا وشرا مستطيرا ، حتى قالوا وكيف يطيق الإنجليز الصبر على محاسنة[١٣٩] الأمير لعميدهم والضرب على يده وهو صاحب الكلمة المسموعة فى طول البلاد وعرضها منذ وطئت أقدام عساكرهم أرض مصر؟ وكيف يخفضون للأمير جناح الطاعة وهم على أحر من نار الجمر لاجتماع قلوب المصريين إليه والمجاهرة لطاعته . فإذا قام بين أولئك الإنجليز من يطرى الأمير ويمتدح وقوفه فى وجه عميدهم ومغاضبته له فإنما يفعل ذلك خداعا وتضليلا لأمر يريدونه فى مستقبل الأيام . قلت وأعقب كل هذه الأقوال والتحرضات أن جاء الخبر باشتداد الجدال فى دار ندوتهم على ضم مملكة[١٤٠] أوغندا الإفريقية إلى أملاكهم بتلك القارة ، وقام أصحاب شوراهم فى وجه غلادستون شيخ أحرارهم لأنه مشير بترك تلك

(١٣٨) تتناقل = تناقل .

(١٣٩) محاسنة = مخاشنة .

(١٤٠) كانت أوغندا حتى القرن الثامن عشر تتألف من عدة ممالك مستقلة . مع نهاية القرن الثامن عشر فازت بوجندا Buganda ـ الولاية عالية التنظيم بأهلها الباجندا Baganda فى الجنوب بإقاليم واسعة من المنافس على العرش (بونيورو كيتارا) Bonyoro Kitara لتصبح بوجندا هى الإقليم صاحب السيادة . وصل المستكشف البريطانى جون هاننج سبيك John Haning Speke إلى المنطقة عام ١٨٦٢ وفى ١٨٧٥ حصل سير هنرى مورتون ستانلى Henry Morton Stancly على تصريح من كاباكا (ملك) بوجندا موتيسا الأول Mutesa I بدخول المبشرين المسيحيين إلى المملكة . إفترض موتيسا خطأً أن ممثلى الكنيسة قد يساعدون باجندا عسكرياً بعد موت موتيسا (١٨٨٤) بدأ الكاباكا موانجا Mwanga فترة من الإضطهاد المسيحى . فى ١٨٩٤ أسست بريطانيا حماية على بوجندا وتقدمت لإحتلال باقى أوجندا . وقعت إتفاقية بوجندا عام ١٩٠٠ بين هذا الإقليم وبريطانيا ، وفيها احتفظ الكاباكا بسلطته كملك ومنحت بوجندا إمتيازات إقليمية خاصة . بعد الحرب العالمية الثانية بدأت أوغندا فى الضغط من أجل الحكم الذاتى ، وتم تحقيق الاستقلال نهائياً عام ١٩٦٢ .

- Lexicon Universal Encyclopedia. vol 19 - P . 373

المملكة الواسعة لأهلها وأن لا يغايروا فى شىء من عاداتهم القومية وشؤونهم الأهليـة . والقـوم كلهم على خـلاف ذلك حـتى لقـد قـام (لابوشـيـر) شـيخ المتطرفين فى الحرية ومبغضى إنفساح الملك بإخضاع الأمم الضعيفة خطبا[١٤١] فى دار ندوتهم يقول (مابال بعض رجال شورانا يقولون أن إمتلاكنا لمملكة أوغندا يسهل علينا إمتلاك الأقطار السودانية ومنابيع النيل؟ وكلنا يعلم أنه لكذلك ، وأنه ليس جديدا يستلزم إطالة احتلالنا لديار مصر ، وأنه ويعلم الله لما[١٤٢] يسر لورد كرومر ومن على شاكلته ممن يزعمون أن إمتلاكنا لأرض الفراعنة أصبح أمرا مقضيا . يقولون أن إمتلاك مابيع[١٤٣] النيل هو من أشد المهمات لدولتنا الإنجليزية لأن به أحد مفاتيح المسألة المصرية . ويقولون أيضا أن إحتلال دولة أجنبية لأعالى النيل يجعلها مالكة لمصر وذات اليد القادره عليها إذا حدثت حرب بينها وبيننا ، ولا يكلفها الأمر إلا قليلا حتى تحول مجرى النيل عن أصله وتجعل مصر بلادا قاحلة جرداء . وأنا أقول كذلك وأعتقد أن إمتلاك مصر يعوزه أمتلاك السودان أو هو يتوقف عليه ، وأن مسألة الأوغندا التى هى باب من أبواب هذا الفتح العظيم مهمة لدينا ولا نقدر أن نتخلى عنها وفينا رجال يفعلون) أ .هـ .

قالوا كل هذه الأقوال وأرجفوا كل هذا الإرجاف لما بدى[١٤٤] من الأمير ما بدى[١٤٥] من الحزم وسوء الظن بسياسة الإحتلال . وما هى إلا أيام بعد هذه الضجة حتى هب الرئيس مصطفى رياض باشا من ثباته[١٤٦] يريد الاستبداد بشئون الأمن العام والإستقلال بتصريف أموره على ما يشاء دون جماعة الإنجليز الذين جعلوا يتنازعون فيها كما تقدم بك القول . فكشف له لورد كرومر

(١٤١) خطبا = خطيباً .
(١٤٢) لما = لمما .
(١٤٣) مابيع = منابع .
(١٤٤) بدى = بدا .
(١٤٥) بدى = بدا .
(١٤٦) ثباته = سباته .

عن وجه المغاضبة وشدد فى منعه من ذلك ، وقام أصحاب صحف الإنجليز يوسعون الرئيس لوما وتقريعا ، ويقولون أن ذلك الرجل الفخور الذى لا يرضيه من منصبه إلا أن يكون المسموع القول المطاع الكلمه ، حتى لقد قال صاحب التيمس مخاطبا للرئيس .

(إعلم أنك إنما أنت فى منصبك تعمل للإحتلال وباسم الإحتلال ، فإن أقعدك الغرض عن الجرى على الشرط الذى أعلاك منصبك ، ولم تقدر على كبح جماح نفسك فاعتزل ، فإن دولة الإنجليز لا يسعها أن ينقطع عملها أبدا[١٤٧] الدهر لا بيد أمير ولا بيد وزير) ٠أ .هـ وأجفل الرئيس يعمل ، يحاول ويطاول ويصدر المنشورات فى ذلك إلى أهل المناصب وأصحاب الخطط تارة ويسترجعها أخرى ، ويظهر اللين تارة وأخرى يبدى الشدة ، ولورد كرومر وجماعة الإنجليز بوزارة الداخلية لا ينفكون عن متابعة أعمالهم وتصريفهم أمور الشرطة فى طول البلاد وعرضها طوع أغراضهم ،لا يلوون على شىء ولا يعرفون للرئيس حقا ولا ذمة حتى كاد يسقط فى يده[١٤٨] . وبينما الحال على ذلك إذ جاء الخبر من محافظ سواكن إلى لورد كرومر أولا ثم إلى قصر الإمارة فوزارة الداخلية بظهور عثمان دقنه على رأس ثلثمائة من أنصاره المجاهدين فى

---

(١٤٧) ابدا = أبد .

(١٤٨) ظلت قضية (السيطرة على جهاز البوليس) محك النزاع بين المصريين والإنجليز فى عهد وزارة رياض أيضاً . فبعد أيام قليلة من توليه النظارة أصدر منشورا للمديرين مفاده عدم إتباع التعليمات والمنشورات التى صدرت فى عهد سلفه مصطفى باشا فهمى فيما يخص البوليس . وفى الثامن من مارس ١٨٩٤ أرسل رياض منشوراً لجميع المديرين فى شأن تبعية معاونى البوليس لمأمورى المراكز أو حكمدارى البوليس ، وكان الإنجليز يعارضون فى مسألة تبعية المعاونين للمأمورين . وفى يونيو ١٨٩٤ جعل مأمورى المراكز من رجال الضبطية القضائية .
ومع هذا فإن دور رياض فى قضية البوليس لم يكن مؤثراً كثيراً ربما نظرا لقصر المدة التى قضاها فى السلطة (١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ إبريل ١٨٩٤) .
ـ راجع (مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٦٢ .
ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

جهات (بردر) الواقعه بين (طوقر)(والعقيق) . والتقى بهم جماعة من المرابطين فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أنصار دقنه أربعة وأسر رجل ، وأخذوا ما كان معهم من دواب الحمل ، فتراجعوا عند ذلك إلى (خور بركة) ومنهـا إلى (دبلاويت) التى تبعد زهاء الثلاثين مرحلة عن قبلى طوكر ، فلم يلتفت الناس إلى ذلك وظنوه خدعة من الإنجليز وتضليلا كعادتهم عقد وقوع المغاضبة بينهم وبين الأمير أو رجال الحكومة . فقام أصحاب صحف الإنجليز ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور . وأظهر جماعة الانجليز الحركة بين قلعة الجبل ومنازل عسكرهم بقصر النيل والعباسية ، فجعلت عجلاتهم وكتائبهم تمر صعدا وهبوطا من وإلى قلعة الجبل وعسسهم فى تطواف دائم بين مساكن النزلاء وشوارع المدينة(١٤٩) .

واتفق أن قدم فى هذه الأثناء أسطولا كبيرا لدولة الفرنسيس من ثلاث وعشرين قطعة من القطع الكبار ، فاحتفل النزلاء الفرنسيس لمقدمه إحتفالا عظيما ، وأولوا(١٥٠) إلى كبار جنده الولائم ، وأدبوا المآدب ، وطاف جماعة منهم بشوارع الإسكندرية وهم فى زينتهم العسكرية ، ومروا ببعض منازل عسكر الإنجليز المرابطين . قيل فكشفوا لهم عن وجوه المغاضبة ، ولم يطيقوا الصبر على لقائهم ، فارتد الفرنسيس إلى سفنهم . وكانوا إذا نزلوا إلى البلد نزلوا فى قلة وعزل من كل سلاح ، وإذا مروا بأحد منازل عسكر الإنجليز فبغاية الوقار والحشمة . فلم يعجب ذلك جماعة الفرنسيس نزلاء الإسكندرية ، وأكثروا من العجعجه(١٥١) بغير طحن على عادتهم فى مثل هذه الأحوال . وهبت صحفهم

---

(١٤٩) تمركزت قوات الإحتلال خلال الفترة المؤرخ لها فى العباسية حيث كانت توجد قشلاقات السوارى البريطانية ، والبوليجون (القشلاقات الإنجليزية الجديدة) ، وفى قشلاقات قصر النيل (الواقع مكانها فندق النيل هيلتون وجامعة الدول العربية الآن (١٩٩٤) . وفى قلعة الجبل (القلعة) .

ـ راجع (تقويم سنة ١٩٣٣) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧١٦ ـ ٧٢٨ .

(١٥٠) وأولوا = وأولموا .

(١٥١) العجعجة = الجعجعة .

إلى تركيز[١٥٢] صاحب سياستهم بولاء المصريين وتعلقهم بعرش الجمهورية الفرنساوية ، وأن قد وجبت معاونتهم على الخلاص فى[١٥٣] حلقة ذلك الإحتلال الإنجليزى التى ضاقت بهم ، وجاراهم على ذلك أيضا بعض الصحف المحلية . وظل الحال على هذا أياما حتى برح الأسطول كله مياه الإسكندرية سابع عشر أبريل من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد وثلاثين رمضان سنة عشر وثلثمائة وألف للهجرة قاصدا يافا . وذهب بذهاب[١٥٤] كل تلك الإرهاجات الداخلية والإرهابات الخارجية ، وتشاغلت الصحف الإنجليزية واشتغلت عن مصر وأميرها ووزيرها ورجال الشحنة فيها بخبر إحتلال العساكر الروسية لقلعة (صرخند) الأفغانية وتشديدهم على حاكمها الأفغانى بالتسليم . فعند وصول هذا الخبر هاج أصحاب تلك الصحف وصاهو[١٥٥] جمعا(ألسيف والنار ولاهذا العار) ، واندفع صاحب جريدة (الكرونيكل) يصيح وحرباه ومملكتاه[١٥٦] ، أو ما حان لساداتنا أهل الحل والعقد أن يهبوا من رقدتهم ويقطوا ذنب ذلك الدب الأبيض[١٥٧] أو يوقفوه عند حده ، إن لفى سباتهم العجب العجاب . فظن أهل البلاد أن قد قامت الحرب بين الروس والإنجليز وأن الهند خارجة من قبضة الإنجليز لا محالة والأمر على خلاف ما كانوا يظنون . ذلك أن بعض الجيوش الروسية ألنازلين على حدود الأفغان أحسوا أن شتاء عامهم ذلك غزير المطر كثير الثلوج وأن بقاءهم فى مضاربهم على ذلك الحال لا يأمنون معه من تفشى الحميات الخبيثة بينهم ووقوع الموات فيهم . فطلب كبارهم من حاكم(صرخند) أن يأويهم فى البلد أيام

---

(١٥٢) تركيز = تذكير .
(١٥٣) فى = من .
(١٥٤) بذهاب = بذهابه .
(١٥٥) وصاهوا = وصاحوا .
(١٥٦) وحرباه ومملكتاه = واحرباه وامملكتاه .
(١٥٧) الدب الأبيض = يقصد روسيا .

الشتاء ، فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا ضيوفا خفافا لا يثقلهم سوى جلبة أهل السياسة الإنجليزية وطيرة عيو نهم الواقفين للروس بالمراصد[١٥٨] .

وانقضى صيام شهر رمضان من السنة أى سنة عشر وثلثمائة وألف وأصبح العيد الاصفر[١٥٩] ، فاهتم الأمير ورجال القصر بتشريفات العيد ، وحضر المهنئون من مشرق البلاد ومغربها ، فاروهم[١٦٠] فناء القصر بالوفود من كل طبقة ورتبة ، ودخلوا على الأمير فى زينتهم وأزيائهم وهنأوه بالعيد . وكان زحام الأجانب وقناصل الدول فى ذلك اليوم بالغا منتهاه ، وكلهم معجب بالأمير كأنهم قد رأوا فيه خلقا جديدا بعد قيامه فى وجه لورد كرومر وخلعه الرئيس مصطفى فهمى باشا . وأتت إلى القصر رسائل التهانى والتبريك من كل فج عميق ، وهنأه الشعراء بالقصائد والأبيات العامرة وأرسل إليه شاعر ديوان[١٦١] وهو يومئذ نزيل باريز قصيده عامرة الأبيات وهى :

---

(١٥٨) خلال القرن التاسع عشر ، ولخوف البريطانيين من غارات روسية على الهند ، فإنهم سعوا لإقامة سلطة فى أفغانستان التى تقع روسيا على حدودها الشمالية . أدى هذا إلى حربين بين إنجلترا والأفغان (١٨٣٩ ــ ١٨٤٢) و(١٨٧٨ ــ ١٨٨٠) . فى ١٩٠٧ إتفقت بريطانيا وروسيا على الوضع status فى أفغانستان كدولة حاجزة Buffer state ، وتلقى البريطانيون امتيازات سياسية خاصة . فى ١٩١٩ قامت حرب أنجلو ــ أفغانية ثالثة ، وفى ١٩٢١ وقعت معاهدة سلام إعترف فيها باستقلال أفغانستان .

– Lexicon Universal Encyclopedia, vol 1 - P. 135

(١٥٩) الأصفر = الأصغر .

(١٦٠) فاروهم = فازدحم .

(١٦١) شاعر ديوان = شاعر ديوانه ــ والمقصود هنا هو أحمد شوقى بك أمير الشعراء (١٨٦٨ ــ ١٩٣٢) . ولد بالقاهرة لأسرة ثرية اختلطت فيها الدماء العربية والتركية والكردية واليونانية ــ تعلم فى مدرسة الحقوق ، ودرس الأدب الفرنسى فى فرنسا أثناء بعثة إليها . بعد عودته عمل (بالقلم الأفرنجى) بالديوان الخديوى ــ توثقت صلته بالقصر فى عهد عباس حلمى الثانى وأصبح (شاعر الأمير) المعبر عن سياسته . عندما خلع عباس حلمى عام ١٩١٤ أبعدته سلطات الإحتلال إلى أسبانيا ثم عاد بعد إنتهاء الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) .

ــ راجع (مذكرات سعد زغلول) الجزء الثانى ــ تحقيق عبد العظيم رمضان ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ــ القاهرة ١٩٨٨ ــ ص ٧٤٢ ــ حاشية ١٥٣ .

دام ذا الوجه مقصد الاعياد ساعيات بتهنئات العباد
فإذا دام فالرجاء بخير والندى سالم وتلك الأيادى
أثر العزفيه جلال الله رب الأباء والأجداد
غائب الصفحتين فى رونق الملك غياب النجوم فى الآراد
قابلته الأفلاك مستهديات فسعوها معاشر القصاد
فلها فيه مثل ما لكم رزق وسات[١٦٢] خلائق الحساد
(وجه عباس وجه عباس أكرم بك أكرم وجه الجفدى[١٦٣] والرشاد
كل يوم فى ذا الورى لك حلمى آية تسبق الضحى فى البلاد
يصبح الصبح يستجز[١٦٤] الناس فيها منك وعد السرى ووعد السهاد
فيقول الزمان هذا الذى أعشاد[١٦٥]! وسهل تناول العتاد
حمل العالى[١٦٦] العظم عظيم يافع العزم منك كهل السداد
ما يزيد الفتا فى ذهنك الثاقب أوفى جنانك الوقاد
شغل النجم أعين الناس أن ترجع فى أمره إلى ميلاد
إنما هذه العقول هيات خص فيها من خص رأى الجواد
فرأينا دهرا بغير رجال ورأينا الزمان ذا الآحاد
والذى نحن فيه أنت فتاه وسنا فخره الذى فى ازدياد
شدت للشرق نيسرا من بها حالى الصدر كاسى الأعواد
وأزدت النيل المحبب صفوا خالصا وجهه إلى الوراد
فتفضلت غير مبتذل الفضل وسامحت غير سمح القياد
ويحب الورى من الملك ما كان قريب الرضى قريب الوداد

---

(١٦٢) وسات = وساءت .
(١٦٣) الجندى = الجدى وتعنى العطاء .
ـ راجع مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٠ .
(١٦٤) يستجز = يستنجز قراءة ترجيحية .
(١٦٥) اعشاد = أشاد قراءة ترجيحية .
(١٦٦) العالى = المعالى .

وأميرى أعلى سرائر أن يضجر بغض الأرواح والأجـــــاد
فسلام على الحقوق إذا صح طلاب الحـقـوق الأحـقـاد
إن جهـد الآباء مـا أنت آت وعرفنا فى الفضل جهد الأعادى
لهم الدهر أن يريدوا على أن يفعجوا(١٦٧) فى المراد بعد المراد
قصد الحوم والزئير وقامت تحرس الغاب هيبته(١٦٨) الآساد
يابديع الطريف فى كل مجد وعـريق التليـد فى الآجـاد
هل سبيل إلى شأنك إنى ضاقت السبل فى فهمى بالغياد
وأنا ابن الرياض والظل والماء ووادى لـم يزل خـيـر وادى
سهى العصر عصر فكتور ذى النوروماج الـزمـــــان لـلأرشـــــاد
فهو ميدانه ولم ترضى مصر أن يروها فيـه بغيـر جـواد

ولما كان يوم السبت تاسع عشرى أبريل من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف وثانى عشر شوال سنة عشر وثلثمائة وألف للهجرة سافر الأمير من القاهرة إلى مصيفه بالإسكندرية فى جميع ركبه ورجال ديوانه وآل بيته . وكان لوداعه إحتفال عظيم جدا قيل أنه لم يسبق له مثيل ، فقد ودعه على محطة السكة الحديد سائر أمراء البيت العلوى والغازى مختار باشا والوزراء والعلماء وسائر أصحاب المناصب القبللة(١٦٩) وأهل الخطط من جميع الأجناس والملل حتى ملأوا ساحات المحطة وقاعاتها . وكانت العساكر صفوفا وكبارهم فى زينتهم الرسمية وقد زيتا(١٧٠) سائر البلاد الواقعة على طول خط السكة الحديد من القاهرة إلى الإسكندرية بالأعلام والرياحين ، ووقفوا لقطاره بالطبول والزمور ، فلم يرق هذا كله فى عينى لورد كرومر الذى كان يعمل جهده على إبعاد قلوب أهل البلاد عن محبة أميرهم ، وأرخ قيام ركب الأمير للإسكندرية صاحب جريدة الأهرام بهذا التاريخ .

(١٦٧) يفعجوا = يفجعوا قراءة ترجيحية .
(١٦٨) هيبته = هيبة .
(١٦٩) القبللة = العالية قراءة ترجيحية .
(١٧٠) زيتا = زينت قراءة ترجيحية .

بوفدك ياعباس طابت ربوعنا ولاح بها للسعد بدر وأنجم

فلا زلت شمسا فى سماء العز تنجلى وفى كل تاريخ لك الثغر يبسم

وجاء الخبر إلى قصر الإمارة ووزارة الداخلية وديوان الحرب بقيام عثمان دقنه وظهوره فى ضاحية سواكن بعد أن سكن ريحه أياما ، ولم تقدر عيون الإنجليز على كشف مخبأه ، وأنه هجم فى عدة من أنصاره يوم ثامن عشر شوال من السنة أى سنة عشر وثلثمائة وألف على (برور)[١٧١] التى تبعد عن طوكر

(١٧١) بعد أن قررت الحكومة البريطانية إخلاء السودان وأجبرت الحكومة المصرية على ذلك ـ تمسكت بميناء سواكن الواقع على ساحل البحر الأحمر والواقع فى السودان الشرقى . كان السودان الشرقى هو مسرح عمليات (عثمان دقنه) القائد المهدى منذ عام ١٨٨٣ . ورغم كل الحملات التى وجهت للقضاء على (دقنه) إلا أنه كان مصدر الخطر الأكبر على الوجود الباقى لمصر فى سواكن والتى لم يخلها الإنجليز ـ ومع أن الحملات التى كانت توجه ضد عثمان دقنه كانت تتخذ من سواكن نقطة الوثوب ـ إلا أن عثمان دقنه كان يحكم الحصار حولها ويقطع إتصالها بالداخل حتى أصبحت تحصل على إحتياجاتها عن طريق البحر . دخل عثمان دقنه معاركه مع القوات المصرية فى السودان الشرقى فى (سنكات) فى ٥ أغسطس ١٨٨٣ ـ (قباب) فى ١١ سبتمبر ١٨٨٣ ـ (طماى) فى ٢ ديسمبر ١٨٨٣ ـ (سنكات) فى ٨ فبراير ١٨٨٤ ـ وفى ٢٤ فبراير ١٨٨٤ إستولى عثمان دقنه على (طوكر) . وبذلك أصبح السودان الشرقى تحت سيطرة (عثمان دقنه) باستثناء (سواكن) التى ظل يناوش حاميتها . فى سبتمبر ١٨٨٨ إلتحم الجيش المصرى فى سواكن مع القوات المهدية بقيادة (عثمان دقنه) فى (الجميزة) وانتصر عليه . ومنذ ذلك الوقت امتنع (دقنه) فى (طوكر) (الواقعة فى وسط دلتا (خوربركه) ـ لكن خطره على (سواكن) ظل قائماً ـ وزاد من خطورة الأمر إتضاح المشروعات الإستعمارية الإيطالية فى السودان الشرقى بعد عقدهم معاهدة (أوتشيالى) مع أثيوبيا عام ١٨٨٩ وإعلانهم إنشاء مستعمرة إريتريا عام ١٨٩٠ ـ ومطالبتهم بكسلا ـ التى كان يمكن أن تكون نقطة وثوب لهم إلى السودان الشرقى توصلهم إلى روافد النيل حيث يستطيعون إقامة مشروعات رى عند العطبرة تمنع وصول المياه إلى مصر . لذلك كانت السلطات البريطانية فى مصر ترى أهمية طرد عثمان دقنه من السودان الشرقى . فى ٢٧ يناير ١٨٩١ إنتهز الكولونيل (هولد سميث) محافظ سواكن فرصة خروج (عثمان دقنه) من طوكر لتأديب قبائل الحباب الثائرة ضده ـ فهاجم (هندوب) ثم استولى على (طماى) فى ٢ فبراير ثم استولى على (طوكر) فى ١٩ فبراير ١٨٩١ . إرتد (دقنه) إلى (العطبرة) وانفتح طريق التجارة بين (سواكن وبربر) . هدأ السودان الشرقى بعد إبعاد خطر عثمان دقنه عن سواكن لمدة ٣ سنوات (١٨٩١ ـ ١٨٩٤) ولم يفسد هذا الهدوء سوى بعض التحركات من جانب (عثمان دقنه) لتأديب قبائل أو إثبات وجوده ـ لكن المهديين عادوا فى ١٨٩٣ يحاولون وقف الزحف الإيطالى على (كسلا) ـ وفى ديسمبر ١٨٩٣ انتصر الإيطاليون على المهديين عند القلابات بعدما كانوا قد حشدوا قواتهم فى قلعة أجوردات ـ وقد هزم المهديون فى هذه المعركة هزيمة كاملة وارتدت فلولهم إلى كسلا . وهكذا فإن ما يورده شاروبيم من أنباء عن ظهور (عثمان دقنه) حول سواكن كان جزءاً من حوادث السودان الشرقى خلال الفترة ١٨٩١ ـ ١٨٩٤ .

ـ رأفت الشيخ (سياسة إنجلترا إزاء إجلاء مصر عن السودان ١٨٨٢ ـ ١٨٨٥) ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٨٢ .

زهاء ساعات ونهب ما فيها من الماشية وبعض النساء ، وقتل نفراً من العرب المصافين للحكومة . فجرد جماعة الإنجليز طائفة من الجند لمطاردته فنالت منه واسترجعت الاسيالات(١٧٢) والماشية وأبعدته عن (برور) دلعاد(١٧٣) الكرة فى اليوم الثانى على البلد ونهب كل ما صادفه وقتل وأهلك الزرع وقفل راجعا إلى (تمرن القديمة) وبات بها ليلته تلك مع رجاله ، فلحقت به العساكر لعلها تنال منه ، فلم تقف له على أثر . ثم علموا بأنه فى(تمرين) ، فكبسوها ليلا فجاءهم الخبر بان(١٧٤) رحل عنها . فرجعت المشاة إلى (طوكر) وأسرى الفرسان يريدون اللحاق به فلم يعثروا عليه ، يقال إذا جاءت الأخبار بظهور دقنه واقترابه من سواكن أخذوا الحيطة والأهبة وأعدوا العدة للقائه ، فيتركهم على هذا أياما حتى يشغلهم الإنتصار ويضعف عزايمهم ، فإذا خرجوا لقتاله تركهم يتخبطون فى تلك المجاهل الواسعة لا يهتدون إلى طريقه ولا يعرفون له مقرا . وكان لما اقترب من طوكر فى هذه الكرة أرسل دعاته الى القبايل المصافية يدعو منهم(١٧٥) إلى الخروج وشق عصا الطاعة وينذروهم بالويل والحرب إن هم امتنعوا وحدد لهم مهلة ثلاثة أيام . ثم أرسل للخليفة عبدالله يطلب النجدة من المهدويين . وشاع خبر ذلك فوقع الخوف بين الناس وسقطت عليهم الرعدة غيرة على نسائهم وذراريهم وماشيتهم . ونزح أهل القرى من قراهم إلى ناحية طوكر تحت حماء المرابطين . وتقدم عربان طوكر إلى جماعة الإنجليز فى طلب الأسلحة ومعدات القتال ليدفعوا عن أرواحهم وعيالهم وماشيتهم ، ويكونون عونا للجند على دقنه وأخيه (طاهر) وأنصارهما ، فلم يلتفت الإنجليز لطلبهم ،

---

(١٧٢) الاسيالات = النساء . (قراءة ترجيحية) .

(١٧٣) وعاد = فعاود .

(١٧٤) بأن رحل = بأنه قد رحل .

(١٧٥) يدعو منهم = يدعوهم .

فألحوا فى الطلب وما زالوا حتى أعطوهم ستين بندقية من طراز رمنجتون[١٧٦] . وشاع خبر ذلك فتكلم أهل طوكر وقالوا أن هذه البنادق واصلة إلى دقنه لا محالة لميل أولئك العربان إلى المهدوية وعدم أمانتهم للحكومة .

ولبث عثمان دقنه ورجاله فى (ديباتوأتيب)[١٧٧] يومين ثم رحل عنها إلى (عدوان) الواقعة فى مصب (خور بركة) فأقام بها ثلاثة أيام ، فانقذ[١٧٨] الإنجليز (الأمير وزلكان) شيخ مشايخ قبيلة آأنغلاب[١٧٩] وابن عمه فى نفر من قبيلتهم إلى (تهايم) لنهب معسكر دقنه ، فأحس دقنه بذلك فقام بمن معه من المقاتلة إلى (تهايم) ومر (بخور بركة) من وراء سلسلة الجبال الشرقية على البحر ، وسير دعاته إلى سائر القبايل يدعوهم إلى نصرته وانضمامهم تحت رايته ولم شيعتهم المهدوية . يقال كانت قوة دقنه فى هذه الآونة مؤلفة من ثلاثمائة فارس وهجان وحمار ، وخمسمائة من الجنود المنظمة ، وزهاء ثلثمائة من المشاة بالسلاح الأبيض . وكان فى خروجه معهم إذا رآهم متعبين من السير نهارا أو الإسراء ليلا ، ترجل عن جواده وأخذ حذاءه بيده وفروته التى هى شعار المهدوية على عاتقه ، وحربته بيده ، ويسير ماشيا بينهم ويخفف عنهم . قالوا وكثيرا ما كان يأخذ من الأم التى أتعبها حمل ولدها فيحمله ، ويهون عليها المشى والجهاد فى سبيل المهدوية ، أو يحمل عن العجوز حمله تخفيفا عنه وغير ذلك من مكارم الاخلاق . ولكنه كان شديد البطش جبارا لا تشنه[١٨٠] عن عزمه

(١٧٦) رمنجتون = Remington بندقية أمريكية إخترعها الصناعى فيلو رمينجتون Philo Remington المولود فى ليتشفيلد Litchfield قرب نيويوك عام ١٨١٦ ـ كانت تعمر بطلقة واحدة فى غرفة التعمير ومع إطلاقها يرتد الظرف الفارغ بقوة الإرتداد العكسية للمقذوف على كتلة الترباس فترتد الكتلة لتسمح بخروج المظروف الفارغ إلى الخارج ، فيتم تعمير البندقية بطلقة أخرى .

- Larousse Universel, op cit , P., 763

(١٧٧) ديباتو أتيب = التيب قراءة ترجيحية ـ شرقى السودان ـ شمال توكر ـ جنوب طماى ـ راجع الخريطة ملحق (٧) .

(١٧٨) فانقذ = فأنفذ .

(١٧٩) أ أنغلاب = النفلاب قراءة ترجيحية .

(١٨٠) تشنه = تثنيه .

الشدايد ولا تروعه المكائد . وأخبرنى صديق كان من أصحاب القلم فى جملة سواكن هذه أن دقنه كان عند محاكمته لمن ارتكب جناية من قومه ثابتة عليه يأخذ بالبكاء ويقول للجانى ياسيدى إن الله سبحانه غفار الذنوب لماذا سرقت وارتكبت هذا الذنب العظيم ، ثم يبكى ويقول هاتوا كتاب الله لنحكم عليه بما أنزل فيه فيحكم بنصه بقطع يد ذلك السارق أو رجله أو بقلع عينه وهو مظهر البكاء والإنتحاب ، ثم يأمر فيعلقوا العضو المقطوع فى عنق الجانى ويطوفون به على هذا الحال بين مضارب القوم كافة . قال وأما طعامه الظاهر للناس فهو الخبز والماء القراح لا غير ، ويحمل زاده فى جراب على ظهره متى سار مع قومه . وكثيرا ما يأكل أوراق الشجر ترهدا[١٨١] فى ملاذ الدنيا . وأما أوصافه فطويل القامة أسمر اللون مجدول[١٨٢] العضل قوى البنية عريض الحاجبين طويل الشعر كثيف اللحية تصل إلى صدره ، قوى السواعد سريع المشى حتى قيل أنه يسير كالهجن بغير تعب . قلت وقد شاهدته كذلك عندما أسروه وانحدروا به إلى القاهرة ، وشاع خبر ذلك بالقاهرة بين الناس فأعظموه . وكثر تسال[١٨٣] عائلات الضباط من المصرين عن ذويهم فلم يسمعوا من كبار ديوان الحرب ماتطمئن معه قلوبهم . وظل الحال على هذا أياما والأخبار كل يوم فى شكل حتى ظن الناس أن سواكن واقعة فى قبضة دقنه لا محالة . والعجيب فى أدوار سياسة الفرنسيس أنه لما نقلت صحفهم خبر ظهور دقنه حول سواكن وتخطف قومه ضاحيتها وعجز المرابطين عن دفعهم ، قام(ديفيل) صاحب سياستها فى دار ندوتها سابع عشر مايو من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وأول ذى القعدة من السنة أى سنة عشر يقول لملء[١٨٤] فيه . أنه يؤكد تماما بأنه إذا تجددت المكالمة فى هذه الآونة مع أصحاب الحل والعقد من الإنجليز فى شأن مصر والإحتلال ، فلا يسع جماعة الإنجليز إلا الإعتراف بدولة[١٨٥] الفرنسيس بحقها

(١٨١) ترهدا = زهدا .
(١٨٢) مجدول = مفتول .
(١٨٣) تسآل = تساؤل .
(١٨٤) كلء = بملأ .
(١٨٥) بدولة = لدولة .

الخصوص فى الإهتمام بمصر واكبار[١٨٦] كل عمل يقع على ضفاف النيل مخالفا للعهود الدولية ، وأنه لا يقدر أحد من الإنجليز أن ينكر الأعمال التى قام بها الفرنسيس فى ديار مصر إلى ذلك العهد . فلم تعجب أصحاب الرأى هذه الجعجعة ولم يحلوها محلا ، وقد زادهم وثوقا برأيهم وردد[١٨٧] الخبر من محافظة الإسكندرية إلى وزارة الداخلية بقدوم دارعة حربيه من الدوارع الضخمة الإنجليزية ، وأنها مأمورة بالبقاء بمياه الإسكندرية مددا للدارعتين المرابطتين هناك ، وإن طايفة من جنودها يترولون[١٨٨] إلى شوارع البلد فى كل يوم يتحككون بالعامة والسوقة ، وأن الخوف شديد من حدوث حادث كبير . فأرسلت وزارة الداخليه إلى محافظ البلد بالتشديد فى المراقبة والسهر على الأمن ومنع العامة من التطواف فى الليل ولا اجتماع[١٨٩] فى الشوارع والطرق نهارا . وأرسل لورد كرومر إلى وزير الخارجية يحذره من فعال العامة ، ويقول أن بقاء تلك الدوارع فى مياه الإسكندرية أمر قضت به حالة البلد السياسية ، فلا مندوحة عنه ، وكلم[١٩٠] فى ذلك أيضا ، فأكبر الأمير هذا الأمر وجعل يمر بركبه فى مساء كل يوم شوارع البلد وأحياء النزلاء وعلى يساره عمه الأمير فؤاد . وأعقب هذا أن أشاعت صحفة[١٩١] الإحتلال ظهور حركة الدراويش بناحية دنقلة وقيام عثمان تلازرق[١٩٢] فى ركب عظيم إلى الضفة الجنوبية من

---

(١٨٦) واكبار = واعتبار .

(١٨٧) وردد = ورود .

(١٨٨) يترولون = ينزلون .

(١٨٩) ولا إجتماع = ولا الإجتماع .

(١٩٠) وكلم = وكلم الأمير أضيفت ليستقيم النص .

(١٩١) صحفة = صحيفة ــ يقصد الكاتب جريدة المقطم ــ راجع حاشية ٥ ص ١٧٧ .

(١٩٢) عثمان تلازرق = عثمان الأزرق ــ أحد قادة الثوار المهديين فى عهد الخليفة التعايشى ــ شارك فى معركة توشكى (أغسطس ١٨٨٩) التى قادها الجنرال granvil ــ ونجا منها واستأنف معاركه ضد القوات المصرية على الحدود خلال السنوات التالية .

ــ راجع جورجى زيدان (تاريخ مصر الحديث) مرجع سبق ذكره ــ ص ٣١٥ .

النيل ، قالت للإنتقام من وقعة (ابنكول)[١٩٣] وشن الغارة على القرى الواقعة هناك . فاهتم لذلك كبار الجند بديوان الحرب وسيروا على الفور فرقة المشاة الثالثة نجدة للمرابطين على التخوم ، وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل ومنازل الجند بالعباسية ، وجعلت دواب حمل العساكر الإنجليزية وعجلاتهم تغدو وتروح ما بين قلعة الجبل وقصر النيل ومنازلهم بالعباسية حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب وتطاحن الفريقان عند التخوم . أخبرنى ثقة من أهل الحل والعقد قال أو تظن أن الحرب قائمة على التخوم الآن قلت ولمالا[١٩٤] وقد قام جند الفرقة الثالثة إلى نجدة[١٩٥] وها[١٩٦] عثمان الأزرق يضرب بمن معه طول البلاد وعرضها . قال أقسم أنه إن لم يكن الإنجليز هم محركو عثمان الأزرق بعد عثمان الأصفر وعثمان الأحمر لبعض مرامائهم[١٩٧] السياسية فلا شك عندى أنهم ماداموا على حالهم هذه عند التخوم فهم علة تلك الغزوات المتتابع وقوعها على أهل التخوم الضعفاء ومستبيحو عساكرنا هلاكا وشقاء فى الدفاع عما تنتجه كل يوم فعلتهم التى لم تخف على أحد ، فالله من وراء ما يفعلون . واتفق أن سار اللور(١٩٨) كرومر من القاهرة إلى الإسكندرية ثالث عشر ذى القعدة من السنة يريد لقاء الأمير بمصيفه ، فتطير الناس من ذلك وظنوا أن لذهابه علاقة بحركة عثماء[١٩٩] الأزرق على التخوم أو بسفن حربهم التى جاءت فى هذه الأيام بغير سبب فملأت ميناء الإسكندرية داخلا وخارجا . فلاقاه ولبث بحضرته برهة لطيفة ثم قفل راجعا من يومه إلى القاهرة . وأصبح وقد ازدحمت

(١٩٣) ابنكول = يحتمل أن تكون امبيجول ـ وكانت قد وقعت بها معركة فى ديسمبر ١٨٩٢ عندما هاجم الدراويش حدود مصر الجنوبية .
ـ راجع (أورطة البنادق الثامنة المشاة) ـ وزارة الحربية ـ المتحف الحربى ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ٢١ .
(١٩٤) ولما لا = ولم لا .
(١٩٥) نجدة = نجدة المرابطين .
(١٩٦) وها = وهاهو .
(١٩٧) مراماثهم = مراميهم .
(١٩٨) اللور = اللورد .
(١٩٩) عثماء = عثمان .

شوارع البلد بعساكرهم تغدو وتروح مشاة وركبانا من قصر النيل إلى العباسية ، ومن قلعة الجبل إلى قصر النيل ، وهم على أتم ما يكون من الأهبة والإستعداد ، وخلفهم المدافع والمكاحل وعربات النقل ، فجفل الناس منه[٢٠٠] ذلك وانكمش العامة وظنوا أن وراء هذه الحركة ما وراثها ، فلم يخالطوا صفوف العسكر على عادتهم فى مثل هذه الحال ، ولم يترامحوا حولهم ليداعبونهم ويسخرون منهم كما كانوا يفعلون . وقضى الجند ذلك اليوم وهم على هذه الحال من التطواف والسعى طائفة خلف الأخرى حتى قربت الشمس من المغيب ، فعادوا إلى منازلهم وأمامهم موسيقاتهم تنشد نشيد النصر .

وكان أهل الرأى يتخوفون من هذه المغامز ويظنون أن ورائها منع كل نافعة للبلاد وتضييق دائرة نفوذ أصحاب المناصب العالية وأهل الخطط ، وهى خطة لورد كرومر عند وقوع المغاضبة بينه وبين الأمير ، فلم يصب ظنهم المرمى إذ رسم الخديوى بناء على ما قرره مجلس الوزراء فى تاسع عشر القعدة من السنة بإنشاء ترعتى المقاطفية وأم دينار بولاية الجيزة ، وتحديد ترعة السوهاجية بولاية أسيوط . واهتم مجلس شورى القوانين ببحث ميزانية الحكومة ، واعترض على الإنجليز لكثرة مصروفات ديوان الحرب وديوان التنظيم والرى ، وقامت ضجة أصحاب الصحف على عادتها عند سماع كل ناعق ، وانتقدوا خبر تسيير المسيو(براوه) كاتب سر وزارة الأشغال العمومية إلى عواصم أوروبا للمخابرة مع جماعة المهندسين الذين وضعوا مشروع إنشاء مجارى[٢٠١] القاهرة ، وقالوا أن إرسال الرجل ضرب من التبذير ومنتهى الإصراف[٢٠٢] ، لأن

(٢٠٠) منه = من .
(٢٠١) بدئ فى التفكير فى مشروع مجارى القاهرة منذ عام ١٨٨٥ ، وتشكلت منذ ذلك الوقت عدة لجان من المتخصصين لدراسته ـ لكن التحضير للمشروع لم يبدأ إلا فى عام ١٩٠٦ عندما استدعت حكومة مصطفى فهمى باشا (١٢ نوفمبر ١٨٩٥ ـ ١١ نوفمبر ١٩٠٨) «جناب المستر كاركيت جيمس» وعهدت إليه بتحضير المشروع ـ فأتمه فى عام ١٩٠٧ ، وتم إعتماده ـ وبدئ فى تنفيذه عام ١٩٠٩ ـ وتمت إدارته عام ١٩١٤ .
ـ راجع (تقويم سنة ١٩٣٣) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٣٥ .
(٢٠٢) الإصراف = الإسراف .

أولئك المهندسون قد لبثوا بالقاهرة ما شاءوا أو شاءت أعمالهم ، فما ضر الحكومة لو استطلعت آرائهم فى المشروع قبل قيامهم ، وما كان إغناها عن تبديد أموال الخزينة على كلام لا هو فى العير ولا فى النفير . وكان إرسال ذلك الكاتب إلى عواصم أوروبا بإيعاز من لورد كرومر لأنه من صنائعه . وممن أقام النكير على جماعة الإنجليز وأكثر من الجلبة والضوضاء صاحب (الأستاذ) وهو(عبد الله نديم)(٢٠٣) صاحب (التنكيت ـ والتبكيت) على عهد الثورة العرابية وصاحب اليد الطولى فى اضطرام نارها كما مر بك بيان ذلك فى محله ، فقد قام يكيل للإنجليز بالكيل الوافى واشتد فى تعنيفهم شدة بالغة ، وشهر بأعمالهم تشهيرا شائنا . فاهتزت لأقواله كراسيهم ، وامتعضت أصحاب صحفهم ، وصاحوا بالقول والحرب ، وكلم لورد كرومر الرئيس مصطفى رياض باشا فى معاقبة عبدالله وإبطال صحيفته ، وشدد فى ذلك كثيرا . فأرسل

---

(٢٠٣) عبدالله النديم = عبد الله مصباح إبراهيم الحسنى (الشهير بعبدالله النديم) ـ صحفى وسياسى ومفكر مصرى ـ ولد بالإسكندرية عام ١٨٤٣ لأسرة كادحة ـ تعلم فى الكتاتيب ، ثم درس بالمعاهد الدينية بعض الوقت وتركها ليعمل بصناعة التلغراف فى سن السابعة عشرة واستقر بعد ذلك بالقاهرة حيث جالس الأدباء وصفوة العصر من المفكرين والساسة فثقف نفسه ثقافه ذاتية .
إنتظم المترجم بمجالس المفكر الثائر جمال الدين الأفغانى وتتلمذ على يديه ، ثم تقلب فى العديد من المهن ثم انضم إلى الحركة الماسونية وكتب فى صحيفتيها (مصر) و(التجارة) .
إنضم النديم إلى الحركة العرابية فى بدء قيامها وشارك فيها حتى النهاية ثم اختفى بعد هزيمتها فى سبتمبر ١٨٨٢ . فى ٣ أكتوبر ١٨٩١ قبض عليه وتقرر نفيه إلى الشام ـ عفا عنه عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ ـ ١٩١٤) فى مايو ١٨٩٢ . أصدر مجلة (الأستاذ) فى أغسطس ١٨٩٢ واستخدمها فى مهاجمة الإحتلال البريطانى وأعوانه حتى اضطرت الحكومة إلى إنذارها بناء على طلب كرومر فى مارس ١٨٩٣ . نفى المترجم إلى يافا فى يونيو ١٨٩٣ بناء على طلب سلطات الإحتلال البريطانى . فى يافا لم تطل إقامته نظراً لمهاجمته سياسة الدولة العثمانية فتقرر طرده منها حيث أبعد إلى الاسكندرية ومنها أرسل إلى الأستانة حيث عين مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى ـ وتوفى بالأستانة فى ١٣ أكتوبر ١٨٩٦ عن عمر يناهز الثانية والخمسين . من أهم الصحف التى أصدرها (التنكيت والتبكيت) وهى صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية صدرت فى يونيو ١٨٨١ ، وكذلك (الطائف) وهما من الصحف التى ناصرت الثورة العرابية ـ وتم إغلاقهما بعد فشل الثورة .
ـ راجع عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى (عبدالله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية) مرجع سبق ذكره ـ مواضع متفرقة .
ـ إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٦ .

الرئيس إلى عبدالله ينذره ويتوعده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يقلع عن خطته ، فلم يرض ذلك جماعة الإنجليز ، وانجنوا[٢٠٤] باللائمة على الرئيس ، وكلم لورد كرومر الأمير فى ذلك وشكا من فعال الرئيس . يقال كان كرومر يكلم الأمير فى الأمر وهو يرعد ويزبد كمن أصابه مس من الجن ، والأمير هادىء اللب ساكن القلب ، لم تغير مغامز كرومر شيئا من وقاره وهيبته . وما هى إلا أيام قلاقل[٢٠٥] حتى قام أصحاب الصحف الفرنساوية المرتزقة من جماعة الإنجليز يشددون[٢٠٦] بالأمير ، ويقبحون إغفائه عن مكايد الرئيس مصطفى رياض باشا . فلم يحفل الأمير بذلك ولا أحله محلا ، واستقدم الرئيس تكران[٢٠٧] باشا من القاهرة إلى قصره إلى بالمنتزه ، وكلمهما[٢٠٨] فيما لم تصل الينا معرفته . شاع الخبر عقب ذلك بعزم الأمير على الذهاب إلى دار السلطنة للمثول بين يدى السلطان ، وأن ذهابه سيكون فى العشرة الأيام الأولى من شهر أغسطس من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وثمنمائة وألف وفى ركابه سائر رجال ديوانه ، فلبث[٢٠٩] هناك أياما ثم يعود فى أخريات الشهر إلى مقر حكومته . فأول الناس ذهابه فى ذلك الحين كثيرا وكلهم مجمع على أنه ضرب من ضروب الحكمة وإحالة[٢١٠] الرأى ، كأن يقول لجماعة الإنجليز أن البلاد التى أنتم محتلوها هى عثمانية وأن أميرها ما برح تابع للعرش العثمانى لا يبعده عنه مباعد .

واتفق فى سادس عشرى ذى القعدة من السنة أى سنة عشرة وثلثمائة وألف وثانى عشر يوليو سنة ثلاث وتسعين وثمنمائة وألف أن قام جماعة من

(٢٠٤) وأنجنوا = وأنحوا .
(٢٠٥) قلاقل = قلائل .
(٢٠٦) يشددون = ينددون .
(٢٠٧) تكران باشا = ناظر الخارجية فى نظارة رياض باشا الثالثة (١٩ يناير ١٨٩٣ ـ ١٥ ابريل ١٨٩٤) .
(٢٠٨) وكلمهما = وكلمه .
(٢٠٩) فلبث = فيلبث .
(٢١٠) وإحالة = وأصالة .

مسجونى ليمان طره المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة وعددهم ستمائة وعشرين سجينا على من كان يحرسهم من أصحاب الشرطة وغيرهم وعددهم سبعة وعشرين نفرا وضربوهم بالحجارة وفروا إلى أعالى جبل طره ، فتبعهم الحرس وأطلقوا عليهم بنادقهم تباعا ، فقتل من الأشقياء تسعة وثلاثين ، ونجا أحد عشر وقبض على الباقى . فما شاع خبر ذلك حتى قامت ضجة أصحاب الصحف المحلية ونادوا بالويل والثبور وعظايم الامور على جماعة الإنجليز المتوليين زعامة السجون ، وقالوا أنهم إنما يفعلون ذلك تهديدا لأهل البلاد ووعيدا إن هم ظلوا على بغضهم للمحتلين وكرههم لفعال عميدهم . وأطالوا الكلام فى ذلك أياما حتى استقدم الأمير ثانية الرئيس مصطفى رياض باشا لقصره بالإسكندرية ومعه تكران باشا ناظر الخارجيه وكلمهما فى ذلك . وعندى أن لا يد لجماعة الإنجليز فى هذا الأمر ، لأن قتل نفر من أصحاب الجرائم الكبرى قد تعمد[٢١١] من قتل الحراس والفرار من معتقلهم لا شىء من ورائه إلا وقوع ما وقع . ولو فعل الحراس خلاف ذلك لعدت لهم خيانة وجبنا ولاستخف بهم أهل تلك الجيوش[٢١١ مكرر] الذين يتجاوز عددهم إلى ذلك العهد الخمسة آلاف سجين ، ولتفرقوا فى البلاد وعرضها وعاثوا فيها فسادا ، فيختل الأمن وتتلاشى هيبة الهيئة الحاكمة وتزول سطوتها ، فتكون العاقبة شرا ووبالا تراق فى سبيله دماء العشرات والمائتين من خلف[٢١٢] الله من الأبرياء . وأعقب ذلك أن رسم أهل الحل والعقد بتشغيل المسجونين والمحبوسين فى سائر الجيوش[٢١٣] فى صنائعهم وحرفهم التى كانوا يحترفون بها ، فأفادوا واستفادوا وقلت جرايمهم داخل الجيوش[٢١٤] ، الناجمة عن بطالتهم وتركهم كسالى

(٢١١) تعمد من = تعمدوا .
(٢١١ مكرر) الجيوش = الحبوس قراءة ترجيحية .
(٢١٢) خلف = خلق .
(٢١٣) الجيوش = السجون .
(٢١٤) الجيوش = السجون .

يرقدون تحت الشمس . وكانت هذه الفكره من أجل الفكر . واشتدت الهواجس وكبر خوف أهل الإسكندرية والقاهرة من حدوث حادث طبيعى بميناء الإسكندرية الشرقى . ذلك أنهم شاهدوا فى غرة ذى القعدة من السنة أى سادس عشر يوليو بعد العشاء الأولى أنوارا بيضاء كأنوار الكهرباء تنبعث من مياه الميناء وتنتشر على سطحها فتضىء أرجاء الميناء كلها . فتحدثوا فى أمرها كثيرا وتخوفوا منها وقال بعضهم أنه دليل على حدوث زلزال شديد لا يبقى ولا يذر ، وبعضهم قال أنها دليل على وقوع حرب وموت عظماء وكبراء ، وبعضهم قال أنها تدل على انقلاب عظيم فى المملكه ووقوع حوادث محزنة ، وبعضهم قال غير ذلك . والصحيح أن هذه الظواهر المنيرة تحدث عادة إما عن عظام رميمة مكلسة تقذف على وجه الماء لأن فيها شيئا من الفوصفور ، وإما عن حيوانات صغيره بحرية لا فقار لها تتجمع كالسحابات تحت مياه البحر ، فإذا هبت الريح وارتفعت الأمواج ثم انقلبت على نفسها اتصل ظاهر تلك الحيوانات بعضها أو كلها بأوكسجين الهواء واحترق وأظهر ذلك المنظر المنور الذى كان يشاهد بالميناء الشرقى اليوم ، وقد حققه[٢١٥] ذلك جماعة العلماء الذين جعلوا يراقبون ظهر[٢١٦] تلك الأنوار ليالى كثيرة ، ثم أخذوا كمية من الماء وقطروها ووجدوا فيها شيئا كثيرا من الحيوان المذكور ، فكتبوا عنه وأزاعوا[٢١٧] خبره ، فلم يغنى شيئا وظل الناس على حالهم من القيل والقال أياما حتى زالت تلك الأنوار تماما فاطمئنوا وزالت عنهم هواجسهم .

وجاء الخبر من مكة إلى قصر الإمارة بوقوع الوباء وموت الكثيرين من الحجاج ، وأنه يزاد فى كل يوم ويشتد شدة بالغة رغما عن التحوطات الصحية ، ولا يؤمل تخفيف وطاته إلا بعد عيد الأضحاء . فاهتم أولى الامر لذلك جدا ،

(٢١٥) حققه = حقق .

(٢١٦) ظهر = ظهور .

(٢١٧) وأزاعوا = وأذاعوا .

وسيروا الأطباء والممرضين والأدواء والأسرة ومعدات التطهير إلى (محجر الطور) ، ورتبوا المكلفين بالعمل ، وباخرة لنقل الأخبار من المحجر ، وطاف مشايخ الحارات وأصحاب الشحنه يحضون سكان الأطراف على تنظيف مساكنهم ورشها بالجير فى الداخل والخارج ، وتطهير المجارى والمراحيض ، وهدم العشش والتخاشيب ، وكسح مراحيض الجوامع . واهتم أصحاب الشحنه بسد سائر المجارى التى تصب فى الترع والبرك ، وأغلقوا سائر الآبار المشتبه فيها ، وتنظيف مواقف المركبات ، منع[٢١٨] الزبالة من أن تحرق فى مواقد الحمامات ، والأقذار من أن تلقى على شواطىء الترع والنيل ، وملاحظة المأكولات والفاكهة والسمك واللحوم ، ومراعاة النظافة أمام المنازل والحوانيت بالكنس والرش كل يوم مرتين . وشكلوا لتنفيذ جميع ما ذكر فى المديريات والمحافظات من مدير الجهة أو المحافظة والحكمدار ومفتش الصحة والمهندس ، وأن يخبر كل طبيب وحلاق (وقابلة) بما يحصل لديهم من الأمراض المشتبه بها ، وكل مخالفة تحصل عن ذلك يعاقب مرتكبها بالغرامة والسجن . فأكبر الناس ذلك وأعظموه وظنوا أن الوباء داخل سائر البلاد ولا محالة . وكانت الأخبار ترد تباعا باشتداد الوباء وتفشى الموت بين الحجاج تفشيا مريعا ، حتى أقبل عيد الأضحى عاشر الحجة من السنة أى سنة عشر وثلثمائة وألف ، فسافر الوجوه والأعيان وأرباب الخطط ــ وأصحاب المناصب والأمراء والكبراء وقناصل الدول لثغر الإسكندرية لحضور العيد ، وازدحم جميعهم على باب الأمير بقصر رأس التين ، ودخلوا فهنأوه بحلول العيد . ووردت على ديوانه رسائل التهانى وأبيات المديح من كل صوب وحدب وهناؤه[٢١٩] أحدهم بأبيات يقول :

(٢١٨) منع = ومنع .
(٢١٩) وهناؤه = وهناه .

هو العيد من مراك[٢٢٠] يحسب أعيادا ... لانك فرد فقت جميعا[٢٢١] وأعدادا
مشوق إلى لقياك متخذ لها ... من النظرة الأولى إلى عامه زادا
بحلى يربع منك طاب جنانه ... فارعم اقتدارا وطاول أندادا
ويبصر منك البدر حسنا ورفعة ... وتبصر فيه الزهر نظما وانشادا
هنياء[٢٢٢] لشعب أنت عيد لعيده ... فقد أدرك النعمى ثناء وأفرادا
فذلك شعب يلتقى العيد بهجة ... بفضلك حتى يلتقى الناس حسادا
لقد جاء هذا النحر نحرا على العدى ... وأضحى بك الأضحى سرورا وإسعادا
فلا زالت الأعياد أيام رفعة ... ولا زالت الأيام عندك أعيادا
ودام أمير القطر عباسنا الذي ... لديه لسان الحال فى مدحه شادا
تبارك قطر منه بنقاد لامرئ ... له همته لو خادت النجم لانقادا
وذلك قطر كفه فيه قطره ... يجود بفوق النيل أن ينله جادا
حوى الحزم والإقدام والعلم والنهى ... وأوصاف فضل ليس تحصر تعداداً
كفى أنه فرع لأجداده الأولى[٢٢٣] ... تناسموا أصولاً فى العلاء وأجدلداً
ومن جده الجد العلى محمد ... ووالده التوفيق لابدع إن سادا
فلا برحت مصر تتعز[٢٢٤] بحزمه ... وتلبس من ثوب الهتافية[٢٢٥] إبراداً

انتهـــى

(٢٢٠) مرأك = مرآك .
(٢٢١) جميعاً = جمعاً .
(٢٢٢) هنياء = هنيأً .
(٢٢٣) الأولى = الألى .
(٢٢٤) تقعز = تعتز أو تعز .
(٢٢٥) الهتافيه = الهنافيه .

وجاء الخبر على جناح البرق فى ثانى يوم العيد باشتداد الوباء وتفشيه بين الحجاج تفشياً مريعاً حتى مات به فى يومى وقفة عرفات والعيد زهاء الثلاثة آلاف . فكبر خوف أهل القاهرة وكثر تسالهم(٢٢٦) عن ذلك ، وتزاحم بعضهم على باب وزارة الداخلية وديوان محافظة مصر ، وطاف بعضهم على بعض البيوتات الذين خرج بعض أهلها مع ركب الحاج ، فلم تر الهيئة الحاكمة بدا من نشر أخبار الوفيات فى عصر كل يوم ، ولكنها كانت مقلوبة مشوهة تطمينا للخلق . وأرسلت وزارة الداخلية كتبها تباعاً إلى مصلحة الصحة باتخاذ أشد التحوطات سواء فى مدينة السويس أو فى محجر الطور ، وإقامة مراقبة دقيقة للغاية فى رجوع ركب الحاج ، ورتبت لذلك المال الكافى ، وسيرت عسكراً كثيراً إلى الطور مدداً للمرابطين هناك لخفارة الشواطىء ، ولإقامة النطاقات منعاً لفرار المحجور عليهم .

وأظهر الأمير عزمه على الذهاب إلى دار السلطنة والمثول بين يدى السلطان ، ورسم بجعل الباخرة تقوم على قدم الأهبة والإستعداد لذلك ، ولكنه كان يتباطئ فى تجهيز متاع السفر لعله يبرح الإسكندرية قبل أن تأتى الأخبار بزوال الوباء أو بتخفيف وطئته . ومع ذلك فتد(٢٢٧) كان بعضهم يقول أنه ذهب إلى دار السلطنة فراراً من الوباء وابتعاداً عن الموت إذا وقع بالقاهرة بعد دخول ركب المحمل . وعندى أن الأمر على خلاف ما كانوا يتقولون ، فقد أخبرنى صديق من أهل المناصب أنه لما اشتد جماعة الإنجليز على الرئيس مصطفى رياض باشا وبلغت قحتهم مبلغها ، وقد نزعوا من أيدى أهل البلاد ــ بعد حادثة إسقاط الرئيس مصطفى فهمى باشا ــ سائر الوظائف الديوانية حتى لم يبق لهم منها شيئاً ، وظهر ضعف الرئيس وجبنه وعجزه عن المقاومة ، أكبر الأمير الأمر

---

(٢٢٦) تسألهم = تساؤلهم .
(٢٢٧) فتد = فقد

وأعظمه جداً ، وجعل يرسل للمابين تارة ، وسفيرى الروس والفرنسيس أخرى . وهو يرجو بعض الظفر والغلية[٢٢٨] . فلما طال الحال وأعياه عنت رجال المابين وتقلبهم مع كل ريح ، وهو على ما هو عليه من الحمية والغيرة على بلاده وأهلها ، عمد إلى الذهاب إلى دار السلطنة لعله يفوز بالذى يرجوه . فكان ما علمت من أخذه الأهبة للسفر القريب إن شاء الله أ . هـ وحدثنى أيضاً أحد المقربين من باب الأمير . قال : لم يكن فى ذهاب الأمير فى هذه الآونة إلى دار السلطنة بنى[٢٢٩] من التخرجات التى تلوكها أفواه بعض الناس ، لأن الأمير إلى ذلك العهد لم يكن قد تمثل بين يدى متبوعه لتأدية فرائض المتبوعية على ما جرت به عادة أمراء البيت العلوى عند توليهم منصب الإمارة . وقد علمت كيف قام صاحب سياسة الإنجليز وقعد ومانع فى ذهاب الأمير من يوم إرتقائه منصب الإمارة ، والأمير هادىء القلب ساكن اللب ، وهو يحاول ويطاول ويدفع غارة صاحب السياسة الإنجليزية ومع[٢٣٠] الكرام حتى غلبه أمره ، وكان ما ترى من أخذه الأهبة للسفر على (الباخرة فيوم) التى أعدوها الركابه أ . هـ . قلت وعندى أن هذه الرواية هى أصدق الروايات وأحكمها تنزيلاً حتى لقد جاء الخبر أن[٢٣١] الغازى مختار باشا من المابين بأن قدر[٢٣٢] رسم اللطان[٢٣٣] بايجار[٢٣٤] الباخرة (عز الدين) إحدى البواخر السلطانية إلى ميناء الاسكندرية ليسافر عليها مرافقاً للأمير فى مسيره إلى دار السعادة[٢٣٥] . فأول الناس هنا[٢٣٦]

---

(٢٢٨) والغليه = والغلبة .
(٢٢٩) بنى = شىء قراءة ترجيحية .
(٢٣٠) ومع = دفع .
(٢٣١) ان = إلى قراءة ترجيحية .
(٢٣٢) قدر = قد .
(٢٣٣) اللطان = السلطان .
(٢٣٤) بايجار = بإبحار .
(٢٣٥) دار السعادة = القسطنطينية ـ وتكتب در سعادت فى العثمانية القديمة ـ والمقصود بها مقر السلطنة العثمانية وعاصمتها .
ـ توركجة ـ إنكليزجه لغت كتابى ـ ردهاوس Redhouse مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٥٩ .
(٢٣٦) هنا = هذا .

الإلتفات تأويلاً كثيراً ، وحسبوا لسفر الغازى مع الأمير حساباً كبيراً . وعين الأمير يوم الأربعاء خامس شهر يوليو سنة ثلاث وتسعين وحادى عشرى الحجة سنة عشرة لعمل تشريف الوداع ، قام[٢٣٧] للإسكندرية من كل صوب وحدب . ورحل لورد كرومر عن القاهرة إلى بلاد النمسا . وكأنه قد كبر عليه عجزه عن منع الأمير عن السفر إلى دار السلطنة لاسيما وقد وصلت الباخرة السلطانية وعليها أحد الفريقان[٢٣٨] الشاهانية واسمه (إبراهيم باشا) ولد المتوفى (نامق باشا) أحد أركان الدولة ليكون فى خدمة الأمير مهمدارا[٢٣٩] . فتكلم فى ذلك أصحاب الصحف الإنجليزية وبالغوا وهولوا حتى قام أحدهم يتوعد وزارة الأحرار الإنجليزية بالويل والثبور وعظائم الأمر وتقول[٢٤٠] (على دولتنا أصلح الله حالها أن لا يفوتها ماهية المعاهدة الروسية العثمانية المعروفة بمعاهدة أوبنكاد[٢٤١] ، وأن تعلم أنه صار من المحتم عليها من أجل مصر أن لا تغفل شأنها وأن تبذل جهدها في مراقبة الحوادث وإلباس الأيام لبوسها ، وإلا كانت العاقبة شراً على سائر مستعمراتنا البريطانية) أ . هـ .

واستقبل الأمير وفود المودعين من كل رتبة ودرجة ، فكان الزحام شديداً والوجوه فرحة متهللة بلقائه . ثم رسم إلى الرئيس مصطفى رياض باشا بأن يتولى (نيابة الغيبه) ما ظل هو فى غيبته . فلما كان غلس الخميس ثانى عشرى الحجة أبحرت (الباخرة فيوم) وعليها الأمير وحاشيته وبطانته ورجال ديوانه

---

(٢٣٧) قام = وقام .

(٢٣٨) الفريقان = جمع رتبة فريق باللغة الفارسية ــ كأن تقول مدرسة المبتديان وتعنى مدرسة المبتدئين ــ حضرات الضابطان وتعنى حضرات الضباط

(٢٣٩) مهمدار = مهمندار = موظف عمومى مهمته إستقبال المسافرين ذوى الاعتبار كضيوف الدولة ــ أو مرافق رسمى فى سفر شخصية هامة خلال رحلته ــ وتكتب مهماندار Mihmandar .
ــ ردهاوس Redhouse ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٠٤٧ .

(٢٤٠) وتقول = وقال : قراءة ترجيحية .

(٢٤١) معاهدة أوبنكاد = لم أجد أسماً لمعاهدة بهذا الاسم بين روسيا والدولة العثمانية .

الخاص ، وقد تأخرت الباخرة (عز الدين) عن اللحاق (بالباخرة فيوم) زهاء ساعتين اثنتين لعطل كان أصابها ، فكان السرور بسفر الأمير عاماً ، والفرح شاملاً أصحاب الوظائف وأهل الخطط لفوز الأمير بأمنيته ، وتغلبه على كل دسيسة . وقام أصحاب الصحف المحلية يرددون آيات المدح والثناء على حسن سياسة الأمير وحزمه المتناهى ، وهنأه بذلك شاعر ديوانه «أحمد شوقى» بقصيدة وهى :

بصوتك حاججتنا الممالك والعصراء ... وقلنا فبات مصر فى مجدها مصراً
وباسمك أسمعنا نريد زماننا ... كبيراً كعهد العالمين به حراً
وتطلب حقاً عن هذا الورى لنا ... توضح يزرى فى توضحه الفجرا
فتى الملك فى حب ذا الملك سيرة ... فقل لى وأن من يرى أمرك الأمرا
فبأى فواد جئتها فى مكانها ... من الدهر لم تخطئ عزائمك الدهرا
ولاعين فيها البأس والرأى والحجى ... خصوة وذاك الملك والبر والبحرا
فما ذقت فى هذا المقام مودة ... لقوم يذوق الناس درهم فسرا
يريدون نسز[٢٤٢] النيل مرسل رأسه ... ويأبى أياء[٢٤٣] النسر أن يخذل النسر[٢٤٤]
إذا حمت النيل المؤمل راحة ... فقد رحمت الشمس الكريمة والبدرا
وصلت نظارما[٢٤٥] من نعيم وكدرت ... فسارع[٢٤٦] الرمل تجمعها طراً
وإنا لنعطى النيل فى الله غلته[٢٤٧] ... ونخشاه فيه أن يباع أو يشترى[٢٤٨]
فما ساءنا أن غالنا الدهر شطرنا ... ولكننا نرعى لأبنائه الشطرا

---

(٢٤٢) نسنر = نسر .
(٢٤٣) أياء = أباء .
(٢٤٤) النسر = النسرا .
(٢٤٥) نظارما = نظاما .
(٢٤٦) فسارع = فشارع .
(٢٤٧) غلقه = غلة .
(٢٤٨) سيشترى = يشرى .

بعثنا وعيد من زئير وطالما ... بعثنا السكون الجم والمنتظر الشزرا
وجنينا حمل الضغينه إننا ... من الوثبه الصغرى إلى الوثبه الكبرى
وأنا لهذا فى الزمان ومثاله ... وأن لنا عند الزمان به عذا
عرفنا خطوب الدهر والصبر عندنا ... فلم نعرف الخطب الذى علب[٢٤٩] الصبرا
وما نلت يا عباس ما نلته سدى ... ولكن أصاب الصابرون منك الأجرا
سندعو بنى الدنيا إلى النيل دعوة ... يلبون منها الجاه والنائل الغمرا
وملكاً كما تهوى الأحاديث عالياً ... كأن الخديوى فيه قيصر أو كثرى[٢٥٠]
تضيء به شورى المرائى التى زكرت ... وتسرف أركان القضاء الذى برا
وتمرح فى أيامه النفس حرة ... تنازلها قشا وتلبسها خضرا
إذا مدت الأعناق للفخر أمة ... مددنا فخاراً بعباسنا الفخرا
بحلمى المعالى والعدالات والندى ... وركن بناها وابن دولتها الغرا
فكل عفاف فى الجميل الذى ارتدى ... وكل فخار فى القشيب الذى جرا
أمولاى بى شوق إلى رب نعمتى ... ونعماك بالشوق بعثت أدرى
وما زلت فى حفظ الذى قمر[٢٥١] الندى ... بحل وثاقى أنه بالندى أحرى
ذكرت بك العيد الكبير وإننى ... أرى الزورة العليا تذكرنا الذكرى
رحيل غذا من يعد ذا العيد محله ... يعيد به أفراحه تارة أخرى
فيحضرنى إذ يحضر الإنس والرضى ... ومجد بلادى والزمان الذى سرا
هنالك يهتز الرواة كأنما ... يرون بهذا السر[٢٥٢] فى فهمى الشعرى

إنتهى

---

(٢٤٩) علب = غلب .
(٢٥٠) كثرى = كسرى .
(٢٥١) قمر = أمر .
(٢٥٢) السر = الشعر .

وجاء الخبر من دار السلطنة بوصول الأمير إليها صباح يوم الثلاثاء خامس عشرى الحجة من السنة بعد سفر سعيد . فما رست باخرة(٢٥٣) فيوم حتى سيز إليه السلطان (رائف باشا) و(شاكر باشا) من رجال التشريفات السلطانية ، فنثارا في ركابه إلى قصر يلدز(٢٥٤) ، فلاقاه السلطان وأكرم لقائه ، ودعاه ومن معه من الحشم ورجال الديوان الخاص إلى تناول الطعام على المائدة السلطانية ، ثم أمر فأعدوا له قصراً فاخراً ، فنزل فيه مع خدمه وحشمه وأتباعه ، فزارة (الصدر الأعظم)(٢٥٥) وتزاحمته سفراء الدول ، ثم استقدمه السلطان وألبسه بيده (نيشان

(٢٥٣) باخرة = الباخرة .

(٢٥٤) قصر يلدز = يلديز ــ كوشكى Yıldız Kiosk ، مقر إقامة السلطان العثمانى فى الفترة الحديثة التى انفتحت فيها الدولة العثمانية على الغرب ــ مع تولى محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) السلطة دخلت الدولة العثمانية مرحلة إنفتاح على الغرب تحولت فيها نظرة الإنبهار والإعجاب به (الغرب) إلى رغبة فى هجر الأساليب العثمانية التقليدية والتحول نحو أساليب تضمن لها البقاء ومواجهة أوروبا التكنولوجية المتقدمة .

بدأ محمود ذلك بنقل مقره عام ١٨١٥ من قصر طوبقابو Topkapı الواقع على مرتفعات إستانبول القديمة إلى قصر أكثر حداثة بنى على طول البوسفور Bosporus عند ضولمه باغجه Dolmabahce . ظل ضولمه باغجه هو المقر الرسمى للسلطان حتى قام عبد العزيز (١٨٦١ ــ ١٨٧٦) بنقل مقره إلى قصر أحدث بنى على مرتفعات يلدز Yıldız فى أواخر القرن التاسع عشر . فى القصر الجديد تغيرت الوسائد والحشايا والدواوين إلى الأرائك السريرية Sofa ، والموائد، والكراسى ــ وتحول الملبس إلى ما يماثل ملبس الملوك الأوروبيين ، وقصرت اللحى ، ودخلت السروايل الأوروبية ، ومعاطف الفروك Frock ، وشهدت استانبول الحفلات العامة ، والكونشرتو Concerts ، والأوبرا ، وعروض الباليه ــ وتحولت الفرقة الموسيقية السلطانية (خاصة Hassa) إلى فرقة عسكرية على الأسلوب الغربى بمساعدة الفنان دونيزتى Donizetti . وهكذا فإن بناء ضولمه باغجه على ضفاف البوسفور ثم الإنتقال إلى يلدز كوشكى كان يعنى الانتقال من عصور السلاطين القدامى فى طوب قابوسراى فى استانبول إلى عصور التحديث والتحول من العمامة إلى الطربوش .

ــ "History of the Ottoman Empire and Modern Turkey" Ibid. - P . 82

ــ ردهاوس ــ مرجع سبق ذكره ص ٢٢٠٨ .

(٢٥٥) الصدر الأعظم = لقب عثمانى يقابل لقب رئيس الوزراء فى الوقت الحديث ــ فى أول عهد الدولة العثمانية كان صاحب المنصب يسمى بيرفانجى Pervangi ــ وفى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ ــ ١٤٨١) سمى (وكيلى مطلق) ثم تعدل الإسم إلى (أولو وزير Ulu vezir) أو (وزير أعظم Veziri A'zam) ثم أصبح الإسم بعد ذلك هو الصدر الأعظم .

ــ عبد الوهاب بكر «جذور مصر الحديثة» ــ مكتبة نهضة الشرق ــ القاهرة ١٩٨٥ ــ ص ٧٧ حاشية ٩ .

الأستاذ) المرصع . وقد إستأذن جده إسماعيل المابين فأذن له بزيارته ، فزاره على ظهر الباخرة ، قبل وضمه إلى صدره وبكى بكاءاً مرا ، فقبل الأمير يده وأظهر له غاية التلطف والحنو . وشاع خبر ذلك وتحدث الناس فيه كثيراً ، فلم يعجب جماعة الإنجليز وصحفهم ، وألبسوا الحادث ثوب الإزدراء والتهكم ، ورموا الأمير بشيء من التهم التى لاحقيقة لها عساهم يستغضبون السلطان أو يحولون دون مقاصد الأمير .

وكان الناس فى شاغل عن نزهات[٢٥٦] صحف الإنجليز ومفترياتهم بحوادث الوباء واشتداده وقرب قدوم الحجاج إلى محجر الطور . فقد كانت أجاده[٢٥٧] تأتى تباعاً من مكة وجدة ، وكلها تقول بكثرة الموت وتفشى الوباء تفشياً مريعاً جداً . وما هى إلا أيام حتى بدأت السفن تأتى بالحجاج إلى الطور . فكانت أول باخرة وصلت الباخره العثمانية (مورفه) وعليها تسعمائة وعشرة حجاج أتراك ، وقد توفى منهم ستين بالزرب[٢٥٨] مدة السفر ، ثم الباخرة (جورجى) الإنجليزية وعليها مائة خمسة وعشرين حاجاً مصرياً ، ثم الباخره (عبد القادر) العثمانية وعليها ألف ومايتين خمسة وثلاثين حاجاً تركياً ، وقد مات منهم عدداً كبيراً بالزرب ، ووصلت أخرى إنجليزية وأخرى فرصيه[٢٥٩] ، وأخرى عثمانية . وهكذا تتابع قدوم البواخر ملأ[٢٦٠] بالحجاج على اختلاف أجناسهم ، قلم[٢٦١] يبيتوا بمضارب المحجر إلا ليالى قلايل حتى انتشر الوباء داخل المضارب ، وتفشى الموت بين سائر الحجاج ، واختلط الحال على أطباء ومأمورى المحجر ، وأرسلت وزارة الداخلية كتبها فشددت عليهم بالسهر ودقة الإلتفات . واجتمعت اللجنة الصحية التنفيذية وقررت أن يكتب إلى مأمورى

(٢٥٦) نزهات = ترهات .
(٢٥٧) أجاده = أخباره .
(٢٥٨) الزرب = يحتمل أن يكون المقصود هو مرض الدوسنتاريا المعروفة بالزحار ، أو الإسهال .
(٢٥٩) فرصية = فرنسية قراءة ترجيحية .
(٢٦٠) ملأ = ملأى .
(٢٦١) قلم = فلم .

الأقسام بأن يراقبوا أصحاب الحملمات ويلزموهم بهدم سائر العشش الكائنة فى مستوقدات حماماتهم ، وكذلك أصحاب الأفران بمنع إحراق الزبالة فى الأفران .وطاف (مشايخ[٢٦٢] الحارات) على بيوت الخطط القديمة يستفزون

(٢٦٢) مشايخ الحارات = كان من أبرز سمات القاهرة العثمانية ، الغيبة التامة لمؤسسات الإدارة التمدينية على مستوى التنظيم الشعبى وعلى مستوى السلطة الحاكمة . ويمكن العودة إلى ما قبل العصر العثمانى عندما كانت مسئولية الشئون العامة لاتدخل فى اختصاص أى إدارة حكومية أو تنظيم أهلى . ومع هذا فإن ظهور التنظيمات المهنية (الطوائف) ومنظمات الأحياء (الحارات) شكل بنية حضارية هامة خلال العصر العثمانى .
مثل التجمع المهنى (طوائف الحرف) فى العصر العثمانى جهازاً يمكن السلطة الحاكمة من الإشراف على الطبقة العاملة بالمدينة ـ فقد توسط شيوخ الطوائف المهنية فى المشاجرات التى كانت تنشب بين أبناء الطائفة ، ونظموا المنافسات ـ وعاقبوا المسيئين ، مديرين بذلك المدينة وحافظين للنظام بها . من هنا فإن الحكام لجأوا إلى هذه الطوائف وشيوخها عند حاجتهم لإنجاز بعض أعمال البناء أو النظافة أو لتأمين خدمات معينة (الحرائق على سبيل المثال) .
من هذا المنطلق لجأت السلطات الحاكمة إلى الوحدات الاجتماعية لتكون بمثابة الصلة بينها وبين الناس . وهكذا فإن الحملة الفرنسية استطاعت أن تضع قائمة بأسماء أكثر من ستين شيخ حارة تخضع لسلطتهم حارات المدينة . وتكشف وثائق الحملة الفرنسية أن شيخ الحارة كان يعاونه (نقيب) أو أكثر ـ وقد دعى مشايخ الحارات أثناء الإحتلال الفرنسى إلى المساهمة فى حفظ النظام ، كما قاموا بدور فعال فى إحصاء النفوس فى ٣١ أكتوبر ١٧٩٨ . ويمكن القول أن مهمة مشايخ الحارات أثناء الحملة الفرنسية كانت ضمان الأهالى من أبناء حاراتهم أمام السلطات ومسئوليتهم عن أى اضطراب قد ينشأ فيها . ومع هذا فيفترض أن دور هؤلاء المشايخ خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كان يماثل إلتزامات رجال الشرطة فيما يتعلق بحفظ النظام ومراقبة العناصر (الغريبة) . وبحكم اتصال مشايخ الحارات المباشر بأهالى الحارة فقد كانوا فى مكان يسمح لهم أن يلعبوا دوراً (إدارياً) ـ فقد كانوا يدعون للإشتراك فى تصفية تركات الخاضعين لإدارتهم فى مقابل (عوايد) تعادل ٢ ـ ٣٪ من مجموع التركة ـ وبصفة عامة فإن مشايخ الحارات كانوا (واسطة اتصال) بين السلطة والرعايا بصورة تماثل الدور الذى كان يلعبه (مشايخ الطوائف) فى العصر العثمانى .
عندما تولى محمد على السلطة فى مصر فإن القاهرة كانت مقسمة ـ مثلما كان أيام الحملة الفرنسية ـ إلى ثمانية أثمان يسمى كل منها (ثمن) ـ وكان الثمن ينقسم إلى شياخات تكثر أو تقل وفقاً لمساحته ـ كما كانت الشياخة تنقسم إلى (حوارى) . ويعنينا فى هذا المقام دور (مشايخ الحارات) الذى تلخص فى قضاء حاجات الناس اليومية كتقديم الضمانات ـ الإرشاد عن المطلوبين ـ إستخراج تراخيص البناء وأعمال الحفر ـ والتصديق على الشهادات الإدارية التى تطلبها جهات الحكومة .
ومع تطور جهاز الأمن فى نهايات عصر محمد على ـ وفى عهد سعيد وإسماعيل ، وقيام (جهاز الضبطية) أصبح دور مشايخ الحارات أكثر تحديداً عندما عهد إليهم ملاحظة أعمال الكنس والرش فى الشوارع والحارات وإزالة القاذورات ومنع الإزدحام فى الطرق والشوارع ومراقبة البائعين وإزالة مخلفات البناء والأتربة والتوجه إلى أماكن الحريق للمشاركة مع السقائين ومشايخ الأثمان فى عمليات الإطفاء ـ كما كان هناك نظام يقضى بمبيت شيخين من مشايخ حوارى المدينة فى الثمن بالتناوب . وفى عام ١٨٨٠ أعطى قانون «إجراءات وتخصصات مأمورى ضبطيات الأثمان والذى أطلق عليه اسم (التعليمنامة) ـ أعطى لمشايخ الحارات الحق فى منع المتجرات بأعراضهن من السكن فى «وسط محلات الأحرار» ومنع إختلاط النساء بالرجال عند الأضرحة=

أصحابها إلى نظافتها ورشها بالجير ، وشددوا فى ذلك كثيراً ، وأزعجوا الفقراء منهم إزعاجاً كبيراً ، فضجوا وعجوا إلى الله تعالى ، وتزاحموا على باب محافظ البلد يسألونه ترك هذه المحنة التى لاقبل لهم على تحمل نفقتها ، فشاور الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك ، فأجابهم إلى طلبهم بعد تردد كثير . ووصلت إلى ثغر الاسكندرية باخرة فرنساوية وفيها جماعة من المسافرين ، فما ألقت مرساها حتى علم رجال المجلس الصحى أن بها مريضاً مشتبه فى مرضه ، فقاموا وقعدوا وقرروا بإنزال ذلك المريض إلى المستشفى الأميرى ، فأنزل على عجل ، وشاع خبره ، فخاف النزلاء وأهل البلد خوفاً شديداً ، وكثر تحدثهم فى مرضه ، وأنه مصاب بالهواء الأصفر[٢٦٣] ، وجاء خبره إلى القاهرة

= والموالد ، وهى سلطات تقترب من دور شرطة الآداب فى الوقت الحالى .
فى تسعينيات القرن التاسع عشر حددت تقارير بوليس مدينة القاهرة الصادرة عن الحكمدارين الإنجليز دور مشايخ الحارات فى العمل أساساً مع البوليس «فى المساعدة فى كل ما يخص منطقته وإلتزامه فى هذا الشأن بتقديم تقارير إلى (المعاون) عن كل المخالفات الصحية أو اللوائح الخاصة بالأمن العام ، والخارجين عن القانون والمشتبه فيهم ، وتحديد والمساعدة فى العثور على كل الأشخاص المطلوبين للبوليس أو النيابة ، والمشاركة فى كل التحريات والملاحظات الخاصة بمنطقته» .
ومع هذا فإن شيخ الحارة لم يكن موظفا حكومياً يتقاضى راتباً ما ، بل كان يعتمد على البقشيش (الهبات) التى كانت تعطى له من المستفيدين من خدماته ـ رغم أنه كان يعين فى عمله عن طريق جمعية الإنتخاب والبوليس والمحافظ فى ستينات القرن ١٩ .
وقد ظل هذا النظام معمولاً به فى المدينة حتى ستينيات القرن الحالى عندما استبدل شيخ الحارة برجل شرطة أطلق عليه إسم (مندوب الشياخة) ليقوم بأعمال مشابهة لأعمال شيخ الحارة القديم ـ لكنه اختير من بين رجال جهاز البحث الجنائى بالقسم أو المركز .
ـ أندرية ريمون «فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية» ـ ترجمة زهير الشايب ـ كتاب روز اليوسف ـ العدد ١٧ ـ يولية ١٩٧٤ ـ ص ١٢ ـ ٢٨ .
ـ عبد الوهاب بكر «البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢» ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ .

- Cairo city police - Annual Report - 1891 - P.. 47

Gabriel Baer (Egyptian Guilds in Modern times) - Oriental Notes and studies - The Israel Oriental society - Jerusalem. 1964 - PP.. 18, 71, 76.

(٢٦٣) الهواء الأصفر = الحمى الصفراء ـ حمى من حميات المناطق الحارة تتميز بالبول الزلالى واليرقان والنزف .
ـ راجع تقويم ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٧٢ .

فانزعج الناس إنزعاجاً ما عليه من مزيد وقالوا قد تلوثت البلد بالوباء ولامناص من القدر المحتوم . وظلوا على هذا الحال أياماً كثيراً حتى شفى ذلك المسافر من علته ، وقد حقق الأطباء أن مرضه كان (ذات الجنب) وأنه كان مبطوناً ، فزال عن الناس بعض الخوف . وأخذ النيل فى الزيادة بعد نزول النقطة(٢٦٤) التى هى عبارة عن ليلة (عيد الملاك ميخائيل) عند القبطة ، أى المتأصلين الذين هم أهل البلاد ، فزال خوف الناس تماماً أو كاد ، لأنهم يعتقدون أن نزول النقطة واندفاع مياه النيل من أعاليه معين على زوال الوباء وإنقطاع الموت ، فأنس محافظ البلد ذلك منهم ، فجعل يذيع فى كل يوم خبر زيادة النيل واندفاعه لعلم(٢٦٥) يقلعون عن حديث الوباء وموات الحجاج .

وعاد أصحاب الصحف الإنجليزية إلى ترهاتهم ومطاعنهم فى شخص الأمير ومتبوعه وفى سوء النتائج المترتبة على زيارته لدار السلطنة ، حتى قالوا أن السلطان فى أشد حالات الغيظ من بقاء الأمير بين ظرافى(٢٦٦) أهل الآستانه ، وأنه يتمنى لو أنه يرحل بمن معه ليخفف من أكلاف إقامته وكثرة مطالبه ، وما يخشاه من مظاهرات المصريين الذين لحقوا به لأن يقفوا تحت نوافز(٢٦٧) قصر الخلافة وينادوا بأقوال لاتليق بمقام صاحب القصر ، وقالوا غير ذلك من هزر الكلام حتى كادوا يقلبون على الناس الحقيقة . ولعمرى أى الناس ياترى تريد أصحاب تلك الصحف أن تخدعهم بترهاتها . أما قصر الخلافة وهو أول من سر بزيارة الأمير التى تقرب بينه وبين الباب العالى وتظهر حسن التابعية والخضوع ، أو الأمير نفسه وهو يرى بزيارة للسلطان قضاء فرض واجب

(٣٩٤) ليلة النقطة = أولى بشائر فيضان النيل ــ موعدها الخامس من يونيو ــ والحادى عشر من بؤونة ــ المرجع السابق ص ٢٤ .

(٢٦٥) لعلم = لعلهم .

(٢٦٦) ظرافى = ظهرانى .

(٢٦٧) نوافز = نوافذ .

من حيث الدين والسياسة . والعجب أن أولئك القوم كانوا يقولون أن الأمير لم يلو[٢٦٨] جهداً فى سؤال السلطان أن ينذر الدولة الإنجليزية بالجلاء العاجل ، أو يتهددها بتسيير جيوشه إلى مصر لطرد الإنجليز منها صاغرين . وقد إلتزمت الجرائد المحلية فى هذه الآونة جانب الصمط[٢٦٩] ، فلم تجادل صحف الإنجليز ولا أحلت ترهاته هذه محلاً .

وبينما الناس فى قيل وقال وخوف ورجاء ، إذ شاع الخبر بعزم أصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز على إعداد حملة كبيرة من العسكر المصرى لقتال أصحاب مدعى المهدوية . فكان لإذاعة هذا الخبر بين عقلاء القوم دهشة وحيرة ، إذ كلهم يعلم أن حالة أولئك القوم فضلاً عن سائر أهل السودان فى ضنك شديد ، وقلق دائم بسبب الإرهاجات والفتن الضاربة بين بعض القبائل وأهل الجبال . واتفق لى الاجتماع مع بعض الثقات القادمين من تلك الأرجاء منذ أيام قلائل ، فسألته عن حالة القوم وما هم عليه لهذا العهد . فقال إعلم أن القوم قد كانوا على الدوام فى حاجة فادحة وفاقة لامزيد عليها ، إلا أن شدة آمالهم بالفوز والإنتصار وعدم وجود الوازع العادل فى البلاد ، قد كانوا مقتنعين بما تصل إليه أيديهم من مال الظلم والسلب والنهب ، غير مبالين بما ربما يصيبهم بسبب ذلك من سواء[٢٧٠] النتائج . ولكن قد أحسوا الآن من أنفسهم بالضعف وشدة الفاقة وذل النفس ، وقد رأوا ما يستهدفهم به الغد من المصائب والأحسن[٢٧١] ، وأصبح ما تنتجه لهم الأرض بعد الجهد فى حرثها وفلاحتها من الغلة القليلة يباع بالفضة مثقالاً بمثقال ، فلم يبق بينهم من يقدر على

(٢٦٨) يلو = يألُ .
(٢٦٩) الصمط = الصمت .
(٢٧٠) سواء = سوء .
(٢٧١) والأحسن = والإحن قراءة ترجيحية .

تحريك الساكن أو يطمع فى فوز أو غلبة ، حتى لقد جعل الخليفة عبدالله(٢٧٢) يظهر من الضعف قوة ومن العجز سطوة ونفوذاً ، ولم يبق عند عقلائهم أدنى ريب فى أن البلاد أمست بلاد الذل والفاقة لابلاد الحرب أو شن الغارات . قلت وما قولك فى عثمان دجنه؟ قال بطل الحروب ولكنه مبغوض من القبايل طرا لخشونته وغلظة كيده(٢٧٣) وسوء تدبيره ، وهو بعد أن صرع (ولد النجومى) كاد لايقدم على السيف إلا بالسيف ، ولكنه قد دأب السطو والسلب فى مقدمة جماعة من الغواة السفلة . قلت وهل عبدالله التعايشى يطمع فى الغلبة والظفر؟-

(٢٧٢) الخليفة عبدالله = عبدالله التعايشى ـ اسمه عبدالله ود محمد آدم تورشين بن على الكرار ـ من بلاد الفترى الواقعة بين (وادای) و(برنو) ـ نزح جده عبدالله إلى بلاد التعايشة واستقر بها واشتغل ابنه محمد آدم بعلم الرمل والتنجيم ـ وتزوج من إحدى نساء التعايشية ورزق منها بعبدالله .
فى الحروب التى دارت بين الزبير رحمت وعرب الرزيقات عام ١٨٧٣ وقع عبدالله أسيراً فأبقى عليه الزبير حتى إذا ما فتح دارفور أقطع عبدالله مساحة من الأرض ـ لكنه ضاق بالمنطقة فنزح إلى كردفان .
مع ذيوع شهرة المهدى وفد عليه عبدالله فى جزيرة (أبا) وأقنعه بأنه المهدى المنتظر فألحقه المهدى بصفوفه وقربه إليه وعينه خليفة له . فى ٢١ يونيو ١٨٨٥ إختاره محمد أحمد المهدى خليفة له فبايعه المهديون وأصبح قائداً للثورة المهدية منذ ذلك الوقت . فى عهد التعايشى سقطت كسلا فى يوليو ١٨٨٥ ـ سنار فى أغسطس ـ وهاجم سواكن فى سبتمبر ١٨٨٨ ودارت بينه وبين القوات المصرية معركة الجميزة (٢٠ ديسمبر ١٨٨٨) ـ إحتل دنقله فى أغسطس ١٨٨٥ واستولى على قلعة (كوشه) و(جنس) فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٥ ـ إحتل (سرس) فى أواخر ١٨٨٦ لكن مصر استردتها فى إبريل ١٨٨٧ ـ هاجم قلعة خور موسى باشا جنوبى شلال وادى حلفا فى أغسطس ١٨٨٨ وتمكن من السيطرة على (سرس) ـ حارب القوات المصرية فى أرجين جنوبى أسوان فى ٢ يوليو ١٨٨٩ ـ وحارب فى (توشكى) بالشاطىء الغربى للنيل عند الدر بأسوان ودارت بينه وبين القوات المصرية معركة فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ هزم فيها وقتل فيها قائده عبد الرحمن النجومى ـ هزم فى معركة طوكر فى فبراير ١٨٩١ حيث كانت هذه المعركة هى نهاية أماله فى فتح مصر التى بدأها بمعركة أرجين فى يوليو ١٨٨٩ . بعد عمليات استرداد السودان على يد كتشنر وإنقضاء الدولة المهدية حاول التعايشى الهجوم على أم درمان فى أواخر ١٨٩٩ فجهز ريجنالد وينجت Reginald Wingate حملة ضده وانتهت بمقتله فى ٢٤ نوفمبر من نفس السنة فى موقعة (الجديد) . وانتهت بذلك دولة المهدية تماماً .
ـ القائمقام سعد الدين الزبير (الزبير باشا رجل السودان) ـ شركة ستاندارد للطباعة ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ ـ ص ٦٩ ـ ٧١ .
ـ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى الى الآن) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠٦ ـ ٣٢٥ .
ـ وزارة الحربية والبحرية (أورطة مدافع الماكينة الأولى المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ٢٣ .
(٢٧٣) كيده = كبده .

قال لا أظن ذلك ، لأنه ليس بالرجل الغبى كما يشاع ، ولكن همه الوحيد اليوم إنما هو كرامة المكانة التى له فى أعين الفئة القليلة من خاصته وقومه . قلت وهل تظن أن الدراويش يقدمون على مهاجمة المرابطين بالحدود؟ قال إن هذا الظن بعيد عن البال ، إلا أنه لايبعد أن تدفعهم شدة اليأس من الحياة إلى ذلك ، ولاسيما إذا ظلت الهيئة الحاكمة على إغفائها وتقاعدها عن العمل . قلت وما هو الدواء لحل عقدة هذه المسألة إذن ؟ قال هى سلطة أمير البلاد وبث نفوذه وبسط كلمته هو دون جماعة الإنجليز ، فإذا تم ذلك استرجعت السودان بدون حرب ولاقتال ، ولا يقف فى وجه الفاتحين أحد سوى من يشترى من أصحاب التعايشى فى أم درمان للدفاع عنه إذا فضل الموت على ذل النفس . قلت وما ظنك بالمرابطين من الإنجليز فى بعض النقط الأمامية من الحدود؟ قال هم بواسل ولكن ضررهم أكثر من نفعهم ، طالما أن الحرب دينيه والقتال جهاد والموت استشهاد ، فإن رحلوا بقبعاتهم المكوره عن ذلك الصعيد وتحقق أصحاب التعايشى أنهم غير عائدون إليهم انقلبت الأحوال إنقلابة أخرى ، وكان من ورائها رجوع الأمن إلى نصابه أ .هـ .

وجاء الخبر من دار السلطنة بعزم الأمير على مبارحتها فى يوم الخميس رابع عشر المحرم من السنة أى سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف ، فاهتموا لذلك إهتماماً كبيراً ، وجعل الناس يعدون معدات الزينة والاحتفال بقدومه ، وحضرت والدته من الرمل إلى قصر الإمارة برأس التين ، فنزلت به مع حاشيتها وخدمها ترقب حضوره . فلما كان يوم الأحد سابع عشر المحرم الواقع ثلاثين شهر يوليو وقد ظهرت باخرة الأمير على بعد بعيد أطلقت لها الطابية(٢٧٤) الفضاء مدفعاً واحداً . فسارت الباخرة حتى بدت للعيان ، فاطلقت لها الطابية مدفعين إثنين . فلما جاءت فى فم البوغاز أطلقت لها ثلاثة مدافع . فلما مرت على

(٢٧٤) الطابية الفضاء = طابيه الآطه ـ راجع حاشية ١٨ ص ٤٣ .

طابيه[٢٧٥] صالح أطلقت لها واحد وعشرين مدفعاً . فلما رست ونزل الأمير على البر أطلقت له المدافع السلام من طابية القضاء ، فلما حل فى رحبة قصر الإمارة دخل عليه المهنأون والمسلمين من الأمراء والكبراء والوجهاء وأهل الخطط وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والرؤساء الروحانيين وقناصل الدول . وبقى الأمير بالقصر إلى الساعة التاسعة ليلاً ثم خرج بموكبه تحف به الخيالة والفرسان للإشراف على الزينة التى أعدت لقدومه ، وكان الناس على جانبى الطريق الذى مر به موكبه مئات وألوفا ، وكلهم يهتفون له بالدعاء .

وما هى إلا ساعة أو بعض الساعة من خروجه من القصر حتى سار موكب أعدوه للإحتفال الليلى وهو مؤلف من مايتين وثمانية من الجنود المشاة يسيرون حول الموكب لحفظ النظام ، ومناية وثلاثين من ضاربى الموسيقى ، وإثنين حاملان الأعلام العثمانية ، وثلثمائة ستة وعشرين موظفاً خارجين عن هيئة العمال بثياب الدواوين التابعين لها ، وفى أيديهم الأنوار ، ومثلهم مائة من تلاميذ المدرسة الأميرية ، وثلثمائة ستة وستين من مستخدمى الدواوين الداخلين فى هيئة العمال ، وإثنى عشر من مشايخ الطرق ، وأربعة وسبعين من طوائف مختلفة ، وإثنى عشر من السقايين لإطفاء ما يتساقط من نيران الموكب . وخرج هذا الجيش العظيم من الترسانة إلى قصر الإمارة برأس التين بين عزف الموسيقى والألحان ، ومن هناك ساروا إلى المنشية فكان المنظر فخيما والسرور عاماً وقد سمعت الصبيان فى تلك الليلة ينشدون هذا النشيد :

---

(٢٧٥)طابية صالح = إحدى طوابى الدفاع عن الإسكندرية ــ تقع جنوب طابية كوم الناضورة ــ وقد شاركت مع طوابى الفنار ، رأس التين ، أم قبيبة ، القمرية ، المكس ، الدخيلة ، والعجمى فى الدفاع عن الإسكندرية عندما هاجمها الأسطول البريطانى يوم ١١ يوليه ١٨٨٢ .
ــ عبد الرحمن الرافعى «الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى» ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٧٧ .

عاد عباس إلينا بمحياة السعيد
وأتى يزهوا افتخارا شاكر[٢٧٦] عبد الحميد
فارفعوا منا أكفا أيها الجند الحشيد
واسألوا الله جميعا أنه مولى العبيد
إن يراعيه ويبقى عمره دهرا مديد
هذه مصلا[٢٧٧] تنادى عاد لى الشهم الفريد
أن يوما جئت فيه قدروه ألف عيد
فتسلمها بفوز فهى من شوق شديد

وهذا النشيد كانت تعزف به الموسيقى ، فلقنه أحدهم إلى بعض الصبيان فأجادوا حفظه وجعلوا يطوفون زمراً فى الشوارع والحارات وهم ينشدون على أحسن ما يكون من الترتيب ، فكانت النساء تقابلهم بالزغريت[٢٧٨] من أعلى البيوت والدعاء بحفظ الأمير . وظل الحال على هذا حتى مطلع الفجر ، وكانت الأفراح بادية الأمر ، عامة من مشرق البلاد ومغربها ، والناس على اختلاف طبقاتهم فرحين جزلين . وبينما الناس على ما هم عليه أن[٢٧٩] أبلغ جماعة الإنجليز الرئيس مصطفى رياض باشا بأن قوة من الدراويش أصحاب عثمان دجنه لايقلون عن الخمسمائة نفر ومعهم عثمان الأزرق دخلوا (الواحات الداخلة) واستقروا فى (بريس)[٢٨٠] وقد نهبوا وقتلوا مأمور البلد وبعض الصبيان ، فلجأ السكان إلى الهرب . فأهتمت الهيئة الحاكمة لذلك وايما[٢٨١]

(٢٧٦) شاكر = شاكراً قراءة ترجيحية .
(٢٧٧) مصلا = مصر .
(٢٧٨) بالزغريت = بالزغاريد .
(٢٧٩) ان = إذ .
(٢٨٠) بريس = باريس .
(٢٨١) وايما = أيما .

اهتمام ، وبادرت وزارة الحرب بإرسال الجند ومعدات الحرب من القاهرة تباعاً . وسار قسم من الأورطة العاشرة السودانية من أصوان إلى جرجا مدداً . وما شاع خبر ذلك وانتشر بين الناس حتى تبدلت أفراحهم اتراحاً لاسيما أهالى جرجا وأسيوط والجيزة لقربهم من تلك الواحة . ومن الغريب المدهش أن أهل الحل والعقد من الإنجليز القابضين على نقط التخوم الدفاعية قد رتبوا لجميع الدروب أربطة برواتب فادحة ينقدونها فى كل شهر تحت شرط حراسة هذه الدروب وترصد مسير الدراويش واقتفاء آثارهم ، ولم نعلم أن كان (درب الواحات) المعروف (بدرب الأربعين) هو من الدروب المحروسة ، فإن كان غير ذلك فلا أقل من أن يصل إلى حراين[٢٨٢] الضروب[٢٨٣] الأخرى خبر المهاجمين قبل بلوغهم الغاية . والحق يقال أن مفاجأة هذا الخبر وإذاعته على غير انتظار وعقب قدوم الأمير وفرح الناس بادته[٢٨٤] كان له دهشة وحيرة ، ولاسيما وأن الواحات غير مرتبطة بصلات تلغرافية أو سكك حديدية تسعف بالأخبار أو حشد الإمداد ، وإذا تمكن أولئك القوم من تلك النقطة التى لاتبعد عن مديرية أسيوط أكثر من مسيرة ثلاثة أيام وعن مديرية الجيزه أكثر من مسيرة أربعة أيام فتكوا بالأهالى ودخلوا غيرها عشوة[٢٨٥] إن كان خبر دخولهم هناك صحيحاً ، أو نزع إلى الثورة معهم السواد الأعظم من سكان تلك الأطراف ، وتعذر دفع هذا الشر . لأنه من المعلوم أن الواحات هذه مقسمة إلى خمس عشرة واحة داخلة وسبع واحات خارجة . (وباريس) التى يقال أن أصحاب المهدى أخلوها[٢٨٦] هى من الواحات الخراجه[٢٨٧] التى يتعذر دخولها مع وجود العصاة بها .

(٢٨٢) حراين = حرايز قراءة إجتهادية .
(٢٨٣) الضروب = الدروب .
(٢٨٤) بادته = بعودته قراءة ترجيحية .
(٢٨٥) عشوة = عنوة .
(٢٨٦) أخلوها = دخلوها .
(٢٨٧) الخراجه = الخارجة .

والعجب أن قد جاء إلى الزبير[٢٨٨] باشا منذ أكثر من شهرين كتاب من أحد القريبين إليه فى السودان يخبره فيه بعزم عثمان الأزرق على الهجوم على تلك الواحات ، فقدم الزبير ذلك الكتاب إلى جماعة الإنجليز بوزارة الحرب ، فلم يلتفوا[٢٨٩] إليه ولا أحلوه محلا ، ولولا ذلك الإهمال ماتيسر للقوم بأن تسير من دنقلة وتبلغ الواحات دون أن يشعر بها أحد .

حدثنى أحد المقربين من رجال الحرب قال (إعلم أن أسلاك الثورة السودانية معقودة بناصية السياسة ، وكان زعماء المهدوية وقواد الدراويش

(٢٨٨) الزبير باشا = الزبير بن رحمت بن على بن سليمان ـ ولد بالسودان عام ١٨٣٠ تقريباً وتوفى فى ٦ يناير ١٩١٣ بقرية الجيلى بالسودان ـ ينتمى إلى قبيلة الجميعاب العربية الأصل التى إنحدرت من العراق والتى نزحت إلى الشام ثم مصر ثم إلى السودان . حاكم سودانى وباشا مصرى ـ كان من أنشط وأذكى تجار الرقيق والعاج ـ إستوطن منطقة النيل الأبيض فى بحر الغزال منذ عام ١٨٦٠ ـ جهز جيشاً من العبيد المدربين والمزودين بالأسلحة وقاتل حملة مصرية فى بحر الغزال عام ١٨٦٩ ـ عينه الخديو إسماعيل فى ذلك العام حاكماً لمديرية بحر الغزال التى كان مستقلاً بها فعلاً ـ فى عام ١٨٧٥ فتح دارفور لحساب الحكومة المصرية فأنعم عليه الخديو إسماعيل برتبة البكوية ـ دخل فى صراع مع حكمدار السودان إسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ ـ ١٨٧٧) حول أسلوب إدارة البلاد المفتوحة فشكاه الأخير إلى الخديو إسماعيل واتهمه برغبته فى الاستقلال ـ سافر إلى مصر مع حاشيته عام ١٨٧٥ لعرض شكواه على الخديو ـ لكن الحكومة المصرية احتجزته هناك ـ فى عام ١٨٧٧ أرسل مع الحملة المصرية المرسلة لمساعدة جيوش الدولة العثمانية فى حرب البلقان وعاد إلى مصر عام ١٨٧٨ وظل محتجزاً بها ـ فى عام ١٨٧٨ قام ابنه سليمان بثورة ضد الجنرال جوردون حاكم السودان العام انتهت بمقتله فاتهم الزبير بتحريض إبنه على الثورة ـ إتجهت النية عام ١٨٨٤ وبعد استفحال الثورة المهدية إلى تعيين الزبير حاكماً عاماً للسودان لمواجهة المهدى ـ لكن جمعيات مقاومة الرقيق فى إنجلترا هيجت الرأى العام ضد هذا الاقتراح ولم يعمل به ـ فى مارس ١٨٨٥ اتهم الزبير بمراسلة المهدى فقبض عليه ونفى إلى جبل طارق ـ فى أغسطس ١٨٨٧ سمح له بالعودة إلى القاهرة ـ بعد استعادة السودان سمح له بالعودة إلى بلاده فعاد إليها فى أواخر ١٩٠٣ واسترد ما كان قد صودر من أملاكه ـ عاد إلى مصر بعد عامين وابتنى قصراً له فى حلوان ـ ثم عاد إلى السودان فى أغسطس عام ١٩١٢ حيث وافته المنية فى السادس من يناير ١٩١٣ ـ عقب فتح دارفور منحه الخديو إسماعيل رتبة اللواء والباشوية ـ وفى عام ١٨٧٨ استقبله السلطان عبد الحميد فى إستانبول بعد إنتهاء معارك حرب البلقان ومنحه رتبة الفريق .

ـ القائمقام سعد الدين الزبير (الزبير باشا رجل السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٩٩ ـ ٢٢٧ .

- Larousse Universel - ibid P. 1280

(٢٨٩) يلتفوا = يلتفتوا .

لايعمدون إلى مهاجمة التخوم إلا عند ما يبلغهم خبر عزم الأمير على مطالبة الإنجليز بالجلاء عنا ، فيهبون من رقدتهم ويطنبون للملأ أن ثورتهم دائمه ، وعلمهم بمستقبل الأمور غريب ، حتى إذا عاد السكون والإستكانة إلى نصابها عادوا هم أيضاً إلى ربوعهم مطمئنين ، فسبحان علام الغيوب ومفرج الكروب) أ . هـ . ولم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر برجوع أصحاب المهدى إلى حيث أتوا ، وأنهم أخذوا معهم أحد عشر أسيراً ، وما وصلت إليه أيديهم من السلب ، فزال خوف الناس ، وعاد بعض الجنود الذين سافروا إلى تلك الأنحاء . فلم يعجب العقلاء رجوعهم ، وقالوا لقد كان فى إمكان الحامية أن تقطع على أولئك القوم خط الرجوع وتفتك بهم وتستخلص الأسرى من بين أيديهم لو أخلص النية جماعة الإنجليز وطرحوا السياسة جانباً .

ولما كان يوم الإثنين أول صفر من السنة أى سنة إحدى عشرة أوفى النيل أذرعه المعتادة ، فرسموا إلى محافظ البلد بعمل الإحتفال المعتاد عمله فى كل عام عند سد فم الخليج . فتقاطر الناس فى مساء اليوم إلى ناحية السد ، وجعلوا يطوفون حول الساحة المعدة لعمل ذلك المهرجان ، وأطلقت المدافع والألعاب النارية تباعاً ، فكان الزحام شديداً والكل يرقبون حضور الأمير بموكبه ، فلم يحضر لتغيبه بمصيف الإسكندرية بعد عودته من دار السلطنه ، فناب عنه الرئيس مصطفى رياض باشا . وأصبحوا وقد قطعوا السد وحرروا حجة الوفاء على الأسلوب المعتاد(٢٩٠) فى كل سنة . وأرسل محافظ الاسكندرية فى ظهر

(٢٩٠) لم تعرف مصر قبل التحكم فى مياه النيل بالسدود والخزانات ، نظام الرى الدائم ، وإنما اعتمدت على رى الحياض ـ فعند حدوث فيضان النيل تقطع السدود ويترك ماء النيل ينساب فى الحقول ليغمر الأراضى أشهر أبيب ومسرى وتوت القبطية ـ ثم ينحسر الماء الأشهر الثلاثة التالية (بابة وهاتور وكيهك) فينثر الفلاح بذوره قبل جفاف الأرض ـ ويستمر الزرع فى الأرض أشهر طوبة وأمشير وبرمهات ـ وفى الأشهر الثلاثة الأخيرة برمودة وبشنس وبؤونه تنضج المحاصيل وتبلغ مرحلة الحصاد . كان حد وفاء النيل أن يبلغ إرتفاع ماء الفيضان ستة عشر زراعاً ـ ويكون ذلك فى شهر مسرى . وعند ذلك الوقت يفتح سد خليج القاهرة فى حفل كبير يعرف باسم (كسر الخليج) ـ وكان قياس إرتفاع مياه الفيضان يتم عن طريق مقياس بناه الخليفة المتوكل العباسى=

ذلك اليوم خبراً إلى وزارة الداخلية يقول أن إمرأة وطنيـة من سـكان (باب سـدرة) الداخلى ولدت ولداً عجيب الخلقة ، ذلك لأن شـدقاه يتصـلان بأذنيه وفكيه بلا لثة وبدون عضو تناسل ، قال وهو حـى يـرزق ، وقد بعـث به إلى الاسـبتالية الأمـيرية للكشـف عليه طبـياً فـسـبحان الخلاق العظيم .

حدثنى عظيم عالم بأسرار الإنجليز قال (أو تظن أن أصحاب التعايشى جاؤا الواحات ليغزوا أهلها كما يزعن(٢٩١) جماعة الإنجليز؟) قلت إنى أقول لك

= عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م ثم أصلحه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م . يقع هذا المقياس فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة ويتألف من برج كبير حوله بسطتان تردان عنه مياه النهر . وإلى جوار المبنى توجد فسقية كبيرة فى وسطها المقياس ـ وبين الفسقية والبرج يوجد باب ، ويمكن النزول للفسقية بواسطة درج دائرى . أما المقياس فهو عمود رخام مثمن مقسم إلى تسعة عشر قسماً طول كل قسم منها ذراع ـ وقسم كل منها إلى أصابع . ويدخل بوسط هذا العمود الرخام قضيب من الحديد يمسك قطع الرخام ، وبأعلاه سقالة من الخشب المحشو بالرصاص حتى يعطى عمود المقياس الثقل الكافى لتثبيته . ويصل ماء النيل إلى الفسقية من خلال ثلاث فتحات بعضها فوق بعض طول كل منها سبعين ذراعاً .

كانت عملية قياس زيادة النهر تبدأ فى السادس والعشرين من شهر بؤونة حتى إذا اكتمل النهر ستة عشر ذراعاً يكون النيل قد أوفى . ويقترن الإحتفال بوفاء النيل فى اليوم التالى بحضور الحاكم أو من ينيبه إلى مقياس الروضة حيث يركب هو ورجال الحكومة قوارب مزينة تسير إلى فم الخليج ـ ثم يصل إلى السد فيقطع بحضوره فتنساب المياه فيه .

وكان يوم كسر الخليج من الأيام المشهودة فى مصر ـ ففى ذلك اليوم تغلق الأسواق ويهرع الناس إلى النيل فى قوارب حيث يطربون ويغنون . ويرجع السر فى الإحتفال بوفاء النيل إلى إرتباط ذلك بقوت الناس . فمعنى (قصور النيل) كان الهلاك ـ ذلك أن قلة الماء معناها عدم إمكان رى الأرض وبالتالى عدم زراعتها عاماً كاملاً لايجد فيه الناس ما يقتاتون به من غلال أو بقول أو خضروات ـ مع ما يصاحب ذلك القحط من إرتفاع الأسعار وانتشار المجاعات وربما انتشار الأوبئة والطواعين .

وقد تراوحت أهمية الاحتفال بوفاء النيل بمرور الزمن ـ ففى العصور الحديثة كان محافظ المدينة ينوب عن الحاكم ـ ثم اتخذ الاحتفال مجرد الشكل المظهرى فقط حتى توقف هذا الاحتفال بالتحكم فى مياه النيل بإقامة الخزانات والسدود عند منابع النيل ـ وقد تعددت مسميات هذا الاحتفال بين كسر الخليج ـ جبر الخليج ـ وفاء النيل ، لكنها كلها تحمل مدلولاً واحداً .

ـ تاريخ وآثار مصر الإسلامية ـ الهيئة العامة الاستعلامات ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ١٢٠٣ ـ ١٢٠٧ .

(٢٩١) يزعن = يزعم .

الحق أنى رجل بعيد التصديق بصحة الأخبار المنقولة عن أولئك القوم لأن عجومهم(٢٩٢) فى مثل هذا الحين ضرب من الجنون وضعف الرأى ، لأنهم يعرفون جيداً أن على التخوم فى حلفا وكروسكو وسرى(٢٩٣) وأصوان وسواها ثمانية آلاف مقاتل مدججين بالسلاح ، وفى شرق السودان زهاء أربعة آلاف . لذلك وفضلاً عن ذلك فإن التعايشى قد لازم الدفاع وقعد عن الكر والفر لتفشى الجوع بين القبايل وعجزهم عن الحركة ، حتى لقد منع عثمان دجنة من القتال وحتم عليه البقاء فى شرق السودان بلا عمل ، فاضطره بذلك إلى اللصوصية والسطو على الضعفاء من أهل الأطراف . ولا خفاك(٢٩٤) أيضاً أن للإنجليز عيون بين قبايل السودان يأتونهم بالأخبار ولا يكتمون عنهم أمراً ، فلو كان لذلك الهجوم نصيباً من الصحة لكان جماعة الإنجليز أعلم بوقوعه قبل أن يقع . قال (أصبت والله) . كان فى بريس(٢٩٥) التى زعم القوم أن الدراويش هاجموها عمدة يدعى حسن هناوى ، تحايل عليه بعض ذوى النفوذ والكلمة المسموعة فوشوا به إلى الحكومة ، فعاقبه(٢٩٦) بالعزل من منصبه والحبس أياماً من الدهر ، فلما أطلق انصرف إلى قبيلة بقرب سليمة فترأس عليها حتى استوثق منها ، فلما رأى فى نفسه القوة جاء برجالها إلى (بريس) للإنتقام من أعدائه ، فقاتلهم وظفر بهم وأسر منهم نفراً ، وعاد من حيث أتى آمنا مطمئنا . ولم تكن أخبار الطلاعين الذى رادوا الطريق واكتشفوا أثار المغازين إلا أوهاماً ومعميات لفقهاء الإنجليز إخفاءاً للحقيقة التى غابت أو هم تغافلوا عنها ، فتأمل .

---

(٢٩٢) عجومهم = هجومهم .
(٢٩٣) وسرى = وسرس ــ إنظر الخريطة فى الملحق (٦) .
(٢٩٤) خفاك = يخفاك .
(٢٩٥) بريس = باريس .
(٢٩٦) فعاقبه = فعاقبته .

أقول أيضاً ولقد اشتد تهوس أصحاب السياسة الإنجليزية فى هذه الآونة بالسودان وخيراته ، والفيشى[٢٩٧] وحملاته ، والأحجاب[٢٩٨] بكل شىء وكل شىء فيه حتى اعمر[٢٩٩] ، فقد أرسل إلى جنينة الحيوانات بمدينة سدنى عاصمة أوستراليا الإنجليزية حماراً ثمنه ألف وثلثمائة وسبعين جنيهاً يبقى هناك عرضة للمتفرجين . فلما جاء خبر ثمنه إلى حاكم البلد اندهش وسأل عن سبب دفع هذا القدر الفاحش من الذهب ثمناً لحمار لم تزده الطبيعة أذنا ثالثة أو ذنباً ثانياً ، فجاءه الجواب بأن قد خص بهذا الثمن لأنه خصاصة الحيوانات التى كانت مع البعثة الإنجليزية . . فتأمل!

ولما كان يوم الثلاثاء ثانى ربيع الأول من السنة أى سنة إحدى عشرة ، وصل ركب المحمل إلى مدينة السويس وكلهن[٣٠٠] بصحة جيدة ، فجاء خبر وصوله إلى قصر الإمارة ووزارة الداخلية وشاع بين الناس ، ففرحوا لوصوله سالماً ، وقد أمضى الركب أيام الحجر كاملة ، وجعلت السفن ترد من الطور تباعاً بالحجاج إلى السويس ، فغصت البلد بهم ، وضاقت برحبها عليهم . فاهتم محافظها بتعجيل سفر سائر الحجاج الغير المصريين ، واستحث أصحاب السفن على السفر فأقلعوا تباعاً ، وبقى ركب المحمل بالسويس يومين اثنين ، ثم قام على قطار خاص إلى القاهرة صبح خامس عشر ربيع الأولى . فما هو أن وصل حتى شاع أن ديوان الصحة أرسل إلى سردار العساكر المصرية يقول إرجعوا ركب المحمل إلى رأس صلعب[٣٠١] واحجروا عليه ، حيث قد مات أحد الجند المكلفين بحراسته بالوباء ، فأنزعر[٣٠٢] الناس أيما إنزعار[٣٠٣] ، وتزاحموا

(٢٩٧) والفيشى = والتعايشى قراءة ترجيحية .
(٢٩٨) والإحجاب = والإعجاب .
(٢٩٩) اعمر = الحُمرُ قراءة ترجيحية .
(٣٠٠) وكلهن = وكلهم .
(٣٠١) رأس صلعب = راس ملعب ـ منطقة على خليج السويس بين الطور والسويس ـ إستخدمت لقضاء فترة الملاحظة الطبية للسفن العائدة بالحجاج إلى مصر ـ ٥٠٤ من الفصل الرابع .
(٣٠٢) فانذعر = فانزعج .
(٣٠٣) انزعار = انزعاج .

على أبواب ديوان الصحة ووزارة الداخلية ، وكثر تسالهم[٣٠٤] عن صحة هذا الخبر . وظلوا على ذلك يومهم كله حتى تحققوا من كذب الإشاعة وأن لانصيب لها من الصحة ، فزال خوفهم وأقبل أهل الحجاج على لقائهم بالطبول والزمور والزغاريت على عادتهم المألوفة عندهم ، وطافوا بهم فى شوارع البلد وهم بين ضجيج العامة ودعاء السوقة . ثم احتفل بتشييع المحمل من العباسية إلى ميدان قلعة الجبل ، فكان الاحتفال فخيماً جداً ، مزدحماً بالعلماء والأعيان وأرباب الطرف[٣٠٥] وأصحاب العكاكيز . وطاف الجمل بالمحمل حول المسطبة سبع دورات ، فوقف الشيخ محمد السمباطى فدعا للخليفة السلطان عبد الحميد وأمير البلاد دعاءاً حسناً .

ولما كان يوم الخميس ثالث عشر ربيع الثانى من السنة أى سنة ثلاث عشر تحرك ركاب الأمير من الاسكندرية إلى القاهرة ، فإزدحمت محطة الإسكندرية بالمودعين من كبار القوم والوجهاء ورؤساء الأديان والأمراء من البيت العلوى ، والغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة ، واصطفت الجنود المصرية والإنجليزية فى ساحة المحطة . فلما صارت الساعه السادسة ونصف صباحاً أقبل موكب الخديوى وعن يساره الأمير عبد الحليم[٣٠٦] ، فقابلته الجنود بالتحية والدعاء ، فدخل المحطة وودع المشيعين ، واستقل القطار وفى ركابه الوزراء ورجال ديوانه الخاص . فأطلقت عند ذلك المدافع من القلاع إيذاناً بقيامه ، فوصل القاهرة فى الساعه التاسعه ونصف صباحاً ، وكان فى انتظاره

---

(٣٠٤) تسالهم = تساؤلهم .
(٣٠٥) الطرف = الطرق ـ والمقصود هنا الطرق الصوفية .
(٣٠٦) المقصود هو الأمير محمد عبد الحليم باشا ابن محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية ـ وقد أنجب الأمراء محمد سعيد حليم ـ محمد على حليم ـ إبراهيم حليم ـ محمد عباس حليم ـ أما إبنه الأمير محمد سعيد حليم فقد أنجب النبيلين عمر سعيد وعبد الحليم ـ وأنجب إبنه الأمير محمد على حليم النبيل سعيد حليم ـ وأنجب إبنه الأمير إبراهيم حليم النبيل عباس حليم ـ المصور ٢٩ يولية ١٩٣٧ .

بالمحطة محافظ البلد وسردار الجيوش وأهل المناصب وأصحاب الخطط وكلهم بملابس التشريف ، فأطلقت المدافع لقدومه ، فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى رياض باشا وخلفه الأمراء والوزراء ورجال الديوان الخاص ، وكان الناس صفوفاً على طول طريقه إلى القنطرة المعروفه بقنطرة الليمون[٣٠٧] . فلما اقترب منها استقبله عدد عديد من أعضاء الجمعيات العلمية واقفين تحت علم مخصوص ، فتقدم أحدهم (إسماعيل بك عاصم) وقدم إلى الأمير طاقة إزهار جميلة للغاية ، فتناولها باسماً ، فعند ذلك إرتفعت أصوات القوم بالدعاء له ، فضج الحاضرون وعلت أصواتهم بالتاين[٣٠٨] . ومازال موكبه سائراً بين أصوات الترحيب والدعاء وأقواس النصر التى أقامها الناس على طول الطريق إلى قصر الإمارة . وفى الساعة الثامنه مساء خرج الأمير فى موكبه للتفرج على الزينة التى أعدت له ، فمر ببعض الشوارع وكلها مزدانة بالأنوار والأعلام مما لم يسبق له مثيل ، وأصبح وقد عمل تشريفات التبريك فكانت غاية فى الزحام بكل صنف وطبقة .

وما استقر بالأمير المقام ، حتى شاع الخبر وتناقله علية القوم بعزم لورد كرومر على إسقاط الرئيس مصطفى رياض باشا وإبعاده عن منصبه . وتحرير الخبر أنه لما عاد اللورد من مصيفه وأخذ مقعده فى قصر الديار[٣٠٩] ، وجعل يلقى على جماعة الوزراء أموراً يتخللها شرار الفتنة حتى تمكن أو كاد من التفريق بين الرئيس وبعض الوزراء . ويقولون أن لورد كرومر لم يتسن له ذلك إلا لحب الرئيس التفرد بالعمل والإستبداد بالرأى . يقال وكلم اللورد كرومر الأمير فى ذلك ، فلم ير منه لينا ولا استكانة ، فجعل يتوعد ويتهدد حتى كاد الرئيس يتخلى عن منصبه صاغراً ، ولكن الأمير أظهر حزماً وعزماً شديدين إزالاً من حدة اللورد وخفف من غلوائه ، فترك الأمر إلى حين .

---

(٣٠٧) قنطرة الليمون = المقصود بها منطقة كوبرى الليمون بميدان محطة القاهرة .
(٣٠٨) بالتاين = بالتأييد قراءة ترجيحية .
(٣٠٩) الديار = الدوباره ـ والمقصود قصر الدوباره وكان مقر قنصل بريطانيا العام فى مصر ـ ويقع بحى جاردن سيتى بالقاهرة .

وفى ثامن جمادى الأولى من السنة مات رجل العلم والأدب على مبارك(٣١٠) باشا صاحب الفضائل المعلومة . تولى رياسة المدارس المصرية على

(٣١٠) على مبارك = على باشا مبارك (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣) شخصية مصرية عامة ـ ولد فى برنبال الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية ـ والده هو الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى ـ هاجرت عائلة المترجم وهو فى سن السادسة إلى عزبة الحماديين مركز فاقوس شرقية ثم إرتحلت إلى عرب السماعنة بالشرقية أيضاً ـ حفظ القرآن ثم اشتغل كاتباً بناحية الأخيوة ثم إلتحق بعمل كتابى بمأمورية أبو كبير ـ ثم إلتحق بمكتب ميت العز الحكومى ـ فى عام ١٨٣٦ إلتحق بمدرسة قصر العينى وهى مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية ثم تحول عام ١٨٣٧ إلى مدرسة أبى زعبل ـ وفى عام ١٨٣٩ أختير للحاق بمدرسة المهندسخانة ببولاق وكان فى سن السادسة عشرة ـ فى سنة ١٨٤٤ إختير بمعرفة سليمان باشا الفرنساوى ضمن أعضاء (بعثة الأنجال) إلى فرنسا حيث قضى عامان بباريس ثم ألحق بعد ذلك بمدرسة المدفعية والهندسة فى متز Metz ونال رتبة الملازم فى الجيش الفرنسى وأقام عامان لتعلم الفنون الحربية ـ وفى نهايتها ألحق بالآلاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية بالجيش الفرنسى ـ عاد إلى مصر عام ١٨٥٠ فعين مدرساً بمدرسة طره الحربية ـ ثم صاحب سليمان باشا الفرنساوى لإكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ـ عمل بعد ذلك مع (جاليس بك) قومندان الإستحكامات بالإسكندرية ثم كلفه عباس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) بمهمة امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ـ وخلال هذه الفترة شارك فى الكشف على شلال أسوان ـ بعد عودته من هذه المهمة كلفه عباس بالإشتراك مع مسيو موجيل كبير مهندسى القناطر الخيرية بوضع نظام لمرور السفن بها ـ فى عام ١٨٥١ وضع المترجم مشروعاً للمدارس فأنعم عليه برتبة الميرآلاى (عميد) وعين ناظرا لمدرسة المهندسخانة ـ فى عام ١٨٥٤ ونتيجة وشاية ضده عند سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) كلف بالمشاركة فى حرب القرم صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها أحمد باشا المنكلى ثم عاد بعد عامين ونصف مرفوتاً فلزم بيته ـ ثم أعيد إلى الخدمة ومارس بعض الوظائف الهامشية حتى يأس العمل الحكومى وفكر فى الاشتغال بالأعمال التجارية ـ فى أعقاب وفاة سعيد باشا وتولى إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) خديوية مصر ألحق المترجم بمعيته ، ثم عينه ناظرا للقناطر الخيرية ـ فى عام ١٨٦٧ عين وكيلاً لنظارة المعارف (ديوان المدارس) مع بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته ـ فى عام ١٨٦٨ أنعم عليه إسماعيل برتبة (الميرميران) وأصبح (باشا) ـ وأسندت إليه إدارة مصلحة السكك الحديدية ـ ونظارتى المعارف والأشغال ثم ضمت إليه نظارة الأوقاف ـ وضع فى مايو ١٨٦٨ (لائحة رجب/ ١٢٨٤هـ) الشهيرة التى نظمت التعليم فى مصر ـ أنشأ دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية فى عام ١٨٧٢ ـ وأنشأ الكتبخانة الخديوية (دار الكتب) ـ ناله خلال الفترة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٥ بعضا من سوء الحظ فى الوظائف ـ فى عام ١٨٧٨ شارك كناظر للمعارف فى نظارة نوبار الأولى (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩) ـ ثم شارك فى نظارة توفيق ـ ولما تولى توفيق الخديوية (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) شارك المترجم فى وزارة مصطفى باشا رياض كناظر للأشغال ـ ومع سقوط هذه الوزارة فى سبتمبر ١٨٨١ إعتزل المترجم فى بلده ولم يشارك فى الثورة العرابية ولم ينتصر لها ـ فلما قامت الحرب بين عرابى والإنجليز إنحاز إلى توفيق الذى إنحاز لقوى الاحتلال ـ شارك فى وزارة شريف الرابعة (١٨٨٢ ـ ١٨٨٤) كناظر للأشغال ـ فى وزارة رياض فى يونيو ١٨٨٨ شارك المترجم كناظر للمعارف حتى استقالت عام ١٨٩١ ـ لزم المترجم بيته بعد ذلك ثم مرض بداء المثانة وتوفى بمنزله بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ .

من أشهر أعماله كتابه الخالد (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة) وتقع فى عشرين مجلداً وظهرت بين سنتى ١٨٨٧ ـ ١٨٨٩ ـ وقصة (علم الدين) ، وكتاب (تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام) و(نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) ـ إلى جانب أعمال أخرى أدبية وعلمية .

ـ عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) ـ ج ٢ ـ ط ٢ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٢٠٨ ـ ٢٤١ .

عهد عباس باشا الأول فأحسن ترتيبها ، واتقن معداتها ، واختيار أساتذتها إلى يوم نبغ فيه كثيراً فى الهندسة ، فدخل فى الجندية إلى أن بلغ رتبة أميرالاى فى فرقة المهندسين ، وسافر فى القريم[٣١١] واشترك فى حربها المعلومة مع عساكر الدولة ، وعاد إلى مصر فولاه الخديوى إسماعيل رتبة الباشاوية ، وعهد إليه نظارة الأوقاف العمومية ، وكان يعتمد عليه ويأخذ رأيه فى مهمات الأمور ، حتى كانت الوزارة المختلطة فاشترك فيها مع بليز الفرنسوى وويلصون الإنجليزى[٣١٢] ، وتقلب فى غيرها من المناصب العالية ، وله الأيادى فى

---

(٣١١) القريم = القرم Crimea ـ شبه جزيرة على الساحل الشمالى للبحر الأسود تشكل إتحادا إقليمياً مع أوكرانيا ـ عاصمتها هى سيمفروبول Simferopol ـ والقرم سهل منبسط يحد على طول الشاطئ الشرقى الجنوبى بمرتفعات القرم التى يبلغ إرتفاعها ١٥٤٥ متراً ـ من مدنها الرئيسية القاعدة البحرية سفاستبول Sevastopol ـ والمدينة الصناعية كيرش Kerch والمنتجعات الساحلية إيفباتوريا Yevpatoriya ويالتا Yalta ـ إحتل العثمانيون القرم عام ١٤٧٥ . وتحت الحكم الروسى بعد ١٧٨٣ كانت مسرحاً لحرب القرم الشهيرة Crimean War (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) . خلال الفترة السوفيتية أقيمت جمهورية قرمية ذات استقلال ذاتى ، لكن الأقلية التترية اتهمت أثناء الحرب العالمية الثانية بالتعاون مع الألمان ونفوا إلى وسط آسيا وألغيت الجمهورية .

- Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 5 - PP. 347 - 348

(٣١٢) بليز الفرنسوى وويلصون الإنجليزى = المقصود هو مسيو دى بلينيير De Blignieres العضو الفرنسى بصندوق الدين ـ ومستر ريفرز ويلسون Rivers Wilson رئيس لجنة التحقيق فى ديون مصر المشكلة فى ٢٧ يناير ١٨٧٨ ـ والتى (الديون) كانت قد تراكمت بفعل السياسات المالية الغير مسئولة لإسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) وإغراقه البلاد فى الديون . عندما أعلن الباب العالى فى ٤ أكتوبر ١٨٧٥ إفلاس الحكومة العثمانية بقراره أن نصف الفائدة المستحقة على الدين العثمانى العام وكوبونات إستهلاكها ستدفع نقداً لمدة خمس سنوات إبتداء من أول يناير ١٨٧٦ ، وإن النصف الباقى سيتسلمه الدائنون على شكل سندات على الخزانة بفائدة سنوية ـ عندما أعلنت تركيا ذلك إنعكس هذا القرار على مصر باعتبار أن وضعها العام مرتبط بالدولة العثمانية ـ فكان رد الفعل لدى الدائنين قوياً ، وفى نوفمبر ١٨٧٥ هبطت قيمة السندات المصرية .
فى نوفمبر ١٨٧٥ طرح إسماعيل قرضاً بضمان أسهم مصر فى قناة السويس (١٧٦,٠٠٠ سهم) ـ لكن المنافسة السياسية بين إنجلترا وفرنسا وضعف موقف الأخيرة بعد هزيمتها فى الحرب البروسية ـ الفرنسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) عطلت إمكانية الحصول على القرض ـ وهكذا فإن دزرائيلى Benjamin Disraeli رئيس وزراء بريطانيا نجح فى الفوز لبلاده بهذه الأسهم نظير أربعة ملايين جنيه .=

إصلاح القناطر الخيرية وفتح الترع الكبيرة ، وتحسين حالة الرى ، وتنظيم الشوارع ، وفى إنشاء المدارس ، وتنظيم لوائح التعليم . وله التآليف الجليلة

= فى ٣٠ أكتوبر ١٨٧٥ ونتيجة لسوء أحوال المالية المصرية طلب إسماعيل من الجنرال ستانتون Stanton قنصل بريطانيا العام فى مصر إبلاغ حكومة بلاده برغبته فى الحصول على خدمة موظفين بريطانيين لهما خبرة بالنظام المتبع فى وزارة المالية البريطانية لمساعدة الجهاز المالى المصرى فى إصلاح أحواله . لكن الحكومة أرسلت بعثة كاملة من ستيفن كيف Stephen Cave عضو مجلس العموم البريطانى ، الكولونيل ستوكس Stokes ، فكتور بكلى Victor Buckley الموظف بوزارة الخارجية ، وتيلور Taylor الموظف بوزارة الخارجية أيضاً . كان على البعثة أن تجرى تحقيقاً مبدئياً تمكن نتيجته الحكومة الإنجليزية من أن تقرر هل توافق على طلب الخديو تعيين موظف إنجليزى مستشاراً مالياً للخزانة المصرية ـ ورغم أن البعثة إنحرفت عن الأغراض التى كان يبتغيها إسماعيل من حضورها إلا أنها فازت فى النهاية بمعلومات ثمينة عن أحوال مصر الإقتصادية مكنتها من كتابة تقرير انتهت فيه إلى إقتراح الإشراف الإنجليزى على المالية المصرية . وقد أدى هذا إلى زيادة التنافس بين إنجلترا وفرنسا التى أرسلت فى أوائل عام ١٨٧٦ أوتريه Outré القنصل الفرنسى العام السابق فى مصر لموازنة نشاط بعثة (كيف) والعمل على إفشال نشاطها ـ كذلك فإن إيطاليا أرسلت السناتور شالويا Scialoja نائب رئيس مجلس الشيوخ والوزير السابق بالمالية لمراقبة أحوال مصر ومحاولة الحصول لبلاده على نصيب من أى تسوية ممكنة ـ وكذلك فعلت النمسا . كانت مقترحات كيف هى إنشاء إدارة خاصة مستقلة عن الإدارة المالية العامة على أن يتولاها مدير خاص وهيئة من الموظفين ، وأن يرأسها أحد الشخصين الذين طلبهما إسماعيل من الحكومة الإنجليزية ـ وأن تقوم ميزانية هذه الإدارة على إيرادات ضرائب الأراضى والسكك الحديدية والموانئ بشرط أن تكفى هذه الإيرادات لدفع الفائدة واحتياطى الدين الموحد ـ واقترح شروطاً خاصة لضمان الدفع الكامل للأقساط السنوية التى يمكن أن يتكون منها إحتياطى ـ وأن يصبح موظف إنجليزى رئيساً دائماً للإدارة المقترحة ـ وأن يتعهد إسماعيل فى مرسوم إنشاء الإدارة أن لا يعقد أى قرض جديد أو أن يدخل فى تعهدات مالية جديدة يترتب عليها عجز فى الدخول العامة ـ فى ذلك الوقت بدأ إسم (ريفرز ويلسون) يظهر على الساحة باعتباره المستشار المالى الذى كان الخديو قد وافق على تعيينه لمساعدة المالية المصرية ـ وفق مقصده الأصلى .

خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٧٦ إقترح (أوتريه) ومجموعة من الماليين الفرنسيين إنشاء بنك (صندوق) توضع فيه كل الأموال المحصلة وتصرف منه حسابات كل المدفوعات المستحقة على مصر ـ وكان الهدف الحقيقى من هذا الإقتراح تثبيت (الدين السائر) ومعظمه فى أيدى ممولين فرنسيين ـ بفائدة ٩٪ ـ لكن إنجلترا رفضت التعاون مع فرنسا فى هذا المشروع ـ فى نفس الوقت فإن الخديو لكى يوازن موافقته على تعيين رفرز ويلسون مستشاراً مالياً لحكومته ـ وافق على أن ترسل الحكومة الفرنسية (أحد كبار موظفى وزارة المالية الفرنسية لكى يساعده فى تنظيم إدارة المالية المصرية) . واقترح اسم ڤلليه Villet الذى حمل معه عند القدوم إلى مصر=

= مشروعاً بإنشاء (لجنة للدين العام) تقوم بتحصيل الأموال نيابة عن الدائنين بعد تثبيت كل الديون وتوحيدها . لكن موافقة إسماعيل على مشروع (فلليه) أغضب إنجلترا التى هددت بنشر تقرير كيف ـ فى ٤ أبريل ١٨٧٦ نشر التقرير الذى اقترح تثبيت وتوحيد الديون بفائدة معتدلة تتمشى مع موارد البلاد ـ وتعيين شخص موثوق به رئيساً لإدارة الرقابة التى تتولى تحصيل الدخول مباشرة من جباة الضرائب والإشراف العام على فرض الضرائب .

وافق إسماعيل على مقترحات (كيف) ـ واستكمل مباحثاته مع الفرنسيين والإيطاليين والنمساويين ومستشاره المالى (ريفرز ويلسون) بقصد إنشاء صندوق الدين ـ وكان ذلك بهدف أن لايضع نفسه كلية فى يد الإنجليز . وفى ٢ مايو ١٨٧٦ صدر المرسوم الخاص بانشاء صندوق الدين . وفى ٧ مايو حول إسماعيل كل ديونه الثابتة والسائرة إلى دين موحد قيمته ٩١ مليون جنيه وفائدته ٧٪ من رأس المال الإسمى ، على أن يتم إستهلاكه فى ٦٥ سنة . وعينت إيطاليا والنمسا وفرنسا أعضائها فى الصندوق ـ بينما رفضت إنجلترا الموافقة على هذه التسوية . ترتب على تسويات ٧ مايو ١٨٧٦ وإقدام إسماعيل فى ٨ أبريل من نفس العام على التوقف عن دفع الأرباح المستحقة على سندات الخزانة التى صدرت فى عهده ـ إثارة السخط فى إنجلترا وفرنسا ـ وتزايدت مطالب الدائنين بإجراء تحقيق أشمل فى أوضاع الخديو المـــالية . مع إعادة إنجلترا النظر فى موقفها من فرنسا فإنها اتفقت معها فى أواخر ١٨٧٦ على التنسيق ـ وهكذا فإنه فى ذلك الوقت اتفقت الدولتان على إقناع إسماعيل بدعوة مستر جوشن Goschen أحد أعضاء البرلمان الإنجليزى ومسيو جوبير Joubert كمندوب عن الدائنين الفرنسيين لعمل تصفية عامة بدلاً من إعلان إفلاسه . واضطر إسماعيل فى أكتوبر ١٨٧٦ لقبول بعثة (جوشن وجوبير) التى قدمت مقترحاتها وكانت تقضى بتخفيض قيمة الدين الموحد إلى ٥٩ مليون جنيه بفائدة ٦٪ يضاف إليها ١٪ للإستهلاك ـ وضع السكك الحديدية وميناء الإسكندرية فى يد هيئة من إنجليزيين وفرنسى ومصريين ـ فرض رقابة على المالية المصرية يشرف عليها إنجليزى للدخل وفرنسى للمنصرف ـ فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ أصدر إسماعيل مرسوم التسوية والذى بدأ به عهد المراقبة الثنائية التى تولاها مستر رومين Romaine الإنجليزى ـ والبارون مالاريه Malaret الفرنسى . وبعد ذلك عينت إنجلترا إيفلين بارنج Baring مندوباً لها فى صندوق الدين ـ وبذلك خضعت مصر مالياً للقوى الأوروبية وتمهد السبيل للخضوع السياسى .

أدى سوء الأحوال المالية ـ رغم وجود المراقبة الثنائية ـ وعدم قدرة الخزينة المصرية على دفع الفائدة نصف السنوية المستحقة على دين مصر العام ـ إلى مطالبة الرقيبين وأعضاء صندوق الدين بتشكيل (لجنة تحقيق أوروبية) لفحص شئون الحكومة المالية . وتحت ضغط الحكومات الأوروبية اضطر إسماعيل إلى الإذعان ـ وأصدر فى ٢٧ يناير ١٨٧٨ مرسوماً بتأليف لجنة أوروبية (لجنة التحقيق العليا) لفحص العجز فى أبواب الإيرادات وأسبابه وأوجه النقص فى القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب ووسائل إصلاحها ، وتحقيق موارد الميزانية عن سنة ١٨٧٨ .

تألفت اللجنة من فرديناند دى لسبس ـ ريفرز ويلسون ـ دى بلنيير ـ باراڤللى ـ بارنج ـ فون كريمر ـ ومصطفى رياض باشا ـ وانتهت إلى وجود عجز فى ميزانية الحكومة قدره تسعة ملايين جنيه ، واعتبرت الخديو مسئولاً عن هذا العجز وطلبت أن يتنازل عن أطيانه وأطيان عائلته ـ وأن يجرى تعديلاً فى نظام الحكم يتنازل فيه عن سلطاته المطلقة ـ وأن يقبل مرتباً سنوياً ـ وأن تجرى إصلاحات ثانوية فى الإدارة المالية .

عندما عرض السير ريفرز ويلسون تقرير لجنة التحقيق الأوروبية العليا على الخديو فى ٢٣ أغسطس ١٨٧٨ ـ قبل الأخير كل طلباتها . وكانت فرنسا وإنجلترا قد إتفقتا فيما بينهما على=

وأهمها (الخطط التوفيقه)[٣١٣] . إحتفل بتشييع جنازته إحفالاً[٣١٤] عظيماً مشى فيه طائفة من الجنود والوزراء ورجال الديوان الخاص ووكلاء النظارات والعلماء والوجهاء والأعيان وتلاميذ المدارس .

وصلى عليه فى مشهد نفيسه[٣١٥] ، ودفن فى قرافتها . وقد أطلقوا عند دفنه ثلاثة عشر مدفعا من قلعة الجبل .

وجاءت الأخبار من التخوم بأن جماعة الدراويش يبلغون الثلاثمائة اقتربوا من (حصون المرات) وجعلوا يطلقون عليها بنادقهم ، فأحس بهم طلايع الحصون وهم نحو المايه من (العبابده) وهاجموهم[٣١٦] عن مدانات[٣١٧] الحصون ، وقاتلوهم بالسلاح الأبيض وجها لوجه ، وأبلوا فيهم بلاء حسنا جدا فمزقوا شملهم ، ولاذ من بقى منهم إلى الفرار ، فتعقبوهم حتى أعياهم المسير ، فعادوا بغنيمتهم ظافرين . وقد قتل فى هذه الوقعة صالح[٣١٨] بك خليفة مقدم

= استبدال (المراقبة الثنائية) التى عمل بنظامها منذ نوفمبر ١٨٧٦ بوزارة مختلطة برأسة نوبار باشا ، وأن يكون بين أعضائها وزيران أوروبيان ، أحدها إنجليزى لوزارة المالية ، والثانى فرنسى لوزارة الأشغال .

وهكذا فإنه فى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ أصدر إسماعيل أمره الشهير بإنشاء مجلس النظار وتخويله مسئولية الحكم ـ وأصبح نوبار رئيساً لمجلس النظار وناظراً للخارجية والحقانية . رياض باشا للداخلية . راتب باشا للحربية . السير ريفرز ويلسون للمالية . المسيو دى بلنيير للأشغال . على باشا مبارك للمعارف والأوقاف .

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى «مصر والمسألة المصرية» ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٥ ـ ص ٢٤ ـ ٦٥ .

ـ عبد الرحمن الرافعى «عصر إسماعيل» ج ٢ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٩ ـ ٧٧ .

(٣١٣) الخطط التوفيقه = الخطط التوفيقية ـ راجع حاشية ٣١٠ ص ٢٤٧ .

(٣١٤) أحفالاً = احتفالاً .

(٣١٥) مشهد نفيسه = المقصود هو مقام السيده نفيسة بالقاهرة .

(٣١٦) وهاجموهم = وهاجموهم وردوهم

(٣١٧) مدانات = مداناة من يدنو .

(٣١٨) صالح بك حسين خليفة ـ إبن عم حسين باشا خليفة حاكم دنقله السابق فى ظل الإدارة المصرية ـ شيخ قبيلة العبابدة المقيمة حول وادى حلفا ـ وهى قبيلة كانت موالية للحكومة المصرية ـ وقاومت بقيادة صالح بك قوات المهدى لسنوات غير قليلة ـ الأهرام العدد ٣٩٣٠١ فى ١٤/٧/١٩٩٤ ـ والخريطة فى ملحق (٨) .

العبابدة ، أصابته رصاصة فى عنقه فأماتته لساعته ، فلم يحفل الناس بهذه الواقعة ولم يحلوه محله من الإعتبار لانشغالهم بخبر الخلاف الواقع بين كتشنر سردار العساكر المصرية ، وناظر ووكيل ديوان الحرب ، ومنع السردار للناظر ووكيله من أداء وظائفهما المقررة . ذلك أنه لما نقل (ماهر باشا) من محافظة الإسكندرية إلى وكالة ديوان الحرب وهم بأداء منصبه حقه ، عارضه فى ذلك السردار ومبالغه[٣١٩] ، فشكا الوكيل منه ورفع إلى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بذلك ، وأبان ماله وللناظر من الحقوق واحدة فواحدة ، فما هو أن جعل الرئيس ينظر فيه حتى قام لورد كرومر فى وجهه ومانع فى أخذ مابيد السردار من تلك السلطة ..واشتد الخلاف وكبر الأمر على الرئيس لعجزه عن رد كرومر ، فكان إذا أشار بعرض الخلاف على لجنةمن أصحاب الوظائف العالية ، وجعل حكمها فى ذلك حكما لايقبل النقض أو ابرام ، مانع كرومر وشدد وبالغ فى التهديد . وبتحرير خبر ذلك :

أنه لما احتل الإنجليز البلاد على ما مر بيانه فى حينه ، وتولى وظائف وخطط الحكومة رجالاتهم ، قبض الجنرال (وود)[٣٢٠] أحد مقدمى عسكرهم على خناق ديوان الحرب ، واستمالوا الخديوى توفيق إلى موافقتهم على ذلك ، واختص هو الجزال وود الذى تولى سرداريه الجيش يومئذ بالإشراف على سائر الظباط[٣٢١] وأفراد الجند وعلى كل مايتعلق بديوان الحرب . وقد كان عمر باشا لطفى يومئذ وزير ديوان الحرب ، فمانع فى ذلك وكلم الخديوى فى النتائج

(٣١٩) ومبالغه = ومانعه قراءة ترجيحية .

(٣٢٠) وود = الجنرال سير هنرى إيفلين وود Wood. Sir Henry Evelyn ـ جنرال إنجليزى (١٨٣٦ ـ ١٩١٩) ولد ومات فى لندن ـ قاتل وميز نفسه ضد قبائل الزولو Zoulous عام ١٨٧٩ . شغل وظيفة أول سردار إنجليزى للجيش المصرى (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) بعد هزيمة العرابيين فى سبتمبر ١٨٨٢ .

- Larousse Universel - Ibid . P . 1266

(٣٢١) الظباط = الضباط .

المرتبة على هذه الخطة الحاوية(٣٢٢) لكل نظام ، فلم ينل مأربا ، فجعل يحافظ على ما مابقى له من خصائص الرئاسة ، وظل على ذلك حينا حتى أنزل الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة(٣٢٣) وترك البلاد تنعى من فيها ، فتمكن جماعة الانجليز من خططهم ، ونالوا من وظائف الحكومة منالهم . واتفق أن تولى عبد القادر(٣٢٤) باشا رئاسة ديوان الحرب فبذل الجهد فى المحافظة على مابقى من اختصاصاته وجعل يدفع عنها بالتى هى أحسن . وحدثت حملة ولسلى(٣٢٥)

---

(٣٢٢) الحاوية = الهادمة قراءة ترجيحية .

(٣٢٣) كانت إستقالة شريف باشا فى ٧ يناير ١٨٨٤ إحتجاجاً على التبليغ البريطانى لمصر فى ٤ يناير ١٨٨٤ بضرورة قبول وتنفيذ أوامر بريطانيا فى شأن مصر والسودان ـ وكان شريف قد اعترض على نصيحة بريطانيا بإخلاء السودان .
ـ جورجى زيدان «كتاب تاريخ مصر الحديث ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢٧ .

(٣٢٤) عبد القادر باشا = إبن عثمان أفندى سمعى الطوقانى التركى الأصل ، أحد رجال الجيش المصرى الذين اشتركوا فى فتح الشام ـ ولد عام ١٨٣٧م فى مدينة حمص من أعمال سوريا ـ تلقى العلم بمصر ثم بالمدرسة الحربية السلطانية فى دمشق ـ سافر فى بعثة إلى ڤيينا فى عهد عباس الأول وعاد إلى مصر بعد ثلاث سنوات قبل أن يتم علومه ـ ألحق تلميذاً بأورطة المهندسين بالقلعة السعيدية ـ لما تخرج ألحق بالجيش وتدرج فى رتبه ـ عين ياورا للخديوى إسماعيل ـ عين أميرالايا بمدرسة الضباط ـ تشريفاتيا وياورا خديوياً بالمعية . نال رتبة اللواء ـ فى عام ١٨٧٦ انتدب للسفر إلى الحبشة لإنقاذ القوات المصرية ـ عين محافظاً لبورسعيد والقنال فمحافظاً للاسكندرية ـ أحيل إلى المعاش عام ١٨٨٠ ثم أعيد للخدمة ثانية ـ فى ١٨٨٢ عين ناظراً وحكمدار للسودان ـ إستدعى فى ١٨٨٣ وأحيل إلى المعاش ـ نال رتبة الفريق ـ اختير ناظراً للحربية فى نظارة نوبار (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩ يونيو ١٨٨٨) ـ توفى فى يوليو ١٩٠٨ .
ـ زكى محمد مجاهد (الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية) ـ ج٤ ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ القسم العاشر ـ المؤرخون والرحالة ـ ص ١٩١ .
ـ الكسندر شولش (مصر للمصريين ـ أزمة مصر الاجتماعية والسياسية) مرجع سبق ذكره ـ ص ٩١ حاشية ٤٣ .

(٣٢٥) وولسلى = ڤيسكونت چوزيف جارنت وولسلى Wolsley. Joseph Garent. Vicomt ـ ضابط إنجليزى (١٨٣٣ ـ ١٩١٣) ولد قرب دبلن Dublin وتوفى فى منتون Menton ـ تميز فى غينيا Guinee ، فى بلاد الزولو Zouloland ـ عهدت إليه الحكومة البريطانية بقيادة جيش الحملة ضد (أحمد عرابى باشا) ووصل إلى الإسكندرية فى ١٥ أغسطس بعد ضربها فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ـ شارك فى حرب القرم وفى بعض الحملات الإستعمارية الإنجليزية ـ بعد هزيمة عرابى نال لقب فيكونت Vicomte ـ وأصبح إسمه الجنرال ولسلى أوف كايرو Wolsly of Cairo . عندما قررت بريطانيا إرسال نجدة من الجيش الإنجليزى لإنقاذ الجنرال غوردون الذى كان قد عهد إليه بمهمة إخلاء السودان فى فبراير ١٨٨٤ ، عهدت بقيادتها إلى ولسلى ـ وصل إلى مصر فى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ ـ وشرع فى قيادة قوة إنجليزية مصرية قوامها تسعة آلاف مقاتل فوصل وادى حلفا فى أكتوبر ـ ثم وصل دنقلة فى ٣ نوفمبر ـ وكورتى فى ١٦ ديسمبر واتخذ منها معسكره العام ـ حاربت قوات=

على المهدى وأصحابه ، فذهب جرانفل[٣٢٦] باشا مع وولسلى وهو يومئذ سردار الجيوش المصرية ، وتولى عبد القادر باشا وزارة الداخلية علاوة على رئاسة ديوان الحرب ، فلم تمكنه الأعمال من الذهاب إلى ديوان الحرب إلا يوما فى كل أسبوع . فاغتنم (وطسن باشا) الإنجليزى وهو يومئذ نائب غيبة السردار هذه الظروف وقبض على جميع الأعمال كأنه الناظر والسردار والوكيل ، وتصرف فى سائر الأمور نقضها وإبرامها وأقصى (على غالب باشا) وهو يومئذ وكيل ديوان الحرب عن كل عمل ، فشكا الأمر إلى عبد القادر باشا ، فأكبر عبد القادر باشا هذه الفعال وحال دون أطماع وطسون . وبقى الحال على هذا أياما حتى عاد جرانفل من عودته وعلم مما [٣٢٧] جرى ، فاهتم بالأمر وأكثر فيه الأخذ والرد أياما كادت تنفصم فيه عرى الإتحاد بين الهيئة الحاكمة وجماعة المحتلين . ثم وقع الاتفاق على أن جميع المسائل الخاصة بترقية ورفع درجات الضباط والنظام تكون من خصايص السردار ، أما المسائل الإدارية والحسابية وسائر المشتروات والتحريرات فمن خصائص الناظر ووكيله . وأن يكون هذا النظام

= وولسلى فى (أبى طليح) فى ١٧ يناير ١٨٨٥ ـ واحتلت (المتمة) ـ ووصل قرب الخرطوم فى ٢٨ يناير ١٨٨٥ لكنها كانت قد سقطت فى يد قوات المهدى وقتل غوردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ ـ عادت حملة وولسلى إلى مصر فى يونيو ١٨٨٥ . تولى ولسلى قيادة الجيش الإنجليزى فى حرب البوير بالترنسفال (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) ولم يوفق وعدته حكومته مسئولاً عن النكسة التى حلت بالقوات الإنجليزية فنحته عن القيادة وعينت بدلاً منه الجنرال اللورد روبرتس Roberts

ـ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .

ـــــــــ (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٨ .

ـ Larousse Universel - Ibid . - P. 1266 .

(٣٢٦) جرانفل = السير فرانسيس جرنفل باشا Sir Francis Grenfell سردار الجيش المصرى من ١٩ أبريل ١٨٨٥ وحتى ١٢ أبريل ١٨٩٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٢٨ .

ـ الوقائع المصرية ١١ أبريل ١٨٩٢ .

(٣٢٧) مما = بما .

قاعدة لايعتريها خلل . وكان السير ولف[٣٢٨] قد جاء من ديار الإنجليز بصفة مندوب عالى للمخابرة فى شروط الجلاء ، وصار نزيل البلادعلى الرحب والسعة . فتداخل فى الأمر ووافق على تقرير تلك القاعدة ، فانحسم كل نزاع وبطل كل قيل وقال . وماهى إلا أيام حتى رسم الجنرال غرانفل باشا بتعطيل عمل الديوان أيام الأحد ، فأكبر عبد القادر باشا ذلك وقال أنه لا موجب لهذا الخرق العجيب فعارضه غرانفل وقال لابد من ذلك ، فرفع عبد القادر باشا هذا الأمر إلى مجلس الوزراء ، فلما انعقد مجلسهم وتناول كحيل[٣٢٩] باشا كاتب سر المجلس المذكرة المقدمة من عبد القادر باشا ليتلو مافيها على هيئة

---

(٣٢٨) السير ولف = السير هنرى درومندولف Sir Henri Drummond wolff ـ معتمد بريطانيا لدى الدولة العثمانية بشأن القضية المصرية عام ١٨٨٥ .
عندما تولت وزارة المحافظين السلطة فى إنجلترا فى يونية ١٨٨٥ فى أعقاب إستقالة وزارة جلادستون Gladstone أوفد اللورد سالزبورى السير هنرى درومندولف إلى الآستانة لمفاوضة الحكومة التركية فى شأن الجلاء عن مصر . فى ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ إتفق وولف ووزير خارجية تركيا على إيفاد مندوب سام (قوميسير عثمانى) وآخر إنجليزى إلى مصر ، تكون مهتهما الإشتراك مع خديو مصر فى إعادة تنظيم الجيش المصرى وبحث التغييرات التى يرى إدخالها فى نظام الإدارة ـ إستغرقت المفاوضات عامين تقريباً وانتهت فى ٢٢ مايو ١٨٨٧ بما سمى باتفاقية الآستانة التى نصت على جلاء القوات البريطانية عن مصر عام ١٨٩٠ إلا إذا تبين إحتمال خطر داخلى أو خارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء ـ واتفق على أن يبقى لإنجلترا بعد الجلاء رقابة عامة على الجيش تنتهى بعد عامين من تمام الجلاء ـ وأن يكون لتركيا وإنجلترا حق إرسال جنود إلى مصر لاحتلالها فى حالة اضطراب الأمن فيها ـ أما إذا وجد ما يمنع تركيا من إرسال قواتها إلى مصر فإنها توفد مندوباً يبقى فيها طوال مدة الاحتلال البريطانى .
إعترض المندوب العثمانى (مختار باشا) (راجع الحاشية ١٢ ص ٣٧) على الإتفاقية ـ كذلك عارضتها فرنسا وروسيا ـ وأحجم السلطان العثمانى عن التصديق عليها ـ وانتهت مفاوضات درومندولف بالإخفاق ، وغادر الآستانة فى يوليو ١٨٨٧ .
ـ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان) مرجع سبق ذكره ـ ص ٦٩ ـ ٧٤ .

(٣٢٩) كحيل باشا = ميخائيل كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار ـ وهو منصب يقابل منصب سكرتير عام مجلس الوزراء الآن ـ أحد الشخصيات السورية المسيحية الذين زخرت بهم الإدارة المصرية على مدى سنوات القرن التاسع عشر والذين احتكروا قدراً لابأس به من المناصب الكبرى وتفوقوا فيها بسبب إتقانهم للغات الأجنبية .
ـ دليل وادى النيل لعامى ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤١ .

المجلس تقدم فى الحال غرانفل باشا نحو عبد القادر باشا وقال له ، إنى رأيت أن الحق فى جانبك ، ولذا فإنى أوافقك على ماتقول ، فلا موجب إذا لتلاوة المذكرة . فوافقه عبد القادر على ذلك وأهملت تلك المذكرة .

وظل الحال على ذلك أياما من الدهر حتى خلع عبد القادر باشا من منصبه ، فاغتنم جماعة الإنجليز ذلك ووضعوا أيديهم على كل أمر ، وتصرفوا فى كل مصلحة وخطة ووظيفة ، واستبدوا ماستطاعوا حتى صار كل رئيس ووكيل فى ذلك الديوان لاكلمة له ولا عمل ولاشبه عمل ، كأنه حجر ملقى فيتخطاه أكبر كبير إلى أصغر صغير من الإنجليز . فلما تولى ماهر(٣٣٠) باشا

---

(٣٣٠) حرص الإحتلال البريطانى منذ بدايته على السيطرة على الجيش ــ فبعد حله فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ــ أصدر (توفيق) أمره في ٢٠ ديسمبر من نفس العام بإنشاء الجيش المصرى الجديد بقيادة الجنرال (إيفلين وود) ــ وتألف الجيش الجديد من لوائين من الجنود المشاة يتألفان من ثمانية أورط.(كتائب) عدد رجالها ٤٠٠٠ جندى ــ قاد اللواء (جرانفل باشا) اللواء الأول والذى تألف من الأورط الأولى إلى الرابعة ــ وقاد اللواء الثانى اللواء يوسف باشا شهدى وتألف هذا اللواء من الأورط الخامسة إلى الثامنة ــ وضم الجيش الجديد آلاى خيالة عدد رجاله ٥٠٠ جندى بقيادة الأميرالاى (تايلوربك) ــ ولواء مدفعية عدد رجاله ٥٦٠ جندياً بقيادة الأميرالاى (دنكن بك) ــ وفرقة هجانة . وحتى عام ١٨٨٦ بلغ عدد الجيش ١٤٥٠٠ رجل .

خلال فترة حكم (الخديو توفيق) سيطر الإنجليز على مقاليد الجيش تماماً بحيث لم يكن للقيادات المصرية فيه أى دور ــ فتولى قيادته طائفة من الضباط الإنجليز واستسلم وزير الحربية (عمر لطفى باشا) فى عام ١٨٨٣ لبرنامج الإنجليز وأبعد الضباط المصريون عن الوظائف المؤثرة وإدارات الجيش الهامة ــ وطبق الإنجليز فى الجيش سياسة مقتضاها إحالة من تبدو عليه علائم الوطنية من الضباط إلى الاستيداع أو المعاش ــ أما من يبدى ولاءاً للاحتلال وقواده فهو الذى يبقى فى صفوفه .

وبموجب الأمر العالى الصادر فى ٩ يونيو ١٨٨٦ والأوامر التى تلته تقرر (البدل النقدى) للإعفاء من التجنيد الأمر الذى أدى إلى إمتهان الجيش واعتبار التجنيد تكليفاً تختص به الطبقات الفقيرة التى لايستطيع الفرد منها أن يفتدى نفسه بدفع البدل العسكرى .

وانحط مستوى التعليم العسكرى عندما أصبح خريجى المدرسة الحربية ممن لايحملون شهادة الإبتدائية . واقتصر التعليم على معلومات ضئيلة يقوم بتدريسها معلمون إنجليز .

فلما تولى (عبد القادر باشا حلمى) نظارة الحربية فى تشكيل نظارة نوبار باشا الثانية (١٠ يناير ١٨٨٤ ــ ٩ يونيو ١٨٨٨) حاول أن يضع أسس العلاقة بين العناصر المصرية والبريطانية فى ما يتعلق بشئون الجيش ، ونجح الرجل إلى حد ما لكن الأمور عادت إلى ما كانت عليه باستقالة النظارة النوبارية وإسناد النظارة إلى رياض باشا (٩ يونيو ١٨٨٨ ــ ١٢ مايو ١٨٩١) ، وزادت السيطرة البريطانية على النظارة فى ظل نظارة مصطفى فهمى باشا (١٤ مايو ١٨٩١ ــ ١٧ يناير ١٨٩٢) .

مع تولى عباس حلمى الخديوية المصرية بعد وفاة توفيق ــ شرع فى انتهاج سياسة نحو الجيش فحواها محاولة السيطرة عليه والتقليل من النفوذ الإنجليزى فيه ، فأدخل فيه بعض الإصلاحات=

منصب الوكالة كما تقدم القول ورأى من منصبه الصغار وذل النفس أنف من تلك الإستكانة وشكا الأمر إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ، ورفع محضرا بذلك ، وسأل الرجوع إلى الإتفاق الذى أبرم مع عبد القادر باشا . فعارضه الإنجليز وقالوا أن الرجوع إلى ما كان على عهد عبد القادر هو بمثابة تسليم ديوان الحرب جملة إلى أهل المناصب من المصريين ، وهذا لايمكن أن تحمل تبعته حكومة الملكة ، ولذلك لايصح قط الرجوع إلى تلك الخطة . واشتدت

= وحسَّن وضعية الضباط المصريين الذين لم يكن من حقهم التطلع إلى رتبة أرقى من رتبة أميرالاى (عميد) ـ وأدخل إلى المناصب القيادية فيه بعض الضباط ذوى الميول الوطنية . إنتهز عباس فرصة وفاة (على غالب باشا) وكيل نظارة الحربية وأحد مماليك محمد على باشا وعين محافظ الاسكندرية محمد ماهر بك ، نائباً لمحافظ محافظة الحدود (إسم محافظة أسوان فى ذلك الوقت) ومنحه رتبة اللواء ـ وفى ٢٨ سبتمبر ١٨٩٣ عينه وكيلاً لنظارة الحربية مع تكليفه بتنفيذ سياسة الخديو الجديدة . وبفضل (محمد ماهر باشا) وكيل نظارة الحربية تمكن الخديو من تنظيم عمله بطريقة جعلته قادرا على الإشراف بصورة فعلية على كل ما يدور فى هذه النظارة ـ فحصل من خلال (ماهر) على معلومات عن استخدام أموال النظارة بطريقة غير سليمة ـ وكشف له (ماهر) عن أن أموال (البدل النقدى) التى كانت تجمع للإعفاء من الخدمة العسكرية وكانت تبلغ ما يقرب من (٢٥٠,٠٠٠) جنيه تستخدم لأغراض إدارة المخابرات والإنفاق على العملاء والدعاية الإنجليزية فى السودان والحجاز واليمن وطرابلس الغرب .

لكن المخابرات البريطانية فى الجيش المصرى كشفت الخديو وأعوانه داخل الجيش ـ وكان من الضرورى إزاحة هؤلاء الأعوان وعلى رأسهم (محمد ماهر باشا) ـ ولم يطل الوقت على ذلك ، فقد تربص الإنجليز بوكيل نظارة الحربية وتمكنوا من إزاحته فى ١٢ فبراير ١٨٩٤ من نظارة الحربية وتعيينه محافظاً للقنال ـ وتعيين زهراب باشا الأرمنى الأصل وكيلاً بدلاً منه ـ وذلك فى أعقاب (حادثة الحدود) التى سيرد ذكرها فيما بعد ـ والتى أثبت الإنجليز خلالها أنهم يستطيعون النيل من الخديو والتنكيل به وإذلاله .

ومحمد ماهر باشا هذا ضابط مصرى ولد عام ١٨٥٤ وتلقى العلم بالمدارس ومدرسة المهندسخانة ومدرسة أركان الحرب ـ خدم بالجيش المصرى منذ عهد إسماعيل وشارك فى الرحلات العلمية والإستكشافات الجغرافية والأبحاث الجيولوجية فى السودان وأثيوبيا حتى أواسط أفريقيا ـ ثم شغل مناصب إدارية عديدة كمحافظ للإسكندرية والقنال ـ وهو والد السياسيين الشهيرين (على ماهر باشا) و(الدكتور أحمد ماهر باشا) وشقيق عبد الرحمن بك فهمى سكرتير اللجنة التنفيذية لحزب الوفد وقت ثورة ١٩١٩ ـ توفى عام ١٩٠٢ .

ـ وزارة الحربية والبحرية (أورطة مدافع الماكينة الأولى المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ١٢ حاشية .

ـ عبد المنعم الجميعى (الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) ـ الطبعة الأولى ١٩٨٢ ـ دار الكتاب الجامعى ـ ص ٧٨ ـ ٨٠ .

ـ مذكرات محمد فريد القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .

ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٦٦ ـ ٦٩ .

الأزمة وضاقت حلقاتها أياما كثيرة والرئيس مصطفى رياض باشا يظهر فى الضعف قوة ومن الخوف عزما ، وما زال على ذلك أياما حتى تغلب جماعة الإنجليز ونالوا بغيتهم ، فلم يبق لرئيس ديوان الحرب ووكيله من العمل إلا الشئ التافه القليل ، وهذا لم يتيسر بقائه إلا بحزم الأمير وقوة عزمه بعد عودته من زيارة السويس وسائر شطوط القناة فتأمل .

ورأى الرئيس مصطفى رياض باشا من بعض رجال مجلس شورى البلاد إقبالا عظيما على دار لورد كرومر بخطة قصر الدباره[٣٣١] وميلا إلى مبادئه ، وقد كانوا يفعلون ذلك خلسة ، فأكبر هذا الأمر وأعظمه جدا وكأنه أنحى عليهم باللائمة أو هو أوسعهم تونيبا ، فشكا بعضهم من ذلك الى اللورد ولم يوبخه ضميره على إتيان هذا الأمر المعيب . فقام اللورد وقعد وأخذته ثورة الغضب ، يقال وأرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية يشكو من فعال الرئيس ويستفذه[٣٣٢] إلى إيقافه عند حده . فما هى إلا أيام حتى جاءه الأمر بأن يجعل أبواب بيته وديوانه مفتوحا لكل قاصد ، وأن يخبر الرئيس بخبر ذلك ، فإذا بدت

---

(٣٣١) قصر الدوبارة = كانت الوكالة البريطانية ـ مقر كرومر ـ تقع بعد الركن الشمالى الغربى لحديقة الأزبكية فى القطاع التجارى من القاهرة . وكان ضغط العمل والمناسبات يتزايد كل يوم فيها بعد الاحتلال البريطانى . فى بواكير ١٨٨٧ طلب كرومر من اللورد سالزبورى رئيس الوزراء إعتمادا لبناء قنصلية ومقر جديدين . وفى بواكير التسعينيات بنيت الوكالة الجديدة على ضفة النيل فى جاردن سيتى بمنطقة قصر الدوبارة ـ وهى التى أصبحت مقر المعتمد البريطانى منذ ذلك الوقت ومقر السفارة البريطانية حالياً.

-Peter Mellini (sir Eldon Gorst - The overshadowed proconsul - Stanford University, stanford. California - 1981 - P. 20

ـ إنظر أيضاً الشكل فى الملحق (١٤) الذى يبين موقع القنصلية البريطانية قرب حديقة الأزبكية ـ والذى يتضح منه أن أغلب القنصليات كانت تتخذ من المنطقة المحيطة بحديقة الأزبكية مقراً لها ـ وهذا هو سر إحتفال هذه القنصليات بأعياد بلادها القومية فى حديقة الأزبكية المجاورة لقنصلياتهم .

ـ انظر الأهرام ـ العدد ٣٩٣٩٢ بتاريخ ١٩٩٤/١٠/١٣ .

(٣٣٢) ويستفذه = ويستفزه .

منه مكايدة عنفه وأحرج موقفه ، ففعل واشتد على الرئيس شدة بالغة ، ودس بين رجال الشورى نفرا من الغرباء المرتزقة يحضونهم على الحط من كرامة الرئيس ، فشمخت أنوف نفر منهم حتى كانوا لايبالون بصيحات الرئيس ولاتهديداته وحتى أغضبوا الأمير وبطانته ، وصاروا يعرفون بين الناس بصنائع الوكالة البريطانية أو أزناب(٣٣٣) كرومر . وعندى أنهم اصلح اليه(٣٣٤) حالهم لاهم فى العيد(٣٣٥) ولا هم فى النفير ، وقد ولجوا تلك المناصب فى غير ابوابها ، وتربعوا فيها صنائع مقلدين(٣٣٦) على أمرهم ، عيوب(٣٣٧) تنقل أخبار الشورى إلى مقر اللورد ، وتكشف له عن عوراتها وربما حشوها شئ من الشوائن التى يهم اللورد إلصاقها بإخوانهم رجال الشورى إظهرا(٣٣٨) لما فى سياسته من الإعجاز كما كان يزعم . وكلم الأمير اللورد فى ذلك وأظهر عزما . فكان إذا رأى من الأمير شدة تلاين أو رأى ليناشدد وتشماخ(٣٣٩) ، وأولئك الصنائع على ما هم عليه من الإلتصاق بأبواب اللورد والوشاية إليه .

وأعقب ذلك أن شاع الخبر وتناقله الناس بترشيح اللورد إلى رتبة سفارة دولته فى دار السلطنة العثمانية ، ففرحوا بذلك وقالوا نخشى يذهب ونخشى يجئ خبر من يخشى ، وتكلموا فمن(٣٤٠) يخلفه ، فاختلفت الاقنال(٣٤١) وتفرقت الظنون . فبينما هم على هذا إذ جاء الخبر برفض السلطان قبول اللورد سفيرا لديه وتصميمه على الإمتناع منه(٣٤٢) ذلك . قالوا وأن اللورد امتنع كذلك

---

(٣٣٣) أزناب = أذناب .

(٣٣٤) إليه = الله .

(٣٣٥) العيد = العير .

(٣٣٦) مقلدين = مغلوبين قراءة ترجيحية .

(٣٣٧) عيوب = عيوناً .

(٣٣٨) إظهر = إظهاراً .

(٣٣٩) وتشماخ = وتشامخ .

(٣٤٠) فمن = فيمن .

(٣٤١) الأقنال = الأقوال .

(٣٤٢) منه = عن .

من قبول هذا المنصب الخطير وسأل صاحب سياستهم البقاء فى مصر ماشاء حتى يسلم مصر بمهمته ولميرها[٣٤٣] بشارة إلى ملكة الإنجليز ، لأنها طريق هندهم ودرة تاج مجدهم . وتفشى خبر ذلك بين الناس فأكبروه للغاية ، وأطلق أصحاب الصحف المحلية على اختلافها للطعن والتقريع باللورد عنانه ، وظلوا على ذلك أياما كثيرة حتى قام أصحاب تاصحف[٣٤٤] المحازية[٣٤٥] للورد وقالوا أنها فتنة أوقد نارها رجال ديوان الأمير ومحنته[٣٤٦] لاقت من صدر الأمير متسعا ، فإذا ظل الحال على هذا أياما أخرى ساءت العاقبة وأخذ كل بعمله . وجعل لورد كرومر يغدو ويروح تارة إلى قصر الإمارة وأخرى إلى مقر وزارة الخارجية ، وديوان الرئيس والناس يحسبون ما وراء ذلك . والتقى بالأمير فى قصره بعد الظهر يوم الثلاثاء رابع جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى عشر وثلثمائة وألف ، يقال وكلمه فى ذلك بلهجة خالية من اللياقة ، فرأى من الأمير حزما وثباتا عظيمين لم يقو معهما على ترديد الحجة ولا الإكثار من الكلام . فقام بعده مكاتب جريدة التيمس ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ويستنفر صاحب سياستهم الى الضرب على أيدى المعاندين . فقام رجال الشورى عند ذلك وقعدوا وصمموا على أن يستحلفوا نفرا منهم يمين[٣٤٧] بانهم مافشوا قذ[٣٤٨] سر أعمال المجلس إلى اللورد كرومر ولا أعلموه بخبر ما عزمت لجنة بحث ميزانية الخزينه على فعله من تقليل مصاريف جيش الإحتلال وتنزيل رواتب جماعة الإنجليز الفادحة وإبطال المصروفات السرية وتنقيص مصروفات ديوان الحرب ، لا سيما إجمالى كبار الجند الإنجليز وغير ذلك من المغارم التى

---

(٣٤٣) بمهمته ولميرها = بهمة أميرها ـ قراءة ترجيحية .

(٣٤٤) تاصحف = الصحف .

(٣٤٥) المحازية = المحازبة .

(٣٤٦) ومحنته = ومعيته ـ قراءة ترجيحية .

(٣٤٧) يمين = اليمين الحاسمة ـ قراءة ترجيحية .

(٣٤٨) قذ = قط .

أثقلت الخزينة وأنحلتها وادرت[٣٤٩] بحالة أهل البلاد . وكان لما حان ظهور ميزانية الخزينة لسنة أربع وتسعين وثلثمائة[٣٥٠] وألف أى سنة إحدى عشرة للهجرة نشط رجال الشورى من غفال ، وقرروا فيما بينهم لزوم الإطلاع على الميزانية وإبداء ملاحظاتهم عليها ، وكلم على باشا شريف[٣٥١] رئيسهم ناظر الخزينة ومستشارها البير بالمر[٣٥٢] فى ذلك ، قيل وأغلظ فى القول إلى بالمر وحاشيته حيث رأى منه إمتناعا وتهديدا . قالوا وكلم الأمير فى ذلك أيضا وجعل يغدو ويروح بين قصر الإمارة ومقر الرئيس مصطفى رياض باشا ، وظل الأخر[٣٥٣] والرد بين الطرفين أياما حتى فازرجال الشورى ورئيسهم بأمنيتهم ، وانتدبوا منهم لجنة لفحص الميزانية ، فقررت بعد قليل من الأيام إسقاط

---

(٣٤٩) وادرت = وأضرت .

(٣٥٠) وثلثمائة = وثمانمائة .

(٣٥١) على باشا شريف = خلال شهر ديسمبر ١٨٩٣ أشيع فى بعض الجرائد المحلية أن اثنين من أعضاء مجلس شورى القوانين قد زارا اللورد كرومر وأبلغاه بإسرار قرارات لجنة مشكلة من أعضاء المجلس لفحص ميزانية الحكومة رغم سرية هذه القرارات ـ وعندما إنعقد المجلس فى الثانى من ديسمبر من نفس السنة قرر تحقيق الشائعة لمعرفة العضوين الخائنين ـ وكلف رئيسه (على باشا شريف) بتحقيق الواقعة ـ لكن الرجل توجه إلى اللورد كرومر وسأله عن ذلك فامتنع اللورد عن إجابته ـ وصعّد المسألة إلى وزارة الخارجية البريطانية . فى ٢٣ ديسمبر كشف عن إعتراضات مجلس شورى القوانين على ميزانية الحكومة ومن أهمها إلغاء مجلس بلدية الاسكندرية لتسلط الأجانب فيه ـ تعميم التعليم فى جميع أنحاء القطر ـ تخفيض مرتبات البوليس والجيش نظراً لإستيلاء كبار المستخدمين الإنجليز على ميزانيتهما فى شكل مرتبات ، وتخفيض المرتبات الكبيرة على وجه العموم . إلغاء مصلحة السجون وإضافة أشغالها على المديريات والمحافظات ـ إلغاء مصلحة إلغاء الرقيق وإحالة أشغالها على مصلحة خفر السواحل . وبصفة عامة فقد بدا واضحاً أن مجلس شورى القوانين يتخذ برأسة رئيسه على باشا شريف سياسة مناوئة للإستعمار ورجاله فى مصر ـ وهو ما أوغر صدر المعتمد البريطانى ضده وجعل يتربص به الدوائر على ما سنرى .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٨٣ ـ ١٨٦ .

(٣٥٢) البير بالمر = إلوين بالمر ـ المستشار المالى البريطانى فى ذلك الوقت .

(٣٥٣) الأخر = الأخذ .

واستبعاد كثير من أصحاب الوظائف وأهل الخط[٣٥٤] من الإنجليز ، وتنزيل بعض أهل المناصب عن مناصبهم . فساء ذلك اللورد كرومر والسير بالمر وأكبراه جدا ، وأرسل اللورد كتبه بذلك إلى صاحب سياستهم وأصروها[٣٥٥] إلى رجال الشورى ورئيسهم . وكان من أهم ما ساء الإنجليز وقوعه من رجال الشورى تقريرهم لزوم إمتناع الخزينة من[٣٥٦] دفع مصروفات جيش الإحتلال جملة . فلما كان يوم الجمعة خامس عشر ديسمبر من السنة وسابع جمادى الثانية سار الرئيس مصطفى رياض باشا إلى دار اللورد كرومر ولبث عنده ساعة ، ثم زار رجال صندوق الدين ، فتكلم الناس فى ذلك وقالوا مال رآى[٣٥٧] رجال الشورى وقبر إلى يوم البعث والنشور وظفر جماعة الإنجليز وأمنوا مما كانوا يخافون . وشاع أنه لا ينتظر عقد الجمعية العمومية لمجلس الشورى خشية إن تصادق على قرار المجلس على ميزانية الخزينة وتثبته إثباتا يكبر شأنه فى أعين الخصوم . واحتج الإنجليز على ذلك القرار وقالوا أن رجال الشورى إنما هم يطلبون إبطال مراقبة الرق وإباحة الإتجار فى الرقيق لأنهم أخصام الحرية وصنائع الإستعباد ، فهل يرجى عدلا أو صرفا[٣٥٨] من قوم هذا حالهم؟ ورسم الأمير باجتماع مجلس وزارة[٣٥٩] فى قصر الإمارة ، وتناجوا فى

---

(٣٥٤) الخط = الخطط .

(٣٥٥) وأصروها = وأسروها . وفى مقام الصراع بين مجلس شورى القوانين والوجود البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت فإن السير إلوين بالمر المستشار المالى أصدر فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩٣ تقريراً نشر فى الجريدة الرسمية رد فيه على إعتراضات مجلس شورى القوانين بصورة شديدة اللهجة وضمن تقريره قدحاً فى المجلس واتهمه بعدم التدبر فى إعتراضاته وأنه لم يفحص الميزانية فحصاً جيداً إلى غير ذلك .

ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٦ .

(٣٥٦) من = عن .

(٣٥٧) رآى = رأى .

(٣٥٨) صرفا = صدقاً .

(٣٥٩) وزارة = وزرائه .

الأمر طويلا ، فوقع الخلف بين الوزراء وذهب كل مذهبا ، ثم استقرت القاعدة بينهم على أن يردوا مطالب الشورى بالتسويف والإمهال إلى حلول عام خمس وتسعين وثمنمائة وألف المقبلة تفاديا من توتر العلاقات مع جماعة الإنجليز وصاحب سياستهم . وقد كان كرومر لا يرضيه إلا أن تلقى تلك المطالب فى زوايا الإهمال ، إو أن يضرب بها عرض الحائط حتى لا يجسر رجال الشورى على إتيان مثل هذا المنكر مرة أخرى . ورسم الأمير بلقاء رجال الشورى ، فذهبوا إلى قصر الإمارة فأكرم لقائهم وإمتدح حزبهم ووعدهم خيرا ، فقبلوا يده وانصرفوا . فاحرها[٣٦٠] كرومر للأمير . حدثنى صديق من رجال الشورى قال أشهدك أنا ما خرجنا من معمان الجهاد مع اللورد كرومر وأعوانه فى دفعهم عن أموال الخزينة ومنع التصرف فيها ظافرين حتى انكسرنا شر كسره وخذلنا شر خذلة أمام أصحاب الرى ورجال الضبط وكل يد حاكمة فى أرواحنا وأرزاقنا وأعراضنا ، حتى كان الرجل منا يقضى بياض يومه فى حساب ما سيلاقيه فى سواد ليله ، أوكان إذا طلب إرواء زراعته قفلوا دون وصول الماء اليها كل سبيل ، فاذا شكا أو كلم أصحاب الرى فى ذلك أوسعوه إهانه وتونيبا ، وقالوا أنتم أهل الشورى وسراة البلاد فما ضركم اذا انقطع الماء عن مزارعكم عاما أو بعض عام ، فلا يسعنا إلا السكوت والإستكانة ، لأننا نعلم عجز الهيئة الحاكمة عن إتيان شئ مع أولئك الآلهة الذين إذا شاءوا أحيوا وإذا شاءوا أماتو ، فتأمل أ .هـ .

وجاء الخبر من إبراهيمية الشرقية[٣٦١] ومن ميت جناح[٣٦٢] بسقوط مطرا[٣٦٣] غزيرا جدا لم يسبق له قط مثيل ، فهدم عدة منازل فى كثير من القرى والكفور وأمات كثير[٣٦٤] من البقر والجاموس والمعزى[٣٦٥] والضأن ، وأتلف كثير

(٣٦٠) فأصرها = فأسرها .

(٣٦١) إبراهيمية الشرقية = الإبراهيمية أحد مراكز محافظة الشرقية .

(٣٦٢) ميت جناح = إحدى قرى محافظة الشرقية .

(٣٦٣) مطراً غزيراً = مطر غزير .

(٣٦٤) كثير = كثيراً .

(٣٦٥) والمعزى = والماعز .

من المزروعات الشتوية كالبرسيم والفول والقمح ، وصارت الأوحال فى الطريق تلالا ، وظلت على هذا أياما . فاهتم أولى الأمر لذلك وأرسلت إلى تلك البلاد الخيام لسكنى أولئك المنكوبين حتى شاع الخبر بعزم الأمير على زيارة تلك الأنحاء لتعزية أهلها ، ولكن تبدلت الإشاعة بعد قليل بعزمه على زيارة الصعيد الأعلى لمشارفة أعمال الرى التى أحدثها المسيجر روى[٣٦٦] ليخلص مديريتى قنا وجرجا من غائلة الشرق[٣٦٧] الذى كان قد سلط عليهما السنة بعد الأخرى . فما هى إلا أيام حتى ظهرت الحركة بقصر الإمارة وتحقق خبر مبارحة الأمير وقيام ركبه إلى الصعيد ، وسيرت وزارة الداخلية كتبها إلى المديرين بتأهبهم للقاء الأمير وأصحاب ديوانه . وزاع[٣٦٨] خبر ذلك فى سائر الأنحاء من الجيزة إلى مديرية أسوان ففرح الناس به فرحا عظيما وتأهبوا لمقدمه وأقبلوا يعدون الأفراح والولائم ويزينون البلاد بالرايات والأنوار على طول الطريق فى البحر[٣٦٩] والبحر . وجاءت وفودهم إلى ديوان الأمير يلتمسون عطفه بزيارة بعض المدن الكبرى ، فأكرم وفادتهم ووعدهم خيرا . وكأن هذا الأمر لم يعجب جماعة الإنجليز لاسيما عميدهم لورد كرومر ، فهبت صحفهم وصحف صنائعهم تقبح عزم الأمير وتجسم ماسيكون من ورائه من الحركة على حدود السودان وفى جوف الصعيد الأعلى ، حتى لقد قال بعضها أن هذه الرحلة لاتخلو من غرض عظيم وخطب جسيم ربما تداعى معه النفوذ الإنجليزى وأشرف على الزوال . حدثنى أحد صنائع لورد كرومر قال علم اللورد بعزم الأمير على مبارحة القاهره إلى الصعيد الأعلى ، فأزعجه العلم بذلك إزعاجا شديدا وأحرج موقفه لدى صاحب السياسة الإنجليزية ، وكانت قد توترت العلايق بينه وبين الأمير وبلغت المغاضبة أشدها ، فلم يجسر على ممانعة الأمير فى سفرته هذه لأنه

---

(٣٦٦) المسيجر روى = الميجور رو Roux ـ راجع حاشية ٢٢٨ ص ١٤٩ .

(٣٦٧) الشرق = أى العطش أو الجفاف ـ يقال تشريق اللحم أى تقديده وتجفيفه .
ـ مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤١ .

(٣٦٨) وزاع = وذاع .

(٣٦٩) البحر = البر .

عمل غير صالح فى عرف السياسة ، فمال على الرئيس مصطفى رياض باشا وكلمه فى ذلك ، وكلم تكران باشا وزير الخارجية أيضا وألح عليهما بإرجاع الأمير عن عزمه فلم يفلحوا جميعا ، وأظهر ثباتا وعزما شديدين تحدث به أصحاب صحف الفرنسيس وعدوه إعجازا ، فكنت ترى اللورد يومئذ يدبر التدابير ويعد العدة للغلبة ويواصل السعى ويرسل الرسل هنا وهناك ويزيع[٣٧٠] الأخبار المقلقة والأنباء المخيفة حول حدود السودان . قال وكان الأمير يعلم خبر كل هذه السعايات ويعرف مرامى اللورد البعيدة ويقدرها حق قدرها ، ومع ذلك لم يعدل عن عزمه ولا أفسح للروية فى الأجل ، بل أشاع رجال ديوانه خبر مبارحة ركابه القاهرة فى أجل ضرب لذلك ، فلم ير اللورد بدا من الإستكانة والعدول عن ذلك[٣٧١] السعايات . وأقبل يتحين الفرص على عادته عند ضياع الحيلة ، وهو مع ذلك لم يكف عن تحريض الرئيس مصطفى رياض باشا على ممانعة الأمير وإرجاعه عن عزمه أ .هـ . قلت وقد بلغت القحد[٣٧٢] برجال ديوان الحرب من جماعة الإنجليز أن أرسلوا إلى ديوان الإمارة يحذرون الأمير من هجوم عثمان الأزرق بقومه إذا حصل[٣٧٣] ركب الأمير إلى حدود دنقلة . فتحدث الناس فى ذلك كثيرا وتطيروا من هذه الرحله إشفاق[٣٧٤] على الأمير ، وهو مع كل هذا لم يتسنى[٣٧٥] له عزما ولم يلو على شئ . ورسم يترتب[٣٧٦] حراسه وبطانته وتنظيم مواكيه[٣٧٧] على ما أراد .



(٣٧٠) ويزيع = ويذيع .

(٣٧١) ذلك = تلك .

(٣٧٢) القحد = القحة .

(٣٧٣) حصل = وصل .

(٣٧٤) إشفاق = إشفاقاً .

(٣٧٥) يتسنى = ينثنى .

(٣٧٦) يترتب = بترتيب .

(٣٧٧) مواكيه = موكبه .

الفصل الثالث

عام ١٨٩٤

حادثة الحدود

إبطال السخرة فى مصر

سقوط نظارة رياض

نظارة نوبار (١٥ إبريل ١٨٩٤ ـ ١٢ نوفمبر ١٨٩٥)

الإضراب عن العمل فى مصر

إحتلال إيطاليا لكسلا

حادثة علي باشا شريف

مشروع خزان أسوان

أزمة السيطرة على جهاز البوليس

البوليس المصري فى عهد المستشارية

تسيير عربات الترام فى القاهرة

فيضان النيل

أزمة السيد توفيق البكرى

حوادث سنة ١٨٩٤ ميلادية

فلما كان يوم الأربعاء ثالث رجب الفرد من السنة ، أى سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف ، عاشر يناير سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، فى نحو الساعة السادسة غصت محطة مصر بالأمراء والعلماء والرؤساء وسائر كبار أهل الخطط وأصحاب الوظائف والأعيان من الأجانب والموظفين ، لوداع الأمير قبل سفره إلى الصعيد الأعلى . وكان على المحطة فرقتان من الجند المشاة مصرية وإنجليزية بموسيقيها[1] . فلما أقبل الأمير فى موكبه حيت الجنود وأنشد السلام فتطلب[2] بتوديع الأقربين مصافحة ، ثم ركب القطار فسار به على الطائر الميمون ومعه بطانته وحاشيته وبعض الأمراء من ذوى قرباه . فلما وصل ركابه إلى أرمنت جاءت الأخبار إلى القاهرة تترى بعزمه على تفقد حال التخوم والمرابطين بها واستطلاع أحوال أهل البلاد وبحث شكواهم مما هم فيه من الفاقة والضنك . وأنه سيستعرضها[3] جنود حلفا ويشاهد المعاقل والحصون التى بها ، فتطير بعض العقلاء من ذلك وحسبوا له حساباً كبيراً ، لأنه لايرضى جماعة الإنجليز عموماً ولا لورد كرومر خصوصاً . فلما وصل ركبه إلى إدفو هرع الناس من كل صنف وطبقة للقائه وعلت أصواتهم بالدعاء إليه . فاستقبل الكبراء وأعيان البلد وظياط[4] الجند المرابطين . ثم زار قلعتى هارون والطاحون ومنازل جند الأورطة السودانية العاشرة والمدارس ودواوين الحكومة ، فلما استراح قام بركبه إلى حلفا ومعه فرقة من الهجانة العربان ، مكان[5] موكبه فى ذلك اليوم فخيماً جداً ، وفرح أهل التخوم بمقدمه فرحاً عظيماً ، فعفا عن بعض

---

(١) بموسيقيها = بموسيقاها .
(٢) فتطلب = فتلطف .
(٣) سيستعرضها = سيستعرض .
(٤) وظياط = وضباط .
(٥) مكان = فكان .

أهل الحبوس ، ونفر من مشايخ العربان المحكوم عليهم بالموت ، وتصدق كثيراً على الفقراء والمساكين ، حتى لقد حادث كثيراً من الزراعيين وأهل الصناعات وطيب نفوسهم بعطفه ورقة عاداته . وبعد أن أقام بحلفا أياماً قفل راجعاً إلى كرسكو وفى ركابه كتشنر باشا سردار العساكر المصرية ، وقد وردت على ديوانه رسائل التهانى من كل صوب وحدب . قالوا ولم يعجب الأمير عدم نظام الجيش المرابط بالحدود وعاب حركاته عند استعراضه ، وأعلن ذلك إلى السردار كتشنر وتكلم به علانية . قيل فأكبر السردار هذا النقد وأعظمه فى حضرة كبار العسكر وعده تحقيراً له واستقال فى الحال هو وجميع الإنجليز الذين معه من خدمة الجيش ، وغالط[٦] الأمير فى نقده ، وأبلغ الأمر إلى لورد كرومر على جناح البرق . وكان لورد كرومر يومئذ يستحفز[٧] للوثبة على الأمير بعد أن عاب على الإنجليز عدم نظام الجيش عند استعراضه بميدان الرصد خانة بالعباسية يوم عيد جلوسه ، فقام من فوره ودخل على الرئيس مصطفى رياض باشا بديوانه وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى ، وقال أن الأمير إنما يريد تحقير الإنجليز والإستخفاف بهم إن لم يقصد إكراههم على التخلى عن مناصبهم والإبتعاد عن خططهم . قالوا وقال غير ذلك أيضاً مما كانت تخفيه حفايظه ، فكاد الرئيس يسقط فى يده واختلط عليه الحابل بالنابل إذ رأى من لورد كرومر مدافعاً عنيداً يريد البطش بكل من وقف فى طريقه ، وقد كانت الوحشة بينه وبين لورد كرومر بالغة أقصاها ، وكان يرى منصبه على جرف الزوال . فأرسل إلى الأمير كتبه فى شأن استرضاء كتشنر وجماعة الإنجليز الذين معه وأن يمتدح المرابطين بالحدود فى شخص السردار وجماعة الإنجليز على رؤوس الملأ وإلا ساءت العاقبة وتحرجت الصدور[٨] . قالوا حتى كتب إلى

(٦) وغالط = وغالظ .
(٧) يستحفز = يتحفز .
(٨) الصدور = الأمور .

الأمير يقول إن لم يفعل الأمير ذلك أصبحت الإمارة فى خبر كان . فأكبر الأمير هذا القول وأعظمه جداً ، وشاع أن الرئيس سيبارح القاهرة إلى جرجا ليلتقى بالأمير ويرده عن رأيه استرضاءاً للورد كرومر وإشفاقاً لشخصه فى مسند الرئاسة ، فقد هدده لورد كرومر بالعزل إن أصر الأمير على عزمه ولم يزعن(٩) . وحار الرئيس فى أمره وتولاه الخبل وكثر إجتماعه بجناعة(١٠) الوزراء وأصحاب المناصب العالية ، ونقل عنه المقربون أنه ميال إلى تعضيد كرومر فى مطالبه مع ما فى ذلك من الصغار بمقام الإمارة ، وأنه يرى المصلحة فى المجاهره بمدح كتشنر ومن معه من الإنجليز والإعفاء عما فرط . وكان مما طلبه لورد كرومر من الرئيس عزل ماهر(١١) باشا أحد كبار الجند الذى كان فى ركاب الأمير يومئذ ،

---

(٩) يزعن = يذعن .

(١٠) بجناعة = بجماعة .

(١١) حادثه الحدود = عندما أسند الخديو عباس وكالة نظارة الحربية إلى اللواء محمد ماهر باشا محافظ الاسكندرية فى أواخر سبتمبر ١٨٩٣ كان ذلك أحد خطوات سياسة الخديو إزاء الجيش المصرى ــ والتى كانت تهدف إلى التقليل من النفوذ البريطانى داخله . ولقد عمل (ماهر باشا) على التقليل من شأن (كتشنر باشا) سردار الجيش المصرى وإتاحة الفرصة لعباس للإشراف الحقيقى على نظارة الحربية . فحصل على بيان بمرتبات الضباط الإنجليز بالجيش المصرى مقارنة بمرتبات أقرانهم من الضباط المصريين ــ وكان كتشنر يخفى ذلك البيان عن الخديو . كما تمكن (ماهر باشا) من معرفة أوجه إنفاق الأموال التى كانت تحصل من المصريين (كبدل نقدى) للإعفاء من الجندية والتى اتضح إنها تنفق على قلم المخابرات الإنجليزية فى السودان والحجاز واليمن وطرابلس .

وتمكن الخديو من بث عيونه فى فرق الجيش ووحداته ، كما استطاع أن يصل برجاله إلى بيت السردار نفسه . وقد اتضح من خلال معلومات رجال الخديو أن الضباط الإنجليز الذين يقومون بتدريب الجيش المصرى (ماسونيون) كانوا يشجعون الضباط المصريين على الإلتحاق بالماسونية الإنجليزية ، كما كان رئيس المخابرات الإنجليزية فى مصر رئيساً للمحفل الماسونى العسكرى الإنجليزى .

واستمراراً من جانب (عباس) فى سياسته تجاه الجيش ــ فإنه سافر يوم ٩ يناير ١٨٩٤ لتفقد الحدود واصطحب معه (محمد ماهر باشا) وكيل نظارة الحربية وبعض كبار رجال معيته . وفى ١٨ يناير ١٨٩٤ إستعرض (عباس) قوات الجيش فى (وادى حلفا) . وبعد الإستعراض أبدى إنتقاداً لمظهر الجنود من الأورطتين الثانية والحادية عشر ، وانتقد طريقة التعليم التى ينتهجها الضباط البريطانيون إزاء الجيش وندد بكتشنر سرداره . ونظراً لأن الإنجليز كانوا يتحينون الفرصة للنيل من الخديو والحط من كرامته فقد انتهز كتشنر هذه الفرصة وقدم استقالته بحجة أن انتقاد الضباط الإنجليز علنا وبالصورة التى انتقدهم بها الخديو يجعل مركزهم صعباً فى البلاد ــ واتبع ذلك بإبلاغ اللورد كرومر بما حدث من الخديو . وفى الحال فإن كرومر صعد من الموقف وأبرق إلى حكومته بأن انتقادات الخديو للضباط الإنجليز تعتبر أسوأ سلوك رآه فى حياته وطالب بأن=

فـقـد ظنوا به الـسـوء وأنه هو الذى حـمل الأمـيـر إلى ذم حـركـات المـرابطين

= ينقل (ماهر باشا) من الجيش وأن يصدر الخديو أمراً عسكرياً يثنى فيه على الضباط الإنجليز والجيش وإلا فإنه سيضطر إلى وضع الجيش بكامله تحت سلطة الإحتلال .
ما أن تلقى كرومر رد حكومته بالموافقة حتى قابل (رياض باشا) رئيس النظار (وتجران باشا) ناظر الخارجية وهدد بخلع الخديو عن عرشه إذا لم يذعن لطلبات الحكومة البريطانية .
أسرع (رياض باشا) بصحبة (بطرس باشا غالى) ناظر المالية إلى الصعيد وقابلا الخديو فى (جرجا) وأبلغاه بتطورات الموقف وطلبا منه تقديم الثناء والإعتذار للضباط الإنجليز ـ وعندما حاول الخديو المعارضة بعد إحساسه بأن الغرض من ذلك هو إحراجه والضغط عليه فإن رياض باشا أوضح له خطورة الوضع وشرح له عواقب عدم تقديم الترضية المطلوبة ، وأوضح له أن قنصل فرنسا (وهو متعاطف مع الخديو) رفض التدخل إلى جانبه ونصح بالاستسلام لمطالب المعتمد البريطانى .
وفى محاولة من جانبه لحفظ ماء وجهه ، فإن الخديو أمر ـ بعد التشاور مع (بطرس غالى باشا) بأن يرسل (رياض باشا) برقية إلى (تيجران باشا) ناظر الخارجية لإبلاغها إلى (كرومر) مضمونها أنه (الخديو) قد إندهش من تطور الأمر ، وإنه يحتفظ لنفسه بالحق فى تقرير حقيقة الواقع فيما بعد ـ وأنه لما كان يهمه ألا يكون هناك شك فى رضائه عن الجيش فإنه يصدر الأمر للسردار بالإعراب عن رضائه عن الجيش وسروره من قياداته الإنجليزية .
لكن (كرومر) وقد كان مصراً على تلقين الخديو درساً فيمن هو سيد البلاد ـ إعتبر هذه البرقية غير كافية للترضية ـ وأصر على أن يصدر الخديو أمراً يعرب فيه عن رضائه عن أحوال الجيش على الحدود ، وعن الضباط الإنجليز الذين يقومون بتدريبه ، وإبعاد (ماهر باشا) عن الجيش ـ وأنه فى حالة إذا ما عن للخديو أن يقدم شكوى ضد الضباط الإنجليز فإن عليه أن يقدمها للقائد العام لجيش الاحتلال .
وفى مذكراته يشرح الخديو ما جرى بعد ذلك فيقول أنه لم يندهش عند وصوله إلى الفيوم أن يرى رئيس مجلس نظاره (رياض) يجرى أمامه لكى يعلمه بعدم الرضاء العميق للورد كرومر بشأن هذه الحادثة مع كتشنر ، ويقدم له تصريحاً كتب بألفاظ مهينة للبلاد وله (الخديو) شخصياً لتوقيعه .
ويستطرد (عباس) فيقول أنه حاول بلا جدوى أن يفهم (رياضاً) أنه لايمكنه أن يتصرف خارج الحقيقة وأنه من الواجب أن يكون فى القاهرة بعد ظهر نفس اليوم لكى يقابل (كرومر) قبل التوقيع ، وأنه حاول بلا جدوى أن يظهر لرئيس نظاره ما فى (التصريح) من جرح لشخصه وللبلاد ـ إلا أن (رياضاً) رفض أن يستمع إلى أسباب (سيده) ولم يحاول أن يفهمه منطلقاً من فكرة ثابتة هى الطاعة ، ليس لأوامر الخديو ولكن لأوامر المعتمد البريطانى ـ وتنفيذ شروطه وهى : الشكر العلنى لقوات وادى حلفا ، ولقيادتها ، ولضباطها ـ الطرد الفورى لمحمد ماهر باشا وكيل نظارة الحربية .
وكانت المهلة الأخيرة التى أعطاها (كرومر) لرياض هى (ظهر) يوم ٢٦ يناير ١٨٩٤ . واضطر (عباس) وهو خائف أن يوقع على تصريح نصه :
مدينة الفيوم ، فى ٢٦ يناير ١٨٩٤ .
تصريح من صاحب السمو خديو مصر .
إلى سعادة السردار ـ وادى حلفا .
وقبل أن أترك مصر العليا لكى أعود إلى القاهرة ، أرغب فى أن أؤكد التعبير عن عميق مشاعرى وحسن توصياتى للجيش الذى زرته عند الحدود . وإنى أحرص كذلك على أن أؤكد لكم رضائى التام بشأن مظهره وتنظيمه ، ذلك الرضاء الذى أظهرته لكم من قبل . وإن من سرورى أن أهنئ الضباط ، سواء المصريين أو الإنجليز ، الذين يقودونه ، وإنى سعيد لكى أرى الخدمات التى=

ونظامهم العسكرى ـ فلم يمانع الرئيس فى عزله حتى شاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف على اختلاف نزعاتها ، وأشاروا إلى الأمير بعدم التعجيل فى العودة حتى يقلل اللورد من غلوائه ويشوب[١٢] الرئيس إلى رشده .

ومما زاد حزن الأمير وسخطه على كتشنر شكوى مشايخ العربان الذين أتوا إلى ركبه عند التخوم من أفاعيل كتشنر ومنعه إياهم من تقديم الطاعة للأمير والإجتماع تحت رايته وترك لموم المهدوية وشأنها ، حتى لقد ألقوا ببعضهم فى ظلامات الحبوس أعواماً حتى أطلق الأمير صراحهم[١٣] عند حلول ركبه بالتخوم . وتكلم الناس فى ذلك كثيراً ونادى أصحاب صحف الأخبار بالويل والنثور[١٤] وعظائم الأمور ، وأخذوا لورد كرومر بتلابيبه . واجتمع المشير مختار باشا مندوب السلطنة بقنصلى الروس والفرنسيس ، وتناجوا فى هذا الأمر طويلاً . فأحس اللورد بما وراء ذلك ، قيل وخفف فى غلوائه ، وأوعز إلى كتشنر ورفاقه باسترجاع استقالتهم فاسترجوها[١٥] . ووردت كتب الأمير إلى ديوان الرئيس مفعمة بالحجج الدافعة لنزهات[١٦] الإنجليز ونفثات عميدهم . وكان

= أداها الضباط الإنجليز لجيشى . وإنى أرجوك يا سعادة السردار ، إبلاغ هذا التصريح لعلم الضباط والجنود» .

واضطر الخديو ـ بعد الإهانة والإذلال الذى تلقاه على يد المعتمد البريطانى ـ إلى التخلى عن إشرافه عن الجيش .

وتعرف هذه الحادثة فى التاريخ باسم (حادث الحدود ـ يناير ١٨٩٤) .

ـ عهدى (مذكرات عباس حلمى الثانى خديو مصر الأخير ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) مرجع سبق ذكره ـ ص ٦٧ ـ ٧٢ .

ـ عبد المنعم الجميعى (الخديو عباس حلمى الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢ ـ ١٩١٤) مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٥ ـ ٨٩ .

ـ مذكرات محمد فريد (القسم الأول ، تاريخ مصر من إبتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٩١ ـ ١٩٣ .

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

ـ راجع أيضاً الحاشية ٣٣٠ ـ ص ٢٥٦ .

(١٢) ويشوب = ويثوب .

(١٣) صراحهم = سراحهم .

(١٤) والنثور = والثبور .

(١٥) فاسترجوها = فاسترجعوها .

(١٦) لنزهات = لترهات .

الرئيس مفعمة بالحجج الدافعة لنزهات(١٦) الإنجليز ونفثات عميدهم . وكان الرئيس ورجال مجلسه قد أجابوا لورد كرومر إلى طلبه خلع ماهر باشا وإبعاده عن مناصب وخطط الجندية ، فلما جاءتهم كتب الأمير أجلوا ذلك القول إلى حين . ولما كان يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد أى رابع عشرى يناير من السنة أى سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد قام الرئيس مصطفى رياض باشا بقطار مخصوص يريد لقاء الأمير فى طريقه إلى القاهرة ، وكان بطرس باشا فى ذلك اليوم فى بنى سويف فاستصحبه الرئيس وساروا معاً للقاء الأمير . كل هذا ولورد كرومر لم ينكف عن التهديد والوعيد والإتيان فى كل يوم بشىء جديد ، حتى لقد أعلم الرئيس بعزمه على ضم سائر صفوف العساكر المصرية إلى صفوف جيش الإحتلال وجعل الإثنين قوة واحدة إن لم يعدل الأمير عن خطته ويعدل فى رأيه . فلما وصل الرئيس إلى جرجا والتقى بالأمير حادثه فى الأمر وطال إجتماعهم ، قيل وعظم الرئيس الخطر المترتب على إصرار الأمير وإمتناعه عن إمتداح كتشنر وجماعة الإنجليز الذين هم معه وأكبره جداً ، ولم يتلطف فى استمالة الأمير واسترضائه وأظهر من الإستكانة والضعف ما أغضب الأمير وأحزنه ، حتى رسم إلى رئيس ديوانه كارهاً بأن يمتدح الفرقة التى عابها ويشكر السردار على ذلك ففعل . وسكن جأش الرئيس مصطفى رياض باشا وزالت غمته التى كان يتوقعها . وقام الأمير بركبه من أسيوط إلى مدينة الفيوم وهو متألم من فعال الرئيس ساخط متحرج الصدر ، فقابله أهل البلاد بغاية التجلة والكريم(١٧) ، وأظهروا من الفرح بلقائه ما لايقدر ، فلبث يومين ثم قام بركبه ورجال ديوانه إلى القاهرة . فما استقر به المقام حتى هب أصحاب الصحف على اختلافها يعيبون على الرئيس ضعفه وتفضيله البقاء فى منصب الرئاسة باسترضاء اللورد كرومر على حفظ كرامة أميره فى أعين جماعة

(١٦) لنزهات = لترهات .

(١٧) والكريم = والتكريم .

الإنجليز . وقالوا عام[١٨] الأمير نظام الفرقة الثانية من المرابطين بالحدود كقائد يعرف مواطن الخلل عند تعبئة الجيوش وتسيير الكتائب ، فلم يطق السردار الصبر على ذلك مدفوعاً بعوامل السياسة واستقال من منصبه ، ثم ثاب إلى رشده فاسترجع استقالته وعاهد الأمير على كتمان خبر هذا الحادث ، فأعجب الأمير قوله ولكنه عاد فأبلغ الخبر إلى عميد الإحتلال ، فكان ذلك مهيجاً لحفايظه ودافعاً إلى المشاغبة التى هى مأبه[١٩] ، وتعظيم الخطوب . فإذا كانت هذه حاله وهو صاحب الجيش وأميره وقائد جحافله ، فما ضر الرئيس إذا وقف فى وجه عميد الاحتلال ولم يكلم مقام سيده وأجبره بهذا الحرج العظيم وأنزل من نفوذه إلى ذلك الدرك الأسفل ، وكيف ساغ له أن يركهه[٢٠] على الهدول[٢١] عن رأيه الصحيح والإلتجاء إلى قول الكذب الصراح . وقالوا غير ذلك كثيراً ، ثم أنحوا على لورد كرومر وجماعة الإنلجيز[٢٢] باللائمة وأوسعوهم نقداً وتعييباً ، ونادوا سائر الدول إلى فتح باب المسألة المصرية والمسألة الكبرى الشرقية ومناقشة وسلطنة[٢٣] الإنجليز الحساب .

حدثنى صاحب لى من المقربين من باب الأمير قال «كدت أن أكون ممن أخافهم تهديد لورد كرومر ووعيده للأمير يوم وقوع حادث الحدود لو لم أكن على بينة من أمره وعلم بمغباه[٢٤] . رأى الأمير من سوء نظام الفرقة الثانية وإرتباكها فى حركاتها العسكرية عند استعراضها ما لم يسره ، فلم يمتدح قوادها كما امتدح غيرهم من بقية القواد وأخبر سردار الجيش بذلك ، فامتعض السردار

(١٨) عام = عاب .
(١٩) مأبه = مآبه .
(٢٠) يركهه = يكرهه .
(٢١) الهدول = العدول .
(٢٢) الإنلجليز = الإنجليز .
(٢٣) وسلطنة = استبعدت لعدم تأثيرها على السياق .
(٢٤) بمغباه = بعاقبته .
ـ مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٩٦ .

وقال إذا كان الأمير قد ساءه مما[٢٥] رأى من تلك الفرقة وأنا مسئول عنها فإنى أستقيل فى الحال من قيادة الجيش وأتركها لمن يتولاها . فقال الأمير قل لى وأى قائد معصوم ، أليست العصمة لله وحده؟ على أنى لم أقل ما قلته إلا كمصرى وقائد لجيوشى وليس من النصفة فى شىء أن يستخدم هذا الحادث فى أغراض سياسية وإلا فلما[٢٦] هذه الاستقاله؟ ـ قال ـ فثاب السردار إلى رشده واسترجع استقالته فى الحال ، وأدرك الأمير ما سيكون من وراء ذلك ، خصوصاً وقد كان عاب نظام بعض الجند عند استعراضهم يوم عيد الجلوسه[٢٧] ، فسير خبر ما وقع إلى ديوان الرئيس مصطفى رياض باشا وكأن الأمير كان يرمى بإخبار رجال دولته بخبر ذلك إلى أحد أمرين ، إما علمهم بما وقع من السردار ورجوعه عن عزمه بعد أن عرف الحقيقة ، وإما جعلهم على أهبة وإستعداد لمناقشة لورد كرومر إذا أخلف السردار وعده ومال إلى لورد كرومر فى مشاغباته وتجسين[٢٨] لصغائر الأمور . على أنه رغماً عما تعهد به السردار من كتمان خبر ذلك وعدم إطلاع لورد كرومر عليه ، فقد أبلغه إلى اللورد وخالف عهوده ، وأنزل نفسه إلى الدرك الأسفل . فعمد كرومر فى الحال إلى تبليغ الخبر إلى صاحب سياستهم مكبراً أو غير مكبر ، فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى جاء الطلب من صاحبهم بإلزام الأمير بامتداح كتشنر باشا وسائر من هم معه من جماعة الإنجليز وخلع ماهر باشا من منصبه العسكرى وجعل محاكمة الضباط الإنجليز الذين هم فى خدمة الجيوش المصرية بمجلس عسكرى أعضاؤه من الإنجليز لا من المصريين . فلما جاء الطلب بما ذكر دخل الورد[٢٩] كرومر على الرئيس بديوانه وأعلمه بخبر ذلك . ثم قال (وصاحب السياسة

---

(٢٦) فلما = فلم .

(٢٧) الجلوسه = جلوسه ـ كان ذلك اليوم هو الثامن من يناير ١٨٩٤ .

(٢٨) وتجسين = وتجسيم .

(٢٩) الورد = اللورد .

الإنجليزية يقول إذا لم يزعن[٣٠] الأمير إلى مطالب الدولة المحتلة وأبت حكومته إلا ما يريد هو اضطررنا إلى إتخاذ الوسايط الفعالة لوضع الجيش المصرى جميعه تحت أمرة جيش الإحتلال ، وبمعنى أوضح ضم سائر العساكر المصرية إلى صفوف الجيوش الإحتلالية ونزع القيادة العامة من الأمير) . ثم جعل يمطر على الرئيس ومن معه من سماء غضبه صواعق بعضها فوق بعض وقال (لابد من الترضية والتعجيل بالإعتذار وإلا ساءت العاقبة وتعذر الخلاص) . وأتت صحف أخبار الإنجليز مفعمة بالحط من كرامة الأمير ورميه بالتهم التى ما أنزل الله بها من سلطان ، حتى لقد قالوا عنه أنه صرح فى مجالسه الخصوصية بأن العساكر المصرية ليست تابعة قط للراية العثمانية ولا هى من الطاعة للسلطان فى شىء ، يريدون بذلك إيقاع النفرة بينه وبين الغازى مختار باشا مبعوث دار السلطنة . وأشاعوا أن قنصلى الرى[٣١] والفرنسيس أعداء لسياسة الأمير وأنهما يعملان ضده من وراء حجاب ، وإن الأرض زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها وبات الخلاص من أعسر الأمور ، وقالوا غير ذلك كثيراً . قال صاحبى وجعل لورد كرومر يغدو ويروح إلى مقر الرئيس ولا هم له إلا إرجاع الأمير عن عزمه والحط من نفوذه بإصدار نشرة أو مرسوماً بامتداح السردار ومن معه من جماعة الإنجليز وإسترجاع نقده الذى فاه به . فأزعن[٣٢] الرئيس إلى رأيه وفضل بقائه فى دست الرئاسة منفذا لرغائب الإنجليز وصاحب سياستهم على الانتصار لأميره والذب عن كرامة عرش الإمارة . قال لا أدرى كيف حل للرئيس فعل ذلك ، وكيف تولاه هذا الزعر[٣٣] على فقدان منصبه حتى أذهله عن كل شىء ، فأغفل كل شىء إلا الحرص على ذلك المنصب الكبير . قال وقد كان من وراء ذلك أن قام الرئى[٣٤] للقاء الأمير بجرجا ومعه تكران باشا فوقع

---

(٣٠) يزعن = يذعن .
(٣١) الرى = الروس .
(٣٢) فأزعن = فأذعن
(٣٣) الزعر = الذعر .
(٣٤) الرئيى = الرئيس .

بينهما من الأخذ والرد شيئاً لم نكن نظن وقوعه ، حتى كبر غيظ الأمير وتحرج صدره فكان هو الرئيس عوناً للإنجليز على أميره بلا حياء ولا تأدب وقد تم عنه قول الشاعر .

تخذتكم درعاً منيعاً لتدفعوا ... سهام العدى عنى فكنتم نصالها

قال . ولقد بلغ الخوف من الرئيس على منصبه أنه لم يتمالك نفسه حتى يعود الأمير فى الموعد الذى ضربه لذلك بل قام ولاقاه فى جرجا وحمله على الرجوع إلى القاهرة قبل الأجل المضروب فإرتكب بذلك وزرين ، وزر الإستلام[٣٥] إلى مطالب صاحب السياسة الإنجليزية ، ووزير[٣٦] حمل الأمير على سرعة العودة إلى قصر الإمارة بما ألقاه عليه من آيات التهديد . قال وكأنى به عافاه الله قد أحس بأن رياسته صارت على شفاء جرف الزوال فعمد إلى إنتهاء[٣٧] هذه الفرصة التى سنحت على غير إنتظار فاستعملها على اسهج[٣٨] إستعمال إرضاء للورد كرومر وإستبقاء لرئاسته التى هى أعز الأشياء عنده . قال يقول الرئيس أصلح الله حاله (أنى لنا أن نقاوم تيار هذا الإحتلال وندفع العصاء بالعصاء ولاقوة عندنا ولاجيش لنا ولاعصبية دافعة عنا ذلك التفريق) . والناس يقولون (على رسلك ، قام الأمير بحق الإمارة وأشرف على ما تعدد من مصالح الأمة ومرافق حياتها إشراف الأب العالم بحاجيات بنيه ، فأكبرت عليه ذلك أنت ، وأعظمه كرومر كذلك ، وقلتما له بصريح اللفظ وعريض القول إنك تجاوزت حدود الإمارة وتوسعت فى خطة الإشراف وجلبت علينا كيد الكائدين ووخز الوخزين[٣٩] ، وقفلتما دونه سبل الوصول إلى أشرف الغايات

---

(٣٥) الاستلام = الإستسلام .
(٣٦) ووزير = ووزر .
(٣٧) إنتهاء = إنتهاز .
(٣٨) على إسهج = أسوء .
(٣٩) الوخزين = الواخزين .

وأصلقها[٤٠] بمستند[٤١] الإمارة . ومع ذلك كله فقد كان صبوراً غيروا[٤٢] يتلمس الخلاص بالطرق الحكيمة المشروعة ، وهو بين يد تدفع وهى الرئاسة ، وأخرى ترجع وهى يد الإحتلال ، حتى أحرجتما مقامه وأفسدتما أحلامه وبات الخلاص من هذا الشر عسيراً) أ . هـ .

قلت . وكثرت الإشاعة بعيد ذلك بعزم الأمير على إرسال مذكرة إلى سائر الدول الكبرى بما هو عليه مستند الإمارة من الصغار وضعف الكلمة . وتحدث الناس فى ذلك واستحسنوه ، فبات الرئيس بين منتطح عنزين لايلوى على شىء سوى الدفاع عن منصبه والخروج من ذلك المأزق الحرج : وقامت ضجة أصحاب الصحف المحلية على أثر ذلك ، وأنحوا على الرئيس باللائمة وقالوا ما هذه الاستكانة وذلك أجبن[٤٣] ولما لاينزل نفسه عن هذا المنصب الذى قد أحاطت به ظنون السواء[٤٤] من كل جانب . وأى نفس أبية تطيق الصبر على هذا الحيف والصغار حباً فى أبهة الرئاسة . ثم ماذا يكون وقد إنقسم الوزراء على أنفسهم وتفرقت كلمتهم والرئيس يدعى العصمة وإحالة[٤٥] الرأى والسيطرة على جميع الشئون . وظل أصحاب تلك الصحف على ضجيجهم وصياحهم حول سند الرئيس حتى أوقعوه فى الخبال وردوه عن غلوائه ، فتحققت براءة الأمير من كل تهمة وثبتت سلامة نواياه وزال عن الناس الخوف مما كانوا يتوقعون . ووردت على قصر الإمارة رسائل التهانى بعودة الأمير سالماً معافى

(٤٠) وأصلقها = وألصقها .
(٤١) بمستند = بمسند .
(٤٢) غيروا = غيورا .
(٤٣) اجبن ولما = الجبن ، ولم .
(٤٤) السواء = السوء .
(٤٥) واحالة = وأصالة .

ووقف الشعراء على بابه من كل فج عميق وهناؤه[٤٦] شاعر القصر بقصيدة عامرة الأبيات- قال : -

فى ذى الجفون صوارم الأقدار ... راعى البرية يا رعاك البارى
وكفى الحياة لنا شواغل فافتنى ... ملأ النجوم وعالم الأقمار
ما أنت فى هذى الحلى ألِيته[٤٧] ... إن أنت إلا الشمس فى الأنوار
زهراء بالأفق الذى من دونه ... وثب النهى وتطاول الأفكار
تتهك[٤٨] الألباب خلف حجابها ... مهما طلعت فكيف بالإبصار
يا زينة الإصباح والإمساء بل ... يا رونق الآصال والاسحاد[٤٩]
ماذا تحاول من تنائينا النوى ... أنت الدنى وأنا الخيال السارى
ألقى الضحى ألقاك ثم من الدجى ... سبل إليك خفية الأغوار

(٤٦) وهناؤه = وهنأه- راجعت القصيدة على مايقابلها فى الشوقيات - ج٢- ص١٢٥ ، ديوان شوقى للدكتور أحمد الحوفى فوجدت أن المصدران لم يوردا سوى ١٢بيتا منها كالآتى :-

فى ذى الجفون صوارم الاقدار ... راعى البرية يارعاك البارى
وكفى الحياة لنا حوادث فافتنى ... ملأ النجوم وعالم الأقمار
ما أنت فى هذِى الحلى إنسية ... إن أنت إلا الشمس فى الأنوار
زهراء بالأفق الذى من دونه ... وثب النهى وتطاول الافكار
تتهتك الألباب خلف حجابها ... مهما طلعت فكيف بالأبصار
يازينة الإصباح والإمساء بل ... يارونق الآصال والأسحار
ماإذا تحاول من تنائينا النوى ... أنت الدنى وأنا الخيال السارى
ألقى الضحى ألقاك ثم من الدجى ... سبل اليك خفية الأغوار
وإذا أنست بوحدتى فلأنها ... سببى إليك وسلمى ومنارى
إيه زمانى فى الهوى وزمانها ... ماكنتما إلا النمير الجارى
متسلسلا بين الصبابة والصبا ... مترقرقا بمسارح الأوطار
نظر الفراق اليكما فطوا كما ... إن الفراق جهنم الأقدار

- والنص به ١٥ بيتا لم يذكرها المصدرين- وقد راجعت الأبيات التى وردت بالمصدرين على أبيات النص . أما باقى أبيات النص فقد صححتها تصحيحا ترجيحيا .
- الشوقيات - ج٢ - مكتبة مصر - القاهرة ١٩٩٣ - ص ١٢٥-١٢٦ .
- أحمد محمد الحوفى (ديوان شوقى) ج٢ - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٧٧- ص١٢٩ - ١٣٠ .

(٤٧) أليته = إنسية .
(٤٨) تتهك = تتهتك .
(٤٩) والأسحاد = والأسحار .

ولقد إطارحك الغرام مؤيداً … يلغى الوجود المائج الزخار
وإذا أنست بوحدتى فلأنها … سببى إليك وسلمى ومنادى[٥٠]
إيه زمانى فى الحوى[٥١] وزمانها … تالله قد كنت الزلال الجارى
متسلسلاً بين الصابة[٥٢] والصبا … مترقرقا بمسارح الأوطار
سمح الأزمة ما تريد تحولا … ونريد عمرك أبرك الأعمار
حتى إذا سكنت إليك منا[٥٣] منى … كانت بظلك فى هى[٥٤] جوار
عمد الفراق لطى أنسك غاشماً … إن الفراق جهنم الأقدار
يا رحلة الملك التى من دونها … همم السرى وعزائم الأسفار
تاه الصعيد بما أتاه عن الثرى … وإعتز منك باشر الآثار
لو قمت لتنظر إذ تزين والقرى … تتلو القرى والدار عند الدار
لحسبت أن من البلاد قلائداً … ولخلت أن من البلاد دراری
(عباس خذ من حق شكرك جوهراً … وانشر على التاريخ والأعصار)
خل الذى ناداك مهلاً فى العلا … النجم لا يدعى إلى الإقصار
فأقم بناء المجد واجعل مظهراً … للملك ذى الكرسى والأنهار
ولا أنت من كتب الأنام فعاله … ورنى إليه العصر كالمنههار[٥٥]
نشكو الخطوب إلى شبابك فالقها … بالسيف من عزماته والناد[٥٦]
وابسط ليمناك التى إن أبرمت … أخذت من الإيرادللأحداد[٥٧]
أخلق بسعيك أن بلغنا المنى … إنا نرى بك أكرم الأذخار
(أنت البلاد وأنت رحمة بربها[٥٨] … فينا وأنت خبيئة الأضمار

إنتهت

(٥٠) ومنادى = ومنارى .
(٥١) الحوى = الهوى
(٥٢) الصابة = الصبابة .
(٥٣) منامنى = منامتى قراءة ترجيحية .
(٥٤) هى = هنى
(٥٥) كالمنههار = كالمنهار قراءة ترجيحية
(٥٦) والناد = والنار قراءة ترجيحية
(٥٧) للاحداد = للأقدار قراءة ترجيحية
(٥٨) بربها = ربها قراءة ترجيحية

وتمارض اللورد كرومر واحتجب عن الناس أياماً كأن[٥٩] يريد القضاء على حادثة الحدود إسكاتا لضجة أصحاب الصحف المحلية التى أخذته من كل صوب . فأرسل الأمير أحد رجال ديوانه للسؤال عن عافيته ، فأرسل إليه كرومر يتلطف ويشكر من عنايته ، يقال وأسر إليه أن يتلطف مع الرئيس ويقيل عثرته تلك . وعندى أن هذا من سقط القول وسخافات أصحاب الغايات ، لأن سخط الأمير على تيكران باشا متولى أعمال وزارة الخارجية لم يكن أقل منه سخطه على الرئيس مصطفى رياض باشا سبب ذلك الحادث . ولم يكن تيكران باشا أقل ضعفاً واستكانة من الرئيس ولا ألصق بلورد كرومر منه . قالوا فقد كان عضد الرئيس ويده التى أثقلت كاهل الأمير حتى أرجعته عن عزمه وحولته عن رأيه فى حادثة الحدود ، وحتى كان فى جميع أدوارها رسول الرهبة وداعية النقمة كما اشتهر وعرفه الناس طرا .

واتفق أن قرب إفتتاح جلسة الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد ، فظن الناس الظنون البعيد ، وقالوا ربما امتنع الأمير من الحضور نفسه فى يوم الإفتتاح وأهمل ذلك المهرجان العظيم ، فقد كانت ولايل[٦٠] الغيظ بادية أبداً على وجهه رغماً عن بشاشته الفطرية وطلاقة محياه . فلما كان يوم الإثنين خامس فبراير من السنة وتاسع عشرى رجب الفرد سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف ظهرت الحركة بديوان مجلس الشورى فزينوا أبوابه بالرايات وفرشوا مدخله بالطنافس والبسط واصطف عنده طائفة من الجند والحرس الأميرى ، فأقبل الأمير فى موكبه تحفه الجنود وخلفه أصحاب الوظائف العاليه وأهل الخطط . فلاقاه على أحر[٦١] الدرج الوزراء كافة ورئيس مجلس الشورى ، وقبلوا يديه وساروا خلفه إلى قاعة الاستقبال الكبرى ، فلبث برهة لطيفة ثم انتقل إلى قاعة الجلسة وارتقى إلى مجلس الرئاسة وتلى خطبة الإفتتاح قائلاً :

(٥٩) كأن = كأنما
(٦٠) ولايل = دلائل
(٦١) احر = آخر

يسرنى أن أراكم فى هذه الجمعية العمومية ولى الأمل فى وثوقكم بما إنطوت عليه جوانحى من حب الوطن وأبنائه والميل الخالص لتقدم البلاد وأهليها فى سبيل الخير .

وإنى شاهدت فى المدة التى مضت بين الجمعية السابقة وهذه قيامكم بالواجب لبلادكم وإخوانكم ، فحق لى أن أهنيكم بعد نفسى على هذه النعمة التى أرجو الله دوامها .

هذا وقد وفق الله فى المدة التى بين الجمعيتين لمساعدة الأهالى بدفع ما يتجاوز التسعمائة وسبعين ألف جنيه من المتأخرات وتخفيض ما يزيد عن المائتى ألف جنيه من الضرائب والعوائد وتنقيص مائة ألف جنيه من ثمن المصلح (الملح) وإلغاء الدخولية من اثنى عشر بندراً وتشكيل مجلس بلدية من[٦٢] تسع من مدن القطر والشروع فى إنشاء سبع وأربعين سكة زراعية وجملة مصارف وجسور وحلايب[٦٣] تم أغلبها ، وتشكيل محاكم بسواكن وطوكر ، والوصول لتنقيص الفوائد القانونية بالمحاكم المختلطة وتوسيع نطاق الفنون والمعارف بفتح مدرسة صنائع بالمنصورة ومدارس إبتدائية بكثير من المدن والقرى ، والتصديق على تمديد جملة خطوط حديدية تزيد أطوالها عن ثلثمائة كيلو متر وإنشاء كوريين[٦٤] أحدهما بنجع حمادى والثانى بدسوق . قال وكل ذلك عائد بفضل الله على البلاد والعباد بالمنافع .

فأشكر الله على التوفيق لذلك كما أنى بحول الله تعالى لا أتأخر عن دوام مساعدتكم بنفسى ومن جانب حكومتى فى كل ما يأتى لوطننا العزيز بمزايا الإصلاح وفوائد السعاده والفلاح . والله المسئول أن يساعدنا فى التعاون على خير بلادنا وهو المستعاد[٦٥] أ . هـ .

---

(٦٢) من = فى

(٦٣) وحلايب = وصلايب قراءة ترجيحية

(٦٤) كوريين = كوبريين

(٦٥) المستعاد = المستعان

وما أتم كلامه حتى صاح رئيس الجمعية ثلاثاً (ليعيش أميرنا المعظم) ثم برح الأمير المكان مشيعاً بفروض التعظيم والإجلال .

وانتظم بعد ذلك بقليل عقد الجمعية ، فتكلم محمد بك العدل النائب عن مدينة الاسكندرية فذكر تقرير مجلس الشورى بإلغاء المجلس البلدى وجوال[٦٦] الحكومة على ذلك بأن يعدل قانون الإنتخاب ، فاقترح تعديل المادة المخولة حق الإنتخاب للساكن فى محل أجرته خمسة وسبعين جنيهاً فأكثر ، وأن لايقبل أكثر من ثلاثة أعضاء من جنسية واحدة ، إلى ما يجعل فريضة الأجرة أربعين أو ثلاثين جنيهاً من خمسة وسبعين ، ثم أن تراعى فى الانتخاب نسبة السكان من كل دولة . فوافق حسن بك مدكور على هذا الرأى وزاد عليه أن يعطى حق الإنتخاب لكل من يسكن منزلاً تزيد أجرته السنوية على خمسة عشر جنيهاً ، فوافق الجميع على ذلك . ثم قام الأعضاء وذهبوا إلى قصر الإمارة ، فأكرم الأمير لقاءهم ، فقبلوا يده وإنصرفوا .

وكان اليوم موعد ركب الأمير أيضاً وظهور عربات أصحاب المرفع[٦٧] على شكل جديد لم يسبق له مثيل . وكانوا قد أعدوا للأمير روشنا[٦٨] على أحسن ما يكون من الزخرف والزينة فى صدر الميدان المعروف بميدان الأوبرا . فلما كانت الساعة الثانية بعد ظهر اليوم أقبل الأمير فى موكبه وكانت الجماهير المزدحمة فى ساحة قصر الإمارة إلى المكان المعروف بالقهوة المصرية لايدركها حصر . فما استقر به المقام حتى خرج موكب المرافع[٦٩] سائراً من

---

(٦٦) وجوال = وجواب

(٦٧) أصحاب المرفع = يسميها محمد فريد أصحاب المرافع (أى الكرنفال) أو عيد المساخر - وربما كان هناك خطأ فى التنقيط فتكون المراقع أصوب .

- مذكرات محمد فريد (القسم الاول) تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية - مرجع سبق ذكره - ص ١٩٤

(٦٨) روشنا = كوة

- مختار الصحاح - مرجع سبق ذكره ص١٠٣ .

(٦٩) المرافع = المراقع

ساحة القصر تتقدمه موسيقى الجيش المصرى وجماعة من الفرسان متبرقعين برواقع(٧٠) التنكير وخلفهم عربه صغيرة ملبسة نسيجاً بنفسجياً ومكللة بالأزهار وفيها رئيس لجنة المرافع(٧١) ، ثم أخرى وعليها شكل نارجيلة كبيرة فى غاية من اللطف يراد بها الرمز إلى مضر(٧٢) الدخان . ثم جماعة من راكبى الحمر متنكرين بأجمل وأغرب الهيئات والألوان ، ثم عربة عليها شبه زورق مصنوع بزوق(٧٣) وبراعة ، وبعده طائفة من أصحاب الشرطة على ظهور الخيل متنكرين ، وخلفهم نفر على ظهور الهجن متقلدين بالأسلحة العربية ، وأخرون من أهل البادية يضربون بالمزمار ، ثم عربة عليها كرة سوداء ذات قوة يبرز منها جماعة متنكرين ويراد بها تمثيل السباق (دينامت) ، وبعدها عربة فوقها تمثال ضخم متشح بالبياض لعله شخص به أحد الفراعنة ، وبعدها عربة عليها شبه فسقية بديعة مكسوة بالأزهار المختلفة ثم أخرى عليها تماثيل مختلفة يراد بها تشخيص جماعة مجتمعين بلا عمل وهم كسالى نيام ، ثم عربة فوقها قوسين مفتوحين فوقهما إكليل وتحتهما زينة بديعة من الأزهار ، ثم عربة يمثل بها فصل الربيع ثم شبه قلعة أو طابية بمراميها والمدافع ، وهى متقنة للغاية ولكنها فى نظرى صغيرة ، وبعدها عربة باسم الصحف والمطبوعات وعليها إعلانات من كل صنف وتتبعها كوكبة من راكبى الدرجات مغطى حديدها بالأزهار وأصحابها متنكرون تحت رؤوس الدبه(٧٤) والحمير والكلاب ، وتليهم عربة يمثل(٧٥) معمل السكر يحتاطه القصب من كل جانب وفوقه القوالب المصنوعة ، وبعض(٧٦) طائفة السياس حاملين الرايات وهم لباس(٧٧) زينتهم

---

(٧٠) برواقع = براقع
(٧١) المرافع = المراقع
(٧٢) مضر = مضار
(٧٣) بزوق = بذوق
(٧٤) الدبة = الدببه
(٧٥) يمثل = تمثل
(٧٦) وبعض = وبعدها
(٧٧) وهم لباس = وهم فى لباس

المزركشة بخيوط الفضة ، وطايفة منورى فوانيس الغاز بالشوارع يحملون الرايات أيضاً . وفى الختام عربة عليها تمثال إمرأة كبيرة حاملة أداء[٧٨] الصيد من البحر وأمامها تمثال سرطان كبير أبيض كأنه حى متحرك وتماثيل حيوانات بحرية مختلفة مرسله من مدينة الاسكندرية . وقد استمرت دورات هذه العربات ذهاباً وإياباً إلى غروب الشمس . ثم رجع الأمير بموكبه إلى قصر الإمارة ، فكان يوماً شهوراً[٧٩] لم أرى له مثيل من قبل ومن بعد . أخبرت بذلك أحد أصدقائى وقلت أن هذه العادة وإن كانت الأولى من نوعها فى بلادنا وكلها(٨٠) متفشيه عند القوم الغربيين ومألوفة عندهم ، وهى تعمل عادة عند حلول صومهم ويعدونها من أيات الزهور[٨١] ودلايل إقبال العام الجديد . وقد شاهدتها فى بروكسل عاصمة البلجيك ، وفى ميلانو من أعمال إيطاليا فكانت غاية فى الإتقان وحسن الترتيب خالية من كل فحشى ومخجل . وكان أصحاب الشرطة حول ركبها يقظون ساهرون على الأمن والنظام لايمكنون الغوغاء من تعدى حدود الأدب أو العبث بالنظام . قال وما قولك فى (دورة الفار) تلك الدورة المشهورة بفظائعها التى يعملونها العامة وزغانف[٨٢] أرباب الحرف والكادات[٨٣] ليلة مولد الشيخ الفار ، وكيف تمثل لنا المسية[٨٤] بين الإثنين . قلت أنى أقول

(٧٨) اداء = أداة

(٧٩) شهورا = مشهودا

(٨٠) وكلها = ولكنها

(٨١) الزهور = الزهو

(٨٢) وزغانف = وزعانف

(٨٣) الكادات = ألكارات – وتعني الصنائع ومفردها (كار) والمقصود بذلك موكب طوائف الحرف الذى كان يشارك فى الكرنفال المشار اليه .

– ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥١٤ .

– جابرييل بايرGabriel Baer "Egyptian Guilds in Modern Times"

Oriental Notes and Studies No. 8- The Israel Oriental Society - Jerusalem. 1964-p. 17(N)

(٨٤) المسية = العملية الجنسية – والمماسة كناية عن المباضعة– فى قوله تعالى (من قبل أن يتماسا) سورة المجادلة(٣) .

– مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ص ٢٦١

لك الحق أنى أحزن كثيراً ويتولا نى اليأس إذا ذكرت تلك السخائم وفكرت فى ما فى تلك الدورة الشنعاء من المخازى والفضائح التى يحمر لرؤيتها وجه الأدب وتنفر منها الطباع ولا يأتيها إلا كل ساقط الحسب بعيد عن الأدب لافرق بينه وبين البهايم السائمة والوحوش الضارة . قال صدقت شاهدتها مرة وأنا جالس يومها على حانوت فى صليبة إبن طولون[٨٥] فمرت أمامى ، فكنت كلما شاهدت الرجال فى زى النساء المتهتكات ملطخى الوجوه بالبياض والسواد ، والنساء فى زى الرجال حاسرات عن وجوههن روؤوسهن ضاربات بالدفوف راقصات بالسيوف قفزاً وطفرا صائحات بفحش القول وهزر الكلام ممتطياً[٨٦] الخيل والحمير على أسمج صورة تميزت غيظاً وأغمضت عينى خجلاً ، وقلت فى نفسى ياغياث أغثنا من هول هذا المنظر المعيب . حتى لقد رأيت بين أولئك السفلة رجلاً فى لباس مزركش بالورق الممدة[٨٧] بالذهب والفضة وعلى رأسه قبعة مكورة مليئة برشل[٨٨] الأوز ، ولحيته بيضاء طويلة ممتطياً حصاناً من جياد الخيل يتخيل للناظر له من قبل أنه أقل خرقاً للآداب وأحفظ قليلاً للحشمة ، ولو أنه كان يتماثل[٨٩] ذات اليمن[٩٠] وذات الشمال ، ولكنه كان على ما وصفته لك مكشوف السوءة من دبر[٩١] وبشكل وهيئة مخصوصة يخجل الأديب من رؤيتها ، وهو كل ما يتمايل أظهر سوءته للناس يستضحكهم بلا حشمة ولا حياء . وكان خلفه آخر عارى الجسم ملطخة[٩٢] بالسواد والبياض

(٨٥) صليبة بن طولون = هو حى الصليبة بالقاهرة ـ ويقع بين منطقتى السيدة زينب والقلعة .
(٨٦) ممتطيا = ممتطيات
(٨٧) الممددة = المموه
(٨٨) برشل = بريش
(٨٩) يتماثل = يتمايل
(٩٠) اليمن = اليمين
(٩١) من دبر = أى من الخلف ـ قوله تعالى (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفياسيدها لدا الباب)ـ سورة يوسف(٢٥) .
(٩٢) ملطخة = ملطخ .

وعلى رأسه عمامة سوداء ملطخة بالأقذار وهو راكب على ظهر جاموسة هزيلة ضئيلة بالأكف عرضاً وبيدها[٩٣] اليمنى عصاء وفى اليسرى نعلاً بالياً كأنهما قلما وقرطاساً وكأنه كاتب سر الأمير بضرب فلان وزجر فلان وينقشة[٩٤] بتلك العصاة على ذلك النعل ويملى قلمه عند التوقيع من وبر[٩٥] الجاموسة . وخلف هذا الزنيم جماعة من الحشاشيين على عربة يمثلون قهوة وهم فى ضجة وحلية[٩٦] ونداء بكلمات مقفية يمجها الذوق السليم ، وخلفهم غير ذلك من آيات الفحش وأشكال الرجس شىء كثير لايسعنى ذكره حياء وخجلاً من تدوينه فى حوادث كتابك (الكافى) ، لأنى علمت منذ أيام بأنك تعانى تنصيف[٩٧] الجزء الخامس منه ولا أظنك إلا فاعل ، فأستحلفك أن لاتذكر اسمى عند ذكرك لهذه الشوائن والمخازى المحزنة . فقلت أقسم أنى فاعل ولاأذكر لك إن شاء الله فى هذا المقام إسماً أ . هـ .

وجرت هذه الحفلة فى يومها أيضاً بمدينة الاسكندرية ولكنها كانت أقل بهجة وزحاماً . وأختموا[٩٨] الحفلة بجنازة ملك المرافع[٩٩] فحملوا نعشه على الأكتاف وهم فى أزيائهم متنكرين ، وساروا به مغطى بالرايه الإنجليزية وأمامهم الموسيقى تنشد سلام ملكة الإنجليز . فأنكر ذلك جماعة الإنجليز وتطيروا منه . فقامت جريدة الإحتلال الإنجليزية تنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وقالت يا للعجب متى أصبح السلام الملكى الإنجليزى ضرباً موسيقياً للأموات وفى حفلات الدفن؟ ومتى يقلعوا[١٠٠] أولئك القوم عن المشاكسة وهذه

(٩٣) وبيدها = وبيده
(٩٤) وينقشة = وينقش
(٩٥) وبر = دبر
(٩٦) وحلية = وجلبة
(٩٧) تنصيف = تصنيف
(٩٨) واختموا = واختتموا
(٩٩) المرافع = المراقع
(١٠٠) يقلعوا = يقلع

المعاكسات المهيجة . أو ما آن لهم أن يتركوا هذا التعصب الذميم وينكفوا عن ضلالهم العظيم؟ فرد عليها أصحاب الصحف المحلية وأنكروا قولها ورموا صاحبها بالطيش . وظل الحال على هذا الأخذ والرد أياماً كثار . وقد رأى الأمير أن يرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية تفصيلاً بكلما[١٠١] وقع فى حادثة الحدود ، فرسم بذلك إلى الرئيس وتكران باشا فأزعنا[١٠٢] كارهين ، وأرسلا القول مفصلاً إلى (شركة روتر) التلغرافية لتبلغه إلى صاحب سياستهم على جناح البرق . قيل فامتنع عن تبليغه ، وقيل بل منعه لورد كرومر من ذلك والقول الثانى أصح . وعندى أنه غاية فى القحة والتطرف المعيب ، ولعله كان فى ذلك مع الرئيس وتكران باشا على إتفاق وتدبر كما قال الناس يومئذ ، وإلا لما حل له فعل ذلك البتة . والأعجب أن سأل صاحب سياستهم أن يلقد[١٠٣] السردار كتشنر باشا (بنيشان جورج وميخائيل) ، ففعل بعد حدوث كل هذه المخازى والشوائن المخجلة[١٠٤] . حدثنى صاحب لى من أصحاب المناصب الديوانية بالتخوم . قال . إن فعال جماعة الإنجليز على التخوم توجب الدهشة ، فإنا بينما نسمعهم يصيحون بأعلا أصواتهم قائلين أنهم أمناء الأمير على جيوشه القائمين على ولائه المتامرين[١٠٥] بأمره ، العاملين على إرجاع سلطانه إلى قلب السودان وملحاقته[١٠٦] ، تراهم[١٠٧] يعملون على هدم ذلك السلطان وإبعاد أهل السودان عن عرشه والحيلولة بينهم وبين الأمير بكل ما وصلت إليه قدرتهم . قال . لما وصل ركب الأمير إلى التخوم خرج[١٠٨] بخبر مقدمه بعض كبار القبايل

---

(١٠١) بكلما = بكل ما
(١٠٢) فأزعنا = فأذعنا
(١٠٣) يلقد = يقلد
(١٠٤) فسر محمد فريد إنعام الحكومة الإنجليزية على كتشنر بنيشان القديسين چورج وميخائيل فى شهر فبراير ١٨٩٤ بأنه استحسان من جانبها لمنهجه مع الخديو فى حادثة الحدود وتشجيعا له ولغيره على مضايقة الخديو ، وقصد إذلاله أمام الدول وأمام رعيته .
(١٠٥) المتامرين = المؤتمرين
(١٠٦) وملحاقته = وملحقاته
(١٠٧) تراهم = نراهم
(١٠٨) خرج = علم

وأصحاب الكلمة من دعاة المهدوية ، وهموا بالمثول بين يديه يخطبون صفحه ومصالته[١٠٩] . وأرسل أمير أم درمان رسلاً من قبله للمثول بين يدى الأمير فى سرادقه ، فأمسكهم جماعة الإنجليز وسيروا بخبرهم إلى عميد الاحتلال ، فجاءه الأمر بإرجاعهم إلى أم درمان يقولون لأميرها أن عقد الصلح لايكون قط مع الأمير بل مع حكومة جلالة ملكة الإنجليز وإمراطورة[١١٠] الهند . فلما عاد الرسل إلى أم درمان وأخبروا أميرها بخبر ذلك امتنع ، وقال لست معاهد قط لأولئك الحمر ولا أنا خاضع لهم أبد الدهر إن شاء الله تعالى . قال . وكان صالح[١١١] بك أحد الكبار الذين قتلوا فى واقعة (آباد مرات) يعلم بجميع ذلك ويتوقع وقوعه ، وقد علم بعض[١١٢] كبار الإنجليز بخبر ما وصل صالح بك إلى معرفته ، فكلمه ذلك[١١٣] وحببه[١١٤] إليه كتمانه وعدم إطلاع أحد عليه ، وهدده أن هو فشاه[١١٥] . فأكبر صالح بك فعل الإنجليز وأعظمه وهددهم هو بإبلاغه إلى ديوان الأمير ، وأظهر لهم الشدة فى القول والجفاء فى الرد . فما هى إلا أيام حتى باغتت جماعة من العربان الفارين حول (آباد مرات) على صالح بك[١١٦] ومن معه عند (الآباد) وأوسعوهم ضرباً وطعناً على غير أهبة ولا إستعداد ، وإقترب أحدهم من صالح بك وطعنه برمحه فى صدره طعنة نجلاء فسقط يتخبط فى دمه . قيل وكان القاتل من أقرب المقربين إلى صالح بك وأحبه[١١٧] إليه ، فباع ذمته بدراهم معدودة . قال فتأمل . أ . هـ .

---

(١٠٩) ومصالته = ومصالحته
(١١٠) وامراطورة = وإمبراطورة
(١١١) راجع حاشية ٣١٨ ص ٢٥١ .
(١١٢) بعض = أحد
(١١٣) فكلمه ذلك = فكلمه فى ذلك
(١١٤) وحببه = وحبب
(١١٥) فشاه = أفشاه
(١١٦) على صالح بك = صالح بك
(١١٧) وأحبه = وأحبهم

وكبر خوف الرئيس مصطفى رياض من بطانة الأمير وحاشيته ورجال الديوان بعد الذى رموه به من معاكسة الأمير والحط من كرامة الإمارة إسترضاء لعميد الاحتلال وصاحب سياستهم الإنجليز ، فجعل يعمل على تفريق حزمتهم وتمزيق كلمتهم ، وأتهم كومانوس باشا طبيب القصر ورولية[١١٨] بك وشفيق[١١٩] بك وأصحاب القلم بديوان الأمير بدس الدسائس وتعظم[١٢٠] الفتن وتنفير الأمير منه . قالوا وطلب من الأمير أن يقصيهم جميعاً عن ديوانه ، فلم يحفل الأمير بقوله ولا أعاده[١٢١] سمعا . فأعظم الرئيس الأمر ولكنه لم يتمكن من غايته وبات وهو بين منتطح عنزين وقد أحاطت به المكاره من كل جانب . فكان إذا أراد من الأمير أمراً تحفظ فى سؤاله وتواضع وأظهر اللين بجميع معانيه ، وإذا أراد من عميد الاحتلال شيئاً ذهب إليه متخوفاً متحفظاً قليل الكلام ما استطاع حتى لا تأخذه صيحة أصحاب الصحف ولا ترميه بشىء من التهم الجديدة ، فتحرك حفايظ الأمير وتزيد فى عدد خصومه . وقد زاد أمره خبالاً وروه[١٢٢] الخبر من التخوم بإجتماع الدروايش فى كسله وأم درمان فى عددهم وعدتهم حتى قالوا أنهم يبلغون الثلاثين ألفاً أو يزيدون . فكلم الأمير الرئيس فى ذلك وحثه على متابعة الأخبار ومحادثة لورد كرومر فى شأنها ، فقد كانت الأخبار تأتيه تباعاً من السردار ولا تصل إلى الأمير إلا بعد أيام ، وربما لم

---

(١١٨) روليه بك = راجع حاشية ١٣ ص١٦٧ .

(١١٩) شفيق بك = أحمد شفيق بك (باشا فيما بعد) (١٨٦٠-١٩٤٠) مؤرخ مصرى ـ تخرج فى مدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس ـ كان من حاشية عباس حلمى الثانى ومن كبار موظفى القصر فى عهده ـ ألف (حوليات مصر السياسية) فى ١٠ أجزاء - و(مذكراتى فى نصف قرن)و(الرق فى الاسلام) - ترك مصر مع عباس عام ١٩١٤ واستمر فى خدمته بالخارج حتى استقال من خدمته عام ١٩٢١ ليستقر فى مصر ويتفرغ للأعمال الأدبية
- مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٢٦١ حاشية ٢٦٦
ـ عبد العزيز رفاعى (أحمد شفيق المؤرخ) ـ مرجع سبق ذكره ـ مواضع متفرقه

(١٢٠) وتعظم = وتعظيم

(١٢١) اعاده = اعاره

(١٢٢) وروه = ورود

يصل بعضها إلى ديوانه بتاتاً ولايعلم به أحد إلا من صحف الأخبار الإنجليزية التى تذكرها إلا ندفا لامعنى لها ولاسبيل إلى معرفة معتراها .

وكـانت دلائل القلق والإضطراب بادية على وجه الأمـيـر وهو يتنقل من قصر الإمارة بعابدين إلى قصر القبة ، والرئيس فى كمد دائم وخوف ملازم ، وأصحاب صحف الإنجليز يوسعون الإثنين تقريعاً وتونيباً ، ويسندون إلى الرئيس كل معيب فى سياسة البلاد . وأقبلت ليلة خامس عشر شعبان من السنة ولم يتجاوز الاحتفال بها فى جامع قلعة الجبل حد الشيء البسيط جداً خلافاً للمعتاد عمله فى كل عام . فقد صعد الأمير إلى قلعة الجبل فى قلعة[١٢٣] من الجند والحشم ، وجلس فى صدر المكان . وأقبل الوزراء والعلماء والكبراء وأصحب[١٢٤] الخطط يهنأونه ، فلم يروا منه ذلك الثغر الباسم ولاتلك المحيا المطلقة . وقام الشيخ على القلعاوى وخطب الخطبة المعتادة فى ذلك المقام ودعا للسلطان أمير المؤمنين ، وكذلك للأمير دعاءاً حسناً . ثم دخل الأمير إلى حجرة جد العائلة الحاج محمد على باشا الكبير فزار الضريح وقفل راجعاً إلى قصر الإمارة ، فبات فيه ليلته . وأصبح فزار لورد كرومر والرئيس مصطفى رياض باشا . يقال فتناجوا فيما هم فيه ساعة لم نصل إلى معرفة ما حدث بينهم حتى رأينا فى إحدى الصحف الإفرنسية مقالاً لمحررها يقول فيه (ما بال لورد كرومر يتخطى كل حد وقانون . لقد حق عليه أن يذكر أنه ليس إلا لورداً بسيطاً أمام صاحب سمو وإمارة ، وأنه نبيل أمام أمير كبير ، وأخيراً أنه هو السير بارنج المعروف ، أمام وريث مجد بيت محمد على الكبير) . فأعجب العقلاء لهجة ذلك الكاتب وشكره بعض أصحاب الصحف المحلية وقل تفاؤل صحف الإنجليز وأغفلوا ذكر حادث التخوم أو تغافلوا . وجاءت الأخبار بعد ذلك تترى من التخوم مكذبة لتجمع لموم الدراويش فى حلفا وسواكن ، وأن

(١٢٣) قلعة = قلة قراءة ترجيحية
(١٢٤) واصحب = وأصحاب

السكينة هناك ضاربة بين القبايل ، وأن القوم لايشتغلون الآن إلا بالزرع والضرع لإقبال الموسم بعد أن كادوا يجدلون . وسير السلطان كتبه إلى سفيره بعاصمة الإنجليز بتبليغ صاحب السياسة الإنجليزية أشياء من تطرف أصحاب الصحف الإنجليزية وغلوائهم والتحكك بمقام الإمارة المصرية . وجاء الخبر بذلك على جناح البرق من المابين الهمايونى ، فأبلغه كاتب أسرار الغازى مختار باشا مندوب السلطان إلى الأمير ، فشكر وامتن ودعا للسلطان دعاء حسناً . وشاع الخبر بذلك وتفشى بين الناس فتحدثوا به كثيراً وفرحوا ، وما هى إلا عشية أو ضحايا حتى إذاعته[١٢٥] جريدة الوقائع الرسمية صورة المرسوم السلطانى جاء[١٢٦] إلى قصر الإمارة من المابين مباشرة ونصه . «صار منظورنا تلغرافكم المتضمن تقديم التبريكات الخالصة والشعائر الصادقة لجنابنا الشاهانى وبمناسبة[١٢٧] حلول يوم ولادتنا وما أبديتموه من مآثر الصدق والإخلاص بهذه الصورة ، قد استوجب لدينا المحظوظية أيضاً . وبناء على ما أنتم متصفون به من كمال الدراية والاستقامة مع ما أنتم عليه من فرط الصداقة لطرفنا الشاهانى فلأجل أن يكون دليلاً جديداً على دوام توجهاتنا الكاملة إليكم قد صار مشترى سلخانة المرحوم عالى باشا الصدر الأسبق[١٢٨] الكائنه بجهة بيك[١٢٩] داخل البوغاز من طرفنا لذاتكم خاصة وسطرنا تلغرافنا هذا الهمايونى بياناً لذلك» أ . هـ .

---

(١٢٥) اذاعته = أذاعت

(١٢٦) جاء = الذى جاء

(١٢٧) وبمناسبة = بمناسبة

(١٢٨) عالى باشا الصدر الاسبق = محمد أمين عالى باشا Mehmet Emın ALı Pasa (١٨١٥-١٨٧١) صاحب (التنظيمات) الشهيرة فى الدولة العثمانية (١٨٥٢) . صدر أعظم (١٨٥٢) (١٨٥٥-١٨٥٦) (١٨٥٨-١٨٥٩) (١٨٦١)

ـ (١٨٦٧-١٨٧١) وزير خارجية (١٨٤٦-١٨٤٨) (١٨٤٨-١٨٥٢) (١٨٥٦) (١٨٥٧) (١٨٦١) (١٨٦١- ١٨٦٧) (١٨٦٩-١٨٧١)

ـ ستانفورد شو وإيزل كورال شو Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw - op.cit., p,470

(١٢٩) بيك = ببك Bebek قرية على الجانب الأوروبى من البوسفور

- ستانفورد شو وإيزل كورال شو stanford Shaw & Ezelkural shaw-op. cit., -pp.,64,724 .

يقولون لما شاع خبر هذا الإلتفات السلطانى وتناقله أصحب[١٣٠] الصحف الأجنبيـة قلق جماعة الإنجليز ، وأرسل صاحب سياستهم بعوثه إلى القاهرة ودار السلطنه تستطلع طلع[١٣١] هذا الإنقلاب السريع ، وقد كان سفيرهم فى دار السلطنة يرسل كتبه تباعاً إلى صاحب سياستهم بما هو عليه السلطان من كره لأعمال الأمير وعدم الرضاء عن تصرفاته والإهتمام بمطالب الإنجليز والرضاء عن أعمالهم فى ديار مصر . وإشتدت لهجة أصحاب صحفهم أياماً وأنحوا باللائمة على الغازى مختار باشا وقالوا أنه علة كل تقرب بين الأمير ومتبوعه وسبب كل غلظة وجفاء بين الأمير وعميد الإحتلال . وانقلبوا على الرئيس مصطفى رياض باشا يسفهون أحلامه ويعيبون عليه ضعفه وذبذبته وقيامه برغائب أميره يوماً وصاحب سياستهم أياماً . وقالوا أن أحزق[١٣٢] أصحاب السياسات وأهل الرئاسات من عرفوا الداء وأزالوه بأنفع الأدواء ، وإلا إستفحل الخطب وإشتد الكرب واستعصى الوئام بين الفريقين .

ولما كان ثامن عشر شعبان من السنة أى سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف للهجرة تفشى الخبر بين الناس بعزم رجال الدولة على إبطال السخرة فى ردف[١٣٣] الجسور وتطهير الترع وحراسة النيل عند فيضانه وهى المعروفة عند أهل القرى (بالعونة) . ففرحوا وأشغلهم التحدث بذلك عن الكلام عن الخلاف القائم ما بين الرئيس وأميره وأصحاب الصحف الإنجليزية والإرهاباصات[١٣٤] الحاصلة بسبب إرجاف لورد كرومر والدخول على الأمير فى كل يوم بخبر من صاحب سياستهم جديد . وكان المتولى وزارة الخزينة يومئذ بطرس باشا غالى

---

(١٣٠) أصحب = أصحاب

(١٣١) طلع = طالع قراءة ترجيحية ـ ويمكن أن تستبعد الكلمة دون أن تمس السياق

(١٣٢) احزق = أحذق

(١٣٣) ردف = ردم قراءة ترجيحية - وإن كانت الكلمه قد تكررت فى السطر ٢٣ من نفس الصفحة

(١٣٤) والارهاباصات = والارهاصات

وله منزلة فى أعين الإنجليز ومكانة عند صاحب سياستهم اللورد روزبرى وسابقه . فجعل منذ ولايته يعمل مع لورد كرومر ومستشار الخزينة على إبطال تلك المحنة وإعفاء أهل القرى منها . وما زال بهما حتى نال أمنيته ووقع الاتفاق بينهم على إبطالها ، وقرر ذلك مجلس الوزراء ، ورسم الأمير بتنفيذه . وقد خصصوا للصرف على الأعمال التى كان أهل القرى يقومون بها باسم (العونة) أربعمائة ألف ذهباً أو ينقص قليلاً . وعندى أن زوال هذه المحنة البقية الباقية من مظالم دولة المماليك الثانية وأيام محمد على الكبير إلى هذا العهد رحمة كبرى بأهل القرى لايعادلها رحمة أخرى . وعم خبر ذلك مشرق البلاد ومغربها ، فتضاعف فرح القوم ودعوا للأمير ورجال دولته . فكان أصحاب الرى المكلفين بأعمال النيل والترع وما يتبعهما إذا أرادوا عملاً كالتطهير أو الردف أو الحفر مثلاً تعاقدوا مع الراغبين فيه ودفعوا لهم أجرتهم من المال المخصص لذلك ، فاستراح الناس .

واستهل شهر رمضان من السنة موافقاً لثامن مارس سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، وثالث أمشير سنة عشر وستمائة وألف للشهداء . فجاء الأمراء من آل البيت العلوى والكبراء وأهل الخطط وأصحاب الوظائف العالية إلى قصر الإمارة ، ودخلوا على الأمير على ترتيبهم المعتاد فى هذه الأعياد والمواسم ليلة الصوم يهنئونه بإقبال هذا الشهر . ووردت على قصر الإمارة فى تلك الليلة رسائل التهانى من كل فج وصوب . ووقف الشعراء على بابه ، فلقيوا منه جميعاً كل تلطف وبشاشة ، وبدأ ترداد الناس بعضهم لبعض على العادة المألوفة فى ليالى هذا الشهر . واتفق أنى زرت أحد أصدقائى من رجال قصر الإمارة ، فبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث سألنى على غير ترو قائلاً أو ما علمت بما وقع ليلة أمس إلى أحد وزرائنا الكرام؟ قلت لا ويعلم الله . قال كان هذا الوزير مدعوا عند عظيم من عظماء الإنجليز بمصر للعشاء ، فبعد انقضاء

ساعات الضيـافة سـألته ربة البيت أن يرافقها إلى مرقص سراى الجزيرة[١٣٥] الذى أقامه كبار جند جيش الاحتلال ، فقال أعذرينى ياسيدتى فإنى لست مـدعواً ، فـقـالـت ومـاذا عليك وأنت برفـقـتـى وزوجى فى شـاغل يمنعـه من مرافقتى ، فقال أعذرينى ، قالت لابد من ذلك . فذهب معها إمتثالاً للأدب . فلما وقفا على مدخل السراى لاقاها الظابط[١٣٦] الموكل بإدخال المدعوين ورحب بهما ، فقالت السيده هذا هو صاحب السعادة السياسى وزير الديوان الفلانى ، فسلم عليه الضابط ولكنه لما رآه قد هم بالدخول مع السيدة منعه لأنه غير مدعو ، فألتفتت إليه السيدة وقالت بدهشة (أنه برفقتى) قال (ذلك لايجيز له الدخول) . فقالت مايبك[١٣٧]؟ ما هذا الجور؟ قال هذا ما وجب أن أفعل ، فغمغمت ودخلت بسرعة . فوقف الوزير حزيناً برهة ثم رجع إلى حيث أتى . فهلا عرفت ما[١٣٨] هو؟ قلت وزير الخارجية ورب البيت . فقال هو هو بعينه ومينه . إن ربك لايظلم أحداً . ثم ضحك وضحكنا معه أ . هـ .

قلت فيما مر بك بيانه فى حينه أن قد كان لهذا الوزير وهو تيكران باشا اليد الطولى بعد الرئيس مصطفى رياض باشا فى إحراج موقف الأمير فى حادث التخوم ، وتمكن اللورد كرومر من تلابيبه ، ورضوخه إلى إشارته وتحمله ما لم يطق الصبر عليه . فكان لخبر ذلك وقع سىء فى محافل أهل السياسة

---

(١٣٥)مرقص سراى الجزيرة = المقصود به نادى الجزيرة الرياضى Gezira Sporting Club الكائن بالجزيرة بالزمالك والمنشأ فى أوائل تسعينيات القرن الماضى - كانت عضويته قاصرة على الشخصيات البريطانية المقيمة فى مصر . وعندما قامت الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) استطاع النادى تشكيل وحدة احتياطية كاملة من اعضائه البريطانيين (Volunteer reserveunit) سميت تندرا بقدم فرعون (Pharaoh's Foot)

- بارى كارمن وجون مكفرسون Barry Carmen and John Mcpherson

(The Man who loved Egypt - Bimbashi mcpherson) - Ariel Books - British Broad casting Corporation - London 1985- p., 124.

(١٣٦) الظابط = الضابط

(١٣٧) مايبك = مابك قراءة ترجيحية

(١٣٨) ما = من

وأندية أصحاب الرياسة . فجاءت كتب بعضهم إلى قصر الإمارة يصوبون عمل الأمير ويثنون عليه ثناء مستطاباً . قالوا . ولما كان جرح ذلك الحادث لم يندمل بعد ، وقد أنس الأمير من أولئك القوم حضاً وتشجيعاً على التمسك بحقوقه الوراثية أى حقوق عرش الإمارة الذى انتقله(١٣٩) عن أجداده ، جعل يفكر فى الخلاص من سيطرة ذلك الجبار العنيد ويعمل على أضعاف سلطة الإحتلال بالأسباب المشروعة والطرق الرشيدة . واختار دعاة من رجال ديوانه ممن توسم فيهم القدرة على الدعوة وجمع الكلمة . وبعث نفراً منهم إلى ديار الفرنسيس والألمان يستحيلون(١٤٠) أهل الرأى وأصحاب النفوذ منهم إلى معاونة الأمير على الخلاص . وكثر إجتماع الأمير بالمسير(١٤١) عثمان باشا مبعوث السلطان فى السر والعلن . فخاف لورد كرومر من ذلك وبث عيونه وجواسيسه حول قصر الإمارة وفى سائر دواوين الحكومة . فاستولى الرعب على قلوب أصحاب الوظائف وأهل الخطط . فكان إذا سعل أحدهم أو عطس أو تثاءب توهم أنه موشى به عند اللورد ،.فيقيم على قدم الإستعداد للخروج من منصبه بكلمة تخرج من شفتى اللورد . وقد وقع ذلك لغير واحد من هؤلاء القوم . وجاءت فى هذا العهد صحف الإنجليز طافحة بالحض والتشديد فى مراقبة الأحوال فى مصر وبشىء من أقوال لورد روزبرى صاحب سياستهم فى معنى ذلك ، وفى وجوب إيقاف كل حركة عند حدها لاسيما ما كان منها معزواً إلى قصر الإمارة وبطانة الأمير . فشمخ جماعة الإنجليز بإنوفهم وأظهروا ما تكنه صدورهم من الغلظة ، وبات أصحاب الوظائف والخطط يحسبون لذلك حساباً كبيراً . وأما الأمير فلم يكن كل هذا الإرجاف ليضعف عزمه ولايقلل من إهتمامه بالخروج مما هو فيه من مأزق تلك السيطرة غير هياب ولا وجل .

---

(١٣٩) انتقله = انتقل اليه
(١٤٠) يستحيلون = يستميلون
(١٤١) بالمسير = بالمشير

وشاع الخبر بعزم السردار كتشنر باشا على التخلى عن منصبه أو بعزم صاحب السياسة الإنجليزية على خلعه وإرساله إلى الهند . فتحدث الناس فى ذلك وهم بين عازٍ خلعه إلى سعى الأمير ورجحان حجته ، وبين معظم للأمر ومكبر لعاقبته . وظل الحال على هذا أياماً حتى عاد السردار من سواكن وانقطع فى داره أياماً مريضاً أو متمارضاً ، ولم يقابل الأمير إلا بعد أن تعافى . فكتب صاحب جريدة (الغازت) الإنجليزية يومئذ يقول . «ما هذا الإرجاف وتلك الإشاعات الكاذبة التى لاحقيقة لها عن خلع السردار أو نقله إلى مكان أخر ، وإلى متى يقف المرجفون عند حدهم؟ إن هذه الإشاعات ستبقى كذلك إلى حين من غير أن تؤيدها الحقائق . فإن خلعه أو نقله عسير على صاحب السياسة الإنجليزية ولاسيما بعد ذلك الحادث المشوم ، حادث التخوم . فليتق الله أولئك الدساسون أ . هـ . ولم يقم كتشنر باشا السردار بين ظهرانينا أياماً حتى جاءت الكتب من أحد مشايخ الهند[١٤٢] ندت إلى بعض[١٤٣] الوجهاء وأصحاب التجارة مع شرق السودان ، وكلها تكاد تكون على وتيرة واحدة . وقد إطلعت على أحدها فإذا هو يقول فى مطلعها . ولله فى أخلاق خلايقه أحكام . ولايضل العارفون عن الحق بل يضل الغادرون ، وتحسب على هؤلاء شرورهم ويأتيهم العقاب وهم غافلون . ثم قال إعلم أن جميع العربان على إختلاف قبائلهم على دعوة الأمير سليلة[١٤٤] البت العلوى ، وإنهم عندما ما يرون عساكر المسلمين آتيين[١٤٥] نحوهم يلقون أنفسهم بين أيديهم مسلمين طوعاً لا كرهاً . وأما إذا جاءنا عسكر أولئك القوم الإنجليز فلا أمل بالتسليم وفينا بقية من الحياة . ونحن لانطيع أولئك البيض استشهدنا[١٤٦] مع أطفالنا ونساءنا وخسرنا

---

(١٤٢) الهند= السودان قراءة ترجيحية
(١٤٣) ندت الى بعض = تند ببعض علت هكذا ليستقيم المعنى
(١٤٤) سليلة البت = سليل البيت
(١٤٥)آتيين = آتين
(١٤٦) استهشدنا = ولو استشهدنا

ما عز لدينا . فإذا دارت علينا الدائرة فإننا نترك الديار خالية قائمة(١٤٧) على عروشها وتغلغلنا فى جوف الجبال . قال وأما عبدالله التعايشى فرجل متقلب الأحوال سيء الأعمال بعيد الآمال كأنه إنجليزى لاغش فيه ولا ناصر له ولامعين سوى قبيلته البقاده(١٤٨) . ومع ذلك فإنه أبدا موجسا منهم خيفة على حياته . وعما قليل تضمحل كلمته وتتلاشى(١٤٩) نفوذه لكثرة أعدائه والدى(١٥٠) فى حقه إلى الأنصار والمريدين . ويكاد المطلع على هذا السر يتخيل أن الحرب فى داخل البلاد على قاب قوسين وأدنى(١٥١) . ولولا خوفنا من مفاجأتنا بأولئك القوم الإنجليز ونحن مشتبك بعضنا بعض لكانت الحرب الطاعنه(١٥٢) قائمه بيننا الآن . ولذلك فإننا مشتغلين جميعاً بشكين(١٥٣) الفتنة وإقناع القبايل بالثانى(١٥٤) والابتعاد عن كل حركة إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولكننا نناشدكم الحق . إن نفوسنا قد سئمت من هذه الحال ولاتبتغى إلا الراحة فى ظل راية الأمير ظلته(١٥٥) مصر العزيزة . فالله سبحانه يقرب ذلك اليوم السعيد بمنه وكرمه . أ . هـ فتأمل . وقد كانت النمسا أوهم جماعة من أصحاب الكلمة والوجاهة فى تلك المملكة هموا بإنقاذ سلاطين بك النمسوى(١٥٦) ونيوفلد

---

(١٤٧) خالية قائمة = خاوية
(١٤٨) البقادة = البقارة
(١٤٩) وتتلاشى = ويتلاشى
(١٥٠) والدى = والدس
(١٥١) وأدنى = أو أدنى
(١٥٢) الطاعنه = الطاحنه
(١٥٣) بشكين = بتسكين
(١٥٤) بالثانى = بالتأنى
(١٥٥) ظلته = ظللته
(١٥٦) سلاطين بك = رودلف أنطون كارل فريهرفون سلاتين Slatin, Rudolf Antonkarl, Freiherr Von (٢٧يونيو ١٨٥٧- ٤أكتوبر ١٩٣٢) ـ نمساوى خدم بالحكومة المصرية بالسودان . عين حاكما لإقليم دار فور عام ١٨٨١ . حاول دون جدوى إجهاض الثورة المهدية فى أوائل قيامها لكنه فشل ووقع أسيرا لدى الثوار السودانيين منذ ١٨٨٣ حتى استطاع الفرار عام ١٨٩٥ . ساعد فى عمليات استرجاع السودان (١٨٩٦-١٨٩٨) وخدم أخيرا (١٩٠٠-١٩١٤) كمفتش عام هناك . يعرف باسم سلاطين باشا . ألف كتابا يعد من أشهر الكتب التى كتبت عن الثورة المهدية بعنوان (السيف والنار=

أسيرى المهدوية بأم درمان . فأعدوا لذلك بعثة برئاسة كبير من كبار جندهم ، وقامت البعثة حتى أتت التخوم ، فوقف فى طريقها أصحاب المراصد من الإنجليز ومنعوها من إجتيازه وأرجعوها من حيث أتت بدعوى أن تغلغلها فى جوف البلاد على ما فيها من العصاره[١٥٧] ربما زاد فى الطين بلة وعجلة[١٥٨] بحركة القوم . فعادت البعثة صاغرة . وما هى إلا عشية أوضحاها حتى جاء الخبر إلى ديوان الجند بسرعة إرسال المؤن والذخيرة تأهباً للقاء أصحاب المهدوية لأنهم على قدم الزحف على التخوم بعد إنقضاء شهر الصوم . وتفشى خبر ذلك بين الناس ، فلم يحفلوا به لأنه من الأراجيف التى إعتادوها أصحاب المراصد عند الحاجة إليها فى عرفهم .

واكتشف فى هذه الأيام (دومرجان) مدير عموم دار الآثار والعديات[١٥٩] المصرية فى ناحية دهشور بإقليم الجيزة آثاراً تاريخية من أهم الآثار المكتشفة إلى هذا العهد . ذلك أنه تمكن فى ثامن عشر فبراير من السنة وثانى عشرى شعبان سنة إحدى عشر وثلثمائة وألف للهجره من الدخول إلى الهرم المبنى من الطوب (اللبن) الذى امتنع على مصلحة الآثار سنين عديدة الدخول إليه معماً[١٦٠] بذلته من الجهد الجهيد فى سبيل ذلك ، وتحقق أن مدافن ذلك الهرم لم تكن فى تخانة بنائه كالأهرام الأخرى ، بل أن المدافن فيه منحوتة فى الصخر على عمق عظيم ، وأنه يشتمل على مدافن عائلة ملكية بأجمعها

= فى السودان) Fire and Sword in the Sudan. 1879-1895 والمطبوع فى لندن عام ١٨٩٦ .

- Lexicon Universal Encyclopedia vol. 17-p., 351

- Larousse Universelle - vol. ii- p., 936.

ـــ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن ــ ج٢ مرجع سبق ذكره ــ ص٩٢

(١٥٧) العصاره = المخاطر قراءة ترجيحية

(١٥٨) وعجله = وعجل

(١٥٩) العديات = العاديات

(١٦٠) معما = مع ما

بخلاف الأهرام الأخرى فإن الواحد منها ليس فيه سوى نأووس[١٦١] واحد . وقد حدث فى أثناء إكتشافه هذا أن الأتربة إنهالت على غير إنتظار من الداف الأعظم[١٦٢] فمنعته من إطراد العمل أياماً ، ولكنه قبل ذلك كان اكتشف أربع عشر غرفة للمدافن على صف واحد مقامة على جانب دهليز مستطيل . ولما لم يتمكن من رؤية الناؤوس الملكى وكثير من المدافن الخاصة بكبراء الرجال من الرتبه الثانية فلم يتيسر له الآن معرفة إسم هذا الملك بالتأكيد . ولكن لايمضى إلا أيام حتى يتمكن من ذلك ، فإن مدخل ذلك الأثر الواسع الأرجاء تحت الأرض اليوم ظاهراً . قال . والمظنون أن الهرم المذكور يختص بالعائلة الثانية عشر التى لم يعثر للآن على شىء من مدافن ملوكها . أ . هـ . وأورداف[١٦٣] هذا بخبر جديد يقول فيه . أنه اكتشف فى داخل ذلك الهرم شيئاً كثيراً من الحلى الملكية وهى خبيئة (أوسر تيزن)[١٦٤] الثانى والثالث من ملوك العائلة الثانيه عشرة . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف الأجنبية وتحدثوا به كثيراً . فلما كان خامس عشر مارس من السنة ، وثامن رمضان سنة إحدى عشر

---

(١٦١) ناؤوس = يحتمل أن الكلمة تعنى تابوت

(١٦٢) الداف الاعظم = لم أصل إلى معنى هذه الكلمة

(١٦٣) وأورداف = وأردف

(١٦٤) أوسرتيزن = هو الملك الثانى من الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (١٩٩١- ١٧٧٨ ق.م) والمعروف باسم سنوسرت الأول Senousret .أسس هذه الأسرة (أمنمحات سحتب إ ب ر ع) وعرف باسم (أمنمحات الأول) وحكم لمدة ثلاثين عاما حكما مركزيا مقره مدينة (طيبة) وأشرك معه فى الحكم ولى عهده (سنو سرت) لمدة عشر سنين ــ والذى حكم لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد أبيه ــ وهو صاحب المسلة المشهورة فى المطرية ومن ملوك هذه العائلة سنوسرت الثانى وسنوسرت الثالث وامنمحعت الثالث .

- عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم ــ الجزء الاول مصر والعراق) القاهرة ــ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦٧- ص١٦٦ - ١٨٤ .
- عبد الرحمن الرافعى (تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى) الطبعة الأولى - ١٩٦٣ - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ص ٥٣-٦٩
- چورچى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن) الجزء الاول - مرجع سبق ذكره ، ص٢٨-٣٢ .

وثلثمائة وألف جاءت كتبه إلى ديوان الأمير وإلى بعض الصحف المحلية وكلها مفعمة بتفصيليل[١٦٥] ما اكتشفه من ذلك الأثر الثمين . وقد قرأه[١٦٦] أحدها فقصدت بلدة دهشور وسرت منها إلى حيث الهرم ، وقابلت المسيو دومرجان على غير سابقة معرفة به ، فقابلنى باش الوجه مسروراً يتهلل فرحاً ، وقال لى أنظر ما وجدناه من التحف الغالية ، وفتح لى صندوقا فرأيت ما لم تر مثله عين من الذهب والفضة والجواهر والحلى والأحجار الكريمة . فقلت من أين لك هذا وما قيمته قال وجدناه بالسرداب الذى عثرنا فيه على اللقية الأولى التى لابد وأن يكون قد وصل إليك خبرها ، أما قيمته فلم يمكن لى الآن تقديرها لأنها من أفخر الآثار ثمناً وهى أعظم شىء وجد للآن فى مشارق الأرض ومغاربها ، وليس ذلك لأنها من الذهب أو الأحجار الكريمة ، بل لأنها من مدخرات أقدم عائلات الطبقة الثانية المصرية . فقلت وماذا تساويه من الثمن بصرف النظر عن شأنها التاريخى؟ قال إنى أقول لك الحق إنها فى نظرى لاتقل عن المليون فرنك عداً ، والحقيقة أنها تزيد على هذا كثيراً جداً . قلت وأين ما وجتموه[١٦٧] من هذه الأحجار الكريمة فى المرة الأولى؟ قال بعثت بها إلى بيت العديات[١٦٨] منذ أيام فهى زينة لكل ما هو هناك . ثم قال هلا تريد أن ترى بناء ذلك الهرم من الداخل؟ قلت وهل ذلك ميسور؟ قال قم ، فقمت وأشار إلى بعض العمال الذين يشتغلون فى نقل الأحجار والتراب من جوف فوهته ، فأتوا بحبلين فربطوه بأحدهم وأدلوه من تلك الفوهة وأدلونى كذلك ، فكانت عميقة للغاية . ولما بلغت قاعها نظرت سردابين يعلو أحدهما الآخر حالكى الظلام وطول الأعلا منها ماية وخمسة عشر متراً كما قيل لى ، وهو يمتد من الشرق إلى الغرب موازياً لوضع الهرم من جهة الشمال ، قالوا وعرضه متر وثلاثين سنتى

(١٦٥) بتفصيليل = بتفاصيل
(١٦٦) قرأه = قرأت
(١٦٧) وجتموه = وجدتموه
(١٦٨) العديات = العاديات

متراً وإرتفاعه متران ، وكان به كثيراً من الفعلة وبأيديهم المصابيح وهم يشتعون(١٦٩) ويقطعون ويحفرون ويخرجون التراب نقلاً بالحبال من فوهتين كالآبار كل منهما فى نهاية السرداب . ورأيت أربعة دهاليز متحدرة(١٧٠) جداً يتصل إليهما(١٧١) الراغب بواسطة سلم منحوت فى الصخر . قالوا لى أن هذا الدهليز وجدوا فيه اللقية الأولى ، والثانى وجدوا فيه الثانية ، والدهليز الثالث والرابع جارى العمل فيهما بهمة . ولم يكونوا إلى ذلك اليوم قد وصلوا إلى غرفة الملك . ودخلت إلى الدهاليز المفتوحة فرأيت فى كل واحد منها خمس غرف وجلها مبيض بالجير الناصع البياض ومنحوتة فى الجيل(١٧٢) . ورأيت فى كل غرفة منها تابوت من الحجر الجرانيت بهضها(١٧٣) منقوش عليه إسم صاحبه بالقلم البربائى وبعضها غفل ، وكلها خالية من الأموات ، وفى بعضها عظام مهشمة صارت حطاماً ، فدلنى ذلك على أنها نبشت فى ماضى الأيام ولعبت بها أيدى اللصوص . فصعت(١٧٤) إلى أعلا البئر كما أنزلونى إلى أسفل . وسألت عن أسماء الملوك الذين عثروا عليها المدهن(١٧٥) العظيم ، فقالوا عثروا إلى ذلك الحين على إسم الملك أوزرتسن الثانى وأزرتسن الثالث وإينما(١٧٦) الثالث ، وسيظهر غيرهم كثير . فقلت هم من ملوك العائلة الثانية عشرة المصرية التى كانت طيبة قاعدة ملكها ، وكان إبتداء حكمها قبل الميلاد المسيحى بثلاثة آلاف سنة وأربعة وستين سنة على ما سجله أهل التاريخ ، وتاريخ

---

(١٦٩) يشتعون = يشتغلون
(١٧٠) متحدرة = منحدرة
(١٧١) إليهما = إليها
(١٧٢) الجيل = الجبل
(١٧٣) بهضها = بعضها
(١٧٤) فصعت = فصعدت
(١٧٥) المدهن = بالهرم   قراءة ترجيحية
(١٧٦) واينما = وامنمحات الثالث إبن سنوسرت الثالث   قراءة ترجيحية ـــ راجع عبد الرحمن الرافعى (تاريخ الحركة القومية المصرية فى مصر القديمة) مرجع سبق ذكره ص٦٣

أوزرتسن وحـروبه وآثاره مـذكورة بالتـفـصيل فى الجزء الأول من كتـابنا هذا ، وكذلك أخبار الثانى والثالث منهم . وأما الحلى التى وجدت فى هذه المرة فهى كـردان صـدر بأسـمـاط منضـدة كـأحسن مـا يكون ، عليـه إسم الملك أوزرتسن الثـانى وهو مصنوع من الذهب الخـالص ، وجعـران من حجـر الكركـهان نفيس جـداً يميـل لونه إلى لون البنفسج ، وسـواران من الذهـب الخـالص مـرصـعـان بالأحجار الكريمة عليها إسم الملك أمتحا[١٧٧] الثالـث ، وكروان[١٧٨] من ذهب عليـه إسم الملك المـذكور أيضاً ، وعقـد من ذهب بدون إسم به رأس أسـد من الذهب ، وقـدراً من الأحجـار الكريمة كـالزمرد والكركهان والعيق[١٧٩] اليمـانى والسليمـانى ، وكميـة من حجر اللوزورد الأزرق النـفيس ، وأسود رايضة[١٨٠] من الذهب كـانت قـلادة ثم إنفـرطت ، وكـميـة كـبـيـرة من المـشـابك من الـذهب المـسـتعملة بدل الأزرار فى المـلابس وخـواتم من ذهب لا أعلم عـددها ، وأربعة أبواق ومحاركلها مستديرة مصنوعة من الذهب ، وكمية عظيمة من المحار المستطيل المصنوع من الذهب على أغرب شكل وأجمله ، كل واحدة مركبة من فلقتين يتماسكان بلسـان مستطيل يجرى فى مجرى له بالفلقة الثانية ، كـأنها قـلائد أو تمـاتم[١٨١] طول كل واحـدة نحو الثـلاثة قـراريط وعرضـهـا نحو القيراط ونصف قيراط ، وهى من الذهب الصب المندمج ليس بها تفريغ ، وأربع مرايا من الفضة والبرونز (الصفر) بعضها مرصع بالأحجار الكريمة ، وكمية كبيرة من الأسـمـاط المصنوعة من الذهب لها شكل غريب بحيث أن كل حبة إذا وضعت بجانب أختها ظهر منها شكل بديع للغاية يدل على ما كان لأجدادنا

---

(١٧٧) امتحا = امنمحات الثالث ابن سنوسرت الثالث
- المرجع السابق ـ ص٦٣
(١٧٨) كروان = كردان
(١٧٩) والعيق = والعقيق
(١٨٠) رايضه = رابضة
(١٨١) تماتم = تمائم   قراءة ترجيحية

الكرام من التفنن والإتقان وحسن الإختراع ، وغير ذلك كثير من الأحجار الكريمة والأقراط والفصوص والعقود المنثورة وهى من العقيق الإسكندرى والعقيق اليمانى والياقوت الأصفر والكركهان البنفسجى واللازورد ، وأودوان[١٨٢] صغيرة من العقيق على أشكال مختلفة ، وقد وجد من الذهب الخالص نحو أرلاقتين[١٨٣] . قال أحمد نجيب بك مفتش وأمين عموم الآثار المصرية بعد كلام طويل عن هذه الكنوز الثمينة وما دلت عليه من حقيقة تاريخ العائلة الكبيرة . «أما وانى[١٨٤] الخزف التى وجدت معهم – يعنى فى تلك المقابر – فشىء يفوق الحصر ، وكلها كالمرمر المصقول لملاسة ملمسها ، وكثير منها لم أعرف الغرض منه . قال وعرضتها على علماء الآثار فلم يحيدوا[١٨٥] جواباً . قال ولابد من العثور على اللقية الثالثة الحاصل الإشتغال بإخراجها إلى هذا الحين إن شاء الله» أ . هـ .

قلنا فيما مر بك بيانه لما أثقلت الأمير يد الاحتلال ، وأتبعه[١٨٦] معترك عميده وأخذته صيحات صحفهم من كل جانب ، عمد إلى دفع هذا الشر الوبيل بالحكمة والتروى ، واستخلص نفراً ممن توسم فيهم القدرة على هذا العمل الكبير وخلطهم نفسه وجعل يدبر التدابير ويعد العدة لذلك الأمر الخطير . يقال وعلم لورد كرومر بأن وراء هذه الأكمة ما ورائها ، فخشى العاقبة وعمل على إحباط مسعى الأمير . فأوعز إلى أصحاب صحفهم بما أوعز ، فما هى إلا أيام حتى جاءتنا بنبأ به إذن[١٨٧] منذ بادت سلطنة دولة المماليك الثانية وتلاشة[١٨٨] كلمة الأمراء المصريين مثل على بك الكبير والألفى

(١٨٢) واودوان = وأودان قراءة ترجيحية
(١٨٣) اولافتين = الأقتين
(١٨٤) وانى = أوانى
(١٨٥) يحيدوا = يحيروا
(١٨٦) واتبعه = وأتعبه
(١٨٧) اذن = انه
(١٨٨) وتلاشة = تلاشت

والبرديسى ومن أتى بعدهم ، قالوا أن الأمير على[١٨٩] جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم فى مشرق الأرض ومغربها ، وأنه سيقيم خلافة عربية تحت لواء عربى لاغش فيه ، وأنه لأجل أن يبث هذه الروح الجديدة بين المصريين أوعز إلى أصحاب الوظائف وأهل الخطط من المسلمين إن لايعانوا[١٩٠] قبطياً قط وأن يفقوا[١٩١] بين العنصرين فى كامل شئونهم الاقتصادية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ثم جعل أصحاب تلك الصحف يصيحون بملء أفواههم بالنكد بالسوء[١٩٢] حظ النصرانية . ورموا جماعة الوزراء بتهمة التفريق بين الجنسيات والأديان ، وإنهم قد عدوا أن لامصرى إلا المسلم ، وأنهم إرضاء لرغايب الأمير قد فرقوا أيضاً فى قسمة الوظائف والخطط بين القبطى والمسلم . فإندهش الناس من هذه الضجة الجديدة وكبر إستغراب القبط من هذه النغمة

الشاذة فى قياسها ـ وعندى أن المناصب والخطط فى البلاد قد يقاسم[١٩٣] اقباطها ومسلموها من غابر الازمان والتاريخ : يشهد بذلك فى عهد محمد على باشا الكبير . وقد سار على هذا الطريق سائر الخديويين إلى يومنا الذى نحن فيه ، ولم يكن من يزاحم العنصرين فى وظائفهم سوى الأجانب أصحاب الديون . فبحكم هذه الديون وبحكم الامتيازات الممنوحة لهم من القدم قد تركوا فى كثير من المناصب والخطط وعدوها ملكا لهم ، حتى إذا مات الواحد منهم أو اعتزل منصبه قام قنصله يطالب باعطاء منصبه لآخر من جنسه وبلده ، حتى سئمت نفوس المصريين وكبر كرههم للأجانب جمعا وحسبوا وجود الأجنبى وظائف[١٩٤] بلدهم ضربة قتالة للعنصر المصرى على

---

(١٨٩) على = عمل على

(١٩٠) يعانوا = يعينوا قراءة ترجيحية

(١٩١) يفقوا = يفرقوا

(١٩٢) بالسوء = يالسوء

(١٩٣) يقاسم = تقاسمها قراءة ترجيحية

(١٩٤) وظائف = فى وظائف

توالى الأيام . فلما إحتل الإنجليز البلاد لم يعملوا على خلاف ذلك بل زادوا الطين بلة واستخدموا كثيرا من الأجانب فى مختلف الدواوين عيونا لهم على المصريين وكشافا للعورات ، كما زجوا العدد[١٩٥] العديد منهم فى سائر وظائف الدولة وخططها ، وصرفوهم فى نقضها وإبرامها وولوهم الرئاسة المطلقة على حلالها وحرامها ، فلم يقدر أحد من الوزراء على دفع تيارهم ولا رد كلمة لأصغرهم ، حتى لقد خالف لورد كرومر الأمير فى تسلم[١٩٦] الرئاسة أى رئاسة الوزراء لأحد المسيحيين يوم ارتقى عرش الإمارة . وجاءت كتب صاحب سياستهم تباعا بأن لايتولى هذه الزعامة إلى[١٩٧] مسلم لاغش فيه ، فازعن[١٩٨] الأمير كارها ، وأنى لجماعة الوزراء أن ياتوا مثل هذا العمل الشائن وهم فضلا عن أن بينهم إثنين من المسيحيين هما بطرس باشا غالى صاحب الخزينة وتيكران باشا صاحب وزارة الخارجية فأنهم مقيدون بقيود الإستشارة التى لافكاك لكل وزير منها حتى يبارح منصبه . لامراء أن كلمات التفريق وألفاظ التشويش هى ديدن فريق السفلة الحمقى من العنصرين كما هى ديدن الطبقة الساقطة من الشرقيين عموما . ولكن هذه المعايب الناجمة عن سوء التربية لم تكن لتتجاوز الوسط الحالة فيه ولم تتعد قط أولئك الذين لم يخل منهم زمان ولامكان فى أرض الله الواسعة . وهل هذه الضجة الجديدة من نوعها فى هذه الاوانة[١٩٩] ناجمة أفن[٢٠٠] عقول أصحاب تلك الصحف فى القبول من كل قائل والسمع لك[٢٠١] ناعق . حاشا وكلا ، فقد اعندوها[٢٠٢] دربعة[٢٠٣] إلى

(١٩٥) العدد = بالعدد
(١٩٦) تسلم = تسليم
(١٩٧) الى = إلا
(١٩٨) فازعن = فأذعن
(١٩٩) الا اونه = الآونة
(٢٠٠) افن = إلا عن
(٢٠١) لك = لكل
(٢٠٢) اعندوها = أعدوها
(٢٠٣) دربعة = ذريعة

تتألف منها تلك المملكة المتناثة[٢١١] الأطراف . ولما كانت مملكتهم هذه تتألف سكانها من بوزيين[٢١٢] ووثنيين ومسلمين وقليل من المسيحيين أصحاب العقيدة الاورثوذكسية على الطقس السريانى ، وكل يدعى الميزة لنفسه فى الوطنية والحقوق القومية ، جعلوا من ذلك العهد يدسون الدسائس ويغضون المسلم فى أخيه الوثنى ، والوثنى فى أخيه المسيحى ، ويفرقون بين هذا وذاك فى سائر العاملات[٢١٣] وفى أحترام العادات وفى حرية الديانات . وما زالوا على هذا حتى تمكنوا من تمزيق جامعتهم وتفريق حزبهم واستئصال عصبيتهم ، فكانوا بعد قليل من الدهر أعداء بعضهم لبعض[٢١٤] ، وكان اذا قام فريق على فريق استنصروا القوى على الضعيف وأعانوه على التنكيل بخصمه ، فإذا انقلب قويا انلبوا[٢١٥] معه على عدوه وهونوا عليه النكاية به والنوال منه ، فتمكنوا بهذا الدهاء من أعناق الهنود وساقوهم بقضيب من حديد وحكموهم بشرزمة من جندهم لاتتجاوز ــ السبعين ألفا ، والقوم كماتعلم يعدون بعشرات الملاين وبينهم مئات الألوف من الأبطال الأشداء أهل المروءة والنجدة كما هو مشهور لايدخرون وسعا فى تلافى كل مافيه عقبات أو خطر . وكان بلدك هذا الأسبق كالريشة[٢١٦] كالريشة فى مهب ريحهم منذ وطئت أرضه أقدام جيوشهم إلى هذا العهد . وقد رأوا من وثبة الأمير بثبات وبأس ليؤيد استقلال إمريته[٢١٧] وحرية أرضه ويعيد لمصر حياتها القومية ماأدهشهم ومن إجتماع قومه حول عرشه ماأجفلهم ، ومن تالب[٢١٨] العنصرين المكونين لمملكته ما أرهبهم .

(٢١١) المتناثه = المتناثية
(٢١٢) بوزيين = بوذيين
(٢١٣) العاملات = المعاملات
(٢١٤) لبعض = البعض
(٢١٥) انلبوا = انقلبوا
(٢١٦) كالريشة كالريشة = كالريشة
(٢١٧) امريته = امارته
(٢١٨) تالب = تألف

وعلمـوا أن الأسـوة تسـرى وأن الخطر فى التـأسـى .وكـان دائهم[٢١٩] منازلت[٢٢٠] مايحيق بهم من المكروه فى إبان نشأته وناشئة ليله قبل أن يفجر ويكبر فيشب عن طريق الضعف إلى طور القوة ، ويضطرون يومئذ لمقاومـة القوة بمثلها . وإذا مـاليس لهم فيـه مرامى[٢٢١] ، بل كـانوا[٢٢٢] إلا ليأخذوا الضعف بالقوة سنتـهم المعروفة همسوا[٢٢٣] من أذن أصحاب صحفهم همسا أهاج ريحهم فهبوا إلى الطعن والمين ورموا أهل هذا البلد لأمين[٢٢٤] بالتـعصب للدين ، ولوسـوا[٢٢٥] أصحاب المناصب فيه بالإنتصار لفريق المسليحيين[٢٢٦] ضد المسيحيين ، فصاح لصيحتهم هذه أيضا بمصر أصحاب الصحف المأجورة ، فكانوا سامحهم الله أشـد قحـة وأكـثـر هترا وأكـبـر فـتنة . وأعلم ياصح[٢٢٧] أن لاصراخ إلا عن شرة[٢٢٨] ، والقوم إنمـا يفعلون اليوم لغدهم ، فلا يشـغل عـميدهم ما لـديه عما خلفـه ومـا عليـه ، ولسـوف ترى أن هذه المـحنة الخسـرى وسـتـتـقـمص به تاسـساتنا[٢٢٩] الحديثة الذين هم رجال الغد وتتخمر بشـمومها[٢٣٠] عقولهم ، فيـقوم نفر منهم قد استـهوتهم النزهات(٢٣١) وغـمرهم أولئك الدعاة ، يدعون العصمة وقيادة الأفكار ويغررون بأولئك الصبية ويصرفونهم عن شؤونهم إلى ما ليس لهم به علم ، ويغضـونهم فى مـواطنهم[٢٣٢] الذين هن[٢٣٣] أشـد إحـسـاسـا

(٢١٩) دائهم = دأبهم
(٢٢٠) منازلت = منازلة
(٢٢١) وإذا ماليس لهم فيه مرامى = فإذا كان ماحدث لهم فيه مرامى قراءة ترجيحية
(٢٢٢) بل وما كانوا =وما كانوا
(٢٢٣) همسوا من = همسوا فى
(٢٢٤) لامين = الأمين
(٢٢٥) ولوسوا = ولوثوا
(٢٢٦) المسيلحيين = المسلمين
(٢٢٧) ياصح = ياصاح
(٢٢٨) شرة = شاة قراءة ترجيحية
(٢٢٩) وستتقمص به تأسساتنا = وسيتقمص به ناشئتنا
(٢٣٠) بشمومها = بسمومها قراءة ترجيحية
(٢٣١) النزهات = الترهات قراءة ترجيحية
(٢٣٢) مواطنهم = مواطنيهم
(٢٣٣) هن = هم

بربقة النير المغروز فى رقابهم منذ الأجيال الغابرة ، ويكبرون الفتنة وينفرون العامة والغوغاء من عرش الأمارة ، ويقربون السوقة من أصحاب المناصب العالية ، ويكشفون لجماعة الإنجليز عن عورات الناس فى السر والعلن . يومئذ يختلط الحابل بالنابل ونصبح ولا جامعة ولا وطنية ولا عصبية ولا قومية . وقد ساء هؤلاء القوم واستحكم نيرهم وعظمت شوكتهم وانفسحت كلمتهم من أقصى البلاد إلى أقصاها ويقع خبر هذا عند الدول جلها أو كلها أحسن المواقع لما يرجونه من الفائدة في مستقبل الأيام . فقلت يارعاك الله . أيتى[٢٣٤] أنت؟ فوالله لقد عظمت الشكوى وكبرت البلوى وأوصدت مغالق الأمل ، وقرب عهد هذا الإنقسام والفشل حتى خيل أن حزمة العنصرين تنصرم ونار الوحشة بينهما تضطرم ، وإنى أقول لك الحق أنى ممن يفضلون وقوع البلاء على انتظاره إذا كان قدراً مقدورا . وأنت تعلم أن هذه المحنة ليست بالأولى من نوعها ، فلقد ابتلى هذا المصر الأسيف بمثلها وبما هو أشد هؤلاء[٢٣٥] . وهذه صفحات هذا الكتاب ملأ[٢٣٦] بأخبار الخطوب والكروب التى حلت به فى أيام كل من الفاتحين ، ولكن الله عوده الصبر الجميل ، وجعل لأهله على رأس كل قرن خلاصا . وعندى أنه من الغلط الذهول عن تبدل الأحوال بتبدل الأطوار ومرور الأيام . فقال هيهات هيهات أن لولاء[٢٣٧] الإنجليز فى سياستهم تصاريف تقرب البعيد وتغل[٢٣٨] الحديد وتقصم ظهر كل جبار عنيد ، فالله الله ولا قوة إلا بالله . وقد تم ما تنبأ به صديقى فظهرت الأحزاب وبنوا قاعدة أعمالهم على التفريق المعيب تحت إسم الدين وكان من وراء ذلك ماسيتلى عليك فى حينه إن شاء الله .

---

(٢٣٤) أيتى = أنبى — قراءة ترجيحية
(٢٣٥) هؤلاء = هولا
(٢٣٦) ملأ = ملأى
(٢٣٧) لؤلاء = لأولاء
(٢٣٨) وتغل = وتفل

وكبر قلق الأمير فخرج فى قلة من الحشم والأتباع ومعه بعض الأمراء من آل البيت العلوى إلى الصحراء الشرقية على ظهور الهجن وبعض الخيل ترويحا للنفس ، ولبث أياما . فلما كانت ليلة نصف رمضان من السنة وصل ركبه إلى (محلة عجرود) القريبة إلى السويس ، فباتوا ليلتهم ثم ساروا منها إلى المحلة المعروفة (بنمرة ثمانية) الواقعة مابين السويس وتخت الإمارة ، وأصبحوا وقد وصلوا (نفيشة) ومنها إلى بلبيس ، ودخل القاهرة وسار إلى قصر القبة وهو على أحسن مايكون من الصحة والعافية . ولم يستقر به المقام أو هو لم يسترح من وعث السفر حتى تفشى القول بقرب عهد تنزل[٢٣٩] الرئيس مصطفى رياض باشا عن منصب الرئاسة وعزل غير واحد من الوزراء . وتكلم بذلك أصحاب بعض الصحف المحلية من صنائع الإنجليز ، حتى لقد قالوا بوقوعه بعد أيام عيد الإفطار وأكدوا بذلك توكيدا ، وأن الأمير إنما ينتظر مكالمة لورد كرومر فى ذلك ، وأن اللورد ينتظر مثل ذلك ، ويقولون أن مظلوم باشا سيبقى فى وزارة الحقانية ويتقلد بطرس باشا وزارة الخارجية ويخلع الرئيس والباقين منهم ، وأن الذى يتولى الرئاسة فى هذه الآونة هو مصطفى فهمى باشا . فلما كان ثانى إبريل من السنة وسادس عشرى رمضان استدعى الرئيس مصطفى رياض باشا جماعة الوزراء عند الظهر وتناجوا فى أمرهم طويلا ثم دخل على الأمير بقصره عند الساعة الثالثة بعد الظهر ورفع إليه استقالته . يقال فقبلها الأمير ورسم إليه بالبقاء إلى مابعد عيد الافطار . ثم استقدم ساير الوزراء إلى مقره بالقبة فبثوا[٢٤٠] بحضرته برهة لطيقة[٢٤١] ، فكلمهم فيما هم فيه ولم يبرحوا القصر حتى جاء لورد كرومر واستأذن بالدخول فأذن له . يقال فكلم الأمير فى أمر استقالة الرئيس وجماعة الوزراء . وانقطع الرئيس من ذلك الحين عن الذهاب الى ديوانه تمارضا . وتفشى خبر ذلك بين أصحاب الوظائف وأهل الخطط وتحدثوا به

(٢٣٩) تنزل = تنزيل .
(٢٤٠) فبثوا = فلبثوا .
(٢٤١) لطيقة = لطيفة .

(وقال الناس يومئذ أن الأمير سير فى طلب جماعة الوزراء فتمثلوا بحضرته . وعندى أنه لم يستدعهم قط لأنه لم يكن ليطيق الصبر على ماوقع من بعضهم ولم يكن ليرتح إلى رؤيتهم بعد حادث التخوم ، فهم تمثلوا بحضرته يرجون عفوه وإغضائه عما وقع من ذلك البعض ويقسمون الإيمان الغلظة(٢٤٧) بانهم أخلص الناس فى خدمته وأطوعهم إلى إشارته . وشكا إليه بعضهم من حملة أصحاب الصحف تلك الحملة الشعواء ، ورميهم بالخيانة والتدليس وهم براء من كل مايرموهم به) قال فلم يحفل لقولهم ولا أعاره شيئا من الاصفاء(٢٤٨) . فخرجوا من لدنه يعضون أنامل الندم . وتبعتهم صيحة أصحاب تلك الصحف بأنهم معزولين بعيد أيام(٢٤٩) الإفطار لاماله(٢٥٠) . وعندى أن ما أتاه الأمير من الحزم وقوة العارضة فى هذه الآونة جعل الوزراء وجماعة الإنجليز يعرفون أن الوزراء الذين يؤيد(٢٥١) الأمير مركزهم لايقوون على البقاء بل لاحياة لهم في عالم السياسة وإن أمدهم الانجليز بألف نفخة من سلطانهم . قال وكم ماسمعت اذناى نداء أصحاب سياسة الإنجليز على منابر دار ندوتهم قائلين أن قوتنا فى ديار مصر أن لا رجال أكفاء للسياسة فيها والا لا نطوى(٢٥٢) زمن احتلالنا ونزحنا عنها كارهين أ .هـ

وبينما الناس فى شاغل بما قيل ويقال فى شأن جماعة الوزراء ، إذ أقبل العيد أى عيد الأفطار . فرسم الأمير بعمل التشريعة(٢٥٣) الكبرى على النسق المعتاد . فدخل عليه بقصر الإمارة سائر الأمراء والكبراء والعلماء والرؤساء الروحيين وأهل الخطط وأصحاب الوظائف وهنأوه بالعيد . فلم نره طلق المحيا

(٢٤٧) الغلظة = الغليظة .
(٢٤٨) الإصفاء = الإصغاء .
(٢٤٩) بعيدا يام = بعد أيام .
(٢٥٠) لامالة = لامحالة .
(٢٥١) يؤيد = لايؤيد .
(٢٥٢) لا نطوى = لانطوى .
(٢٥٣) التشريعة = التشريفة .

باش الوجه على عادته فى مثل هذا الاحتفال، وكان يكلم بعض المقربين إليه بعبارات غاية فى الإيجاز، واستعرض الحامية من الجيوش المصرية فى ساحة العباسية على عادته أيضا فى مثل هذا اليوم. وقضى اليوم بقصر الإمارة ثم عاد فى المساء إلى قصر القبة، فلم يكن لأيام هذا العيد من البهجة ما لا مثاله[٢٥٤] من قبل. ولم تنقض[٢٥٥] أيام العيد ويقبل الناس على أشغالهم ومهنهم، حتى تفشى الخبر بقرب خلع محمود رياض باشا إبن الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب وكالة الداخلية، وتنوعت فى ذلك الأسباب والعلل. وقد زاد الخبر تفشيا بذهاب الرئيس إلى مزرعته فى بلدة طود[٢٥٦] الجيدة ولبثه بها أياما خلافا للمعتاد. فلما قفل راجعا عادت الإشاعة إلى نصابها وكثر تخلف الناس بها حتى لقد قالوا أن الإنجليز يريدون بخلع محمود باشا النكاية بأبيه وإحراج مرزة[٢٥٧] حتى يضطر هو إلى لبتخلى[٢٥٨] صاغرا عن منصب السياسة أيضا. وقال الإنجليز أن خلع محمود ناجم عن كثير من الشوائن التى لا يليق التصاقها بأصحاب المناصب وأهل الخطط، والمعائب التى لا يأتيها إلا صغار النفوس، وأن لاعلاقة قط بخلعه[٢٥٩] وإقصاء أبيه عن الرئاسة. فهب بعض أصحاب الصحف المحلية إلى الدفاع عنه ورموا جماعة الإنجليز عموما ولورد كرومر خصوصا بسوء النية والعمل على الوقيعة بسائر أصحاب المناصب العالية الذين يبغضون الخنوع والإستكانة إلى السياسة الإنجليزية. وقال صاحب جريدة البوسفور الافرنسية (أما آن للانجليز أن يقلعوا عن رذيلة التجسس وكشف عورات الناس فى هذه الديار الهادئة المطمئنة، وأن يكفوا عن رمى أصحاب

(٢٥٤) لا مثاله = لأمثاله .
(٢٥٥) تنقض = تكد تنقضى أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٢٥٦) طود الجيدة = طود البحيرة .
- راجع ص ٢١٩ .
(٢٥٧) مرزه = مركزه .
(٢٥٨) لبتحلى = التخلى .
(٢٥٩) بخلعه = بين خلعه .

المناصب العـاليـة بمـا هم براء منه) . يقـول صـاحب جريدة الفـلاح أن البـاب العالى حار فى أمر أولئك الزعانف الذين اتخذهم لورد كرومر عيونا على إخوانهم المصريين تعظيما للفتنة وإيقاظا لها . فحذر صاحب التيمس الإنجليزية من التورط فى هذه الحكاية وخوفه من سوء العاقبة ، فكأنه انكمش وثاب عن[٢٦٠] رشده . وكلنا يعلم أن جماعة الإنجليز عافاهم الله قد أحاطوا بعض أصحاب الصحف المحلية وأصحاب المناصب العالية بنطاق من البوليس السرى ، وأن هؤلاء النفر جعلوا يتاجرون بنفوذهم بل بنميمتهم تجارة رابحة ، وأن عدد هؤلاء اللئام الخائنين لبلادهم يزداد يوما عن يوم ، وأنهم يستفيدون من الضعفاء أهل الدناءة ويربحون المال بمدح البعض وذم البعض ويعظمون عملهم هذا فى أعين الإنجليز إلى درجة توجب الخوف والإنتباه[٢٦١] .

ونعلم أيضا وأهل السماء والأرض يعلمون أن هؤلاء النفر الأدنياء يعملون من وراء الستار حتى لم يعد فى العلايق أدن [٢٦٢] أمان لا من جهة أمير البلاد ولا من جهة وزرائه ورجال دولته ، ولا[٢٦٣] ولا حتى ولا[٢٦٤] مواجهة الفلاح

---

(٢٦٠) عن = إلى

(٢٦١) فى أعقاب تولى (مصطفى رياض باشا) نظارته الثالثة (١٩يناير١٨٩٣- ١٥ابريل ١٨٩٤) قام بتعيين نجله (محمود باشا) وكيلا لنظارة الداخلية فى ١١ مارس ١٨٩٣ بدلا من أحمد شكرى باشا وكيل الداخليه المشهور عنه التساهل مع الانجليز . وفى أعقاب حادثة الحدود (يناير ١٨٩٤) أشيع أن الإنجليز يرغبون فى عزل (محمود رياض) واستبداله بآخر- وكان ذلك فى أبريل ١٨٩٤ وقبل استقالة رياض . وفى أعقاب استقالة رياض وتولى نوبار (١٥أبريل ١٨٩٤- ١٢نوفمبر١٨٩٥) تحققت الشائعة وقدم (محمود باشا) استقالته من وكالة الداخلية فقبلها (نوبار) ، وأعاد (أحمد شكرى باشا) الوكيل السابق والذى كان قد نقل محافظا لبورسعيد بدلا من ابن (رياض) .

- *ويعلق محمد فريد فى مذكراته فيقول أن مطلب الإنجليز عزل (محمود رياض) كان* (لإظهار نفوذهم وإذلال الحكومة تبعا لقولهم أن الحق بالقوة لا القوة للحق) . ويعلق على إعادة تعيين (أحمد شكرى باشا) المنتمى للإنجليز مرة أخرى وكيلا للداخلية بأنه (دليل واضح على تغلب الإنجليز على إرادة الخديو وعدم إمكانه مقاومة الإنجليز وأن لاسبيل للحق أن يتغلب على القوة)

- مذكرات محمد فريد ـ القسم الاول ـ تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ص١٩٩-٢٠١

(٢٦٢) ادن = أدنى

(٢٦٣) ولاولا = ولا

(٢٦٤) ولا = فى

المسكين الذى يعمل فى مزرعته . فمن العبث أن نتعامى عن سواء[٢٦٥] مجرى الأحوال فى هذا البلد الأمين والشعب الوديع ، فإن أولئك القوم الإنجليز قد أفسدوه وضللوا بأهله ، فالعاقبة وخيمة ومن يعش ير أ .هـ .

قلت . وكان خلع محمود باشا رياض أصبح شغل الإنجليز الشاغل لهم عما سواه . فقد كانت أنديتهم الخصوصية ومجالسهم العموميه لاتخلو قط من حكايات السوء وحديث الجواسيس وماينقلونه عنه صدقا كان أو كذبا ، حتى لقد كان بعضهم ينقل خبر ذلك كله إلى الرئيس مظهرا الأسف على وقوعه كأنه حقيقة ثابتة لايختلف فى صحتها إثنان . يفعلون هذا وأشباهه نكايه بالرئيس وشماتته[٢٦٦] فى ولده ، ولايعلم سير[٢٦٧] هذا كله إلا هم الرئيس[٢٦٨] وولده وبعض المقربين اليهما . فما[٢٦٩] كان ليلة سابع شوال من السنة إحتفل فى دار محافظة البلد بمهرجان نقل كسوة المقام الخليلى[٢٧٠] من مقر تشغيلها ، فأدبوا لذلك مأدبة عظيمة حضرها بعض الأمراء والكبراء والعلماء ومشايخ الطرق . وأصبحوا وقد ركب الأمير فى موكب التشريفة الكبرى وسار إلى المضبطة[٢٧١] بميدان قلعة الجبل . فلما وصلها حتى أطلقت المدافع تباعا من

---

(٢٦٥) سواء = سوء

(٢٦٦) وشماتته = وشماتة

(٢٦٧) سير = سر

(٢٦٨) هم الرئيس = الرئيس حذفت الكلمة الأولى ليستقيم النص

(٢٦٩) فما كان = فلما كانت

(٢٧٠) المقام الخليلى = ويقصد بها الكعبة المشرفة - وكانت بالقلعة دار تسمى دار الكسوة يجرى صناعة الكسوة الشريفة بها حتى إذا انتهى من صناعتها نقلت فى احتفال كبير إلى مسجد الإمام الحسين فى حضور الحاكم وكبار رجال الحكم .

- *مذكرات محمد فريد ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٢٠٠*

(٢٧١) المضبطة = المصطبة ـ وكانت عملية نقل الكسوة الشريفة تتم وفق مراسيم محددة على الوجه الآتى :

أ- يتم تحميل قطع الكسوة على إبل فى ميدان قلعة الجبل(القلعة)

ب - يتجمع كبار رجال الدولة عند مكان يسمى (المصطبة) ـ هو مصطبة مرتفعة عن أرض الميدان يقف عليها الحاكم لمشاهدة مايسمى بدورة الكسوة

ج- يمر موكب الكسوة على الإبل أمام المصطبة فى ثلاث دورات حول الميدان وتطلق المدافع من القلعة ابتهاجا بالمناسبة الدينية الكريمة

د- بعد انتهاء الدورات تنثر القطع الفضية فوق رؤوس المشاهدين للإحتفال وتطلق المدافع =

القلعة وهتف له الجند بالدعاء ، وكان فى انتظاره سائر الوزراء وبعض الأمراء من آل البيت العلوى والعلماء ومشائخ الطرق وأصحاب العكاكيز . فجلس وعلى يمينه الغازى مختار باشا والأمراء ، وعلى يساره الرئيس مصطفى رياض باشا وبقية الوزراء برهة لطيفة ، فعزفت الموسيقى ، فدار الجمل بالكسوة الدورات الثلاث المعتاده فى كل طلعة ، فرسم الأمير فنثروا شيئا من الفضة على رؤوس الناس وأطلقت المدافع ثانية . فسار الجمل وأمامه كتائب الجند بين فرسان ومشاة فى عدتهم الكاملة إلى المشهد الحسينى فى طريقه المعتاد فى كل عام ، وانحدر الأمير فى موكبه الى قصر الإمارة . فما أن استقر به المقام حتى دخل عليه الرئيس وقدم اليه استقالته(٢٧٢) مع جميع الوزراء من مناصبهم ، فقبلها فخرج من حضرته ، وسير الأميرفى طلب لورد كرومر أو هو حضر دون طلبه ، ودخل على الأمير . وتفشى الخبر فى ذلك اليوم بإعطاء منصب الرياسة للوزير نوبار باشا وقد كان على عزم الرجل(٢٧٣) الى ديار الفرنجيه(٢٧٤) ، فعوقه الأمير وسير إليه بطرس باشا غالى وأحمد مظلوم باشا ومستشارى الحقانية والخزينة ، ثم لحقهم لورد كرومر ولبثوا معا طويلا والناس فى هرج وأصحاب الصحف ونقلة الأخبار يغدون ويروحون بين قصر الإمارة ودار الوزير نوبار باشا . وبقى الحال على ذلك ساعات معدودة كانت على جماعة الانجليز أطول من الشهور والأيام . فلما كانت الساعة الرابعة من ذلك اليوم أى فى يوم الأحد تاسع شوال من السنة وخامس عشر أبريل خرج نوبار باشا ومعه أحمد مظلوم

= من القلعة مرة أخرى .

هـ- يتخذ موكب الكسوة طريقه بعد ذلك الى المشهد الحسينى تتقدمه بعض كتائب المشاه والخيالة

و- يعود الحاكم الى مقره وينصرف حضور الحفل

- المصور - العدد ١٤٠٩ الجمعة ١٧نوفمبر ١٩٤٤

(٢٧٢) المقصود هنا هو استقالة مصطفى رياض باشا رئيس النظار فى ١٤أبريل ١٨٩٤ الموافق السبت ٨ شوال عام ١٣١١ .

(٢٧٣) الرجل = الرحيل

(٢٧٤) الفرنجية = الفرنجه

باشا وسارا إلى قصر الإمارة وعرض الوزير قبوله منصب الوزارة مع إسناد وزارة الداخليه إليه ايضا وتقليد بطرس باشا غالى منصب وزارة الخارجية وأحمد مظلوم باشا وزارة المالية وإبراهيم فواد باشا وزارة الحقانية وأحمد[٢٧٥] فخرى باشا وزارتى المعارف والأشغال ومصطفى فهمى باشا وزارة الحربية ، فوافق الأمير على تقليد سائر الوزراء إلا مصطفى فهمى باشا فإنه لم يقبل تعيينه فى ذلك المنصب ، فراجعه فى ذلك لورد كرومر فلم يقبل . فما هى الا ساعة أو بعض ساعة ختى جاءه[٢٧٦] الخبر على جناح البرق من صاحب السياسة الإنجليزية بأن جلالة ملكة بريطانيا العظمى وإمبراطورة الهند تأمل أن الأمير لا يمتنع من قبول تعيين مصطفى فهمى باشا لوزارة الحربيه ، فأجاب الأمير فى الحال طلبها ورسم بذلك . فاجتمع سائر الوزراء لساعتهم ودخلوا على الأمير بمفرده وقبلوا يده فهنأهم وحادثهم فيما هم فيه لحظة ثم انصرفوا من حضرته . وأقبل كل وزير على ديوانه وقابل موظفيه والمهنئين ، وزار سائر القناصل والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط الوزير الكبير نوبار باشا . وفرح الناس بهذه الهيئة الجديدة . وجاءت على ديوان الإمارة رسائل التهانى نزلى[٢٧٧] من مشرق البلاد ومغربها ، وهتف أصحاب الصحف على اختلافها هتاف الفرح ورحبوا بجماعة الوزراء وامتدحوا حزم الأمير وقوة عارضته وتقالوا[٢٧٨] بالخير للبلاد فى مستقبل الأيام . وأصبح مصطفى رياض باشا وقد انزوى فى مزرعته (بطود البحيرة)وانقضت أيامه وكأنها لم تكن ، فسبحان من لايزول ملكه ولايفنى سلطانه ، سبحانه من عزيز مقتدر جل شأنه .

---

(٢٧٥) أحمد فخرى باشا = حسين فخرى باشا صاحب أزمة الوزارة الفهمية فى يناير ١٨٩٣ والذى عينه الخديو عباس بدلا عن مصطفى باشا فهمي المتعاون مع الانجليز .
انظر حاشية ٤ ـ ص ١٦٣ .
(٢٧٦) جاءه = جاء .
(٢٧٧) ترلى = تترى .
(٢٧٨) وتفألوا = وتفاءلوا .

ورسم الأمير بقيام ركبه إلى مدينة الاسكندرية ليصيف بها على عادته فى كل عام ، فتأهبوا لذلك . فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شوال من السنة ، أى سنة عشر وثلثمائة[٢٧٩] وألف ، ركب الامير قطاره الخاص وفى ركابه الوزير نوبار باشا ولفيف الوزراء وبعض الأمراء من آل البيت العلوى قاصدا الإسكندرية فوافاها فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة عشرين صباحا . وكانت محطة الاسكندرية مزينة بالرايات والرياحين ومفروش أرضها بأنواع البسط والمطافس[٢٨٠] وهى غاصة بجماهير الملاقين من الكبراء والأمراء وأصحاب المناصب العالية وعلية القوم والعلماء والرؤساء الروحيين ورجال المحاكم والنيابات والقواد ورجال الجند من البر والبحر وكبار جيش الاحتلال . فلما وصل القطار نزل الأمير وخلفه وزيره الكبير ولفيف الوزراء فحيا الجمع وصاحف[٢٨١] بعضهم ثم ركب عربته ، فاطلقت عند ذلك المدافع من القلاع والحصون تباعا وعزفت الموسيقى بنشيد الإمارة وهتف له الجند ثلاثا . فركب على يساره وزيره الأكبر وسارت به العربة وحوله طوائف الحرس ، فكان هتاف الناس له متتابعا متواصلا وهو يحييهم مع البشاشة والإبتسام . وسمعت بعض الفرنجيه[٢٨٢] فى شارع شريف يهللون ويلوحون بقبعاتهم ويصيحون ليحيى الأمير الجليل ، لتعش وزارته الجديدة ـ يسقط الخائنين ولم أدر من هم أولئك الخائنون الذين يعنونهم[٢٨٣] . وظل موكبه على ذلك حتى دخل قصر رأس التين ، فوردت على ديوانه كتب التهانى من كل فج عميق ووقف الشعراء على بابه وهنأه أحدهم ولعله صاحب الأهرام بقصيدة هى :

(٢٧٩) سنة عشر وثلثمائة وألف = سنة أحد عشر وثلثمائة وألف ١٣١١ هجرية
(٢٨٠) والمطافس = والطنافس
(٢٨١) وصاحف = وصافح
(٢٨٢) الافرنجيه = الفرنجه
(٢٨٣) الجملة كلها تلميح إلى أن (رياض باشا) كان مكروها حتى من الأجانب المقيمين بالبلاد ، والذين كانوا يعتبرونه هو وأعضاء نظارته خونة لتواطؤهم مع الاحتلال- كما أن فى الجملة دلالة عن مقت ميخائيل شاروبيم لرياض وأعضاء وزارته ، وميل نحو الخديو واستحسان لتصرفاته .

قد شرف الثغر السعيد بوفده … نعد قدومه من رفده[٢٨٤]
أحى البلاد بزورة مأنوسه … حى بها الإقبال كوكب سعده
هذا أمير المجد زار بروعنا[٢٨٥] … كرما فاكسبها السنا من مجده
كالظل قد جاد الأزهار فاغتدى … عطرا تضوع بشدة من ورده
يا طالما اشتاقت إليه منازل … قد كان يخفق قلبها من وهده
حتى أنى[٢٨٦] بزيارة كالغيث إذ … كانت مدفاعه[٢٨٧] بشائر رعده
بزيارة عن موعد أشهى لنا … من وفد حب دون سابق وعده
تاهت به الإسكندرية عزة … وغدا الزمان يجر ضافى برده
وبدا تحف به الألوف من الملا … حتى ك آن[٢٨٨] جميعهم من جنده
فى موكب فتن الفاطر حسنة[٢٨٩] … واعتز[٢٩٠] فاختالت كرائم جرده[٢٩١]
من كل من كسى الحديد فواده … وكسا اخضرار الآس وردة خده
أنداد حرب أحدقت أبصارهم … بعزيز قوم قد سما عن نده
مولى بلوغ رضاه غاية قصدهم … ومحبة الأوطان غاية قصدره[٢٩٢]
لا زال كلهم ينال مارده[٢٩٣] … بعظيم جدهم وسامى جده

إنتهى

(٢٨٤) نعد قدومه من رفده = سقط من شطرة البيت كلمة أفقدتها معناها
(٢٨٥) بروعنا = ربوعنا
(٢٨٦) أنى = أتى
(٢٨٧) مدفاعه = مدافعه
(٢٨٨) ك آن = كأن
(٢٨٩) حسنة = حسنه
(٢٩٠) واعتز = واغتر
(٢٩١) جرده = جوده
(٢٩٢) قصدره = قصده
(٢٩٣) مارده = مراده

وجـاء الخـبـر إلى ديوان الوزارة بأن خليفـة صـاحب المـهـدوية عـبـد الله التعايشي قد رسم إلى الأمير جامد[٢٩٤] إدريس أحد الدعاة الكبار أن يعيد كرة الهجوم على (أباد مرات) ، وأن كبار الجنود المصرية قد انحدروا إلى (كروسكو) لاتخاذ الأهبة والإستعداد للدفاع عن التخوم . وتفشى خبر ذلك بين الناس وتحدثوا به كثيرا وقلقوا من جرائه ، وتوالت الأخبار بمثل ذلك على بعض التجار وأصحاب المعاملات القديمة مع سكان وراء[٢٩٥] التخوم ، فكادت الإشاعة تتحقق بظهور الحركة في منازل الجنود بالعباسية وقصر النيل وتحت قلعة الجبل . ولم يشغل الناس عن ترداد ذكر تأهب الدراويش لإعادة الكرة على التخوم إلا مارسمه الأمير من تخفيف ضرائب الأطيان بمديرية أسيوط بتنزيل سبعين ألف وخمسمائة وإحدى عشر جنيهاً من أموالها في جملتها ضريبة الترعة الإبراهيمية ، وبتخفيض ثلاثين ألف وخمسمائة ثمانية وتسعين جنيها من ضرائب مديريات بني سويف والمنيا والفيوم ، يخص مديرية بني سويف منها خمسة آلاف ومائة وستة عشر جنيها ، ومديرية المنيا ثلاثة وعشرين ألفا وتسعمائة أربعة وسبعين جنيها ، وإلغاء ضريبة ري الترعه الإبراهيمية في مديرية الفيوم وقدرها ألف جنيه وخمسمائة جنيها ، وذلك كله من أول سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف ، ففرحوا[٢٩٦] الناس بذلك فرحا عظيما وتقالوا[٢٩٧] خيرا بالوزارة الجديدة . وورد على ديوان الوزير رسائل الشكر والثناء من مشرق البلاد ومغربها لاسيما أهالي المديريات الأربع التي أصابتها هذه العناية العظيمة في عهد رئاسة الوزير نوبار باشا الكبير ، وانطلقت الألسنة بالدعاء إليه في السر والعلا[٢٩٨] ، فتضاعفت غايته[٢٩٩] بشؤون أهالي البلاد وكبر اهمامه[٣٠٠] براحتهم

(٢٩٤) جامد = حامد
(٢٩٥) وراء = ماوراء
(٢٩٦) ففرحوا = ففرح
(٢٩٧) وتقالوا = وتفاءلوا
(٢٩٨) والعلا = والعلن
(٢٩٩) غايته = عنايته
(٣٠٠) اهمامه = اهتمامه

بتأمين السبل وقطع شأفة أصحاب اللصوصية الذين انبثوا فى مشرق البلاد ومغربها حتى أقلقوا راحة الخلق وأخافوهم خوفا عظيما . وتضاعت[٣٠١] أيضا عناية جماعة الإنجليز بالسهر على الأمن ومواخذة كل من لم ينالوا منه من أصحاب المناصب على عهدرئاسة مصطفى رياض باشا . وعادوا إلى الضرب على يد ولده محمود باشا ورميه بتعضيد أولئك النفر واتخاذهم صنائع لغاية غير محمودة . وجعل «ستل باشا»[٣٠٢] رئيس مفتشى وزارة الداخلية يجمع التهم الشائنة ضد محمود باشا من هنا ومن هناك وكلها مذرية[٣٠٣] معيبة ، ويرفعها تباعا إلى الوزير نوبار باشا . يقال فكان الوزير كثير الإغضاء بعيد التسرع فى المواخذة عظيم الاهتمام بكرامة محمود باشا ، يود إخراجه من ذلك المأزق رافع الرأس على غير ما يحبونه جماعة الإنجليز . فكان كلما بدت منه هذه العناية وذلك الإشفاق كبرت عناية ستل باشا ورفاقه بكشف عورات محمود باشا واشتد بغضهم إليه ، وبالغوا فى إثبات تلك التهم المعيبة عليه . يقال

---

(٣٠١) وتضاعت = وتضاعفت

(٣٠٢) ستل باشا = بوفاة الجنرال فالنتين بيكر باشا قومندان عموم الجندرمة والبوليس فى ١٨٨٧/١١/١٧ ، تولى الجنرال شارل بيكر باشا قيادة جهاز البوليس تحت مسمى رئيس قلم الضبط والربط العموميين ـ وعندما احيل إلى المعاش فى ١٨٩١/٧/١ تولى اللواء كتشنر باشا رآسة الجهاز تحت مسمى مفتش عموم البوليس الى جانب عمله كأدجوتانت جنرال الجيش المصرى . وبتعيين الأخير سردارا اللجيش المصرى ورئيسا لأركان الحرب برتبة الفريق فى ١٨٩٢/٤/١٣ عين اللواء ستل باشا السرفيور جنرال وكوارتر ماستر جنرال الجيش المصرى فى وظيفة مفتش عموم البوليس إعتبارامن ١٨٩٢/٤/١٥ . فى ١٨٩٤/١١/٣ وفى ظل نظارةنوبار (١٥أبريل ١٨٩٤- ١٢نوفمبر١٨٩٥) تم إلغاء نظام البوليس المعمول به فى ذلك الوقت وألغيت معه وظيفة مفتش عموم البوليس ، وتم إدخال نظام مستشار نظارة الداخلية بهذه النظارة لأول مرة وأصبح مستر الدون جورست مستشار نظارة الداخلية ، وفقد بالتالى (ستل باشا) وظيفته ـ وفي ١٨٩٤/١١/٧ أنعم عباس عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى .

- روبرت تيجنور (Robert'l Tignor (Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882- 1914 . op cit., p., 161

- عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥-١٩٢٢) مرجع سبق ذكره ص ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩

- الوقائع المصرية - ١١أبريل ١٨٩٢ ، ٢٣أبريل ١٨٩٢ ، ٧نوفمبر١٨٩٤

(٣٠٣) مذرية = مزرية

حتى لقد جمعوا شيئا كثيرا من المحررات الخصوصية التى كانت ترسل منه تباعا إلى أولئك النفر أصحاب الوظائف بالمديريات القبلية والبحرية ، ثم سيروا إليه «جونسن»[٣٠٤] باشا من مفتشى وزارة الداخلية الإنجليز يتهدده بالويل والثبور وعظائم الأمور أن هو لم يعجل بتنزيل نفسه من منصب الوكالة ويتوعده بسوء المصير . قالوا فخشى محمود باشا العاقبة وكتب إلى الوزير يطلب إقالته من منصبه فأقاله لساعته . وشاع خبر ذلك بين الناس فعدوه حسنة من حسنات الإنجليز ، ولا أعلم لذلك من سبب . قالوا لكره الناس لكبريائه واستنكارهم لغلظته وإقباله على أهل السعاية وكشاف العورات ، وأنه كتن[٣٠٥] اشد عيون أبيه وتامعهم[٣٠٦] لحاجات أصحاب الحاجات . وماعتموا أن طلبوا أحمد شكرى باشا الذى كان وكيلا للداخلية وخلعه رياض باشا عنها ، وقد مر بك كيف كان خلعه وكيف دخل عليه محمود باشا فى ذلك اليوم وأخرجه من كرسيه صاغرا على غد[٣٠٧] منه بسابقة خلعه . فحضر أحمد باشا من فوره ، فقابله جماعة الإنجليز أصحاب وزارة الداخلية بغاية التجالة[٣٠٨] والتكريم ورحبوا به كثيرا . يقال وأخذ أحدهم بذراعه ودخل به على محمود باشا فى مكتبه وقال بصوت المتهكم أو ماعلمت ياباشا أن شكرى باشا جاء اليوم ليستلم زمام منجبه[٣٠٩] الجديد فى هذه الوزارة ويملأ كريسك[٣١٠] هذا الذى

(٣٠٤) جونسون باشا = من أوائل ضباط البولس الإنجليز الذين قدموا إلى مصر فى أوائل عهد الإحتلال - ظل يخدم فى جهاز البوليس حتى ١٨٩٤ عندما تغير نظام الجهاز إلى نظام إشراف مستشار الداخلية . كان وكيل قومندان عموم الجندرمة والبوليس فى يونيو ١٨٨٥ وأنعم عليه (توفيق) برتبة (ميرلوا) . فى عام ١٨٨٧ كان وكيل تفتيش عموم البوليس ، وفى مايو ١٨٩٢ كان يشغل منصب نائب مفتش عموم البوليس وكان فى رتبة اللواء .

- الوقائع المصرية ١٠يونيو١٨٨٥ ، ١٤مارس ١٨٨٧ ، ٢٨مايو١٨٩٢ .

(٣٠٥) كتن = كان

(٣٠٦) وتامعهم = كشفا قراءة ترجيحية

(٣٠٧) غد = جهل قراءة ترجيحية

(٣٠٨) التجالة = التجلة

(٣٠٩) منجبه = منصبه

(٣١٠) كريسك = كرسيك

أشغلته أيامامن الدهر؟ فقال علمت ذلك الآن . قال إذا[٣١١] له مكانه ليستريح . قبل[٣١٢] فقام محمود باشا لساعته وخرج وهو شديد الخجل . قلت سألت غير واحد من أصحاب المناصب بوزارة الداخلية عن صحة هذه الراوية لأنها ليست من الكياسة في شئ فكانوا مختلفين فى التفصيل متفقين فى المعنى ، حتى لقد قال لى أحدهم أنسيت مافعله إبن الرئيس بشكرى باشا يوم خلعوه من مسند الوكالة ، وكيف دخل عليه يومئذ مصفر[٣١٣] له محقر على مسمع من الصغير والكبير؟ فوالله واحدة بواحدة والجزاء من جنس العمل - فتأمل - . فلما تم لجماعة الإنجليز ما أرادوا من خلع محمود باشا ، من[٣١٤] بعض صنائع أبيه ترددا على داره بالحلمية وإقبالا على مجالسه الليليه ، فبثوا حوله العيون والارضاء[٣١٥] أياما ، فأحس بذلك وأكبره جدا ورحل مع ولده عن القاهرة الى مزرعته (بطود البحيرة) . وأشاع بعض أصحاب الصحف المحازية[٣١٦] خبر عزمهما على الرحيل الى مدينة (تيرول) إحدى غمالات[٣١٧] النمسا . فقال الناس هى عادته عند خلعه من مناصب الدولة على النحو الذى تم فى هذه المره أيضا .

وتغير مجرى الأحوال فى سائر مناصب الدولة وخططها ، واستراح جماعة الحكام من المديرين والمحافظين ومأمورى المراكز والأقسام ، وعم الأمن مشرق البلاد ومغربها ، فأقبل أصحاب المزارع على زراعتهم هادئين مطمئنين ، وعادت المعاملات بينهم وبين أصحاب الأموال من الأجانب والنزلاء بعد اضطرابها أياما من الدهر . وظهرت على وجوه صنائع الرئيس وولده من جماعة

---

(٣١١) اذاله = إذن إترك له
(٣١٢) قبل = قيل
(٣١٣) مصفر = مصعر
(٣١٤) من = زاد — قراءة ترجيحية
(٣١٥) والارضاء = والأرصاد
(٣١٦) المحازيه = المحازبة
(٣١٧) غمالات = عمالات

الحكام دلائل الوحشة وعلامات الاضطراب ، وأوجسوا خيفة من عيون الإنجليز الذين أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم . وزالت عن الأمير غصته بزوال الدسائس التى أتعبته أياما كثيرة ، وسره إجتماع القلوب إليه ، فعقد العزم على زيارة عواصم أوروبا فى زى الإمارة وشاراتها ، وكلم وزيره الكبير فى ذلك فحببه إليه وأشار بقيام بطرس باشا غالى وزير الخارجية فى خدمة ركابه . فتحدث الناس بخبر هذه الزيارة وذهبوا فيه مذاهب شتى . وعندى أنها ليست من السياسه فى شئ ولكنها زيارة رسميه لأنها الأولى بعد ارتقائه عرش أجداده ، ومن حسن الكياسة التقائه بالملوك والأمراء الذين لقى منهم كل عناية ورعاية من مجاملات التهانى وهدايا النياشين الفاخرة وحضور سفنهم ورجال حربهم لتحيى قدومه وتهنئ بلاده وتبالغ فى تعظيمه بين الأمراء وأصحاب العروش ، لا أنه ذاهب يشكو حاله كما يتحدث الأفاكون أصحاب الغايات الساقطة . وقد سمعت بعض رجال ديوان الأمير يشكون من معارضة السلطان لرحلة الأمير وعدم رضاه عن إجتماعه بلموك[٣١٨]أوروبا . قالوا وهى عادة السلطان مع سائر الأمراء المصريين عند مايقصدون السفر إلى إحدى الديار الأوروبية لا لعلة ظاهرة أو سبب قوى ، ولكن تطيرا من توكيد ربط المحبة بينهم وبين متبوعه لاسيما فى هذه الأيام التى كثر فيها تحكك الدول بالسلطان .

ووافقت طلعة المحمل يوم تاسع عشر ذى القعدة من السنة ، فرسم الأمير لوزيره بعمل التشريف بتشييعه على النحو المعمول به فى كل عام . فحضر الوزير من الإسكندرية إلى القاهرة وصعد إلى ميدان القلعة حيث كانت الجماهير العظيمة مزدحمة وفى مقدمتها الوزراء والعلماء والوجهاء ، فقوبل الوزير بالنشيد الأميرى وإطلاق المدافع . وبعد أن جلس بالمسطبه[٣١٩] لحظة لطيفة

---

(٣١٨) بلموك = بملوك

(٣١٩) المسطبة = المصطبة - وعن المصطبة فى الاحتفال بالانتهاء من صنع الكسوة الشريفة وطلعة المحمل راجع الحاشية ٢٧١ ص ٣١٧ .

طاف الجمل بكسوة التشريف ثلاثا فى الميدان بالتهليل والتكبير المعتاد . وعند انتهاء الدورة الثالثة خطب الشيخ السنباطى خطبة تناسب المقام ثم ألقى خطام الجمل الى الوزير فسلمه[٣٢٠] قاضى قضاة مصر فسلمه إلى السيد البكرى شيخ السجاده البكرية[٣٢١] إلى أن مر بايدى جميع النظار والعلماء وهم يقبلونه .

---

(٣٢٠) فسلمه = فسلمه الى

(٣٢١) السجادة البكرية = يقصد بالسجادة فى هذا المقام (الطريقة) التى تتميز بها فرقة صوفية عن أخرى . والتصوف هو ممارسة حياة الزهد والعزلة عن الناس والإنقطاع للعبادة . وقد عرفت مصر التصوف منذ أزمنه قديمة ، فمنذ عهد الخليفة المتوكل العباسى ظهر (ذو النون المصرى) من أهل أخميم كمتصوف- واشتد انتشار التصوف فى العصر الفاطمى ، كذلك انتشر التصوف فى العصر الأيوبى . وفى العصر المملوكى ازدادتيار التصوف اتساعا وقوة ووفد على مصر فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كثير من المتصوفة أمثال أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى . ومع تزايد عدد مشايخ الصوفية ظهرت لهم (فرق) لكل منها شيخها وشعارها وطريقتها الخاصة .

وفى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين تزعم (السادة البكرية) و (السادة الوفائية) أكبر تجمعين صوفيين فى مصر- وكان كل رئيس فرقة صوفية (طريقة) يسمى (شيخ السجادة) . وإلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه كان السادة البكرية ينتسبون- وكان السادة الوفائية ينتسبون إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . وإلى جانب هاتين السجادتين كان هناك السادة العمرية وينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والسادة الخضرية الذين كانوا ينتسبون إلى الزبير بن العوام رضى الله عنه. وإلى جانب هذه السجاجيد الأربع الكبرى كانت هناك الطرق الأحمدية والبرهامية والشاذلية .

وقد تمتع أرباب السجاجيد بمراكز عالية واحترام كبير نظرا لمكانتهم الدينية وأنسابهم التى أشرنا إليها ، وكان النظام الحاكم فى مصر العثمانية يرتب لهم ترتيبا كبيرا ، وكانوا يتولون إلتزام الأراضى الزراعية والمقاطعات الحضرية ، كما كانوا يحضرون اجتماعات (الديوان) و (الجمعيات) التى كانت تعقد لحل المشاكل السياسية والخاصة بالحكم فى مصر بحكم مراكزهم الدينية . وقد تنازع (بيت السادات الوفائية) مع (السادات البكرية) على منصب (نقيب الأشراف) فى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وبرز إسم الشيخ (محمد أبى الأنوار السادات) كزعيم أو نقيب للأشراف خلال أوائل القرن التاسع عشر ، لكن (السادات البكرية) استردوا رآستهم للأشراف فى مصر بعد ذلك . ولقد كانت الأحوال المالية لمشايخ السجاجيد الصوفية فى مصر ترفعهم إلى مصاف أعيان البلادوتقف بهم على قدم المساواة مع أغنى امراء (بكوات) المماليك . فقد كان الشيخ السادات (يتنظر) فى أواخر القرن الثامن عشر على ٥٢وقفا- (والبكرى) على ٤٤ وقفا- والمهدى على ١١وقفا- وكذلك كان الشيخ الأمير . وكان الشيخ السادات يتقاضى من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين ١٤٨٦٣٥ (بارة) سنويا ، كما كان يتقاضى من الخزانة المصرية راتبا قدره ١٠٢٠ (عثامنة) وهو راتب يمنح كجراية أو علوفة - و١٢٠ جراية قمح سنويا (الجراية الواحدة١٢٠أردب) . كما كان يحصل على نصيب من ضريبه الجوالى (التى كانت تفرض على أهل الذمة فى مصر) .

- الهيئة العامة للإستعلامات (الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها - تاريخ وآثار مصر الإسلامية ـ بدون تاريخ ـ ص٨٢٨-٨٢٩ .

- عبد الله عزباوى (الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر) رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لجامعة عين شمس- ١٩٧٦ .

فريد دى يونج: F de Jong (Turuq and Turuq Linked Institutions in 19th Century Egypt. Lieden: E.J.Brill. 1978 - pp.,9 -14 .

- محمد توفيق البكرى (بيت الصديق) القاهرة ـ ١٣٢٣هـ ـ

ثم سلموا الخطام إلى أمير الحج فسار به تتقدمه الجند وأرباب الطرق وأصحاب الأشاير والعكاكيز والجماهير الكثيرة إلى ميدان العباسية ، وقد رصفت فيه الخيام والسرادقات ترصيفا . فلبثوا ثلاثة أيام ثم شدوا رحالهم وساروا خلف المحمل فى طريقه المعتاد إلى الأقطار الحجازية . ولم أسمع فى ذلك اليوم من العامة قبل الطبقة العليا إلا الدعاء للأمير والتهليل للوزير وترديد آيات الثناء عليه والأعجاب بآدابه وشمائله وكأنهم لم يروه إلا فى ذلك اليوم وهو بين ظهرانينا من عهد محمد على الكبير إلى يومنا الذى نحن فيه ، فكان ذلك دليلا على مكانة الرجل عندهم وإجتماع قلوبهم على محبته أن لم(٣٢١ مكرر) تكن آيات التفريق بين العنصرين الأقباط المسلمين(٣٢٢) والأقباط المسيحيين قد تسربت إلى رؤوس العامة ولا أحلها كبار القوم محلا محمودا . قلنا أن الأمير عقد النية على السفر إلى ديار أوروبا لزيارة الملوك والأمراء الذين جاملوه بإرسال رسائل التهانى والتبريك يوم ارتقائه عرش أجداده ، وأنى سمعت بعض رجال ديوان الأمير يشكون من عدم رضاء السلطان عن هذه الرحلة الأدبية . فما هى إلا أيام حتى جاء السؤال من صدر الدولة إلى ديوان الأمير على جناح البرق عن

(٣٢١مكرر) أن لم = إذ لم قراءة إجتهادية .

(٣٢٢) الأقباط المسلمين = المسلمين - وميخائيل شاروبيم لايخفى إعجابه (بنوبارباشا) رئيس النظار وبنظارته ، وبعهده الذى لم يكن قد بدأ بعد - وذلك بالمقارنة بسخطه بعهد (مصطفى رياض) السابق على نوبار ، وهو مايحسب على موضوعيته كمؤرخ . فنوبار هو آخر من يمكن الثناء عليه كرئيس للنظار ، فقد كان الرجل الوحيد الذى قبل (النصيحة البريطانية) لإخلاء السودان عام ١٨٨٤ بعد أن رفض (شريف) ذلك ، وكان هو الرجل الوحيد الذى قبل التعاون مع إنجلترا - ورغم صراعه مع الإنجليز (١٠يناير١٨٨٤ - ٩يونيو١٨٨٨) على مسألة (علاقة مديرى المديريات بقوات الشرطة فى مديرياتهم) وانتصاره على مستر (كليفورد لويد) مدير الإصلاحات بنظارة الداخلية عام ١٨٨٤ ، إلا أن منطلقه(نوبار) لم يكن (العداء الكامل) للوجود البريطانى ، فقد كان يرى ضرورة استمرار الوجود العسكرى البريطانى فى مصر . لقد كان (نوبار) و (رياض) من الأوغاد التاريخيون ، وليس هناك ثمة تمايز لأحدهما على الآخر .

- يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٧-١٢٢ .

- جاك كرابس جونيور (كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ـ دراسة فى التحول الوطنى)ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر - مرجع سبق ذكره ـ ص١٥٦ .

الحامل للأمير على هذا السفر . قال وجلالة السلطان أمير المؤمنين لا يرى الوقت مناسبا للسفر . قال وقد تكون هنالك محظورات سياسية ، وأن دار الخلافه مستعدة لضيافة الأمير على الرحب والسعة عندما يريد الحضور . فأرسل الأمير إلى الصدر الأعظم يقول . أن سفره زيارة بسيطة وهو غير سياسى ، ولا يكون معه أحد من الوزراء ، وقد قضى بهذا السفر الواجب الأدبى لما أتاه أولئك الملوك من المجاملة بعد توليته ، وقد عرفوا بخبر هذا السفر الذى كان قد عزم على عرضه على المابين ، وأنه عند عودته يعرج على دار السعادة ليقوم بواجب الإحترام لجلالة المتبوع الأعظم . قال وأما تلك المحظورات السياسية فيرجو بسطها ليعرفها ويبتعد عنها ما استطاع . ولبث الأمير ينتظر الجواب أياما كثرت فيها الأراجيف وتبادلت الصحف عبارات النقد لسياسة الإنجليز ونزهات[٣٢٣] لورد كرومر . وأكبر الناس امتناع السلطان من تسريح[٣٢٤] الأمير ، وقالوا هى دسيسة من جواسيس الإنجليز بدار السلطنة ، وضعفا وخنوعا من رجال المابين وخططه[٣٢٥] معيبة إتخذها السلطان وسيلة للتقرب من كل مملكة يريد مداراتها ودفع تحككها بسلطنته ، وليس أكثر من دولة الإنجليز تحكما وتلاطما بسلطنة آل عثمان فى أيام هذا الزمان .

وبينما الناس فى تفكير والأمير ووزرائه فى تدبير ، جاء الخبر من محافظ مدينة بورسعيد باعتصاب طائفة الفحامين وهم جملعة حمالى الفتح[٣٢٦] للسفن التى تجتاز القناة من بورسعيد الى القلزم صعدا ، ومن القلزم الى بورسعيد هبوطا . وتفشى خبر ذلك بين الناس فأقلق الأمير ورجال الدولة ، لأن هذا الهرج هو الأول من نوعه والقوم المعتصبون خليط من بلاد الأقاليم القبلية

(٣٢٣) ونزهات = وترهات
(٣٢٤) تسريح الأمير = التصريح للأمير بالسفر قراءة ترجيحية
(٣٢٥) وخططه = وخططا
(٣٢٦) الفتح = الفحم

ومزيج من زعانف الأجانب وحرافيش النزلاء . فسير الوزير نوبار باشا من يومه إلى محافظ البلد تستحثه[٣٢٧] على تدارك الأمر قبل استفحاله وينصح إليه بالتأنى وأخذ القوم بالحكمة والتساهل حتى يعود الأمن إلى نصابه . فما هى إلاعشية أو ضحاها حتى جاء الصائح يطلب المدد من أصحاب الشرطة ، فسيروا بطائفة منهم مدججين بالسلاح والذخيرة فى قطار مخصوص وعلى رأسهم ستل باشا الإنجليزى من رجال الضبط بوزارة الداخلية ، ففرقهم المحافظ فى أحياء البلد لحراستها من تعدى الأروام وزعانف الإيطاليان وغيرهم الذين عاثوا فى البلد وأخذوا يحضون الناس على الهرج والخروج عن الطاعة . وسير الوزير وفدا ممن يعتمد عليهم فى الملمات من أصحاب المناصب ليتبينوا أسباب ذلك الإعتصاب والدافع إلى الهرج . فظهر وبان أن مستعظم ناره من مستصغر شراره ، وأن حكاية أولئك القوم الفحامين هى[٣٢٨] لما تقلد ماهر باشا منصب محافظ بورسعيد كانت نار هذه الفتنه مخبوءة تحت رماد الإرهاب والتهديد ، ولم يكن القوم ليجسروا على الجهر بظلامتهم ولا الإستغاثة بأهل الحل والعقد . فلما أحس أصحاب الرأى فيهم اللين من جانب ماهر باشا وأنه أخذ بناصر الضعفاء رفعوا إليه شكواهم وبسطوا إليه بلواهم وقالوا أن رؤسائهم يأكلون أجورهم ويتحكمون فى رقابهم ويتصرفون بهم تصرف السيد فى عبيده . فاهتم ماهر باشا بأمرهم ونظم لهم نظاما يكفله[٣٢٩] سلامة معاشهم . وبعث بهذا النظام إلى الصحف فازاعن[٣٣٠] خبره ، وأطرت ماهر باشا وعمله . فلم يمض على هذا إلا أياما حتى هب منهم جماعة يطلبون تغيير منهاج أعمالهم وأن تسلم الى الحكومة أزمة أمورهم وفى يدها يكون صندوق أجورهم . ولما رأوا

---

(٣٢٧) تستحثه = يستحثه

(٣٢٨) هى = هى أنه أضيفت الكلمة الثانية ليستقيم النص

(٣٢٩) يكفله = يكفل

(٣٣٠) فازاعن = فأذاعت

تعللا فى الأمر وتسويفا أضربوا عن العمل وجعلوا يحتشدون حول دار المحافظ فى صبح كل يوم وينادون بأعلا أصواتهم (العدل ياافندينا انصرنا يا أفندينا على رؤسائنا الظالمين) . وظلوا على ذلك أياما تعطل فيها سسير[٣٣١] السفن والبواخر فى القناة من وإلى القلزم وأعوزها الحريق . واشتدت لازمة[٣٣٢] واهتم رؤساء شركات البواخر باستئجار الفعلة من العرب وفقراء الروم والإيطاليان وغيرهم لنقل الفحم الى سفنهم فلم يفلحوا ، ولم يكفوا لسد هذا العمل العظيم . وجاءت الرسائل على جناح البرق من الموانى الأوروبية بالبحث[٣٣٣] على سرعة الخروج من هذا المأزق الحرج ، وكلم قناصل الدول الوزير نوبار باشا فى ذلك ، واتهم جماعة الإنجليز محافظ البلد بتحريض القوم وتشجيعهم على الإعتصاب وتشديدهم فى طلباتهم ضد رؤسائهم ، وأخذت حينئذ الدسائس تنساب وتنغث[٣٣٤] سمها فى كل عرق نابض فى سكان بورسعيد ، وصارت الأراجيف تتوالى فى ذلك البلد وتترادف وتتضاعف . وجاء الأمر من لورد كرومر إلى أميرال الدارعة الإنجليزية الراسية فى ميناء البلد أن ينزل إلى البر جماعة من العسكر مدججين بالسلاح . وأشاع عيون الإنجليز أنه إذا لم يرجع الفحامون عن إضرابهم أطلق الجند عليهم نار بنادقهم . واقتربت الدارعة ودنت من الرصيف حتى التصقت به وحولت أفواه مدافعها نحو ديوان المحافظ . أخبرنى من كان فى بورسعيد يومئذ قال «ما رأى الناس اقتراب الدارعة من البلد وتوجيه مدافعها نحو دار المحافظة حتى اشتد بهم الخوف وجعلوا يترامحون إلى بيوتهم . وأغلق أصحاب الحنانيت[٣٣٥] حوانيتهم ، ونادى منادى أصحاب الإعتصاب (الصبر باولاد[٣٣٦] الصبر) .(السكون السكون) .(والله نصبر[٣٣٧]

(٣٣١) سسير = سير
(٣٣٢) لازمه = الأزمة
(٣٣٣) بالبحث = بالحث
(٣٣٤) وتنغث = وتنفث
(٣٣٥) الحنانيت = الحوانيت
(٣٣٦) باولاد = ياأولاد
(٣٣٧) نصبر = نصير

الضعفاء) . وكانت الجنود الذين على ظهر الدارعة يظهرون كل حركة كأنهم يتأهبون للقاء العدو ، وقد كسر(٣٣٨) صليل سلاحهم وبريق سيوفهم وعلا صوت بوقهم فكان يزيد فى اضطراب العامة وقلوبهم . وظل الحال على ذلك أياما معدودات .

وكلم لورد كرومر الوزير فى ذلك وبالغ فى الشكوى . يقال وأظهر استغرابه من وقوع هذا الحادث الخطير على عهد ماهر باشا ، فلم يحرك هذا كله للوزير ساكنا وسلك فى عمله مسلك الحزم والتأنى ، حتى برح الخفاء وعلم الناس طرا أن إضراب أولئك القوم عن العمل يعد(٣٣٩) أن بلغت فيهم الروح التراق ، وأوشكت أجسادهم أن تقارب المحاق ، وأن ذلك الجذب والدفع والإنقلاب والإضطراب القائم أمرا لا يؤاخذون عليه وهو إجرام من أولئك الروساء يعاقبون هم عليه . فرسم الوزير إلى جماعة الموكلين بسرعة العمل وتقرير قاعدة كافلة لدفع ظلامة القوم ، فاهتموا لذلك حتى أتوا على النتيجة الراضية والحكمة القاضية . وعاد القوم إلى عملهم فائزين ، فسارت البواخر تباعا بين القلزم وبورسعيد ، وعادت الجنود الإنجليزية إلى دارعتها ، واستراح الناس من ذلك الهرج وأمنوا شر العاقبة . وعاد جماعة الشرطة إلى القاهرة ، وبات هذا الحادث فى خبر كان . أقول وكان لما اقتربت الدارعة الإنجليزية من رصيف المينا والتصقت به طير الموكلون بالعمل من الفرنسيس فى القناة أن الإنجليز هم الذين أحدثوا ذلك الإعتصاب وأنهم يريدون به الإستيلاء على باب القناة على حين غفلة من مصر وسائر الدول . وتفشى خبر ذلك بين الناس . فما هى عشية أو ضحاها حتى دخلت المينا دارعة كبيرة من سفن الحرب الفرنسية وتملكت على باب القناة بعد أن حيت البلد بإطلاق مدافعها ووقفت للدارعة الإنجليزية بالمرصاد . وعلم ربان الدارعة الإنجليزية أن ربان الدارعة الفرنساوية

(٣٣٨) كسر = كثر

(٣٣٩) يعد = بعد

موكول اليه انزال مدفعا كبيرا من مدافعه إلى الرحبة التى أمام دار قنصل الفرنسيس إن لم يسترجع هو جنوده ومدافعه الذين كان أنزلهم إلى البلد ، فاسترجعهم جميعا وأرجع دارعته إلى حيث كانت فى مياه المينا . يقال وزار ربان الدارعة الفرنساوية ولبث عنده برهة لطيفة ، فرد له الربان الزيارة ثم عاد إلى دارعته . وجاءه الأمر من وزارة البحر بالبقاء فى مياه بورسعيد حتى تحل محلها دارعة أخرى . قالوا وقد تقرر فى وزارة البحر الفرنساوية أن وجود سفينة من سفن حربهم فى ميناء بورسعيد أمرا من الأهمية بمكان . فقد رأى الفرنسيس من الحوادث والعبر ما رأوا وتحققوا أن الانجليز لا يفتأون ينتحلون الأسباب والعلل التى يقوون بها نفوذهم وبسط يدهم على القنات(٣٤٠) وبابها ، وأنه صار من المحتم توازن هذا النفوذ فى ذلك المعبر المشهور ، وأن يظهروا للعالم أجمع أن إمتيازاتهم فى ديار الفراعنه لا تزال مرعية محترمة . فتأمل .

وما كادت تسكن الخواطر وتطمنت(٣٤١) القلوب بسكون فتنة جماعة الفحامين بمدينة بورسعيد(٣٤٢) حتى عادت إلى اضطرابها ، إذ ظهرت فتنة

---

(٣٤٠) القنات = القناة

(٣٤١) وتطمنت = وتطمئن

(٣٤٢) فتنة جماعة الفحامين بمدينة بورسعيد = يسجل عام ١٨٩٤ بداية ظهور الحركات العمالية العنيفة فى مصر . صحيح أن هؤلاء العمال كانوا من العناصر الأوروبيه ، لكن العمال المصريين وغيرهم تنبهوا إلى هذه الحركات وحاكوها بعد ذلك بقليل . ويعد حادث اعتصاب عمال نقل الفحم فى بورسعيد فى شهر مايو ١٨٩٤ ظاهرة جديرة بالتسجيل ، فهى مظهر لتأثر العمال القادمين من أوروبا بالأفكار الديمقراطية فى التعبير عن الرأى عن طريق الاحزاب والإمتناع عن العمل حتى يستجاب لمطالبهم . ويسجل محمد فريد فى مذكراته رأيه فى هذا الحدث باعتباره (داء أوروبى قد سرى لمصر) . غير أن هذا كان أول الغيث . فمنذ أغسطس ١٨٩٤ تواترت الأنباء بأحداث شغب قام به العمال الاجانب فى (شركة قناة السويس البحرية) وهو ماسمى فى ذلك الوقت (بإضراب شغالى الكراكات) وفقا للغة تقارير البوليس فى ذلك الوقت . بدء هذا الشغب فى منتصف أغسطس بامتناع العمال الإيطاليين والمالطيين عن العمل ، ثم انضم إليهم النمساويون حتى بلغ مجموع العمال المضربين خمسة وتسعون عاملا .

وفى التاسع والعشرين من سبتمبر تطور النزاع الى عنف سالت فيه الدماء عندما أطلق بعض العمال النار على (المسيوليماسون) أحد مديرى شركة القناة فأردوه قتيلا .

وفى مواجهة هذه الحركات خصصت الحكومة ضابطا إنجليزيا من جهاز البوليس هو الميرالاى (عميد) مارتين فينيك Martin Fenuick كبير مفتشى البوليس المصرى لاتخاذ الإجراءات المناسبة لقمع الشغب . وقام فينيك بحصر العمال المعتصبين فى كنيسة بالإسماعيلية حيث=

تلاميـذ مـدرسـة الطب وبدى[٣٤٣] إعـتـصـابهم وخـروجـهم على أسـاتذتهم . وحكايتهم أن أساتذة تلك المدرسة قرروا الإمتحان[٣٤٤] التلاميذ يوما معينا ، فخالفهم بعض التلاميذ فى ذلك وطلبوا تحديد يوما آخرا ، فلم يجبهم الأساتذة إلى ذلك ، فجعل إثنين منهم وهما (محـمـد عـبـد الوهاب) (وإبراهيم كـامل حـموده) يحضـان التـلامـذة على الهـرج ويدفعـان بهم إلى شق عـصـا الطاعـة والإمتناع من أداء الإمتحان العمومى بادعاء أنهم ليسوا مستعدين لأدائه . وطلبوا أن يكون الإمتحان فى أول السنة المقبلة المكتبية ، فجعل ناظر المدرسة ووكيله يفهمانهم أن القانون يسمح لكل ناجح فى الإمتحان العمومى على الكيفية المبينة فيه أن يعيد الإمتحان فى أول السنة المكتبية الجديدة فلم يزعنوا[٣٤٥] وأصروا على طلبهم ، وأظهروا الغلظة مع الأساتذة ، وتهوس (محمود عبد الوهاب) وخاشن ناظر المدرسة وأهانه ، وأوسع (إبراهيم كامل حموده) ضابط المدرسة سبا وتقريعا . قالوا وهذان التلميذان من أصحاب الأخلاق

= منع الطعام عنهم واتصل بسفينة حربية بريطانية تصادف وجودها فى الميناء لاستخدام بحارتها على البر فى حالة (حصول هيجان ومداركة الحال مع القومبانية) . وفى أوائل شهر أكتوبر جمع (فينيك) العمال المعتصبين وعرض عليهم السفر الى بلادهم بعائلاتهم مع منح كل منهم قيمة ماكان يكتسبه فى مدة شهر ونصف .

لكن عدوى الإضراب امتدت فى ١٨٩٤/١٠/٣ إلى السويس والإسماعيلية فانضم خمسون عاملا إلى المعتصبين ، وأوفدت نظارة الداخلية ١٢٥ جنديا من القاهرة واتخذ الجنود موقعا لهم هناك . وفى ١٨٩٤/١٠/١٥ إتسع نطاق الإعتصاب إلى مدينة القنطرة حيث توجه إليها ثمانية من المعتصبين لتحريض عمال الكراكات هناك بالامتناع عن العمل ، ولم تنته هذه القضية إلا بطرد العمال المعتصبين من البلاد فى ١٨٩٤/١٠/١٨ ..... غير أن عدوى الإضراب والإعتصاب كانت قد سرت فى نفوس (التجمعات) ، وسرعان ماظهر أثر ذلك فى الأحداث التى شهدتها البلاد بعد ذلك على ماسترويه الصفحات التالية من هذا المخطوط .

- دار الوثائق القومية- محفظة ١٠٥ داخلية افرنكى- تقرير محافظ عموم القنال ببيان الحوادث التى توقعت بين شغالى الكراكات وقومبانية القنال من أول أكتوبر سنة ١٨٩٤ لغاية ١٥منه- تقرير صادر من سعادة محافظ عموم القنال فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٤ فى مسألة (تعصب العملة فى كراكات قومبانية القنال) .

- مذكرات محمد فريد - القسم الاول- مرجع سبق ذكره ـ ص٢٠٤-٢١٧،٢٠٥ .

(٣٤٣) وبدى = وبدء

(٣٤٤) الإمتحان = إمتحان

(٣٤٥) يزعنوا = يذعنوا

السيئة ، وقد كان[٣٤٦] أقاما ضد تنفيذ قانون المدرسة عند بدء ظهوره ، فطلب ناظرها اقصاهما[٣٤٧] عنها فلم يتم له ذلك . فلما وقع منهما ماوقع فى هذه المرة أيضا ، وقد تحقق لأصحاب الحل والعقد تعذر إرجاع السكينة إلى نصابها مع بقاء هذين التلميذين فى مصاف التلاميذ ، وأنه عسير عليهما الإقلاع عن هذه الغلظة والرعونة ، قرروا إقصائهما بتاتا . قالوا وأما بقية التلامذة فحيث أن الامحتان[٣٤٨] العمومى لهم يعتبر إمتحانا عموميا ونهائيا فى آن واحد ، والمادة (٢٤) من قانون المدرسة تقضى أن من لم يتحصل على الدرجات المبينة فيها لمثل هذا الإمتحان وهى أن لايكون متوسطه العمومى أقل من إثنى عشر ولاتكون درجة[٣٤٩] فى أحد العلوم أقل من سبعة يعتبر مرفوضا من الإمتحان العمومى ويلزم باعادة دروس السنة ، فقد تقرر بأن من لم يمثل[٣٥٠] بالدخول فى الإمتحان العمومى فى تلك السنة يلزم بإعادة دروسه ، إذ أن إمتناعه عن الدخول يشعر بأنه ليس فى إمكانه الحصول على الدرجات المطلوبة . فما بلغ التلامذة خبر هذا القرار حتى هاجوا وماجوا ، واجتمعوا زمرا حول دار المدرسة يشاورون . وأعرض جماعة الأساتذة عن مكالمتهم وأغلقوا دونهم الأبواب . وقام أصحاب بعض الصحف يعظمون الحادث ويكبرون أخطاره ، وقال بعضهم أنه جمرة من أتون ثورة جماعة الفحامين[٣٥١] لاتلبث أن يعلو خطراتها وتشتد أدوارها ، وربما اتصلت ببقية المدارس الأخرى فتذرى مافى قلوب التلامذة من الطاعة السكينة إذراء الريح الهشيم . واشتد جماعة الانجليز على أولئك التلامذة شدتهم التى إعتادوها فى مثل هذه الأحوال وظل الحال على ذلك أياما تعب

(٣٤٦) وقد كان اقاما = وكانا قد قاما
(٣٤٧) أقصاهما = اقصائهما
(٣٤٨) الإمحتان = الإمتحان
(٣٤٩) درجة = درجته
(٣٥٠) يمثل = يمتثل
(٣٥١) راجع الحاشية ٣٤٢ص ٣٣٣ .

فيها الآباء وحزنت الأمهات وخشى الكل سوء العاقبة ، فلم ير التلاميذ بعد ذلك بدا من الإستكانة والعدول عن ذلك المهاج[٣٥٢] صاغرين . وانفصلوا عن (محمود عبد الوهاب) وشريكه ، فأعادوهم جميعا إلى دروسهم ، فسكنت خواطر الآباء وفرحت الأمهات ، وانكفت[٣٥٣] أصحاب الصحف عن الإرجاف . فكان هذا الإعتصاب الثانى من نوعه ، وأولهما إعتصاب جماعة الفحامين . أقول وقد كان أهل هذا البلد لايعرفون لهذا الإعتصاب إسما ولا للإضراب عن أعمالهم رسما ، فجاءتهم هذه العدوى القتالة من حيث لايعلمون ، وسرعان ما تمشت فى عروقهم فسممت أجسادهم وأطاشت أخلاقهم ودفعت بها إلى ذلك الهرج والخروج ، وولدت صدورهم الحقد والبغض والعناد والإستخفاف بالعظائم وارتكاب الجرايم واستسهال المحارم . فكان أولئك التلامذة كلما أنسوا من أنفسهم القدره على مشاغبة أساتذتهم من جماعة الإنجليز شاغبوهم وعاندوهم وسفهوهم وألقوا عليهم تبعة كل خصام ، فاشتد بغض الإنجليز لهم وكبر حقدهم عليهم واستصرخوا أصحاب صحفهم فقاموا ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور ، واتهموا جماعة الفرنسيس بأنهم سبب تفشى هذا الداء الوبيل بين جماعة الفحامين ، واتهم الفرنسيس جماعة الإنجليز بأنهم هم الذين أثاروا هذه الفتنة وهم النافخون فى مطرامها[٣٥٤] بما هم فاعلوه مع الناس من الغلظة والغطرشة[٣٥٥] . وظلوا على ذلك أياما ثم[٣٥٦] علينا فيها المثل العامى القائل (بين حانه ومانه تاهت لحانا) . ولاخفى إذا اشتد بين شقيقين الخصام واستعصى عليهما الرجوع إلى الوئام كبرت مصيبتهما وعظمت بلوتهما ، وتهالكا فى النكاية بعضهما ، واستحلا فى ذلك كل أنواع المحارم وأشنع

(٣٥٢) المهاج = الهياج
(٣٥٣) وانكفت = وانكف
(٣٥٤) مطرامها = ضرامها
(٣٥٥) والغطرشة = والغطرسة
(٣٥٦) ثم = حق قراءة ترجيحية

الجرائم ، وربما أصبحا أثرا بعد عين . هذا الخديوى إسماعيل كان قد بلغ من بغضه للأمير عبد الحليم(٣٥٧) باشا إبن محمد على باشا وحقده عليه مبلغا

---

(٣٥٧) الأمير عبد الحليم = راجع الحاشية ٣٠٦ ص ٢٤٥ . كان محمد عبد الحليم هو أصغر أبناء (محمد على) وكان هو والأمير مصطفى فاضل الأخ الغير شقيق لإسماعيل خليفتيه على عرش مصر . كان مسلك (إسماعيل) إزاء عمه عبد الحليم وديا فى البداية - فرعاه وعطف عليه ووثق به وأنابه عنه فى ولاية مصر حين رحل إلى الأستانه للمرة الأولى ، كما عينه وصيا على تركة سعيد باشا ، وملكه مساحات كبيرة من الأرض ، وعينه رئيسا لمجلس الأحكام . لكن قرب عبد الحليم من ولاية العرش جعلته عرضة للدسائس عند اسماعيل ، كما أن نزول السلطان عبد العزيز ضيفا عليه عندما زار مصر عام ١٨٦٣ وإقامته فى قصريه على ضفاف الترعه المحمودية بالإسكندرية وشبرا ، زاد من تعكير العلاقات بين إسماعيل وبينه . مع تعديل نظام وراثه العرش عام ١٨٦٦ بانتقال الخديوية من الأب الى الأبن الأكبر تحركت مشاعر الأمير مصطفى فاضل والأمير عبد الحليم ضد هذا التعديل الذى يقضى على آمالهما فى تولى مسند الخديوية ، فاحتج مصطفى فاضل فى باريس على فرمان الوراثه . ومن جانبه سعى إسماعيل إلى تجريد أخيه وعمه من ثروثهما العقارية فى مصر ليكون قضاؤه على مطامعهما فى العرش المصرى قضاءاً تاما . ونظرا لإسراف (عبد الحليم) وإغراق أملاكه فى الديون الناتجة عن القروض فإن إسماعيل نجح فى إقناعه بشراء أملاكه المرهونة مقابل مليون ومائتا ألف جنيه . ومع هذا فإن انعزال عبد الحليم فى قصره بشبرا بعد صدور فرمان تعديل الوراثة عام ١٨٦٦ لم يزل مخاوف اسماعيل منه فطالبه بمغادرة مصر ، ومع رفض عبد الحليم هذا المطلب فان إسماعيلا اتهمه بأنه أغرى شيخا برشوة على إصدار فتوى ضد قانون الوراثة ، وقام البوليس بدوره المعتاد فى تزويد الحاكم بالوثائق المزورة اللازمة . وفى سبتمبر ١٨٦٨ قبض على إنجليزى يدعى أوريللى بالشام بتهمة حيازته لرسائل من عبد الحليم توضح تفاصيل مؤامرة ترمى إلى قلب نظام الحكم فى مصر وخلع إسماعيل عن طريق ثورة مسلحة ، واستتبع هذا بالطبع أن يصطنع إسماعيل الثورة على عمه ويبلغ القناصل أنه لايستطيع السماح له بالبقاء فى مصر . وفى أكتوبر ١٨٦٨ إدعى البوليس المصرى إكتشاف مؤامرة دبرها عبد الحليم لاغتيال إبن اخيه اسماعيل . فنصب جواسيسه ومخبريه وعيونه حوله ، ثم أعلن بعد ذلك نجاحه فى القبض على المتآمرين ـ وفى النهاية أعلن إسماعيل اضطراره لإبعاد عمه عن القطر . فى عام ١٨٧٠ جرى إتفاق بين الأمير عبد الحليم وإسماعيل يقضى بأن يتناول الأول مبلغا قدره ٦٠٠٠٠ جنيه سنويا لمدة ٤٠ عام على أن يتنازل عن جميع اراضيه وامتيازاته وحقوقه فى عرش مصر ، وألا تطأ قدمه أرضها مطلقا . لكن هذا الإتفاق نقض فيما بعد عندما سيطر الأوروبيون على الإدارة المالية المصرية . إستخدمت الدولة العثمانية فيما بعد إسم الأمير عبد الحليم فى تهديد اسماعيل وخلفائه بالخلع وتعيينه بدلا منهم وتطبيق تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ .

- أحمد عبد الرحيم مصطفى (علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩) دار المعارف القاهرة ١٩٦٧- ص٥٨،٦٠،٦٩،٧١،١٢٢،١٢٧،١٥٠،٢٠٥ .

(الأمير سعيد) ولد الأمير عبد الحليم بنعى الأمير عبد الحليم ، نات[٣٥٩] بعد ظهر اليوم فجثيه[٣٦٠] بذات القلب . يقال فأسف الأمير عباس لموته جدا ، وكان لمنعاه أشد الوقع فى النفوس . وسير الأمير رسائل التعزية إلى دار السلطنه ، وأرسل إلى (الأمير سعيد) نفرا من الحاشية للتعزية ، وجلسوا للعزاء ثلاثة أيام كاملة . فزاره الأمراء جميعا والوزراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط والعلماء والرؤساء الروحانيين وأصحاب البوتات[٣٦١] العالية . وأتت إليه رسائل التعازى فى كل صوب . فلما انقضت أيام العزاء هم (الأمير سعيد) بالذهاب إلى دار السلطنة لاستحضار جثة أبيه لتدفن فى مدافن البيت العلوى بما تستحقه من الأبهة والتعظيم فلم يفلح ، وجاءه الخبر بأن السلطان لم يأذن بذلك البتة ، وأنه رسم بدفنها فى مقبرة مخصوصة . فازعن[٣٦٢] وسير إلى المابين يشكر للسلطان نعمته . ــ يقال كان هذا الأمير أميرا بمعنى الكلمة حليما متواضعا ميالا إلى الخير عفيفا أبى النفس لا يتطلع إلى ما بأيدى الناس ، عالما مولعا بالصيد والخروج إلى الغلوات[٣٦٣] ، يكره الحشم وكثرة الأتباع ، محبوبا موقرا عند الناس ، مات وله من العمر سبعين سنة وقيل ثمانين[٣٦٤] وقيل غير ذلك . فسبحان الحى الذى لايموت ، سبحان من له الملك والملكوت .

---

(٣٥٩) نات = مات ــ وكانت وفاة الأمير عبد الحليم فى الرابع من يونيو ١٨٩٤ الموافق السابع عشر ذى القعدة عام ١٣١١

(٣٦٠) فجثيه = فجأة

(٣٦١) البونات = البيوتات

(٣٦٢) فأزعن = فأذعن

(٣٦٣) الغلوات = الفلوات

(٣٦٤) لاتتفق رواية ميخائيل بك شاروبيم عن عمر الامير عبد الحليم عند وفاته مع الحقيقة التاريخية . إذ لو كان قدمات عن سبعين عاما لكان معنى ذلك أنه ولد عام ١٨٢٤ ، ولو كان قدمات عن ثمانين عاما لكان معنى ذلك أنه ولد عام ١٨١٤ ، والتاريخ الأول يتعارض مع حقيقة تولى اسماعيل السلطة عام ١٨٦٣ باعتباره أكبر افراد اسرة محمد على سنا وفقا لتسوية ١٨٤٠-١٨٤١ التى كان معمولا بها فى ذلك الوقت ، كذلك فان التاريخ الثانى يتعارض مع حقيقة تولى سعيد السلطة عام ١٨٥٤ باعتباره أكبر أفراد أسرة محمد على سنا فى ذلك الوقت . فإذا علمنا أن اسماعيل قد ولد فى ديسمبر ١٨٣٠ وسعيد فى عام ١٨٢٢ فان هذا يعنى أن عبد الحليم قد ولد بلاشك بعد مولد اسماعيل وإلا لكان تولى الحكم فى مصر قبله .=

وعاد الإرجاف بتأهب أصحاب المهدوية بالزحف على الحدود بعد عيد الأضحى ، وتكلم أصحـاب الصحف المـازيه[٣٦٥] للإنجليـز فى ذلك وعـدوه حقيقة ثابتة . ثم قالوا أن فى عزم رجال الحربية من جماعة الإنجليز إسترجاع الفرقة الخامسة المصرية الباقية فى «سواكن» واستبدالها بأخرى إنجليزية استعداداً لأمر هام جديد سيقررونه فى مستقبل الأيام . واختلف الناس فى ماهية هذا الحادث الجديد وذهبوا فيه مذاهب شتى . فمن قائل أنهم يتأهبون لضم سـواكن إلى أمـلاك طريق هندهم ، ومن قـايل أنهم يخـاشـون[٣٦٦] دولة الرنـنسـيس[٣٦٧] ويهـددونهـا بسلخ سـواكن عن مـصـر إذا هى لم تزعن[٣٦٨] إلى

=ويورد محمد فريد فى مذكراته مامفاده أن عبد الحليم قد ولد عام ١٨٢٩ بعد اسماعيل باشا بيوم واحد . وتكاد تجمع المصادر على أن ولادة إسماعيل كانت فى عام ١٨٣٠ وأن الذى ولد بعده بفترة وجيزة كان هو الأمير مصطفى فاضل أخيه غير الشقيق . وعلى ذلك فإن من المؤكد أن الأمير عبد الحليم ابن محمد على قد ولد بعد عام ١٨٣٠- وأن عمره عند وفاته فى الرابع من يونيو عام ١٨٩٤ كان ثلاثة وستون عاما تقريبا وليس كما ذكر شاروبيم . مذكرات محمد فريد - القسم الاول- مرجع سبق ذكره- ص٢٠٦ .

(٣٦٥) المازية = المحازبة

(٣٦٦) يخاشون = يخاشنون

(٣٦٧) الرننسيس = الفرنسيس

(٣٦٨) تزعن = تذعن- كانت بريطانيا قد ابتعدت كثيرا فى التسعينيات من القرن التاسع عشر عن موفقهاعام ١٨٨٥ . كان السودان فى التسعينيات قد أصبح هاما للغاية لها ، وكانت عازمة على استخدام خبراتها العسكرية وقوتها الدبلوماسية لتدعيم موقفها الجديد ، ويرجع التغير فى السياسة الخارجية البريطانية إلى عوامل كثيرة - لكن أهمها كان قرار بريطانيا أن لاتجلو عن مصر . لبعض الوقت بعد ١٨٨٧ كان من المعترف به ضمنيا أن بريطانيا ستبقى فى مصر لفتره ما لكن القرار لم يكن حاسما كنتيجة للفشل فى حلول بديلة .

عندما عاد لورد سالزبورى Salisbury الى السلطة فى عام ١٨٨٥ لم يكن لديه أى افكار نهائية عن الجلاء - كان الجلاء أمرا يمكن أن تقبله بريطانيا ، فقط إذا كانت الظروف مناسبة وكانت هناك ضمانات مناسبة محتملة فى المستقبل السياسى والأحوال الداخلية لمصر .

فى ١٨٨٧ حاول سالزبورى أن يعقد اتفاقا مع الأتراك . وفى مايو جرت مباحثات دروموند ـ وولف Drummond- Wolff والتى وافقت فيها بريطانيا على الجلاء عن مصر خلال ثلاث سنوات مع احتفاظها بحق التدخل بموافقة السلطان العثمانى إذا تعرض السلام الداخلى أو الأمن الخارجى لمصر للخطر . وكان المطلوب من بعض الدول الأوروبية أن تعترف وتضمن حرمة الأراضى المصرية وفقا لهذه الشروط . لكن تعطيل قناة السويس كان أكثر الإحتمالات وضوحا ، وهنا كانت مصالح أغلب الدول الاوروبية مرتبطة .

ومع هذا فان تركيا رفضت التصديق على الإتفاقية نتيجة للضغط الهائل الذى تعرضت له من قبل روسيا وفرنسا . إعترضت فرنسا على وجه الخصوص على شرط التدخل والقوة الواضحة التى ستتركها فى يد بريطانيا . وهكذا فإن مشروع الجلاء سقط . لقد أعاقت الدبلوماسية الفرنسية الجهود =

= البريطانية ولكن على حساب تأكيد وجود بريطانى مستمر فى مصر ، وهو النتيجة الوحيدة التى أرادت فرنسا ان تتجنبها . زاد تدمير العلاقات بين البلدين (بريطانيا وفرنسا) وتبودلت اتهامات النفاق بين لندن وباريس . لكن العدوانية الفرنسية فى حد ذاتها كانت كافية لأن تجعل أى وزير بريطانى مسئول يفكر بعمق قبل الموافقة على هجر مصر .

فى نفس العام (١٨٨٧) أصبحت بريطانيا ولأول مرة مرتبطة إرتباطا بسيطا بالتحالف الثلاثى الألمانى ، النمساوى ، الإيطالى عندما وقع سالزبورى أتفاقية بحر متوسطية مع إيطاليا والنمسا ، وتنبأ الكثيرون أن الخطوة التالية ستكون ارتباط بريطانيا الرسمى بالتحالف . أرادت إيطاليا على وجه الخصوص دعم بريطانيا ضد عدوان محتمل من جانب فرنسا لكن هذا المطلب رفض من جانب سالزبورى الذى كان لايزال يحمل بعض الآمال فى بعض التصالح مع فرنسا . لكن أى آمال فى التصالح مع فرنسا تحطمت عندما دمر التدخل الفرنسى اتفاقية دروموند- وولف ، والتقارب الفرنسى الروسى الذى أصبح واضحا خلال مباحثات القسطنطينية- كل هذا جلب كل احتمالات الإضطراب .

عامل آخر هام ظهر فى الساحة . مع عام ١٨٩٠ كانت المالية المصرية تحت إدارة (بارنج) المعتمد البريطانى قد بدءت تظهر تحسنا ملموسا .وكان الفضل فى ذلك إلى عمليات السيطرة على مياه النيل تحت الإشراف البريطانى ، وخاصة النيل الأبيض الذى كان يوفر ٣٧ مليون مترا مكعبا . وكانت أفكار الفرنسيين فى ذلك الوقت تهدف وفقا لأفكار الهيدرولوجى الفرنسى فيكتور برومبت Victor Prompt إلى بناء سد شمال نقطة التقاء النيل الأبيض والسوباط- أى فى منطقة فاشوده ، وكان هذا المشروع مدمرا لمصر سواء عن طريق حبس المياه كلها أو إطلاقها فجأة على شكل فيضان ماحق .

وهكذا فإنه فى بواكير التسعينيات كان خطر محاولة فرنسا إكراه بريطانيا على الخروج من مصر عن طريق السيطرة على منطقة فاشوده فى أعالى النيل الابيض قد أصبح واضحا إن لم يكن ملحا ، وبدأ موقف غريب يظهر . كانت الدولة المهدية فى السودان والتى اعتبرت عند الرأى العام البريطانى مثال للبربرية ، قد أصبحت عند سالزبورى متراسا قيما للوضع البريطانى فى مصر . ولم يكن عند المهديين أى خبرات للعبث بمياه النيل ، فإذا كانوا يحاربون معارك بريطانيا عن طريق ابعاد القوى الاوروبية فان هذا يكون حلا أفضل . لكن القوة المهدية فى هذا المقام لم تتجاوز عدة غارات تأديبية قليلة فى حوض النيل الأعلى . وفى كل المنطقة الممتدة من كوستى الى بحيرة ألبرت ومن المرتفعات الأثيوبية إلى الكونغو الأوسط لم تكن هناك أى قوة فعالة تحتوى الإندفاع الاوروبى . كانت بوجندا Buganda فقط ، إلى الشمال الغربى من بحيرة فكتوريا تمثل وحدة متماسكة وعلى وجه التحديد فإنه هنا توقف الإندفاع البريطانى من الجنوب الشرقى إلى النيل . واتحدت القبائل المعاديه والحواجز الطبيعية القوية ونقص التمويل جميعا لتهدئ وتوقف محاولة تعويق مشكلة النيل بإضافة المنطقة إلى ممتلكات بريطانية فى شرق أفريقيا .

إتفقت بريطانيا والمانيا بعد جلاء مصر عن مديرية خط الاستواء فى أوائل عام ١٨٨٩ على ملء الفراغ الناجم عن ذلك ، فأبرمت مع المانيا فى أول يوليو ١٨٩٠ معاهدة تضمنت إقرار المانيا للمركز الذى إدعته إنجلترا فى أعالى النيل فنصت على أن أفريقيا الشرقية البريطانية تمتد إلى حدود الكونغو البلجيكية ـ وتلا ذلك أن بسطت إنجلترا حمايتها على أوغندا واستولت عليها وعلى أونيورو فى عام ١٨٩٣ . وفى ١٢ مايو ١٨٩٤ عقدت مع بلجيكا معاهدة كان الهدف منها إبعاد فرنسا عن حوض النيل ـ وفى هذه المعاهدة حددت الحدود بين الكونغو البلجيكية والسودان وضم ليوبولد ملك البلجيكيين إقليم اللادو وبحر الغزال الى مستعمرته فى الكونغو .

وسنرى بعد ذلك أن الصراع الفرنسى- البريطانى لن يتوقف ، بل سيتطور ليتحول الى مواجهة عسكرية فى فاشوده عام ١٨٩٨ .

- Patricia Wright (Conflict On the Nile- The Foshoda Incident of 1898) - Heinemann : London , 1972- pp ,41-50

-C. J Lowe (Salisbury and the Mediterranean.1886-1896- Routledge and Kegan paul- London 1965-pp., 2,10,56-65,76,80

– عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ـ ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ـ ١٥٤ .

ـ انظر الخريطة ملحق رقم/١ ـ والخريطة ملحق رقم٢ .

تسليم الكونغو إلى دولة البلجيك لتكون عقبة فى طريق أملاك الفرنسيس الإفريقية ، ومن قائل غير ذلك كثير . فقابلت يومئذ عظيما من كبار الجند المصرى وسألته فى ذلك فقال (لا يبعد أن ساداتنا فاعلون ماتقول ولا سيما والجنود السودانية أخلص إليهم من جندهم وأطوعهم فى خدمتهم وأحفظهم لأسرارهم. وإنى لا أخطئ إذا قلت لك أنهم إن لم يكن لهم مقعد[٣٦٩] قريب فى الأمر فلهم مقصد بعيد لاينفكون عنه ، وقد تحققته منهم يوم كنت معهم فى خدمة الجيش . عرفت أنهم سيتقدمون إلى سواكن سائر[٣٧٠] العساكر السودانية فيبقون بها على قدم الرحيل أياما من الدهر ، فإذا تم لهم مايريدون من إمتلاك سواكن إسترجعوا أولئك السود إلى منازلهم وأحلوا محلهم جندهم الآتية من الهند أو جبل طارق ، وحينذاك لايبقى من داع إلى اللوم أو التشريب[٣٧١] . فلن[٣٧٢] لم يتدارك أصحاب الكلمة هذا الخطب قبل استفحاله ساءت العاقبة وتعذر الفلاح) . أ .هـ قلت وقد بدى[٣٧٣] فى هذه الأيام من إرجاف أصحاب الصحف الإنجليزية وانحنائها[٣٧٤] على أصحاب سياسة الفرنسيس باللائمة ، وتقريعهم بقارص الكلام واتهامهم باستنهاض السلطان إلى فتح أبواب المسألة المصرية ، والإحتجاج على تسليم الكنغو إلى ملك البلجيك ، ولاسيما وقد أهدى السلطان إلى المسيو كوكردان قنصل جنرال الفرنسيس ووكيلها السياسى بمصر الوسام المجيدى الأول ــ ما كاد يحقق عزمهم على إمتلاك سواكن وضمها إلى أملاك طريقهم بالبحر الأحمر ، حتى لقد قام لورد كرومر يومئذ وقعد وكلم الأمير فى معنى ذلك ، وحذره من عاقبة ترداد[٣٧٥] المسيو كوكردان على

---

(٣٦٩) مقعد = مقصد
(٣٧٠) سائر = بسائر
(٣٧١) التشريب = التثريب
(٣٧٢) فلن = فإن
(٣٧٣) بدى = بدا
(٣٧٤) وانحنائها = وأنحائها
(٣٧٥) ترداد= تردد

قصر الإمارة ، وخوفه من البقاء على هذا العداء البادى من وراء الستار . يقال وكلم المسيو كوكردان فى معنى ذلك أيضا فرأى منه سياسيا محنكا وقرما عنيدا بعيد الغور . فانقطع كرومر عن الذهاب إلى قصر الإمارة أياما ، فقال الناس فتنة وسوف تقطع بعد عيد الأضحى . فلما كان صبح يوم الخميس عاشر الحجة من السنة ، ورابع عشر يونية سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية ، وثامن بؤنة سنة عشر وستماية وألف للشهداء ، أطلقت المدافع من سائر قلاع الإسكندرية ومن قلعة الجبل بالقاهرة إيذانا بالعيد الأكبر عيد الأضحى وصعد الأمراء والكبراء والوزراء والعلماء والرؤساء الروحانيين وأهل المناصب وأصحاب الخطط بملابس التشريف الكبرى إلى قصر الإمارة برأس التين ، ودخلوا على الأمير وهنأنوه(٣٧٦) على الترتيب المعتاد . فرأيناه فى هذه المرة فرحا مسرورا كثير التلطف بالمهنأين حتى انسك(٣٧٧) بيدى عند ماقبلت يده وكلمنى متلطفا ، فقبلتها ثانية داعيا . وكان التشريف فى ذلك العيد حافلا للغاية مستكملا لكل أبهة وجلالة ، ودخول المهنائين(٣٧٨) متواصلا والناس مستبشرون بحسن المآب . وأتت إلى ديوانه رسائل التهانى من مشارق البلاد ومغاربها . ووقف الشعراء على بابه ، فكان الإحتفال فى هذا العيد آية فى الترتيب وحسن النظام بل قليل المثال .

قلنا فيما مر بك بيانه أن أصحاب السياسة الإنجليزية جعلوا يتهددون دولة الفرنسيس بضم سواكن إلى أملاك طريقهم بالبحر الأعظم(٣٧٩) ، وعزموا على إستبدال حاميتها بأخرى من عسكرهم حتى لايبقى من حجة ضدهم فى مستقبل الأيام . فاهتم أصحاب سياسة الفرنسيس لذلك إهتماما عظيما وقاموا

---

(٣٧٦) وهنأنوه = وهنأوه
(٣٧٧) انسك = أمسك
(٣٧٨) المهنائين = المهنئين
(٣٧٩) البحر الأعظم = البحر الأحمر

يطالبون الإنجليز بشدة بسرعة فض سائر أسباب الخلاف القائم بشان المسألة الأفريقية . ووقف المسيو هانوتو[٣٨٠] صاحب سياستهم فى دار ندوتهم يقول (إنا نطالب جيراننا الإنجليز بأمور خطيرة وننصح لهم بأن لايغفلوا أمر تجديد[٣٨١] التخوم الإنجليزية الفرنساوية فى جنوبى سييراليونه وشرقيها ، وتسويه حادث دارنيا وحادث الحدود الذى وقع على مقربة ملاكورا ، وتحديد تخوم الناحية الذهبية فى هنترلند ، وتسوية المسائل التى وقعت بين شركة النيجر والضابط ميزون ، وإرجاع السفائن والبضائع المحجوز عليها ، وتحديد منطقة النفوذ الفرنساوية والإنجليزى[٣٨٢] فى ساى وبروا ، وتسوية مسائل سوكوتو ، وأدامانا / وبورنو ، ومسألتى عهدة الكنغو وعهدة هرر اللتان قد اتخذها[٣٨٣] عصا لتهديدنا والتحكك فى الأملاك المصرية بسببهما ، وتجديد[٣٨٤] تعويضات أوغندا ، ولا لوم علينا إذا ماطلونا وأكثروا من التعليل والتطويل) . فاشتدت صحفهم فى طلب ذلك وبالغوا فى الشدة أياما قال الناس عساها تخفف من شدة لورد كرومر وتقلل من صيحاته التى ملأ بها قصر الإمارة فى هذه الأيام لإقبال الأمير على المسيو كوكردان وكيل فرنسا السياسى والركون إليه ، واستدعائه إلى قصره من حين إلى حين ، ولا سيما عند ما عزم على السفر إلى دار السلطنة بعد إذ جاءه الخبر من المابين برغبة أمير المومنين فى ضيافته . وقد كانت المخابرة قائمة على ساق[٣٨٥] بين المابين وديوان الامير فى شأن ذلك أياما حتى حصل التفاهم على الشئ الذى يتبع بالضيافة من الرسوم والإحتفالات التى تجب على التابع للمتبوع فى بلاط الملوك .

---

(٣٨٠) هانوتو = جابرييل هانوتو Hanotaux . Gabriel ـ سياسى فرنسى ومؤرخ وصحفى ـ ولد فى بوريفوار Beau revoir عام ١٨٥٣ـ عضو الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٩٧ ، ألف كتابا بعنوان Histoire du cardinal de Richelieu, de L'Histoire de La nation Francaise .

. Larousse Universel vol .I .op .cit p..1081

(٣٨١) تجديد = تحديد

(٣٨٢) الإنجليزى = الإنجليزية

(٣٨٣) اتخذها = إتخذا

(٣٨٤) وتجديد = وتحديد قراءة ترجيحية

(٣٨٥) ساق = قدم وساق

فلما كان مساء الجمعة ثانى عشر الحجة من السنة ، أى سنة عشرة[٣٨٦] وثلثمائة وألف ، وثانى عشرى يوليو عند الساعة السادسة أطلقت المدافع من البحر[٣٨٧] والبحر موزنة[٣٨٨] بتحرك يخته المحروسة[٣٨٩] الذى يقل الأمير إلى دار السلطنه . وكان جمهور المودعين مزدحما على رصيف البحر والدعاء إليه متواصلا وهو يحيى الناس من ظهر الباخرة تحية الوداع . أخبرنى صديق من ديوان الأمير بأن الأمير لاينوى التعجيل فى الوصول إلى دار السلطنة ، بل يمضى بعض الأيام متجولا فى جزاير الأرخبيل فلا يصل مقر السلطنه إلا فى الأيام الأولى من شهر محرم الحرام المقبل . قال ولعل ذلك مما وقع الإتفاق عليه مع المابين . قال ومن العجب أن هذه الرحلة لم تقر لجماعة الإنجليز عينا ، وهى أشد من وقع السهام على سياسة سفيرهم فى دار السلطنة ، فلقد طالما دس الدسائس وكاد للأمير المكائد ، وحال دون حصول التفاهم بين السلطان والأمير حتى يتمكن الأمير من المثول بين يدى متبوعه ، ولكم ما أقام أصحاب صحفهم وأقعدها لتقرب سفير الفرنسيس من باب السلطان عله يمنيه بالخبال فيتغير مجرى هاتيك الأحوال ويبلغ صاحب سياستهم مما[٣٩٠] يرجوه من وراء هذه السعايات المعيبة ، التى سببتها مخاوف لورد كرومر من إخفاقه فى مهمته مع الأمير ولا سيما بعد حادث التخوم وما كان من وراءه . فقلت وهلا يفكر الأمير فى الذهاب عامه هذا الى لوندره وباريز؟ فقال كيف يكون ذلك وقد جاءه مرسوم الخليفة متابع[٣٩١] متابع من الذهاب فإنه[٣٩٢] قد إتفق مع

---

(٣٨٦) عشرة = إحدى عشرة

(٣٨٧) البحر = البر

(٣٨٨) مؤزنه = مؤذنة

(٣٨٩) المحروسة = باخرة بنيت عام ١٨٦٥ لاستخدامات الخديو إسماعيل ، وركبها لأول مرة فى حفل افتتاح قناة السويس . طولها ١٥٠ مترا وعرضها ١٣مترا . تتألف من طابقين يحتويان على صالونات وغرف معيشة- تكلف بناؤها ٠٠٠و٢٥٠جنيه- وكانت عند بنائها مزودة بمدافع من البرونز وتدور بمجاذيف بخارية- عدلت هذه التركيبات فيما بعد وزودت برفاصات خلفية حديثة واستبدل وقود الفحم بالمازوت .
- المصور ـ الخميس ٢٩يوليو ١٩٣٧- مرجع سبق ذكره

(٣٩٠) مما = ما

(٣٩١) متابع متابع = مانع   قراءة ترجيحية

(٣٩٢) فانه = لأنه   قراءة ترجيحية

دولة الفرنسيس على فتح أبواب المسألة الأفريقية التى هى أم المسألة المصرية . وأنت تعلم كثيرة[٣٩٣] المواد المختلف عليها بين صاحبى السياسة الإفرنسية والسياسة الإنجليزية فى هذه القارة السوداء ، والله يعلم ماسيجره هذا الخلاف من الثبور وعظائم الأمور . وعندى أن هؤلاء القوم الإنجليز لايغلبون على أمرهم ولا ينكصون على أعقابهم ، فهم فى سياستهم لينون عند الشدة شديدون عند اللين ، يتحينون الفرص ويتبينون إيقاعها هذا لدركة[٣٩٤] صاحب دعوتهم فى ديار مصر فى هذا الزمان إذا أراد أمرا من شخص الأمير أو وزيره جاء يرعد ويزيد[٣٩٥] ويضرب الأرض برجله أو يكاد ويقول جانى[٣٩٦] الأمر من صاحب سياسة جلالة الملكة وإمبارطورة[٣٩٧] الهند بطلب كذا كذا ، وقد ضرب لذلك أجلا لايتجاوز الساعات المعدودات ، فإن مضى الأجل ولم يتم العمل وقع كذا كذا ، وأصاب البلد كذا وكذا ووقعت تبعة ذلك على هامة المقصرين . فإذا راعى[٣٩٨] منهما ثباتا فى القول أو إعراضا عن العمل عاد إلى اللين والتلطف ، وبدل من إرهاصاته وخفف غن[٣٩٩] غلوائه . ولذا قلت لك أن القوم غلابون بالصبر ، فايزون بالظفر ، متصرفون فى الأمر ، لا يرجعهم على[٤٠٠] عزمهم إلا مدبر الكائنات باسط الأرض ورافع السموات فتأمل . . وتولى الوزير نوبار باشا إمرة الغيبة وجعل يتصرف فى الأمور تصرف الحازم الأمين . وجاء الخبر من دار السلطنة بوصول ركب الامير إلى هناك ، فرسم السلطان لكل من (حسنى باشا) (ووهبى بك) من الياوران للقايه[٤٠١] عند جناقلة[٤٠٢] . فلما رست المحروسة إلى دار السلطنة إستقبل الأمير من قبل السلطان (محمد

---

(٣٩٣) كثيرة = كثرة
(٣٩٤) لدركة = لدرجة أن قراءة ترجيحية- أضيفت الكلمة الثانية ليستقيم النص
(٣٩٥) ويزيد = ويزبد
(٣٩٦) جانى = جاءنى
(٣٩٧) وامبارطورة = وإمبراطورة
(٣٩٨) راعى منهما = رأى منهم
(٣٩٩) غن = من
(٤٠٠) على = عن
(٤٠١) للقايه = للقائه
(٤٠٢) جنا قله = چناق قلعه Chanaq qalasi ـ الإسم المتعارف لقلعة ومدينة الدردنيل - ردهاوس Redhouse (كتاب معانى لهجه) مرجع سبق ذكره ـــ ص٧٣١

ولما كان سادس عشرى يونية من السنة ، ثانى عشرى الحجة سنة إحدى عشرة وثلثمائة وألف ، خفقت الأعلام المصرية منكسة فوق سائر الحصون ودوائر الحكومة وبيوت جميع قناصل الدول فى القاهرة والإسكندرية وجميع المدن الكبرى ، فخاف الناس خوفا عظيما وجعلوا يتسالون[٤٠٨] من موارد الأخبار وبيوت التجار عن سبب ذلك الحادث المريع . فبرح الخفاء وظهر أن أحد الفوضويين السفاكين الذين يستحلون قتل الملوك والسلاطين والأمراء وكل أهل الوجاهة وأصحاب المناصب العالية قال[٤٠٩] على المسيو سادى[٤١٠] كرنو رئيس الجمهورية الفرنساوية وهو فى ليون إحدى عمالات فرنسا فقتله . وبتحرير الخبر . لما إنتهت[٤١١] التى كان دعى إليها المسيو سادى كرنو عند زيارته لمعرض ليون فى الساعة التاسعة وعشرة دقائق ، خرج موكب المدعويين وتألف من جديد ليذهب إلى مرسح هناك ، حيث قد أعد تمثيل حافل إكراما للمسيو كرنو .فجلس كرنو فى عربته وتبعته العربات الأخرى تقل أهل المناصب وأصحاب الوظائف العالية والجموع مزدحمة على الجانبين تهلل للرئيس وهو يشكرهم بيده اليمنى ويحييهم بقبعته بيد[٤١٢] اليسرى . وكان قد وصل إلى نصف منظرة قصر التجارة الموصلة إلى شارع الريبوبليك ، فما هو أن أقبلت العربة حتى إخترق الصفوف واحد من الناس وانقض على عربة الرئيس كالسهم وأغمده[٤١٣] بيده اليسرى على جناح العربة وضربه باليد اليمنى بخنجر

(٤٠٨) يتسالون = يتساءلون .

(٤٠٩) قال على = قام على .

(٤١٠) سادى كرنو = Sadi Carnot (١١أغسطس ١٨٣٧ - ٢٤يونيو١٨٩٤) ـ الرئيس الرابع للجمهورية الفرنسية الثالثة (١٨٨٧ - ١٨٩٤) ـ إنتخب فى الجمعية الوطنية عام ١٨٧١-١٨٧٦- خدم فى لجنة الأشغال العامة وأصبح وزيرا لها عام ١٨٨٠- أعيد انتخابه عام ١٨٨٥ وخدم كوزير للمالية حتى أصبح رئيسا لفرنسا ـ إغتيل على يد أحد الفوضويين anarchist فى ٢٤ يونيو١٨٩٤ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 4-pp.,158-159 .

(٤١١) إنتهت = إنتهت الحفلة .

(٤١٢) بيد = بيده .

(٤١٣) وأغمده = واستند قراءة ترجيحية

فى صـدره ، فـغـار فى الكبـد حـتى القـبـضـة ، قـالوا والخنجـر من نوع الدامسـاكينه[٤١٤] أى المدمشق نسبة إلى دمشق الشام ، وقبضة[٤١٥] ملفوفة بورقة بحيث يظهر أن ليس فى يد القاتل إلا ورقة عريضة أو باقة من الزهر . وبعد أن طعنه تلك الطعنة النجلاء جزب[٤١٦] الخنجر ورمى به على الأرض وفر هاربا وهو يصيح (لتحى الفوضى) فالتفت الجمع المحتشد ، وإذا بالرئيس منكب على وجهه بالعربة ، ورأوا ذلك الفوضى تخترق[٤١٧] الصفوف جريا ،فعلت أصواتهم بالصياح وقالوا قتل الرئيس وتزاحموا حول العربة فرأوا الرئيس مغمض العينين لا يبدى حراكا وقد فكت أزرار صدرته[٤١٨] وحل رباط سرواله ، وظهر على أميصه[٤١٩] بقعة كبيرة من الدم ، فحملوه فى الحال إلى قصر محافظ البلد ومعه الجنرال بوريس والمحافظ ووكيله . فلما وصلت عربتة إلى باب القصر حمله الحجاب وصعدوا به إلى الطبقة الأولى من القصر ووضعوه على سرسر[٤٢٠] وحوله جماعة الأطباء والجراحين . ولبث الإغماء ساعة بعد الطعنة ، فلما أفاق أشار إلى محافظ مدينة ليون أن أقترب لأكلمك ، وكان قد حضر إلى ليون لحضور أعياد المعرض . فاقترب من سريره وكلمه بعض كلمات . وتشاور الجراحين والأطباء فى ما يلزم عمله للجريح ، فاتفقت كلمتهم على عمل عملية . فتقدم الطبيب بونسة لعمل ذلك ، وفتح جرحا طويلا ،

---

(٤١٤) الدامساكينة = داماسين damascene نوع من السيوف والخناجر المصنوعة من الفولاذ الدمشقى Damascus Steel وهو فولاذ مزدان بخطوط متموجه كانت تصنع منه شفرات السيوف فى دمشق أصلا
منير البعلبكى - المورد - قاموس إنجليزى عربى - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٢- ص٢٤٧ .
(٤١٥) وقبضة = وقبضته .
(٤١٦) جزب = جذب .
(٤١٧) الفوضى تخترق = الفوضوى يخترق .
(٤١٨) صدرته = صدريته .
(٤١٩) اميصه = قميصه .
(٤٢٠) سرسر = سرير .

وأحس الجريح بسير المشرط فى الجلد أفاق[٤٢١] وقال بصوت جوهرى[٤٢٢] أ .هـ[٤٢٣] لقد آلمتنى يا طبيب ، فبعد أن ستر[٤٢٤] الطبيب الجرح ونظره بقية الأطباء أيضا تبين لهم أنه إذا كانت الأمعاء سليمة فإن مقدمة الكبد مصابة وأن الوفاة لابد منها عاجلا .قالوا وكان الجريح إذا أحس بحركة الأطباء قال لهم بصوت خافت أنا مائت . ولما قارب النزع إنحنى طبيبه على سريره وناداه بلطف أصدقأوك كلهم هنا يا حضرة الرئيس ، فأجابه بصوت خافت جدا إنى سعيد بوجودهم . قالوا وكانت هذه الكلمات آخر ما فاه به وفارقت روحه عند حلول ظهر ذلك اليوم .

أماالقاتل فقد ترامح وراءه الناس والجند وأصحاب الشرطة وقبضوا عليه ، فانهال عليه الضرب واللكم والرفس من كل جانب . وتماسك الناس بملابسه يريدون البطش به وأصحاب الشرطة يدفعونهم عنه فلا يقدرون . فلما أخذوا فى أستجوابه علم أن أسمه (سانتو) إيطالى الأصل ، وأنه من كبار الفوضويين[٤٢٥] ،

---

(٤٢١) افاق = فأفاق قراءة ترجيحية
(٤٢٢) جوهري = جهورى
(٤٢٣) آهـ = آه
(٤٢٤) ستر = سبر ـ سبر الجرح نظر غوره ـ والمسبار بالكسر مايسبربه الجرح
- مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١١٩
(٤٢٥) الفوضويين = الفوضوية Anarchism من اليونانية (بلاحكومة) ـ نظرية سياسية مؤسسة على الإعتقاد بأن الحكومة سيئة وغير ضرورية . ويناصر الفوضويون مجتمعا منظما على أساس العمل التطوعى حيث يحل التعاون محل الجبر والمنافسة . إرتكب عدد قليل من الفوضويين أعمال عنف على أساس أن الإرهاب قد يمهد الطريق إلى الثورة ؛ لكن أغلبهم مع هذا عارضوا العنف . كان الكاتب الإنجليزى ويليام جودوين William Godwin (١٧٥٦-١٨٣١) هو أحد الأوائل الذين وضعوا أفكارا فوضوية . فقد كتب أن الدولة تفسد حياة الفرد وتخلق توزيعا غير عادل للملكية والسلطة . وآمن بأن أفضل شكل للحكومة هو الديمقراطية الغير مركزية التى يترك فيها للمواطنين أكبر قدر من المهام لينجزوها .

أما الكاتب الفرنسى بيير برودون Piere Proudhon فقد كان أكثر الكتاب الفوضويين تأثيرا . كتب يقول أن الملكية هى السرقة (property is theft) مجادلا بأن الأرض وأى ممتلكات أخرى لايحصل عليها كناتج لعمل الفرد تعتبر مسروقة- وكان تبادل المنفعة Mutualism أحد مبادئه الرئيسية . وقصد من ذلك التعاون على أسس التساوى . وأراد أن تستبدل الدولة المركزية باتحاد Federation من جماعات Communities تحل مشاكلها الخاصة ، وسمى هذا كله ديمقراطية مباشرة Direct De-mocracy .=

وأن له شركاء إقترعوا على قتل الرئيس كرنو بطعن الخنجر ، فوقعت القرعة عليه . واشتد غضب الفرنسيس على جماعة الإيطاليان نزلاء ليون وما جاورها . فقاموا عليه(٤٢٦) قومة رجل واحد ، ونكلوا بهم تنكيلا ، وأحرقوا مخازن تجارتهم ، ومنازل سكناهم ، وأفسدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من متاعهم وأموالهم .وتفشى الخير(٤٢٧) فى ديار الفرنسيس ، فثار الناس ، وطاف العدد

= بدأ تاريخ الفوضوية كحركة سياسية على يد ميخائيل باكونين Mickhail Bakunin (١٨١٤-١٨٧٦) وهو أرستقراطى روسى تحول الى الفوضوية عن طريق برودون . أنفق باكونين معظم سنى عمره فى إيطاليا ، أسبانيا وسويسرا ينظم الجماعات الثورية السرية ، وآمن بأن الثورة ضرورية من أجل تدمير النظام القديم .

أما الامير بويتور كربوتكين pyotr Kropotkin (١٨٤٢-١٩٢١) فقد كان أرستقراطيا روسيا آخر تحول الى الفوضوية وكتب مؤلفات هامة . فى كتابه المساعدة المتبادلة Mutual Aid (١٩٠٢) قال بأن التعاون بدلا من النزاع هو العامل الأساسى للتطور البيولوجى ، وسمى نظامه الشيوعية الفوضوية Anarchist Communism

فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت حركة تسمى فوضوية العمل Anarchism of the Deed وانطلق أفراد هذه الجماعة وجماعات صغيرة منها يسمون أنفسهم بالفوضويين يغتالون موظفى الحكومة إعتقادا منهم أن أعمالهم قد تحرك الجموع ، وضمت قائمة ضحاياهم القيصر الروسى إسكندر الثانى Alexander II ، والرئيس الفرنسى سادى كارنو Sadi Karnot والإمبراطورة النمساوية اليزابيث Elizabeth ، والرئيس الامريكى ويليام ماكنلى william Mckinley . وكان الناتج الأساسى لنشاطهم هو ربط الفوضوية بالعنف فى الضمير العام

شهد القرن العشرين حركة من أهم الحركات السياسية ، هى حركة الفوضوية النقابية Anarcho - Syndicalism ، وهى حركة من الفوضويين داخل النقابات فى فرنسا ، أسبانيا ، ايطاليا كان هدفها النهائى هو إضراب عام يطيح بالرأسمالية والدولة ويترك وسائل الإنتاج فى أيدى الإتحادات الثائرة أو النقابات .

منعت الولايات المتحدة الأمريكية الفوضويين من دخولها بعد إضراب Hay Market الشهير عام ١٨٨٦ واغتيال الرئيس ماكنلى عام ١٩٠١ . وكان الإهتمام بالفوضوية لايزال واضحا خلال عشرينيات القرن العشرين وبدا ذلك بجلاء فى المجادلات التى التى دارت حول قضية ساكو وڤانزيتى Sacco and vanzetti وهما إيطاليان راديكاليان إتهما بقتل صراف وحارس بمصنع للأحذية فى ولاية ماسوشو سيتس Massachusetts بالولايات المتحدة عام ١٩٢١ ، وأدينا- وتم إعدامهما فى أغسطس عام ١٩٢٧ ، وأثارت قضيتهما سخط الكثير من المثقفين الذين أكدوا أن إدانة المتهمين كانت بسبب معتقداتهما السياسية- وقد قدمت إلتماسات وطعون لإعادة نظر القضية لكن حاكم الولاية رفض . وفى عام ١٩٧٧ أعلن مايكل دوكاكيس Michael Dukakis حاكم ماسوشو سيتس بعد مراجعة القضية أن أى خزى أو عار يجب أن يمحى إلى الأبد من إسمى نيقولا ساكو Nicola Sacco وبارتولوميو ڤانزيتى Partolomeo Vanzetti .

ومنذ الحرب العالمية الثانية لم تعد هناك أى حركة فوضوية قوية فى أى بلد

-Lexicon Universal Encyclopedia-vol. I-p.,392

- Ibid vol. 17-p.,6

(٤٢٦) عليه = عليهم

(٤٢٧) الخير = الخبر

العـديد منهم ينادون يالثرات(٤٢٨) كرنو ، يالثرات(٤٢٩) الرئيس العادل . ولما خرجوا بالجثة يريدون يريدون(٤٣٠) باريز على قطار السكة الحديد ، هاجر جماعة الإيطاليان من البلد ، واختفى من لم يقدر على الهجرة . واحتفلوا فى بريز(٤٣١) بدفنه إحتفالا فائقا حد الوصف وواروا جثته فى البنتيوم(٤٣٢) وهو مدفن الأمراء والكبراء وأصحاب الشهرة . وقد زرت قبره فى سنة تسعة وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية عند ذهابى إلى باريز ، وهو منحوت فى الحجر الأبيض الخالى من النقوش والزينة ، وموضوع فى سرادب(٤٣٣) طويل على يسار الداخل إلى الدهليز العمومى تحت أرض النسوم(٤٣٤) . ورأيت فى الدهليز العمومى كثيرا من

(٤٢٨) يالثرات = يالثارات
(٤٢٩) يالثرات = يالثارات
(٤٣٠) يريدون يريدون = يريدون
(٤٣١) بريز = باريس paris
(٤٣٢) البنتيوم = البانثيون pantheon أحد معالم باريس الشهيرة ، بنى على قمة جبل قديم إسمه سانت جنفييف Sainte-Genevieve وحمل نفس الإسم . تم بناؤه فى عهد لويس الخامس عشر (١٥فبراير١٧١٠ ـ ١٠مايو١٧٧٤) على يد المهندس المعمارى سوفلو Soufflot على الطراز اليونانى ـ الجديد neo-grec -ينتهى بقبة تصل قمتها إلى حوالى ٨٠ . متر شيد هذا البناء أولا ليكون كنيسة لجلب مدد راعية باريس سانت جنفييف Sainte-Genevieve . حولت ثورة ١٤ابريل ١٧٩١ هذه الكنيسة الى مزار لحفظ رفات كبار رجال الدولة فيه وأخذ إسمه المعروف به حاليا pantheon مع عبارة تقول : «إلى كبار رجال فرنسا إعترافا من الدولة بفضلهم» . نقل إلى المزار رفات ڤولتير (١٧٩١) ، جان جاك روسو (١٧٩٤) ، ثم عدد كبير من القواد وكبار رجال الدولة تحت الحكم الإمبراطورى . حول بعد ذلك الى كنيسة بعودة الحكم الملكى مرة أخرى فيما يسمي بفترة الإحياء restoration (مايو١٨١٤- يوليو١٨٣٠) بما فى ذلك مرحلة حكم المائة يوم Les Cent Jours التى استعاد نابليون فيها السلطة إثر هروبه من منفاه حتى سقوطه مره أخرى فى يونيو١٨١٥ بعد معركة ووترلو . فى عام ١٨٢٩ دفن المهندس المعمارى سوفلو فى هذا الصرح . تحول اسم المبنى إلى معبد النصر تحت حكم الإمبراطورية الثانية . أعادت الجمهورية الثالثة إلى المبنى اسمه Le pantheon والغرض الذى سبق أن نسب إليه وهو أن يكون مكانا لدفن كبار الشخصيات وذلك بمناسبة موت ڤيكتور هوجو ودفنه به عام ١٨٨٥ . نقل إليه رفات لازار كارنو Lazare Carnot ، لاتور دوڤرن Latour d'Auvergne ، مارسو Marceau ، بودين Baudin ، وسادى كارنو Sadi Carnot ، م . بيرثيلوت M.Berthelot وأميل زولا Emile Zola .شارك عدد من الفنانين منذ عام١٨٧٤ فى تغطية حوائطه بلوحات رائعة استلهموا مواضيعها من تاريخ فرنسا الوطنى لسانت جنيڤييڤ وچان دارك Jeanne D'Arc .ويجمل مدخل المبنى تماثيل فائقة الصنع .
- Larousse Universel - vol. II. op. cit. p..481 X -

(٤٣٣) سرادب = سرداب .
(٤٣٤) النسوم = لم أقف على معنى الكلمة .

باقات الزهور والأكاليل الفاخرة المرصعة باللؤلؤ مسند بعضها إلى بعض على طول نصف حائط الدهليز ، فسألت عنها فأخبرنى الموكل بحراستها بانها نيفا وخمسمائة إكليل جاءت إلى مشهد الفقيد من أطراف المعمور . ولما جاء إلى أمير الغيبة الوزير نوبار باشا نعيه وسم إلى سائر الحصون والقلاع وسفن البحر الراسية فى ميناء الأسكندرية وميناء القلزم[٤٣٥] ، وأرسل رسائل التعازى إلى صاحب السياسة الإفرنسية بالنيابة عن أمير البلاد . وجاءت كتبهم إلى وكيلهم السياسى بمصر ، فرسم إلى رؤساء الكنائس والديارات الكاثوليكية بإقامة الصلوات على نفس الفقيد . فاهتموا لذلك كثيرا ودقت أجراسهم فى ذلك اليوم ، وقام خطباؤهم يعددون مناقب ذلك الفقيد ويطرئون [٤٣٦] أيام رئاسته ويحسبونها من محاسن الأيام التى لم يسبق لها مثيل من عهد قيام الجمهورية إلى يومهم ذلك .

وبينما الناس يتحدثون بمقتل الرئيس كرنو ويحمدون الله تعالى على طهر الديار المصرية من عمل أولئك الشياطين ،جاء الخبر من المدينة بقيام ركب المحمل وأن صحة جميع الحجاج على ما يرام ، وأن ركبهم لم يصب بمكروه فى عامهم ذلك ، لسهر أمير الحج (إبراهيم راجى بك) على راحتهم ، ودفع شرور العربان عنهم ، ففرحوا وجعلوا يتأهبون للقاء من خرج للحاج من الولد والأهل والأقارب على العادة المألوفة عندهم . وتتابع حضور السفن على أختلاف أعلامها تحمل الحجاج وكلهم بصحة جيدة ، فأوقفوها أياما معدودات فى محجر الطور قضاءاً للحجر الصحى المعتاد عمله فى كل عام . ولما كان يوم السبت سابع يوليو من السنة ، أى رابع محرم ألحرام من السنة الجديدة الهجرية ، أى سنة أحدى[٤٣٧] عشرة وثلثمائة وألف ، جاءت رسالة من الأمير

(٤٣٥) القلزم = القلزم بتنكيس الأعلام أضيفت الكلمتان الأخيرتان ليستقيم المعنى .
(٤٣٦) ويطرئون = ويطرون .
(٤٣٧) إحدى = إثنى .

بدار السلطنة على جناح البرق إلى وزير(٤٣٨) نائب الغيبة نصها(أمس رفنا(٤٣٩) جلالة السلطان يدعوننا(٤٤٠) إلى وليمة عشاء حافلة ، فذهبنا مع أخينا وبعض معيتنا . وبدخولنا ليلدز تنازل لمقابلتنا(٤٤١) وشملنا بجميل عنايته ولطفه وشديد أهتمام(٤٤٢) بصحتنا ، وأظهر من عنده إستحسانه العالى بسفرنا لأى بلاد نريدها ، فشكرنا وسررنا جدا . وقبل الغذاء منح أخانا(٤٤٣) رتبة روملى بكلربك(٤٤٤) والعثمانى الأول(٤٤٥) .وبأثناء العشاء الذى جمع كبار موظفى السراى والنظار شرفنا جلالته بوضعنا على يمينه . وبعد العشاء حظينا بمقابلة خصوصية طويلة نلنا بها كل تلطف ـ نسأل الله طول عمر سيدنا المحبوب وتأييد مجده لسعادتنا وسعادة ممالكه المحروسة) أ . هـ وكان أهل المناصب واحصاب(٤٤٦) الخطط بمصر يتطون(٤٤٧) تعذر التقاء الأمير بجده إسماعيل باشا لممانعة السلطان ، فلم يصب ظنهم المرمى ، فقد زاره جده وتفرح(٤٤٨) به فرحا لا يوصف . قالوا وضمه إلى صدره باكيا منتحبا ، وحادثه طويلا ودعى له

---

(٤٣٨) وزير = الوزير

(٤٣٩) رفنا = شرفنا

(٤٤٠) يدعوننا = بدعوتنا

(٤٤١) لمقابلتنا = بمقابلتنا

(٤٤٢) اهتمام = اهتمامه

(٤٤٣) أخانا = يقصد الأمير محمد على توفيق

(٤٤٤) روملى بكلربك = صحتها روم إيلى بكلر بكى- وتنطق روميلى بيلر بيبى باعتبار الكاف فى بكلر وبكى ياءا . وروم إيلى مصطلح يطلق على الجناح الأوروبى من الدولة العثمانية كمقدونيا ، ياشيل كوى ، الفاتح ، أدرنه ، فيليبه ، مريج ، كليبولى ، وكوسوفا (قبل أن تنزع من تركيا) . وبكلر جمع للقب بك- أما بكى فهى كلمة بك مضاف إليها ياء الإضافة . والجملة جميعها تعنى (بك بكوات الروم إيلى) . وبكلر بك لقب قديم يعود إلى الأيام الأولى للدولة عندما كان يطلق فعلا على حكام الأقاليم التركية الأناضولية على وجه الخصوص ، لكنه وبعد إندماج هذه الأقاليم فى سلطة الدولة العثمانية أصبح لقبا شرفيا شأنه كلقب ميرميران (ميرتعني رئيس وميران جمع فارسى لأمراء والكلمة تعنى أمير الأمراء) ـ واللقبان متساويان ويعطيان حامل أيهما لقب باشا .
ـ ردهاوس . مرجع سبق ذكره ص٣٧٤،٩٩٤- ٣٧٥

(٤٤٥) العثمانى الأول = المقصود هو النيشان العثمانى الأول

(٤٤٦) واحصاب = وأصحاب

(٤٤٧) يتطون = يظنون

(٤٤٨) وتفرح = وفرح

دعاة[٤٤٩] حسنا . فرد الأمير له الزيارة وأطال المكث بحضرته يحادثه ويخفف عنه . قالوا فطابت نفسه وأهدى للأمير سيف جده الأكبر إبراهيم باشا الذى قاد به الجيوش المصرية وفتح تلك الفتوحات العظيمة . وجاء خبر ذلك إلى الأمراء من البيت العلوى ففرحوا ومدحوا الأمير وأثنوا عليه ، وزار كذلك السفراء والأمراء واجتمع بالملك إسكندر ملك الصرب الذى جاء ضيفا على السلطان وأهداه صورته . ثم تفشى خبر عزم الأمير على مبارحة دار السلطنة إلى البندقية ليذهب منها إلى سيوسره[٤٥٠] فيقضى فيها شهرا ، فلم يعجب سفير الإنجليز ذلك وأكبره جدا . ولا خفى[٤٥١] أنه عمل كثيراً على منع التقاء الأمير بالسلطان فى دار السلطنة وبذل الجهد فى ذلك فلم يفلح كما تقدم . فلما علم بخبر عزمه على الذهاب إلى سيوسره[٤٥٢] عاد إلى سجه[٤٥٣] لدى المابين والباب العالى يريد منعه من ذلك أيضا . وجعل يعمل ليل نهار على إغراء السلطان على ذلك فلم تنجح له سعاية ، وتقرر سفره إلى غروب ثامن عشر الشهر أى شهر يوليو من السنة ، وفى ركابه المشير مختار باشا مبعوث السلطان . قالوا وربما عاد إلى الأستانة ثانية لحضور الإحتفال بعيد جلوس السلطان . فقامت صحف الإنجليز وقعدت وقالت أن الظروف السياسية الحالية ليست من الموافقة لرحلة الأمير إلى بلاد الفرنجة فى شىء ، وأن عاقبة هذه السفرة غير محمودة . وحذرت من ذلك وبالغت فى التحذير ، فلم يلتف[٤٥٤] الأمير إلى شىء من ذلك وعول على مبارحة دار السلطنة بعزم وثبات فى الرأى . فلما كان يوم الثلاثاء سابع عشر يوليو قبل مبارحة الأمير بيوم حدث عن[٤٥٥] الدقيقة(٢٤) بعد الظهر زلازال[٤٥٦] عظيم فى دار السلطنة ظهرت هزته الأولى فى تلك الدقيقة ، ودامت ثمان ثوان ،

---

(٤٤٩) دعاة = دعاءاً .
(٤٥٠) سيوسره = سويسرا
(٤٥١) خفى = يخفى .
(٤٥٢) سيوسره = سويسرا
(٤٥٣) سجه = سعيه .
(٤٥٤) يلتف = يلتفت
(٤٥٥) عن = عند .
(٤٥٦) زلازال = زلزال

وبعد سبع ثوان أى عند الساعة ١٢ والدقيقة ٣١ حدثت الهزة الثانية ، فدامت ثلاث ثوان ، ثم عقبتهما الثالثة عند الساعة الواحدة والدقيقة خمس عشرة ، وكانت خفيفة فدامت نصف ثانية . وعند الساعة أربعة والدقيقة (١٦) من بعد الظهر حدثت هزة خفيفة دامت ثانيتين . وحدثت بعد نصف الليل بنحو سبعة وعشرين دقيقة هزة خامسة قوية . وكانت كل هذه الهزات من الشمال إلى الجبنوب(٤٥٧) ، والمظنون أن مركزها الأصلى إما رومه وإما أزمير . قالوا . أما الخراب والهلع والجزع فما لا تقوى على وصفه الأقلام ، فقد تشققت الأرض وانفتحت بها فتحات مخيفة ، وخرج الناس على وجوههم حاسرى الرؤوس وانتشروا فى الفضاء إنتشار الزعر(٤٥٨) والخوف . وطاف أصحاب النجدة فى الأحياء يخرجون الجثث من تحت إنقاض البيوت والوكائل والحمامات ، فكانوا شيئا كثيرا ، وقيل بلغوا عشرة آلاف نسمة بين نساء ورجال وأطفال . وهم يقدرون الخسائر المادية التى لحقت البلد بمائة مليون فرنك أو يزيد . قالوا وخرج السلطان من قصره إبان الهزات إلى فناء قصر يلدز وأقام به يوما وبعض يوم ، ونزل الأمير عباس إلى يخته المحروسة وأقام به ينتظر زوال الشدة . فما هى أن زالت حتى سار إلى قصر السلطنة واستأذن مودعا ، وزارة جده إسماعيل باشا إيضا . وأبحر يخته يريد فنيسيا . وجاء الخبر بذلك إلى الوزير نوبار باشا فطيره إلى الآفاق . وبينما الناس ينظرون إلى ما لاقاه أميرهم فى دار السلطنة من الحفاوة والتعظيم بعين الرضاء والإعجاب بأمير المؤمنين إذ تفشى الخبر باحتلال عساكر الإيطاليان لكسلا(٤٥٩) . قالوا أخذوها عنوة بعد قتال عنيف للغاية . قلت . وكسلا هذه هى من الأملاك المصرية وبالتالى تابعة للسلطنة

---

(٤٥٧) الجبنوب = الجنوب

(٤٥٨) الزعر = الذعر

(٤٥٩) كسلا = كان إكراه مصر على إخلاء السودان عام ١٨٨٤ بداية لخطة مرسومة تقتسم بمقتضاها أملاك مصر مع القوى العظمى . فى السودان الشرقى أخلت الحامية المصرية مصوع عام ١٨٨٥ تنفيذا لقرار الإخلاء . وبالإتفاق مع إنجلترا إحتلت إيطاليا مصوع ثم امتد زحفها إلى أويتريا ورأس جردفوى .=

العثمانية . فكان لتفشى الخبر دهشة وحيرة ، وجعل الناس يتحدثون به ويتسالون[٤٦٠] عما سيكون من وراء هذه الحوادث الجسام . على أنا لا ندرى كيف جاز للقوم أن يحتلوا هذا البلد ، وكيف صح لأصحاب السياسة الإنجليزية يجيزون لهم هذا التعدى الغريب والبلد مصرية أوهى فى ملك آل عثمان إلى هذا الزمان . والغالب أن إقدام أولئك القوم الإيطاليان على هذا العمل الخارق

= وفى سنة ١٨٨٤ استولت إنجلترا على محافظتى (زيلع) و(بربرة) واستولى الفرنسيون على جيبوتى وتاجورة . وفى ١٨٨٧ إستولت إثيوبيا على (هرر) بعد جلاء مصر عنها . وكانت (عصب) قد وقعت تحت السيطرة الإيطالية قبل ذلك عندما ابتاعت شركة روباطينو Rubattino الإيطالية للملاحة منطقة بجوار ميناء (عصب) على باب المندب من أحد الشيوخ المحليين رغم تبعية المنطقة لمصر- وتم تعيين مقيم إيطالى فيها . وفى ١٨٨٢ إنتقلت ملكية (عصب) إلى إيطاليا ، وشرعت إيطاليا فى إبرام معاهدات مع رؤساء القبائل هناك وبموافقة إنجلترا التى أرادت ان تكسب ود إيطاليا ولتضعها فى مواجهة الحركة المهدية فى السودان . فوقعت معاهدة أوتشيالى Uccialı مع منليك عام ١٨٩٩ واعتبرتها حماية إيطالية على أثيوبيا . أما (منليك) إمبراطور أثيوبيا فقد اعتبرها توفر حليفا دبلوماسيا لمواجهة تعقيدات السياسة الأوروبية ووسيلة للحصول على السلاح . وفى سنة ١٨٩١ أرسل (منليك) منشورا إلى القوى العظمى يؤكد فيه استقلال بلاده وتمسكه بحدودها القديمة (الضفة اليمنى للنيل وبحيرة نيانزا)

فى ١٥أبريل ١٨٩١ عقدت إيطاليا وإنجلترا معاهدة أكملت بأخرى فى ٥مايو من نفس العام سوت الدولتان بمقتضاهما اقتسام النفوذ بينهما فى السودان- فأقرت إنجلترا ماحازته إيطاليا على حدود البحر الأحمر وفى الصومال ، وجعلت (هرر) ومعظم (اوجادين) وبلاد الصومال إلى رأس جردفوى داخلة فى أملاكها ، ورخصت لإيطاليا باحتلال (كسلا) والأراضى المتاخمة لها حتى نهر (عطبرة) احتلالا مؤقتا إلى أن تستطيع مصر استردادها (كانت قد وقعت تحت الحصار من جانب الثوار المهديين فى ١٨٨٥ ، ثم استولوا عليها فى يوليو من نفس العام بعد دفاع حاميتها بقيادة أحمد بك عفت مديرها حتى سقطت وقتل (عفت) ومعاونيه) - ورخصت إيطاليا لإنجلترا إحتلال (زيلع) و(بربرة) ، ووفقا للمعاهدة احتلت إيطاليا (كسلا) فى ١٧يوليو١٨٩٤ . وبعد إعادة فتح السودان طالبتها إنجلترا بإعادتها فاعيدت عام١٨٩٧ .

Conflict on the Nile- op.cit.,pp.60-65 -

- عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال) مرجع سبق ذكره ص١٣٢ و ١٤١
- أوراق مصطفى كامل (المقالات) تحقيق يواقيم رزق مرقص- مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٨٦ ـ ص١٣٠ حاشية ٣ ،ص٢٠٨ حاشية٢ .
- مذكرات محمد فريد (القسم الاول) مرجع سبق ذكره ص٢١٢

(٤٦٠) ويتسالون = ويتساءلون

لكل عهـد ونظام ناجم عن بينهم(٤٦١) وبين أصحـاب سـياسـة الإنجليـز من الإتفـاقـات التى أبرموها فى خصوص الصومال وشطوط البحر الأحمر .ولا خفى(٤٦٢) أنه عندما أبرم صاحب السياسة الإنجليزية عهدته(٤٦٣) المشهورة مع ملك البلجيك بشأن ولاية الكنغو وعهدة إحتلال وادلاى ، قـامت دول أوربا وقعدت وهاجت وماجت وجعلت دولة آل عثمان تصيح بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى تبرمت(٤٦٤) تلك العهدة أو كادت ، وخفف الإنجليز يومئذ من شرتهم(٤٦٥) . فما الذى تألبت أولئك الدول على عمله مع الإنجليز والإيطاليان يا ترى . وهلا يهب السلطنة(٤٦٦) من رقدة هذه الاستكانة التى أضاعت ثلث المعمور من سلطنته إلى الظهور وأخذ الحيطة لكل محظور؟ ذلك مالا نعلمه . واجتمع النزلاء الإيطاليان بالإسكندرية واولوا(٤٦٧) وليمة عظيمة إحتفالا باحتلال كسلا ، وصاحوا وهللوا وكبروا وعدوا ذلك من معجزات السياسة فى هذا الزمان . وشايعتهم صحف الإنجليز وهنأتهم بنصر جنودهم على أصحاب المهدى فى ذلك البلد . على أن قوات الإيطاليان فى تلك الأطراف لم تكن

---

(٤٦١) عن بينهم = عن اتفاق بينهم أضيفت كلمة إتفاق ليستقيم السياق

(٤٦٢) خفى = يخفى

(٤٦٣) فى عام ١٨٨٥ وافق مؤتمر برلين المنعقد لمناقشة التسويات الأوروبية فى أفريقيا على إنشاء ولاية الكونغو الحرة تحت السيادة الشخصية للملك ليوبولد ملك البلجيكيين- وفى أبريل من نفس العام وافق البرلمان البلجيكى على إنشاء هذه الولاية تحت سيادة الملك . ومن خلال سلسلة من المعاهدات نجح ليوبولد فى توسيع حدود ولايته الإفريقية . من بين هذه المعاهدات معاهدة ١٢مايو ١٨٩٤ بين بلجيكا وإنجلترا . ففى ظل التنافس الاستعمارى فى أفريقيا كان لبلجيكا تحركات تجاه النيل فى المنطقة المجاوره لوادلاى . وفى سبيل إبعاد التهديد البلجيكى عن وادى النيل تم التفاوض بين إنجلترا وبلجيكا . فى هذا الإتفاق أجرت الحكومة البريطانية (حاجز لادو) إلى دولة الكونغو الحرة .

- على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩-١٨٩٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٧٧ـ ص٨٢-٩٢

(٤٦٤) تبرمت = أبرمت قراءة ترجيحية

(٤٦٥) شرتهم = شرههم

(٤٦٦) السلطنة = السلطان

(٤٦٧) وأولوا = وأولموا

تكفى لفتح كسلة ولا لدحر أصحاب المهدوية ، فاستعانوا بأهل كسلا الناقمين على خليفة المهدى واستمالوهم بالرشاء والهدايا العظيمة ، فمالوا إلى نصرتهم على جماعة الدراويش المرابطين بالبلد ،وقاتلوا دون الإيطاليان .فسلمت لهم البلد بلا عناء كبير لا بعد قتال عنفيف[٤٦٨] كمايقولون .وكان أهل كسلا جلهم أوكلهم قد كرهوا التعايشى لتضييقه عليهم وقطع كل صلة تجارية تسهل عليهم سبل المعيشة وأسباب الرزق . فتالبوا[٤٦٩] أولا على الهرج والخروج عليه ، ولكنهم رأوا عجزهم عن قتاله لقلتهم . وعرف جماعة الإيطاليان ما عليه القوم من حركة الخواطر ، فزادوها بالدسائس تهييجا . وما زالوا بهم حتى تمكنوا من قلوبهم ودفعوهم إلى الهرج والخروج ، وأوردوا لهم السلاح الجيد ، وقدموا على المقاتلة منهم جماعة من كبار عسكرهم ، فحملوا أولا على من لم يوافقهم على الخروج من أهل البلد وعلى دعاة التعايشى وأحزابه فأدخلوهم فى طاعتهم بحد السيف . وذهب البرق ينبىء الدنيا أن الإيطاليان إفتتحوا كسلا . وما كسلة[٤٧٠] إلى مسلمة من قبل . وعند[٤٧١] أن نتيجة هذا الإحتلال هو بدء تمزيق القارة السوداء ، وبدء تضعضع الجامعة التى كانت تربط أجزاءه بعضها ببعض ، وبدء إستفحال الداء الحاط لكل قوة وعصبية ، المثير لقبائله على التقاتل والتخازل[٤٧٢] ، والإستعانة بكل أجنبى يجاورهم ، لاشتداد الفاقة عندهم واشتداد الظلم ، فتستلقى بين الأجنبى وتسنجده[٤٧٣] على أهلها وذوى قرباها . ولقد كادت[٤٧٤] آخر أمانيهم ومادة[٤٧٥] صبرهم رجوعهم جميعا إلى حماية مصر

---

(٤٦٨) عنفيف = عنيف

(٤٦٩) فتالبوا = فتألبوا

(٤٧٠) كسلة الى = كسلا إلا

(٤٧١) وعند = وعندى

(٤٧٢) والتخازل = والتخاذل

(٤٧٣) وتسنجده = وتستنجده

(٤٧٤) كادت = كانت

(٤٧٥) ومادة = وغاية قراءة ترجيحية

واستظلالهم بظلها كما كانوا من قبل . ولكن قد انقطع عنهم كل رجاء من هذا الجانب ، فالعاقبة ويل لهم واستعباد . ولا عجب إذا صفق أصحاب السياسة الإنجليـزية طربا لدخـول الطليـان كسـلا ، وبسط أيديهم على مـرافـقـهـا فكفلتها[٤٧٦] رابحة ،وقد كان لها أمس أوغندا ، وأول أمس وادلاى ولحليفتها[٤٧٧] البلجيك وإيطاليا أول أمس أوغندا ، وأمس كسلا . فلها وحدها من قارة أفريقيا ما لكل دولة على حدتها ونعما .

وجاء الخبر من محافظ السويس بوصول المحمل فجر يوم السبت رابع من أغسطس من السنة وثالث صفر من السنة أى سنة إحدى[٤٧٨] عشرة . فاستقبلوه بميناء القلزم على الطريقة المعتادة عند وصوله فى كل عام ، ورسم الوزير نوبار باشا بالإحتفال بوصولة إلى القاهرة فى يوم الخميس تاسع الشهر . وتفشى الخبر بذلك فى القـاهرة ومـصـر القـديمـة ، فـخـرج أهل الطرق ، وأرباب الأشـاير ، وأصحاب العكاكيز إلى فناء العباسية بالجبل الأحمر ، ونصبوا خيامهم وتبعهم البايعون والسوقة وأرباب الحانات ومكامن اللهو . وخيموا حول الحسينية ، واختلط الناس بركب المحمل ، وطفن[٤٧٩] النساء من أهل الحجاج يغنين ويزغرطن على عادتهم[٤٨٠] فى مثل ذلك اليوم . فلما كان يوم الخميس تاسع أغسطس من السنة وثامن سفر[٤٨١] الخير سنه إثنى عشرة وثلثمائة وألف تحرك ركب المحمل عند الصباح من العباسية إلى المصطبة بقراء[٤٨٢] ميدان تحت قلعة الجبل فى موكبه المعتاد بين أصوات المدافع وأنغام الموسيقات . فمر بشارع العباسية إلى باب الحسينية ، فالجمالية ، فالغورية ، فالدرب الأحمر إلى

(٤٧٦) فكفلتها = فكفتها
(٤٧٧) ولحليفتها = ولحليفتيها
(٤٧٨) إحدى = إثنى
(٤٧٩) وطفن = وطافت
(٤٨٠) عادتهم = عادتهن
(٤٨١) سفر = صفر
(٤٨٢) بقراء = بقره

قراميدان ، والناس مصطفين على جانبى الطرق . وعند الساعة التاسعة توافد جماعة الوزراء والكبراء والأعيان والوجهاء ، وتبعهم الوزير نوبار باشا نائب الغيبة فى موكبه الحافل . فأطلقت عند وصوله المدافع وصدحت الموسيقى بنشيد الإمارة . وما[٤٨٣] أستقر به الجلوس حتى وصل ركب المحمل إلى الميدان ، فدار الجمل ثلاثا ، ثم وقف أمام الوزير . فألقى الشيخ محمد السنباطى خطبة وجيزة ختمها بالدعاء للسلطان ، وأمير البلاد عباس باشا الثانى ، ولرجال الدولة . فتقدم أمير الحاج (شاكر باشا) وسلم زمام المحمل إلى الوزير فقبله ، وناوله إلى قاضى القضاة ، فسلمه إلى السيد البكرى ، وهذا أعطاه للشيخ عبد الخالق السادات شيخ مشائخ السادة البكرية[٤٨٤] ، ومنه تناوله الوزراء واحدا فواحد .ثم تلقاه مندوب الخزينة وسار به إلى مقرها ليبغى به له إلى عامة القبائل[٤٨٥] . وتفشت الأخبار عن القادمين مع ركب المحمل بأن (الشريف عون) شريف[٤٨٦] مكة أساء إلى الحجاج وضرب عليهم المغارم الفادحة .

---

(٤٨٣) وما = وما أن أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى

(٤٨٤) البكرية = الصحيح هو الوفائية- فالسيد/ عبد الخالق السادات كان شيخ السجادة الوفائية وليس البكرية التى يرأسها الشيخ البكرى

(٤٨٥) ليبغى بهله الى عامة القبايل = ليبقى بها إلى عامه القابل

(٤٨٦) شريف مكة = خضع الحجاز لسلطة الأشراف منذ القرن الرابع الهجرى عندما أسس أبو محمد جعفر الموسوى أول عائلة من الأشراف تحكم مكة وأصبح (شريف مكة) لقبا يقابل حاكم دولة أو إقليم . وبعد ماخضعت الحجاز لسلطة مصر كان كبار الأشراف يختارون شريفا للحكم ويطلبون من السلطان تثبيته فى منصبه أو إعتماد تعيينه- وظل هذا الأسلوب معمولا به بعد خضوع مصر للحكم العثمانى ، فأصبح السلطان العثمانى هو الذى يثبت الشريف فى حكم (الشرافه) . وكانت مهمة تأمين قوافل الحج الوافدة من بلاد العالم الإسلامى من أهم الأعمال المنوطة بشريف مكة ، ولذلك فإنه كان يعتنى بتوطيد علاقاته بالقبائل العربية الضاربة على طول طرق القوافل .

فى عام ١٢٠١م (٥٩٧هـ) نجح الشريف قتادة المقيم فى (ينبع) و(وادى الصفراء) فى الإستيلاء على (مكة) ثم توسع فأخضع لسلطانه كافه أراضى الحجاز من خيبر شمالا وحتى القنفذة جنوبا ، وأصبحت إمارة آل قتادة هى القائمة بالامر لسنوات طويلة .

عندما تولى الشريف (أبونمى) إمارة مكة عام ١٥٢٥م (٩٣٢هـ) ازداد مركز الشرافة قوة ، ووضع قانونا عرف باسمه (قانون أبونمى) تكون من ستة وثلاثين مادة كان اهمها حصر (شرافة مكة) وراثة فى الأسرة الهاشمية . ومنذ ذلك الوقت وحتى سقوط حكم الأشراف على يد أسرة آل سعود فى الربع الأول من القرن العشرين (بتنازل الملك على بن الحسين بن على عن الملك فى ١٩ديسمبر ١٩٢٥) تعاقب على شرافة مكة ثلاث عائلات من نسل (أبى نمى) ، الأولى (ذوو بركات) والثانية=

=(ذوى زيد) ، والثالثة (ذوى عون) . حكمت العائلة الأولى وحدها مايقرب من قرن ، ثم دخلت فى صراع مع العائلة الثانية خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر (١٦٧٩) ، وظل منصب إمارة مكة يتنقل من (بركاتى) إلى (زيدى) حتى انتقل إلى (ذوى زيد) ، وظل الأمر كذلك حتى فتح الحجاز على يد محمد على (١٨١١- ١٨١٨) . دارت صراعات مريرة على منصب الشرافة خلال مراحلها المختلفة كان أهمها ذلك الصراع الذى أدى إلى تدخل على بك الكبير (١٧٦٨-١٧٧٢) كطلب الدولة العثمانية عام ١٧٧١ لتثبيت شريف خلعه منافسوه . ونتيجة لاحتفاظ الدولة العثمانية ـ بعد خضوع الحجاز لها منذ عام ١٥١٧- بنظام الشرافة على وضعه الذى كان عليه أيام دولة سلاطين المماليك فى مصر ، مع إنشاء حكم عثمانى (صنجقية) فى جدة يتولاها أحد الحكام العثمانيين (ولاية الحبش) ، نتيجة لذلك فإن فرق الأشراف المتصارعة كانت تستميل إليها مجموعة من القبائل ويتقاتل الفريقان ، ومن تأتى نتيجة القتال لصالحه فإنه يستولى على الشرافة ويكتب أتباعه إلى الدولة العثمانية بطلب تعيينه ، فكان السلطان يرسل فرمان التعيين مكتفيا من (الشريف الحاكم) بإظهار الولاء للدولة وتبعيته للسلطان باعتباره موظف عثمانى . لكن الصراع اتخذ محورا آخر فى الحجاز عندما دخل ولاة جدة العثمانيين فى دائرته بسبب تصيب الأشراف من وارداتها . لذلك فإن (الولاة العثمانيين) كانوا يعملون على استمرار الصراع حول (الشرافة) ليتمكنوا من السيطرة على الأشراف . لكن انشغال الدولة فى نهايات القرن الثامن عشر وسنوات القرن التاسع عشر بإطفاء الفتن الداخلية والحروب الخارجية جعلها تقصر اهتمامها فى خصوص الحجاز بتأمين (ركب الحج) من مصر والشام والعراق ، وإرسال الصدقات (الصرة) السنوية الى أهل الحرمين الشريفين- وهكذا فإن الأمور تركت فى يد (الأشراف) المتصارعين .ومع أن (صنجق جدة) كان بحكم منصبه يملك الإشراف على شؤون الحرمين ، إلا أن حجم هذا الإشراف ومدى تأثيره كان يرتبط وجودا وعدما بقوة الشريف الحاكم فى مكة ، الذى كان يستطيع إذا كان قويا أن يتجاهل حتى أوامر الخلافة العثمانية .

والواقع أن (الشرافة) أصبح لها كيان مؤثر فى الحجاز منذ أن آل امرها إلى (آل زيد) ، فقد عملوا على استقلال الشرافه وتكوين سياسة شعبية لهم .

ومع إحساس الدولة بالإتجاه الإستقلالى لأشراف مكة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فإن تدخلها فى شؤون تعيين (الشريف الحاكم) زاد ، ودأبت على استخدام أسلوب إبعاد الأشراف الذين يخشى خطرهم الى الآستانة وإبقاءهم فيها لمدد طويلة وإسناد مناصب لهم لابعادهم عن السلطة فى الحجاز . من ذلك ماجرى للشريف الحسين بن على (١٨٥٤تقريبا ـ ٤يونيو١٩٣١) الذى نفى إلى الآستانة عام ١٨٩٣ ولم يعد إلى الحجاز إلا عام ١٩٠٨ ليتولى إمارة مكة خلفا للشريف عبد الإله الذى خلف الشريف عون الرفيق المتوفى عام ١٩٠٥ . ومع هذا فإن احتياطات الدولة ضد الأشراف المتمردين لم تستطع أن تمنع الشريف الحسين بن على من الإنضمام إلى إنجلترا عام ١٩١٦ أثناء الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) وإعلان الثورة على الدولة العثمانية وإنهاء السيادة العثمانية على بلاده . إنتهى نظام حكم الأشراف فى الحجاز بانتصار الأسرة السعودية عليهم عام ١٩٢٥ وتنازل الملك (على) إبن الشريف حسين عن ملكه فى ديسمبر ١٩٢٥ ، ودخول الحجاز تحت سيطرة النظام السعودى .

- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (الدولة السعودية الاولى ١٧٤٥-١٨١٨) الجزء الأول ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ الطبعة الرابعة ـ ص١٢٩-١٣٣

- توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨-١٩١٤) معهد الدراسات العربية العالية- ١٩٦٠- ص٢٢٨- حاشية٢ .

- Jere L.Bacharach (A Near East Studies Handbook, 570- 1974) University of Washington Press, Seattle and London- 1974- pp..126-127.

- Lexicon Universal Encyclopedia, vol.10- pp..319-320.

- دانيال كريسيليوس (جذور مصر الحديثة) ـ ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر- مكتبة نهضة الشرق - القاهرة- ١٩٨٥- ص١٧٣-١٧٨ .

فبلغت أجرة الجمل للراكب ثمانين ريالا أو يزيد ، فقعد الحجاج عن السفر ، ولبثوا أياما يقاسون حر النهار وقر الليل ، ونفذ ماك(٤٨٧) معهم من الأزواد ، فجعل بعضهم يتكفف الناس . ورفع بعضهم شكواهم إلى الوالى حتى يسر الله لهم العودة إلى جدة ، فاهتم الوزير نوبار باشا بحملهم إلى الطور على نفقة الخزينة ، ونقلهم إلى القاهرة كذلك ، فحمده الناس وأثنوا عليه .

وأوفى النيل أذرعه المعتادة . فتقرر قطع السد عند السبع سقايات(٤٨٨) صبح السبت حادى عشر أغسطس ، وعاشر صفر الخير ، وسادس مسرى سنة

---

(٤٨٧) ك = كان

(٤٨٨) السبع سقايات = كانت القلعة بعيدة عن النيل بحكم بناءها فى منطقة جبل المقطم .واعتمد الذين عاشوا أو عملوا بها على وصول المياه إليها عن طريق نظام من السواقى التى كانت ترفع المياه من النيل عند مصر القديمة لتسيرعبر مجرى مجرى ينقلها الى القلعة . لذلك فإن الصراعات الحزبية التى كانت تشغل سنوات القرن الثامن عشر من العهد العثمانى بين فرق المماليك المتناحرة (الفقارية القاسمية) أو بين العناصر المملوكية والنظام العثمانى كانت تأخذ مكانها فى منطقة القصر العينى والروضة حيث كانت توجد (السواقى) التى كانت ترفع المياه ، على اعتبار أن من يسيطر على السواقى فى تلك المنطقة يستطيع أن يحدد مصير المستحكمين بالقلعة من الخصوم إما بالإستسلام أو الموت عطشا . وقد ذكر أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان مصطلح (السبع سقايات) فى عمله (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ١٦٨٨-١٧٥٥م) وحدد مكانها فى المنطقة الواقعة بين الروضة وقصر العينى . وأما المجرى الذى كان ينقل المياه من مصر القديمة إلى القلعة فلا يزال قائما حتى اليوم فيما يعرف بمجرى العيون الذى يقع فى منطقة عين الصيرة ومصر القديمة والمدابغ بالقاهرة . ويقول پول كازانوڤا أن أعظم عمائر محمد بن قلاوون(٦٩٣-٦٩٤هـ) و(٦٩٨-٧٠٨هـ) و(٧٠٩-٧٤١هـ) شأنا خارج القلعة هو إنشاء القناطر الضخمة التى تحمل مياه النيل إلى القلعة . أما المقريزى فقد حدد لنا تاريخ إنشاء السواقى التى تنقل المياه إلى القلعة وكذلك المجرى الحجرى الذى يسمى بمجرى العيون بسنة سبعمائة واثنتى عشرة ٧١٢هـ فقال (وجميع مياه القلعة من ماء النيل ، تنقل من موضع الى موضع حتى تمر فى جميع مايحتاج اليه بالقلعة .... فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة إثنتى عشرة وسبعمائة أربع سواقى على بحر النيل ، تنقل الماء الى السور ، ثم من السور إلى القلعة ، وعمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقى الدين رجب التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الإسطبل) .

لكن جورجى زيدان يحدد تاريخا آخر لبناء مجرى العيون والسواقى يختلف عن ذلك الذى ذكره المقريزى فيقول أن محمد بن قلاوون (.... جر الماء إلى قلعة القاهرة سنة ٧١٨هـ فى مجراة على قناطر مبنية بالحجر . وركز للمياه آبارا وجعل عليها سواقى نقالة من عدة أماكن وهى الباقية إلى الآن تعرف بالسبع سواقى عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر تفصل بين القاهرة ومصر القديمة)

-(AL - Damurdashi's Chronicle of Egypt, 1688-1755- Al-Durra AL-Musana Fi Akhbar al-kinana) Translated and annotated by Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr - E.J.Brill- Leiden-1991- . pp..145.160,164,171

- پول كازانوڤا Paul Casanova (تاريخ ووصف قلعة القاهرة) ترجمة أحمد دراج - الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ١٩٧٤- ص١٤٤ .

- جرجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن) الجزء الأول- مرجع سبق ذكره- ص٣٣٧-٣٣٨

عشر وستمائة وألف قبطية . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق . فلما كان مساء الجمعة خرج الناس من مصر القديمة مشاة وركبانا إلى ناحية السد ، وأقبلت سفن المتفرجين ملاء[٤٨٩] بعلية القوم ومزينة بأشكال الأنوار المختلفة . وأصطفت سفن أهل الخلاعة وأصحال[٤٩٠] القصف تحت السد وفيها المغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات وجماعة كثيرة من العامة وزعر العطوف[٤٩١] وهم فى جلبة وضجة . وكانوا قد نصبوا السرادقات على دكة السد وفيها المصابيح الكثيرة والثريات الفاخرة ، فأمها المدعويين من كل صنف وطبقة . فلما أقبل الليل أطلقت الألعاب النارية والحرقات[٤٩٢] . وتكوف[٤٩٣] الناس حول الدكة ، وإزدحمت سائر الطرق بالمارة والعربات والخيل والحمير ودكك الباعة والقهاوى ومكامن الريبه ، وظلوا على ذلك إلى مطلع الفجر والسفن ملاء[٤٩٤] بالمتفرجين . ولما صارت الساعة السادسة صباحاً أقبل نائب الغيبة فى موكب

---

(٤٨٩) ملاء = ملأى

(٤٩٠) اصحال القصف = أصحاب القصف- والقصف هو اللهو واللعب
- مختار الصحاح- مرجع سبق ذكره- ص٢٢٥

(٤٩١) وزعر العطوف = الزعر قلة الشعر فيقال أزعر يعنى قليل شعر الرأس . والزعارة بتشديد الراء شراسة الخلق . والزعرور هو سئ الخلق- والعامة تقول رجل زعر وفيه زعارة . أما العطوف فهى جمع (عطفة) وهى طريق أضيق من الحارة فى مدينة القاهرة . والعطوف منطقة من مناطق القاهرة الشعبية بين الحسينية وباب الشعرية اشتهرت بكثره مشاحنات أهلها ومعاركهم . وقد ذكر الجبرتى هذه المسميات فى مقام حديثه عن ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) (وفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى سنة ١٢١٣هـ . . . . فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ماكانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم . . . . .وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين)
- الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ج٣- مطبعة الأنوار المحمدية- القاهرة١٩٨٦- ص٣٤-٣٥
- مختار الصحاح مرجع سبق ذكره ص١١٤ ، ١٨٤

(٤٩٢) الحرقات= الحراقات- والحراقة ماتقع فيه النار عند القدح- وجرى الناس على قولها بالتشديد- والمقصود هنا الصواريخ التى تطلق مع الألعاب النارية- والحراقة بالفتح والتشديد نوع من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر
- مختار الصحاح- مرجع سبق ذكره ـ ص٥٦

(٤٩٣) وتكوف = يعنى وتكدس

(٤٩٤) ملأ = ملأى

حافل للغاية وخلفه جميع الوزراء . فعزفت لقدومهم الموسيقى بنشيد الإمارة وأطلقت المدافع تباعاً ، فدخلوا جميعا السرادقات بين مجالى التبريك والتعظم[٤٩٥] ، وتبعهم المدعويين من العلماء والأمراء والعظماء وأهل المناصب وأصحاب الخطط . وبعد أن إستقر بهم المقام لحظة لطيفة ، رسم الوزير فكسروا السد ، ونثر الوزير الدنانير فوق السد وانحدر الماء إلى الخليج ، فأطلقت المدافع وعزفت الموسيقات وهنأ الناس بعضهم بعضا ورجع الوزير نوبار باشا بركبه وخلفه الوزراء ورجال الدولة ، وسافر من يومه إلى الإسكندرية .

ولم تشغل هذة الحفلات والمواسم عقلاء الناس عن التساءل[٤٩٦] عما كان وسيكون من وراء إحتلال الإيطاليان لكسلا ، وما إتخذه السلطان من الزرايع[٤٩٧] لمنع هذا التعدى الكبير ، وعدم إهتمام الدول ولا سيما دولة الإنجليز بما ينجم عن هذا التعدى من توتر العلايق بينها وبين السلطان ، وكان قد شاع أن رجال الشورى لما طرق آذانهم خبر هذا التعدى ، وتكلم به أصحاب الصحف على إختلاف نزعاتهم ، عقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر طويلا ، وحرروا بذلك محضرا رفعه بعضهم إلى الوزير نوبار باشا . يقال وكلموه فى شأن ذلك كثيرا ، وسألوه رفع الأمر إلى المابين والدول صاحبات الشأن ، ولعلم[٤٩٨] يريدون بأولئك الدول دولة الفرنسيس ودولة الألمان ودولة الروس إذ هن المعارضات للإنجليز[٤٩٩] فى التمشى على هذه الخطة الخارقة لكل عهد

(٤٩٥) والتعظم = والتعظيم
(٤٩٦) التساءل = التساؤل
(٤٩٧) الزرايع = الذرائع
(٤٩٨) ولعلم = ولعلهم
(٤٩٩) يعد التغير الذى حدث فى الموقف الأوروبى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، هو المسؤول عن تطور حركة استعمار أفريقيا والصراع الاستعمارى بها . ذلك أنه منذ سبعينيات القرن التاسع عشر أصبحت دول أوروبا تنافس إنجلترا فى الأسواق العالمية . كانت ألمانيا قد أصبحت منذ منتصف الثمانينيات قوة صناعية كبرى بعد أن نبذت مبدأ حرية التجارة واتبعت سياسة حماية منتجاتها- ولم تعد المنافسة بين هذه الدول قاصرة على الإنتاج السلعى والحصول على الأسواق الخارجية ، بل تعدتها إلى الإستثمارات فى المناطق المتخلفة . ترتب على ذلك إنخفاض أرقام التجارة الإنجليزية=

= مع الخارج ، وأصبح الميزان التجارى يعانى من الإنخفاض فى أرقام الصادرات وزيادة فى الواردات . ساهمت البطالة وزيادة أعداد السكان وتراكم رأس المال فى ظهور الحاجة إلى الاستعمار بعد أن كان (رأس المال البريطانى) قد وصل فى تطوره كظاهرة إقتصادية إلى آخر مراحل تطور الرأسمالية وهى مرحلة احتكار المواد الخام- لذلك فقد كان لابد لإنجلترا من السيطرة على مناطق المادة الخام- وكان الاتجاه هو استعمار أفريقيا . لكن هذا الإتجاه كان هو نفس اتجاه باقى دول اوروبا الكبرى أيضا كألمانيا وفرنسا كحل لأزماتهما الإقتصادية المتمثلة فى تراكم الإنتاج ورخصه ، والبطالة وإنخفاض الأجور . فى شرق أفريقيا استطاع (كارل بيترز) الألمانى أن يحصل لبلاده على مجموعة من الإتفاقيات مع أهالى البلاد ثم مالبثت ألمانيا أن أعلنت الحماية على شرق أفريقيا بعد مؤتمر برلين (١٨٨٣-١٨٨٥) . ومنذ ذلك الوقت أصبح خطر تهديد الألمان لوادى النيل من ناحية الجنوب ماثل فى أذهان صانعى السياسة البريطانية الذين حاولوا الوقوف فى وجه هذا الخطر عن طريق تأكيد حقوق مصر فى تلك المناطق . ومن جانبه تمكن ليوبولد الثانى ملك البلجيكيين من السيطرة على الكونغو الحرة والفوز باعتراف الدول المشاركة فى مؤتمر برلين بحقه فيها . وفى مواجهة مشاكلها الإقتصادية اتجهت ايطاليا بعد وحدتها عام ١٨٧٠ إلى أفريقيا للحصول على المستعمرات ، فكان مشروع مانشينى Mancini(١٨١٧-١٨٨٨) وزير الخارجية الإيطالى الذى يقضى بنشر نفوذ بلاده فى سواحل البحر الأحمر الغربية كجزء من مشروع كبير يرمى إلى إحتلال ليبيا وأجزاء من السودان . فاحتل الإيطاليون مصوع عام ١٨٨٥ ونشروا نفوذهم على الساحل الغربى للبحر الأحمر- واتجهوا نحو شرق السودان متحينين الفرصة للتوسع غربا . وفى البداية لم تعارض إنجلترا توسع الإيطاليين فى هذه المناطق بحسبانه قد يخدم مصالحها المتمثلة فى الحيلولة دون توسع فرنسا نحو السودان من مستعمراتها فى (أبوك) أو عن طريق إقامة نفوذها فى أثيوبيا تتخذه منطلقا للوصول إلى أعالى النيل . لكنها سرعان ماتنبهت إلى خطر هذا التوسع وعقدت معاهدة أبريل ١٨٩١ معها لتحديد مناطق النفوذ بين الدولتين فى شرق السودان . أما فرنسا فإنها بعد انهيار إمبراطوريتها عام ١٨١٥ كانت تحاول بناء إمبراطورية جديدة ، فاحتلت الجزائر عام ١٨٣٠ ، وفرضت حمايتها على تونس عام ١٨٨١ ثم شرعت فى توسيع رقعة أملاكها فى غرب افريقيا لتكون (أفريقيا الغربية الفرنسية) ، ثم أقامت مستعمرة الكونغو الفرنسى على الضفة اليمنى لنهر الكونغو بفضل دى برازا De Brazza . وفى سبيل مقاومة إنجلترا التى جعلت من وادى النيل منطقة لنفوذها فإن فرنسا سعت إلى عرقلة مشروعاتها بإرسال الحملات المنطلقة من أملاكها فى أفريقيا الوسطى إلى بحر الغزال فى الشرق للسيطرة على أعالى النيل حيث تستطيع قطع المياه عن مصر . صحيح أن هذه الحملات لم تبدأ إلا فى النصف الثانى من تسعينيات القرن التاسع عشر – إلا أن فرنسا كانت خلال النصف الأول من هذه التسعينيات تسعى للتغلب على صعوبات الوجود البلجيكى فى طريق هذه الحملات ، وصعوبات الجوار الإستعمارى الألمانى فى الكمرون خاصة وأن ألمانيا كانت قد وقعت مع إنجلترا إتفاقا فى ١٥نوفمبر ١٨٩٣ حددت بمقتضاه الحدود الغربية للكمرون ، وسمحت فيه إنجلترا لألمانيا بمد ممتلكاتها حتى بحيرة تشاد ، وهو ماكان يتعارض مع المصالح الفرنسية . وللتغلب على هذه الصعوبة فقد وقعت فرنسا فى ١٥ مارس ١٨٩٤ إتفاقا مع ألمانيا لتخطيط الحدود بين الكونغو الفرنسى والكمرون الألمانى- تساهلت فيه ألمانيا وأبدت استعدادها لتعويض فرنسا- وانتهى الإتفاق إلى حصول فرنسا على حق مد نفوذها إلى أقصى مكان تستطيع الوصول إليه نحو الشرق . ثم دخلت فرنسا فى مفاوضات مع بلجيكا فى أبريل ١٨٩٤ للتغلب على مشكلة اعتراض حكومة الكونغو على وصول فرنسا إلى النيل- لكن هذه المفاوضات لم تكلل بالنجاح لتعارض المصالح التوسعية للبلدين فى فريقيا . فى ذلك الوقت كانت قد راجت شائعات عن تحركات بلجيكية تجاه النيل فى المنطقة المجاورة لوادلاى . وسرعان ما احتلت إنجلترا وادلاى ودخلت فى مفاوضات مع بلجيكا إنتهت فى ١٢مايو ١٨٩٤ ، وفيها أجرت بريطانيا حاجز لادو إلى دولة الكونغو الحرة .

- راجع حاشية ٣٦٨ ص ٣٤٠ وحاشية٤٥٩ . ص ٣٥٦ ، ٤٦٣ ص ٣٥٨ .
- على بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان (١٨٨٩-١٨٩٩) مرجع سبق ذكره ص٧٠-٨٦ .
- انظر الخريطة ملحق رقم ٧ والخريطة ملحق رقم/٢ .

وميثاق ، الحاسدات لها على هذا الفلاح العظيم والطالع الميمون . قالوا . فاهتم الوزير لذلك كثيرا وسير ركبه إلى المابين ، وكلم قناصل الدول الكبرى فى ذلك . فما هى إلاعشية أو ضحاها حتى جاء الخبر بإهتمام السلطان بذلك الحادث وإحتجاجه على إحتلال الإيطاليان لكسلا ، وتوتر العلايق بين الباب العالى ودولة الإيطاليان ، حتى لقد إمتنع السلطان من [٥٠٠] قبول سفير إيطاليا الجديد بدار السلطنة . وتكلمت أكثر الصحف فى ذلك ولا سيما صحف الفرنسيس ، فإنها شنت[٥٠١] على السلطان وشجعته ، وهونت عليه الصعاب من الأمور ، وقالت أن الإحتجاج ضد هذا التعدى المعيب أنما يراد منه أمر أهم وشأن أهم ، وهو إتفاق الإنجليز والإيطاليان على معاودة فتح السودان بالقوات الإيطالية والانجليزية المصرية[٥٠٢]مما قد كان شاع خبره . ثم كذبه الإنجليز يومئذ . وقد إستشهدت تلك الصحف على صحة ذلك بما قالته صحيفة إيطاليا العسكرية التى هى لسان حال رجال الحرب ، وباهتمام المابين السلطانى بالاحتجاج ضد إحتلال كسلا . قالت ولو كان السلطان يعقد الإحتجاج على مجرد إحتلال كسلا لفعل فى غد اليوم الذى دخلت فيه الجيوش الإيطالية ذلك

---

(٥٠٠) من = عن

(٥٠١) شنت = أثنت

(٥٠٢) بعودة كرسبى (٤أكتوبر١٨١٩- ١٢أغسطس١٩٠١) الى السلطة كرئيس لوزراء إيطاليا (١٨٩٣-١٨٩٦) عادت إيطاليا إلى التطلع إلى مدنفوذها السياسى فى السودان الشرقى- فكان أن استولت على (كسلا) فى ١٧يوليو١٨٩٤ وفقا لاتفاق ١٥أبريل١٨٩١ . فى فبراير١٨٩٤ إقترحت إيطاليا أن يقوم تعاون مشترك بين السلطات الإنجليزية فى سواكن والسلطات الإيطالية فى مصوع ضد عثمان دقنه . وفى ٢١فبراير١٨٩٤ عرضت إيطاليا خطة عمل مشتركة ضد المهديين تتلخص فى أن يبادر أحد الطرفين بنجدة الآخر فى حالة وقوع هجوم عليه . تبع ذلك أن أرسلت الحكومة الإيطالية الكونت ساميناتللى Samminiatelli ليبحث مع المعتمد البريطانى فى مصر إمكانية تبادل المعلومات حول تحركات المهديين بين كل من العسكريين الإيطاليين فى مصوع والسلطات المصرية فى سواكن والقاهرة . وقد رفضت إنجلترا فكرة احتلال كسلا بقوات مشتركة ، وظل الإيطاليون حتى مارس١٨٩٤ يلحون على إنجلترا بشأن التعاون للقيام بعمل مشترك ضد المهديين . لكن انجلترا كانت ضد هذه الفكرة ورأت أن يستقل كل جانب بالعمل عن الآخر- وهكذا فإن إيطاليا عندما يئست من ذلك قررت إحتلال كسلا بمفردها- وقد كان .

- على بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ص١٠٦-١٠٩

البلد أ .هـ قلت . وكأن الهيئة الحاكمة رأت أن فى ما كتبه أعضاء شورى البلاد من الإحتجاج على إحتلال الإيطاليان لكسلا خروج عن حد ، وتحككت بالسياسة التى لا شأن لهم بها . يقال فأهملت ما وصل إليها من ذلك وعاتبت رئيس الشورى وحسنت إليه الرجوع بالإعفاء[٥٠٣] إلى التأنى ، وعدم الإقدام على عمل من مثل هذا قبل تمحيصه ، والتحقق من قدر نصيبهم منه . قالوا على أن القوم لم يتحادثوا بشأن هذا الإحتلال إلا بصفتهم نوابا عن الأمة التى أحزنها هذا الأمر ، وهم يعلمون بأن الهيئة الحاكمة أشد إهتماما بالحادث ، ولكنهم قد بسطوا إليها رأى الأمة وأبلغوها إياه بلاغا لا يخلو من الإرشاد إلى العمل الذى تستحسنه هى ، والذى لا شأن لرجال الشورى فيه بصفتهم المقرره. وقامت يومئذ صحف الإنجليز وقعدت وأنحت باللائمة على جماعة الشورى وسفهت أخلاقهم أنهم تطفلوا على موائد السياسة فى أيام هذا الزمان ، وهم بعيدون عن كل خبره فى ذلك . فقام فى وجهها أصحاب الصحف المحلية وقبحوا مسالك الإنجليز وسياستهم . وقالوا وأى عداء لمصر والمصريين ولأمير البلاد أشد من عدائهم من كيدهم ، وهم إنما يرسلون الأسلحة والذخيرة وآلات القتال إلى القبايل الضاربة حول سواكن لتعدهم للخروج عند الحاجه . وأى خيانة أكبر من إدخال تلك المعدات ضمن زنابيل (العجوه) تحت جنح الليل ، وفاتهم أنه لا خفى إلا وسيظهر ، ولا مكتوم إلا وسيعلن . وهذا[٥٠٤] وقد برح الخفاء وظهر أن قد ورد إلى أركان حرب جيش الإحتلال بالقاهرة كتاب ضخم من لورد ولسلى قائد الجيوش الإنجليزية يتضمن التفاصيل الجمه على حملة السودان ، وعقد النية على إرجاعه بواسطة زحف الجيوش الإنجليزية فى شهر نوفمبر المقبل . قال ذلك اللورد (وعلى كبار عساكرنا أن يجدوا فى إتمام

---

(٥٠٣) بالاعفاء = بالأعضاء قراءة ترجيحية
(٥٠٤) وهذا = هذا

التجهيزات وإتخاذ الأهبة العاجلة حتى لا يأتى شهر أكتوبر حتى يكون قد تم كإستعداد[٥٠٥] . وحينئذ تأتى العساكر الإنجليزية من قبرص لتنضم لجيش الإحتلال ويترفعون إلى تلك الأطراف فيلتقون مع العساكر الإيطالية فى أصعد[٥٠٦] واحد ، ويقاتلون السود جنب[٥٠٧] لجنب . فيكون نصيب الإيطاليان يومئذ سائر الأراضى الواقعة فى المنطقة المتفق عليها فى العهدة الأخيرة) . قال وسيبدأ العمل بسواكن فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر ، ومن هناك تذهب الجنود إلى بربر والخرطوم ، وتبقى وادى حلفة محصورة أتم الحصار) . فرد عليهم أصحاب الصحف الإنجليزية . وقامت حرب الاخذ والرد بين الفريقين أياما وكل فريق يؤكد دعواه بالحجة والبرهان . قلت . وعندى أن الفتح لابد منه وأنه واقع لا محالة ، فقد عرفنا من أولئك القوم الإنجليز أنهم إذا أرادوا أن يضربون[٥٠٨] ضربة قوية دفعوا أصحاب صحفهم إلى طلب الذى هن[٥٠٩] طالبوه ، وألحوا فى طلبه فيتظاهرون هم بأنهم مطردين[٥١٠] إليه مدفعين[٥١١] برغبة الشعب . بحيث صار من المقرر الذى لا مراء فيه عند كل مفكر إنه إذا قال أصحاب الجرائد شيئا أو طالبوا صاحب .

---

(٥٠٥) كإ استعداد = الإستعداد

(٥٠٦) اصعد = صعيد

(٥٠٧) جنب = جنبا

(٥٠٨) يضربون = يضربوا

(٥٠٩) هن = هم

(٥١٠) مطردين = مضطرين

(٥١١) مدفعين = مدفوعين

سيـاسـتـهم بشىء كـان ذلك الشىء من أقصى أمـانى أصحـاب الحل والعقد . ولكنهم يريدون قبل الإقدام عليه أن يردوا[٥١٢] ما يكون من خصومهم الكارهين لسياستهم فى هذا الزمان ، وأن يظهروا أنفسهم مرغومين[٥١٣] على عمل ذلك الشىء لا مخيرين فتأمل . وجاء الخبر من الموكلين بمراقبة فيضان النيل فى هذا العام بتدفق مياهه من أعاليه بشدة زائده ، ولزوم الحيطة فى سائر البلاد . فرسم الوزير نوبار باشا إلى سائر المديرين والمحافظين باليقظة والسهر والعناية بالجسور وحبوس الحيضان . وقام فخرى باشا وزير الأشغال العمومية إلى الصعيد إلاعلى ومعه جماعة من المهندسين وأصحاب الرى لمشارفة أعمال التحفظ التى هم بها المديرون وأهل البلاد . وأعطيت الخزينة مبلغا من المال قدرها[٥١٤] ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيها مصريا لصرفه فى تلك الشئون . ورسم الوزير برجوع سائر عمال الدواوين الذين بالإسكندرية إلى القاهرة كى لا يكون أهل الحل والعقد بعيدين عنها فى ذلك الوقت العصيب . وتحدث الناس فى خطر الفيضان وشدة إندفاع المياه وتوالى الزيادة بعضها تلو بعض حتى أكد العارفون وأصحاب الرأى أنها تربو على زيادة سنة إثنتين وتسعين . قالوا وقد حدث منذ إحتلال الإنجليز لهذه البلاد فيضانين عظيمين وأصحاب الرى منهم لم يهتموا بالجسور ولم يمتنوا الرؤوس ويزيدوها بحيث يقل خطر الغرق عن البلاد من تعاظم النيل فى هذا العام . وكثر تحدثهم فى ذلك . وعند[٥١٥] أن الحظر[٥١٦] من ذلك بعيد . فقد إتفق فى سنين مضت أن النيل هجم بالإرتفاع مثل هجومه ذلك اليوم ، ثم وقف وقفة واحدة ، على حين أن المنتظر أنه يتدفق من فوق الجسور . وسير الوزير نوبار باشا بخبر ذلك إلى الأمير بعاصمة

(٥١٢) يردوا = يروا قراءة ترجيحية
(٥١٣) مرغومين = مرغمين
(٥١٤) قدرها = قدره
(٥١٥) وعند = وعندى
(٥١٦) الحظر = الخطر

البلجيك ، ووعده بمتابعة الأخبار وموافاته بسائر حوادث الفيضان حتى يريد الله بخلاص البلاد من ذلك الخطر الوبيل . وبينما الناس يراقبون حوادث فيضان النيل مع القلق والخوف إذ ظهرت محنة أخرى ومكيدة كبرى . ذلك أن رئيس ديوان منع بيع الرقيق أى منع بيع الإماء والعبيد الجلب وأسمه (شفربك)[٥١٧] نمساوى الجنس ، أذاع وملاء[٥١٨] الأسماع ضجه وجلبة بأن (على باشا شريف) رئيس مجلس شورى البلاد (وشواربى باشا) وكيل ذلك المجلس (وحسين باشا واصف) وكيل الأوقاف العمومية سابقا والطبيب (عبد الحميد بك الشافعى) إشتروا جوارى من البنات الزنجيات اللواتى كان قد أحضرهن بعض النخاسين . ولما كان هذا الأمر جرم من الجرائم العظيمة التى يعاقب عليها القانون العقاب العظيم رسم (شفر) هذا بالقبض على أولئك الباشوات . فقبضوا على (على باشا شريف) (وحسين واصف باشا) (وعبد الحميد بك) وأتوابهم إلى مغفر[٥١٩] عابدين . فقال شريف باشا أنهـ[٥٢٠] حائز للوطنية الإيطالية ، ولذلك لا يجوز قط تعويقه فضلا عن حبسه . وعلم قنصل جنرال إيطاليا بالخبر ، جاء[٥٢١] القنصل إلى المغفر فى مساء اليوم ، وأخرج على باشا وأبلغ الخبر إلى صاحب سياستهم . فتقدم[٥٢٢] أحد الباشوات فكفل حسين واصف باشا حتى يتم التحقيق . أما شواربى باشا فإنه عندما بلغه عزم صاحب ديوان الرقيق على القبض عليه سافر من ساعته إلى الإسكندرية . وأبلغ

---

(٥١٧) شفربك = Schaefer ـ نمساوى دخل فى خدمة الحكومة المصرية فى السبعينيات ـ عمل بقلم منع تجارة الرقيق الذى تأسس وفقا لمعاهدة التعاون على إبطال الرقيق المعقودة بين مصر وبريطانيا فى ٤أغسطس ١٨٧٧ ـ كان برتبة الكولونيل عام ١٨٨٨- جمعت إدارة عموم أقلام عتق الرقيق التى كان يرأسها أقلام البوليس السرى والعربان فى عام ١٨٩١
- الوقائع المصرية ٢٠يوليو ١٨٩١

(٥١٨) وملاء = وملأ

(٥١٩) مغفر = مخفر

(٥٢٠) انوه = أنه

(٥٢١) جاء = فجاء

(٥٢٢) فتقدم = وتقدم

الوزير نوبار باشا خبر ذلك الحادث فاهتم له كثيرا . وعندى أن هذا الحادث العظيم من نوعه وأن كان لا تخلو مجرياته من شبه الحقيقة إلا أنه لم يكن ليستحق كل هذا الإهتمام وكل تلك المخاطرة ودوس القانون لولا أن فى صدور جماعة الإنجليز وصاحب ديوان منع الإتجار بالرقيق ما فيها من العداء وحب الإنتقام من على باشا شريف رئيس مجلس الشورى ووكيله وكل من تمكنوا من الإنتقام منه من رجال الشورى . ذلك أنه لما رفع وزير الخزينة ميزانية الحكومة فى سنتهم تلك إلى مجلس شورى البلاد للتصديق عليها حسب المعتاد ، تناجى رجال الشورى فى أبواب المصروفات ولا سيما منها مصروفات ديوان منع الاتجار فى الرقيق ، وأكثروا من إنتقاد ذلك الديوان ، وكشفوا عن كثير من عورات (شفر بك) رئيسه ، وعابوا على الهيئة الحاكمة أغضائها عن مسلكه الشائن . وأخيرا طلبوا إبطال ذلك الديوان جملة ــ وتخليص الخزينة من ثقل مصروفاته ، فوافقهم رئيسهم على شريف باشا على ذلك ، وأبلغ وزارة الداخلية مجمل ما قالوا ، وإنحاز إلى رأيهم أكثر أصحاب الصحف المحلية وعدد من أصحاب الصحف الأجنبية ، وأنحوا على (شفر بك) وجنده وكبار جنده باللائمه أياما من الدهر ، وعابوا على لورد كرومر أخذه بيد شفر والذى عنه[٥٢٣] وهو يعلم ما ظهر من أعماله وما أستتر . وإرتفعت جلبة أصحاب الصحف ، وكثر هتر رجال الشورى فى مجالسهم الخصوصية وأندية سهرهم ، ونقل بعض أصحاب الصحف الإيطالية كلاما من معنى ذلك أيضا عن (على باشا شريف)(والشواربى باشا) فأعجب الناس قولهما ، وأظهروا الشماته (بشفر) ولورد كرومر ، وهذه عادتهم عند حصول الإرجاف أو التغالى فى قدح معائب جماعة الإنجليز وصنائعهم ، وعجزهم عن إدارة ما تسلموه من المناصب والخطط . فما

---

(٥٢٣) والذى عنه وهو يعلم = وهو الذى يعلم عنه قراءة ترجيحية . وعن موقف مجلس شورى القوانين من مصلحة الرقيق- راجع حاشية ٣٥١ص ٢٦١ ، كذلك راجع حاشية ٣٥٥ ص ٢٦٢ فيما يتعلق بالصراع بين المجلس المذكور والوجود البريطانى فى مصر فى التسعينيات .

هى إلا أيام حتى رفع (شفر) هذا برأسه وتشامخ بانفة ، وبث جنده وجواسيسه وإرصاده حول أولئك الباشوات أياما ، ثم رسم لأعوانه بالقبض عليهم فأتوا بهم وزجوهم فى سجن مغفر[٥٢٤] عابدين مثل صغار العامة أو كبار السوقة ، حتى لقد طلب شريف باشا أن يرسل خبر حبسه إلى الوزير نوبار باشا بالإسكندرية على جناح البرق . فلم يسمح له بذلك شفر بك . ثم عاد فأرسل بالإشارة البرقية إلى الوكالة البريطانية أى إلى مقر لورد كرومر فبقت به حينا ، ثم أرسلوها إلى مقر الوزير . ولا أدرى كيف كان دخول أولئك الزنجيات إلى القاهرة ، وبلاد السود فى حصار تمام ،[٥٢٥] . والتخوم ملا[٥٢٦] بالجند والكراع ، وأصحاب المراصد يواصلون الحراسة ليل نهار ، وجند(شفر) وعيونه وأرصاده منبثين بين الهضاب والبطاح ، وأنعامهم تمرح على شواطىء النيل شرقا وغربا صعدا وهبوطا . ولا أدرى كيف صاع[٥٢٧] لهذا النمسوى الكبير القبض على النفر[٥٢٨] وليس فى قانون البلاد ما يدعو إلى معاقبتهم . يقول (شفر) بل هم يعاقبون بحكم المنشور الذى أصدره مصطفى رياض باشا على عهد رئاسة[٥٢٩] الذاهبة . وأهل القضاء كلهم يقولون أخطأ شفر وحلت عقوبة[٥٣٠] ، لأن ذلك المنشور قد ذهب وذهبت أيامه بظهور قانون المحاكم الأهلية[٥٣١] ، فلولا فى نفسه ما فيها

---

(٥٢٤) مغفر = مخفر
(٥٢٥) تمام = تام
(٥٢٦) ملا = ملآى
(٥٢٧) صاغ = ساغ
(٥٢٨) النفر = هذا النفر
(٥٢٩) رآسة = رآسته
(٥٣٠) عقوبة = عقوبته
(٥٣١) تتلخص واقعة شراء الرقيق فيما ذكرته بعض الصحف خلال شهر أغسطس سنة ١٨٩٤ من أن بعض النخاسين أتوا من السودان الى مصر سرا ومعهم ستة فتيات سودانيات ، فباعوا ثلاثا منهن إلى (على باشا شريف) رئيس مجلس شورى القوانين والرابعة إلى (حسين باشا واصف) وكيل الأوقاف ، والإثنتين الباقيتين إلى الدكتور/ عبد الحميد بك شافعى بك الطبيب الذى أعطى إحداهما إلى محمد باشا الشواربى أحد أعيان قليوب وعضو مجلس شورى القوانين- فلما اتصل خبر هذا الحادث الى (شيفربك) مدير عموم أقلام عتق الرقيق والبوليس السرى والعربان قام بالقبض على (على باشا شريف وحسين باشا واصف) وأودعهما (قسم شرطة) عابدين بالقاهرة وأمر بالقبض على الآخرين . إدعى (على باشا شريف) يوم ٢٩أغسطس أنه يتمتع بالحصانة الإيطالية (أى الإمتيازات الأجنبية التى تحصن رعايا بعض دول أوروبيه معينه من تطبيق قوانين البلاد عليهم) منذ عام ١٨٥٩ ، وأفرج عن حسين باشا واصف (بالضمان) . فى الأيام التالية أثير موضوع (قانونية) حبس =

=المتهمين حيث ظهر أن الدكريتو الصادر بمنع الرقيق فى سنة ١٨٧٧ بناء على المعاهدة المصرية- الإنجليزية المبرمة فى ٤أغسطس من نفس السنة - يعاقب البائع للرقيق وشركائه ولم يذكر شيئا عن الشارى . أما عقاب الشارى فكان قد تقرر وفق (منشور) صادر عن نظارة الداخلية سنة ١٨٨٠ فى عهد نظارة مصطفى رياض باشا الأولى (٢١سبتمبر ١٨٧٩ - ١٠سبتمبر١٨٨١) . عندما صدر الأمر العالى بلائحة إعادة ترتيب المحاكم الأهلية فى ١٤يونيو١٨٨٣ وأخذ فيه بالنظام القضائى الحديث لأول مرة فى البلاد كان من بين ترتيباته إلغاء أى تشكيلات قضائية أو قوانين أو منشورات سابقة على صدوره ـ وبالتالى فإن أى قرارات فى شأن معاقبة مشترى الرقيق كانت وفق الأمر الجديد تعتبر باطلة على اعتبار أن المنشور لايكون فى قوة الأمر العالى . خلال الأيام التالية أمر (نوبار) بتشكيل لجنة للنظر فى قانونية حبس الباشوات من (إبراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية ، المسيو روكاسيرا مستشار خديوى فى قلم قضايا الحكومة ، وحسن بك عاصم الأفوكاتو (المحامى) ، وانتهت اللجنة بتخطئة (شفربك) الأمر بحبس الباشوات ، لكن مجلس النظار لم يوافق على قرارها وقرر وجوب محاكمتهم أمام مجلس عسكرى تحت ضغط الوجود البريطانى فى مصر . فى الرابع من سبتمبر ١٨٩٤ إنعقد المجلس العسكرى دون وجود نص قانونى لمحاكمة المتهمين ، وفى الحادى عشر من الشهر إنتهت المرافعة بعد أن اعترف محامى عبد الحميد بك شافعى عن موكله ، وقيل أن الإنجليز وعدوه بالعفو- فى ١٤سبتمبر قضى المجلس العسكرى ببراءة الشواربى باشا وحسين باشا واصف وبالسجن لمدة ستة أشهر على عبد الحميد بك شافعى- وبأحكام مختلفة على النخاسين الذين جلبوا الفتيات . أما بالنسبة لعلى باشا شريف فإن مباحثات سريه جرت بينه وبين الإنجليز ووسطائهم وتمت تسوية القضية على أساس عدم محاكمته بسبب المرض على أن يعترف بجرمه وأن يستقيل من رآسة مجلس شورى القوانين . وفى ٢٧سبتمبر ١٨٩٤ صدر (أمر عسكرى خصوصى) عن ديوان الحربية تضمن الجزء الأول منه قيام البكباشى (مقدم) بنتن والبكباشى (أسبنج) بالكشف على المتهم وقدما تقريرا مفاده عدم لياقته للمحاكمة أمام مجلس عسكرى . وجاء فى الجزء الثانى من الأمر أن المتهم قد صار إعلانه بالفكر الموضح (أى التهمة المنسوبة إليه) وأنه رغب فى كتابة تقرير عنها . وأثبت الأمر أن (سعادة السردار عين حضرة البكباشى چدچ والصاغ محمد أفندى بدر للذهاب إلى منزل على باشا شريف وهناك المتهم عمل التقرير الآتى وأمضاه بحضورهم وأمام نصوحه الشرعى (الأفوكاتو)

(أقر أنى اشتريت ثلاث سودانيات لذمة الخدمة بدائرتنا وبقين بالدائرة لحد يوم تسليمهن إلى الحكومة وأعترف بأنى مذنب فى هذا الفعل لعلمى أن هذا غير جائز ولكن حصل ذلك منى بنوع الإهمال والآن قد ندمت وتأسفت على حصول ذلك وعليه أنا طالب العفو والسماح من لدن ولى الأمر) .

ويتضمن الجزء التالى من الأمر العسكرى أن (سعادة السردار من بعد فحص المحررات المتقدمة قرر أن من فكر سعادته أنه ليس من الضرورى إدخال سعادة على باشا شريف أمام مجلس عسكرى عالى نظير إدعاآت الرقيق المقامة ضده) ـ وينتهى الأمر العسكرى بتصديق (مكارم الحضرة الفخيمة الخديوية وصدر النطق العالى بالتصديق على قرار سعادة السردار) .

ويعقب محمد فريد فى مذكراته على ظروف القضية وإقرار على باشا شريف بقوله أن الإنجليز تحصلوا (على إقناع الرأى العام بأن مسئلة الرقيق لم تكن دسيسة منهم بل حقيقة بمقتضى الإعتراف الذى دل على أن على باشا شريف لم يستحق مامنحه الرأى العام فى مصر من الإشفاق والتأسف على ماحصل . وارتكب بذلك غلطتين استحق عليهما سخط العموم وهما إنتمائه لإيطاليا وتبرؤه من جنسيته المصرية واعترافه أخيرا) .

وتكشف ملابسات قضية الرقيق فى أغسطس ١٨٩٤ والمتهم فيها رئيس مجلس شورى القوانين وشخصيات مصرية أخرى لها قدرها عن مدى هيمنة وتدخل سلطات الإحتلال البريطانى فى سير العدالة ، وقدرتها على الإطاحة بمن يعترض مسالكها عن طريق خلق قضاء له وضعه الخاص ، وتمكنها من إدانه معارضيها باستخدام شتى الأساليب . كانت بريطانيا قد أعلنت مكافحتها لتجارة الرقيق لتظهر أمام العالم باعتبارها الحامية للجنس الإنسانى ـ واتخذت من هذا المنع وسيلة للتضييق على المصريين ـــ صحيح أن مسالة استرقاق إنسان أمر يأباه المجتمع المتحضر ، لكن هذا الأمر كان حتى ذلك الوقت شيئا لاغضاضة فيه فى مصر ـــ لقد اتهم على شريف رئيس مجلس شورى القوانين وبعض من أعضائه المقربين للخديو فى قضية شراء الفتيات السودانيات كرقيق ـ ومن المعروف أن على شريف كان من المعارضين للوجود البريطانى وسياسة الإحتلال فى مصر ـ =

لما أقدم على ركوب هذا المركب الخشن . قالوا ولقد أرسل(شفر) كتبه إلى لورد كرومر يستشيره فى الأمر ، فأشار عليه بعمل هذا الفعل الشائن أهانة لعلى شريف باشا ووكيله ، وترهيبا لسائر رجال الشورى وترليلا(٥٣٢) . وعلت صيحة أصحاب الصف المحلية ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، حتى قال صاحب الأهرام فى ذلك نكته علمية أعجبتنى وهى «فلتت الأفكار كثيرا فى هذه الأيام فى جميع العالم العلمى لما يشاهد من المراصد الفلكية من النيران غير العادية التى تنقطع من المريخ وتستطع(٥٣٣) سطوعا متشعشعا ، والعلماء مختلفون فى هذا الحادث الغريب ، فبعضهم يزعم أن السيارة(٥٣٤) تحترق ، وبعض يقول أن هناك غابات متسعة جداً يلتهما ضرام أحدثه عارض من عوارض جو المريخ أو أرضه ، وبعض يقولون أن هناك بركانات عظيمه إنفجرت دفعة واحدة» . قال «ومهما يكن من هذا الحادث فقد رأينا أن نطلع عليه القراء ولا سيما المنجمين منهم فيعلمون أن من تأثير ذلك النجم تشعع رؤوس بعض الموظفين الأجانب هنا حتى تساقط النيازك على كبار القوم والله والواقى» أ .هـ واستصرخ صاحب

=وقدم الرجل ورفاقه أمام مجلس عسكرى خاص رغم خلو نصوص القانون المصرى من نص يوجب عقابهم ، فهم لم يكونوا تجارا لهذا النوع من التجارات . لكن السردار الانجليزى قائد جيش الإحتلال أصر ــ بناء على تعليمات كرومر على محاكمتهم . ودون الدخول فى تفريعات تتعلق بإمكانية أن يكون الأمر دسيسة إنجليزية بقصد الإنتقام من الرجل الذى كان يعارض عام ١٨٩٣ فى بقاء مصلحة الغاء الرقيق ويبرهن على قلة الحاجة إليها ، فإن ماحدث كان حلقة من مسلسل إذلال المصريين وضرب العناصر المعارضة للوجود البريطانى وتأكيد لدستور الإحتلال الذى أطاح بنظارة شريف فى يناير ١٨٨٤ عندما عارض مطلب بريطانيا إخلاء السودان .

وحتى تقضى بريطانيا على ما أثارته قضية على باشا شريف من إعتراضات فإنها وقعت مع الحكومة المصرية فى ٢١نوفمبر ١٨٩٥ (وفاقا) يقضى بإحالة الأعمال المخالفة لقانون الجنايات والجنح المتعلقة بالاسترقاق على محكمة تؤلف من خمسة قضاة من محكمة الإستئناف الأهلية ، إثنان منهم من الأوروبيين وينتخبون بقرار من نظارة الحقانية يعين فيه الرئيس والجهة التى تعقد فيها المحكمة .

- مذكرات محمد فريد ــ القسم الأول ــ مرجع سبق ذكره ص٢١١,٢١٣,٢١٧
- الوقائع المصرية ١١أكتوبر١٨٩٤ .
- لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥-١٩١٤) مرجع سبق ذكره ص١٥١
- تقويم سنة ١٩٣٥- المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة- ١٩٣٥ ص٢٢٣

(٥٣٢) وترليلا = وإذلالا

(٥٣٣) وتستطع = وتسطع

(٥٣٤) السيارة = الكواكب السيارة   أضيفت الكلمة ليستقيم النص

جريدة (الجنرال[٥٣٥] إجبسـيان) الإفـرنسيـة أبناء جلدتهم إلى نصـرة الحق ، والإستعانه بصحفهم على إيقاف هذا التيار الجارف من جانب جماعة الإنجليز الذى قل أن يبقى لدولة من الدول الأوربية فى ديار مصـر أثرا أو عين . أنا[٥٣٦] أطلقت يد لورد كرومر وأنحلت عقدة أخرى من لسانه ، حتى لقد هم بعض رجال الشورى بترك مناصبهم والتخلى عنها ، فراجعهم الوزير نوبار باشا وأرجعهم عن ذلك العزم . وتألب جماعة الإنجليز أصحاب المناصب مع لورد كرومر على معاقبة على شريف باشا ومن معه على إجرامهم ذلك الجرم الكبير فى نظرهم . وقد دفع بهم إلى ذلك إتفاق أعضاء اللجنة التى تألف[٥٣٧] بايعاز الوزير للبحث قضائيا فيما إذا كانت القوانين تقضى بمحاكمة الشارى لأولئك الزنجيات كمحاكمة البائع لهن أو غير ذلك . فقررت بالإتفاق أن الشارى لا يعاقب عقاب البائع ، وأن الرقيق المباع لا يجوز قط إخراجه من بيت شاريه إلا إذا طلب هو ذلك وعرض شكواه على ولاة الأمر . فأغضبة[٥٣٨] ذلك لورد كرومر وشدد فى معاقبتهم وهدد الوزير تهديداً . فعقد الوزير الوزراء[٥٣٩] وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم وقع إتفاقهم على تشكيل محكمة عسكرية لتحكم فى هذا الإجرام ، حتى إذا حكمت بالعقوبة عفى عن المجرمين وإنحلت عقدة الخلاف بين جماعة الإنجليز والهيئة الحاكمه . حدثنى من لا أشك فى صدق حديثه قال (أظنك ممن تنكرون على العارفين قولهم بأن تهمة شراء أولئك الزنجيات هى من بنات أفكار شفر وجماعة الإنجليز وأنها مكيدة مدبرة للإيقاع بعلى شريف باشا ومن معه لغاية فى النفس) . فقلت أن الدعوة[٥٤٠] عريضة ، والأدلة

---

(٥٣٥) الجنرال = الجورنال

(٥٣٦) أنا = إستبعدت الكلمة ووضعت بدلا منها كلمة (لقد) ليستقيم المعنى

(٥٣٧) تألف = تألفت .

(٥٣٨) فاغضبه = فأغضب

(٥٣٩) الوزراء = مجلس الوزراء أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٥٤٠) الدعوة = الدعوى أى الدعوى المقامة ضد المتهمين

ينقص بعضها بعض ، ولا أدرى أى القولين أرجح ، وأنت تعلم أنه لا يصح العدول عن مقاصد الشريعة فلا تعاوض فيها بين المقطوع والمظنون ، والزنجيات قد أعترفن بحضورهن من (وادلاى)[٥٤١] ، وأنهن بعن إلى أولئك الشارون ، وقلنا[٥٤٢] غير ذلك كثير . فقال أعلم أن قولهن هذا وما جرى مجراه من قول الحسدة لرجال الشورى ورئيسهم هو الدليل على أنها قرية ما أنزل الله بها من سلطان . فإنه إذا كن أولئك الزنجيات جئن من وادلاى وبعن على الأثر إلى أولئك الباشوات فكيف هن يتكلمن العربية كابناء البلاد وأحسن إتقانا ، وأى وحى أو تنزيل هبط عليهن بتفاصيل قصر على شريف باشا وما فيه ، ومحاسن قصر الدوباره مقر لورد كرومر وما حواه . وكيف أنه لم تفت إحداهن أهمن[٥٤٣] الله معرفة نمرة العربية[٥٤٤] التى ركبتها ، وشخص الحوزى[٥٤٥] الذى

---

(٥٤١) وادلاى = عاصمة مديرية خط الاستواء منذ عهد اسماعيل . كانت مصر قد مدت حكمها على أعالى النيل فى عهد إسماعيل ففتحت مملكة (أونيورو) المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقا عام١٨٧٢ ثم استولت على أوغنده عام١٨٧٤ وأنشأت النقاط العسكرية الحصينة فى أعالى النيل (كاللادو) (لابورى) (الرجاف على النيل الأبيض) (مكركه) جنوبى بحر الغزال (مرولى) على نيل ڤكتوريا- وغيرها ، وسميت هذه الجهات مديرية خط الإستواء وامتدت من جنوبى (فاشودة) إلى جنوبى خط الاستواء . ورغم قيام الثورة المهدية فإن مديرية خط الإستواء بقيت تحت الحكم المصرى . لكن المهديين ركزوا هجومهم على المديرية فى نهايات ١٨٨٨ فوصلوا إلى (اللادو) ثم هاجموا (الرجاف) وحاصروا (الدفلاى) وانتهى الأمر إلى إخلاء المديرية فى أوائل١٨٨٩ . بعد جلاء مصر عن مديرية خط الإستواء شرعت إنجلترا فى الإتفاق مع الدول الإستعمارية على تقسيمها . فأبرمت وألمانيا معاهدة فى أول يوليو ١٨٩٠ تضمنت إقرار ألمانيا لمركز إنجلترا فى أعالى النيل فنصت على أن أفريقية الشرقية البريطانية تمتد إلى حدود مصر وإلى حدود الكونجو البلجيكية. ــ وفى مارس ١٨٩٣ بسطت إنجلترا حمايتها على أوغنده ثم استولت عليها وعلى أونيورو ــ وفى فبراير ١٨٩٤ إحتلت وادلاى ــ وفى ١٢ مايو ١٨٩٤ عقدت مع بلجيكا معاهدة حددت فيها الحدود بين ولاية الكونغو البلجيكية والسودان ــ ثم اتفق ملك البلجيكيين مع إنجلترا على إقتطاع إقليم اللادو وبحر الغزال وضمهما إلى مستعمرة الكونجو حتى عام ١٩٠٦ .

ــ أنظر الخريطة فى الملحق رقم ١

ــ عبد الرحمن الرافعى(مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٤١،٨٤ ــ ١٤٥ ، ١٤٧ ــ ١٥٤

- Patricia Wright (Conflict on the Nile) op., cit., pp., 50, 54

(٥٤٢) وقلنا = وقلن

(٥٤٣) أهمن الله = ألهمها الله قراءة ترجيحية

(٥٤٤) العربية = العربة

(٥٤٥) الحوزى = الحوذى

ركل العربة وغير ذلك . ثم وانظر هداك الله كيف كان ثمن الجارية منهم[٥٤٦] لا يتجاوز العشرين جنيها ، وقد قاسى جماعة النمسائيين[٥٤٧] فى الهروب بهن إلى هذه الديار مر العذاب . واعلم أن آيات التنكيل برئيس شورى البلاد بلغت مبلغا لم يخطر لأحد من أهل المناصب وأصحاب الخطط على بال . فإنه لما رأى أصحاب الشرطة يحرسونه وهم محدقون به من كل جانب سأل مقدمهم أن يأذن له برفع ظلامته إلى نائب الغيبة[٥٤٨] ، فلم يلتفت إلى طلبه . فسألهم أن يرسلوا إلى مقر لورد كرومر عله يجد من نائبه (المستر رود) اذنا صاغيه ، وقد تحقق أنه لاخلاص له من (شفر) وأعوانه إلا بكلمة تخرج من فم (رود) . فاوقفوه عند باب مكتبه ساعة يضرب اخماسا فى أسداس ، وتوقع إرجاعه إلى السجن كل لحظة ، حتى جاء الفرج وأذن له (رود) بإرسال ظلامته على جناح البرق إلى نائب الغيبة . ثم وانظر كيف أتخذ لورد كرومر (شفر) وأعوانه والملتفين حوله من زغائف [٥٤٩] المسلمين وزعر النزلاء صنائع ، فأرهبوا الكبير وداسوا بأقدامهم الصغير حتى بات كل صغير وكبير وكل وجيه وعظيم يحسب فى يومه ما عساه أن يلقاه فى سواد ليلة . واعلم أن الوزير نوبار باشا ومن معه لم يقضوا محاكمة[٥٥٠] المتهمين أمام المجلس العسكرى إلا ليدفعوا عن الإمارة أزمة سياسية شرها مستطير ، ويردوا عنها كيد الكائدين وحيل المحتالين . قال وعندى أنهم أحسنوا التدبير وصابوا[٥٥١] فى هذا التفكير ، وسدوا فى وجوه أصحاب هذه المحنة الكبرى سبل النجاح بحزاقه[٥٥٢] وحكمة ، ثم أطرق لحظه ثم نظر إلى وقال يقولون أن الإسترقاق شىء محرم فى شرائع المتمدنين وإجرام

---

(٥٤٦) منهم = منهن
(٥٤٧) النمسائيين = النخاسين
(٥٤٨) نائب الغيبة = أى رئيس النظار نوبار الذى كان ينوب عن الخديو أثناء سفره بالخارج فى ذلك الوقت .
(٥٤٩) زغائف = زعانف
(٥٥٠) محاكمة = بمحاكمة
(٥٥١) التدبير وصابوا = التدبير وأصابوا
(٥٥٢) بحزاقة = بحذق

عظيم فى نظر المتشرعين ، ولذلك أعدوا لقطع شأفته العده ، وجندوا الجند وسلحوا البوارج وأتخذوا المراصيد ، وأقاموا العيون وعملوا كل تلك الأعمال الجسام باسم الإنسانية وتحت لواء العدالة ،فشكرهم الناس جميعا وحمدوا نياتهم . ولكن قل لى بأبيك ما لنا لا نرى من أصحاب المناصب العالية وأهل الخطط فى ديار الهنود هذا الحنان وتلك العاطفة الشريفة ، والهنود فى كثير من بلادهم وعلى الخصوص فى أسام(٥٥٣) عبيدا يسومهم أصحاب منابت الشاى الخسف بل سوم العبيد وأقر(٥٥٤) . فقلت ياسبحان الله لقد ذكرنى حديثك هذا بكلام (للمستر لا بوشير) زعيم المتطرفين فى ديالا(٥٥٥) الإنجليز قاله عن هذا الضرب من الإسترقاق فى ديارهندهم الإنجليزية . فكان له وقع عظيم فى محافلهم أخجل عظمائهم وطأطأت لوقعه رؤوس وزراءهم كما نقلته صحف أخبارهم يومئذ . فقال وما هو ، قلت ، كتب يقول «أو ما حان لنا أن نضرب ذلك الإسترقاق الضراب(٥٥٦) أطنابه فى ديار هندنا الإنجليزية ضربة لا تبقى ولا تزرى(٥٥٧)؟ لقد تفشى هذا الداء الوبيل فى كثير من الأنحاء وتأصل فى أسام حتى صار تجارة رابحة لأصحاب حدايق الشاى وأمرا لا غناء لهم عنه ولا بديلا . يسترق أصحاب تلك الحدائق أناسا يسمونهم ـ خوليين ـ أو خولا . وهؤلاء الخولا يأتون بهم من أقاصى البلاد إلى أسام وغيرها من بلاد منبت الشاى بالحيلة والاستهواء . قال وكيفية ذلك أن لأصحاب تلك المنابت دعاة من الرجال والنساء أهل الدهاء والمكر والخديعة والختر(٥٥٨) ؛ يجولون البلاد

(٥٥٣) أسام = Assam ولاية هندية شمالية شرقية تقع أساسا فى وادى نهر براهمابوترا Brahmaputra . المدينة الرئيسية فيها هى جاوهاتى Gauhati .يعتمد إقتصاد الإقليم أساسا على الزراعة وخاصة الأرز والشاى الذى يشكل أهمية تجارية . واللغات الأساسية فى أسام هى الأسامية والبنجالية ـ خضعت للإحتلال البريطانى منذ عام ١٨٢٦ وحتى عام ١٩٤٧ .

- Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 2- p., 264

(٥٥٤) واقر = وأكثر قراءة ترجيحية
(٥٥٥) ديالا = ديار
(٥٥٦) الضراب = الضارب
(٥٥٧) تذرى = تذر
(٥٥٨) والختر = والختل

شـرقا وغـربا وشـمـالا وجنوبا ، ويسـتـهودن[٥٥٩] بسطاء الناس بزخـرف القـول أو باعطائهـم المـسكرات ، ويمنونهم بالأمانى البعيـدة ، ويرشونهم بشئ من المال ولا يزالون بهم حتى يسـتـهونهم[٥٦٠] ، ويأتون بهم إلى رجل يعرفـه العامـة باسم (قابض الخولا) ولهذا القابض مستوع[٥٦١] أو هو سجن يسمى بمستودع الخولا . فإذا بات النفر من أولئك المخدوعين فى ذلك المـستودع أصبحوا وقد قادوهم إلى مكان التعـاقد وهو مكتب ذلك القابض ، ويعرف عند أصحاب المناصب من الإنجليز باسم (وكـيل المـهـاجـرة) أو المـهـاجـرين . فـيكلف ذلك الرقـيق المتطوع بأن يعقد عقدا بأن يشتغل مدى سنين معلومات بأجرة يتفق عليها مع صاحب المنبت وهى فى الغالب ست إلى سبع روبيات فى الشـهر . قال وهذا العقد الذى هو عبارة عن صك إستعباده يتم وضعه أمام أحد القضاة ويكون أهم ما فـيـة إغفـاله[٥٦٢] ، وقصـاصه إذا بدا منه ما يخالف الشروط التى تم الإتفاق عليها . وهذا ما يظهر لدى نظره لأول وهلة أنه أمرا شـرعيا سويا ، ولكنه إذا حان وقت العمل به بدى[٥٦٣] أمرا فريا . وقد يحدث كثيرا أنه عندما يأتى أصحاب منابت الشاى ليخـتـاروا (الخـولا) اللايقين لمنابتهم يكون قد فاق الخـولى من سكرته وتأمل موقفه وما ستصير إليه حالته فيظهر النفار[٥٦٤] ويطرح المقاده[٥٦٥] والصغار ويأبى أن يذهب إلى أمام القـاضى لتـحرير عـقـده . فـإذا بدى[٥٦٦] منه ذلك أشبعوه عند باب القاضى أهانة وتعذيبا ، وأعادوه إلى المـستودع كالسجين الأثيم . وهناك يذوق العـذاب ولا يتركونه حتى يستجير من الرمضاء بالنار ، ويرضى بأن يوقع على ذلك العـقـد تفـاديا من إحـتـمـال العـذاب والنكال . قال

---

(٥٥٩) ويستهودن = ويستهوون

(٥٦٠) يستهونهم = يستهوونهم

(٥٦١) مستوع = مستودع

(٥٦٢) اغفاله = اغفال حقوقه — قراءة ترجيحية وقد عدلت الجملة ليستقيم النص

(٥٦٣) بدى = بدا

(٥٦٤) النفار = النفور — قراءة ترجيحية

(٥٦٥) المقاده = الإنقياد

(٥٦٦) بدى = بدا

وأخبرنى من رأى الأمر رأى العين فى هذه الأيام أن رجلا من أولئك التعساء أبى أن يذهب إلى بيت القاضى فمد فى الأرض كالحيوان المريض الذى يراه(٥٦٧) كيه بالنار، ووضعوا شيئا ثقيلا على بدنه وجعلوا يحركون ذلك الشىء فيرض أعضاءه، وما زالوا على هذا حتى عدل عن الإمتناع ورضى بالذهاب . قال وأخبرونى أنه جرت عادة أولئك القابضون أصحاب تلك المستودعات أنهم يضعون داخل المستودعات إناسا يضربون الطبول ويدقون الدربكات(٥٦٨) حتى لا تسمع أصوات إستغاثة أولئك التعساء عند تعذيبهم بأنواع العزيات(٥٦٩) التى لابد وأن يأتى(٥٧٠) بالغاية المطلوبة . فإن النفر منهم يصبح بعدها جبانا ذليلا، فلا يعود يبدى أدنى مقاومة عند الذهاب به إلى بيت القاضى، إذ يكون وقتئذ أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . وحتى لا يحدث فيما بعد إضطرار إلى إستعمال العنف والشدة معه، يؤتى . به إلى فرن ترى العنل فيه مما تجب معه السرعة الفايقة ولكنه مهمل القياد فاقد النظام فستغل هناك حتى سيطرت الرئيس وأصحابه(٥٧١) .

---

(٥٦٧) يراه = يراد

(٥٦٨) الدربكات = الدربكات - مفردها دربكة Daraboukkeh أو Derbouka - آلة نقر موسيقية مصرية عبارة عن وعاء كبير له رقبة إسطوانية الشكل ومجوفة تستخدم لإحداث الإيقاعات اللازمة فى الموسيقى الشرقية كالطار والبندير والرق والدف والمزهر(الجلجل) .

- Larousse Universel - Vol I - p., 596

ـ وصف مصر ـ المجلد ٨ ـ الموسيقي والغناء ـ تأليف فيوتو ـ ترجمة زهير الشايب ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الخانجى بمصر ـ القاهرة ١٩٨٣ ـ ١٦٦ حاشية(١) .

(٥٦٩) العزبات = العذابات

(٥٧٠) ياتى = تأتى

(٥٧١) وحتى لا يحدث فيما بعد إضطرار إلى استعمال العنف والشدة معه يؤتى به إلى فرن ترى العنل فيه مما تجب معه السرعة الفايقة ولكنه مهمل القياد فاقد النظام فستغل هناك حتى سيطرت الرئيس وأصحابه = إضطررت إلى حذف هذه السطور من النص لاختلاط الكلمات فيها بصورة تبين أن الناسخ قد خلط بعض الكلمات الأمر الذى أفسد المعنى ـ وعلى أى حال فإن حذف هذه السطور لم يغير من المعنى شيئا فالموضوع يتصل بإساءة معاملة عمال الشاى فى أسام .

قال ومما يزيد فى شقاء أولئك البؤساء جهلهم اللغة الهندوستانية التى هى لغه أصحاب العمل . ومع ذلك فإنهم مكرهون على أن يجاوبوا أصحاب العمل عنه كلما يسألون عنه فتأمل . قال وعند تحرير كل عقد من تلك العقود الجائرة يعطى لقابض الخولى «ماية روبية» منها سبعين روبية ربح صاف له . ومن هنا يتبين لكل منصف أن حرية التعاقد قد إتخذت أشكالا عجيبة . والأعجب منها إعجاب المعجبين يتحالف[٥٧٢] الدفاع عن الحرية والملك[٥٧٣] . غير أن القادرين من أنصار هذا التحالف على رؤية هذه الشواين[٥٧٤] رأى العين لا يسعهم إلا أن يقولوا بأن هذا الضرب من الإستخدام هو إتجار بالرقيق إتجارا شنيعا متنكراً[٥٧٥] غير متمثل للعيان سويا ، ولكنه كلما[٥٧٦] يحدث فيه هو كل ما يحدث فى تلك التجارة البربرية . ذلك أنه إذا أوتى بنفر من أولئك الخولا تبعتهم عائلاتهم من الزوجات والبنين والبنات ودخلوا معهم تلك المستودعات وأقسموا بالطاعة والتقاء[٥٧٧] وجمع الشمل فى العمل والمعيشة ، فيوعدونهم[٥٧٨] بذلك أصحاب المنابت ثم هم ينكسون[٥٧٩] بوعدهم ويختطفون الرجال مفرقين بين الزوج وزوجته ، ومبعدين الأولاد عن والديهم كأنهم أغرته[٥٨٠] البين والدهر يقضى بعدم تلافى[٥٨١] المشتتين . قال فقد نمى لى أن إمرأة أتت وطفلها على ذراعيها تشكو إلى أحد ضباط جندنا أن زوجها أرسل

---

(٥٧٢) يتحالف = بتحالف

(٥٧٣) والملك = والملكية قراءة ترجيحية

(٥٧٤) الشواين = مفردها شين أى غير طيب ـ والجمع هنا للمؤلف ـــ مختار الصحاح ـ ص ١٤٨

(٥٧٥) متنكرا = منكرا قراءة ترجيحية

(٥٧٦) ولكنه كلما = ولكن كلٍ ما

(٥٧٧) والتقاء = في سبيل الإلتقاء ـ أضيفت الكلمتان ليستقيم النص

(٥٧٨) فيوعدونهم = فيعدهم

(٥٧٩) ينكسون = ينكثون

(٥٨٠) أغرتة = أغربة

(٥٨١) تلافى = تلاقى

فجأة إلى بلد تبعد عن بلدها زهاء سبعين ميلا ، وأن قد أنقطعت أخباره ، ففقدت كل أمل بعودته وقد ترك أولادا صغار يطلون أطلال الفراخ من الوكر . فلم يقدر ضابطا(٥٨٢) على عمل شىء لتلك الحزينة .

قال . وفوق كل هذه الويلات والمصائب فإن هواء أسام هواء وبىء يميت هؤلاء المساكين ، قان(٥٨٣) سبعين أو ثمانين فى المائة منهم تنطفى أرواحهم قبل إنتهاء آجال عقودهم ، ومن بقى منهم حيا كان معرضا للخطف والإستعباد بطرق أخرى لا تقل خشونة وغلظة عن الأولى . قال فإن كان هذا كله صحيحا فلا أصدق أن الدوائر الإنجليزية الهندية تجهله . وإذا كان هذا الضرب من الرق والإستعباد معروفا ومأذونا به أو مبغضا عنه ، وكان من أكبر ما يوجب اللوم والتعنيف ومن أشد ما يلقى التبعة على مناكب أهل المناصب وأصحاب الخطط من الإنجليز فى ديار الهنود ، لأنه مما يستطلع منه أن أردأ وأشنع أساليب النخاسه ببلاد السود سائرة(٥٨٤) بلا نكير تحت ظل الرايه الإنجليزية وتحت رعاية أهل المناصب الإنجليزية . قال . ومع أنى لست حرا فى أن أبوح بمصادر هذه الإعلامات الخطيرة ، فإنى أتنصل من مذمة هذا الكتمان إذا حسبه البعض زميما(٥٨٥) داعيا إلى الريبه بقولى أنها ترامت إلى من أكثر من عظيم ووجيه . وقد أنبئت أنه إذا صار البحث والتنقيب فى (بيروليا) والأقاليم التابعة لها أو مصلحة سكه حديد (بنغال نفبور) تبين للباحثين صحتها وسدادها .قال وأنى أرانى قد وفيت الكلام الآن حقه فأبيت منتظرا سماع ما ستقوله سلطنتنا الهندية فى هذا الشأن الخطير أ .هـ فضحك صاحبى وقال إذن ما لنا لا نقول لهؤلاء الجماعة المتحمسين فى قطع دابر النحاسية(٥٨٦) الأفريقية . أيها الطيب أشف نفسك أولا . فقلت ولله فى خلقه شئون .

(٥٨٢) ضابط = ضابطنا — قراءة ترجيحية
(٥٨٣) قان = فإن
(٥٨٤) سائرة = سائدة — قراءة ترجيحية
(٥٨٥) زميما = ذميما
(٥٨٦) النحاسية = النخاسة

وعاد الأخذ والرد بين أصحاب الإحتلال والوزير نوبار باشا فى أمر محاكمة على شريف باشا ومن معه أمام المجلس العسكرى . وشدد القوم فى الطلب وهددوا الوزير بإلقاء تبعة ذلك على عاتقه . واجتمع رجال القضاء والإدارة أياما متتابعة يبحثون فى كيفية المحاكمة ، وهم لايقدرون على رد كلمة القوم المحتلين ولا إيقافهم عند حد . وبعد جدال عنيف تعددت شوائنه عقدوا المجلس العسكرى فى يوم الثلاثاء رابع عشر سبتمبر ، وخامس ربيع الأول من السنة أى سنة إثنى عشر وثلثمائة وألف برئاسة (زهدى باشا) أحد كبار العسكر المصرى . فازدحم الناس وأتوا إليه من كل صوب وحدب ، فما أتت الساعة[٥٨٧] أدخلوا المتهمين وأجلسوهم فى صف واحد وإلى جانبهم المدافعين . أما المتهمون فهم النخاسون (محمد شفلوف) (وعبدالله سعيد) (وعلى مبروك)(وظهران) (وحمدالله) (ومحمد رحيم) . وأما المشترون (فالشواربى باشا) (وواصف باشا) (وشافعى بك) الطيب[٥٨٨] ، ولم يحضر (على شريف باشا) لأنهم لم يكونوا قد أثبتوا عدم تابعيته للدولة الإيطالية . وبعد أن قسم[٥٨٩] رئيس وأعضاء المجلس اليمين المعتاد جعل الرئيس يلقى على كل منهم سؤالين ، أحدهما عما إذا كان مذنبا باستجلاب أولئك الزنجيات ، والآخر عما إذا كان قد ساعد على إستجلابهم أو توسط به . فأجابوا جميعا بالنفى إلا شافعى بك فإنه قال ثلاثا بأنه (مذنب) . فكرر الرئيس تحذيره من تبعة هذا الإعتراف الذى يثبت عليه العقوبة ويمنع من سماع شهوده ومن سماع المرافعه لتبرئته ، فعاد وقال أنه (غير مذنب) . ثم وقف (حارس بك) مندوب قلم الرقيق وبدأ خطابه بذكر مساوىء النخاسة وما فعلت الدول ولا سيما دولة الإحتلال مع مصر للاتفاق على منعها ، وما يجب من معاقبة المشتغلين بها والمساعدين عليها من مثل متهمين ذلك اليوم الواجب معاقبتهم بالبند القاضى بالأعمال

---

(٥٨٧) الساعة = الساعة حتى أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٥٨٨) الطيب = الطبيب
(٥٨٩) قسم = أقسم

الشاقة من خمسة أشهر إلى خمس سنين فى معاهدة منع النخاسة ، ثم أتبع هذه المقدمة بسرد حادثة قدوم الزنجيات الست من تركهن (بواد[٥٩٠] لاى) إلى أن باعهن النخاسون الأولون للنخاسين الذين أتوا بهن إلى عزبة مجاورة لأهرام الجيزة ، وهناك درى بهن بعض العربان فحاصروا العزبة ، ثم ترضاهم النخاسون بعض[٥٩١] النقوذ والحلى مما تبلغ قيمته خمسة جنيهات . ثم تكلم عن مجىء أحد أولئك النخاسون إلى القاهرة وإتفاقه مع بعض السماسرة ومع أجير لعلى شريف باشا . وكيفية جلب إحدى الزنجيات أولا ثم الخمس البقيات[٥٩٢] إلى قصر على شريف باشا ، وحضور الباشا لمشاهدتهن ، وأشتراته[٥٩٣] ثلاثا منهن ، ثم رده إحداهن التى لم تعجبه ، ثم كيفية عرض الثلاث البقيات[٥٩٤] على شافعى بك ، الذى أشترى واحدة منهن ، ثم بيع الواحده إلى شواربى باشا والأخرى إلى واصف باشا . وبعد أن فرغ من هذه الحكاية الطويله ذكر ما قاله واصف باشا فى تحقيقه من أنه لم يشترى الجاريه ، ولكن شافعى بك أرسل إليه بها لتتعلم الطباخة فى منزله ، وما قاله شواربى باشا فى تحقيقه الأول من أن شافعى بك أهداك[٥٩٥] جارية ، أما هو فإنه لم يشرها[٥٩٦] ، ثم عدوله عن ذلك وإقراره بأن شافعى بك باعها إلى آل بيته على غير علم منه بذلك . وقال غير ذلك كثيرا . ثم قال أن شهود الإدعاء حضور جميعهم لاستنطاقهم عدا نخاسا من الخمسة فر ولم يوقف له على أثر .

ولما أختتم حارس بك كلامه أدخلت إحدى الزنجيات وأسمها(زنوبة) فى ملابس قذرة للغاية ، وهى صبية كاعب ، فأجلست فى وسط الغرفة ووجها[٥٩٧]

---

(٥٩٠) تركهن بوادلاى = وقت تركهن وادلاى
(٥٩١) بعض - = ببعض
(٥٩٢) البقيات = الباقيات
(٥٩٣) واشترائه = وشرائه
(٥٩٤) البقيات = الباقيات
(٤٩٥) أهداك = أهداه
(٥٩٦) يشرها = يشترها
(٥٩٧) ووجها = ووجهها

شطر المجلس . فجعل حارس بك يلقى الأسئلة إلى الرئيس والرئيس يعيدها على الجارية فتجيب بالعربية ، وبما(٥٩٨) يدل زهانة(٥٩٩) المفرط . أما أسئلة حارس بك فكلها تتعلق بما يثبت الحوادث التى ذكرها فى كلامه ويؤيد التهم الموجهه إلى المتهمين ، فكانت أكثر أجوبة زنوبة على ما يريد إلا حين سألها أتعرفين شواربى باشا؟ قالت رأيته فى منزل شافعى بك . قال . فإذا نظرت فهل تعرفينه؟ قالت نعم قال دلينى عليه من بين هؤلاء وأشار إلى المتهمين فقالت أنه ليس هنا ، فكرر عليها السؤال بأن أنظرى جيدا وسألها الرئيس كذلك فأجابت بأنه ليس هنا ، فتأثر الحضور من هذا الجوال(٦٠٠) وأستغربوه . وأختتم حارس بك أسئلته فتلاه أحد المحامين ، وسأل الجارية قائلا من الذى أوصلك إلى بيت شافعى بك؟ فقالت الحوزى (٦٠١) فقط . قال كنتى فى هذه الملابس أيضا فقالت نعم . وهل كلفت بعمل فى البيت فقالت لا لا إلا مرة واحدة غسلت بها ثياب سيدتى نبويه . هل رأيت شافعى بك فى البيت؟ فقالت لا ـ وهل رأيته أعطى ثمنك لأحد؟ قالت لا ، ثم سألها ثانى المحامين قائلا تقولين أنك نظرتى شواربى باشا ولكن كيف عرفتى أسمه؟ قالت أنا رأيته بعينى ، فقال وكيف عرفتى أسمه؟ فقالت قالته لى رفيقتى (مريم) ، متى كان ذلك فقالت عندما ضبطّنا عوأتى بنا إلى الديوان . ماذا كان لابسا؟ فقالت بدلة سوداء وطربوشا ـ ذكرت فى كلامك أسم عثمان المعاون فكيف عرفته . فقالت عرفته بالديوان . قال ومن قال لك؟ قالت هو نفسه ـ هل سألته عنه أم ثاله(٦٠٢) لك من عنده؟ قالت هو لم يقله لى ، ولكنى سمعت الناس ينادونه ـ هل لم تسمعى إلا إسم عثمان؟ قالت نعم . وعددت بضعة أسماء . قال ألم تقل لك (سعيده)

(٥٩٨) وبما = بما
(٥٩٩) زهانه = على ذكائها
(٦٠٠) الجوال = الجواب
(٦٠١) الحوزى = الحوذى
(٦٠٢) ثاله = قاله

أسم سيدها؟ قالت لا ـ وهل قلت لها إسم سيرك؟ قالت لا . ثم سألها عن أيام مسيرتها من بلدها فلم تعرف . فقال وهل تتكلمون العربية هناك؟ قالت نعم . قال وكيف أتى بك من الأهرام مع رفيقاتك؟ قالت كنا راكبات عربة مغطية ومعنا عربى داخلها وآخر بجوار الحوزى[٦٠٣] . ثم وجه إليها أسئلة عن المحل الذى باتت فيه بعد ضبطها ويوم قيل لها أسم الشواربى ، وإذا كان ذلك نهارا أو ليلا باتت[٦٠٤] مع رفيقاتها أم وحدها . فأجابت أنها باتت عند إنجليزية ، ولم تذكر يوم سمعت باسم الشواربى باشا ، وأن حديثها عنه كان نهاراً ، وأن أختها لم تكن سامعة ذلك . وكانت إذ ذاك الساعة الواحدة بعد الظهر فأوقفت الجلسة . وفى منتصف الثانية بعد الظهر أعيدت وقد كثر الزحام من كل صنف وطبقة . وأعيدت(زنوبة) وجعل الرئيس يسأل (شفلوف) النخاس ، ثم قال سل (زنوبه) ما شئت فقال (يا زنوبة) أكان معى غير إمرأتى؟ فأجابت نعم كانت معك حليمه وفاطمه ، وسألها العبدة سعيدة ، أما أنت زوجتى وأنت معتوقة . فقالت أنا جاريه وحضرت بالمال . وسألها عبد الرحمن نصار أحد المتهمين (أين بيت نصار الذى تقولين أنك نزلت فيه) . فقالت هو بيت صغير وراء الحجرين الكبيرين (تعنى الهرمين) فقال لهاأهو قبلى أم شرقى ، فأجابته من جهة الصباح . فقال عبد الرحمن إن بيتى غربى . ثم سألها وأين هو؟ فقالت وسط البلد فقال (بل هو منفرد بعيدا عنها) . ثم إستحضرت (مريم) إحدى الزنجيات وأخذوا فى سؤالها ، وكذلك ثالثتهن (سعيدة) فاختلافا[٦٠٥] فى القول وخلطت (سعيدة) بعض الخلط حتى نسيت ذكر رفيقتها (مريم) حتى ذكرها به حارس بك خلافا للقانون . ثم قام أحد المحامين عن المتهمين وسأل (سعيد[٦٠٦]) عن حضورها مع رفيقتيها فى ذلك اليوم للديوان ، وقرر أنه رأى

---

(٦٠٣) الحوزى = الحوذى

(٦٠٤) باتت = وهل باتت أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٦٠٥) فاختلافا = فاختلفا

(٦٠٦) سعيد = سعيده

صباح يوم فى أودة جلسة المجلس أحد الكتبه وبيده ورقة يخاطب الجوارى كأنه يلقنهن الأجوبة ، فأثبت ذلك المجلس ولكنه لم يأذن بسؤال الشاهده . ثم إرفضت الجلسة وأعيدت فى اليوم الثانى صباحا وجعلوا يسألون بقية الشهور(٦٠٧) والمتهمين على التتابع فكانت أقوالهم لا تخلو من الخلط والإختلاف المبين . وقام المدافعون فى جلسة يوم السبت ثامن الشهر أى شهر ستمبر ، وعاشر ربيع الأول سنة إثنى عشر وثلثمائة وألف يدافعون عن المتهمين دفاع الأبطال ويظهرون للملأ فساد هذه التهمة وبعدها عن الصواب ، ويعرضون بذكر أفاعيل شفر بك وأعوانه . واتهم الناس عبد الحميد شافعى بك بمعاونته لشفر ورجاله على تأييد التهمة ضد البشوات على وعد شفر بنجاته من العقوبة وإفادته فائدة مادية . ثم إختتمت المرافعه وأقفلت الجلسة ووعد الرئيس بنطق الحكم فى يوم السبت سادس عشر الشهر . وبينما الناس يرقبون حلول اليوم الموعود أقبل الأمير من رحلته فى ديار الفرنجه بعد قيامه من ديار السلطنه . يقال وقد عجل بالعودة بناء على إسترحام الوزير نوبار لعقده النيه على التخلى عن منصبه وتنزيل نفسه بمجرد عودة الأمير لشيخوخته وشدة ما أثرت عليها المتاعب ولا سيما حادث بيع الرقيق ومجرياته . وطيروا الخبر بمقدمه إلى الآفاق . ففرح الناس به فرحا عظيما ، وأقبلوا من كل فج عميق إلى الإسكندرية ليرفعوا إلى مقامه مراسم التبريك ، فغصت بهم رحبات الثغر .فلما كان يوم السبت خامس عشر سبتمبر عملوا التشريفه الكبرى بقصر رأس التين من الساعة التاسعة إلى منتصف الثانية عشرة صباحا ، فدخل الناس على الأمير من كل طبقة وصنف وهنأناه بسلامة الأوبة . فكنا نرى منه وجها باشا وصدرا رحبا وتلطفا كثيرا . وكان الناس قد أبدعوا فى عمل الزينات ورفع الأعلام وتنسيق الأنواع على أحسن شكل ، وظهر البلد فى أبهى مظاهر الزينة . فكنت ترى من

---

(٦٠٧) الشهور = الشهود

باب شرقى إلى قصر الإمارة برأس التين صفوف المصابيح تتلألأ والناس فى إقبال زاديار[٦٠٨] والزحام شديد للغاية . فلما صارت الساعة التاسعة مساء خرج الأمير فى موكبه وعن يساره (فؤادباشا) سر[٦٠٩] ياوره ، فسار فى شوارع البلد لمشارفه الزينات وكان يحيى الجماهير باسما مسرورا يصيحون[٦١٠] بالدعاء له ، ثم عاد إلى قصره فبات فيه .

وبينما الناس فرحين بمقدم الأمير وقد حل اليوم الموعود لنطق الحكم من المجلس العسكرى على أولئك المتهمون فى حادث الزنجيات إذ أصدر المجلس حكمه مساء السبت ببراءه (شواربى باشا)(وحسين واصف باشا)(ومحمد رحيم البطران) براءة بشرف ، وحكم على عبد الحميد بك الشافعى بالسجن والأشغال الشاقة إلى خمسة أشهر ، وبالسجن والأشغال الشاقة أيضا سنة ونصف سنة على (محمد شفلوف) (ودرهان أبو حوية) (وأحمد بن مشكان) ، وبالسجن فقط سنة ونصف سنة على (عبد الله سعيد) وبالسجن والأشغال الشاقة ستة أشهر أيضا على (عبد الرحمن نصار) . وعرضوا هذا الحكم على سردار الجيوش المصرية فلم يوافق على تبرئة(الشواربى باشا) (وحسين واصف باشا) . قال لتوفر أدلة التهمة عليهما . وشاع خبر الحكم بين الناس وطيروه إلى الآفاق ، وقالوا أن أمتناع السردار من التصديق على براءة الباشوات ضرب من العسف والعداء الظاهر الذى لا يحتاج إلى دليل . وإثنى الناس على رجال المجلس العسكرى ومدحوهم وأعجبوا جدا بحرية ضمائرهم وسلامة نياتهم تنفيذ[٦١١] الحكم برمته . قلت . وكان لما صمم السردار على تشكيل المجلس العسكرى لمحاكمة المتهمين رسم الوزير نوبار باشا بتوقيف كل عمل فى هذا الحادث حتى يعود الأمر[٦١٢] إلى عرشه . وسير بذلك إلى

---

(٦٠٨) زادبار = زائد
(٦٠٩) سرياوره = كبير ياورانه - أى رئيس حاشية الأمير العسكرية
(٦١٠) يصيحون = وهم يصيحون
(٦١١) تنفيذ = وإصرارهم على تنفيذ - أضيفت الكلمتان ليستقيم النص
(٦١٢) الأمر = الأمير

وكيل وزارة الداخلية ليبلغه إلى السردار، فامتنع السردار من قبوله . وقام وقعد، وقال لابد من الحكم عليهم . وكان إلى ذلك الحين لم يعرف الأمير شيئا من تفاصيل الحادث ولا هو رسم بعدم المحاكمة، ولكنه رأى فى صحيفة (التيمس الإنجليزية) خبرا بأنه قد سير كتبه إلى نائب الغبيه بتأجيل محاكمة القوم حتى يرجع إلى كرسيه، فسير فى الحال إلى الوزير يقول على جناح البرق أن كذب قول صاحب التيمس بالجريدة الرسمية، فكتبه فى جميع الصحف المحلية إلا الجريدة الرسمية، فحسب عمله هذا خطأ وتقصيرا يوجبان النقد .
حتى لقد شاع بعد ذلك أن الوزير عازم على السفر إلى ديار الفرنجة للإستراحة من عناء الأعمال، وأنه سيبرح الديار على أثر عودة الأمير . وإختلفت الروايات يومئذ عن قرب تخلى الوزراء عن مناصبهم أيضا، وتنوعت الأسباب حتى ظن الناس أنه أمرا لابد منه فى القريب العاجل . وكما هاج أصحاب الصحف الإنجليزية وماجوا عند الحكم ببراءة الباشوات، كذلك قام أصحاب الصحف المحلية ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور ويرمون جماعة الإنجليز العسف[٦١٣] والجور والكيد لكل عظيم وكبير من أهل البلاد، حتى لقد قال صاحب (الجرنال إجبسيان) الفرنسوى بعد كلام طويل : ما هذه الضجة التى أقلقت أهل السماء والأرض؟ وما بال جماعة الإنجليز يغصون بريقهم إذا قيل لهم أن مدير مصلحة الرقيق النافخين له فى ضرام هذه الفتنه قد أهدى منذ عامين فى يوم رأس السنة عبدا زنجيا إلى إحدى العقايل فى القاهرة . ومع ذلك فأنا لم نسمع أنه عافاه الله إستدعى للمحاكمة أمام المجلس العسكرى، فما معنى هذه الضجة إذن، وماذا يريدون بعد هذا كله، والله من وراء ما يريدون .
أ .هـ وطلب وكيل عميد الإحتلال من الوزير نوبار باشا خلع على شريف من منصب رياسة الشورى، فلم يلتفت لقوله، وقال له أن ذلك لا يتم إلا بإقرار سائر الوزراء وتصديق ثلثا أعضاء الشورى . يقال فامتعض وشدد فى الطلب وبالغ

(٦١٣) العسف = بالعسف

وهدد ، والوزير لا يلتفت إليه .

وجاءت الأخبار من صاحب السياسة الإيطاليه إلى الوزير نوبار باشا بعدم ثبوت تابعة[٦١٤] على شريف باشا لدولة إيطاليا وأنه يحق للحكومة المصريه أن تعامله بما شاءت . يقال وقد سعى بذلك كثيرا سفير الإنجليز فى ديار الإيطاليان حتى نال ما أراد ، وتنحت دولة إيطاليا عن الباشا . فجمع الوزير مجلسه ، وتناجوا فى الأمر طويلا ثم وقع إتفاقهم على محاكمته محاكمة خصوصيه فى ذلك المجلس العسكرى . وأرسلوا أوراق التهمة الى السردار كالعادة فى مثل ذلك ، فبات الناس ينتظرون ما سيكون بعد أن حصحص الحق وبان .

وعاد ولاة الأمر وأصحاب الرى الى الإشتغال بارتفاع مياه النيل وبلوغها فوق الحد المألوف . وظهرت الحركة بديوان الرى ، ورسم الأمير إلى المديرين والمحافظين بالسهر ودقة الإلتفات إلى القناطر والجسور ورؤوس المعابر ، واستحثهم على اليقظة التامة . وجاءت الأنباء من التخوم ببلوغ الزيادة مبلغا عظيما للغاية ، وتخوف أصحاب الرى من ضعف الجسور وعدم تحمل بعضها لدفع المياه وقوة تيارها . وتفشى القول بعدول الوزير نوبار باشا عن السفر إلى ديار الفرنجة حتى تبشر أخبار الفيضان بقرب زوال الخطر ، وسير كتبه الى وزارة الخزينة بإعداد أربعة بواخر نيلية لمرور أصحاب الرى على جسور مديريات الجيزة والمنوفية والغربية والبحيرة ، وتفقد جسور ومعابر الفرع الغربى للنيل . وإلى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الأول ، . تاسع توت من السنة كانت قد بلغت الزيادة بحلفه[٦١٥] ثمانية أمتار وثمانين سنتى متر ، وبأصوان سلعة[٦١٦] عشر ذراعا وإثنى عشر قيراطا ، وبالروضة ثلاثة وعشرين ذراعا وإثنى عشر قيراطا .

(٦١٤) تابعة = تابعية
(٦١٥) بحلفه = بحلفا
(٦١٦) سلعه = سبعة

فكان خوف أصحاب الرى عظيما ، وخوف أصحاب الزراعات أعظم . وقدم وزير الأشغال من الإسكندرية إلى القاهرة وأقام بها إهتماما بحوادث الفيضان . وفكر مـهندسـو الرى بمـصـر وأصـحـاب تخطيط الأرض من الألمـان والإنجليـز والفـرنسـيس فى مـشـروع عـمل الخـزان[٦١٧] الذى كـان أشـار بعـمله بأصـوان بعضـهم ، واهتـموا به كـثيـرا على رأس هذا العـام . وقـد كـان جاء إلى القـاهرة جماعة كبار الهندسة وإقيالها ، فخططوا موقعه وحددوه ، وقدروا نفقته ، وعينوا مهلة إنشائه ، ثم عادوا إلى ديارهم وأبلغوا أصحاب صحفهم خبره ، فتكلموا فيه كثيرا وهم بين مستحسن ومستقبح . فما شاع خبر العزم على إنشائه بأسوان لمنع غائلة الغرق والشرق وعلم أصحاب الآثار وعلم طبقـات الأرض بالموضع الذى أتفق جماعة المهندسين على بنائه به حتى قاموا وقعدوا ، وتقدموا إلى حكوماتهم فى الوساطة لدى حكومة مصر عساها تعدل عن هذا العزم وتستبدل موضعه بأسوان بآخر لا يكون من ورائه تهدم آثار أجدادنا الفراعنة وهياكلهم النفيسة ، لا سيما منها الكرنك العظيم وقصر أنس الوجود . فاهتمت دولتى الإنجليز والألمـان لذلك ، وسيـرتا الكتب الى الوزير نوبار باشـا تسـأله إجـابة رغائب أولئك القوم قباحا[٦١٨] بخدمة التاريخ . وظل الأخذ والرد بين الفريقين أياما من الدهر ، وفى كل يوم يستعيد جماعة المهندسين تخطيط المواقع وعمل حساب الإرتفاعات وضبط الأعباد[٦١٩] وتحبير الرسوم . ثم أرسل الوزير إلى صـاحـبى سـيـاسـتى الإنجليـز والألمـان يقـول أن حكومـة الأمـيـر مـهـتـمـة بالإعتراضات التى أبداها رجال العلم البريطانين والألمانيين على إنشاء الخزان فى أسوان ، وأنها ستبذل جهد المستطيع فى التوفيق بين ما تقتضيه مصلحة البلاد وما تحفظ به آثارها الجميلة التى يضن بها المشتغلون بالعاديات . قلت

(٦١٧) أنظر الحاشية ٢٢٨ ص ١٤٩
(٦١٨) قباحا = قياما قراءة ترجيحية
(٦١٩) الأعباد = الأبعاد

أما الطريقة التى يعول عليها أصحاب مشروع الخزان هى أنهم يكلفون الخزينة بإنفاق المال الذى يلزم لنقل تلك الآثارالى نقطة لا يصل[٦٢٠] ماء النيل عند حبسه خلف السد . وفى ظنى لا تملك[٦٢١] إلى ذاك العهد بعض ما يكفى لبناء ذلك الخزان . فهى تطاول فى الأمر وتحاول ، وأصحاب الرى مع عميد الإحتلال يقولون أن الخزان هو الحافظ لسلامة البلاد من كل شر مفاجىء . هذا والزيادة فى حلفا وأسوان والروضة متتابعة حتى بلغت فى الروضة أربعة وعشرين ذراعا وسبعة عشر قيراطا مقابل تسعة عشر ذراعا فى العام الغابر . فخاف أهل القاهرة ومصر القديمة خوفا عظيما وتركوا بيوتهم خاوية على عروشها ويكنوا[٦٢٢] فى العطوف البعيد[٦٢٣] . وأهتم محافظ البلد بذلك الخطر الداهم ، وبث أعوانه حول أثر النبى والفسطاط وبولاق الدكرور والجيزة والجزيرة ومعهم طايفه من الفقراء[٦٢٤] ومشائخ الحارات وأصحاب زروعات أثر النبى والبساتين . فكانوا يواصلون الطواف على الدركات ليلا ونهارا . وكان قد دخل الماء سائر البيوت والمساجد والكنائس والوكائل من آبارها ومراحيضها ببولاق مصر والفسطاط وفم الخليج وجزيرة بدران وشبرا وقصورة الشوام ، وكثرت المستنقعات وتفشى البعوض تفشيا مريعا ، فتركها أصحابها خوفا من سقوطها . وطاف أصحاب الشرطة يحذرون العامه من النيام ليلا تحت الجدران المتداعية والأسقف القديمة . فكبر خوف الناس وثابر أهل تلك الخطط على السهر ليلا والحراسة نهارا . وأكثر محافظ البلد من التطواف وحث العامة على السهر خارج بيوتهم . ومع ذلك فقد كان الخطر داهم والشر مستطيرا ، إذ تشققت الجدران وسقط كثير من الأماكن العظيمة وتداعى غيرها إلى السقوط ، فكانت هذه

---

(٦٢٠) يصل = يصل اليها

(٦٢١) لا تملك = إن الحكومة لا تملك ـ أضيفت الكلمتان قبل لاتملك ليستقيم النص

(٦٢٢) ويكنوا = وسكنوا

(٦٢٣) البعيد = البعيده

(٦٢٤) الفقراء = الخفراء

الحوادث داعية الى لفت أنظار أصحاب الرى وأصحاب مشروع خزان أسوان إلى الرجوع إلى ما كانوا عليه من الأخذ والرد والتنقيب لعلهم يصلون إلى نتيجة محمودة يكون من ورائها سلامة البلاد فى مستقبل الأيام .

وعاد جماعة الإنجليز إلى طلب محاكمة على شريف باشا بتهمة شراء الزنجيات الثلاث ، وقد كانت محاكمته تأجلت إلى أجل غير محدود حتى ينقه من مرضه الذى لازمه منذ قبضوا عليه وأودعوه حبس طحب(٦٢٥) الشرطة وحدث له ما مر بك بيانه ، وقالوا أن تمارضه لا يمنع من محاكمته . فقام أطباؤه وقعدوا ، وقالوا أنه فى حالة تستلزم العناية وإلا هلك لا محالة . فرسم السردار إلى طبيين من الإنجليز لعيادته . فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشرى سبتمبر من السنة ذهب الطبيبين إلى دائرة وبحثوا(٦٢٦) علته ، ثم اجتمعا بأطبائه . وبعد كلام قرروا معا كيفية علته ولزوم العناية بمداواته ، ورفعوا تقريرهم بذلك إلى السردار . فما هى عشية أوضحاها حتى خلع الباشا نفسه من منصب رئاسة الشورى ورفع أمر ذلك إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة ، فتحدث الناس فى ذلك وهم بين مصوئب(٦٢٧) ومخطىء ، وحجة المصوبين لعمله راجحة ، يقال وأعجب المستر رود نائب غيبة اللورد كرومر عمل على شريف باشا وفرح به وجعل يفاخر به ويده(٦٢٨) من آيات الظفر والغلبة على أعداء الإحتلال وخصوم أعوانه . قالوا وما هى إلا أيام بعد إستقالة الباشا حتى أشاع أذناب القوم الإنجليز أن قد جاءه العفو من لدن الباب . وسافر المستر رود إلى الإسكندرية ليبلغ الوزير وديوان الأمير خبر ذلك ، ولحق به أيضا كتشنر باشا السردار ، ولبثا بالأسكندرية أياما ثم عادا . فما هو إلا يوم أو بعضه حتى رسم الأمير إلى وزيره بعدم محاكمة على شريف باشا والعفو عنه . وتفشى خبر ذلك ففرح به أهل المناصب

(٦٢٥) طحب = صاحب
(٦٢٦) دائرة وبحثوا = دائرته وبحثا
(٦٢٧) مصوئب = مصوب
(٦٢٨) ويده = ويعده قراءة ترجيحية

وأصحاب الخطط وعدوه خطوة فى انفساح كلمة الأمير وانفراج الأزمة بين الإحتلال وقصر الإمارة . ويرى عقلاء الناس أن إعتراف الباشا بارتكابه جريمة النخاسة الذى سطره بيده بناء على طلب السردار على ورقة الحكم العسكرى فيه إهانة وجفاء ، وأنه كان الأجدر به أن يقبل المحاكمة ولو عقبها ما عقبها حفظا لكرامته . وعندى أن الباشا لم يجاهد فى هذه الحياة الدنيا الجهاد الذى يجعل قلبه جندى يقحمه موارد الأخطاء(٦٢٩) ، وقد أشتد على(٦٣٠) القوم شدة بالغة حتى إضطروه إلى تفضيل الإقرار بالذنب على قبول المحاكمة . فكان عذره فى ذلك مقبول عند أهل النصفة ومواخذته تعنت وإعياء . وبقى مجلس الشورى بغير رئيس أياما ، وأصحاب الحل والعقد لاهون بما جاءهم به لورد كرومر من ديار الإنجليز . فقد عاد ومعه آل بيته فى رابع عشر أكتوبر من السنة غروبا . وأصبح فزار الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والأمراء . يقال وطالت محادثته مع الوزير فيما لم تصل الينا معرفته ، فكانت الخواطر على غير المألوف بينهما ، وتفشى خبر ذلك بين الناس . وسافر الوزير إلى الإسكندرية للقاء الأمير ، وزاع(٦٣١) خبر تأجيله الذهاب إلى ديار الفرنجة لقضاء أجازته الصيفيه حتى تنفرج الأزمة . وسير لورد كرومر الى قصر الإمارة فى طلب مقابلة الأمير ، ولبث ينتظر الإذن أياما ، وجعل الناس يأولون ذلك الخلاف فذهبوا فيه مذاهب شتى حتى قال بعضهم أنه مترتب على إختيار محافظ للبلد . فقد مات إبراهيم باشا رشدى المحافظ مساء الأربعاء ثالث عشر أكتوبر وكان فى نهاره معافى ، فحضر جنازة جلال الدين باشا أحد أبناء البيت العلوى التى شيعت فى ذلك اليوم باحتفال حافل للغاية ، فلما عاد الى بيته فى غروب اليوم أدركته منية(٦٣٢) على فجأة . وقد كان رحمه الله مسالما رفق الشمائل ، تقلب فى كثير من الوظائف

(٦٢٩) الأخطاء = الأخطار
(٦٣٠) على = عليه
(٦٣١) وزاع = وذاع
(٦٣٢) منيه على = منيته

واحتفل بمشهده إحتفالا مهيبا ، مشى فى مقدمته طائفة من الجند المصرى المشاة وكوبتان[٦٣٣] من الفرسان ، وأمام النعش الوزراء ومندوب من قبل أمير البلاد ، وآخر من قبل الوزير نوبار باشا ، ووكلاء القناصل بالملابس الرسميه وكثيرون من أهل المناصب وأصحاب الخطط وغيرهم كثير جدا . وبعد الصلاة على الجثة واروها التراب .

قالوا . طلب لورد كرومر من الوزير أن يختار لمنصب المحافظة أحد أشياع السياسة الإنجليزية ، فأكبر الوزير هذا الأمر وأعظمه وحسبه تداخلا فى شؤون الإمارة الداخلية مضرا معيبا له . على أن المنصب لا يعد من الأهمية فى شىء بين مناصب الإمارة ، وسواء كان صاحبه ذا صبغة حمراء أو خضراء فلا عمل له البتة يخشاه الإنجليز . ولكن الشائع أن عميد الإحتلال قد عول بعد عودته من ديارهم على مبدأ التداخل فى إختيار كل موظف مصرى ولو كان لأخس الوظائف وأحطها . وتأكد خبر ذلك وظهرت للعيان دلائله ، وأصبح مركز الوزير نوبار باشا ورفاقه حرجا مضطربا رغما عن تحصينهم فى واجباتهم وعدم خروجهم عها خطوة . وجاء الإذن إلى لورد كرومر فسافر إلى الإسكندرية والتقى بالأمير فى قصر رأس التين ، ولبث بالحضرة ساعة ثم قفل راجعا إلى القاهره . وما هى إلا أيام حتى رسم الأمير بتقليد إبراهيم نجيب باشا محافظ الإسكندرية محافظا للقاهرة ، وتقليد حسين باشا حلمى وكيل مجلس الشورى رئيسا له ، وإسماعيل باشا محمد وكيلا مكانه ، وتفشى خبر ذلك فى سائر الأطراف ، وتأكد فلاح الوزير نوبار باشا فى سياسته ، فلم يعجب ذلك أصحاب صحف الإنجليز ، وجعلوا يخطئون الوزير نوبار باشا ويهددونه بعظائم الأمور إن هو لم يعدل عن هذه الخطة العوجاء . وقام معها أصحاب بعض الصحف الإيطالية وجعلت تفاخر بحسن نوايا الإنجليز فى ديار مصر ، حتى لقد قالت أن

(٦٣٣) وكوبتان = وكوكبتان
(٦٣٤) الأدله = الدولة

الأدلة[٦٣٤] الإيطالية لا تأنف قط من أن تسمح إلى الدولة البريطانية بضم أرض الفراعنه إلى أملاكها إذا سمحت لنا باحتلال تونس ، وقد صدق من قال:

فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

هذا إذا لم يغير الله سبحانه من حال إلى حال . وقام أصحاب الصحف المحلية يمتدحون الوزير ويثنون عليه ويعظمون آراءه ويفاخرون باقتداره وحزمه وجهاده وتقحمه مصاعب سياسة أصحاب الإحتلال حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة على عهد الرومان . وكان مما إهتم به نوبار باشا وقوى العزم على إخراجه إلى حيز الوجود خلط إدارة الشرطة بوزارة الداخلية وجعل تلك الإدارة تحت سيطرة وزير الداخلية مباشرة ، وقطع كل صلة برئيسه بينها[٦٣٥] وبين المديريات

---

(٦٣٥) برئيسه بينها = بين رئيسها . وخلال حياته السياسية فرق(نوبار) بين نوعين من الإحتلال : الإحتلال العسكرى والسياسى للبلاد ، وهذا قبل به تماما وكان من غلاة المتعاونين معه . والإحتلال الإدارى وأعنى به سيطرة سلطات الإحتلال على نظارة الداخلية وفروعها ، وفى هذا المقام فإنه كان يرفضه تماما ، وقال فى ذلك قولته الشهيرة(إنى فى صف الإحتلال . . . . ولكن ليس الإحتلال الإدارى) . وفى سبيل تأكيد سياسته هذه فإنه خاض ثلاثة معارك كبرى ضد الوجود البريطانى فى نظارة الداخلية خلال فترات رأسته للنظارة(١٠ يناير ١٨٨٤ - ٩يونيو ١٨٨٨)(١٥ إبريل ١٨٩٤ - ١٢نوفمبر ١٨٩٥) . كانت السياسة البريطانية فيما يتعلق بجهاز الأمن هى إخضاعه لسلطة مركزية إنجليزية فى القاهرة يتلقي أوامره منها بما يستتبعه ذلك من تقليص الدور الرأسى والإشرافى (لمديرى المديريات) على جهاز الأمن . وترتب على ذلك أن أصبح رجال البوليس فى القطر يتلقون أوامرهم من ضباطهم الذين يتلقون أوامرهم من القيادات الإنجليزية فى القاهرة أو فروعها فى الأقاليم . ولما كان هذا لايتفق وسياسة(نوبار) ، فإنه دخل عام ١٨٨٤ فى صراع مع(كليفوردلويد) وكيل نظارة الداخلية ، وعاود الصراع مرة أخرى عام ١٨٨٧ ضد(بارنج) المعتمد البريطانى ليعيد لمديرى المديريات سلطاتهم التى سلبتها السياسة البريطانيه ، وإنتهى الأمر بسقوطه فى يونيو ١٨٨٨ . وفى نظارته الثالثة والأخيرة(١٥ أبريل ١٨٩٤ - ١٢ نوفبير ١٨٩٥) خاض نوبار نفس المعركة(معركة البوليس) مع(كرومر) بهدف إعادة سلطات(مديرى المديريات) على جهاز البوليس وإلغاء قيادة البوليس الإنجليزية وإنهاء دورها المهيمن فى قضية الحياة الداخلية للبلاد . وفى هذه المرة إستطاع(كرومر) أن يوقع(بنوبار) تماما - فقد وافق على إلغاء نظام البوليس ووظيفة مفتش عموم البوليس اللتان كانتا تحت هيمنة الإنجليز - فى مقابل تعيين مستشار إنجليزى لنظارة الداخلية(مستشار الداخلية) يعاونه ثلاثة إنجليز فى وظائف مفتشين(مفتشو الداخلية) . ووافق(نوبار) على هذه التسوية وصدر بها أمر عال فى ٣نوفمبر ١٨٩٤ ، وأصبح هناك(مستشار للداخلية ومفتشون للداخلية بالنظارة منذ ذلك الوقت .

كانت الملامح الرئيسية لنظام(نوبار) الجديد فى جهاز الأمن تتمثل في :-

أ - توزيع المهام والإختصاصات المتعددة التى تركزت فى إدارة(تفتيش عموم البوليس) على إدارات النظارة وتحت الإدارة المباشرة لناظر الداخلية .=

والمحافظات . فقرر لذلك قاعدة مثلى ، فلم تعجب جماعة الإنكليز وعدوها من مسببات الخصام وآيات الخلل الجسام . فلم يلتفت إلى قولهم وأصر على ما فى نفسه ، ورفع أمره إلى ديوان الأمير ، فوافق الأمير على ذلك أو كاد ، فأكبر لورد كرومر الأمر وأعظمه ، وراجع الوزير وشدد فى مراجعته وقال إن كان ولا بد فلى غرضا أسأله ، هو إقامة مستشارا إنجليزيا(٦٣٦) لوزارة الداخلية كمستشار وزارة الحقانية له ما له وعليه ما عليه . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف على إختلاف نزعاتهم ، فأعابوه وتطيروا من عاقبته ، وقالوا هو محنة ليس ورائها إلا ذهاب البقية الباقية من مناصب الإمارة إلى ذلك الحين . وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الفرنسيس ، وحذروا الوزير من الوقوع فى ذلك الشرك . يقال وقابل المسيو لوكردان قنصل فرنسا الجنرال الوزير نوبار ، وكلمه فى ذلك بما لم تصل الينا معرفته . وسافر الوزير فى سادس عشر أكتوبر من السنة إلى

= ب ـ إحلال مجموعة من المفتشين الإنجليز المقيمين بالنظارة ، محل مفتشى البوليس الإنجليز المقيمين فى المحافظات والمديريات ـ تقوم بالتفتيش وكتابة التقارير عن الطريقة التى يؤدى بها المديرون والموظفون المحليون الآخرون أعمالهم

(To inspect and Report upon the manner in Which the Mudirs And Other Local officials Performed their duties)

كان معنى هذا هو أن نوبار بدلا من أن يستخلص (لمديرى المديريات) سلطاتهم التى أنتزعت منهم لصالح السيطرة الإنجليزية ، فإنه وضع (الإدارة والبوليس) فى يد الإنجليز . وقد إعترف(كرومر) بذلك عندما قال عام ١٨٩٥(إن الإشراف أصبح على المديرين تماما كما هو على الضباط وإن أدارتهم(أى المديرين) عرضة لتفتيش شامل فى كل فروعها بواسطة(موظفين إنجليز) يتلقون الشكاوى عن الظلم والمعاملة الغاشمة التى تفحص فحصا مستقلا على أيدى هؤلاء المفتشين ...... الذين يقدمون تقاريرهم إلى المستشار الإنجليزى المزود بالمعتمدية البريطانية ، ومن ورائها القوة الإحتلالية .

ـ راجع حاشية ١٠٣ ص ٩٥ ، ١٠٨ مكرر ص ٨٩ ، ١٠٩ ص ٩٩ ، ١١٠ مكرر ص ١٠٠ .

ـ الوقائع المصرية ٣ نوفمبر ١٨٩٤ .

ـ ملحق للوقائع المصرية نمرة ١٣٢ فى يوم السبت ١٧ نوفمبر ١٨٩٤ ـ البوليس المصرى ـ نظارة الداخلية ـ قسم الضبط والربط ـ أوامر البوليس ـ الأمرنمرة ١٣٥ .

-Egypt No. 1(1895) Report on the Finances, Administration, And Condition of Egypt And the progress of reforms

ـ عبد الوهاب بكر(البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٨٨ ـ ٣٠٠

(٦٣٦) مستشارا إنجليزيا = مستشار إنجليزى

الإسكندرية ورفع إلى مقام الإمارة طلبات لورد كرومر . فطال الكلام فيها أياما كثيرة والناس معلقون بحزم الأمير وقوة عارضته . وتأهب المستر غورست[٦٣٧] وكيل وزارة الخزينة لتولى منصب إستشارة الداخلية حيث رشحه لورد كرومر

---

(٦٣٧) المستر غورست = الدون جورست Eldon gorst ـ (١٨٦١ ـ ١٩١١) ولد فى نيوزيلند Newzealand لجون إلدون جورست Gohn Eldon Gorst الذى كان موظفا هناك فى ذلك الوقت ثم شارك فى العمل السياسى بإنجلترا كمرشح عن حزب التورى Tory (المحافظين) وأصبح نائبا عن كامبردج Cambridge عام ١٨٦٦ ـ ثم عمل كوزير للمعارف فى بلاده بعد ذلك ـ كان المترجم يسمى نفسه فى الحياة العامة جون لوندس جورست John Lowndes Gorst ، وكان اسمه عند أسرته وأصدقائه جاك Jack ـ ولم يحمل لقب إلدون Eldon إلا بعد حصوله على لقب فارس عام ١٩٠٢ . فى عام ١٨٦٨ التحق بالمدرسة المحلية فى كنسنجتون Kensington بإنجلترا . وفى عام ١٨٦٩ التحق بمدرسة أخرى فى برايتون Brighton . فى عام ١٨٧٥ التحق بكلية إيتون Eton ـ وفى عام ١٨٧٩ التحق بجامعة كامبريدج Cambridge وكان فى سن الثامنة عشر . تخرج فى صيف ١٨٨٢ وحصل على درجته فى القانون . فى عام ١٨٨٥ وبعد سنوات تدريب فى مكتب سكونز Scoones للمحاماة ، عمل كمحام . لكنه شارك بعد ذلك فى العمل الحزبى فى حزب المحافظين كسكرتير للإتحاد القومى National union لمدة ثلاثة أشهر من عام ١٨٨٥ . رشح فى ذلك الوقت للعمل فى السلك الدبلوماسى . عمل مع لورد راندولف تشرشل Randolph Churchil وزير الهند لبعض الوقت ، وفى أكتوبر عام ١٨٨٥ فاز بوظيفة بدون مرتب فى الإدارة الشرقية Eastern departmentبوزارة الخارجية . وفى نوفمبر ١٨٨٦ ألحق بالقنصلية البريطانية فى مصر تحت قيادة المعتمد البريطانى(بارنج) وكان فى سن الخامسة والعشرين . ظهرت مواهبه كمالى خلال سنواته الأولى فى مصر مما حدا بكرومر أن يكلفه بالمشاركة فى إعداد التقرير السنوى لعام ١٨٨٧ عن المالية المصرية . فى عام ١٨٨٧ رقى إلى وظيفة سكرتير ثالث فى السلك الدبلوماسى . فى ١٨٩٠ عين مراقبا للأموال المقررة بنظارة المالية ، وفى خريف نفس العام عين (سرا) مراسلا لجريدة التايمزThe Times فى مصر إلى جانب عمله الرسمى كوسيلة لتحكم (كرومر) فى الأنباء التى تصل إلى العالم عن مصر التى يتولى إدارتها . أصبح وكيلا لوزارة المالية عام ١٨٩٢ خلفا لألفريد ملنر Milner . فى نوفمبر ١٨٩٤ أصبح مستشارا للداخلية فى سن الثالثة والثلاثين . فى سبتمبر ١٨٩٨ عين مستشارا ماليا بدلا من السير إلوين بالمر ألذى عين مديرا للبنك الأهلى . فى عام ١٩٠١ رقى كسكرتير مفوضية ومنح لقب فارس عام ١٩٠٢ . تزوج عام ١٩٠٣ من إڤلين رود Evelyn Rudd إبنة أحد كبار الماليين وشريك سيسل رودس Cecil Rhodes فى جنوب أفريقيا ـ وكان فى سن الثانية والأربعين . مثل كرومر فى المفاوضات التى انتهت بتوقيع الوفاق الودى الأنجلو ـ فرنسى عام ١٩٠٤ . ونتيجة لنجاحه فى هذه المفاوضات فقد عرض عليه أن يعمل كمساعد وكيل وزارة فى الخارجية البريطانية ـ خدم فى الخارجية البريطانية حتى عام ١٩٠٧ فى انتظار خلو منصب(كرومر) فى مصر ليحل محله . فى ١١ أبريل ١٩٠٧ تم تعيينه قنصلا جنرالا لبريطانيا فى مصر . توفى بالسرطان فى ١٢ يوليو ٩١١ فى سن الحادية والخمسين .

- (Sir Eldon Gorst, The Over Shadowed Procnsul) -- Op. Cit. -- pp 7 -- 210

لهذا المنصب الخطير . يقال حدث أحد أهل المناصب غورست فيما هو شائع بين الناس من إسناد منصب إستشارة الداخلية إليه ، فقال (ليس فى الأمر ما يدعو الى الريب ، فقد كان هذا الخاطر من الأمور المحتم وقوعها على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا لولا إختلاف أصحاب سياستنا فى ذلك العهد على شيء من مبادىء هذا المشروع العظيم لا هو فى العير ولا هو فى النفير ، وكأن الأمور مرهونة بأوقاتها . ولا تظن أن صاحب سياستنا يتراجع حتى ينال أربه / أ .هـ . وكثر إجتماع الأمير بوزرائه ومناجاتهم فيما يريده صاحب السياسة الإنجليزية من تقليد أحدهم إستشارة الداخلية . وطال الأخذ والرد فى ذلك أياما لم يتغير فيها صبغة لورد كرومر ولا خفت صوته . وظل الحال على هذا وسفراء اللورد كرومر مثل بالمر المستشار المالى وسكوت المشاد[٦٣٨] للحقانية وغيرهم يغدون ويروحون بين الإسكندرية ومصر لتبليغ ديوان الإمارة رغائبه التى لم يكن ليجرؤ على البروز بها جهارا كى لا تفسد عليه بتدابيره ، وقد كاد يذهب بأصحاب[٦٣٩] الخوف الى أبعد ما يذهب بهم الأمل . وخفت صوت أصحاب صحفهم وسكتوا عن التمدح بذكر ذلك المشروع ولم يلقوا كلمة واحدة يثنون بها على واضعه كما هى عادتهم . وبارح الأمير الإسكندرية خامس عشرى أكتوبر من السنة ، وسادس عشرى ربيع الثانى قاصدا القاهرة ، فكان لوداعه إحتفالا عظيما للغاية حيث إجتمع بمحطة الإسكندرية كل من فى ذلك البلد من وجهاء وأعيان وتجار وأهل المناصب العالية وأصحاب الخطط والغازى مختار باشا مبعوث دار السلطنة . وكانت قد زينت المحطة بالأعلام والرياحين وفرشت أرضها بالطنافس . ووقفت طايفة من العسكر المصرى وأخرى من العسكر الإنجليزى عند بابها . فلما أقبل الأمير فى ركبه أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى ، فحيى[٦٤٠] الأمير المودعين واستقل

---

(٦٣٨) المشاد = المستشار
(٦٣٩) بأصحاب = بأصحابه قراءة ترجيحية
(٦٤٠) فحى = فحيا

القطار مع جماعة الوزراء . فلما وصل القاهرة إستقبله على محطتها الأمراء من البيت العلوى والكبراء والوجهاء ، فمر من بينهم مسلما وركبه[٦٤١] إحدى عربات التشريف الكبرى ، فسارت به إلى قصر الإمارة بعابدين وخلفه وزراؤه ورجال ديوانه ، فبطلت حركة أصحاب لورد كرومر التى كانت قائمة ما بين الإسكندرية والقاهرة وتحولت الى قصر الإمارة وبديوان[٦٤٢] الوزير نوبار باشا . وعاد الأخذ والرد بين الوزير واللورد كرومر فى قبول مشروع الوزير القائل بإلغاء وظائف أصحاب الشرطة من وزارة الداخلية واستقلال المديرين والمحافظين فى أعمالهم تحت سيطرة وزارة الداخلية مباشرة . فلما كان تاسع عشرى أكتوبر تمثل اللورد كرومر بين يدى الأمير وعرض عليه قبول صاحب سياستهم للمطلب الأخير الذى أوقف عنده مشروع وزارة الداخلية . فاستقدم الأمير وزراءه ورفع الوزير نوبار باشا تقريرا بالتعديلات التى وقع الإتفاق عليها فأقروها مبدئيا . يقال وسئل الوزير فى ذلك فقال (إنى كنت أمام ثلاث خصال إما بقاء الحالة الحاضرة فى المديريات والمحافظات مع فوضاها بسبب أصحاب الشرطة وأحوالهم ، وإما قبولى بتعين وكيل إنجليزى لوزارة الداخلية وإما بقبول المشروع الأخير وهو تعين مستشارا إنجليزا[٦٤٣] لا يكون له فى الإدارة سوى حق الإستشارة ، وقد فضلته على الأولين لا لأنه خلو من كل شر ولكن لأنه أهون الشرور الثلاثة وأبعدها عن المخاطرة بشؤون البلاد) .

لما كان ثالث نوفمبر من السنة ، وثالث جمادى الأولى تمثل جماعة الوزراء بين يدى الأمير فى قصر الإمارة ، ولبثوا بحضرته ساعة رسم فيها بالموافقة بتاتا على مشروع جماعة الإنجليز بنظارة وتقليد المستر غورست وكيل وزارة المالية منصب الإستشارة بوزارة الداخليه ، وتعيين ثلاثة من الإنجليز

---

(٦٤١) وركبه = وركب
(٦٤٢) وبديوان = وديوان
(٦٤٣) مستشارا إنجليزا = مستشار إنجليزى

معاونين فيها ، وإلغاء مصلحة الضبط والربط إلغاءاً تاما . وشاع خبر ذلك ونقله أصحاب الصحف على إختلافها ، فقامت ضجتهم هنا وهناك وكلهم يضربون على وتر واحد . قلت وقد عثرنا على ترجمة التقرير الذى أعده الوزير نوبار باشا إلى مقام الأمير فى جلسة ذلك اليوم وإذا به يقول (مولاى . لما قلدتنى ذاتكم الفخيمة رئاسة مجلس النظار وجهت كل التفاتى إلى سوء حالة الأمن فى البلاد وإلى البحث عن الطرق الموصلة لإصلاح تلك الحال . على أن هذا الأمر كان موضع إهتمامى منذ سنة أربع وثمانين وثمنمائة وألف ، وقد بينت حينئذ أن منشأ الضرر والإرتباك هو وجود إدارة عمومية للبوليس فى نظارة الداخلية تعرقل أعمال المديرين وسلطتهم وليس للناظر يد عليها .

فقد كان من مقصد مبتكر هذا النظام عقب زمن الحوادث الثوروية إجراء المراقبة اللازمه لمنع الوقوع فى مثل تلك الأحوال . غير أن تفتيش عموم البوليس مال بمقتضى الحال منذ البدء إلى الأستحوار[٦٤٤] على إدارتنا الداخلية برمتها ، أعنى على العناصر القائمة بها حياة البلاد . فنشأ عن ذلك فى النظارة وفى داخلية البلاد تنازع فى الإختصاص غير محمود ، لم تكن نتيجته سوى الإضرار بالأمن العام . هذا فضلا عن أن التناهى فى حصر السلطة هو مغائر[٦٤٥] لما هو مألوف عندنا ، كما أنه مغائر[٦٤٦] أيضا لحفظ النظام . إذ أن المديرين قد تعودوا على أخذ المسئولية على عاتقهم ، وهذا لا يكون إلا إذا كانوا قابضين على سلطة حقيقية . وبناء على ذلك فيكون الشرط الأول لإعادة حالة الأمن فى البلاد إلى ما كانت عليه هو إلغاء النظام المذكور ، لمنع تنازع الإختصاص الذى سرى إلى أصغر فرع من فروع المصالح .

(٦٤٤) الأستحوار = الإستحواذ
(٦٤٥) مغائر = مغاير
(٦٤٦) مغائر = مغاير

غير أنه توصلا لإلغاء تفتيش عموم البوليس الذى هو عبارة عن نظام تأسس بصعوبة فى مدى العشرة سنوات الماضية على جملة أوامر عالية ولوائح كان ينتظر منها أن تكون أحسن الوسائل لحفظ الأمن العام وضمانته أيضا على عدم الوقوع فى مثل الإضطرابات السالفة ، قد اضطررت لإعطاء الضمانة التى تقتضيها حالتنا .

وإنى أرى أن المقترحات التى تقدمت فى هذا الشأن لو قبلت على علاتها لما كانت تفى عند تنفيذها بالغرض المطلوب . غير أن قبولها مقرونا بإلغاء نظام البوليس الحالى يترتب عليه التوفيق بين جميع الصوالح مع إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد ، فضلا عن أن الرجوع إلى ما هو مألوف عندنا ، أعنى أن كل مدير يصبح مسئولا عن الأمن فى مديريته ويحافظ عليه بمعاونة مشايخ البلاد الذين تعاد إليهم سلطتهم بعد وضعها تحت روابط مقررة الأمر الذى يعود بالنفع العميم إلى عموم الإدارة .

أما أهم أوجه هذا الإصلاح فهو إلغاء تفتيش عموم البوليس من(٦٤٧) نظامه الحالى .

إلغاء مفتشى البوليس المعينين فى المديريات وإيجاد ثلاث وظائف معاونين بنظارة الداخلية يكلفون بالقيام بالتحقيقات أو المأموريات التى ينتدبهم إليها الناظر كما كان ذلك جاريا من قبل .

تعيين مستشار بنظارة الداخلية بصفة موظف مصرى لا يكون له أدنى إختصاص تنفيذى ، ولا يكون له علاقة إلا بالناظر وإليه يرجع فيما يريد الوقوف عليه من الإستعلامات . هذه هى الأسباب التى بنيت عليها تقريرى الخصوصى الذى تشرفت برفعه إلى سدتكم العلية . وبما أن جنابكم السامى

---

(٦٤٧) من = مع
ـ الوقائع المصرية ٣ نوفمبر ١٨٩٤(ترجمة التقرير الذى رفعه إلى الجناب الخديوى المعظم صاحب الدولة نوبار باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية بتاريخ ٣ نوفمبر ١٨٩٤ .

قد تفضل بالمصادقة فلذلك أرفع لمقامكم السامى مشروع الأمر العالى المرفق بهذا لتتكرموا بتشريفه بالتوقيع المنيف .

هذا وإنى لولى النعم العبد الخاضع والمخلص(٦٤٨) أ .هـ . قلت فلما تفشى هذا القول بين الناس ، خفف عنهم ضجة أصحاب الصحف ، وعذروا الوزير على ما بدى ونزلوا(٦٤٩) عمله منزلا محموداً . وأصبحوا وقد ذهب المستر غورست المستشار الجديد إلى قصر الإمارة ، وتمثل بين يدى الأمير وشكر له على تعطفه(٦٥٠) بتقليده منصب الإستشارة ، وانصرف من حضرته داعيا . وأرسل الوزير فى طلب سائر المديرين والمحافظين فتمثلوا بين يديه ، فكلمهم طويلا فى اختبار(٦٥١) أنجح الأسباب والوسائل الكافلة بإرجاع الأمن إلى نصابه واستباب الراحة والطمأنينة فى شرق البلاد ومغربها . وكلف كل منهم بإبداء رأيه فى ذلك كتابة ، فأقاموا على ذلك أياما . وبذل لهم النصح وحضهم على أن لا يخيفهم بأس ولا ترهبهم شدة ، ولا يمنعهم من الاستقال(٦٥٢) فى الرأى ما يرونه من كبير إلى طريقة يستهجنونها فى جانب طريقة يستحسنونها ، إذ المشروع خطير وهو مستلزم أسمى النزاهة وأصدق الملاحظات . قلت وفى ذلك أكبر تبعة عليهم وأعظم مسئولية لديهم ، فقد باتت البلاد وأصبحت على عهد ذلك النظام الإنجليزى مشتأ(٦٥٣) للغارات ، ومصيفا للغزاة والسطاة ، وملعبا لأهل الشقاوة . وكان إذا سئل المديرين أو المحافظين فى ذلك تنصلوا وقالوا لسنانت(٦٥٤) التصرف فى شىء ولا السلطة والنفوذ فى شىء ، وإنما الشىء كل

(٦٤٨) والمخلص = والمخلص المتواضع
- المرجع السابق
(٦٤٩) بدى ونزلوا = بدا منه وأنزلوا - أضيفت كلمة منه ليستقيم النص
(٦٥٠) على تعطفه = تعطفه
(٦٥١) إختبار = أختيار
(٦٥٢) الإستقال = الإستقلال
(٦٥٣) مشتأ = مشتى - من الشتاء - وجمعه(أشتية) وأشتى القوم دخلوا فى الشتاء - والنسبة إليه(شتوى) - مختار الصحاح - مرجع سبق ذكره - ص ١٣٩
(٦٥٤) نت = نملك

الشيء فى أيدى جماعة الإنجليز . وإنى يعجبنى ما كتبه صاحب الأهرام فى هذا المقام . فقد أبدع فى النصح إلى جماعة المديرين والمحافظين وبين لهم عظم المسئولية والتبعة التى تقع على عاتقهم إن هم أهملوا واجبهم إلى أن قال «وأخطر ما ينبغى عليهم تداركه فى أعمالهم أمران . أولهما أن يعينوا بالحصر إختصاصاتهم كلها حتى إذا جروا بمقتضاها لم ينازعهم فيها منازع ، وأن يبينوا من ذلك أنجح الوسائل التى أرشدتهم إليها الخبرة ليستتب الأمن أفضل إستتباب ، ويعلم العالم بأمرة[٦٥٥] أن المصريين أكفاء لإدارة شؤونهم ولا سيما الداخلية من كل دخيل متعللم[٦٥٦] ، وليمنعوا مثل الفوضى التى كنا واقعين فيها ، لأنها إذا حصلت . لا سمح الله . ــ ورجالنا المسئوولون كانت الضربة القاضية علينا من جميع الوجوده[٦٥٧]» إلى أن قال : وحضرات المديرين أعلم منا بما عليهم وما لهم ، وأخبر بما ينبغى وما لا ينبغى ،وإنما ذكرناهم ونستديدهم[٦٥٨]حثا على النزاهة العليا والإستقلال التام ،والإلتفات إلى مجرد الخير العام .إلى أن قال[٦٥٩] .

قلت . ولا ندرى إن كان المستر غورست هذا يقلع عما إشتهر عنه وهو فى وكالة الخزينة من الأنانية والشده المتناهية ، ومحاولة تعدى كل حد واختصاص ، أو انه يعظم الصغيره[٦٦٠] ممن لا يوده ويضمر الكباير ممن يريده كما سمعنا عنه ذلك فى كثير من الأندية والمحافل ، والله خير مسئول أن يدفع عن البلاد كل شر ويوفق من يديهم[٦٦١] الأمور الى عمل كل نفع وخير . وأنزوى

---

(٦٥٥) بامرة = بأسره

(٦٥٦) متعللم = متعال قراءة ترجيحية

(٦٥٧) الوجوده = الوجوه

(٦٥٨) ونستذيدهم = ونستزيدهم

(٦٥٩) لم يضف شاروبيم شيئا بعد الكلمة ــ ويبدو أن الكاتب أسقط سهوا ما ينبغى ذكره بعد جملة (إلى إن قال)

(٦٦٠) الصغيره = الصغائر

(٦٦١) يديهم = بأيديهم

ستل باشا(٦٦٢) صاحب الكلمة والسلطة على مصلحة البوليس على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا ، وتخلى عن منصبه بتاتا بحكم ذلك النظام الجديد ، وعزم على الرحيل الى دياره . فأهداه الأمير قبل مبارحة القطر بالوسام المجيدى الأول ، وألبسه أناة(٦٦٣) بيده ، فما هى إلا أيام حتى رحل فى تاسع نوفمبر من السنة أى حادى عشر جماد الأول . وقد كان الرجل جنديا بحت أبى النفس، عظيم الهيبة مع خشية ووقار ، وكان خصما عنيدا إلى لورد كرومر لا يطق(٦٦٤) الصبر على غطرسته ولا يرضخ إلى كبرائه(٦٦٥) . أخبرنى كبير من أصحاب الشرطة قال (جاء إلى ستل باشا هذا كتابا من لورد كرومر فيه إفعل فى نظام ضبط إحدى المديريات كذا وكذا ، فقد علمت من أخبارها كيت وكيت وفيه شيء من قارص الكلام ، فمَا أتم ستل باشا قراءته حتى أبرقت عينه وأخذه غيظا ، وكتب يقول له إن مركزك فى هذه الديار إنما هو مركز وكيل دولة بريطانية العظمى السياسى فيها ، لا مركز رقيب ولا عتيد على موظف عسكرى فى خدمة أمير البلاد ، فأرح نفسك من عناء الإشتغال بمثل هذه الأعمال والسلام . قال فعجبت من قوله وجراءته ، والإنجليز هنا كلهم صنائع لورد كرومر ، المتآمرين(٦٦٦) بأمره فى الحل والترحال) . قال (فسألت عن ستل باشا من يعرفه من جماعة الإنجليز ، فقيل لى أنه فضلا عن أنه من أصحاب البيوتات العالية والعائلات العريقة فى الحسب ، فإنه جندى باسل وقائد محنك له وقائع مشهورة وأعمال مأثورة) أ .هـ .

---

(٦٦٢) ستل باشا= راجع حاشية ٣٠٢ ص ٣٢٣ .

(٦٦٣) أناة = إياه

(٦٦٤) يطق = يطيق

(٦٦٥) كبرائه = كبريائه

(٦٦٦) المتامرين = المؤتمرين

جلس المستر غورست فى منصبه محفوفا بمن إختارهم لمناصب وزارة الداخلية وخططها من قومه وضائعة[٦٦٧] الدخلاء ، فجعل يطوح بنظام الشرطة ذات اليمن[٦٦٨] وذات اليسار ، ويعد لنفسه وللإحتلال العدة الكافلة لبسط النفوذ ، واتساع الكلمة فى داخلية البلاد . وما هى إلا أيام حتى برح الخفاء أنهم يعملون من وراء الستار على التخلص من جبروت الوزير نوبار باشا ودهائه ، وأنهم يسعون بكل ما تصل إليه قدرتهم وراء إسقاطه ، واستبداله بآخر لا يتقاضاهم وفاء ما وعدوا به من الوقوف عند حدهم ، وأن لا يبقوا أمامهم مصريا عارفا بقدر منصبه حريصا على كرامة وطنه كالوزير نوبار باشا ومن معه من الوزراء . فقام أصحاب صحفهم وقد ألطلقوا[٦٦٩] لهم الوقيعة فيه ، ونادوا بالويل والثبور ، وقال[٦٧٠] أنه إنما يريد إستدعاء بعض أجلاف الترك أو زعانف الإنكشارية ليوليهم ظلم الرعية تحت سيطرة أولئك المديرين الذين سلمهم سيوف النقمة من الضعفاء بعد أن كان أرجعها الإنجليز إلى أغمادها أياما من الدهر ، وجعلوا يحذرون الناس من شهر[٦٧١] ذلك اليوم العصيب ، حتى لقد إستحلفوا صاحب سياستهم بالإيمان المغلظة أن لا يترك المديرين أحرارا يتصرفون فى أعناق الرعية تصرف السيد فى عبده ، وأن يضرب على أيديهم بقضيب من حديد كل ما بدى[٦٧٢] منهم أمرا ولو كان تافها ، كى لا تذهلهم نشوة المنصب عن واجبهم أمام ذلك النظام الجديد .

وكان مما تقرر فى مجلس الوزراء بجلسة يوم الخميس خامس عشر سبتمبر من السنة ، وسابع عشر جمادى الأولى التسريح[٦٧٣] إلى شركة بلجيكية بإنشاء خطوط حديدية فى جوف القاهرة ، تسير عليها عربات للركاب

---

(٦٦٧) وضائعه = وصنائعه
(٦٦٨) اليمن = اليمين
(٦٦٩) الطقلوا = أطلقوا
(٦٧٠) وقال = وقالوا
(٦٧١) شهر = شر
(٦٧٢) كل مابدى = كلمابدا
(٦٧٣) التسريح = التصريح

كأرتال السكك الحديد ، وتسمى هذه الخطوط والعربات باسم (تراموای) . قالوا وأن النقطة المركزيه التى يتفرع منها تلك الخطوط هى سراى العتبة الخضرة ، ومنها فرع يمتد إلى شارع عبد العزيز ، وباب اللوق ، فميدان قصر النيل ، فمصر القديمة ، فالخليج المصرى ، ومنها فرع يمتد إلى باب اللوق ، فالناصرية ، وآخر إلى شارع محمد على ، وميدان الأوبرا ، فشارع بولاق ، فشارع أبو العلا ، فبولاق البلد ، وفرع إلى الأزبكية ، فكلوت بك ، فقنطرة الليمون ، فالفجالة ، فالعباسية ، إلى قشلاقات الجند ، ومنها إلى الخليج المصرى ، فمصر القديمة ، إلى جزيرة الروضة ، ومنها بزورق بخارى للجيزة ، ومن قصر النيل على شاطىء ترعة الإسماعيلية إلى كبرى الليمون . بشرط الإبتداء من بعد مضى تسعة أشهر ، وإنهاء كل هذه الخطوط بعد مضى سنتين[٦٧٤] شهرا . قالوا وسيكون سير مركباته بآلة كهربائية ، وينتهى إمتيازه بعد مضى خمسين سنة . فلما شاع خبر ذلك بين الناس تناقله العامة وهم فى دهشة وحيرة كيف تسير عرباته بالكهرباء على تلك الخطوط الجديدة ، وكيف يأمن الراكب شر تلك الكهرباء . وجعل بعضهم يصف إلى بعض ما تفعله الكهرباء بالإنسان والحيوان وصفا لا هو فى الموجود ولا هو فى المعدوم من علوم الأولين والآخرين . وكان إذا ذكر أحدهم كلمة كهرباء أردفها باللعنات وفحش الشتائم وقال (هى والله من عمل الفرنجة الشياطين بل من عمل جماعة الجن الملاعين) . وظل الحال بينهم على ذلك حتى كان من أمرهم عند تسيير أرتال الترمواى فى البلد ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله .

واتفق فى هذه الأثناء أن قدم من أسر أصحاب المهدوية كاهن من الآباء الفرنسيسكان إسمه الأب (روسينيولى) ، إنحدر فارا ، فما شاع خبر وصوله إلى القاهرة حتى تنازع أصحاب الصحف إلى رؤيته ، وسماع أخباره فلم يتمكن من ذلك إلا القليل . وقد تمكنت من رؤيته بعد العناء ، فألفيته قد بلغ بياض شعر

---

(٦٧٤) سنتين = ستين

لحيته على سواده ، نحيف الجسم متوسط القامة . فبعد أن حييته بأعظم تحية سألته عن أحوال السودان فقال : حاكم مستبد وقلب لا يرحم كأنه من صخر ، ورعيته أطول من ظله[٦٧٥] خوف الفنا ، ومغارم فادحة ، وضرائب جائرة ، والله سبحانه رحيم بعباده . فقلت وما الذى وهى[٦٧٦] القوم بعد فتح الإيطاليان لكسلا . قال ما شاع خبر ذلك فى أم درمان حتى جمع التعايشى كبار جنده ، وتلطف بهم كثيرا ، وقال لهم إن هذا الملك قد دعتنى الأمة إليه فقمت به خير قيام ، وصارت بيعتى فى أعناقكم حتى تخلعوها ، فعليكم حفظ هذا السلطان بسيوفكم ودافعوا عنه بأرواحكم وإلا ساءت العاقبة ، واختلف علينا الحابل بالنابل ، ثم فرق بينهم العطايا ورسم لهم بجميع[٦٧٧] المقاتلة وإطعامهم ، وصرف العلافة لدوابهم ، وجعلهم على قدم القتال . فأبث[٦٧٨] دعاته بين الناس ، وجعلوا يدعونهم إلى النجدة والجهاد فى الكفار المارقين . قال والتعايشى أبدا يحذر من العسكر المصرى ويحسب لقتال المصريين حسابا كبيرا ، وقد صرف همه كله إلى إسترجاع كسلا . قال أما تحصين أم درمان والخرطوم وبربر فإن ما عندكم من الأخبار عنه مبالغ فيه جدا ، والحقيقة أن أقل جيش عظيم لا تعوقه تلك المبانى الركيكة المتفرقة عنه[٦٧٩] دخول تلك الحواضر . وأما أسلحة القوم فمن بنادق رمنتون[٦٨٠] القديمة التى ربما لا تصلح لموقعتين ولا سيما مع رداءة الخرطوش ، والتعايشى يضرب النقود باسمه ولا ينفذ سواها فى بلاده ، وهى سمجة تدق بالمطارق . قال وقد علمت بأن أحد الإنجليز هناك واسمه بلومفلد تعهد له بعمل آلة لدق النقود وضمنه فى ذلك

(٦٧٥) أطول من ظله = أطوع إليه من ظله
(٦٧٦) وهى = دهى - أى أصاب - الداهية هى الأمر العظيم - (دواهى الدهر ما يصيب الناس - دهته داهية ـ ما دهاك أى ما أصابك
مختار الصحاح - مرجع سبق ذكره - ص ٩٠
(٦٧٧) بجميع = بجمع
(٦٧٨) فابث = فانبث
(٦٧٩) عنه = عن
(٦٨٠) رمنتون = راجع حاشية ١٧٦ ص ٢١٢ .

آخر إسمه سوريان بمبلغ خمسمائة جنيه ، ولعله قد أنجزها . فقلت وكيف تيسر للأب الخلاص من أسر القوم مع بعد الشقة؟ قلت[٦٨١] خدمت صبيا فى قهوة وكنت أدعى(صباح الخير) فتردد على فى القهوة فى أيامى الأخيرة رجل من البيض ، وطال تردده على أياما من الدهر حتى وثق بى ووثقت به . ففى ذات يوم أطلعنى على أمر من رئيسى الروحى يتضمن الدعاء لى والتعجيل بالهرب والإنحدار إلى مصر ، ففرحت بذلك جدا ، فاعتذرت إلى صاحب القوه[٦٨٢] بعدم قدرتى على البقاء معه ، وأنى معول على الإنحدار إلى الخرطوم ، فسمح لى بذلك ، فاكتريت قاربا بأربعين ريالا ليوصلنى إلى بربر مع دليل قد إكتريته من عربان العبايده[٦٨٣] ، كان قد أتى مصر واتفق فيها مع ونجت كِ[٦٨٤] على

(٦٨١) قلت = قال

(٦٨٢) القوة = القهوة

(٦٨٣) العبايدة = العبابدة - قبيلة من الشعوب الحامية التى انتشرت فى الصحراء الشرقية من أسوان إلى هضبة الحبشة جنوبا - ويتركزون فى جنوب مصر عند أسوان بين النيل والبحر الأحمر .
- هيئة الإستعلامات (تاريخ مصر القديمة وآثارها - تاريخ وآثار مصر الإسلامية) مع سبق ذكره - ص ٧٤٧ .
- Larousse Universel Vol I P., I -

(٦٨٤) ونجت كه = ونجت بك - ريجنالد ونجت Reginald Wingate - ضابط إنجليزى - ألحق بالأورطة الرابعة بنادق مشاة المصرية فى يونية عام ١٨٨٣ وكان برتبة ميجور(رائد) ومنح فى ذلك الوقت رتبة البكباشى(مقدم) . شارك فى معركة إسترجاع (طوكر) عام ١٨٩١ وكان برتبة القائمام(عقيد) . مع تولى الفريق هربرت كتشنر قيادة الجيش المصرى فى ١٣ أبريل ١٨٩٢ عينه مديرا لقلم المخابرات الحربية - وظل كذلك حتى عمليات إعادة فتح السودان ١٨٩٦ - ١٨٩٨ . شارك فى معارك إسترجاع أم درمان(سبتمبر ١٨٩٨) - وقاد القوات التى واجهت الخليفة(عبد الله التعايشى) فى نوفمبر ١٨٩٩ عندما كان يعتزم غزو أم درمان بعد فراره منها ، وقد قتل التعايشى فى هذه المعركة وانتهت بقتله الدولة المهدية . منح عام ١٨٩٩ رتبة اللواء وعين أدجوتانت جنرال الجيش المصرى - بعد ترك كتشنر منصبه كسردار للجيش المصرى وحاكم عام للسودان عين المترجم سردارا للجيش المصرى وحاكم عام للسودان فى ١٣ ديسمبر ١٨٩٩ - فى عام ١٩١٦ عين قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر خلفا للسير هنرى ماكماهون - مع قيام ثورة ١٩١٩ نحى عن وظيفته كمعتمد بريطانى فى مصر ليحل محله الفيسكونت اللورد اللنبى Allenby .
- وزارة الحربية والبحرية(أورطة البنادق الرابعة المشاة) - مرجع سبق ذكره - ص ١٧ ، ٢٤ ، ٤١
- راجع ص ١٠٩٢ - ١٠٩٣ .
- جورجى زيدان(كتاب تاريخ مصر الحديث) الجزء الثانى - مرجع سبق ذكره - ص ٣٢٥
Patricia Wright (Conflict on the Nile), op.cit.,-pp . 107, 119, 177, 216 -
Louis A. Aroian & Richard P Mitchell(The Modern middle East and North Africa), Macmillan Publishng Company, U S A 1984. P. , 122.

إنقاذ إحد أسرى التعايشى بأجرة معلومة هى ثلاثون جنيها . قال فلما وصلنا إلى القارب رأيت كثيرا ممن يعرفوننى ، فخفت أن يبلغوا أمرى إلى التعايشى ، فأشار على الدليل بالعدول عن السفر بحرا والمسير برا ففعلت . قال وتمارضت أياما حتى تمكن الدليل من شراء حمارين ، وكان عند[٦٨٥] جمل لم يشتر غيره خوف أن ينتبه[٦٨٦] إلى أنه راحل رحالة[٦٨٧] بعيدة . ولما قوى الحماران وتعافيا من المؤنة والعلف وطول أيام الاستراحة خرجت من منزلى واهم[٦٨٨] بأنى ذاهب إلى الخرطوم للإستشفاء . فتوجهت نحو النيل واختبأت هناك إلى أول الليل فجاءنى الدليل وعبد له ، وسرنا[٦٨٩] مقابين الجبال نهارا وعلى جوانب النيل ليلا ، حتى إلتقينا بخمسة عشر جنديا معارضين لنا فى الطريق ، فهجموا علينا ليسلبونا دوابنا . وكنت ساعتئذ مرتجلا[٦٩٠] أمشى وراء الرجل ، فلم يبصرونى وساقوا الحمارين والجمل . فالتفت إليهم الدليل وقال ياقوم نحن من أتباع الأمير(زاكى)[٦٩١] فكتب عنكم[٦٩٢] إلى التعايشى بهم ، فأعادوا الدواب وانصرفوا ونجيت للمرة الأولى ، ولكن عند ما قاربنا(بربر) أبصرنى رجل فسألنى أين أقصد ، فقلت له بربر ، فقال بل أراك تحاول السفر فى النيل ، ثم تأمل فى

---

(٦٨٥) عند = عنده

(٦٨٦) يثنبه = يتنبه أحد — أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٦٨٧) رحالة = رحلة

(٦٨٨) واهم = موهما — قراءة ترجيحية

(٦٨٩) مقا = ما

(٦٩٠) مرتجلا = مترجلا

(٦٩١) الزاكى طمل ــ قائد المهديين فى الجبهة الحبشية ـ قائد معركة(القلابات) ١٩٨٩/٣/٩ ضد الحبشة والتى انتهت بمصرع الإمبراطور يوحنا الرابع إمبراطور الحبشة وتولى منليك الثانى ملك شوا الحكم فى الحبشة ـ فى أوائل ١٨٩٣ أرسله الخليفة التعايشى إلى القضارف ليوقف زحف الإيطاليين الذين كانوا يتوسعون فى أريتريا جنوبا وغربا ـ إستبدل فى أغسطس فى نفس العام بأحمد ود على لوقف الزحف الأيطالى على كسلا .

ــ إنظر على بركات(السياسة البريطانية وأسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ص ١١٠,١٠٦ .

ــ مكى شبيكه(مختصر تاريخ السودان فى الحديث) . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٥ ـ الطبعة الثانية . ص ١٠١ .

(٦٩٢) فكتب عنكم = وسنذهب معكم — قراءة ترجيحية

وجهى وقال (قد عرفتك فإنك صباح الخير) ـ وكنت قد ألقيت مع هذا الرجل فى سجن التعايشى ـ ثم تركنى وأبلغ أهل بربر أن نصرانيا يريد الهروب الى مصر ، فخرج الناس زمرا يريدون القبض على . وقد كنت إختفيت داخل معلف للبقر دلنى عليه مولى الدليل ، فلما لم يجدونى قبضوا على الدليل وسجنوه . وانبث الجواسيس والأرصاد يبحثون على(٦٩٣) . فعلم العبد بذلك وجعل ينقلنى تحت جنح الظلام من زريبة إلى أخرى الى خرابة إلى معلف . ولما لم يعثروا على محلى أطلقوا سراح الدليل ، فخرج بى إلى القفار سرى الليل وسير النهار حتى أدركنا أسوان بعد أيام من الدهر لم نأكل فيها إلا التمر اليابس والذرة المشوية . فسألته (هلا تخبرنى بشىء من مجريات الأحوال بين التخوم ومنازل أصحاب التعايشى) فقال (إعذرنى فقد أقسمت أن لا أذكر شيئاً من ذلك إلى أحد ما) . ففهمت أنه إنما أقسم لأصحاب المراصد عند التخوم ، فعذرته وشكرته وانصرفت فدعى(٦٩٤) لى دعاءاً حسنا للغاية .

وعاد الأمير ووزيره الى التفكير فى من يكون خلفا إلى على شريف باشا فى رئاسة مجلس الشورى بعد أن خلع نفسه على ما مر بك بيانه فى محله . فظل الأخذ والرد بين ديوان الأمير وديوان الوزارة أياما حتى وقع الإتفاق على تقليد(عمر لطفى باشا) منصب الرئاسة . فرسم الأمير بذلك وقرر مجلس الوزراء ، وطيروا الخبر بذلك إلى المديريات والمحافظات فلم يحفل الناس به ولا أحلوه محلا لأن الباشا من رجال المقهقر(٦٩٥) والتربية القديمة ومن زملاء مصطفى رياض باشا على عهد دولة الأمير عباس باشا الأول . وتمثل عمر باشا بين يدى الأمير ، فكلمه الأمير بكلام رقيق دل على منهى الرقة والتلطف ، فقبل يده وانصرف ، فزاره فى بيته جميع رجال الشورى ، وهنأوه بالمنصب

(٦٩٣) على = عنى
(٦٩٤) فدعى = فدعا
(٦٩٥) المقهقر = التقهقر .

وبالغوا فى الإحتفال به على ما قضى به وجدانهم ، فرسم باجتماعهم فى جلسة عمومية ، فاجتمعوا . فافتتح الجلسة بكلام وجيز وشكر للأمير مكرمته ولرجال الشورى إحساسهم ، فردوا عليه ردا جميلا ، فأجل إجتماعهم إلى فرصة ثانية وانصرفوا . يقال إجتمع وكيل عميد الإحتلال بعمر لطفى باشا وهنأه بمنصبه الجديد ، وحادثه ساعة ثم قال له (أن لورد كرومر يثور[٦٩٦] عليكم بأن تسعوا جهد الإستطاعة إلى إكتساب ثقته وثقة صاحب سياسة جلالة الملكة ، فإذا فعلتم ذلك ولا نظنكم فاعلوه[٦٩٧] هانت الصعاب وتكللت أعمالكم بالنجاح . فقال عمرباشا(نفعل إن شاء الله تعالى) . فلما تفشى خبر ذلك بين الناس قام أصحاب الصحف وقعدوا ، وأنحوا على لورد كرومر باللائمة ، وقالوا (ما هى ياترى تلك الشقة التى يتوعدون بها رئيس الشورى ، أهى أنهم يخافونه[٦٩٨] من بحث رجال الشورى فى ميزانية الخزينة للعام الجديد ويحذرونه من إطلاق عنانهم فى تنقيبها والقضاء على كل ما فيها خاصا بأهل المناصب وأصحاب الخطط منهم وبمصاريف جيش إحتلالهم؟ أهذا ما يرجونه من رئيس شورى البلاد والبلاد فى حاجة إلى عناية رجال شوراها ، لما هم عليه من الضنك والحاجة إلى تخفيف كربتهم؟ فليحذر رئيس الشورى ورجاله من هذا التضليل الوبيل) أ .هـ .

ومن أعجب ما روى عن حوادث فيضان النيل فى هذا العام أنه فى يوم الأربعاء خامس ديسمبر من السنة ، وسابع جمادى الثانى إنهال[٦٩٩] قسم من طراد البحر الذى بجوار بلدة (ميت دقين) (وكفر أبو جرج) بمركز ميت غمر التابع ولاية الدقهلية بسبب بتبيت[٧٠٠] حدث فى الجسر ، فسقط أحد جدران

---

(٦٩٦) يثور = يشور .
(٦٩٧) فاعلوه = إلافاعلوه — أضيفت اللكمة ليستقيم المعنى
(٦٩٨) يخافونه = يخيفونه — قراءة ترجيحية .
(٦٩٩) إنهال = إنهار
(٧٠٠) بتبيت = تبتيت — قراءة ترجيحية ـ والبت هو القطع ـ نقول بتته تبتيتا – والإنبتات هو الأنقطاع .
مختار الصحاح ـــ مرجع سبق ذكره ص١٦ .

كنيسة القديس مارى جرجس للأقباط الأورثوذكس ، وتهدم منزل بالقرب من ذلك الجدار ، وكان اليوم عيدا للقديس وقد إجتمع فى ذلك المكان زهاء أربعين مدعوا ، وجلسوا على مائدة العشاء جميعا . وبينما هم يأكلون شعروا بأرض الدار تهبط بهم على مهل ، فقاموا مسرعين وخرجوا من الدار كلهم سالمين . فما هى إلا ساعة أو بعضها حتى هوت الدار كلها إلى قاع النيل ولم يظهر لها أثر البتة . وجاء الخبر بذلك إلى ديوان الوزارة وتفشى بين الناس فعدوه من غرايب الصدف أو من كرامات القديس مارى جرجس والله بالسر عليم . قلت وكان هذا الحادث ختام حوادث الفيضان ، إذ أخذ النيل فى الهبوط ، وانحسر ماؤه بين ضفتيه فزال الخوف عن الناس وأقبل أصحاب المزارع على زراعاتهم ، وعاد من نزح من سكان مصر القديمة وفم الخليج إلى بيوتهم بعد جفاف أراضيها ، ورمم أصحاب المبانى المتداعية مبانيهم . هذا وأصحاب الرى لم يكفوا عن البحث والتنقيب فى آراء أصحاب مشروع خزان أسوان وما يحتاجه من التكاليف ، وأوفق الأماكن لوضع بنائه ، حتى أختاروا له أحد كبار المهندسين من الإنجليز واسمه (السير باكر) . فكان يتقاضى من خزانة البلاد ألف جنيه نقرة[(٧٠١)] عن كل فتوة يفتيها فى تخطيط وحساب وبناء ذلك الخزان[(٧٠٢)] . أخبرنى أحد مهندسى الرى أن هذا المفتى تناول من مال الخزينة العامرة ألفا

(٧٠١) نقره = النُقرَةُ هى السبيكة ، والمقصود هو ذهبا .

(٧٠٢) خلال عام ١٨٩٠ كان ويليام ويلكوكس william Willcoks أحد كبار خبراء الرى الإنجليز فى مصر يجرى أبحاثا حول إقامة خزان للمياه فى البلاد - بعد أبحاث وزيارات ميدانية إنتهى ويلكوكس فى شتاء ١٨٩٠ إلى أن أفضل خزان لمصر يمكن تحقيقه عن طريق بناء سد عبر النيل يزود بفتحات تسمح بمرور الفيضان . أرسلت الحكومة ويلكوكس إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا لأغراض تتعلق بوسائل التحكم فى فتحات السد والحصول على أفكار أخرى عن المشروع فى مايو ١٨٩١ . فى ١٨٩٣ قدم ويلكوكس خططه وتقديراته وتقريره عن السد المقترح والخزانات وتم نشرها فى ديسمبر ١٨٩٣ تحت عنوان perenial irrigation and flood protection for Egypt (الرى الدائم وحماية مصر من الفيضان) . فى هذا التقرير كتب سير ويليام جارستين william Garstin مستشار نظارة الأشغال مطالبا بتشكيل قومسيون من ثلاثة من أشهر مهندسى المياه فى أوربا لفحص المشروعات المختلفة والإشارة على الحكومة باختيار المشروع الملائم . فى نهاية فبراير ١٨٩٤ حضرت اللجنة التى طلبها جارستين وكانت مؤلفة من سيربنيامين باكر benjamin Baker ، مسيو أوجست بولى auguste Boule والسنيور چياكومو تورشيللى giacomo Toricelli . قامت اللجنة =

جنيه نقرة لفتوتين إثنتين أفتاهما منذ حضوره إلى هذه الديار ، يعنى منذ شهر ونصف شهر من الزمان . فذكرتنى هذه الفعال بقول القائل :

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

وقامت ضجة جماعة الأشراف التابعين لمشيخة السادة البكرية حول أوقافهم ، واتهموا السيد توفيق البكرى(٧٠٣) شيخ مشائخ سجادتهم ونقيبهم

= بسياحة فى الوجه القبلى مصحوبة بوليام ويلكوكس ومستر فرديناندرو ferdinand Roux كسكرتير للجنة . فى إبريل ١٨٩٤ قدمت اللجنة الثلاثية تقريرها عن السد وفى مايونشر ويليام جارستين كل وثائق المشروع وطالب الحكومة بالشروع فى العمل . فى مايو ويونيو ١٨٩٤ إنشغل ويلكوكس بعمل الرسومات اللازمة عند أسوان ثم سافر إلى إنجلتر للعمل مع السير بنيامين باكر الذى أصبح المهندس الإستشارى للحكومة المصرية ، ومستر ف . د . م ستونى F D M Stoney مخترع بوابات السد . فى ديسمبر ١٨٩٨ بدأ العمل فى بناء سد أسوان وتولى العمل التنفيذى سير موريس فيتز موريس Maurice Fitzmaurice ـ وعمل مستر و . س ويلسون W S.wilson كمفتش عام للرى ، والسير بنيامين باكر كمهندس إستشارى . قامت شركة جون أيردMessers Sir John Aird & Co بأعمال مقاولات البناء ، وتولت شركة رانسومز ورابير Messers Ransomes & Rapier أشغال الحديد ـ وتم الإنتهاء من بناء السد فى عام ١٩٠٢

- Sir William Willcocks (Sixty Years Inthe East) op Cit . Pp , 144, 151 -- 152, 155, 166 - 167

(٧٠٣) السيد توفيق البكرى = محمد توفيق البكرى شيخ السجادة البكرية ونقيب الأشراف فى عهد الخديو عباس ـ ولد عام ١٨٧٠ فى قصر الروضة ـ دخل المدرسة العالية التى أنشأها الخديو توفيق لأنجاله ـ نال شهادة البكالوريا ثم عكف على دراسة العلوم الدينية ـ تعلم على يد الشيخ الإمبابى شيخ الأزهر وأجازه للتدريس ـ عندما تولى عباس حلمى عام ١٨٩٢ وكان المترجم فى الثانية والعشرين ولاه الوظائف الموروثة فى (بيت البكرى) وهى مشيخه السجادة البكرية ـ مشيخة الطرق الصوفية ـ نقابة الأشراف وأصبحت ألقابه هى (شيخ مشايخ السجادة البكرية ـ شيخ مشايخ الطرق الصوفية ـ نقيب الأشراف) ـ أصدر عباس حلمى أمرا بتعيينه عضوا دائما بمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ـ أنعم عليه بكسوة التشريف والنيشان المجيدى من الطبقة الثانية ـ فى عهده كرئيس للطرق الصوفية فى أستجاب لدعوة إصلاحها ومنع سير المواكب الصوفية فى القاهرة والأقاليم إلا بإذن من المشيخة التى كان يرأسها . سافر إلى أوروبا ، وزار الآستانة واستقبله السلطان العثمانى ومنحه رتبة الوزارة وهو فى سن الثالثة والعشرين ـ لعب دورا بارزا فى قضية زواج الشيخ(على يوسف) صاحب جريدة المؤيد ، من(صفية) إبنه السيد /عبد الخالق السادات (السادة الوفائية) ـ أثناء عضويته لمجلس شورى القوانين مارس دوراهاما فى مناهضة الإنجليز عندما طالب بدستور نيابى وحكومة نيابية . دعا إلى إصلاح الأزهر الأمر الذى جلب عليه نقمة(عباس) الذى اعتقد بوجود مقصد سياسى عنده لكسب أكبر هيئة دينية إلى صفه ، فضلا عن التنافس الذى كان بينه وبين(عباس) منذ إن كانا رفيقى دراسة فى المدرسة العالية ـ إتهم عام ١٨٩٧ بتأليف قصيدة فى هجاء الخديو(عباس) مطلعها(قدوم ولكن لا أقول سعيدُ .... وملك وإن طال المدى سيبيدُ) ـ نزع عنه الخديو نقابة الأشراف عقاباله على موقفه منه ـ أعاد إليه (عباس) النقابة عام ١٩٠٣ بعد إن زالت الجفوة بينهما لكن الخلافات والمواقف الجافة كانت تتكرر بين (البكرى) و(عباس) .

ـ مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٥٧ ـ حاشية ١٨٢

ـ حاشية ٣٢١ ص ٣٢٧ .

بالتلاعب بإيرادات ذلك الوقف ، وصرفها فى أوجهها[٧٠٤] الشرعية . ورفعوا ظلامتهم إلى باب الأمير وديوان الوزارة ، ووقفوا فى طريق الأمير يلفتون نظره إلى ظلامتهم . فرسم إلى وزيره نوبار باشا بالعناية بالأشراف وتحقيق ظلامتهم . يقال وأبلغ نقلة الأخبار بعض حاشية الأمير أن السيد توفيق البكرى يقضى سمر ليله فى الحط من مقام الإمارة والتهكم على ديوانها بشىء من الهتر والقول الهراء ، وأنه يفضل التخلى عن منصب المشيخة عن تسليم حساب تلك الأوقاف ودفاترها إلى الحكومة . وعلم الأمير بهذا الكلام فأكبره وسير إلى الوزير يستحثه على سرعة التحقيق واختيار جماعة من أصحاب المناصب لتحقيق ظلامة القوم ، وشدد فى ذلك . فعلم السيد توفيق بما وراء التحقيق ، فكبر خوفه وعظم تطيره ، وأستجاد[٧٠٥] بعض[٧٠٦] أهل المناصب العالية ، فشفعوا فيه عند الأمير وتمثل هو بالحضرة ، وقبل أقدام الأمير مسترحما ، فهون الأمير عليه وقال لابد من التحقيق . فلما كان تاسع عشر ديسمبر من السنة ، حادى عشرى جمادى الثانيه أرسل الوزير نوبار باشا إلى السيد توفيق البكرى يقول (قد تشكلت لجنة لفحص الشكايات المرفوعة ضد تصرفاتكم فى ريع الأوقاف الموجه لعهدتكم نظرها ، وأن اللازم هو استعدادكم لتقديم دفاتر حسابات هذه الأوقاف متى طلبتها اللجنة بناء على ما قرره مجلس الوزراء) . فاشتدت كربة السيد توفيق وكاد يسقط فى يده ، وشاع بعد ذلك أن قد وجهوا منصب نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم سليلة[٧٠٧] بيت مكرم القديم ، فأعجب الناس هذا التوجيه لبغضهم للسيد توفيق ومقتهم لتصرفاته وكبريائه ، قالوا وتخلقه بأخلاق الفرنجة وتقليده عاداتهم المحرمة دينا . قلت . والرجل تعلم فى ديار الفرنجة ، ولبث فيها حينا من الدهر ، فنقل عنهم حرية القول ، والجهر بتقبيح ما

(٧٠٤) أوجهها = غير أوجهها ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى
(٧٠٥) وأستجاد = وأستجار
(٧٠٦) بعض = ببعض
(٧٠٧) سليلة = سليل

لا ينطبق على معارفه وما ألفه من عادات القوم ، فكثر لذلك خصومه ، وتراكمت عليه همومه . وقام سائر المستحقين فى وقت[٧٠٨] الأشراف قومة رجل واحد ، وطالبوه بحساب الوقف . فجعل هو يطاول ويحاول لعله يتمكن من ساتمالة[٧٠٩] بعض أولئك الخصوم حتى كان من أمره ما سيذكر فى محله . وكان الإدعاء على الأوقاف وشكوى المستحقين فيه صارت من هنات هذا الزمان . فإنه لما مات الأمير عبد الحليم باشا إبن محمد على باشا الكبير مؤسس هذه الدولة العلوية وكان قد ورث عن أخته الأميرة زينب هانم شيئا كثيرا جدا من عقار ومزارع ومتاع ، قام فى هذا العهد نفر من علماء ومشايخ الأزهر يدعون على أولاده بحق موقوف لهم من تركة زينب هانم ، وطالبوا الورثاء بذلك الحق ، ورفعوا شكواهم إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة ، وقامت أيضا سرية من سرارى الأمير عبد الحليم باشا إسمها (نزاكت هانم) وادعت على الورثاء بحقها فى تركة الأمير لأنها زوجة له غير مطلقة ، وقد مات وهى فى عصمته . والتف[٧١٠] حول أولئك المشايخ وتلك الزوجة جماعة من المحامين وسماسرة وتجار مثل هذه القضايا ، وزينوا لهم ما زينوه من الجلبة والضوضاء حول قصر الإمارة . وكأن الأمير كان يرى أن القوم مدفوعين إلى هذه الحركة بيد خفية ، وأن دعواهم ليست من الحق فى شىء ، فسير فى طلب كبارهم وأهل الرأى فيهم ، وكلمهم فى ذلك طويلا ، ونصح لهم أن يأتوا الأمور من أبوابها ، وأن لا يحدثوا حدثا لا يكون من ورائه إلا إزدياد العداء وعلم الأمير بخبر ذهاب جماعة منهم ومعهم آخرين من أصحاب العكاكيز إلى (سكوت) مستشار وزارة الحقانية ، وأنهم قد إستعانوا به على ورثاء[٧١١] حكيم بتشكيل[٧١٢] محكمة

---

(٧٠٨) وقت = وقف
(٧٠٩) ساتمالة = إستمالة
(٧١٠) والنف = والتف
(٧١١) ورثاء حكيم = ورثاء الأمير عبد الحليم   قراءة أجتهادية
(٧١٢) بتشكيل = لتشكيل .

مخصوصة تحكم فى دعواهم . فلم يعجب الأمير فعلهم ، قيل بل كدره جدا وأغضبه ، فرسم إلى الوزير نوبار باشا بعدم تشكيل تلك[٧١٣] ، ولزوم إتفاق المتخاصمين على ما فيه حسم الخلف بالتى هى[٧١٤] ، أو التقاضى معا أمام قاضى قضاة مصر بالمحكمة الكبرى . واستقدم الوزير(نزاكت هانم) الزوجة المدعية أيضا وكلمها فى ترك العناد والمصالحة مع الورثاء وقبول المبلغ الذى عرضوه عليها فلم تقبل ، وقالت بأن حقها فى تركة الأمير هو أضعاف ما عرض عليها . واشتد الخلاف بين وزير الحقانية ومستشارها وبعض أعضاء المحكمة الشرعية الكبرى . فقد كان الوزير يرى أن إقامة الدعوة[٧١٥] على تركة الأمير عبد الحليم باشا لا يصح إلا أمام محاكم دار السلطنة العثمانية حسب النظام القضائى ، وكان المستشار ومن جرى مجراه يرى أن نظرها لا يكون إلا بمحكمة مخصوصة تشكل لذلك ، فاشتد الخلاف بينهم وطال الأخذ والرد أياما كثيرة ، وصمم الوزير على رأيه والتخلى عن منصبه إن هم أصروا على هذه البدعة المخالفة للقوانين والشرائع . فاجتمع مجلس الوزراء لينظر فى دعوى الطرفين ، قروا[٧١٦] ما يراه وزير الحقانية ووافقوا[٧١٧] على مذهبه ، وقرروا[٧١٨] بلزوم العمل به وعدم الخروج عنه ، أو أن يتقاضوا جميعا أمام المحكمة الكبرى . وعلم الوزير باشتراك نفر من المحكمة الشرعية فى دسائس هذه القضية وتعضيدهم للأزهريين (ونزاكت هانم) وعملهم من وراء الستار على تشكيل المحكمة المخصوصة إنتصارا لرأى مستشار الحقانيه . وثبت لديه ذلك ثبوتا قويا ، فأكبر هذا الأمر وأعظمه جدا ورسم بخلعهم من وظائفهم فخلعوا ، وخلع معهم الشيخ عبد القادر الرافعى رئيس المجلس العلممى[٧١٩] بالمحكمة الكبرى لهذا

(٧١٣) تلك = تلك المحكمة . أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٧١٤) هى = هى أحسن . أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٧١٥) الدعوة = الدعوى
(٧١٦) قروا = فأقر .
(٧١٧) ووافقوا = ووافق .
(٧١٨) وقرروا بلزوم = وقرر بلزوم .
(٧١٩) العلممى = العلمى

السبب بعينه . واختار الأمير لجنة من أمراء البيت العلوى برياسة الأمير حسين كامل باشا إبن الخديوى إسماعيل باشا فى[٧٢٠] شكوى نزاكت هانم ، وتحكم فيها . وشدد على رجال اللجنة الذين انتدبوا لتحقيق شكاوى الأشراف ضد السيد توفيق البكرى بسرعة فض الخلاف القائم . فأرسلوا من يومهم يطلبون من السيد توفيق إرسال جميع الأوراق القديمة والحديثة الخاصة بناقبة[٧٢١] الأشراف منذ إتصالها ببيت البكرى ، وحددوا لذلك مهلة ثمانية أيام لبحثوا[٧٢٢] فى شكل ونوع إختصاصات الوظيفة بحقيقتها ، ويضعون كل أمر فى موضعه . قلت ومن غرائب الصدف أنه بينما كانت هذه الحوادث آخذة مجراها والوزير آخذ بالطرف[٧٢٣] الحزم فيها والتشديد على الموكلين بفضها ، إذ زلت قدمه فسقط فانكسرت ساقه وكان بمزرعته ناحية[٧٢٤] قليوب ، فاجتمع حوله نفس[٧٢٥] الأطباء وقدروا لشفائه شهراً من الزمان أو يزيد . وما شاع خبر سقوطه وتناقله الناس حتى عدوه من كرامات أولئك الأزهريين والمبعدين عن خدمة المحكمة الشرعية وآيات سخطهم على الوزير . حتى لقد بلغت القحة ببعض أولئك المشايخ أن ذكروا ذلك بحضرة وزير الحقانية ، وحذروه من عاقبة عناده وإصراره على رأيه برفع شكواهم إلى محاكم دار السلطنة . وجاء خبر سقوط الوزير إلى قصر الإمارة ، فسير أحد رجال القصر إلى مقر الوزير يبلغه سلام الأمير ، ويسأل عن عافيته وسبب سقوطه ، فعلم أن الوزير بينما كان يتنزه فى مزرعته بشبرا البلد مر فى طريقه ثورين ، فلما رأياه جفلا وهجم أحدهما عليه ، ولكن[٧٢٦] معه فى تلك اللحظة أحد من الخدم أو الأتباع . فهم بالهروب ، فزلت

(٧٢٠) فى = للنظر أو للتحقيق فى
(٧٢١) ناقبة = بنقابة .
(٧٢٢) لبحثوا = ليبحثوا .
(٧٢٣) بالطرف = بطرف .
(٧٢٤) ناحية = بناحية .
(٧٢٥) نفس = نفر من .
(٧٢٦) ولكن = ولم يكن .

قدمه وسقط منكبا على وجهه ، فتركه الثور وولى مدبرا . فرسم الأمير إلى طبيبه الخاص بعيادته ، وزاره سائر الوزراء وجميع قناصل الدول ، وأتت إلى ديوان[٧٢٧] الرسائل تترى من كل صوب وحدب .

واتفق أيضا أن شبت[٧٢٨] في ديوان وزارة الداخلية في ليلة الثلاثين من ديسمبر من السنة أى ليلة الثانى من رجب الفرد ، بالغرفة التى هى أسفل غرفة الوزير نوبار باشا ، وارتفع لهيبها . فاحس بها جماعة الفراشين ، وجاءت المطافىء مسرعة ، فتمكنوا من إطفائها ولم يحدث منها ضرر يذكر . فقال الأزهريون وهذا الحريق من كرامتهم أيضا ، وأن لا بد من وقوع مصائب أخرى كحوادث[٧٢٩] كبرى إن لم ينالوا طلباتهم كما هى . قلت وكأن الكرامات فى عرف أولئك القوم إنما هى الإيذاء والضرر لا خلاف فتأمل .

وانقضت مهلة الثمانية أيام التى قررتها لجنة تحقيق شكوى الأشراف البكرية لتقديم أوراق ومستندات ريع الأوقاف المرصودة عليهم تحت نظر السيد توفيق البكرى ، وكانت غايتها يوم ثلاثين ديسمبر ، وثالث رجب . فلم ير السيد توفيق البكرى بدا من تسليمها فى الأجل المضروب . فلما إطلعت عليها رأت أنها ليست المطلوبة ، فأرسلت إليه تشدد بطلب الأوراق الحقيقية ، وأرسلت كذلك إلى المحكمة الشرعية الكبرى وإلى ديوان الأوقاف بإرسال كل الأوراق التى عندهم المختصة بنقابة الأشراف ومشيخة الطرق فى الأقرب العاجل . وبينما الناس فى تفكير فيما عساه أن يكون وراء قيام الأزهريين ونقابة الأشراف البكرية وقد إستحكمت حلقات الخلاف فيها ، وسعى بعض المحامين من أنصار القوم حتى تمكنوا من رفع دعوى الأزهريين إلى المحاكم المختلطة ، وفازوا بتحديد أجل للتقاضى فيها ، إذ شاع الخبر عن إحدى صحف الفرنسيس

(٧٢٧) ديوان = ديوانه .
(٧٢٨) شبت = شبت النار .
(٧٢٩) كحوادث = وحوادث .

بأن جاويشا من أهل المراصد باستحكامات إسنا رأى فى نوبته زوارقا[٧٣٠] تصعد تباعا إلى أسوان تحت جنح الظلام ، فرابه أمرهم ، فاستوقفهم وفتشهم ، فوجد فيهم كثيراً من الأسلحة والذخيره ومعدات الحروب ، فأعلم جماعة الإنجليز المرابطين بخبرهم ، فنهوه عن تعويقهم وخوفوه من عاقبة التأخير أو فشا[٧٣١] سرهم ، فعاد وسرحتهم[٧٣٢] من قدره[٧٣٣] . فساروا صعدا إلى التخوم ومنها الى حيث أصحاب التعايشى . قالت تلك الصحيفة (وليس ذلك فقط بل إن طائفة من العساكر الإنجليزية نزلت إلى أسوان من خليج يسمى عقيق السجاير . على مقربه من سواكن ، وأتت الأرض التى يتولى عثمان دقنه ولمومه حراستها وفيها مراصدهم ، فلم يحدث حدثا[٧٣٤] لنزولهم ، ولا بدت من القوم حركة كأنهم على إتفاق فى هذا الأمر) . فتعجب الناس وأخذتهم الدهشة والحيرة . وقامت ضجة أصحاب الصحف المحلية ، وكثر الإرجاف بتواطىء[٧٣٥] الإنجليز وأصحاب المهدى على إستمرار هذا الحال ، حال الكذب والتغرير بحكومة البلاد وبأميرها ، وجعلوا يتسالون[٧٣٦] أى[٧٣٧] متى يقف أصحاب الإحتلال عند حدهم ، وإلى أين نحن مسوقون . وتتابع الإرجاف من أصحاب الصحف الإنجليزية بتحفز التعايشى للوثبة على كسلا والتخوم فى آن واحد . وأظهر سردار الجيوش المصرية الحركة والإنتقال من التخوم الى القلزم ، ومنه الى سواكن ، ومن سواكن إلى التخوم صعدا وهبوطا لمشارفة مواقف المرابطين من الجند وأهل المراصد ، وكثر تنقل عساكر الإحتلال من قصر النيل ، إلى

---

(٧٣٠) زوارقا = زوارق .

(٧٣١) فشا = إفشاء .

(٧٣٢) وسرحتهم = وسرحهم .

(٧٣٣) قدره = فوره .

(٧٣٤) حدثا = حدث .

(٧٣٥) بتواطئ = بتواطؤ .

(٧٣٦) يتسالون = يتسائلون .

(٧٣٧) أى = إلى .

العباسية ، إلى قلعة الجبل ، إلى وردان للتمرين على إطلاق المدافع الكبار ، حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على الأبواب ، وأن الدراويش زاحفون على التخوم لا محالة . وكنت ترى عجلاتهم تسير فى وسط المدينة تحمل الأكيسة وأسرة المرضى والذخيره ومعدات القتال ، وخلفها جماعة العسكر يحملون بنادقهم وهم مقطبوا(٧٣٨) الوجوه كأنهم أمام العدو أو هم يتحفزون لأخذه على أسنة حراب بنادقهم . فكانت العامة تنظر اليهم نظرة الغضب وتجنتب(٧٣٩) تحككهم خوفا من الفتنة . وطاف صاحب الشحنه ومعه طائفة من أعوانه فى الشوارع ، وخص شارع محمد على بشىء من العناية واليقظة لازدحامه بالعامة وأصحاب الحرف الدنيئة ، ولأنه طريق العساكر الإنجليزية الى قلعة الجبل صعدا وهبوطا . وظل الحال على هذا أياما ثم سكنت الحركة ، وانقطع سير العربات والعسكر ، وقل تنقلهم . فاطمأن الناس وذهب عنهم الخوف . وانكف صاحب الشحنة عن التطواف فى شوارع البلد ، وعاد العامة إلى شأنهم من التغنى والجلبة فى الطرق والشوارع فى الليل والنهار .



(٧٣٨) مقطبوا = مقطبو

(٧٣٩) وتجنب = وتتجنب .

الفصل الرابع

عام ١٨٩٥

مرض الخديوى اسماعيل فى الآستانة

مولد أولى بنات الخديوى من أحدى محظياته

قانون العمد الجديد

المحاكم المخصوصة

وفاة الخديو إسماعيل

زيارة دى لونكل Deloncle لمصر

ظهور مصطفى كامل

وباء الهيضة الأسيوية في مصر

سقوط نظارة نوبار

نظارة مصطفى فهمى باشا(١٢ نوفمبر ١٨٩٥ ـ ١١ نوفمبر ١٩٠٨)

هزيمة الأيطالين فى أمباألاجى (٧ ديسمبر ١٨٩٥) .

عام ١٨٩٥

ومما يضحك بل يبكى البصيرة وأهل التفكير ما أزاعه[١] صاحب الجرنال أجبسيان الإفرنسى يوم أول يناير من السنه الميلاديه الجديده ، أى سنة خمسة وتسعين وثمنمائة وألف ، وهو يوم الثلاثاء رابع رجب الفرد سنة إثنى عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، وثالث عشرى كيهك سنة إحدى عشرة وستمائة وألف للشهداء ، أذاع أنه جاءه رسالة على جناح البرق من المسيودى[٢] لونكل أحد كبار حزب الإستعمار فى مجلس النواب الفرنساوى يقول فيه (إنى أتمنى السعادة لمصر بالسنة الجديدة ، وليثق المصريون بصداقة فرانسا وودها) . فما شاع خبر هذا القول المليح حتى نقله أصحاب الصحف المعجبين بالسياسة الفرنساوية والأزياء الفرنساوية ولهجة اللغه الفرنساويلا[٣] والآداب الفرنساوية وكلما[٤] هو للسادة الفرنسيس فى هذه الديار وفى غيرها من بقية الامصار .

---

(١) أذاعة = أذاعه

(٢) دى لونكل = فرانسوا دى لونكل Francois Deloncle ـ سياسى فرنسى وأحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية ـ كان معنيا بالشئون المصرية ومعارضا للإحتلال البريطانى لمصر ـ تعرف عليه مصطفى كامل فى صيف ١٨٩٤ فى باريس ـ جاء إلى مصر فى مارس ١٨٩٥ للإطلاع على أحوال مصر فى ظل الإحتلال البريطانى ورحل عنها فى أبريل من نفس العام ـ دافع أثناء عضويته لمجلس الشيوخ الفرنسى عن المصالح الفرنسية فى مصر ـ وكان يسعى لحصول فرنسا على مستعمرات لها فى افريقيا للضغط على بريطانيا فى مصر .

ـ عباس حلمى (عهدى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٨٧ .

ـ أوراق مصطفى كامل (المقالات) تحقيق يواقيم رزق مرقص . مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤٦ حاشية٣ .

- Robert L. Tignor (Modernization and British colonial rulein Egypt (1882 - 1914) op.cit . - p p.. 267 -268

- Patricia wright (Conflict on the Nile) op cit.. - p., 54

ـ مذكرات سعد زغلول (الجزء الأول) مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٧ .

(٣) الفرنساويلا = الفرنساوية .

(٤) وكلما = وكل ما .

واندفع فريق منهم يبنون العـلالى والقصور على أساس ذلك القول المأثور ، وبعضهم يقول أن قد زالت دولة القوم الإنجليز فلم يبق إلا أن يخرج جندها من البلاد صاغرين كما خرجت جنود الفرنسيس على عهد المماليك خاسرين . وبعضهم يقول لا وأبيك فقد بدأ إنخزال[٥] أصحاب السياسة الإنجليزية وذهبت عنهم تلك الحزامة التى كانوا بها واهمين . وبعضهم يقول غير ذلك كثير حتى خيل للناس أن قد نال أصحاب سياسة الفرنسيس منالهم من أقيال سياسة الإنجليز ، وأن الإنجليز خاسرين فى هذه الآونة لا محالة . كل هذه الصيحه المزعجة والضجة المؤلمة قامت حول كلمات معدودات جاءتنا من جانب جبار عنيد هو دى لونكل زعيم المتطرفين فى ديار الفرنسيس فتأمل . إلتقى بى على أثر هذه الضجة صديق ممن يسيئون الظن فى سياسة الفرنسيس فقال([٦] ما قرأت رسالة الزعيم دى لونكل التى جاءت على جناح البرق فى عيد رأس السنة الميلادية الجديدة ، وقد أبان فيها للمصريين جمعا إخلاص قومه الفرنسيس ومحبتهم ــ وصداقتهم وعطفهم وحنانهم ، وأخيرا شعورهم الحى ، وأنهم ما برحوا ذاكرين مصر بكل خير ناقمين على الإحتلال ، محققين لنا إن شاء الله جميع الأعمال ، عاملين على قطع حبل ذلك الإتصال ضاربين . . . .) فقاطعت عليه قافيته وقلت رحماك والله ما قرأت قافية من هذه القوافى فى رسالة زعيم المتطرفين . فقال(أصبت والله لقد مرضنا وتعبنا من ترهات أولئك المضللون الذين غرروا بنا كل هذا الزمان . وأنت تعلم والناس كلهم يعلمون ، أن قد مضى على إحتلال القوم الإنجليز لهذه الديار زهاء الثلاثة عشر عاما أو يزيد قليلا ، وعلى رأس كل عام تأتينا من أولئك المتطرفين وغيرهم من مهوسى[٧] السياسات رسائل التهانى وبشائر بلوغنا منتهى التهانى ، ونسمع فى كل يوم نعيق أصحاب سياستهم على منابر مجالسهم النيابية . بأن إهتمامهم باحتلال

(٥) انخزال = إنخذال .

(٦) ما = أما .

(٧)مهوسى = مهووسى .

الإنجليز لديارنا لا يضارعه الا باهتمامهم[٨] باحتلال الألمان للألزاس واللورين ، وأنهم دائبون على إرجاع مصر للمصريين ، وإفلاتها من قبضة أولئك الغرباء الغاصبين . كل هذا سمعناه وقرأناه فى صحفهم فى كل يوم من أيام هذا الزمان . فقعدنا لهذ القول المحمود بالمراصد وأزكينا عليه العيون أعواماً من الدهر ، فقل لى بحقك هل تركتنا جيوش الإنجليز وولوا وجوههم شطر التيمسن؟ أو هل رحل عنا أهل المناصب وأصحاب الخطط منهم وقد جاءهم خبر نعيق أولئك المندسون كل هذا الزمان؟ أو هل هذا بالذى يغنى عنهم فى طيشهم وسياستهم العوجاء؟ ثم قل لى بعيشك : فى أى الأزمان نالت السياسة الفرنساوية من أصحاب سياسة الإنجليز ، وأنت أعلم بتاريخهم الغابر؟ . فكم ما لاذ أصحابنا بالإختفاء عند اشتداد الأزمات واستحكام الضيقات . أذكر كيف لازت[٩] سفن حربهم يوم الكريهة ، وتركت سفن حرب القوم الأنجليز تقذف نار مدافعها الضخام على قلاع وحصون الإسكندرية حتى دكتها دكا[١٠] .

---

(٨) باهتمامهم = إهتمامهم .

(٩) لازت = لاذت .

(١٠) يذكر شاروبيم واقعة ضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ بواسطة الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال بوشامب سيمور ، وسابقة إنسحاب الأسطول الفرنسى الذى كان مشاركا للأسطول البريطانى من مياه الإسكندرية ـ قبل يوم الضرب إلى بورسعيد . كانت إنجلترا وفرنسا قد اتفقتا فى أعقاب إشتداد الخلاف بين (الخديو توفيق) والوزارة البارودية (٤ فبراير ـ ٢٦ مايو ١٨٨٢) على إرسال أسطولين مشتركين إلى مياه الإسكندرية ـ وبالفعل فإن الأسطولين وصلا خلال الفترة ١٩ ـ ٢٠ مايو ١٨٨٢ـ وكان الأسطول الفرنسى بقيادة الإميرال كونراد Conrad ـ وتبع ذلك إرسال الدولتين (مذكرة ٢٥ مايو ١٨٨٢) التى طالبا فيها بإبعاد أحمد عرابى مؤقتا من مصر مع بقاء رتبته ومرتباته ـ إرسال على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى إلى داخل مصر مع بقاء رتبهما ومرتباتهما ـ وإستقالة الوزارة البارودية . فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ إجتمع مؤتمر فى الآستانة لبحث مشكلة الإضطراب فى مصر وحضره مندوبون عن إنجلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، النمسا ، المجر ، روسيا ، إيطاليا ـ واتفقت الدول فى ميثاق النزاهة (٢٥ يونيو) Protocole de Desinteressement على أن كل إتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث فيه أى دولة من الدول الموقعة على الميثاق عن إحتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على إمتياز خاص بها ولا على نيل أى إمتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى . فى ٢٧ يونيو إتفق المؤتمر على الإمتناع عن التدخل المنفرد فى مصر طالما كان المؤتمر منعقدا فيما عدا الأحوال القهرية ـ ووافقت فرنسا على ذلك . فى ٦ يوليو عهد المؤتمر إلى تركيا بالتدخل لإعادة الأمن والنظام إلى مصر بشرط أن يحترم الجيش التركى المرسل إلى مصر مركزها وامتيازاتها التى نالتها بوجب الفرمانات والمعاهدات ـ أن يخمد الثورة العسكرية ويعيد للخديو سلطته ـ أن يشرع فى إصلاح النظم العسكرية فى مصر ـ أن تكون مدة إقامته فى مصر =

لعمرى أن شهادة أولئك المهندسون[١١] فى حب القوم إنما هى شهادة على السماع لما إشتهر وعرف بين المحبذين لهم فى هذه الديار وغالبهم شيعة مدارسهم ، الطاعنون فى الإنجليز بحق وبغير حق ، حتى غرروا بنا وأضلونا بترهاتهم كل أيام هذا الزمان ، فذهبنا مع الأغراض والحقود ، وماجت بنا سماسرة البغى والباطل ، ونفق بيننا الأمن والبهت . فإذا طال بنا هذا الحال وتعلقت بخلاصنا على أيديهم الآمال خسرنا البقية الباقيه من الرجاء . وإنى أقول لك الحق أنى أرى المستقبل حالك الظلام كثير الخصام . بعيد الغور عظيم الوحشة والنفور ، وأن القوم الإنجليز قد أعدوا العدة لطفرة لا تبقى ولا تذر ، وكأنى أراهم فى حلم رأيته فى إحدى الليالى وقد مدوا أيديهم لمصافحة أعدائهم الفرنسيس بعد هذا الإزدحام الذى جعلناه مناط آمالنا ومرجع أعمالنا ، ووقرنا نفوسنا عليه ، وجعلنا نروح ونغدو به وكأنه الحافظ لسلامة كياننا . مدوا

= ثلاثة أشهر إلا إذا طلب الخديوى مدها إلى المدة التى تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الاوروبية العظمى . لكن تركيا لم تقر هذا الإتفاق . كانت إنجلترا قد رخصت لقائد أسطولها فى الإسكندرية فى ٢٣ يوليو ١٨٨٢ بتدمير أى محاولات عسكرية من جانب السلطات المصرية فيما لو رفضت الأخيرة الإستجابة لمطالبه ـ وفى ٤ يوليو أنهى سفير إنجلتر فى فرنسا إلى رئيس الوزارة الفرنسية ما أبلغته إنجلترا لقائد أسطولها فى الإسكندرية . فى اجتماع مجلس الوزراء الفرنسى تقرر الإمتناع عن مشاركة إنجلترا فى خططها العدوانية تجاه الإسكندرية بحجة مخالفة ذلك لتعهد الدول فى مؤتمر الأستانة وأن الحكومة لا تستطيع القيام بعمل عدائى على مصر دون الرجوع إلى البرلمان ـ لكن السبب الحقيقى لإحجام فرنسا عن مشاركة إنجلترا فى موقفها إزاء الاضطرابات فى مصر عام١٨٨٢ كان يرجع إلى ضعف السياسة الفرنسية وخشيتها الدخول فى حرب تضعف وضعها أمام ألمانيا التى كانت قد هزمتها فى الحرب السبعينية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) . فى ٥ يوليو ١٨٨٢ تلقى الأميرال كونراد أمرا من حكومته بأن يغادر مياه الإسكندرية فى حالة إرسال الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطانى إنذاره النهائى إلى الحكومة المصرية والمؤذن بضرب الإسكندرية . وفى مساء ١٠ يوليو ١٨٨٢ غادر الأسطول الفرنسى مياه الإسكندرية تاركا الأسطول الإنجليزى يعتدى على المدينة ويدك حصونها ويهدم مبانيها فيما أسمى فيما بعد بواقعة (ضرب الإسكندرية ١١ يوليو ١٨٨٢) .

ـ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٩ ، ٣٥٧ ـ ٣٦٤ ، ٣٦٧ ـ ٣٧١ ، ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

(١١) المهندسون = المندسون ـ قراءة ترجيحية ـ ولاحظ لهجة عدم الثقة التى يبديها شاروبيم فى أقوال المناصرين لمصر من الفرنسيين .

الأيادى للمصالحة وترك ذلك الزحام القديم ، عداء الكثير[١٢] تارة الذى ربما أفضى على حياة الدولتين . وكأنى أرى أن قد أنقلب ما كان بهما من مزاحمة وجفاء الى صلح قاعدته الأخذ والعطاء ، على أن تطلق الفرنسيس يد الإنجليز فى ديار الفراعنة وتقسم الأيمان أن لا تعارضها فى شىء أرادته فى جبايتها وسائر نقضها وإبرامها ، كما تطلق الإنجليز يد الفرنسيس فى تونس ومراكش وما معهما وتقسم تلك الإيمان بأن لا تحدث بعد ذلك حدثا ينوشها[١٣] على طول الزمان . فبهت وكأنى فى يقظة لا فى منام . وسمعت قايل يقول لا خير فى أمة ترى المطامع تنوشها من كل جانب ولا تحفل بها ، ولا تتخذ الأهبة لدرئها . فانتبهت من نومى مزعور[١٤] وإذا بعابر فى الطريق يقول (هيهات هيهات والله ما دهانى إلا من كان معتمدى عليه) فعوذت برب الناس من شر الناس وقلت قضى الأمر ولا حول[١٥] ولا . أ .هـ .

وما هى عشية أوضحاها حتى تفشى القول بين أهل الأسكندريه بأن قد وصلت إحدى السفن النقالة الإنجليزية وعليها مليون خرطوشة من خراطيش البنادق الإنجليزية لوزارة الحرب ، فتسلمت لها بأشد الكتمان . وأنه لم[١٦] يتم تسليم هذا القدر من الخرطوش حتى وصل على ظهر باخرة أخرى عشرين صندوقا من البنادق ، ومليونى خرطوشة أخرى ، ومائة وستين جنديا من أصحاب المدافع . وجاء خبر ذلك الى القاهره ، وتفشى بين الناس فتحدثوا به ، وأثبت صحته أصحاب جرائد الفرنسيس ، وأكده تأكيدا صاحب الجرنال

(١٢) عداء الكثير تارة = والعداء　　عدلت العبارة بكلمة العداء لتتفق والسياق .

(١٣) ينوشها = يناوشها .

(١٤) مزعورا = مذعورا .

(١٥) إستخدم ميخائيل شاروبيم (الحلم) كمبرر للحديث عن (الوفاق الودى) الذى أبرم بين إنجلترا وفرنسا فى عام ١٩٠٤ Entente Cordiale ـ واستطرد ليشرح تفاصيل هذا الوفاق بزعم أن صديقه كان يحلم به ـ لكن تفاصيل الوفاق وتطابقه مع حلم صديقه تطابقا تاما يشى بأن (الكافى) الذى بين أيدينا قد كتب بعد عام ١٩٠٤ وليس قبل ذلك .

(١٦) لم = لم يكد　　أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى

أجبسيان ، فترامت الظنون الى المرمى البعيد ، وجعل الناس يتسالون[١٧] بعضهم من بعض عما عساه أن يكون من وراء هذه الأهبة التى لا دافع إليها إلا كتب المتطرفين من جماعة الفرنسيس ، ورسائل دى لونكل ومن جرى مجراه . وظل الناس فى حساب ما كان وما سيكون أياما حتى تبدل حديثهم هذا بحديث مرض الخديوى إسماعيل باشا جد الأمير بدار السلطنة . فقد جاءت الأخبار تترى الى قصر الإمارة وإلى الأمراء أولاده وأحفاده وسراريه باشتداد مرضه وتعاظم علته . وقد حاروا أطباوه[١٨] فى مداواته وتخفيف الألم . واتفق أن ذهب الأمير إلى الملعب الخديوى(الأوبرا) فى ليلة خامس يناير من السنة أى سنة خمس ومثنمائة[١٩] وألف لحضور بعض التشخيصات الكبرى . فلما كان آخر الفصل الثانى من اللعب إذ جاءه الخبر من طبيب جده إسماعيل باشا بأن المرض زاد اشتدادا على جده ، فظهرت عليه علامات الحزن ، وقام من ساعة[٢٠] ، وسار إلى قصر القبة . فتبعه بعد منتصف الليل جماعة الأمراء ، فرسم لهم بذهاب فواد باشا لعيادة المريض بالنيابة عنه ، وذهاب إبراهيم[٢١] باشا معه بالنيابه عن أفراد البيت العلوى . فسافرا فى صبح اليوم وذهب معهما بعض نساء إسماعيل باشا . فلما كان ظهر اليوم التالى جاء الخبر إلى قصر الإمارة باشتداد المرض واقتراب الخطر ، وحضر من دار السلطنة (الكونت

(١٧) يتسالون = يتساءلون .

(١٨) حاروا اطباوه = حار أطباؤه

(١٩) ومثنمائة = وثمانمائة ـ وصحة التاريخ هو خمس وتسعين وثمانمائة وألف .

(٢٠) ساعة = ساعته .

(٢١) إبراهيم باشا = المقصود هو الأمير إبراهيم حلمى أحد أنجال إسماعيل ـ أما فؤاد باشا فهو الأمير أحمد فؤاد بن الخديو إسماعيل ـ سلطان مصر (١٩١٧ ـ ١٩٢٢) ـ وملكها (١٩٢٢ ـ ١٩٣٦) . أنجب إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) من الذرية الذكور ثمانية هم : ـ أحمد فؤاد ـ محمود حمدى ـ على جمال ـ حسين كامل (سلطان مصر ١٩١٤ ـ ١٩١٧) ـ رشيد ـ توفيق (خديو مصر ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) إبراهيم حلمى ـ حسن

(المصور ٢٩ يوليو ١٩٣٧ ـ مرجع سبق ذكره)

مافيه) كاتب سر إسماعيل باشا ، قيل ومعه كتاب من إسماعيل باشا الى الأمير يسترحمه ويسترضيه إلى قبول رجوعه إلى مصر ليموت فى وطنه ومسقط رأسه وسكنه ، ويدفن مع آبائه وأجداده . فلما قرأ الأمير الكتاب حزن كثيراً وحار فى أمره ، وظهرت عليه كما يقولون دلائل الحيرة والخبال ، وقال للكونت مافيه (ليس عندى ما يمنع حضور جدى الى بلده على الرحب والسعة ، ولكن لا خفاك أن الأمر له مساس بالسياسة الدولية ، فلا بد من طرحه على مجلس الوزراء) . ورسم باجتماع الوزراء ، فاجتمعوا وتناجوا فى الأمر طويلا ، وبعد أخذ ورد أجمعوا على رفضه مخافة ما قد يقتضيه من المخابرات المستطيلة التى لا يؤمن عقباها ، وما قد ينجم عنه من الإشكالات السياسية مع الدول صاحبات الرأى فى تبعيده . يقال كان الأمير ميال[٢٢] إلى حضور جده ، مخلصا فى عطفه وحنانه عليه . ولكنه صبر على ذلك الحائل الشديد الذى يحول دون هذه الغاية ، فأبلغ ذلك الى عمه (الأمير حسين) وإلى(الكونت مافيه) وأظهر لهما شديد أسفه وعظيم بره ، فشكراه على ذلك . وأصبحوا وقد جاء الخبر إلى الأمير حسين على جناح البرق بأن الخطر على حياة أبيه مشتد والضعف مطرد ، وأن قد تجمع فى تجويف معدته ثلاثة لترات من الماء أو يزيد ، الأطباء يبذلون الجهد لمنع زيادة إشتداد الخطر . وجاء فى غروب إلى ديوان الإمارة أنه أمضى الليل متألما جدا ، وأن الإنحطاط يزداد ، ويخشى القضاء قريبا ، وقد استدعوا له طبيبا إختصاصيا بالأمراض الباطنية من أطباء النمسا والأمل بشفائه بعيد جدا .

وافق يوم السبت ثامن يناير سنة خمس وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، وثانى عشر رجب الفرد سنة إثنتى عشرة وثلثمائة والف للهجرة ، وأول طوبة سنة إحدى عشرة وستمائة وألف للشهداء عن[٢٣] جلوس الأمير على عرش الإمارة . فزين الناس الشوارع بالأعلام والرياحين ، وأرخوا الرايات من شرفات المنازل ،

(٢٢) ميال = ميالا .

(٢٣) عن = عيد .

واستقبل أصحاب المناصب وأهل الخطط جماهير المهنئين . ووردت على قصر الإمارة رسائل التهانى من كل فج عميق . ووقف الشعراء على باب القصر بقصائد التبريك . وتصدقت فى ذلك اليوم والدة الأمير على الفقراء وذوى البيوتات ، وأحسنت على بعض أولاد الفقراء بالكتاتيب . واستعرض الأمير الجيوش المصرية بميدان الرصخانه(٢٤) بالعباسية فجر اليوم . وعاد إلى القصر فدخل عليه الأمراء والكبراء والوزراء وأهل المناصب والعلماء والرؤساء الروحانيين ، فهنأوه فرأيناه على شىء من الحزن والتوجع لمرض جده وأخباره المقلقة . ومع ذلك فقد كان يتلطف بالمهنئين كثيرا .

ولم تتم الأفراح بهذا العيد حتى قدم من رومة إلى القاهرة قائد كبير من قواد العساكر الإيطالية تسمه(٢٥) (كانى) ، وشاع خبر حضوره . فاجتمع بلورد كرومر ، وسردار العساكر المصرية مرارا ، وذهب إليه اللورد بدار القنصلية الأيطالية مرتين فى يوم واحد . وأصبح وقد ذهب وإياه الى وزارة الحرب ، ولبثا بها حينا . فتحدث الناس فى ذلك وذهبوا فى حضوره واجتماعه بلورد كرومر والسردار مذاهب شتى . وقد تحقق الخبر وجاءت مفصلاته إلى ديوان الأمير رغم كل كتمان من جماعة الإنجليز ، بأن لما رأى التعايشى أن قد نامت العساكر الأيطالية بكسلا وأمنت مهاجمة أصحابه ، ورأى من أصحابه تصغيرا لقدره وتحقيرا لحرمته ، خشى العاقبة وجعل يتأهب لماجمة كسلا كما تقدم القول . فلما جهز العدة(٢٦) والعدة ، وجات(٢٧) إليه عيونه وأرصاده بخبر خروج الجنرال باراتيرى(٢٨) قائد العساكر الأيطالية بعساكره الى(عدوة) بأكثر مقاتليه ،

---

(٢٤) الرصخانه = الرصدخانه .

(٢٥) تسمه = إسمه .

(٢٦) العدة = العدد .

(٢٧) وجات = وجاءت .

(٢٨) الجنرال باراتيرى = أورست باراتيرى Baratieri (oreste) ـ جنرال إيطالى (١٨٤١ ـ ١٩٠١) ولد فى كوندينو Condino بالترنتينو (Trentin) وتوفى فى ستيرزينج (Sterzing) بالتيرول (Tyrol) . حاكم أريتريا ـ هزم فى موقعة عدوة Adowa عام ١٨٩٦ أمام منليك الثانى menlik أمبرطور أثيوبيا . ترك مذكرات تتعلق بدوره فى أريتريا .

- Larousse Universel - Vol I. - p.. 199.

ورسم[٢٩] الى كبار المهدويين بسرعة الهجوم على مؤخرة عساكر باراتييرى وسحقهم سحقا ، ففعلوا وأعملوا فيهم السيف حتى أتوا على آخرهم وكاد يهلك معهم باراتييرى . ثم أحاط عشرين ألفا من الدراويش بكسلا إحاطة السوار بالمعصم ، وجعلوا يناوشون من بقى بها من العساكر القتال . ويقال أن البلد على سفى[٣٠] جرف التسليم . وجعلت دولة الفرنسيس تشكو من هذا الحين من إدخال الأسلحة ومعدات الحرب عن طريق سواكن ويقول[٣١] أنه من الأمور الخطيرة التى تستلزم السهر والعناية ، وأن السلطان رباح (هو مولى الزبير باشا) لم يتمكن من إنشاء سلطنة تهدد كل سلطنة غيرها عند بحيرة تشاد إلا بإدخال الأسلحة من ذينك الطريقين . ثم ألفتت نظر أهل المناصب إلى أن ذلك خارق لعهد بروكسل . وقامت ضجة أصحاب الصحف الإيطالية حول هذه الأنباء ، ودعت الإنجليز إلى الإشتراك فى عمل هام فى السودان وإلا ساءت العاقبة واتسع الخرق فلم يبق من الإمكان شدة . وعندى أن هذه الدولة الايطالية تعرف كما تعرف سائر الدول أن زحف الدراويش ودعاة المهدوية على كسلا يجعل ايطاليا فى موقف تحف به المكاده[٣٢] ، ويضطرها الى أحد أمرين . إما البقاء فى كسلا وتحمل غارات أولئك القوم الدراويش ، وإما الزحف مع الإنجليز ومعاونتهم على حرب التعايشى ، وتحمل عاقبة ذلك ونتائجه ، وكلا الأمرين شر مستطير . وظهرت الحركة على التخوم ، وظن الناس أن الحامل اليها هو نكوس[٣٣] الدراويش عن مهاجمة كسلا ورجوعهم الى المراصد بالتخوم . ولقد أخطأت إيطاليا إذ يصعب جدا تحقيق أمنيتها فى استمالة الإنجليز إلى معاونتها ما لم ير الإنجليز أن معظم الربح راجع إليهم . قالت إحدى جرائد

(٢٩) ورسم = رسم .
(٣٠) سفى = شفا .
(٣١) ويقول = وتقول .
(٣٢) المكادة = المكاره .
(٣٣) نكوس = نكوص

الإيطاليان(وقد كان من الواجب أن تبقى إيطاليا بعد إحتلالها قيرين وأسمرة مستكنة هادئة عشر سنوات على الاقل ، ولكنها لم تعتصم بالصبر والتأنى ، ولا يعمل عملا بعد التروى[٣٤] والتفكير الطويل[٣٥] ، قد أسرعت[٣٦] فى التقدم[٣٧] إلى أكرودات[٣٨] ثم كسلا ، فهل يريدون أن يقتحموا بنا الى ما وراء ذلك؟ ومتى ينتهى هذا الفتح المشكوك فى نجاحه من كل الوجوه؟)أ .هـ .

وجاء ثانى عشر الشهر ، أى شهر يناير رسالتين برقيتين ، أحداهما من طبيب إسماعيل باشا ، والثانية من الأمير إبراهيم والأمير فؤاد باشا الى قصر الإمارة باسترحام الأمير بالموافقة على نقل جده المريض إلى القاهرة ليموت ويدفن بها ، فلم توافق الهيئة الحاكمة على ذلك ولم تقره للأسباب التى أبدتها عند حضور كاتب سره(الكونت مافيه) . فلم يعجب أهل النصفة ذلك ، وقالوا أنه ليس من حسن النظر ولا من حسن السياسة فى شيء ، لاسيما وأن الرجل

---

(٣٤) ولا يعمل عملا بعد التروى = ـ لا يعمل عمل إلا بعد التروى قراءة إجتهادية .

(٣٥) الطويل = الطويل -

(٣٦) قد أسرعت = فأسرعت .

(٣٧) فى التقدم = بالتقدم .

(٣٨) أكرودات = أجوردات - بلدة تقع فى منتصف الطريق بين كسلا ومصوع . كان الإيطاليون قد احتلوا مصوع منذ عام ١٨٨٥ بعد أن أخلتها الحامية المصرية تنفيذا لقرار إخلاء السودان . ثم احتلوا أريتريا ورأس جردفوى . وبدأ الإيطاليون بعد ذلك فى إظهار نشاط متزايد فى السودان الشرقى منذ ١٨٨٩ ـ وكان ذلك إظهارا لنياتهم فى الإستيلاء على (كسلا) . بذلك أصبح الإيطاليون يواجهون القوات المهدية فى المنطقة ـ وخلال شهر يونيو ١٨٩٠ تمكن الإيطاليون من تدعيم سيادتهم على أريتريا بعد أن ألحقوا بالمهديين هزيمة كبيرة فى هذه البلدة (أجوردات) . أدى النشاط الإيطالى فى السودان الشرقى والخوف على المصالح البريطانية فى وادى النيل ـ أدى بالحكومة البريطانية إلي التفكير فى تسوية الحدود بين أريتريا والسودان الشرقى سلميا مع إيطاليا ـ وبعد نجاح الجيش المصرى فى إحتلال طوكر فى ١٩ فبراير ١٨٩١ بقيادة (هولد سميث) دخلت بريطانيا مع إيطاليا فى مفاوضات أسفرت عن توقيع إتفاقى مارس وأبريل ١٨٩١ والذى حصلت فيه الأخيرة على الحق فى إحتلال كسلا والبلاد المجاورة حتى نهر العطبرة ـ ثم أتبعت ذلك بهجوم مفاجئ على الدراويش فى كسلا فى ١٧ يوليو١٨٩٤ إنتهى بسقوطها فى يديها وفرار قوات المهديين .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩ ـ ١٨٩٩) مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٩ - ١٠٤ .

على شفا جرف البوار ، أو هو نفس يصعد متألما فلا يرجع . وتكلم بعض أصحاب الصحف الأجنبية فى ذلك ، وأعابوا على جاعة الوزراء إنصياعهم إلى رغبة لورد كرومر التى أبداها فى أمر مجىء ذلك المريض العظيم . وقالوا إن عهدنا بعميد الإحتلال الشدة بالأصحاء لا الغطرسة على المرضاء ، ثم وأى خطر على الإحتلال وأصحاب الإحتلال من مريض يتقلب على فراش الموت ولم يبق من حياته إلا ساعات معدودات . وسير الأمير حسين باشا خبر ذلك إلى أخويه بدار السلطنة .

قلنا فيما تقدم أن الجنة التى تشكلت لتحقيق التهم الموجهة إلى السيد توفيق البكرى قد شددت عليه فى طلب الدفاتر والأوراق الخاصة بحساب المرصود على نقابة الأشراف البكرية ، وأنهم جعلوا يحثون[٣٩] وينقبون أياما ، ثم أرسلوا اليه كتابا مطولا عينوا له فيه التهم التى ثبتت عليه ، وأشاروا عليه بالتخلى عن منصب نقابة الأشراف ، فلم ير بدا من التخلى عنه ، وعن منصبه[٤٠] مشيخة الطرق أيضاً . ورفع أمر ذلك إلى وزارة الداخلية وديوان الإمارة . فبعد أخذ ورد ، رسم الأمير بقبول تخلى السيد توفيق عن منصب نقابة الأشراف وتوجيهه إلى السيد عمر مكرم ، مع بقاء السيد توفيق البكرى فى منصب مشيخة الطرق . وبطل التحقيق معه ، وانكفوا عن إستدعائه إلى ديوان التحقيق فى كل يوم . وانزوى الرجل فى داره أياما ، وانكف عن الإجتماع بالناس خوفا من العيون ونقلة الأخبار . واجتمع نحو الخمسة وعشرين من العلماء فى دار السيد عمر مكرم ، وبحثوا فى أمور كثيرة فما[٤١] هو مألوف ومعمول به عند مشائخ الطرق ، فقرروا منع زفة الفار ومنع البازات والطبول ، وذبح الثيران بالأضرحة والمساجد ، ومنع الأذكار المخالفة للشرع ، ومعاقبة من

---

(٣٩) يحثون = يبحثون .
(٤٠) منصبه = منصب .
(٤١) فما = كما .

يدعى الجذب والولاية ، ويظهر بمظاهر غير لائقة بالآداب . ومنع المسلمات من الرقص بالمجالس العامة والخاصة ، ومعاقبة أرباب الطرق الذين يأكلون النار ، ويضربون أجسادهم بالحديد والسيوف ، ومنع المجاهرة بالإفطار فى شهر رمضان ، وتلاوة القرآن على قارعة الطريق . وسألوا وزارة الداخلية أن تعجل بتنفيذ قرارهم والعمل به . فلما شاع خبره وتناقله الناس سخر العامة به ، ونبذوا ما فيه ، وأقبلوا على ما هم عليه من كل هذه الشوائن المخجلة . وكثر ترددهم على مكامن اللهو والقصف والفجور . فإذا زجر أحدهم زاجر قال له لعلك من أذناب الخمسة والعشرين شيخا الذين إجتمعوا لإصلاح ما فى السماء وما فى الأرض ــ وسفهوا أعمال الأولين والآخرين . فلم[٤٢] يسعه إلا الرجوع عنه والتبرأ[٤٣] منه ، فرارا من الإيذاء . واهتمت وزارة الداخلية بالأمر ، وسنت به قانونا . ولكن هيهات أن نرى من أولئك القوم تبديلا فى الذى التصقوا به من هذه المعايب . وأعقب ذلك تخلى الشيخ الشربينى عن منصب العضوية فى لجنة إدارة الجامع الأزهر ، واستبداله بالشيخ حسن المرصفى . فظن العامة أن تخليه من العضوية مترتب على مخالفته لبقية المشايخ فيما قرروا إبطاله من تلك المغائر[٤٣ مكرر] للشرع والأدب ، فكانوا إذا ذكروا بعض الأولياء والصالحين كالشيخ البيدق وسيدى العتريس والشيخ ظلام وغيرهم ذكروا الشيخ الشربينى ، وقالوا أللهم انفعنا ببركاته ، فإنه قطب الوقت المتولى ، وقالوا غير ذلك من آيات الجهل المطبق .

وكان لما شكا أصحاب المزارع من عدم موافقة مواعيد فتح الترع المعدة لإمداد الحياض بمياه النيل لمواعيد الزراعة الشتوية ، فضلا عن إضرارها بالزراعات الصيفية ، قد طال الأخذ والرد بين هذه الوزارة واصحاب الرى من

---

(٤٢) فلم = فلا   قراءة ترجيحية .
(٤٣) التبرأ = التبرؤ
(٤٣ مكرر) المغاير = الأعمال المغايرة   ــ عدلت العبارة ليستقيم المعنى .

جماعة الإنجليز . وما زالوا على ذلك حتى تقررت القاعدة على أن يكون فتح تلك الترع لإمداد الحياض بالمياه الحمرة فى مديريات الجيزة وبنى سويف والمنيا وأسيوط وجرجا وقنا والحدود فى كل خمسة وعشرين شهر أغسطس من السنة ، إى سنة خمس وتسعين وثمنمائة وألف ، ويوم عشرة منه فى سنة ست وتسعين ، ويوم خمسة منه فى سنة سبع وتسعين ، والسنوات التالية لها . . وأن يعتبر ميعاد خمسة أغسطس من كل سنة ثابتا غير متغير ، بحيث يجب على أصحاب الزروعات الصيفية التى هى فى داخل الحياض أن يراعوا هذه المواعيد ، ليتم زرعها ونضبها وإخلاء الحياض منها تماما قبل تلك المواعيد . قالوا وإلا كانوا أصحاب الرى غير مسئولين عن أى تلف يقع بسبب إطلاق المياه فى الحيضان . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ، فسر به الناس سرورا عظيما ، ونالت زراعة أصحاب الزراعات بالأقاليم القبلى حظها من الرى ، وتنييل الحياض ، مثل حظ الإقليم البحرى . وظل العمل بهذا الترتيب إلى يومنا الذى نحن فيه .

ولما كان يوم الخميس حادى وثلاثين يناير من السنة ، أى سنة خمس وتسعين وثمنمائة وألف ، وخامس شعبان سنة إثنى عشر وثلثمائة وألف للهجرة ، وأربع عشرى طوبة سنة إحدى عشرة وستمائة وألف للشهداء ، عند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذانا بخروج موكب زفاف الأميرة خديجه[٤٤] هانم شقيقة الأمير عباس حلمى باشا على الأمير عباس باشا[٤٥] إبن الأمير حليم باشا ، إبن الشيخ محمد على باشا الكبير

(٤٤) الأميره خديجة هانم = إبنة الخديو توفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) وشقيقة الخديوى عباس حلمى (١٨٩٢ ـ ١٩١٤) ـ ولدت عام ١٨٧٧ ـ أمها هى الأميرة أمينة هانم إلهامى التى اشتهرت بلقب (أم المحسنين) ـ كريمة الأمير إلهامى بن الوالى عباس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) والمتزوجة من الخديو توفيق عام ١٨٧٣ . إخوتها هم عباس (١٨٧٤) ـ محمد على (١٨٧٦) ـ الأميرة نعمت هانم (١٨٨١) .
ـ المصور ٢٩ يوليو ١٩٣٧ ـ مرجع سبق ذكره .

(٤٥) الامير عباس باشا = راجع حاشية ٣٠٦ ص ٢٤٥ .

صاحب البيت العلوى . فخرج الموكب من قصر عابدين تتقدمه كوكبة من رجال الشرطة المشاة ، ثم فريق من جنود الجيش الرجالة بموسيقاهم ، ثم طائفة من أصحاب المدافع ، ثم جماعة كثيرة من الفرسان ، وأخرى من الحرس الأميرى وخلفهم عربة كبيرة مذهبة مغطاة بأفخر وأثمن الأنسجة الحريرية ، تجرها ستة من جياد الخيل ، وفيها العروس شقيقة الأمير . وكان يتقدم هذه العربة كبير الركبدارية ، كاسيا بالجوخ الأمر المؤسى(٤٦) بالذهب والفضة من رأسه الى قدميه وهو راكب حصانا جميلا . وكان سايق العربة والخدم الراكبون خلفها على هذا الزى الجميل . وتلى هذه العربة عربة أخرى وفيها بعض الأميرات ، وخلفها عربات أخرى كثيرة فيها كبار الأميرات ووصيفات العروس . وأستمر الموكب على أتم نظام بالجماهير . وكانت الطرق غاصة بالمتفرجين والمتفرجات ، وانطلقت ألسنة العامة بالدعاء للعروس ، وألسنة النساء بالزغاريت حتى بلغ الموكب قصر القبة حيث سبقه الأمير ليشرف على نظامه . وفى المساء أقبل المدعويين إلى قصر القبة الذى كان فيه من مظاهر الزينة والبهجة ما يجل عن الوصف . فمدت الموائد لسائر من حضر من الأمراء والكبراء وأهل المناصب ، وأصحاب الخطط ، وكبار الأجانب ومن معهم من العقيلات ، ثم أطلقت الحراقات والألعاب النارية ، وغنى جماعة المغنيين ، وطال جلوس المدعويين إلى ما بعد منتصف الثالثة بعد نصف الليل ثم انصرفوا . وفى الليلة الثانيه أدبت والدة الأمير فى قصر القبة مأدبة شايقة حضرها ساير الأمراء من البيت العلوى ، والغازى مختار باشا ، والوزراء . وكان يرأس المأدبة الإمير محمد على باشا ، وإلى جانبه الأمير عباس باشا حليم . وفى هذه الأثناء كانت الحفلة داخل القصر فى بيت النساء شائقة أيضا كما يقولون . ومثلوا فيها رواية عربية وأنشد المنشدون ، ورقصت راقصات الملعب الخديوى فى داخل القصر .

---

(٤٦) الأمر المؤسى = الأحمر الموشى قراءة ترجيحية .

وما تمت أفراح الأميرة بدخولها حتى جاء الخبر باشتداد المرض على جدها إسماعيل باشا، وبلوغه أقصى درجات الخطر. وجاء فى ثانى شهر فبراير من السنة الكونت(مافى) كاتب سره يحمل رسم الإمير المريض فى حالة إشتداد مرضه. وسار مع الأميرين حسين[٤٧] وفؤاد إلى قصر القبة واسترحموا من الأمير الترخيص باستحضار إسماعيل باشا إلى مصر والإشفاق عليه. فأرسل الأمير فى طلب وزرائه وتناجوا فى الأمر، فلم يعدلوا عن رأيهم من عدم جواز الترخيص له بالحضور إجابة لرغائب صاحب السياسة الإنجليزية. فأكبر الناس هذا الأمر وأعظموه جدا. فسافر إلى الآستانه المشير(راتب باشا) (والكونت مافى) على ظهر باخرة مخصوصة ليروه قبل أن تأتيه منيته. وجاء الطلب الى أحمد بك أسعد وكيل أوقاف كوله والقصر العالى[٤٨] من جانب إسماعيل باشا، فسافر الى دار السلطنة ومعه حجج الوقفين المذكورين لأمر أراده إسماعيل باشا ليقضيه قبل موته.

---

(٤٧) حسين = ألمقصود هو الأمير حسين كامل إبن الخديو إسماعيل وعم الخديو عباس وشقيق الأمير فؤاد (سلطان مصر وملكها فيما بعد) وسلطان مصر (١٩١٤ ـ ١٩١٧).

(٤٨) كولة = قوله Cavalla أو Kavala ـ مدينة فى مقدونيا باليونان ـ مسقط رأس محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) مؤسس الأسرة العلوية ـ كان لمحمد على فيها أملاك غير قليلة أوقفها بعد ذلك على أسرته وعلى أعمال الخير ـ فى الفترة الحديثة دارت مفاوضات بين الحكومة اليونانية بشأن تصفية هذه الأوقاف، ولم ينته الأمر بعد بسبب عدم تسوية المشاكل المالية المعلقة بين البلدين بشأنها. أما القصر العالى فقد بناه إبراهيم باشا ثم آل إلى إبنه الخديوى إسماعيل الذى وهبه لوالدته مع الأراضى المحيطة به بما فيها من المبانى ومصنع السكر عام ١٨٦٣. وكانت حدوده الغربية إلى شاطئ النيل ـ والشرقى الشارع الموصل بين بولاق ومصر القديمة (شارع القصر العينى حاليا) ـ والحد الشمالى إلى قصر أحمد باشا إبن إبراهيم باشا. أما الحد الجنوبى فكان الطريق الفاصل بينه وبين شارع القصر العينى ـ فى عام ٨٦٤ أضاف إسماعيل إلى القصر مخازن كانت ملحقة بقصر أخيه أحمد باشا ـ تم تجديد القصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر على يد إسماعيل، فأحدث تغييرات كثيرة به. فى عام ١٩٠٠ هدم القصر وقسمت أراضيه وأصبح مكانه منطقة جاردن سيتى الحالية، ويوجد بمنطقة جاردن سيتى الآن شارع مصنع السكر وشارع أحمد باشا

ـــ محمد حسام الدين إسماعيل (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩) رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة أسيوط ـ ١٩٩٤ ـ ص ٢٨٠.

ـــ المصور ١٩٥٧/٩/١٨.

كان الأمير قد تسرى(بإقبال هانم) إحدى محظياته ، فلما كان مساء يوم الأربعاء ثالث عشر فبراير من السنة ، وثامن عشر شعبان سنة إثنى عشر وثلمثائة[٤٩] وألف ، أنجبت له بنتا ، وكانت يومئذ بقصر المنتزة[٥٠] بالإسكندرية ، وجاءت بشرى الوضع الى الأمير بقصر القبة . فقام من يومه ومعه والدته إلى الإسكندرية ، وقام كذلك شقيقه الأمير محمد على وكثير من البيت العلوى ليهنأوا الأميرة بمولودتها . ولبث الأمير عباس باشا بالمنتزه أياما فرق فيها الصدقات وكسى[٥١] وأطعم ، وفعلت كذلك والدته .وفرح بالمولودة الجديدة أمينة هانم كاسم والدته . وعاد إلى القاهرة وقد أزدحم القصر بوفود المهنئين . وجاءت إلى ديوانه رسائل التهانى من مشرق البلاد ومغربها . وما هى إلا أيام حتى عاد إلى قصر المنتزه بالإسكندرية . واستدعى فى سابع عشر الشهر كل من عبد الحليم باشا عاصم وحسين باشا فهمى ليشهدا على قبول إقبال هانم كتب كتاب الأمير عليها . فقاما الى الإسكندرية وتقرر الإحتفال بعقد القرآن يوم الثلاثاء عشرى الشهر . فتم بحضور سائر الأمراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا والوزراء وقاضى القضاة بقصر القبة . وأجد[٥٢] وقد سافر الأمير إلى الإسكندرية فلبث بالمنتزه إلى غروب الأربعاء ، ثم عاد إلى القاهرة فأولمت والدته فى تلك الليلة وليمة عظيمة دعت إليها سائر الأمراء والوزراء والعلماء وأهل المناصب والخطط فرحا بهذا القران الذى طالما تشوقت اليه كما يقولون . وهنأه صاحب الأهرام بالأبيات الآتية .

---

(٤٩) ثلمثائة = ثلثمائة .

(٥٠) المنتزه = المنتزه ـ قصر بناه عباس حلمى الثانى عام ١٨٩٢ ـ تكون من طابقين ـ فى عام ١٩٢٥ جدده الملك فؤاد وأدخل عليه تحسينات ـ كان يستخدم كمقر عائلى صيفى للخديو .
ـــ المصور ٢٩ يونيو ١٩٣٧

(٥١) وكسى = وكسا .

(٥٢) وأجد = وأصبح

اهنأ خديوينا المعظم فى الورى بقراتك المحفوف بالاجلال
وانعم بتلك المصطفات لشخصك ال سامى التى حلت ببرج كمال
فكأن دولة حلمك الغراء لا تكفى فهذه دولة الأقبال

وأرسل الوزراء الى الحرم عريضة يهنأون بقران الأمير ويسألون الله لها السلامة والعمر الطويل .

كان أهم الأشياء عند الوزير نوبار باشا بعد إبطال سلطة الشحنة من وزارة الداخلية وإعطاء منصب إستشارة الداخلية إلى المستر غورست عمل لائحة نظامية تبين أختصاص عمد البلاد ، وتحدد لهم سلطة شرعيه فى دائرة عمدتهم(٥٣) . فاهتم بعمل اللائحة ورسم إلى رجال وزارة الداخليه بالنحو الذى ينحونه فى عملها . فاشترك معهم فى ذلك المستر غورست المستشار . وجعل يسيرهم حسب هواه حتى أتموا عملهم ورفعوه الى مجلس الوزراء . فلم يعجبهم ، وعابوا ما فيه من الخلط ورسموا بضبطه وتنقيحه على ما أرادوا . وظلوا على هذا أياما من الدهر حتى أتموا اللائحة على النحو المطلوب . ولما كانت هذه السلطة الشرعية التى أعطوها لجماعة العمد شيئا لم يسبق له مثيل فى سالف الأيام ، بل هو خطوة كبرى فى وصول العمد فى مصاف أهل المناصب وأصحاب الوظائف فى هيئة الحاكمين فى هذا الزمان ، وقد كان العمدة لهذا العهد فى بلده كشيخ الحارة فى مصر القديمة والقاهرة ، لا نفوذ له ولا كلمة على أهل بلده بعد إنشاء المحاكم الاهلية إلا إذا إستخدمه الحكام فى أغراض خصوصية تتعلق بالأمن ، فقد كانت هذه السلطة من الأهمية بمكان لا يضارعها عند القوم شيء قط من ألقاب الشرف أو نياشين الإفتخار ، ولذا رأينا أن نأتى هنا بذكر موادها تتميما للفائدة وهى تنحصر فى خمسة عشر وجها ومحصله الآتى بعد :

(٥٣) عمدتهم = عمديتهم .

أولاً : يعين العمدة ممن سنه خمس وعشرين سنة ، ويملك عشرة أفدنة ، ولم يحكم عليه قضائيا بجناية أو جنحة . ولا يشترط إمتلاك العمدة فى الجفالك والبلاد التى أطيانها ملك غيرها ، والبلاد التى لا يملك أحد فيها عشرة أفدنة ينتخب عمدتها ممن يدفع أموالا أميرية أكثر من غيره . وكذلك ينتخب الشيخ . وإن توفرت الشروط فى كثيرين فضل الغير الامى[٥٤] .

ثانيا : تشكل لجنة الإنتخاب بموجب كشف يقدمه مأمور المركز حاو أسماء الأشخاص المتوفرة فيهم الشروط ، وتجتمع كل شهرين أو فى مواعيد إستثنائية للأمور المعجلة . وهى تتألف من المدير ، ومندوبين أحدهما للحقانية ، والثانى للداخليه ، وأربعة عمد أو أعيان . ويحضرها نائب عن المركز حين تعيين عمدة أو شيخ ، ووكيل نيابة حين فرض العقوبات . وتكون القرارات بالأغلبية المطلقة أو[٥٥] يرجح جانب الرئيس ، واللجنة تطلب رأى المأمور فى تعيين العمدة ، ورأى العمدة فى تعيين الشيخ . والبلدة التى تكون تابعة لمصلحة أميرية يسأل مفتشها أيضا . ولا يكون التعيين نهائيا إلا بتصديق نظارة الداخلية . ولها الحق فى إعادة الأنتخاب .

ثالثا : العمدة هو الرئيس الوحيد فى بلدته المسئول عن عمله فيها . ويجوز تعيين عمدتين بأمر الداخلية وقرار اللجنة ، وهذه لها الحق أن تطلب ضم بضعة كفور وعزب تحت مراقبة عمدة واحد ، ويراعى عدد السكان بتعيين المشائخ ، وتوزع حصصهم باتحاد المأمور والعمدة ورغبة الأهالى .

---

(٥٤) الغير الامى = غير الأمى .

(٥٥) أو = و .

رابعا : يكلف العمدة بكل أمور الأمن وإجراءات القوانين واللوائح فى بلدته وتنفيذ أوامر النظارات التى تبلغها له المديرية بواسطة المأمور .

خامسا : يجوز رفت العمدة والشيخ بقرار الداخلية وإن قصرا فى عملهما فللمدير الإنذار والتوبيخ والغرامة لغاية مائة قرش والوقف مدة التحقيق ، وإن كبر الذنب فللجنة أن تحكم بخمسمائة قرش والحبس لثلاثة أشهر والعزل . وللداخلية التصديق على الجزاء أو تخفيفه . وتلغى سائر اللجان الإدارية المختصة بالترع والجسور وزراعة الدخان وغيرها ، وتستبدل بلجنة هذه اللائحة .

سادسا : يعفى العمدة وأولاده من العسكرية ، ومصاريف الإنتقال كلما طلب لمركز المديرية .

سابعا : يبقى العمد والمشايخ الحاضرون الى أن ينتخب غيرهم .

تاسعا : لناظر الحقانية بناء على طلب الداخلية أن يخول لبعض العمد الحق بمعاقبة من يحدثون مشاجرات وإيذاء بدون ضرب وجرح بغرامة خمسة عشر قرشا أو الحبس أربع وعشرين ساعة . وكذلك معاقبة القادرين الذين يرفضون الأعمال التى يسيغها القانون ويكلفون بأدائها ، وإن مضت ثمانية أيام بعد إرتكاب المخالفة فلا يعود له حق بتوقيع الجزاء .

عاشر وحادى عشر : كل قرار يصدر من العمدة إذا حصل التصديق عليه من مأمور المركز وجب تنفيذه على الفور .

ثانى عشر : يجب على العمدة منع كل مشاجرة تنشأ عن الخلاف فى حدود الأطيان ، ويتوسط للتسوية وديا باتحاده مع دلال المساحة وأحد المشايخ . وإن رفض تداخله أبقى الحالة كما هى ورفع الخصم القضية ، ويسوغ له الفصل مؤقتا فى منازعات إستعمال مساقى ومصارف الأفراد بدائرة بلدته .

ثالث ورابع وخامس عشر : يقيد العمدة كل واقعة مع قراره فيها في دفتر تراقبه الحقانية ولا تخول الحقانية هذه السلطه للعمدة إلا بعد تعيينه بثلاثة أشهر ويجوز لها نزعها منه[٥٦] أ .هـ .

وكان مدير المتحف المصرى مازال على قدم البحث والحفرفى أطلال مدينة منفيس التى هى قرية صقارة الآن . وقد عثر فيها على ما عثر من الآثار النفيسة والأحجار الكريمة والذهب وغير ذلك مما تقدم بك بيانه . فلما كان عشرى الشهر أى شهر فبراير من السنة ، جاءت منه بالشرى[٥٧] بعثوره على كنز آخر ثمين بتلك الأطلال . قال أنه عثر على ناووسين أحدهما للملكة أخنوميت والأميره فايتا ، وخرطوش محفور على مائدة المتقدمه[٥٨] للألهة ، كتب عليه أسم أمينمهات من العائلة الثانية أو الثالثة عشرة .ووجدت بقبريهما عدا الأثاث المنزلى الذى كان مستعملا فى تلك الأزمان حلى إميرتين من تيجان وأكاليل وقلايد وأساور ، وكلها من الذهب الخالص وفى منتهى الأهمية . وقد سير بها جميعها الى القاهره ،فوضعت فى قاعات المتحف وعرضت على المتفرجين .

واتفق أن وقع شجار بين ثلاثة من البحارة الإنجليز وآخرين من زعانف الإسكندرانيين ، ثم تضاربوا بالعصى والأيدى والأرجل . فاشتد العراك فجرحوا

---

(٥٦) أصبحت هذه اللائحة هى «الأمر العالى الرقيم ١٦ مارس ١٨٩٥ نمرة ٣٢» . وقد أدخلت على هذا الأمر العديد من التعديلات فيما بعد ـ فصدرت اللائحة الصادرة فى أول يوليو ١٨٩٥ ببيان اختصاصات عمد ومشايخ البلاد القضائية فأضافت إلى سلطات العمدة فى توقيع الغرامة والحبس فى المشاجرات التى لم ينتج عنها ضرب أو جرح ـ سلطته فى الحكم بهذه العقوبات على الخفراء والأشخاص المعينين لخفر الجسور والترع ـ واعتبرت هذه اللائحة العمدة من مأمورى الضبطية القضائية فأوجبت عليه الإبلاغ بالجنايات والجنح والمخالفات متى علم بهاـ وقبول التبليغات التى ترد إليه فى دائرة وظيفته بشأن الجنايات والجنح والمخالفات ـ وإجراء التحريات فى الوقائع التى تبلغ إليه أو يعلم بها ـ كما أجيز له أن يشرع فى إجراء التحقيقات الإبتدائية فى حالة مشاهدة الجانى متلبسا بالجناية .

ـ القوانين الإدارية والجنائية ـ مجموعة القوانين واللوائح الجارى العمل بها فيما يتعلق بنظارة الداخلية ـ المطبعة الأميرية ببولاق - ١٨٩٧

(٥٧) بالشرى = البشرى

(٥٨) المتقدمة = التقدمة .

جميعا جراحا خفيفة . وقبض أصحاب الشرطة على الإسكندرانيين وألقوهم فى السجن أياما ، ثم حكم عليهم بالحبس ستة أشهر ، وأيدته محكمة الإستئناف العليا ، فلم يعجب ذلك لورد كرومر ، وطلب من الوزير نوبار باشا تشكيل محكمة ثابتة مخصوصة للحكم على الوطنيين الذين يتعدون على أحد من عساكر الإحتلال ، ويكون حكمها فى ذلك حكما باتا لا يقبل النقض ولا الإبرام ، وأن يكون رئيسها وثلثى قضاتها من الإنجليز . فلم يوافق الوزير على ذلك . وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياما كثيرة ، قامت فيها ضجة أصحاب الصحف الإنجليزية ، وكثر تحريضهم للدول الأوروبية على معادات[٥٩] المصريين واتهامهم بالتعصب الدينى الممقوت .وقالوا أنهم جميعا أعداء للنصارى مبغضين للنصرانية ، وأنه لا يحسن لعميد الإحتلال أن يفسح لهم فى أجل هذا التعدى الذى لا يعلم ما سيكون ورائه إلا علام الغيوب . وجاءت كتب صاحب سياستهم فى ذلك الى الأمير ووزيره . وتناجا[٦٠] الوزراء فى الأمر أياما . قيل فكانوا يرون العار ثم العار فى تشكيل تلك المحكمة على النمط المطلوب . فجعلوا يطاولون ويحاولون ، والوزير يدفع اللورد كرومر بالتى هى ، لعله يعدل عن رأيه ، وهو لا يزداد إلا معاندة ومكابرة . فلما لم ير من الوزير ضعفا ولا استسلاما ، وقد أحس بإفلات الغرض من يده ، عاد فخفف من غلوائه ، ومال إلى جعل رئيس تلك المحكمة من الوزراء المصريين . أى أن يكون رئيسها وزير الحقانية وكذلك أزعن[٦١] إلى أن يكون أعضائها مستشار الحقانيه ، ونائب الأحكام العسكرية الإنجليزية ، وقاض من قضاتهم الذين فى محكمة الأستئناف الأهلية ، ورئيس إحدى محكمتى مصر والإسكندرية فى حالة ما يقع التعدى فى إحدى هاتين المدينتين أو ما هو أقرب إلى كل منهما . وأن هذه

---

(٥٩) معادات = معاداة .

(٦٠) تناجا = تناجى .

(٦١) أزعن = أذعن .

المحكمة لا تنظر إلا فى القضايا التى يدعوها للإجتماع لها قائد جيش الإحتلال لا سواه . ووافق الأمير على ذلك . قلت فكان إلحاح لورد كرومر وإلحاحه فى طلب تشكيل تلك المحكمة الخارقة لكل نظام تشريعى ، فى بلاد قد بلغ بها النظام القضائى حده من الكمال ، وغاية من الحق والعدالة ، دليل على إبتعاد قلوب المصريين عن المحتلين ، وشعور جماعة الإنجليز بذلك ، وخوفهم من تأصل هذه الملكة فيهم ، فيتسع الخرق ويتعذر الرتق . ولذا كانت عساكرهم تظهر من آيات العداء والبغض للعامة وأبناء السبيل ما يشف عما كمن فى النفوس(٦٢) . أبلغنى صديق قادم من الإسكندرية قال (شاهدت مساء

---

(٦٢) نص الأمر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير ١٨٩٥ فى مادته الأولى على تشكيل (محكمة مخصوصة لتحكم فى الأحوال الخصوصية المبينة فى المادة السادسة الآتية فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الإحتلال أو على بحرية المراكب الراسية فى إحدى الموانى المصرية وتعقد هذه المحكمة جلساتها فى الجهة التى وقعت فيها الجناية أو الجنحة) . وقضت المادة الثانية بأن يرأس هذه المحكمة ناظر الحقانية (العدل) وأن يشارك فى عضويتها المستشار القضائى (الإنجليزى) ، وقاض إنجليزى من محكمة الإستئناف الأهلية يختاره ناظر الحقانية ـ ومن يكون قائما بأعمال المحاماه والقضاء فى جيش الإحتلال بالقاهرة أو الإسكندرية ـ ومن يختاره ناظر الحقانية من رئيسى محكمتى مصر أو الإسكندرية الإبتدائيتين . وأعطت المادة الثالثة الأمر بضبط المتهمين لحكمدار بوليس مصر (القاهرة) أو حكمدار بوليس الإسكندرية (وكلاهما إنجليزى) أو مندوبهما ـ كما أناط بهما التحقيق . أما المادة الرابعة فقد قضت بأن ترفع الدعوى لجلسة علنية بالمحكمة بمجرد إتمام التحقيق وأن تكون المرافعة شفاهة وأن يختار البوليس محاميا لإثبات التهمة ـ كما سوغت المادة للمتهمين أن يستعينوا بمن يدافع عنهم ـ وأن يبدأ بسماع شهود الإثبات ثم شهود النفى ـ كما كان على المحكمة أن تراعى الأحوال المقررة قانونا فى قانون تحقيق الجنايات (قانون الإجراءات الجنائية) المتبع فى المحاكم الأهلية شريطة أن لا تعوق هذه الأحوال سرعة السير فى الدعوى التى تصدر الأحكام فيها فى نفس الجلسة التى رفعت إليها ـ ولا يقبل الطعن فى هذه الأحكام بأى وجه كان وتكون واجبة التنفيذ فى الحال . ونصت المادة الخامسة على أن (لا تكون المحكمة مقيدة بأحكام قانون العقوبات بل تحكم بمجازاة مرتكبى الجنايات والجنح بالعقوبات التى ترى لزوم الحكم فيها بما فيها عقوبة القتل) . وأخيرا أبقت المادة السادسة من الأمر العالى الحكم فى الجنايات والجنح التى تقع من الأهالى على عساكر أو ضباط الجيش الإنجليزى من إختصاص المحكمة الأهلية ـ ولا ترفع إلى المحكمة المخصوصة إلا (فى الأحوال الخصوصية التى يتقدم عنها إلى ناظر الخارجية طلب من قنصل جنرال دولة بريطانية العظمى بناء على طلب الجنرال قائد جيش الإحتلال وبعد الإتفاق معه) .

وقد ذيل هذا الأمر العالى بتوقيعات عباس (الخديو) ونوبار (رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية) و إبراهيم فؤاد (ناظر الحقانية) وبطرس غالى (ناظر الخارجية) .

ـ الوقائع المصرية ٢٥ فبراير ١٨٩٥ .

أمس أزاء بنك الكريدى ثلاثة من عساكر الإنجليز مروا بشيخ فقير جالس على الرصيف بالقرب من بائع ، فرفع أحدهم سوطا رفيعا بيده وضرب به جبهة ذلك الفقير ، فأثر وقعه جرحا كالخط الأحمر . فنظر الشيخ إلى ذلك الجندى نظرة الذليل ، وقال ما ذنبى ياترى معك؟ وماذا صنعت؟ فقطب الجندى جبينه ، وسار مع رفيقيه وكأنهم لم يفعلوا شيئا أذا(٦٣) . فأعول الشيخ وبكى ، ورفع وجهه إلى السماء وقال إنا لله وإنا إليه راجعون وجعل يرددها)أ .هـ ولسائل أن يسأل جماعة الإنجليز أن هل يدخل فى إختصاص تلك المحكمة المخصوصة أن يعاقب الجنود الذين يعتدوا(٦٤) على أهل البلاد كما يعاقب الأهلين الذين يعتدون على المحتلين؟ أم محى كل أثر للمساواة فى هذه البلاد؟ ذلك ما لا نسمع عنه جوابا ، ولا نعلم ما سيكون من وراء هذه المحكمة فى مستقبل الإيام ، والله من وراء ما يعملون .

ووافق غروب يوم الأحد رابع عشرى فبراير من السنة ،تاسع عشرى شعبان ، ظهور هلال شهر رمضان . فثبت الصوم وأطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذانا ببدء شهر الصوم . وأصبحت الأمة الإسلامية يوم الإثنين خامس عشرى فبراير ، وتاسع عشر أمشير سنة إحدى عشرة وستمائة وألف للشهداء صائمة . ورسم الأمير بالعفو عن المحكوم عليهم بمقتضى أحكام نهائية من المحاكم الأهلية ، أو المحاكم المختلطة ، أو من مجالس الجنايات ، أو المجالس الملغاة ، بعقوبة أشد من ذلك من العقوبات المؤقتة ، ويكونون قد قضوا ثلاث أرباع العقوبة . ففرح الناس وانطلقت الألسنة بالدعاء إليه . وتمنى عقلاء القوم أن هذا العفو يشمل أيضا الأستاذ أبى النصر مدرس العربية فى مدرسة الترقيات بعاصمة الفرنسيس ، فينكف جماعة الإنجليز عنه ويبطل

---

(٦٣) إذا = إدّاً - (الإد) أو (الإدة) بالكسر والتشديد فيها الداهية والأمر الفظيع .
ـ مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤ .
(٦٤) يعتدوا = يعتدون .

إلحافهم فى طلب عزله من منصبه .وتحرير خبر ذلك الأستاذ أنه لما تولى المسيو فلكس[٦٥] فور رئاسة الجمهورية الفرنساوية إجتمع سائر الطلبة المصريين بديار الفرنسيس ورفعوا إليه عريضة يستحلفونه بالشرف الفرنساوى وبما لدولة الفرنسيس من الشهامة ومحبة الإنتصار للضعيف أن يمد يده إلى عقدة الإحتلال الإنجليزى بديارهم فيحلها ويسترجع ما كان بين مصر وفرنسا فى الولاء والمحبة منذ أيام محمد على باشا الى تاريخ الإحتلال ، ويقولون أن مصر والمصريين لا ينسون ما لدولة الفرنسيس من الأيادى البيضاء وما بسطته من آيات التمدين على ضفاف النيل . وقالوا غير ذلك كثير من آيات المدح والثناء . وكان ممن ساعدهم على رفع هذه الشكوى والإبقاء برئيس جمهورية الفرنسيس المسيو دى لونكل المتطرف ، وسار بهم وفى مقدمتهم الشيخ أبو النصر إلى قصر الرئاسة . فلاقهم[٦٦] رجال القصر وأدخلوهم على الرئيس وهم فى زيهم المصرى ، والشيخ أبى النصر فى لباسه وعمامته العربية . فبش الرئيس للقائهم وكلمهم كلاما حسنا وطيب خواطرهم ووعدهم وعدا جميلا . فهتفوا له هتافا طويلا وانصرفوا من حضرته وهم على أحسن ما يكون من السكون والألفة . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب صحف الفرنسيس وأعجبوا كثيرا بفعال أولئك الطلبة وعدوها من آيات التمدين الفرنساوى وثمرة تعليهم[٦٧] . فلما علم جماعة الإنجليز بالخبر هاجتهم جراءة ألئك الطلبة وأخافتهم وأسخطتهم ، وقد كان أصحاب صحفهم قبل هذا الحادث بأيام يتفنون[٦٨] بحب المصريين لسياستهم وتعلقهم برجال دولتهم ، حتى لقد تطرفوا

---

(٦٥) فليكس فور = فرانسو ـ فليكس ـ فور Faure (Francois - Felix (١٨٤١ ـ ١٨٩٩) شخصية سياسية فرنسية ـ ولد وتوفى فى باريس ـ عمل وزيرا للبحرية ، ثم رئيسا للجمهورية الفرنسية (١٨٩٥ ـ ١٨٩٩) ـ تم فى عهده توقيع التحالف الفرنسى ـ الروسى (١٨٩٧) فى كرونشتات Cronstadt (١٨٩٧).

- Larousse Universel - vol. I - p., 858.

(٦٦) فلاقهم = فلاقاهم .

(٦٧) تعليهم = تعلمهم .

(٦٨) يتفنون = يتغنون .

إلى القول بأن لا شيء أحب للمصريين فى هذه الأيام من بقاء الأحتلال الى ما شاء الله . فما خرق طبل آذانهم تلك الضجة قام[٦٩] لورد كرومر وقعد ، وكلم الأمير والوزير فى ذلك وطلب معاقبة أولئك الصبية بقطع مرتباتهم وإخراجهم من صفوف الطلبة . فظهر أنهم كلهم ممن ذهبوا للتعلم على نفقة آبائهم وذوى قرباهم . فأكبر ذلك وأعظمه وطلب إقصاء الشيخ أبو النصر عن وظيفته فى مدرسة الترقيات ، فأجابوه إلى طلبه وكتبوا إلى المراجع العليا فى ديار الفرنسيس بذلك . فقامت ضجة أصحاب صحف الفرنسيس ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور . وأبدى المسيو كوكوردان وكيل الفرنسيس السياسى بمصر يقارع الوزير نوبار باشا وقد كاءته[٧٠] كتب صاحب السياسة الفرنساوية بالجهاد فى ذلك . فاشتبك الفريقين وكثر الأخذ والرد بين الطرفين أياما حتى كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة تضطرم ، ودى لونكل عافاه الله يبعثر الكلام هنا وهناك ويهنيء صاحب سياستهم برسائل التهانى من قريب ومن بعيد كأن هذا الحادث الضئيل قد أدرى[٧١] بعظمة الإنجليز فى ديار الفراعنة ، فلم يبق إلا جلاؤهم عنها صاغرين . يقال كان إذا علم لورد كرومر بذهاب المسيو كوكوردان إلى قصر الأمير . ذهب هو إلى بيت الوزير ، وإذا رآه يوما فى بيت الوزير ذهب لساعته إلى قصر الأمير وهكذا بقى الحال على هذا حتى سمعت بعض الأصفاء[٧٢] يقولون أن مستعظم النار من مستصغر الشرر . وعندى أن صيحات أصحاب سياسة الفرنسيس حول الإحتلال ومصر ومن فيها من رجالات الإحتلال وأهل المناصب وأصحاب الخطط لا تتجاوز قط مراسحهم أو أنديتهم أو منابر خطابتهم ، ولدينا على ذلك ألف دليل ودليل . ثم بعد ذلك وقع الإتفاق

---

(٦٩) قام = حتى قام .

(٧٠) كاءته = جاءته .

(٧١) ادرى = أودى .

(٧٢) الاصفاء = الأصفياء .

على بقاء الشيخ فى منصبه وعدم مسه بضرر ، وانجلت هذه الهينة كما قلنا لأنها من الهينات . فلم يرض ذلك أصحاب صحف الإنجليز وعادوا إلى نغمتهم التى إعتادوها وهى بغض العامة الإنجليز(٧٣) وحقدهم عليهم ، لامتلاء صدورهم بالتعصب الدينى ، وتأهبهم للهرج والخروج عليهم فى هذه الأيام ، وجعلوا ينادون بالويل والحرب أياما . لاقانى صاحب يوما ، فسلم ضاحكا وقال(وما(٧٤) علمت ما كان من وراء هذه الجلبة الصحافية التى بلغت عنان السماء؟ قلت لا . قال أخبرنى صديق اليوم بخبر يدلك على مبلغ إرجاف القوم الإنجليز وما فعل ذلك الإرجاف بقومهم هم . قال كان خمسة وعشرين من الإنجليز أهل المناصب بمملكتهم الهندية عائدون إلى بلادهم وهم فى نية المرور بالقاهرة ليروحوا النفس بها أياما . فلما وصلت سفينتهم إلى عدن الإنجليزية وقرأوا فى أخبار شركة روتر السياسة(٧٥) ما نقلته عن صاحب التيمس فى(٧٦) أشاعة الهياج فى الإسكندرية والخوف من حدوث مذبحة قريبة هى أعظم من مذبحة سنة ثمانين وثمنمائة وألف للميلاد(٧٧) ، هلعت

(٧٣) الإنجليز = للإنجليز قراءة ترجيحية .

(٧٤) وما = أوما .

(٧٥) السياسة = السياسية .

(٧٦) فى = من .

(٧٧) مذبحة سنة ثمانين وثمنمائة وألف = مذبحة سنة إثنان وثمانون وثمانمائة وألف (١٨٨٢) ـ المقصود هو (مذبحة الإسكندرية) فى ١١ يونيو ١٨٨٢ . كان النزاع بين الخديو توفيق والوزارة البارودية قد بلغ منعطفا خطيرا خلال شهر مايو ١٨٨٢ ـ وبدأت ملامح التدخل الأوروبى فى الشئون المصرية تتزايد ـ ووصلت أساطيل إنجليزية وفرنسية إلى مياه الإسكندرية فى ١٩ و ٢٠ مايو ـ وتقدمت إنجلترا وفرنسا بمذكرتهما إلى الخديوى طالبتين إبعاد عرابى ورفاقه واستقالة الوزارة البارودية ـ وقبل الخديو مطالبهما ـ واستقالت الوزارة البارودية فى اليوم التالى لتقديم المذكرة المشتركة (٢٦ مايو ١٨٨٢) ـ وبقيت البلاد بلا وزارة حتى (٢٠ يونيو ١٨٨٢) عندما تألفت وزارة إسماعيل راغب باشا (٢٠ يونيو ١٨٨٢ ـ ٢١ أغسطس ١٨٨٢) . بدأ الأجانب يهاجرون من القاهرة والأقاليم إلى الإسكندرية ليكونوا تحت رعاية الأساطيل الأوروبية ، وغصت الإسكندرية بهم وهم متوترون تحسبا للقتال الذى كان من المتوقع حدوثه بين القوى العرابية والقوى المتدخلة الأوروبية . وأخذ الأجانب يستعدون لهذا الموقف ، فتسلح الكثير منهم ـ وأصبح الجو فى الإسكندرية مهيأ لوقوع الإضطرابات . فى يوم ١١ يونيو ١٨٨٢ وقع شجار بين مالطى إنجليزى ومصرى صاحب حمار=

قلوبهم وتحاشوا النزول إلى القطر وأتموا سفرتهم توا إلى ديارهم إلا واحد منهم فإنه أقسم على قبضة مدرسه[٧٨] أنه لا يرجع إلى دياره حتى يعرج على بلاد القوم المتعصبين السفاكين . فنهاه رفقاه ، فلم ينته ، وجاء إلى القاهرة مدججا بالسلاح ظانا السوء بكل صاحب عمامة أو طربوش حتى ظنه كل من رآه مصابا بالمس والإختبال . فلما دخل القاهرة أعجبه مرآها وأدهشه ما فيها من الهدوء والسكينة واشتغال أهل البلد عنه بأعمالهم . فنزل فى إحدى الفنادق فلاقاه أحد مكاتبى الصحف الإنجليزية فأخبره الغريب بقصته وسبب مجيئه فضحك المكاتب وقهقه وقال له خفف عنك فإنما هى رمية من مرامى السياسة لغاية فى النفس) فتأمل .

وكانت إلى هذه الحين قد انقطعت الأخبار عن صحة إسماعيل باشا الخديوى الأسبق وما هو عليه مرضه ، ولم يعرف الناس عنه شيئا سوى ذرفا من الأقوال كانت ترد إلى بعض الأفراد من حشمه وخدمه المقيمين بالقاهرة . فلما كان يوم الإثنين ثانى مارس من السنة ، وسادس رمضان جاء الخبر من دار السلطنة على جناح البرق إلى قصر الإمارة وإلى الأمير حسين كامل باشا بوفاة

= إستأجره منه الأول . فى المشاجرة التى دارت بينهما طعن المالطى المصرى بسكين ـ فتدخل الأهالى لمحاولة الإمساك بالجانى ، ولكنه فر إلى أحد المنازل المجاورة . وأخذ الأجانب الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهالى من الأبواب والنوافذ ، فثار الأخيرون وشرعوا فى مواجهة الأوربيين فى الطرق والحوانيت ، وامتد الهياج وشمل أحياء كثيرة من المدينة ولم ينته إلا باستدعاء قوات الجيش التى وصلت قبل الغروب ، وقد إختلفت الراويات فى تقدير الخسائر البشرية ـ لكن الرافعى يعتمد تقديرات لجنة الأطباء التى ألفها قناصل الدول فى اليوم التالى للحادث والتى قررت أن عدد القتلى هو ٤٩ قتيلا منهم ٣٨ من الأجانب وأحد عشر مواطنا . وأن عدد الجرحى ٧١ منهم ٣٦ من الأجانب و ٢٣ من الوطنيين ، واثنان من الأتراك . وتبع ذلك نزوح الأجانب عن البلاد خوف الحرب . فلجأ إلى السفن الراسية فى الميناء يوم ١٢ يونيو أكثر من عشرة آلاف اجنبى ، وبلغوا بعد أسبوع أكثر من ٣٢,٠٠٠ ـ وقبيل ضرب الإسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢) كان عدد الأجانب الذين نزحوا عن البلاد ٦٠,٠٠٠ .

ـ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢٩ ـ ٣٤١ .

(٧٨) على قبضة مدرسه = على قبضة مسدسه قراءة ترجيحية .

أبيه إسماعيل باشا . توفاه الله عند الساعة الثامنة من صباح اليوم . وكان أمير البلاد يومئذ بقصر المنتزه بالإسكندرية ، فجاءه عمه الأمير حسين والأمير فواد باشا ، وتناجوا معا على كيفية مشهد فقيدهم ، ثم عادا إلى القاهرة .ولبث الأمير بالإسكندرية فلا يعود إلى القاهرة مع(٧٩) نعش جده . وقد أرسل رسالة إلى المابين الهمايونى على جناح البرق يبلغ السلطان فيها بأن قد وقع الإتفاق على أن وابور البوستة الخديوى الذى يصل اليوم يعنى يوم ثالث الشهر إلى دار السلطنة يتأهب لنقل جثة الفقيد مع النساء إلى ثغر الإسكندرية . وأن سيستعاض عن الوابور هذا بآخر ليعود بالبريد والركاب . وشاع خبر ذلك بين الناس وطيروه إلى الآفاق ، فجاءت من جميع قناصل الدول وكبار الوطنين والأجانب من مشرق البلاد ومغربها مراسم التعزية للأمير ، وتنكست الأعلام إعلانا بالحداد . وتقرر الحداد فى البيت العلوى وقصر الإمارة أربعين يوما . وأوقفت الحفلات العامة والموسيقات ثلاثة أيام ، ووضعت دفاتر بسائر المحافظات والمديريات لوضع أسماء المعزين من كل صنف وطبقة .وجلس الأمير حسين باشا وفؤاد باشا للعزاء بالقصر(٨٠) العالى . فغص القصر مع سعته بأفواج المعزين والمعزيات من الأهلين والأجانب . وجلس الفقهاء يتلون القرآن العظيم وأصحاب الأوراد .واجتمع الوزراء وتناجوا فى الصورة التى يسير عليها مشهد الفقيد ، وألبس كبار الجند شارات الحداد على أكسيتهم العسكرية وتقرر أنه عند وصول الباخرة بالجثة إلى المحجر تخرج منه يوم الإثنين ثامن الشهر ، وتنقل إلى قصر رأس التين ، ويسار بها فى عصر ذلك اليوم إلى محطة السكة الحديد ، وتصل إلى العاصمة صحبة أمير البلاد وسائر الوزراء ، وتوضع ليلة الثلاثاء فى غرفة مخصوصة بالمحطة ، وفى الصباح يسير المشهد إلى مسجد

---

(٧٩) مع = إلا مع أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٨٠) راجع حاشية ٤٨ ص ٤٣٩ .

الرفاعى(٨١) ثم إلى المدفن . وأرسل محافظ القاهرة إلى شيخ الجامع الأزهر ، وإلى سر(٨٢) تجار البلد بأن يدعو كل منهما العلماء والتجار لحضور المشهد فى اليوم المحدود . فلما كان يوم الأحد أقبلت الباخرة (توفيق ربانى) تقل الجثة ، فألقت مرساها تجاه المحجر . فنزلت فى الحال الأسرة العلوية إلى البحر فى الزوارق ، وأدوا عن بعد فروض التسليم على جثة الفقيد ، ومراسيم التعزية لمن كانوا معها . وأرسل الأمير من قام بهذه المهمة بالنيابة عنه ، وأصبحوا يوم الإثنين وقد جاء الأمير إلى قصر رأس التين ، فدخل عليه الوزراء والأمراء وقدموا له فروض التعزية .فلما سارت الساعة الثانية ونصف بعد الظهر أنزل النعش من الباخرة إلى الزورق المعد لنقله إلى قصر رأس التين . فأخذت المدافع تطلق واحدا واحدا كل دقيقة . وكانت جموع المشيعين قد إجتمعت فى القصر ، فسار المشهد فى الساعة الثالثة تتقدمه فرسان صاحب الشرطة ، وتليهم جمعية سافويا الإيطالية ، وهى تعزف بالالحان المحزنة ، ومن ورائها وفود سائر

(٨١) مسجد الرفاعى = أنشأته الأميرة خوشيار هانم والدة الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩ م (١٢٨٦هـ) - إشتهر بإسم جامع الرفاعى لوجود ضريح الشيخ على أبو شباك جد أحمد الرفاعى الصوفى المشهور به . وعندما وصلت المبانى إلى جلسة الشباك توقف العمل ، ثم تم بناء الجامع على عهد الخديو عباس حلمى الثانى هام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) ــ إستخدم الجامع ليكون مدفنا للعائلة المالكة السابقة إلى جانب الأغراض الدينية الأخرى ــ ويقع فى شارع القلعة فى مواجهة جامع السلطان حسن .
ــ بول كازانوڤا (تاريخ ووصف قلعة القاهرة) ــ ترجمة وتقديم أحمد دراج ــ مراجعة جمال محرز ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٧٤ ــ ص ١٠٩ ــ حاشية ٣ .

(٨٢) سر تجار = كبير التجار أو رئيس تجار مصر ــ وهو لقب مشتق من مصدرين أولهما فارسى وهو سر Ser بمعنى رأس أو رئيس ــ وعربى وهو كلمة تجار ــ وقد إستخدم هذا النوع من المسميات خلال العصر العثمانى ودخل فى اللغة الإدارية المصرية التى كانت لا تزال تستخدم المصطلحات التركية بوفرة ــ لكن إضافة كلمات عربية إلى هذه التركيبة كان قليلا فى الواقع ــ وظلت المسميات التركية هى الغالبه مثل (سرجشمه) Sercheshme واستخدمت فى مصر كلقب لقائد القوات الغير نظامية فى الجيش فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ــ سرياور (كبير الحاشية العسكرية) ــ سر تشريفاتى (كبير رجال الإستقبال بالقصر الخديوى) ــ سردار (جنرال أو قائد كبير) وخاصة عندما كان يسمى سردار أكرم ــ فسر تعنى رأس ودار تعنى صاحب ــ والتركيبة كلها تعنى القائد ــ سر عسكر وهكذا .
ــ ردهاوس ــ مرجع سبق ذكره ص ١٠٤٦ ، ٧٢٢ .
ــ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٢٧ .

جمعيات الثغر وشركاته ، بالأعلام والرايات مجللة بالسواد ، ثم فرق العساكر بالسلاح المنكس ، ثم أصحاب العكاكيز ، فنقيب الأشراف ، والأشراف ، ومشايخ التكايا ، وطلبة العلم ، والتجار ، والأعيان الوطنيون ، والأجانب ، ثم أهل الوظائف ، ثم كبار أهل المناصب ، ورجال المجلس البلدى ، والمحاكم المختلطة والأهلية ، والمحامون ، ثم الرؤساء الروحيون ، وقناصل الدول ، وخلفهم كبار ضباط جيش الإحتلال ، ورجال سفن حرب الدول الراسية بالميناء ، ثم أمير البلاد عباس باشا حلمى الثانى ، والأمراء من البيت العلوى ، ورجال المعتمد السلطانى ، ثم العلماء وتلامذة المكاتب والمدارس ، وحملة القماقم ، وضباط البحرية المصرية ، ثم نعش الفقيد يتبعه كوكبة من فرسان الشرطة ، وخلفهم مركبات الحرم . وما زال المشهد على هذا الترتيب حتى محطة باب الحديد[٨٣] فبلغها فى نحو الساعة الخامسة . وعند الساعة خمسة والدقيقة عشرة سار القطار بالنعش إلى القاهرة . وكان الأمير لما بلغ شارع المحافظة ركب عربته وسار إلى محطة سيدى جابر ، فركب قطاره الخاص وبرح الإسكندرية إلى العاصمة عند الساعة الرابعة ونصف . وبلغ القطار المقل نعش الفقيد القاهرة فى الساعة التاسعة والدقيقة خمسين مساء فانزلوا النعش إلى أحدى حجرات المحطة . وأصبحوا وقد ساروا بالنعش فى الساعة الثامنة صباحا على الترتيب الذى ساروا به فى الإسكندرية بين صفين من الجنود يبلغان إلى العتبة الخضرة . وصفين من الجيوش الإنجلزية يبلغان الحلمية . وصفين أخرين مزيج من العساكر المصرية لحد المدفن . وأطلقت فى خلال المسير مائة مدفع . ولما وصل الأمير بالمشهد إلى منتصف ميدان(الأوبرا) ، إنفصل الأمير والمشير عثمان باشا الغازى ، وجماعة القناصل عن جماعة المشيعين ، وعاد الأمير بركبه إلى قصر القبة ، وتابع المشهد سيره إلى جامع

---

(٨٣) باب الحديد = الباب الجديد قراءة ترجيحية ـــ أنظر حاشية ٢٦ ص ٤٦ .

السلطان حسن[٨٤] ، فصلى على الفقيد ، وحمل إلى(الرفاعى) حيث دفن بين أطلاق البنادق وتعظيم الجنود . وكانت الجماهير المجتمعة من الناس فى الطرق وفوق أسطحة البيوت وشرفات المنازل شىء يجل عن الحصر ، حتى لقد سقط سقف أحد البيوت بمن عليه من النساء والأطفال وهم زهاء المائة كانوا يتفرجون ، فجرح بعضهم فقط جراحا خفيفة . فسبحان من له الملك والملكوت ، سبحان الحى الدايم الذى لا يموت . ورثاه أحمد شوقى شاعر الأمير بمرثيته التى هى :

حلم مده الكرى لك مدا — وسارى[٨٥]ترتجى لحامك[٨٦]ردا
وحياة ما غادرت لك فى الأحـ — ياء قبلا ولم ندر[٨٧]لك بعدا
لن[٨٨]يرى الناس مثل أيام نعما — ك زمانا ولا كبؤسك عهدا
كنت إذا شئت[٨٩]بدل السعد نحسا — وإذا شئت بدل النحس سعدا
قائما بالعطاء والسلب فينا — كالليالى أ وأنت أكبر يدا
يتمشى الفضاء خلف نواهـ — يك حديد الأظفار يطلب صيدا

---

(٨٤) جامع السلطان حسن = أنشأه السلطان الناصر حسن إبن الملك الناصر بن قلاوون ــ الذى تولى السلطنة مرتين (٧٤٨ ــ ٧٥٢/ ١٣٤٧ - ١٣٥١م) (٧٥٥ ــ ٧٦٢/ ١٣٥٤ــ ١٣٦٠م)ــ وكان تاريخ إنشاءه فى عام ٧٥٨/ ١٣٥٦ ــ ويقع فى مواجهة القلعة مباشرة فى ميدان الرميلة الذى يشكل ميدان القلعة وميدان صلاح الدين وميدان السيدة عائشة الآن .

ــ جومار (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل) ترجمة أيمن فؤاد سيد ــ مكتبة الخانجى - القاهرة ــ ١٩٨٨ ، ص ١٦٩ .

ــ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث) ــ ج ١ - مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٤١ .

(٨٥) وسارى = وسدى

ــ لم يورد ميخائيل شاروبيم من قصيدة رثاء الخديو إسماعيل سوى ٣٧ بيتا فقط بينما أورد أحمد الحوفى منها ١٠٤ بيتا ، أى أنه قدم القصيدة كاملة ــ ولقد مكننا هذا من مراجعة الأبيات التى أوردها شاروبيم على القصيدة التى أوردها الحوفى مراجعة حرفية .

ــ أحمد الحوفى (ديوان شوقى) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٤١٢ ــ ٤٢٢ .

(٨٦) لحامك = لحلمك .

(٨٧) ندر = تذر .

(٨٨) لن يرى = لم ير .

(٨٩) إذا شئت = إن شئت .

ويظل السـراة منك كـريم رضـيت رفـده العناية رفـدا
ومعز يصير العتيد[٩٠] تاجا ومزل[٩١] يصير التاج قيدا
أنت من مثل السعادة لو لم يك ذاك النعـيم أخـذا وردا
قصد الدهر منك ركن المعالى ورمى طورها[٩٢]الذى كان طورا[٩٣]
وأتى مظهر البلاد ومجد الـ نيل والداء والدوا فـردى
والأبى الذى أبى العصر فى الملـ ك شريكا لو أن ذلك أجدى
لم ينؤ بالجبال دينا ولكن وابر الورى حفيدا وجدا[٩٤]
وكبير[٩٥]الحياة فى العصر والعا لى فيه فما أرى لك ندا
أين كسرى وأين قيصر مما نلت بالمجد أو بلغت مجدا
لبس الشرق من لقائك تاجا وتلقى أعوام رشدك عقدا
وجرت فيه بالسعود جوار لك منين مصر ملكا وجدا

إلى أن قال :

ياكبير الفؤاد والهم والآ راب مهلا ، رويدا رويدا
لم تكن حقبة أساءت عليا فى جنى عمره لتحفظ ودا
خذلت منه وأخذ[٩٦] الترك والعرب وسامت سيف الشرق[٩٧] عمدا
لا غراما بحاسديه ولكن رهبا أن يبلغ الشرق قصدا
ولأنت أبنه الزكى فهلا جئت بالطلبه الطريق الأسدا

---

(٩٠) العتيد = القيد .
(٩١) ومزل = مذل .
(٩٢) طورها = طودها .
(٩٣) طورا = طودا .
(٩٤) وأبر الورى حفيدا وجدا = ودمنه الغريم مالم يؤدا .
(٩٥) يسبق هذا البيت مباشرة بيت يقوله (يا أجل الكرام وجها وجاها \ وأبو الورى حفيدا وجدا).
(٩٦) واخذ = واخذ .
(٩٧) الشرق = المشارق .

فــتــأنيت والتـــانى فــلاح وهو ياثاقب النهى بك أجدى

إلى أن قال :

فـاذا العـصـر والملوك خـصـوم لك والناس والمحبون أعـدا
فتركت السرير مضطرب الاحـ وال من نأى ربه ليس يهـدا
لم تكن من جنى عليه ولكن عـودته الأيام أن تستـبـدا
مقت[٩٨] مصـر أن تتوج مـصـر وأبى النيل أن يحـرد[٩٩] وردا

إلى أن قال :

ياخليلى لا تدفا[١٠٠]لى الموت فانى من لا يرى العيش حمدا
لا أقـول أسكنا إلى هذه الدا ر غـرورا ولا أقـول أستـعـدا
أنا لا يرى الفـرار من المـو ت ومن لا يرى من الموت بدا
أنا من بل دمعه المهد بالامـ س ولولا التعليل لم يأل جهدا
ودعته النساء من حيث بشر ن وليـدا جم الحـيـاة مـفـدى
وتولتـــه فى البــداية أثدا ء تدبر الرد وتحـسب شـهـدا
والذى تبصـران لى من رضاء حـرمـة للحـيـاة عندى تودى

إلى أن قال :

إنمـا الموت منتهى كل حى لم يصب مالك مع الملك خلدا
سنة الله فى العـبـاد وأمـر ناطق عن بقـــائه لم يردا
وإلى الله ترجع النفس يومـا صـدق الله والنبيـون وعـدا

إنتهى

---

(٩٨) مقت = منعت .
(٩٩) يحرد = يحرر
(١٠٠) تدفا = تذما .

وما انقضى مشهد الفقيد وتوارى جسده فى التراب ، حتى قامت ضجة قناصل الدول جملة حول ما وقع من المستر بلمر المستشار المالى من تقدمه على أولئك القناصل فى المسير فى المشهد ، ومخالفته للتقاليد المعمول بها عندهم فى سائر الإحتفالات ، وكذلك فعل أعضاء صندوق الدين ، حتى لقد إمتنع أحدهم المسيو(يونين) عضو دولة الروسيا عن المسير فى المشهد لتقدم بلمر عليه ومخالفة تلك التقاليد المقررة . وبتحرير الخبر أنه لما شرع رجال ديوان الأمير فى ترتيب هيئة الجنازة على الشكل الذى تقرر أن تسير عليه ، وضعوا كل فريق من طبقات المشيعين فى وسط معين ، بأن جعلوا الوزراء فى وسط ، ثم خلفهم قناصل الدول ، ثم خلفهم المستشارين ، وهكذا بقية المشيعين على هذا النست(١٠١)والترتيب . فلما سار المشهد قليلا ورأى بلمر أن موقفه خلف القناصل بعيدا عن مصاف الوزراء فيه شيء من الصغار والتحقير ، فى حين أنه يرى نفسه أكبر من كل كبير بينهم ، أعظم الأمر وانسلخ عن صفوف المستشارين وتقدم إلى صفوف الوزراء . فكبر هذا على جماعة القناصل وعدوه إهانة لهم حتى أنقطع أحدهم عن المسير فى الجنازة وقفل راجعا إلى داره حانقا . فلما إنقضى الإحتفال بدفن الجثة إجتمع سائر القناصل عند المسيوفيلبو قنصل جنرال الهولانديين لأنه أقدمهم عهدا فى ديار مصر وتناجوا فيما فعله بلمر المستشار ، ثم كتبوا إحتجاجا شديدا على ذلك ، وسيروا به إلى الوزير بطرس باشا غالى وزير الخارجية طالبين الترضية أولا ، وإيقاف ذلك المستشار عند حده فى الحفلات الرسمية ثانيا . فاهتم لورد كرمر بالأمر وأعظمه ، وجعل يخابر أولئك القناصل ويتلطف معه(١٠٢) ويهون عليهم حتى طيب نفوسهم وأزال عنهم ما كانوا عليه من الغيظ الشديد . وعندى أن بلمر هذا فضلا عن كونه وضيع الحسب فإنه رعديد طايش فخور مختال ، وكأنه بارتقائه

---

(١٠١) النست = النسق .

(١٠٢) معه = معهم .

هذا المنصب قد إنسلخ من ذلك الحسب الوضيع ولبس جلدة جماعة الكبراء من الإنجليز وظهر فيها ، فكان أشد معين إلى لورد كرومر على كيد المكائد ، وأكبر العاملين على إضعاف سلطة الإمارة ، وأشد الإنجليز غلظة وخشونة ، وأقساهم قلبا على أهل البلاد وأمكنهم من تلابيب كرومر وأعظمهم تأثيرا وأكثرهم دالة عليه . فكان إذا أراد كرومر أمرا أو إحداث حدث دفع بلمر هذا إلى تمهيد سبل الوصول اليه بما أوتيه من السماجة وجمود الوجه . على أن مكان الرجل فى الغلظة والغطرسة غير مكان كل واحد من قوم الإنجليز ، وحاله غير حالهم . وما ظنك برجل هذه صفاته أن يستحل المحارم فى إسترضاء عميد الإحتلال ، وأن ينقم على الأمير ورجال دولته وما[١٠٣] ينقم ، ويخالفهم فى ما أحسنوا أوأساؤا من أعمالهم ، تشيعا لكرومر وتعصبا لدولته حتى أصبح وقد صار له فى أعين قومه تجلة وكرامة لم تكن له من قبل ، وعظمه صاحب سياستهم بألقاب الشرف ونياشين الاعتبار ، وكل هذا لم يغن عنه من الله شيئا عند ما سقط نجمه من حالق مجده لأن الذى يحاول أن يقبض بيد واحدة على الكثير لا يمسك إلا القليل .

واتفق أن جاء إلى مصر المسيودى لونكل زعيم المتطرفين بديار الفرنسيس زائرا أو باحثا عما حدث بالبلاد ، بعد الضجة التى أقامها ضد جماعة الإنجليز وضد صاحب سياستهم . فما شاع خبر وصوله حتى قام أشياعه والمعجبين بسياسته من المصريين والنزلاء وقابلوه بالإجلال والتعظيم . فنزل فندق شبرد ، وجعل يطوف فى شوارع البلد ومعاهدها أياما . ثم قالوا أن الرجل على عزم المجاهرة بما يكنه صدره من الولاء لمصر والمصريين ، ولذلك سيلقى على الناس كلاما مليحا يدلهم على مبلغ ميله وعطفه وعطف حزبه المعروف بنصرة الضعفاء . فلما كان سادس عشرى مارس من السنة إجتمع الناس لسماع كلامه فوقف فى وسطهم وقال (أبدأ بالثناء على سمو الأمير

(١٠٣) وما = ما قراءة ترجيحية .

عباس باشا ، والإبتهال للحق تعالى من صميم الفؤاد بأن يمتعه بالصحة والعافية ويهديه بنور الحكمة والعرفان ، فقد تمكن أعلى الله كلمته من إستمالة عواطف أوربا واحترامها وإجلالها له ، لما أزدان به نبيل[١٠٤] العواطف وحسن النظر وصدق الوطنية ، واهتمامه آناء الليل وأطراف النهار بإسعاد رعاياه . ولا شك أن مثل هذه الصفات الشريفة تزيد كل يوم فى رفعة قدره أمام الأمم . ومهما كان من أولئك الذين يهتجمون[١٠٥] على هذه الذات الكريمة التى هى أسمى من أن ينالوها فإنهم لن يفلحو فى سعيهم أبدا ، وكونوا على يقين بأنهم مهما جادلوا فلا يكون لعملهم أدنى تأثير على ذلك النفوذ الفعال ، وتلك الجازبية[١٠٦] القوية اللذين لجناب الأمير . بل لا يزيد ذلك دعاياه(١٠٧) الا إستمالة[١٠٨] فى الإخلاص له . وإننا إيها السادة نعرف بعضنا معرفة جيدة ـ ولذلك فلا حاجة لى بالتعبير عن مقدار الإبتهاج بوجودى اليوم بينكم . وإنى لا أستطيع وصف ما يخلج ضميرى من عواطف الشكران لما أوليتمونى من حسن اللقيا وإكرام المشوى[١٠٩] .

ولا جرم أن الكرم الإسلامى لم يفقد شيئا من شهرته القديمة التى ضربت بها الأمثال ، والإنسان فى وسطكم كأنه فى منزله وبين أهله . ولا شك عندى فى أن بعض اللتترين[١١٠] لما أنس مغكم[١١١] زيادة الصفاء والإطمئنان ، قاده الضلال إلى الإفراط وتجاوز الحدود ، فسعى إلى التوطن بمنزلكم والإستقرار بداركم واعتبار نفسه بمنزلة السيد المتصرف ، ولكنكم قد بالغتم

---

(١٠٤) نبيل = من نبل أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٠٥) يهتجمون = يتهجمون .
(١٠٦) الجازبية = الجاذبية .
(١٠٧) دعاياه = رعاياه
(١٠٨) إستمالة = إستماته .
(١٠٩) المشوى = المثوى .
(١١٠) اللفقرين = المفترين قراءة إجتهادية .
(١١١) مغكم = منكم

فى إحترام تقاليدكم القديمة وسننكم الموروثة عن أجدادكم ، فقابلتم تلك الدعاوى الطويلة العريضة بغاية السكينة ، وأكتسبتم بحسن السلوك ما فيه ضمانة حقوقكم والتوفيق بينها وبين الواجبات التى تفرضها عليكم شريعتكم السمحاء ، ألمبنية على التساهل والحكمة تلقاء ذلك الذى قضى الزمان بوجوده بين ظهرانيكم ،

ومع ما حصل من الأمور الموجبة لوقوع الإحتداد والإشتداد ، واختلاق الأخبار لإحداث إنفجار فى العواطف المقدسة ، وإيجاد الإهانات وأسباب السباب والسعى فى إرتكاب الجنايات ضدكم وضد وطنكم ، فإنكم قد قمتم بما تقضى به عليكم الوطنية ولم تسترسلوا مع النفس فى التظاهر بأى عمل يكون من ورائه الإخلال بالنظام ، أو تلويث ما إشتهرتم به من التؤدة والسكينة والصبر والهدوء . فكان من نتيجة هذه السياسة أمور مهمة ظاهرة للعيان ، وأول ذلك أنكم إجتذبتم ثقة أوروبا بكم . فأصبحت لا تصدق بما ترجف به التلغرافات من حدوث ذلك الهياج وهذا الإضطراب فى بلادكم .

ولذلك فقد عرف القوم فى باريز وبرلين بل وفى لندره نفسها ماهية هذه الحملات المزعجة التي تصودكم[١١٢] فى أوقات معينة كأنكم قد توثبتهم[١١٣] للإندفاع فى الهرج والمرج ، وتورحتم[١١٤] للدخول فى المهالك والمخاطر . وكل الناس يقولون عند وصول هذه الأخبار اليهم ــ لا شك أنه ستقع على المصريين فى مصر ضربة ــ وتلك الإشاعات إنما هى تمهيد للسبيل ــ وحيئذ[١١٥] فلا يكون الحذر[١١٦] والإحتراس منكم أيها المصريين ، فقد أوجدت الصحف

---

(١١٢) تصودكم = تصوركم .
(١١٣) توثبتهم = توثبتم .
(١١٤) وتورحتم = وتهيأتم — قراءة اجتهادية .
(١١٥) وحيئذ = وحينئذ
(١١٦) الحذر = إلا الحذر — قراءة ترجيحية .

الأوروبية فى هذا العهد الأخير أحسايا(١١٧) لكم ضد أعدائكم لن يزول من العقول . ولقد ترتب على ذلك أن حكم الرأى العام فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا ، بل وفى إنجلترا نفسها بما عهد فيه من الحرية وحسن النظر على تلك الماجريات(١١٨) والمنتديات التى كان لها شأن فى وقت من الأوقات . فلا عودة ولا أستنباق(١١٩) لذلك الحادث الخطير ، حادث عام إثنين وثمانين وثمنمائة وألف . كلا ثم كلا إنى أشهد الله أن ذلك لا يعود ، وأن أهل الشر لا مقدرة لهم اليوم على الإيقاع بكم مرة ثانية ، ولا يتلاعبون بكم مثل ذلك التلاعب المشؤوم الوخيم العواقب . فقد كان ذلك الفصل من المضحكات فى أول الأمر ولكنه إنتهى بالمبكيات المحزنات التى سالت فيها الدماء ، وتعست بها الخلايق وهوت فى مهاوية(١٢٠) سفينة النجاة التى أعدتها أوطانكم لبلوغ السلامة .

فيا أيها الأحباء كونو على يقظة وتحصنوا بالسكون واجتنبوا أقل أمر يوجب الخصام أو ما يوصل إليه . وليكن السلام سائد فى الخارج كما هو سائد فى سرايركم ، وتعلقوا بازيال(١٢١) الصبر والإنتظار ، فإن الله صبور يحب الصابرين . واذكروا تلك القصة التى حفظتموها عن أجدادكم كما حفظناها نحن مثلكم . وهى قصة شجرة البلوط والغابة . فقد كانت شامخة بأنفها متعاظمة على غيرها ، متكبرة على شجرة الغاب محتقرة لها ، ظانة أن الله قسم لها السعادة ، حيث جعل الغاب يلتجئ تحت ظلها الوريق . فجاء ريح الشمال وحطمها تحطيما لم يكن فى الحسبان . وأما الغابة فان تكن قد تواضعت إلا أنها ما لبثت أن عادت إلى السمو والإرتفاع ، متنعمة بالعيشة والحياة . فمثلكم مثل الغابة ستأتيكم الريح عن قريب من جهة الشمال . نعم هى آتية وكل آت قريب .

---

(١١٧) احسايا = إحساسا قراءة ترجيحية .
(١١٨) الماجريات = المجريات
(١١٩) أستنباق = إستدعاء قراءة إجتهادية .
(١٢٠) مهاوية = مهاويه
(١٢١) أزيال = أذيال

فلنطمئن من الآن على خلاص مصر وحريتها . ولنبتهل إلى الله برعايتها وحمايتها) إنتهى .

قلت فلم يعجب القوم نصيحه ، ولم يحفلوا بإشاراته . وكانوا قد ملئوا الأرض صياحا ونعيقا بخبر قدومه . وارتفعت ضوضاء أصحاب الصحف المتطرفة حول مقره إلى عنان السماء . فكان منهم من يسميه بالحر القدير ، نصير الضعفاء ، ومنهم من ينعته بالفاتح الكبير رافع البؤساء ، ومنهم من يقول غير ذلك من أيات المدح والثناء . حتى خيل للناس أن الرجل جاء مصر وفى يده عصلة[١٢٢] موسى عليه السلام ، إذا ألقاها بين القوم الإنجليز إنقلبت تنينا عظيما فيمزق شملهم تمزيقا ويريح البلاد من شرهم الوبيل . لاقانى صاحب ممن يجلون القوم الفرنسيس ويسبحون بحمد أصحاب سياستهم ، ويكثرون الثناء عليهم فقال باسما(عرفنا[١٢٣] كثير التأفف من سقطات أولئك القوم أصحاب سياسة الفرنسيس ، ولم ترج منهم حسن الدفاع عنا والصنع . حتى لقد سمعناك تقول أنهم قوم نظروا إلى أمرهم فى هذه الديار حينا من الدهر ، وقد أتاهم على ما يهوون ، فأغواهم ذلك وأعجبهم ، ولكنهم لم ينظروا فى عواقبه فأهلكهم ونقض عليهم أمرهم . أى نعم ولكن ما رميتهم بالطيش ووصمتهم بوصمة الجبن وهم براء من كل ما تقول ، وإنما الأمور مرهونة باوقاتها) فقلت رحماك ياأخى والله إنى القائل أيضا بأن قد ذهبت الحيلة من أيدى أولئك القوم فى إسترجاع ما كان لهم من الكلمة العليا فى شؤون هذه البلاد ، وبان عجزهم عن نوال قسطهم منها ، فخرجوا عن مقاصد الكياسة وحسن التدبير الذى كان لهم من قبل ، وجعلوا يتخبطون فى عملهم ، فيوما يلجأون إلى جلبة أصحاب صحفهم ، ويتخذونها درعا لقتال الإنجليز وإخراجهم من البلد صاغرين ، ويوما إلى نعيق المتهوسين من أحزابهم واهمون أن هذا الهتر ــ وقد انفردوا به فى هذه

---

(١٢٢)عصلة = عصاة

(١٢٣) عرفنا = عرفناك .

الأيام وصرفوه فى مذاهب سياستهم ووجوهها ـ يعيد إليهم ما قد غلبوهم عليه وانتزعوه من أيديهم . ويقلل من نزعات أولئك الإنجليز ، وينكبهم عن طريقهم فى إستعمار هذه البلاد أو ضمها إلى أملاكهم . على أن هذا وأشباهه مما دعا الناس طرا إلى أن نعوا[١٢٤] عليهم أفعالهم ، قد[١٢٥] مكن القوم[١٢٦] من مقامهم وأيقظ رأيهم وأكبر هواهم وصرفهم فى صغير الأمور وكبيرها ومهد لهم طريق ذلك السلطان يحوطونه وصونون[١٢٧] ما وهب الله لهم منه . هذا فرنسوى[١٢٨] دى لونكل خطيبكم بالأمس قد جاء يتأبط صحيفته التى ملأها نصحا لكم وإرشادا ، وقد كنتم تتوهمون أنه آت وورائه أشداء الرجال وكتائب الأبطال ومعدات القتال بل الحديد والنار وسفن الحرب الكبار . كنتم تتوهمون أنه يقف بينكم سببا شتيما مقبحا ساخطا متورطا بالدعوة إلى الهرج وشق عصا الطاعة منها ، قد بان لكم دفاعهم وتحققتم مبلغ زيادهم عن هذا البلد الأسيف . فقل لى بحقك ما الذى ترجونه بعد هذه الآيات البينات؟ أو ما الذى تؤننونه[١٢٩] وقد فاتكم من الغرض ما فات وأصبح إتكالكم على تلك الترهات من أشد الغايات . وما مثل هذه الأمانى عندى إلا كمثل كأس من العسل فى أسفله السم ، للذايق منه حلاوة عاجلة وله فى أسفله الموت الذعاف[١٣٠] . أو كالأحلام للنائم التى تفرحه فى منامه فإذا إستيقظ إنقطع الفرح . أو كالبرق الذى يضيء قليلا ويذهب وشيكا ، ويسقى[١٣١] رايه[١٣٢] فى الظلام مقيما . فقال صدقت وأحسنت ولكن أنى لنا ما نرجوه؟ اللهم انصرنا على الحق ورد الينا بضاعتنا أ . هـ .

---

(١٢٤) نعوا = ينعوا .
(١٢٥) قدمكن = وقد تمكن .
(١٢٦) القوم = المقصود هنا الإنجليز .
(١٢٧) وصونون = ويصونون .
(١٢٨) فرنسوى = الفرنسوى .
(١٢٩) تؤننونه = تأتونه قراءة إجتهادية .
(١٣٠) الذعاف = الزعاف .
(١٣١) ويسقى = ويبقى .
(١٣٢) رايه = رائيه قراءة إجتهادية .

ووافق أول شعبان من السنة ، أى سنة إثنى عشرة وثلثمائة وألف ، يوم الأربعاء سابع عشرى مارس من السنة ، وتاسع عشر من برمهات سنة إحدى عشرة وستمائة وألف للشهداء ، هو يوم عيد الفطر .فأطلقت المدافع من قلعة الجبل فجر اليوم إيذانا بالعيد . وأقبل المهنئون على قصر الإمارة من كل صوب وحدب ، وعملت التشريفة الكبرى علي النسق والترتيب المعلوم .فدخلنا على الأمير بالتبريك ، وكان قد عاد إلى القصر بعد إستعراض الجيوش بميدان الرصدخانه ، فوجدناه باش الوجه طلق المحيا ، كثير التلطف بالمهنئين والعطف إلى بعضهم . وما زال على هذا حتى إنقضت أوقات التبريك ، فركب فى موكبه إلى قصر القبة ، ثم عاد بركبه فزار عمه الأمير حسين ، والغازى مختار باشا مندوب السلطان عبد الحميد سلطان الوقت . وكان تحدث الناس فى العيد بخبر الخبيئة[١٣٣] التى وجدوها فى إحدى الوكائل القديمة بالدرب الأحمر . ذلك أن جماعة من الفرنجة جاءوا إلى القاهرة ، وقد دلهم كتاب معهم على مكان الخبئة[١٣٤] ، فالتقوا(بسيوفى باشا) صاحب تلك الوكالة وكلموه فى نبش المكان الذى استدلوا عليه ، فلم يوافقهم على ذلك . فظلوا أياما يعالجونه حتى رضى بشروط لم نصل إلى معرفتها . فلما كان قبل العيد بيومين توفقوا إلى الوصول إلى قبرين ، ووجدوا فى الأول منهما جثتى ملك وملكة محنطين ، وعلى رأس الملك صندوق فيه مفتاح صغير من أسفل . قالوا وفيه شيئا كثيرا ذات قيمة عظيمة ، وفى أصابع الملكة خواتم مرصعة بالأحجار الكريمة وعلى صدرها كتابة بالهيروجليفية ، وتحت ذراعها صرة لم تفتح . وعثروا فى القبر الثانى على خمس جثث منهاجثة يظهر أنها جثة جارية حبشية ، وكلها موضوعة فى صناديق محكمة الصنع . وعثروا أيضا على طشت وأبريق لونهما كلون البلور الأصفر النقى . قالوا وقد نقلوا كل هذه الخبايا فى يومين وسيروا بها

(١٣٣) الخبئة = الخبيئة

(١٣٤) الخبئة = الخبيئة .

إلى ديار الفرنجة . وكثر تحدث الناس فى ذلك وزاد عليه بعضهم زيادة فاحشة حتى خرجوا به عن حد المعقول . والحكاية مختلقة لا أصل لها ولا هى من الحكايات المعقوله فى شىء ، إلا إذا كانت خطة الدرب الأحمر الكائن بها تلك الوكالة فى قديم الاجيال ضاحية من ضواحى منف تحت الملوك الفراعنه ، وهذا لم(١٣٥) يذكر أصحاب التاريخ من المتقدمين والمتأخرين .

وكان إسماعيل باشا الخديوى المخلوع قد أوصى قبل موته ، وختم على كتاب الوصية بخاتمه ، وسجلها فى محكمة دار السلطنة العثمانية . فلما إنقضت أيام الحداد وأيام عيد الأفطار اجتمع سائر الأمراء من ذريته إلا ولده الأمير فواد باشا وفتحوا كتاب الوصية . فكان ما نقل عنه أنه ترك إثنى عشر ألف فدان من أجود الأطيان وكانت موقوفة له وستة آلاف أخرى ملكها لزوجاته ، وهى مرهونة لدين قدره مايتينْ وخمسين ألف جنيه . وقد أوصى أن تباع كلها وفاء لهذا الدين . يقال كان فى خزائنه يوم خرج من مصر مبعدا ، من الأعلاق النفيسة والحلى والجواهر عديمة المثال واللآلىء ما يجل عن الوصف ، وما لا يملكه ملك أوسلطان من عظماء هذا الزمان . وعنده من الأوراق المالية على أخلافها ما قيمته خمسة آلاف ألف ألف ذهبا أو يزيد . ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ، وكل هذا ذهب هباء منثورا فى السعى وراء رجوعه إلى ديار مصر ضيفا لا هو أمير ولا وزير ، فلم يبلغ أمنيته ومات مبعدا حزينا . فسبحان الله صاحب الملك والملكوت الحى الدائم الذى لا يموت . فمن أحسن فلنفسه ، ليس لله تعالى فيها لا قليل ولا كثير .

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت الأراجيف عن التخوم أو كادت ، واطمأن الناس من جانبه(١٣٦) . فلما كان ثلاثين أبريل من السنة وخامس ذى القعدة سنة إثنتى عشرة وثلثمائة وألف ، جاءت صحف الإنجليز ملاء(١٣٧) بخبر قيام

---

(١٣٥) لم يذكر = ما لم يذكره .
(١٣٦) جانبه = جانبها .
(١٣٧) ملأ = ملأى .

السنوسى صاحب خلوة الجعابيب[١٣٨] فى لموم كثيرة . قالوا ووجهته إلى الجنوب ، ولا يعلم السبب الحامل له على هذه الحملة . فلما تناقل أصحاب الصحف المحلية هذا النبأ ، وتفشى بين الناس تطيروا وحسبوا لخروج الشيخ على هذه الصورة حسابا . وظهرت حركة عساكر الإحتلال ، وكثر سير عرباته فى شوارع المدينة ، وجعلت كتايبهم تغدو وتروح بين قلعة الجبل والعب' سية وقصر النيل . وكثر ذهاب لورد كرومر إلى قصر الإمارة حتى خيل للناس أن الشيخ على أبواب الإسكندرية بخيله ورجاله ، وأنه يدعو الناس إلى القيام بحرب دينية وجهاد فى أهل النصرانية . وعندى أن الخبر مختلق والإشاعة كاذبة ، والشيخ رجل ورع صالح منقطع عن الناس إلى عبادة الله والقيام على غرس الأرض وزرعها كما يفعل ذلك كبار الناس . وهو من أعظم مشايخ الطرق ، ومريديه كثيرين جدا ، وهم من أصحاب المهدويه وغيرهم . ويؤكد لى ثقة أنهم زهاء الثلثمائة ألف ، منهم مائة وعشرون ألفا من قبيلة أولاد على . وكلمته مطاعة مسموعة من مريوط إلى بنى غازى ، إلى قسم سيحق[١٣٩] منه طرابلس الغرب ، وأشياعه يغدون بالمنهج[١٤٠] ويتبركون به . وبينما هو فى خلوته ونحن فى أمان منه ، إذ جاء جماعة من عربان(سيوا) ولعلهم ممن كانوا لهم اليد الطولى فى حادث الرقيق التى وصلناها فى محلها ، وأشاعوا أن الشيخ برح الجعبورة[١٤١] مقر خلوته فى جيش جرار من دراويشه ومريديه ، واختفى بهم عن إبصار أصحاب المراصد من صنائع الإنجليز فلا يدرون أين توجه . وحدثوا جماعة الإنجليز بحديث آخر طويل عن الشيخ . ثم كانوا إذا سألهم أحد عنه قالوا أنه هادىء مطمئن وكان معتزلا عن الناس ولا هم[١٤٢] الا التهجع والعبادة

---

(١٣٨) الجعابيب = الجغابيب قراءة ترجيحية .

(١٣٩) سيحق منه = سحيق من قراءة إجتهادية .

(١٤٠)يغدون بالمنهج = يعتزون بالشيخ قراءة إجتهادية .

(١٤١) الجعبورة = الجغبوب .

(١٤٢) ولاهم = ولاهم له أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

فى الليل والنهار . فإذا قيل لهم فكيف إزاء[١٤٣] هذه الحركة الفجائية التى قد تفشى خبرها فى هذه الأيام . قالوا إن القوم مختلفون بين أنه سافر إلى بيت الله الحرام حاجا أو إلى غرض أخر . ثم هم لا يزيدونه غير ذلك . فإذا سألتهم غير هذا غمغموا وقالوا لا ندرى لكم ياقوم قصدا . فبات حديث سفر الرجل إلى الحج فى ذلك الجيش العظيم من الأمور الخارقة بل المطعون فى صحتها ، وكذلك جهلهم أو تجاهلهم الطريق التى سار فيها بلمومه . والذى يجعل الناس فى إرتياب من المقاصد المنوية من هذا الإرجاف ، إنما هو سعى صنائع القوم الإنجليز فى ترويج الإشاعة ترويجا غريبا . حتى ساروا[١٤٤] فى ما يستنتجون منها ، فإما أن الشيخ يكون فى خلوته مطمئنا ، وإذ ذاك يكون المقصود من هذا الإرجاف بثر غور[١٤٥] التأثير الذى يحدثه عن[١٤٦] أصحاب السياسات ، وإما أن الشيخ قد سافر حقيقة . وإذ ذاك فالأمر فى غاية الخطورة ، لأنه يوجب تداخل القوم الإنجليز فى السودان ولكن على نوع جديد ومن باب جديد لمشاغبة أصحاب السياسات الأوروبية ، ولكى ينكبون[١٤٧] عن معاكستهم والإلحاح بطلب الجلاء . ولقد سمعت غير واحد من أصحال[١٤٨] الرأى يقولون أنه إذا كان الشيخ قد سار فى تلك اللموم الكثيرة إلى وجهة غير معلومة ، فإنما سار بإغراء الإنجليز وتحريضهم . وأنه ليس ببعيد أن يكونوا قد أطمعوه كما أطمعوا مدعى المهدوية من قبله بلسان غردون ، وعظموا شانه وملكوه ، أو أنهم يساعدونه كما ساعدوا(رباح مولى الزبير) فى جولاته وصولاته المعلومة فى تلك الأنحاء ، والله سبحانه من وراء ما يفعلون . قلت أيضا ويظن أنه إذا كان

(١٤٣) إزاء = إذن قراءة ترجيحية .
(١٤٤) ساروا = حاروا .
(١٤٥) بثر = سبر
(١٤٦) عن = عند قراءة ترجيحية .
(١٤٧) ينكبون = يكفوا .
(١٤٨) اصحال = أصحاب .

الشيخ قام قائما إلى ماحيتى[١٤٩] بورنو ووادى[١٥٠] الذين هما سنوسيون ، ويقال[١٥١] أنه سيتولى على مملكة رباح مولى الزبير الذى قتل منذ أيام من الزمان ، وتحقق أن عنده ترسانة لصنع آلات الحرب ومعداته ، وكثيرا من المدافع ومائة ألف بندقية[١٥٢] فتأمل .

(١٤٩) ما حيتى = ناحيتى .
(١٥٠) ووادى = وواداى .
(١٥١) ويقال أنه = فإنه .
(١٥٢) السنوسية ـ حركة إسلامية وطريقة صوفية تسعى إلى تطهير النفس إلى جانب كونها حركة فكرية تهدف إلى توضيح المبادئ على أساس منطقى ـ تلتزم بالسنة ، وتفتح باب الإجتهاد . تأسست الحركة السنوسية عام ١٨٣٥ على يد سى محمد بن على السنوسى المولود فى قرية (الواسطة) بالقرب من (مستغانم) بالجزائر فى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٧٨٧ ـ درس الفقة وأسُسُ الصوفية ـ فى عام ١٨٠٥ رحل إلى (فاس) حيث درس على علماء الطريقة الدرقاوية والتيجانية ـ وانضم إلى الطريقة القادرية والشاذلية والجازولية ـ فى عام ١٨١٩ أجيز للتدريس واشتغل به فى مسجد(فاس) وأصبح له أتباع ومريدون . أتجه إلى مسقط رأسه (مستغانم) ثم ذهب إلى طرابلس عام ١٨٢٢ . فى عام ١٨٢٣ وصل إلى القاهرة وتابع دراسة المذهب المالكى فى الأزهر الشريف ـ فى عام ١٨٢٤ إنتقل إلى مكة واتصل بالشيخ أحمد بن أدريس الفاسى شيخ الطريقة الأحمدية الإدريسية . وفى عام ١٨٣٦ إنضم إليه بعض أتباع الشيخ الفاسى بعد وفاته وأقام فى مكة أول(زاوية) على جبل (أبى قبيس) غربى (المدينة) ـ فى عام ١٨٤٠ عاد إلى شمال أفريقيا ، وفى عام ١٨٤٢ أقام زاوية عند برقة بالقرب من (البيضا) سميت (الزاوية البيضاء) ،وكانت أهم الزوايا السنوسية لموقعها الممتاز على طريق القوافل التجارية بين طرابلس الغرب ومصر وتونس وواداى . ظلت (البيضاء) مركز الدعوة السنوسية حتى عام ١٨٥٧ . فى عام ١٨٥٣ نقل السنوسى نشاطه إلى واحة الجغبوب المصرية بالقرب من الحدود الليبية ـ توفى محمد بن على السنوسى عام ١٨٥٩ وترك ولدين (المهدى) و (محمد الشريف) . فى عام ١٨٩٥ إنتقل المهدى رئيس الطريقة السنوسية إلى(الكفرة) وارتبطت الجغبوب بالزوايا التى انتشرت فى الصحراء ونمت الحركة فى عهده ، فربط الزوايا بشبكة طرق ممتازة ثم إنتقل إلى كيرو Kiru فى تشاد عام ١٨٩٩ . كان هذا الإنتقال بالدعوة جنوبا وتوغلها فى الصحراء سببا فى الإحتكاك بين السنوسية والفرنسيين الذين كانوا يوسعون نشاطهم هناك . فى عام ١٩٠٢ هاجم الفرنسيون (زاوية بير علالى) فى (كانم) وأجبروا السنوسيين على ترك المنطقة . فى نفس العام توفى السيد المهدى السنوسى وانتقلت رأسة الطريقة إلى السيد أحمد الشريف ـ قضى الشريف الفترة الأولى من حكمه فى صراع مع الفرنسيين الذين أخذوا يتوغلون غربا صوب النيجر وهاجموا الزاوية السنوسية فى واداى . إستمرت الحرب بين السنوسيين والفرنسيين حتى عام ١٩١١ عندما إنسحبوا تاركين الجنوب للفرنسيين ـ دخل السنوسيون بعد ذلك فى نضال ضد الإيطاليين الذى كانوا قد إحتلوا طرابلس واستمر القتال بينهما حتى عام ١٩١٨ عندما إعتزل الشريف السنوسى الحياة السياسية واتجه إلى تركيا والحجاز حيث مات هناك عام ١٩٣٣ .

ـ عبد الله عبد الرازق إبراهيم (أضواء على الطرق الصوفية فى القارة الأفريقية) ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ ـ ص ٨٥ ـ ١٠٩ .

وعن (برنو) و (وداى) و (رباح مولى الزبير رحمت) راجع الحواشى ٥٧ ص ١١١٩ ـ ١٢٣ ص ١١٤٤ ـ و ١٧٤ ص ١١٥٧ .

- Larousse Universel - Vol II. op. cit.- p.. 927

ولما كان يوم الخميس ثانى مايو من السنة ، وسابع ذى القعدة سنة إثنتى عشرة وثلثمائة وألف ، قام الأمير من القاهرة إلى مصيفه بالإسكندرية ، فقوبل بالتجلة والتعظيم ودقت لقدومه البشائر ، وزاره الأمراء والوزراء والكبراء وسائر أصحاب المناصب وأهل الخطط ، وزينوا البلد لقدومه بالرايات والرياحين . ووصلت والدته أيضا للإسكندرية عند ظهر اليوم ، وكذلك شقيقاته الأميرات . فكان فى أنتظارهن على رصيف المحطة كوكبة من الجند ، وطائفة من أصحاب الشرطة . فلما كان يوم السبت رابعه عملوا التشريفة الكبرى بقصر رأس التين على النسق والترتيب المقرر . فكان إزدحام المهنئين عظيما وجاءت إلى ديوانه كتب التهانى من كل صوب وهنأه شاعر القصر بأبيات هى :ـ

نفدى المسافر والسفر والاقر بين من السفر
وركابهم لما مشى وقطارهم لما صفر
ومسيرهم بين السلامه والكرامة والظفر
وقدومهم أسكندرية والإياب المنتظر
وطلوعهم والصبح فيها بالحجول وبالغرر
يغدون ما بين الاشا ير والبشائر والزمر
قل للعباد هو الهلا ل وللبلاد هو المطر
فى ذمة الايات رحـ لته وفى حفظ السدر
ومقامه بالثغر يتـ تجلى الصفاء المدخر
شمسا برأس أو قمر بمنتزه السمر
عباس مثلك من نهى فى المسلمين ومن أمر
ما بايعوك ولا رضوا الا أنت لهم عمر
أبدا زمانك رحمة لهم وسلم للبشر
ومكارم عند الزما ن وعندنا منها خبر

ملك أبوه محمد لا غرو أن يغفو[١٥٣] الاثر
من فى السراه سواك تحـ لوه المنازل كالقمر
وتحله فى ثغرها يوما ويوما فى البصر
ولقد أقول إذا بالغـ[١٥٤] ت بلثم راحتك الوطر
ووقفت بين الركن والـ عرش العظيم فى السير
ياروض هل لك فى الشذا يا بحر هل لك الدرر
مما نظمته[١٥٥] مهنأ وانا الذى قالوا نسر
فأهنأ فان البدو وطالبـ تهم هنأوك والحضر
وأنشر بلاك[١٥٦] انما أنت الحسام إذا نشر
وطن يهزك كلما هزت فروعت الغير
فجزيت عنه وعن حوا دثه مساعفة القدر

ثم وفى صبح الخميس تاسع مايو ، ورابع عشر ذى القعدة برحت والدة الأمير ثغر الإسكندرية على الباخرة برنس عباس إلى دار السلطنة العثمانية للمصيف مع كريمتها الأميرة(نعمة الله هانم) والأميرة(فاطمه هانم) عمة الأمير . فودعها سائر الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب ، وأطلقت المدافع من حصون البلد إجلالا لها ، فوصلت إلى دار السلطنة صبح السبت حادى عشر الشهر . وجاء خبر وصولها إلى قصر الإمارة .

وكان الوزير نوبار باشا إلى هذا الحين لم يبرأ من ألم سقطته التى سقطها بمزرعته بشبرا ، وكانت تعاوده كل قليل من الأيام ، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى ديار الفرنجة والمكث بها حينا حتى يتم برءه[١٥٧] وتعود إليه عافيتة .

---

(١٥٣) يغفو = يقفو .
(١٥٤) بالغت = بلغت .
(١٥٥) نظمته = نظمتُ .
(١٥٦) بلادك = بلاغك قراءة إجتهادية .
(١٥٧) برءه = برؤه

فأستـاذن الأمير فى السـفر فأذن له . فسـافر فى رابع عـشر مـايو مع البـاخـرة النمـسـاوية إلى بافـاريا للاسـتـجـمام ، ولم يأذن الأمـيـر بإقامـة نائبـا عنه مـدة غيبته .فكانوا إذا إجتمع الوزراء فى مجلسهم ترأس الأمير المجلس وحل كل وزير فى كـرسيـه .وبينما هم يومـا فى مجلسـهم إذ جاءهم بنبأ إنتشـار الجراد بولايتى أسيوط ومنية إبن خصيب آتيا من جهة الجنوب الغربى ، وأنه أهلك الحرث فلم يبق على شىء حتى زعف النخل . فـأكبر الأميـر هذا الخبر وسـير كتبه إلى مديرى الولايتين بالجد والسهر على قطع شأفته ، فجمعا أهل القرى وبذلوا الجهد فى مطاردته فلم يفلحوا ولم يقدروا على مغالبته وظل الحال على هذا أياما والأنباء تأتى فى كل يوم إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة أشكالا حتى قيض الله لإهلاكة طيرا فى شكل الطير المعروف عند أهل القرى بأبى قردان . فقد جاء هذا الطير من الجنوب الشرقى فى عدد عظيم جدا وجعل يرفرف على الجراد ويلتهم منه ما شاء ويدفع منه ما يدفع إلى الجنوب الغربى حتى أهلكه جـمـيعـه وخلص البـلاد من شره . أخـبرنى صـديق من أعـيـان ولاية أسـيوط قال(ظهر الجراد آتيا من الجنوب الغربى فى عصر يوم من شهر ذى القعدة من السنة لا أذكره ، وكان أتيانه فى ذلك اليوم كإتيان طلايع الجيش المهاجم ، فلم نحفل به وظنناه سائرا إلى الجرف الشرقى فبتنا وأصبحنا وقد إنتشر عديده فى القرى من أقصاها إلى أقصاها وملأ وجه الأرض فلم يترك خضره ولا يابسة إلا إعتلاها حتى زعف النخل وغصون الشجر وكل نبات فى الأرض . فانزعر الناس وخرج الرجال والنسـاء والأولاد والبنات إلى الحـقـول . فكان الرجال يطاردونه بالزعف والعصى ، والنساء بالثياب والأولاد والبنات يضربون على أوانى النحاس كالطسـوط والحلل ضربا متـتابعا مزعجا وهم فى صياح وضجة عظيمه . وبرز الحكام يحضون الناس على مطاردته . وظل الحال على هذا يومين كاملين . فلما كان فجر اليوم الثالث جاء من الجنوب الشرقى طائر يشبه الطاير المعروف بأبى قردان كان يحجب قرص الشمس عند شروقه لكثرته وتحليقه فى السماء ،

وهبط على الأرض يرفرف بأجنحته على الجراد حتى أثاره ، وتبعه وهو يضربه بمنقاره ويمزق بمخالبه ويفرق بأجنحته . وظل على هذا بين هبوط وصعود وقتل وتشريد حتى إكتسح ما بقى منه إلى الجبل الغربى) .قال (وكانت أسراب كثيرة من هذا الطير المبارك تظل رابطة(١٥٨) صوف خلف صفوف تأكل المتساقط من الجراد وتمنع الرابض منه من مبارحة مكانه حتى ينزل عليه المهاجمون فيثيرونه كى ينالون منه أكلا وقتلا . قال من منية إبن خصيب من أخبرنا بأن الجراد الذى نزل على قراها لم يلبث سوى يومين ثم رحل إلى الجرف الشرقى فلم يحدث ضررا يذكر . فسبحان الله الرحيم بعباده)أ .هـ قلت ولم يمض على ذلك أياما حتى عاد فظهر ثانية فى مديرية الحدود وانتشر فى مزارعها وسائر قراها ، ولكنه لم يلبث حتى قامت ريح هوجاء فاكتسحت جميعه إلى الشمال الشرقى .

فبينما الناس فى شاغل بحوادث وأخبار الجراد وعودته إلى مديرية الحدود إذ جاء الخبر إلى ديوان الوزارة بوصول أسطول ضخم من سفن حرب الإنجليز إلى الإسكندرية ، وأنه مؤلفا من عدة سفن كبيرة وكلها مشحونة بالمقاتلة والمدافع الضخام . فلما شاع خبر حضوره بين الناس أخذتهم الدهشة وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد . وكثر تحدثهم فيما سيكون من وراء حضوره فى هذه الأيام . وقام لورد كرومر إلى الإسكندرية للقاء أميراله ، وانتشرت سفنه فى عرض البحر فكان منظرها شائقا . وأصبحوا وقد ركب أمير البلاد يخته ظهر سادس عشر الشهر وجعل يتفرج من بعيد على ذلك الأسطول العظيم . فلما كان صبح السابع والعشرين منه أقبل لورد كرومر ومعه أميرال الأسطول وجماعة من ضباطه الكبار إلى قصر الأمارة برأس التين ، فاستقبلهم الأمير بالحفاوة والتكريم . قيل وحادثهم ولاطفهم كثيرا . ثم إنصرفوا ، وركب هو فى عصر اليوم فى قلة من الحشم زورقا فزار الأميرال فى الدارعة المرفوع عليها رايته .

(١٥٨) رابطة صوف = رابضة صفوفا

فاستقبلوه بمظاهر الإجلال والتعظيم ، وأطلقوا المدافع لمقمه[١٥٩] وعزفت له الموسيقى بنشيد الإمارة ، وأدى الجند السلام وهم على رؤوس الشوادى[١٦٠] . فلبث برهة لطيفة ثم عاد إلى القصر فودع كما قوبل . فلما كان مساء الثامن والعشرين من الشهر أدب الأمير بقصره مأدبة فاخرة إلى أميرال الأسطول وضباطه حضرها أيضا خمسون مدعوا بينهم الوزير بطرس باشا غالى وزير الخارجية ، ومصطفى فهمى باشا وزير الحربية والبحرية ، ولورد كرومر وغيرهم من كبار رجال البحر ، واحتفل أيضا جماعة[١٦١] على إختلاف طبقاتهم برجال الأسطول إحتفالا باهرا ، فأدبوا لهم وأولموا وعملوا الأفراح والألعاب التى هم يماكعون عليهم[١٦٢] فى أوقال[١٦٣] فراغهم . وأحيا الجنرال هندرسون قائد حامية الإسكندرية ليلة حافلة أيضا واحتفل غيره أيضا . فكان مقدم هذا الأسطول من مسببات البهجة والسرور عند جماعة الإنجليز ودواعى التطير والخوف عند أهل البلاد طرا .

وجاءت جريدة التيمس التى هى أشهر صحف الإنجليز ملأ[١٦٤] بالكلام عن عظمة ذلك الأسطول وعدد من فيه من المقاتلة وما يحمله من المدافع الضخام وما له من الأفضلية على سائر أساطيل العالم ، وأردفت هذا التبجح والإطراء بشئ من عبارات الإرهاب والتحذير حتى قالت فى ختام مقالها ما نصه :

وليعلم صاحب السياسه الإنجليزيه أنه لمن أهم الأمور وأتمها أن يتجدد كل قليل من الأيام ذلك التأثير الذى تطبعه على صفحات عقول المشرفين

---

(١٥٩) لمقمة = لمقدمه .
(١٦٠) الشوادى = الصوارى .
(١٦١) جماعة = جماعة الإنجليز — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٦٢) يماكعون عليهم = يمارسونها — قراءة إجتهادية .
(١٦٣) أوقال = أوقات .
(١٦٤) ملأ = ملأى .

كافة قوة دولتنا ومهابة أسطولنا العظيم . فلم يطق أصحاب الصحف المحلية الصبر على هذا الوعيد ، وردوا على صاحب التيمس ردا جافيا خشنا وقالوا(ليس بعد هذا دليل على إستضعاف المصريين وإكراههم على الرضا بكل شيء والطاعة العمياء لكل فرد من السادة المحتلين والإعجاب بكل ما يأتونه ولو كان فيه الخراب العاجل والدمار القريب) . فلما كان يوم السبت أول يونية من السنة ، ثامن الحجة سنة إثنتى عشرة وثلثمائه وألف قام الأسطول قاصدا الشامات[١٦٥] ، قالوا فيصل إلى ميناء بيروت يوم الإثنين ثالثه . وشاع خبر قيامه ففرح الناس بذلك وحمدوا الله وأثنوا عليه . قيل ولا دافع لهم على هذا سوى تطيرهم من حضوره وتشاؤمهم من إسم أميراله سيمود[١٦٦] الذى كان خراب الإسكندرية على يديه عام ثلاثة[١٦٧] وثمانين وثمنمائة وألف .

وكانت أخبار تخوم السودان الشرقى تأتى إلى القاهرة ندفا وجلها أحاجى لا تروى غليلا . وكان التجار وأصحاب المعاملات مع أهل ذلك الصعيد فى قلق دايم وكمد ملازم وهم يتوقعون وثبة التعايشى بجيوشه على كسلا وما والاها ، واستخلاصها من الإيطاليان فى كل يوم من أيام هذا الزمان . فلما كان رابع شهر يونية جاء النبأ من عاصمة الإيطاليان بان حركة الدراويش حول ذلك الصقع ظاهرة ، وتأهبهم للوثبة لا يؤخره إلا ورود كتب التعايشى ، وأن(الرأس ألوله) أحد رؤوس الحبشان يتقدم بعساكره نحو التيجرى . وأن الجنرال باداتيرى[١٦٨] قائد الجيوش الإيطالية هناك يهيء أسباب الدفاع عن(عدوه)

---

(١٦٥) الشامات = بلاد الشام .

(١٦٦) سيمود = سيمور ــ المقصود هو الأميرال بوشامب سيمور seymour قائد الأسطول الإنجليزى الذى ضرب الإسكندرية يوم ١١ يونيو ١٨٨٢ .

(١٦٧) ثلاثة = إثنين .

(١٦٨) باداتيرى = باراتيرى .

وأديكرات[١٦٩] ـ قـالوا ولـمـا أن تحـقـق للجـنـرال باداتيـرى[١٧٠] أن قـوة العـدو تكاد تستـخلص منه كسلا عنوة وخشى عاقبة متترسة[١٧١] فيها عمد إلى مزايلتها والزحف بجيوشه إلى خور رحب[١٧٢] التى لا تبعد إلا قليل عن بربر. فوقف له الدراويش بالمراصد وأذكوا عليه العيون وقاتلوا طلايعه عند بحر عطبرة . يقال فكانت خسائر الفريقين قليلة . وجاءت كتب التعايشى إلى أمير بربر بصنع مائة الف جبة للدراويش ، فلب[١٧٣] الأمير إشارته ورسم بصنعهم ، وشدد على الصناع فى ذلك . ووصل خبر كتب التعايشى إلى قتئد[١٧٤] العساكر الإيطالية فأكبره وأعظمه جدا ، وأيقن أن القوم على عزم استخلاص كسلا واسترجاع ما بأيدى الإيطاليان . وإلى هذا الحين لم يكن ليقف تعدى جماعة الإيطاليان على ما هو داخل فى تخطط[١٧٥] التخوم المصرى عند حد . فقد كانوا

---

(١٦٩) منذ أن إحتل الإيطاليون ميناء مصوع فى عام ١٨٨٥ وهم يرنون بأبصارهم تجاه أثيوبيا التى كانت تتعرض لمتاعب داخلية وخارجية فى عهد الامبراطور يوحنا ـ فى ١٨٨٩ تمكنت إيطاليا من إحتلال أسمرة عاصمة أرتيريا ، وبعد هزيمة إمبراطور أثيوبيا على يد المهديين فى (القلابات) فى مارس ١٨٨٩ تمكن الإيطاليون من الوصول إلى الأطراف الشمالية لأثيوبيا وضموا كل إقليم(باغوص) إلى سلطتهم ـ ولم يمضى شهر أكتوبر ١٨٨٩ حتى كانوا قد أحتلوا مناطق كثيرة من هضاب (تيجرى) الشمالية . وفى عام ١٨٩٠ استولوا على كل (أريتريا) وهزموا المهديين فى أجوردات فى يونيو ١٨٩٠ودعموا سيادتهم على (أريتريا) . وفى يوليو ١٨٩٤ إستطاع الإيطاليون طرد المهديين من (كسلا) واحتلالها تطبيقا لاتفاقهم مع إنجلترا (١٥ ابريل١٨٩١) وراحوا يوسعون أملاكهم غربا تجاه السودان الأوسط . فى ديسمبر ١٨٩٤ إنتلعت الثورة فى مستعمرة أريتريا ضد الإيطاليين فقرر الأخيرون الزحف على (عدوه Adoua) عاصمة تيجرى بقيادة (الجنرال باراتيرى) حاكم أريتريا ، وذلك بعد سحق الثورة فى أريتريا ـ وفى ٢٨ ديسمبر ١٨٩٤ دخلت القوات الإيطالية (عدوة)ثم مالبثت أن أحتلتها . عادت المشاكل تظهر من جديد عندما بدأ (منليك الثانى) إمبراطور أثيوبيا يناوش الإيطاليين فى بدايات عام ١٨٩٥ بهدف الزحف على أريتريا وطردهم منها ـ كان الإيطاليون فى ذلك الوقت قد ضموا (مملكة تيجرى) إليهم . إتفق منليك فى أبريل ١٨٩٥ مع (التعايشى) على مقاومة الإيطاليين ـ وفى ديسمبر ١٨٩٥ تمكنت القوات الأثيوبية بقيادة الرأس (ماكونين) حاكم (هرر) من هزيمة قوات الجنرال(باراتيرى) فى (أمباالاجى) ـ الأمر الذى أدى إلى إنسحاب الإيطاليين من (عدوة) عاصمة تيجرى ، وفقد نفوذهم تدريجيا فى شرق أفريقيا .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ص ١١٠ ـ ١١٩ .

(١٧٠) باداتيرى = باراتيرى .

(١٧١) متترسة = تترسه .

(١٧٢) رحب = رجب .

(١٧٣) فلب = فلبى .

(١٧٤) قتئد = قائد .

(١٧٥) تخطط = خط قراءة إجتهادية .

فى نزاع دائم مع قبيلة الحباب الضاربين حول مصوع ، فكان رجال هذه القبيلة لا يحجمون عن دفع الإيطاليان وردهم على أعقابهم كلما هموا بتجاوز الحدود . فلما تحقق[١٧٦] أنه إذا ظل على مناوشة الحباب وظلوا هم وقوف لعساكره بالمراصد تعذر عليه رد غارة الدراويش والندب[١٧٧] عن كسلا ، أرسل كتبه إلى سردار العساكر المصريه يطلب تحديد التخوم بين ما هو تابع للإمارة المصرية وما هو تابع للإيطاليان عند فرضة مصوع . وجاءت كتب محافظ سواكن إلى ديوان الوزارة فى صدد ذلك أيضا منا[١٧٨] لأسباب الخصام . فوقع الإتفاق على ذلك وقام على ظهر الباخرة (مخبر) إلى(غقيق) والجهات الواقعة قرب(رأس كساده) طايفة من العساكر المصرية وضابطين من الإنجليز ، وعشرة من الفرسان وثلاثين هجانا وسبعين من المشالا[١٧٩] ومعه[١٨٠] كبير من الإنجليز . أخبرنى ثقة من المقربين إلى جماعة الإنجليز بديوان الحرب أن الإيطاليان ربما لا يكتفون بهذا التخطيط الذى أعيا البلاد أمره ويتجاوزونه إلى طوكر وسواكن . قال . وربما يجعلون تخومهم أسوار وحصون سواكن . أو أن ولاة الأمور منا يوفقون إلى وضع حد لمطامع أولئك الإيطاليان فتزول عن البلاد هذه المحنة . وأصبح يوم الإثنين عاشر الحجة من السنة ، أى سنة إثنتى عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، وثالث يونية من السنة ، وثان عشرى بشنس سنة إحدى عشرة وستمائة وألف وقد أطلقت المدافع من ثلعة[١٨١] الجبل إيذانا بعيد الأضحى ، وكان الأمير فى ذلك اليوم بمصيفه بالإسكندرية كما تقدم القول . فعملوا التشريفة الكبرى بقصر رأس التين ، ودخل المهنئون على الأمير فهنأوه بالعيد على الرسم والترتيب المعتاد ، ووردت إلى قصر الإمارة يومئذ رسائل التهانى من

(١٧٦) المقصود هنا هو قائد العساكر الإيطالية .
(١٧٧) الندب = الذب .
(١٧٨) منا = منعا .
(١٧٩) المشالا = المشاه .
(١٨٠) ومعه = ومعهم .
(١٨١) ثلعه = قلعة .

كل صوب . وأقام الأمير مع حاشيته ورجال ديوانه بقصر رأس التين ثلاثة أيام العيد ، ثم إنتقل إلى قصر المنتزه . وما إنقضت أيام العيد حتى جاءت الأنباء على أصحاب صحف الفرنسيس بوصول بعثة إفرنسية كبيرة إلى بحر الغزال مؤلفة من بعض رجال العلم وبعض رجال الحرب وأنها ستحتل تلك الأرجاء الشاسعة إحتلالا عسكريا دائما . فلما شاع خبر ذلك ونقله أصحاب الصحف الإنجليزية قام جماعة الإنجليز بوزارتى الحربية والداخلية وقعدوا . وسير السردار عيونه إلى تلك الأنحاء ، وأقعد لأولئك الفرنسيس من يرصدونهم فلم يظفروا بهم . وخلصوا جميعا إلى «فشوده» ، فكتم السردار عن ديوان الأمير وديوان الوزارة ما وصل اليه من أخبار تلك البعثة ، وظل على الكتمان أياما حتى أباحه صاحب السياسة الإنجليزية .فسير به إلى ديوان الوزارة .وانح(١٨٢) أصحاب صحف الإنجليز باللائمة على دولة الفرنسيس وأشبعوا صاحب سياستهم وخزا وتقريعا . ونادوا بالويل والحرب منهم ، فلم يرد عليهم أصحاب صحف الفرنسيس وكأنه موعز إليهم بذلك . فبرز لهم بعض أصحاب الصحف الإيطالية وعابوا على الإنجليز أنانيتهم وجشعهم وسفهوا أخلاقهم ، فعز عليهم إنتقاد الإيطاليان للفرنسيس ، وأكبروا إنكار الإيطاليان ما للإنجليز عليهم من الأيادى البضاء(١٨٣) ، وكيف أنهم قد أحسنوا على الإيطاليان بفرضة مصوع والصومال ، ولم يطلبوا منهم جزاءاً ولا شكورا . ثم كيف أن صاحب السياسة الإيطالية قد خان العهد ولم يدخل عساكره فى معمعان الحرب مع العرابيين ، ولم تنضم سفنه إلى السفن الإنجليزية فى تخريب مدينة الإسكندرية . قال ذلك كله صاحب الإستندارد وأطال القول . فرد عليه صاحب الندره(١٨٤) الإيطالية يقول (نحن لا نستطيع وأيم الحق أن نوافق صاحل(١٨٥) الإستندارد على زعمه أن

(١٨٢) وانح = وأنحى .

(١٨٣) البضاء = البيضاء .

(١٨٤) الندرة = الندوة ـ قراءة ترجيحية . والمقصود بصاحب الندوة الإيطالية ـ رئيس المجلس النيابى الإيطالى .

(١٨٥) صاحل = صاحب .

الذى نحن فيه الآن من الموقف الحرج والمسلك المخيف فى مستعمراتنا الإفريقية هو بمثابة جزاء لنا وقصاص على رفضنا الإشتراك مع السادة الإنجليز فى تخريب الإسكندرية[١٨٦] ، وقد كان الأحرى بذلك الزميل أن يعد نفسه سعيدا لأن يرى أن أمة شابة شريفة حرة كالأمة الإيطالية تساعدهم[١٨٧] على تخريب مدينة تخريبا ليس له فائدة مادية ولا أدبية ، وتجرح بذلك عواطف شعب لا يدعوها أدنى سبب إلى الأساءة إليه وإهانته ، بل على عكس ذلك يجب أن تحترمه وتحبه لتوفر الدواعى الداعية إلى إحترامه ومحبته . فرفض الإشتراك فى تخريب الإسكندرية كان إذان[١٨٨] عملا سريعا[١٨٩] كله شهامة صادرة عن أمة شابة ذات وطنية عاليع[١٩٠] كإيطاليا . وقد صاننا هذا الرفض والإمتناع عن حقد القوم المصريين وأبقى لنا مودتهم التى سنجنى منها يوما من الأيام ثمارا شهيا جميلا .

---

(١٨٦) عندما توترت العلاقات بين ثوار سبتمبر ١٨٨١ والخديو توفيق خلال النصف الأول من عام ١٨٨٢ بصفة عامة ، بدأت بريطانيا وفرنسا فى التدخل فى الشئون الداخلية المصرية ـ فأرسلتا مذكرتهما المشتركة (٧ يناير ١٨٨٢) بتأكيد سلطة الخديو وبذل الجهد المشترك لمقاومة أسباب المشاكل الداخلية والخارجية . استاء ممثلو ألمانيا والنمسا وإيطاليا من المذكرة وقابلوا رئيس النظار (شريف) وعبروا له عن سخطهم من إنفراد إنجلترا وفرنسا بالعمل فى مصر ، وعبرت كل من ألمانيا والنمساوإيطاليا وروسيا فيما بعد عن رغبتهم فى أن يكون للدولة العثمانية دور هام فى قضية مصر ـ فأرسلت فى ٢ فبراير خطابا مشتركا إلى الدولة العثمانية جاء فيه أنها (الدول الأربع) ترغب فى المحافظة على الأوضاع القائمة فى مصر طبقا للمعاهدات الأوروبية القائمة والفرمانات السلطانية . غير أن إنجلترا وفرنسا إتفقتا على أرسال أسطول مشترك إلى مياه الاسكندرية فى مايو ١٨٨٢ وأعقبتاه بإرسال مذكرتها المشتركة للخديوى بإبعاد عرابى وزملاءه عن البلاد واستقالة وزارة البارودى . أدى هذا الإجراء إلى زيادة استياء النمسا وروسيا وإيطاليا على اعتبار أنه لا يتمشى مع ما سبق الإتفاق عليه من حيث ضرورة التفاهم مستقبلا حول شئون مصر . وقررت الحكومة الإيطالية الإشتراك فى أى تدخل فعال وإتخاذ الخطوات اللازمة لحماية رعاياها ـ وتم حشد الأسطول الإيطالى فى مسيناMessina ، وأعلنت الحكومة الإيطالية أن قوة بحرية إيطالية على أستعداد للعمل . لكن الحكومة الإيطالية كانت عازفة عن المشاركة فى التدخل فى مصر . وأبدت هذه الحكومة وكذلك الصحافة الإيطالية عطفا واضحا على الحركة الوطنية المصرية . فقبل يونيو ١٨٨٢ وصفت صحف أوبنيونى (opinione) وديريتو (Diritto) وراسينا (Rassegna) عرابى بأنه حامل لواء إستقلال مصر وحرياتها ـ وهاجمت محاولات إنجلترا وفرنسا القضاء على الحركة الوطنية المصرية . وفى أوائل يوليو ١٨٨٢ صرح مانشينى (Mancini) فى البرلمان الإيطالى بأن بإيطاليا تحترم النظم الوطنية المصرية وأن على أوروبا أن لا تمس الإدارة الداخلية فى مصر .
ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى (مصر والمسألة المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(١٨٧) تساعدهم = لا تساعدهم أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١٨٨) إذان = إذن .

(١٨٩) سريعا = شريفا .

(١٩٠) عاليع = عالية .

ثم إن رفض إيطاليا بأن تتحول فجأة من دولة محررة حديثا إلى دولة تطلق القنابل وتخرب المداين قد كان علامة مودة للمصرين وليس دليلا على عدم إكتراثها بالأمة المصرية . وبذلك كانت الدولة الإنجليزية طليقة اليدين فى عملها حرة بأن تحتمل تبعات ما كان قط ضروريا ولا ذا خطر ، ولكنه بقى عملا مكروها ممقوتا فى عين التمدن والحضارة . أما نحن معاشر الإيطاليان فلم يستطيع[١٩١] الإنجليز أن يفرضوا علينا القيام به والإشتراك فيه معهم . وفضلا عن ذلك فإن مشاركتنا فى تخريب الإسكندرية لم تكن مطلوبة بإلحاح من أولئك القوم الإنجليز إلا لتحملنا أثقل الأحمال وأعظم النفقات والتكاليف ، والناس فى إيطاليا لا يزالون يجهلون هذا الأمر . فها نحن قد جهزنا[١٩٢] . فليعلمه[١٩٣] كل من غاب عن ذهنه إدراكه . أجل قد عرضوا علينا شرف المداخلة بجيوشنا وجرها إلى المذابح فداء عن جنوده[١٩٤] ، وذلك كله دون أن يكون لنا أدنى حق فى المشاركة بالإحتلال ، ولا فى تنظيم الشئون والأحوال فى ديار الفراعنة الأولين ، فكأنهم عافاهم الله يريدون أن يستأجرونا إستئجارا وأن يحصروا كل أمر فى بلادهم وأن يستحوزوا[١٩٥] على كل فائدة وربح دون أن نتال منها مثقال ذرة ، وبس[١٩٦] صفقة الغبون . وعليه فان مسئوليةأعمال هؤلاء القوم واقعة عليهم وحدهم لا شريك لهم فيها ولا رقيب . أما ما يقولونه من أن وزارة منشينى[١٩٧] أبت المساعفة على تقرير السلام وتسكين الأحوال فى ديار

---

(١٩١) يستطيع = يستطع .

(١٩٢) جهزنا = جهرنا   قراءة إجتهادية .

(١٩٣) فليعلمه = فليعلم

(١٩٤) جنوده = جنودهم

(١٩٥) يستحوزوا = يستحوذوا .

(١٩٦) وبس = وهذه   قراءة ترجيحية .

(١٩٧) منشينى = مانشينى (باسكال ـ ستانيسلاس) Mancini (Pascal - Stanislas) ـ شخصية سياسية إيطالية (١٨١٧ - ١٨٨٨) ـ ولد فى كاسل بارونيا Castel Baronia وتوفى فى كابوديمونت Ca-podimonte . ينسب إليه كتاب La vie des peuples dans L'humanite . كان أحد رؤساء الحزب الليبرالى الإيطالى .

- Larousse Universel Vol. I. p. 148.

المصريين فهو ضرب من الافك والبهتان ومحض كذب لا تشوبه ذرة من الحقيقة . ذلك لأن الرجل كان يريد الإسعاف المطلوب ، ولكن ليس على تلك الشروط الجائرة التى لا يمكن قبولها ، والتى كانت إذا قبلت بها إيطاليا صارت أشبه بمن يحرق أصابعه ليطعم غيره . قال وفيما عدا ذلك قال[١٩٨] ساداتنا الإنجليز قد أظهروا منذ أيام الإحتلال الأول[١٩٩] ما كانوا عاقدين النية على عمله . فقد أفقدوا مصر سودانها ، وصرفوا رجالها طوع أغراضهم ، وطردوا جميع الإيطاليان أخواننا الذين كانوا فى الوظائف المصرية . وهذا الجزاء الذى جازوا به أنصار المساعفة المجيدة التى كانوا يدملونها[٢٠٠] وإن تكن بدون خطر على ضرب الإسكندرية وتخريبها[٢٠١] أ .هـ قلت فتأمل كيف كانت الأحوال تدار بطرق وأسباب خفية لتخريب الإسكندرية واحتلال البلد فى ذلك العهد ، عهد الثورة وخروج عرابى ومن كان معه عن طاعة أمير البلاد .

وفض المسيو كوكوران عنه وعث الخمول والإستكانة منذ توليه منصب الوكالة السياسية عن دولة الفرنسيس ، وظهر للملأ بعد أن كان يحض أصحاب صحفهم على مشاغبة أهل الإحتلال من وراء الستار . وجعل يحض نزلاء الفرنسيس على الشكوى إلى المسيو بريسون صاحب دار ندوتهم من قفل أبواب السودان فى وجه تجارتهم ومنع كل وارد منها ، على حين أن الهدوء شامل أنحاء التخوم وأصحاب المهدوية لاهون بانعكافهم على الزرع لدفع المجاعة الضاربة فى جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فحرروا[٢٠٢] محضرا وسيروا به إلى ذلك الزعيم يقولون(نحن الموقعين بأسمائنا على آخر هذه العريضة التجار

---

(١٩٨) قال = فإن .

(١٩٩) الأول = الأولى .

(٢٠٠) يدملونها = يأملونها .

(٢٠١) وإن تكن بدون خطر على ضرب الاسكندرية وتخريبها = جاءت الجملة غير متسلسلة مع باقى حديث رئيس البرلمان الإيطالى ـ وقد استبعدتها لكى يستقيم النص ـ كما أن استبعادها لا يخل بالسياق .

(٢٠٢) فحرروا = يقصد (نزلاء الفرنسيس) .

الفرنساويين المقيمين فى القطر المصرى ، نتشرف بأن نلفت أنظاركم إلى الضرر الجسيم الذى حصل لتجارتنا وتجارة مصر كلها من منع العلاقات التجارية مع السودان منها وجد وثبت[٢٠٣] منذ الإحتلال الإنجليزى ، لغاية ليس من شأننا البحث فيها . وإن السودانين بالرغم عن كل الموانع القائمة فى وجههم ليجهدون بأن يدخلوا بضاعتهم إلى القطر ، كأن[٢٠٤] المصريين لا يعوقهم عائق عن بذل كلما فى وسعهم لتجديد عقد الصلات التى قطعت منذ مدة طويله مع السودان . ولا نجد سببا كافيا يقضى بأن تستمر هذه الحالة على ما هى عليه . ولذلك نلتمس من تفضلك ونفوذك لدى حكومتنا الفرنساوية أن تحثها على التداخل سياسيا لترجع فى أقرب وقت ممكن تلك المعاملات التجارية التى كانت مصر تجد منها فى أصعب أيامها منبع ثروة وغناء . ونحن واثقون أن حكومتنا ستكون مستعدة كل الإستعداد لقبول ملتمسنا الشرعى هذا ، وأنه لا يضن[٢٠٥] ببذل كل جهد للحصول على حل موافق للأمانى التى نعرضها ، وجميعها فى مصلحة التجار الفرنساويين المقيمين فى هذه الديار وفى مصلحة مصر بأسرها) أ .هـ .

فما أن نشرت صحفهم خبر هذه الشكوى وبنت عليها الأمانى الكبار ، حتى هب أصحاب الصحف المحلية المحازية[٢٠٦] لسياسة الفرنسيس وجعلوا يبدون ويعيدون ويبنون على هذا الجدار المتداعى العلالى والقصور ، ويستعطفون بريسون[٢٠٧] ودى لانكل[٢٠٨] ومن جرى مجراها[٢٠٩] إلى مساعفة

---

(٢٠٣) منها وجد وثبت = الكلمات لا تتفق مع سياق الكلام ـ وقد استبعدتها ليستقيم النص .

(٢٠٤) كأن = كما أن   قراءة ترجيحية .

(٢٠٥) وأنه لا يضن = وأنها لا تضن .

(٢٠٦) المحازية = المحازبة .

(٢٠٧) بريسون = رئيس المجلس النيابى الفرنسى .

(٢٠٨) لا نكل = لو نكل .

(٢٠٩) مجراها = مجراهما .

المصريين ، ومناهضة القوم الإنجليز علهم يقلعون عن غيهم ، وينكبون عن قصدهم . وظهر فى هذه الآونة شابا أسمه مصطفى كامل من متخرجى مدرسة الحقوق مملوءا غيرة وشعورا حيا ، فاجتمع بديلونكل[٢١٠] زعيم متطرفى الفرنسيس فى دار ندوتهم ، وتناجيا فى أحوال الوقت وفى كيفية الخلاص من دبقة[٢١١] الإحتلال وسيطرة القوم الإنجليز ، ولازمه أياما حتى تعارفا جيدا وتأكدت الصحبة بينهما ، ثم أظهر مصطفى كامل اللحاق بدى لونكل فى دياره ليدبروا على كيد أصحاب الإحتلال يقال فوقع خبر لحاقه بدى لونكل من الأمير أحسن المواقع لما يرجوه من التغلب على لورد كرومر ورد كيده وعناده المستديم .إذ بلغت قحة الرجل وغلظته وكيده وتحرشه بعرش الإمارة مبلغا عظيما . فغاب مصطفى كامل أياما وعاد . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قامت ضجة من كل صوب وحدب بأن قد تألف فى البلاد حزبا سموه بالحزب الوطنى وأن قد تولى زعامته مصطفى كامل وهو يقنن لأعضائه القوانين ويشرع الشرائع التى سيعرف بها بين العالمين . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ،فأعجب الناس به كإعجابهم بأحمد عرابى يوم خروجه وأقبلوا على دعوته . فجعل مصطفى كامل يحفل الحفلات ويقف بين الناس خطيبا فيحثهم على الإتفاق ووحدة الكلمة والقيام بتعميم هذه الدعوة . وكان فى خطبه يشير من طرف خفى إلى رضا الأمير عن هذه الدعوه عند ما تأدى اليه خبر ظهورها .فأقبل الناس عليه وجعلوا مقاله حديث نهارهم وسمر ليلهم . وكان أول عمل أتاه أن رفع إلى رجال دار ندوة الفرنسيس عريضة موقعا عليها من بضعة آلاف من أهل البلاد ومعها رسم غادة مصريه فى ذى[٢١٢] لباس الفراعنة الأولين تمثل مصر مستغيثة ومستجيرة بجمهور الفرنسيس من سيطرة الإنجليز ،

---

(٢١٠)بديلو نكل = بدى لونكل Deloncle

(٢١١) دبقة = ربقة .

(٢١٢) ذى = زى .

وتسألها الخلاص من نير عبوديتها والحنان عليها .فما شاع خبر هذا الرسم وتناقله أصحاب صحف الفرنسيس حتى قامت ضجة الفرح فى طول البلاد وعرضها ، وفزع أصحاب صحف الإنجليز إلى أوليائهم فى سد تلك الفرجة المخيفة ، وحسم الداء المتوقع من جانب هذا الحزب الجديد . وقام أنصار الإحتلال ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . قيل فأخذت لود كرومر من جراء ذلك أخذت(٢١٣) من الغم . وأوعز إلى صنائعه أن يقعدوا إلى ذلك الزعيم بالمراصد ، ويزكوا عليه العيون . فكانوا أتبع إليه من ظله وأعلم بما ظهر من أعماله وما استتر ، حتى لقد كانوا إذا آنسوا منه تكتما أو ريبا من جانبهم أظهروا البراءة من أوليائهم واللحاق بحزبه . وجاء الخبر من عاصمة الفرنسيس على جناح البرق بأن قد تسبب عن شكوى المصريين حركة لتشكيل لجنة من رجال دار ندوتهم ذات نفوذ لنيل مساعفة أوروبا لإجلاء الإنجليز عن مصر ، وتقرير عزلتها وعزلة مجرى النيل .قالوا وأن أصحاب صحفهم هناك متكلين على مساعدة دولة الروس ، وأن قد وضع رئيس دار الندوة عريضة المصريين فى محضر أعمال جلسة .

فلما كان ثامن عشر يونية من السنة إجتمعت تلك اللجنة للمرة الأولى برياسة المسيو ديلوس مونتو . فوقف الرئيس بين الحاضرين وقال أن هاته اللجنة ستجتهد فى أن تبرهن لأوروبا علي أن المصريين أهل لأن يحكموا أنفسهم . قالوا ثم أنه أثنى على حكمة الأمير ودرايته ، وامتدح حسن مسلك المصريين . وختم كلامه بأن حل المسألة المصرية صار من مواجب الحالة الراهنة . فما وصل خبر هذا القول إلى مصر وتفشى بين الناس حتى تقوت عزائم دعاة الحزب الوطنى وانفسحت دعوتهم . وسافر مصطفى كامل إلى ديار الفرنسيس يحمل كتابا أو هى كتبا إلى كبار القوم فى دار الندوة . وظهرت حركة فى أفكار

---

(٢١٣) أخذت = أخذة .

الناس لم تكن تعرف عنهم من قبل . قيل وكتب لورد كرومر كتابا مرا فى شأن الحزب الوطنى وزعيمه إلى صاحب سياستهم ، وكلم الأمير أيضا فى ذلك طويلا حتى أخذته الحدة وكادت تخرجه عن حد اللياقة والتجمل . فكان الأمير يتنصل مت[٢١٤] تبعة ذلك ويقول أنه بعيد عن مذاهب الأحزاب ، وأن عرش الإمارة أكبر من أن يحاط بحزب أى[٢١٥] كانت سياسته . أقول زارنى صديق من الكبار المفكرين فقلت له لا أشك فى أن قد زاد تفكيرك فيما سيكون من وراء ظهور هذا الحزب المبارك من الخير للبلاد وأهلها إن شاء الله . فقال يقولون أن(دى لونكل) (ولا نيسان) (وكاساتياك) وغيرهم من أعداء الإنجليز المناهضين للإحتلال فى دار ندوة أولئك الفرنسيس ، قد نهضوا اليوم نهضة الأسد الرابض فى عرينه يضيقون على الإنجليز المذاهب ، ويعملون على إذهاب ريحهم وثل عروشهم فى هذه الديار . ويقولون أن الله تعالى قيض لخلاصنا حزبا رشيدا حكيما ، قام على رأسه شاب حر الشمايل قوى المرائن ، فالقول مليح والغاية شريفه بلا جدال ، ولكنى لا أكتمك ما فى نفسى ولا أغرر بك . فأما أولئك الفرنسيس على ما هم عليه من الصرصرة التى أوجدوا السبيل بها على أنفسهم حتى ذهبت الثقه بهم وخابت الآمال فيهم ، فإنى لا أنصرف عن الميل عنهم ، ولا أذهب مع الأغراض فيهم حتى أراهم قد عادوا قوالين فعالين عاملين بما كان[٢١٦] سياستهم من التقليد[٢١٧] القديمة التى مدنوا بها المدن ، ومصروا الأمصار وأجادوا[٢١٨] المستجير ، ونصروا المظلوم ، ودفعوا كربة المكروب وغير ذلك من آيات الفخر القديم . وأما وقد ظهر ذلك الحزب الرشيد وعلى رأسه ذلك النابغة الحر ، فإنى أشفق انه ريتم[٢١٩] ظهوره ويكثر عديد

---

(٢١٤) مت = من .
(٢١٥) أي = أيا .
(٢١٦) كان = كانت عليه   قراءة اجتهادية .
(٢١٧) التقليد = التقاليد .
(٢١٨) واجادوا = وأجاروا .
(٢١٩) ريتم = ما أن يتم   قراءة اجتهادية .

رجاله بانفساح دعوته حتى يذهب مع الأغراض ويمل[٢٢٠]عن قصد السبيل ، وربما ماجت به سماسرة البغى والباطل ، وكان سببا للتفريق وتعدد الأحزاب . وأنت تعلم أن البـلاد لم تزل فى مـهـد الحـفـاوة[٢٢١] بعـد ، وأهل هذا الجيل لم يبلغوا شأوا بعيدا فى الرقى ومعرفة سياسات الأمم ومذاهب الأحزاب وحاجيات الوطن ، وأخشى أن تقع المغاضبة يوما بين أفراد هذا الحزب وبين أهل الإحتلال من أصحاب المناصب والخطط ، أو بين بعضهم البعض فتكبر يومئذ حجة الخصوم على أننا لسنا فى إستعداد لشىء من نعم هذا الزمان ، وينشبون أظفارهم فى ما بقى للبلاد على قتله[٢٢٢] ، ويمكنون أقدامهم فى مواقفهم .وكلما زدناهم مشاغبة إزدادوا ضغطا وإيلاما ، فتتحرج الصدور ، وتكبر المغاضبة ، وربما ثارت الفتنة . فكما دخل القوم البلاد وبسطوا عليها أيديهم من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى مغربها بظهور حزب الجند وعلى رأسه أحمد عرابى الحر التقى ، قطب ذلك العهد ، فكذلك يتم لأولئك القوم ما بقى من نفوسهم من الآمال على يد مصطفى كامل النابغة الحر ، وتكون هذه وتلك سواء . أى بأحمد عرابى إفتتحوا وبمصطفى كامل إختتموا .وأنت تعلم أن الطفرة محال . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . فقلت ياسبحان الله أبنى[٢٢٣] أنت؟ قال أستغفر الله وأتوب اليه ، والله ما هى إلا رجفة تتولانى فاهرى[٢٢٤] كلما قامت ضجة إعجابكم بهتر أولئك النفر وصخبهم على منابر ندوتهم وصفحات صحفهم . أى نعم ولقد سمعت عام ثمانين وثمنمائة وألف

---

(٢٢٠) ويمل = ويميل

(٢٢١) الحفاوة = الحضارة قراءة اجتهادية .

(٢٢٢) قتله = قلته .

(٢٢٣) أبنى = أنبى .

(٢٢٤) فاهرى = إستبعدت الكلمة لغموضها ــ وهى لا تمس مجمل المعنى على أى حال .

هذه الصيحة بعينها من جريجورى وبلنت(٢٢٥) وبارنل(٢٢٦) وغيرهم من متطرفى دار ندوة الإنجليز وقد ملؤا بها المعمورة فى مدح أحمد عرابى والثناء على حكمه وحسن تدبيره والتغنى برزانة المصريين واعتدالهم ، ثم رأيتهم يحضون أحمد عرابى على تأييد الدستور وتوسيع نطاق شورانا ، ثم على شق عصا طاعة أمير البلاد ، ثم على الإقتتال مع الإنجليز حتى كان ما كان مما لم يغب ذكره عن الأزهان(٢٢٧) ، ووقعت البلاد فى هذا البلاء الدائم والكمد الملازم . ومع ذلك فقد كنا نرى السواد الأعظم منا يؤلهون ذلك الخارجى(٢٢٨) ، ويلتفون حول

---

(٢٢٥) بلنت = ولفرد سكاون ، بلنت Blunt, Wilfnd Scawn (١٧ أغسطس ١٨٤٠ ــ ١٢ سبتمبر ١٩٢٢ - شاعر ومستعرب Arabist إنجليزى . بعد الخدمة فى السلك الدبلوماسى ، كتب عاطفيا ضد الإمبريالية البريطانية في الهند ، إيرلندا - ومصر . ضم شعره The love Sonnets of proteus (١٨٨٠) ، The wind and the whirl wind (١٨٨٣) ، قصة شعرية قصيرة ، وترجمات من العربية ، كتب أيضا كتبا سياسية وسياحية عن العالم العربى . زار مصر لأول مرة عام ١٨٧٥ وغادرها فى ربيع ١٨٧٦ . عاد إليها فى شتاء ١٨٨١ مع إندلاع أحداث الثورة العرابية . رغم ما عرف عنه من صداقته للعرابيين والشيخ محمد عبده الأزهرى المستنير ، وتعاطفه مع القضية المصرية ، فإن بعض الباحثين أشار إلى تورطه فى السعى ضد الخلافة الإسلامية إستناداً إلى مجموعة من الخطابات المتبادلة بينه وبين زوجته ، وأنهما كانا ممالئين لوزارة الخارجية البريطانية ــ أقام بالقاهرة وكانت له ضيعة فى ضاحية المطرية .

- Lexicon Universal Encydopdia - Vol. 3, 340.

ــ أوراق مصطفى كامل ــ المقالات ــ الكتاب الثانى ــ إشراف وتحقيق يواقيم رزق مرقص ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٩٢ ــ ص ٢٤ حاشية ١١ .

(٢٢٦) بارنل = شالز سيتورات بارنل Parnell, charles Stewart - سياسى قومى إيرلندى (٢٧ يونيو ١٨٤٦ ــ ٩ أكتوبر ١٨٩١) حول الحكم الذاتى لإيرلندا من حلم غير عملى إلى هدف ممكن التحقيق . إنتخب بارنل المولود لأسرة بروتستنتية فى البرلمان عام ١٨٧٥ ، وحاز شهرته لدوره الهام فى قضية الحكم الذاتى لأيرلندا . ومع نهوضه للقيادة فى الحزب القومى الأيرلندى فإنه ارتبط بالتأييد الشعبى لإصلاحات الأراضى ، وأصبح رئيسا لعصبة الأراضى الأيرلندية عام ١٨٧٩ . ورغم أن الحكومة عاملته كمناصر للعنف ، فإنه أقنع الكثير من الفينيين Fenians (أعضاء الجمعية الثورية السرية ذات النشاط فى كل من أيرلندا والولايات المتحدة) لدعم المنهج الدستورى ، وفوق هذا فقد توصل إلى تفاهم غير رسمى مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، أدى إلى سبغ الشرعية على حركته وأرسى أسس الكنيسة الأيرلندية الحديثة . فى ١٨٨٥ فاز حزب بارنل بستة وثمانون مقعدا ــ وهو الرقم من الأصوات الذى يفرق بين الأحرار Libral والمحافظين Conservatives . أعلن ويليام جلادستون دعمه لقانون الحكم الذاتى وأصبح رئيسا للوزراء للمرة الثالثة نتيجة للدعم الأيرلندى . لكن مشروع القانون الذى قدمه جلا دستون عام ١٨٨٦ أدى إلى إنقسام حزبه الليبرالى ثم هزيمته بالتبعية ، ورغم هذه النكسة فإن بارنل ظل متألقا سياسيا حتى ١٨٩٠ عندما اضطرته فضيحة أخلاقية إلى التخلى عن رأسة حزبه ــ ثم ما لبثت أن توفى متأثرا بالضغوط السياسية والنفسية .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 15 p.96.

(٢٢٧) الأزهان = الأذهان .

(٢٢٨) الخارجى = يقصد أحمد عرابى ــ ويصفه بأنه خارج عن القانون .

عرشه وينادونه بأسماء أصحاب الكرامات ، وينعتونه بنعوت أهل المعجزات ، بينما كانت السيوف تحص الألفوف[٢٢٩] وأرواح الصبية ، بل أعراض الفتيات تشترى بكسرات من الخبز ، ورأس هذا البلاء العظيم والشقاء العميم يتمتع مما[٢٣٠] بين يديه من فاخر الطعام ولذيذ الشراب ، ويصر[٢٣١] أذنه على[٢٣٢] ما كانت تتغنى به العامة والخاصة من آيات المدح والإعجاب ، وما كانوا ينقلونه كافة عنه من الخرافات وخوارق العادات . أجل ظل أولئك النفر[٢٣٣] يخدعونه ويدفعونه إلى ركوب ذلك المركب الخشن وهو لا يلبس فى أمرهم ، ولا يسبه[٢٣٤] فى بدعتهم ولا يكذبهم فى ما ينتحلونه حتى أستلم[٢٣٥] لهم كارها لأميره ، غاضبا لسلطانه كافرا بنعمة خليفته ، بائعا لبلده مذلا لقومه . وهو إذ ذاك قطب الغوث ، بل المهدى المنتظر على رأس قرن[٢٣٦] التاسع عشر . فأخذوها منه باليسار وسلموها إلى رجالهم باليمين . فامتطوا صهوة التغلب عليها وصرفوا أحكامها طوع أغراضهم فى رجالها ، وجبايتها ، وأهل خططها ، وسائر نقضها وإبرامها . ثم إنظر كيف هم الآن متبوعى الرأى مسموعى الكلمة لا حول ولا قوة لنا على نفى ذلك عليهم ، ولا إسترجاع شيئا منه ، حتى لقد صرنا إذا طلبنا القليل أخذوا منها[٢٣٧] الكثير . والعجب من إخواننا قادة الأفكار وساداتنا مشايخ المتكلمين فى هذه الديار[٢٣٨] يجنحون إلى ترهات أولئك الفرنسيس المتطرفين ، ويرون رأيهم فى قدرة ذلك الحزب الوطنى على إجلاء

(٢٢٩) تحصى الألفوف = تحصد الألوف .
(٢٣٠) مما = بما .
(٢٣١) ويصر = ويشنف غيرت الكلمة لتتفق مع السياق .
(٢٣٢) على ما = بما .
(٢٣٣) المقصود هنا السياسيين الأجانب الذين أصابوا عرابى بالغرور عندما مدحوه وزينوا له ــ على حد قول ميخائيل شاروبيم ــ خروجه على الحاكم .
(٢٣٤) يسبه = يشتبه .
(٢٣٥) استلم = إستسلم .
(٢٣٦) قرن = القرن .
(٢٣٧) منها = منا .
(٢٣٨) الديار = الديار أنهم أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

القوم الإنجليز عن البلاد . فان كان ذلك لما هم عليه أهل هذا الجيل من التعصب والتعمق فى الوطنية كما يزعمون ، فليس ذلك بدافع عنهم ما هم كارهون ، ولا بالذى يغنى عنهم من الله شيئا فى إنتصارهم بدى لونكل وأعوانه المتطرفين . وإياك وعزلى ، فإنه متى عرف أمرؤ قضيته أو أستيقن أمرا ، وجب عليه أن يصدع به ، والله يقول الحق ويهدى السبيل(٢٣٩) .

فقلت أستغفر الله ، وعلى(٢٤٠) م العزل وكلانا يرجو السلامة لهذا الوطن الأسيف . وما هى عشية أو ضحاها حتى جاء الخبر على جناح البرق بأن اللجنة(٢٤١) قد عهدت فى جلستها الثانية إلى كل من رجالها بوضع تقرير عن كل فرع من فروع الإدارة فى ديار مصر . فعهدت إلى المسيو ديجان النائب بوضع تقرير عن قروض الدولة الفرنساوية فى مصر ، والنائب ديكوب عن الأشغال العمومية ، والنائب لافيرتوجون عن مصلحة الآثار ، والنائب كوتيرون عن الإصلاح القضائى ، والنائب يونك عن الجيش ، والنائب دى لونكل عن السودان ، والنائب كافيلو عن الخزينة ، والمسيو ليزورعن التجارة ، والمسيو كومب عن صلات مصر والحبشة ، والمسيو لورين عن الحركة الإسلامية ،

---

(٢٣٩) يحمل ميخائيل شاروبيم على الزعيم أحمد عرابى وحركته فى عام ١٨٨١ ـ ويتهمه بالإنسياق وراء نفاق السياسيين المتطرفين أمثال (بلنت) و (بارنل) ، و(دى لونكل) ، والخروج على الحكم الشرعى المتمثل فى الخديو توفيق ـ ويحمله مسئولية ما جرى للبلاد من وقوعها تحت الإحتلال البريطانى نتيجة قتاله للإنجليز . وفى هجومه هذا على عرابى ينعته (بالخارجى) ـ ويتهمه بأنه كان ينعم بخيرات الطعام ولذيذ الشراب بينما البلاد تزرح تحت القهر الذى كان يمثله عهده ، وينتهى إلى أن عرابى كان ساذجا انساق وراء المخادعين الأجانب حتى كفر بنعمة السلطان وخرج على سلطة الخديوى وأذل قومه .

ويستخدم شاروبيم فى مجال النقد الشخصى أسلوبا تميز به ـ هو الإحتماء وراء معان أخرى ـ أو تبطين روايات مختلفة لنفس الحادث أو نسب النقد والتحليل لغيره ـ كقوله (قال أصحاب التاريخ) و (حدثنى بعض من لهم دراية) أو (قال بعض الكتاب) أو (زارنى صديق من الكبار المفكرين) وكخط رجعة كان شاروبيم يعطى تقاريره صفة عدم القطعيه ـ كما يبدو من أسلوب كتابته هذا إدراكه التام لما لموضوعاته من إثارة للنزاع .

(٢٤٠) وعلى م = وعلام .

(٢٤١) اللجنة التي شكلتها مجموعة من أعضاء البرلمان الفرنسى فى ذلك الوقت للدفاع عن القضية المصرية .

والمسيو مارتينو عن بوغاز السويس ، وعهدوا إلى المسيوبنسا بوضع تقرير عام عن أعمال الإنجليز فى مصر منذ الإحتلال . فما شاع هذا الخبر وتناقله أصحاب الصحف حتى قامت ضجة الإستحسان من كل صوب ومكان ، وانفسحت آمال رجال الحزب الجديد ، وفرحوا بزعيمهم مصطفى[٢٤٢] كامل

(٢٤٢) مصطفى كامل = (١٤ أغسطس ١٨٧٤ ــ ١٠ فبراير ١٩٠٨) ــ ولد بحارة درب المبيضة بشارع شيخون بالصليبة بحى الخليفة بالقاهرة ـ كان والده على محمد من أسرة ميسورة الحال إشتغلت بالتجارة فى محافظة الغربية ــ تلقى على محمد علومه العسكرية بطره والخانكة وتخرج ضابطا مهندسا وعمل فى بناء الكبارى والثكنات فى عهد محمد على وأدرك عهدى عباس وسعيد ــ وأحيل إلى الاستيداع فى عهد إسماعيل لكنه عمل مهندسا مدنيا بنظارة الأشغال حتى بلغ سن المعاش عام ١٨٧٧ . أما أمه فهى السيدة حفيظة كريمة اليوزباشى (نقيب) محمد فهمى ــ أتم مصطفى كامل حفظ القرآن الكريم فى السابعة من عمره وتلقى تعليمه المبدئى فى مدرسة (أم عباس) ومدرسة (السيدة زينب) و (مدرسة القربية) حيث نال فى الأخيرة الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧ وكان فى سن الثالثة عشرة ــ إلتحق بالمدرسة الخديوية عام ١٨٨٧ حتى ١٨٩١ ونال الشهادة الثانوية منها ــ ثم إلتحق بمدرسة الحقوق الخديوية ــ وبعد عام واحد إلتحق أيضا بمدرسة الحقوق الفرنسية واستطاع الحصول على شهادة الحقوق من جامعة تولوز Tou-louse بفرنسا فى نوفمبر عام ١٨٩٤ وكان فى سن العشرين . وتقول بعض المصادر أن الخديو عباس كان ينفق على تعليمه فى فرنسا ــ إتصل مصطفى كامل بعباس حلمى (خديو مصر) وساهم فى تنظيم تابع لـه لمناهضة الإنجليز تكون من الصفوة السياسية المثقفة Intellectual political elite ــ وسافر إلى فرنسا للدعوة لاستقلال مصر وجلاء المحتل . ولقى من شخصيات سياسية فرنسية بارزة الكثير من الدعم والتأييد . كان يرى أن مصر جزء من الدولة العثمانية ، ودافع عن (فكرة الجامعة الإسلامية) التى لقيت تأييداً من السلطان العثمانى الذى منحه رتبة المتمايز (البكوية) والنيشان المجيدى عام ١٨٩٩ـ ثم رتبة الباشوية عام ١٩٠٤ــ أسس جريدة اللواء عام ١٩٠٠ وقام بحركة دعاية واسعة النطاق للقضية المصرية ــ تعاون مع فرانسو دى لونكل عضو الجمعية الوطنية الفرنسية من أجل الدعاية للقضية المصرية فى فرنسا ثم اختلفا لتباين اتجاهاتهما . أتصل بجولييت آدم Juliette Adam صاحبة مجلة لا نوفيل ريفيو Lanouvell Revue ــ إعترت علاقته بالخديوى الفتور ثم انتهت إلى القطيعة بسبب تذبذب مواقف الخديوى من القضية المصرية وملاينته للإحتلال وكان ذلك خلال الفترة (١٩٠٤ - ١٩٠٦) . ألف الحزب الوطنى فى ديسمبر ١٩٠٧ وكانت مبادئه الإستقلال التام للبلاد وفق مقررات معاهدة لندن ١٨٤٠ ــ إيجاد حكومة دستورية للبلاد تكون مسئولة أمام مجلس نيابى ــ إلى جانب مبادئ أخرى . ألف كتابا بعنوان (المسألة الشرقية (ابريل ١٨٩٧) ــ وآخر عن اليابان بعنوان (الشمس المشرقة ــ القاهرة مطبعة اللواء ١٩٠٤)

ــ عبد المنعم الجميعى (الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ١٨٩٢ ــ ١٩١٤) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٢٣ــ ١٩٦ .

ــ فتحى رضوان (مصطفى كامل) سلسلة إقرأ رقم (٣٩٠) ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ديسمبر ١٩٧٤ .

ــ جاك كرابس جونيور (كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر) ــ مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠١ـ٢٢٦ .

وأكبروا شأنه وعظموه ، وأسندوا إليه كل هذا النجاح الباهر ، واستيقنوا فلاحه وانتصاره على القوم الإنجليز ، رغما عما جاءت به الأنباء بسقوط وزارة الأحرار الإنجليز ، وقيام وزارة المحافظين الذين هم أنصار الإستعمار ، وأصحاب الفتح وامتلاك ما وراء البحار . وعندى أن تأثير هذا الإنقلاب العظيم من نوعه لا يلحق بمصر فى الحال تغييرا مهما ، ولا إنقلابا سريعا تبقى سياسة المحافظين على ما كانت عليه سياسة الأحرار ، أى فى مجرى التعسف والتثقيل حتى يخرجون من جهاد الإنتخابات العامة التى سينالون فيها الأغلبيه العظيمة . وحينئذ يعلم شأنهم ، ويظهر أن[٢٤٣] ما خفى من سرهم والله عليم بما سيكون .

ووافق يوم الإثنين رابع عشرى يونية سنة خمسة وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية ، وثامن عشر يونيه[٢٤٤] سنة إثنى عشرة وستمائة وألف للشهداء ، يوم أول السنة الهجرة[٢٤٥] الجديدة ، أى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وألف للهجرة . فأقبل الناس من كل صنف ورتبة على قصر الأمارة بالإسكندرية يهنئون الأمير بدخول العام الجديد . وأتت إلى ديوانه فى ذلك اليوم رسائل التهانى من مشرف[٢٤٦] البلاد ومغربها . وهنأ الشعراء بأرق أبيات التهانى وأمتنها ، وهنأ شاعر القصر بهذه القصيده[٢٤٧] .

---

(٢٤٣) أن ما = ما .

(٢٤٤) يونيه = بؤونه .

(٢٤٥) الهجرة = الهجرية .

(٢٤٦) مشرف = مشرق .

(٢٤٧) أورد الدكتور أحمد الحوفى من هذه القصيدة سبعة أبيات فقط هن مقدمة القصيدة ــ وكذلك فعلت الشوقيات ــ أما ميخائيل شاروبيم فقد قدم من القصيدة ٢٣ بيتا تتفق فى الخمس الأولى منها فقط مع الحوفى والشوقيات .

ــ أحمد الحوفى (ديوان شوقى) مرجع سبق ذكره ــ ص ٩٢ .

ــ الشوقيات ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٢ -١١٣ .

لا السر[٢٤٨] يطويه ولا أعفاء[٢٤٩] ليل عـداد نجـومـه رقـبـاء
داجى عباب اليم فوضى فلكه مـا للهـمـوم ولا لهـا أرسـاء
أغزالة الأشراف[٢٥٠] أنت من الدجى ومن السهاد لو آلتفت[٢٥١] شفاء
رفـقا بجفن كلمـا أبكتـه[٢٥٢] سـال العـقـيق به وقـام المـاء
ما مد أهدابا ولا صار[٢٥٣] الكرى الا وطيفك فى الكرى العنقاء
كان الغرير وكنت زهو عروسه فـخلون منك ونابت الأقـذاء
وحـسـرتهم ليـاليـا نهل الصبـا مـمـا افـضنا وعلت الأهواء
اجزلن فى منحى وعيشتى والمنى فى ظلهن الكأس والصـهـبـاء
وشغلن حتى قلت بدى أننى راو وأن العـالمـيـن ظمـاء
أبه عزيز النيل وافضى حقوقه وإلى وفـائك آل الأسـتـقـضـاء
ولأنت من يحنو عليه وهل حنت الا علـى أثارها الـكـرمـاء
بنيـان جدك أنت صور حولها عـال وأنت حـمـى لـه ووقـاء
تدرى المشارق من أقام جدارها والنيل يعـرف ذلك والبطحـاء
جـهـد الأبوه إن يكون كـمـثله والبـر إن يتـشـبـه الأبناء
فاحذ المثال وحط فتوح محمد با لرأى إن حـصـونهـا الآراء
ترقى اليك فتختفى الأعباء فع[٢٥٤] طور له من قـدره أعـبـاء
تسفى الرياح به إذا هى صادمت وتخـر فى هضـبـاته الأنواء
ومن الرجال مهذب مهما بدا أغضى الخصوم وأطرق الاعداء

(٢٤٨) السر = السهد .
(٢٤٩) اغفاء = الإغضاء .
(٢٥٠) الاشراف = الإشراق .
(٢٥١) لو التفت = إذا طلعت .
(٢٥٢) أربكته = أبكيته .
(٢٥٣) اهدابا ولاصار = هدبيه ليصطاد .
(٢٥٤) فغ = فى

عباس شهر المسلمين ودهرهم ومساؤهم بك والصباح هناء
بل ذاك عامهم الوليد يزفه لك والداه العز والسراء
فى المهد يهديك السعود جميعها فاقبل عيسى[٢٥٥] إن يسعد الأحياء
وعش رحيم القلب إن بنى الندى شتى ولكن خيرها الرحماء
رضى الأعزه عنك فى أجد اسهم والباقيان الله والأنباء

وانعقد مجلس الوزراء فى عاشر المحرم من السنة الجديدة ، وحضره الأمير . فكان من أعماله أنه قرر أنه عند دخول عيد الفطر من كل عام يصدر الأمير عفوه عن الذين يستحقون من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مؤبدا ، أو بالسجن المؤبد من الذين يكونون قد قضوا مدة عشرين سنة من سجنهم ، وعن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مؤبدا من الذين يزيد عمرهم عن سبعين سنة ويكون فى أجسامهم أمراض عضالة لا يمكن شفاؤها ويكون قد مضى عليه فى السجن خمس عشرة سنة ، والمحكوم عليهم بالأشغال الشاقه مؤقتة أو بالسجن موقة[٢٥٦] ويكونون قد قضوا ثلاثة أرباع مدة عقوبتهم ، وكذلك المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤقتة أو بالسجن الموقت ويكون عمرهم قد تجاوز السبعين سنة أو يكون فى أجسامهم عاهات لا يمكن شفاؤها ويكونون قد قضوا ثلاثة أرباع مدة عقوبتهم . ورسم الأمير بذلك وطيروا خبره إلى الآفاق ، فسر الناس بذلك وانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له . وأظهر الأمير الرغبة فى مبارحة الإسكندرية لقضاء فصل الصيف وترويح النفس ، وقد ضرب لذلك أجلا هو ظهر يوم الأحد رابع عشر يوليو من السنة وحادى عشرى محرم .فلما كان يوم الأحد ركب يخته المحروسة وبات فيه ليلة الإثنين . وفى الساعه الخامسة من صباح الإثنين برح اليخت الميناء إلى دار السلطنه توا . قالوا ولا يعرج بالجزائر

---

(٢٥٥) عيسى = عسى .
(٢٥٦) موقه = مؤقتا .

اليونانية إلا عند عودته إلى تخت ملكه . وقد قرروا أن لا يعقدوا مجلس الوزراء في غياب الأمير ، بل يجتمع الوزراء برياسة فخرى باشا للمداولة فيما بينهم . قالوا ومتى حدث أمر مهم يرفعونه على جناح البرق إلى مقر الأمير فيأتيهم الجواب . وكان قد سافر إلى عاصمة الإنجليز لورد كرمر عميد الأحتلال قبل مبارحة الأمير بيومين وأناب عنه فى غيبته المستر(٢٥٧) رود أحد كبار موظفى الوكالة البريطانيه . فقام(رود) هذا من القاهرة إلى الإسكندرية ، وأقام بها لمراقبة الأحوال وهو على كثب من مقر الوزارة ، حتى لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، حيث ظهرت حركة الخواطر فى البلاد ، وقامت ضجة أهلها حول لجان تعديل الضرائب التى كانوا أعدوها للتجوال فى سائر البلاد ومعاينة أطيانها ، والحكم بما يستحقه كل منها من تخفيف أو زيادة ضريبته . قالوا فقد أساء أعضاء تلك اللجان إلى أهل البلاد ، إذ خلطوا بين عملهم هذا وبين السياسة . فكانوا إذا عرفوا أن فلان صاحب الأطيان الكائنه بالحوض الفلانى من حزب جماعة الفرنسيس ، أو من أشياع دى لونكل أثقلوا عليه الضريبة ،

---

(٢٥٧) المسترروود = سير رينيل رود Rennel Rodd ــ اللورد رينيل أوف رود Lord rennel of Rodd فيما بعد . أحد كبار موظفى الوكالة البريطانية فى مصر فى عهد قنصلية كرومر ــ كلف فى فبراير ١٨٩٧ بالذهاب على رأس بعثة مكونه من الكونت جليخن من قسم المخابرات بوزارة الحربية البريطانية والكولونيل وينجت رئيس المخابرات العسكرية فى الجيش المصرى إلى أثيوبيا للتفاوض مع الإمبراطور منليك الثانى ، وإفهامه أن الغرض من العمليات العسكرية فى السودان هو إسترجاع مديريات مصر السابقة ، وأن إنجلترا لا تضمر أى نيات عدوانية تجاه أثيوبيا ، وأنها لاتعارض فى تخطيط الحدود الأثيوبية مع السودان بين خطى عرض ١٠ ، ١٥ شمالا بما لا يتجاوز منطقة النفوذ المعطاة لإيطاليا فى إتفاق ١٥ ابريل ١٨٩١ ــ وأنها على استعداد للموافقة على إمتداد الحدود الأثيوبية حتى تصل إلى النيل الأزرق فيما بين (كركوج) (وفامكة) ــ كما كان من أهداف بعثة رود التأكد من عدم وجود أى تعاون بين منليك والخليفة التعايشى ــ وقد تفاوض رود مع منليك خلال المدة ٢٨ أبريل ــ ١٤ مايو ١٨٩٧ ثم تركها إلى مصر حيث أنهى بعض المسائل المعلقة مع الرأس (ماكونين) بشأن الحدود بين الصومال البريطانى وأثيوبيا ــ ثم عاد إلى مصر .

-Patricia Wright (Conflict on the Nile) op. cit., p., 119.

ــ السيد على أحمد فليفل (القوى الخارجية والإتجاهات الإقليمية فى السودان)ــ سلسلة الدراسات الإفريقية ــ مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر ــ القاهرة ١٩٩٠ ــ ص ٤٦ – ٥٠ .

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٤٧ ـ ١٥٣ .

وبالغوا فى تثقيلها ، وإذا عرفوا بأنه من نصراء الإحتلال رحموه فى التقدير ، ولو كان ضالا فى الرأى السياسى واهتدى على يدهم تجاوزوا من أجله كل قانون وعدل ، وأزادوا ما خففوه عنه على سواه ممن يصر على ما فى نفسه . وكثر هرج القوم وجاءت شكواهم تترى إلى وزارة المالية ووزارة الداخلية . وتكلم بعض أصحاب الصحف المحلية فى ذلك وخوفوا أصحاب الحل والعقد من عاقبة هذه المحنة ، حتى لقد تفشى الخبر بذلك فى بلاد الفرنسيس وتكلمت عنه إحدى صحفها وهى المعروفة(بالمجلة الجديدة) .فقد قالت عن رسالة من القاهرة أن اللجنة الإنجليزية التى أرسلت لتجول فى البلاد بدعوى تعديل ضرائب الأطيان قد جعلت تشتغل بنشر آراء سياسية جديدة غايتها إثارة أهل البلاد ضد الباشوات أصحاب الأباعد والأطيان الواسعة . كما جعلت تخفف الضرائب عن أطيان بعض الفلاحين لتزيدها على أطيان أولئك المزارعين أصحاب الثروة ، وتعزى[٢٥٨] مشائخ البلاد من حيث يعدونهم أنهم يكونون السادة أصحاب الأمر والنهى فى بلادهم إذا كانوا ينكرون سياسة الأمير ويظهرون الميل إلى بقاء الإحتلال . إلى أن قال[٢٥٩](وفى الجملة إن جماعة الإنكليز قد وجهوا سياستهم المصرية اليوم إلى وجهة جديدة هى إن يفرقوا ليسودوا ، فيملكوا)أ .هـ وعندى أنه إن كان أهل تلك اللجان قد فعلوا شيئا من ذلك فلا يكونون كلهم الفاعلون أللهم إذا كانوا جميعهم إختيروا لهذه الغاية ، وليس ذلك ببعيد . حدثنى كبير من إخوانى أصحاب الزروعات الواسعة قال (يقولون أن القوم الإنجليز قد نهجوا فى هذه الأيام منهجاً جديدا فى سياستهم الإحتلالية ، فجعلوا يفرقون بين الأمير وشعبه ، والوطنى وأخيه ، ويضربون هذا بذاك حتى يسودون ثم يملكون ، وعندى أنه[٢٦٠] سياسة قديمه لا جديدة ،

(٢٥٨) وتعزى = وتغرى .

(٢٥٩) قال قالت ـ المقصود هو مجلة (المجلة الجديدة) .

(٢٦٠) انه = أنها .

ولكنها قد أخذت تظهر فى دقائق الأمور منذ إستيلائهم على وزارة الداخليه ، بعد أن كانت لا تظهر للناس إلا فى كبيراتها وعاماتها ، ولكن كل هذا على ما أرى لا يجديهم إجداء يذكر . لأنهم قد أعطوا اليوم آخر ما يمكنهم إعطاؤه من البـلاد ، أى نالوا كلما يمكن نوله منها ، وغدا يكف العطاء فلم يبق شيئا . فكيف إذن يكون التظاهر بحبهم والميل إلى سياستهم؟ قال إنبثت لجان تعديل الضرائب فى البلاد وعرضها يسألون عن صاحب كل مزرعة من هو فلان وما رأيه ، أهو من حزب الفرنسيس أو من أنصار دى لونكل أم من نصراء الإحتلال . وبناء على ما يعلمونه من ذلك يرحمونه فى التقدير أو لا يرحمونه . ومن كان ضالا فى الرأى السياسى واهتدى على يدهم داسوا من أجله القانون ، وزادوا ما خففوه عنه على سواه ممن يصر على مذهبه فيهم . قال فتأمل ، فإن كانت هذه نعمة تعديل الضرائب التى بح صوت أهل البلاد من النداء ببطلها فأرذل بها من نعمة دونها الشقاء . وما كانت وسيلة لتعميم العدل ، بل لتفشى غاية مذمومة بين الناس ومقاصد خرقا[٢٦١] تباع بها النفوس وتشترى الذمم . والله سبحانه من وراء ما يعملون . أجل قد طالما أساء الناس الظن فى ذلك المشروع ، وطالما قالوا أن فيه نيات أخرى ، لأن أساساته التى بنى عليها ليس فيها شىء من الإصلاح أو تحسين الحال ، وأنه لا أمل بتخفيف قرش عن الأهلين ، بل ربما زاد الإيراد منها خمسمائة ألف عينا . قد برح الخفاء وظهر ، ولكن لم يعرف نتيجة عمل تلك اللجان إلا الذين أصابتهم آلامه . قال وعندى وعند كل مطلع على نوايا القوم أصحاب الخزينة إن هذا المشروع إنما هو تجديد ظلم قديم بصورة أظلم . فلا حول ولا) أ .هـ .

وكان إلى هذا الحين قد وصل ركب المحمل إلى المدينة ، فأدى الحجاج الفريضة وهم أمير الركب بالقيام بالمحمل ومن معه ، فأخبر بتفشى الوباء بين الحجاج . فتربص بالمدينة ، وجاءت كتب محافظ «جدة» إلى محافظ السويس

(٢٦١) خرقا = خرقاء

بناء على ما جاء من مكة بأن محافظ المدينة كتب إلي الولاية خامس يوليو من السنة أن المحمل الشريف لم يبرح المدينة إلى ذلك التاريخ ، وأن الوباء قد أصاب بعض ركبه وحاميته ولكنه غير شديد الوطأة . فلما شاع هذا الخبر إنذعر الناس واشتد قلقهم ، وتسابقوا إلى موارد الأخبار يسأل كل عمن له من الأهل والولد بين الحجاج . فأبطأ الجواب ، واهتم أهل الحل والعقد بإرسال المؤن والأدوية والخيام إلى محجر الطور ، وسيروا السفن تباعا وعليها الجند لتطويق المحجر والقعود إلى الحجاج بالمراصد ، وكذلك الأطباء والممرضين والصيدلية والأدواء . وانتدبوا مأمورا مخصوصا ليقيم بالمحجر حتى يتم عودة جميع الحجاج . وكتبوا إلى والى جدة بموافاة محافظ السويس بالأنباء كل قليل من الأيام . وشددت على المحافظ بإرسال الأخبار إلي وزارة الداخلية كلما ورد عليه شيء منها ، أو وصلت سفينة من السفن التى تقل الحجاج . وأشتغل الناس بمراقبة أخبار الحج عن غيرها ، وبالغوا فى المراقبة . فلما كان سادس عشرى المحرم من السنة أرسل محافظ السويس إلى وزارة الداخلية يقول أن قد سافرت الباخره نجله(٢٦٢) من السويس إلى «الوجه» لاستحضار المحمل فقد(٢٦٣) قام من المدينة بركبه ، وهم على أتم ما يكون من الصحة ، فوصل (الوجه) ولبث هناك فى إنتظار حضور الباخرة التى تقله ، وأن قد قامت أيضا الباخرة (ينبع) إلى زاى ملعب(٢٦٤) حاملة الجنود والمعدات اللازمة للحجر الصحى هناك أيضا .وشاع خبر ذلك ففرح الناس وقد كانوا لا يصدقون خبر قيام المحمل من المدينة ، ويشفقون أن يكون الوباء قد أهلك جميع ركبه وحاميته فلم يبق منهم أحدا . ووصلت السفن بالحجاج من ينبع إلى الطور ومنها سفينتان وركبهما جمعية(٢٦٥) من المصريين . فأرسل مأمور حجر الطور يقول أن

---

(٢٦٢) نجله = نجيله - راجع ص ٥٠٤ .

(٢٦٣) فقد = الذى قراءة ترجيحية .

(٢٦٤) زاى ملعب = رأس ملعب - راجع ص ٥٠٤ .

(٢٦٥) جمعية = جميعه .

صحة جميع الحجاج المصريين الذين قدموا مع تينك السفينتين جيدة ، ولم تقع بينهم أمراض منذ قيامهم من ينبع . قال وأما حامية المحمل فقد حدث بينهم خمس أصابات وثلاث أخرى ، ولم يشف منهم سوى أثنين فقط .

وبينما الناس فى شاغل بأنباء الحجاج والوباء المتفشى بين ركب المحمل إذ جاء الخبر من ديوان الأمير بدار السلطنة إلى وزارة الداخلية بأن السلطان عبد الحميد سلطان الوقت قلد الأمير عباس باشا النيشان العظيم المعروف(بنيشان خان دان آل عثمان) وهو أكبر نياشين دولة آل عثمان فى هذا الزمان ، وأن قد ألبسه للأمير بيده . فطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ، وفرح الناس به فرحا عظيما ، وأرسلوا رسائل التهانى للأمير على جناح البرق من شرق البلاد ومغربها . وهنأه كذلك كل كبير وعظيم من النزلاء فى هذه الديار وتراكمت على ديوانه قصائد الشعراء من كل صوب ، وهنأه شاعر قصره بقصيدتة التى هى : -

علموه كيف يجفو فجفا ظالم لاقيت منه مالكى[٢٦٦]

مسرف فى هجره ما ينتهى اتراهم علموه السرف[٢٦٧]

جعلوا ذنبى لديه سهرى ليت بدرى إذ ورى[٢٦٨] الذنب عفا

عرف الناس حقوقى عنده وغريمى ما درى ، ما عرفا

صح لى فى العمر منه موعد ثم ما صدقت حتى أخلفا

وبدى[٢٦٩] لى الصبر قلت[٢٧٠] ما درى أنما كلفنى ما كلفا

---

(٢٦٦) مالكى = ما كفى ــ أورد الدكتور الحوفى والشوقيات من هذه القصيدة تسعة أبيات من المقدمة فقط ــ وأورد شاروبيم منها ٣٣ بيتا
ــ أحمد الحوفى (ديوان شوقى) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٣٦
ــ الشوقيات ـ مرجع سبق ذكره ص ١٣٢ .
(٢٦٧) السرف = السرفا .
(٢٦٨) ورى = درى
(٢٦٩) وبدى = ويرى .
(٢٧٠) قلت = قلب .

منستهام فى هواه مدنف ... يرتضى[٢٧١] مستهاما مدنفا
ياخليلى صفا لى حيلة ... وأرى الحيله أن لا تصفا
أنا لو ناديته فى ملاء ... هذه الروح[٢٧٢] خذها ما أحتفى
لا لى الدنيا فأعطيها ولا ... فى يدى منها(نشان الخلفا)
شرفا يابن على شرفا ... واشرع الذمة دينا والوفا
أنت من سنت له اباؤه ... أثر الصدق مبينا فاقتفى
مجد هذا الدين فى أن تعتلى ... وصفوف العصر فى أن تنصفا
لا وربى والنبيين وما ... نزل الله وحسبى خلفا
ما رأت مصرك إلا ما أرى ... لك ظل الله ظل المصطفى
وارث العالمين والمغالين من ... آل عثمان تعالى سلفا
أنجم الفلك الثلاثين الأ لى ... شرفوا سدته والرفرفا
أدرى رب الأيادى أنه ... ضيف الأمة فيمن ضيفا
وأنال النيل لما أن حبا ... وأظل النيل لما عطفا
أنا ياعباس من طوقتم ... وملكتم وادخرتم للصفا
لى لسان من نداكم ساهرا ... كلما لاح بشير هتفا
أبعث الكتب ولو لا أننى ... ألقى الله بعثت الصحفا
تترامى ببنانى سدة ... قصر الله عليها الشرفا
وتوافى عندنا أكرم من ... يجتلى فيه العالى زخرفا
يند البرق عليه كلما ... ويوافى فى التهانى أحرفا
بوسام الآل والنجم الذى ... قام فى صدر الخديوى مشرفا

---

(٢٧١) يرتضى = يترضى .
(٢٧٢) ملاء هذه الروح = ذلة : هى ذى روحى .

(واهب النجم نيشانا هب لنا من ظلال الله ظلا مشعفا)
(أنت من لو منح الأرض بدا والسموات هبات ما اكتفى)
(نتارمى باباك[٢٧٣] العالى نرى غمر الله الأمير الا رأفا)
(وتاملنا فلاحت ذاته وعرفنا يده والمعطفا)
(جدت للباس بالغز الذى ضاق عنه الشكر لما أزلفا
أنتما للدين ركنا مجده ومن الدين أخاء وصفا)
لا تخف منه قصورا فى الولا للفتى من دهره ما ألفا

إنتهى

وأرسل عمر لطفى باشا رئيس مجلس الشورى ما[٢٧٤] رسم رجال الشورى رسالة إلى رئيس ديوان الأمير يهنىء بها الأمير على نواله النيشان ، ويدعو[٢٧٥] جميعا للسلطان بطول البقاء . وكذلك فعل شيخ الإسلام الشيخ حسونة النواوى وكل أمير وكبير . يقال فكبر هذا الأمر على جماعة الإنجليز وأعظموه جدا ، وقد كان سفيرهم فى دار السلطنة يسعى جهده فى إيقاع المغاضبة بين الأمير ومتبوعه ، ويدس الدسائس فلم يفلح . وأهدى السلطان للأمير ذلك النيشان الكبير ألذى لم ينله أحد من الأمراء قبله ، وألبسه إياه بيده ، فكان برهاناجديدا على خيبة السفير وأخفاقه . فعاد أصحاب صحفهم إلى الهتر والقول الهراء ، وأنحوا على السلطان ورجال(مابينه) باللائمة ، وقالوا أن القوم مفتونين بترهات الأمير وختله ، وأنهم لسوف يندمون على ما هم فاعلون . قالوا واندس مروجو سعاياتهم ومبلغى وسياستهم[٢٧٦] بين أهالى(سيوه) . الواحه . ولعلهم أولئك العربان الذين جاؤا بخبر قيام الشيخ السنوسى فى جموعه إلى جهة الجنوب كما تقدم بيان ذلك فى محله[٢٧٧] ، فأفسدوا على أهل سيوة طاعتهم ، ومالوا

(٢٧٣) نتارمى باباك = نترامى ببابك قراءة اجتهادية .
(٢٧٤) ما رسم = باسم .
(٢٧٥) ويدعو = ويدعون .
(٢٧٦) وسياستهم = سياستهم .
(٢٧٧) راجع حاشية ١٥٢ ص ٤٦٩.

به(٢٧٨) جميعا إلى الهرج ثم إلى الخروج والقيام فى وجه أصحاب الجباية ، وامتنعوا من دفع الخراج وهددوا أصحابه . فلما كان خامس عشرى يوليو من السنة ، وثالث صفر سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وألف ، جاء الخبر من مأمور سيوة بعصيان القوم وامتناعهم عن دفع الخراج وطلب النجدة . فعقد الوزراء فى الحال مجلسهم ، وتناجوا فى الأمر طويلا حتى كادوا يختلفون . ثم إتفقوا على إرسال رسول إسمه(إبراهيم أفندى عبد الله) من المأمورين القدماء الذين أقاموا بسيوة دهرا ، وكلفوه بفحص الأسباب وإزالة الخلاف القائم .وكبر قلق أهل الحل والعقد لبعد الشقة وعدم وصول القاصد إليها إلا بعد مسير ثلاثة عشر يوما للمجد(٢٧٩) .واندهش الناس عند تفشى هذا الخبر بينهم ، لأن أهالى تلك البلاد لا يزالون على الفطرة والذاجه(٢٨٠) ، حتى أنهم لا يكلفون الحاكم(٢٨١) بالفصل فى قضاياهم بل هم يفصلونها على يدى شيوخهم . حدثنى إبراهيم أفندى عبد الله الرسول المرسل لمصالحة القوم من جانب أهل الحل والعقد قال(مكثت بسيوه حتى كنت بين كبارهم كأخ ، وصغارهم كأب ، وعرفت من طباعهم وعاداتهم ، وما خفى من أحوالهم وما ظهر ما لا يعرفه غيرى من مأمورى هذه الخطة النائية . وكنت إذا أبلغنى أعوانى بخبرحادث وقع أو جرم إرتكب ، جاءنى على الأثر من القوم من يخبرنى بخبر إنفضاضه ،أو بخبر قيام المجرم بالدية أو الترضية وزوال المغاضبة بين الفريقين . وذلك بأن يجمعوا شيوخهم ويعرضوا عليهم موضع الخلاف بصراحة وصدق فيفصلوه ويقضوا فيما بينهم فيه) . قال(ومن لطيف عاداتهم أنهم متى أقبل الليل جمعوا الأعزبين من شبانهم فى المساجد ، وأقفوا(٢٨٢) عليهم أبوابها إلى الصباح . قال من ذا ترى

---

(٢٧٨) به = بهم .
(٢٧٩) للمجد = حذفت الكلمة لعدم اتساقها مع النص .
(٢٨٠) والذاجة = والسذاجة .
(٢٨١) الحاكم = المحاكم .
(٢٨٢) واقفوا = واقفلوا .

أن من كانت هذه طباعهم وعوائدهم قلما يصدق عنهم عصاوة أو مقاومة أو هرج) . قلت . ولهذا يرجح العارفون أن هذه الحادثة ربما كانت من الحوادث العادية المعظمه ، وربما كان المأمور يرمى بتعظيمها إلى غرض ساقه إليه تطرفه فى محازبة أصحاب الكلمة المطاعة من جماعة الإنجليز . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قدم إلى القاهرة وفد من أولئك القوم فرفعوا إلى وزارة الداخليه عريضة يشكون فيه من تعسف المأمور دافنه[٢٨٣] ومينه[٢٨٤] ، ومعاملته لأهل البلاد بالقسوة والغلظة المتناهية . وأنه[٢٨٥] ينكرون عليه إفكه وكذبه بانه[٢٨٦] ممتنعون من دفع الخراج والوقوف فى وجه أصحاب الجباية ، ويطلبون خلعه من منصبه بغير تردد . فاجابوه[٢٨٧] إلى ذلك وسيروا إلى أبراهيم أفندى عبد الله يخبرونه بذلك ويستحثونه على سرعة تسكين خواطر القوم وإزالة ما علق بأذهان الكافة ، وأن يسرح المأمور بالإنحدار إلى دمنهور وكذلك صاحبى النزعة[٢٨٨] ، ويتربص هو هناك حتى تتيه[٢٨٩] كتب ديوان الوزارة فى ذلك الشأن . هذا وإرسال أنباء محجر الطور وتتابع مجىء السفن بالحجاج المصريين إلى الطور متتابع .حتى جاء الخبر من محافظ السويس بثبوت وفاة أمير الحاج وأمين الصرة ، وأن قد بلغ عدد الذين ماتوا بالوباء من الجنود والحجاج المرافقين للمحمل ثمانية جنديا[٢٩٠] وخمسة وثلاثين حاجا ، وأنه لم يحدث حادث جديد منذ خامس عشرى شهر يوليو من السنة ، وأن صحة الحجاج والجنود ورجال المحمل وسكان القرى ومستخدمى المحجر حسنة للغاية .

---

(٢٨٣) دافنه = وإفكه   قراءة اجتهادية .
(٢٨٤) ومينه = أى كذبه ــ فالمين هو الكذب .
ــ مختار الصحاح ص ٢٦٧ .
(٢٨٥) وانه = وأنهم .
(٢٨٦) بانه = بأنهم .
(٢٨٧) فاجابوه = فأجابوهم .
(٢٨٨) صاحبى النزعة = ربما يقصد شاروبيم شخصان نزعا إلى اختلاق واقعة خروج الأهالى على طاعة الحكومه .
(٢٨٩) تتيه = تأتيه .
(٢٩٠) جنديا = جنود .

واجتمع مجلس الوزراء فى يوم الخميس أول أغسطس من السنة ، وعاشر صفر سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف ، مضطرا بحكم الأنباء الواردة على وزارة الأشغال بتعاظم إرتفاع مياه النيل فى هذا العام ، وبلوغ الزيادة مبلغا عظيما للغاية ، فقرروا إخراج القسم الأول من الأنفار المدركين بخفارة دركات النيل قبل الميعاد القانونى بعشرة أيام ، وسيروا الخبر بذلك إلى ولايات البحيرة والغربية والدقهليه والمنوفية والشرقية والقليوبية والفيوم وبنى سويف ومنية إبن خصيب ، وشددوا فى إخراج أولئك الأنفار فى اليوم الخامس عشر من أغسطس وقعودهم بالمراصد . فاهتم المديرون ومأمورى المراكز والعمد والمشائخ بإخراج أصحاب الدركات ، وأقعدوهم بالدركات على طول ضفتى النيل من الشلالات حتى الأسكندرية ودمياط ورشيد . واشتغل الناس بأخبار زيادة النيل ومقاومة الفيضان عن أخبار الحجاج وحوادث الوباء ، وقد بلغ مقياسه لغاية ثالث عشر أغسطس من السنة سبعة أمتار واثنين وستين سنتى متر ، وكان فى مثل هذا اليوم من العام الماضى خمسة أمتار وستة وستين سنتيمتر . واهتم أصحاب المزارع بحفظ سلامة ما يجاورهم من الجسور وسهروا على خفارتها ليلا وحراستها نهارا . وعلم الأمير وهو فى دار السلطنة بأخبار الفيضان فجاءت كتبه إلى فخرى باشا بالحث على متابعة العناية ، ودقة الإلتفات للجسور ومنع كل خطر . فأرسل فخرى باشا كتبه إلى سائر المديرين والمحافظين وسألهم شدة العناية والإلتفات ومع ذلك فقد كانت الزيادة مستمرة ولم تقف عند حد . فلما كان يوم الإثنين خامس أغسطس من السنة ، ورابع عشر صفر ، وأول مسرى سنة إحدى عشرة وستماية وألف للشهداء ، إحتفلوا بوفاء النيل بسرعة ، وعملوا الأفراح المعتاد عملها فى كل عام ، فاحتشد الناس عند ميدان الجسر ، ونصبت السرادقات وزينت بالمصابيح والأنوار الكثيرة ، وأطلقت المدافع إيذانا بذلك الإحتفال الكبير . فلما أقبل الليل أطلقت الحراقات والألعاب النارية وسمعت الأناشيد والموسيقات ، وسارت السفن تمخر فى النيل صعدا وهبوطا وهى

مزدانة بالأنوار والرايات وفيها المغنين والمغنيات وأهل القصف واللهو . وظل الناس على هذا حتى أشرقت الشمس . فجاء فخرى باشا فى موكبه نائبا عن الأمير ، فحيته المدافع ، وقابله الوزراء ، فنثروا الدنانير على الجسر ،فالتقطها العامة وقطعوا الجسر ، فجرى الماء فى الخليج ، فأطلقت المدافع وارتفعت الأصوات بالدعاء للأمير وحكام الوقت على الرسم المألوف عند العامة من قديم . هذا والزيادة مطردة والخوف منها عظيم ، وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز على ظهور بواخرهم صعدا وهبوطا فى النيل ، والمديرين والمأمورين يتأمرون(٢٩١) بأمرهم ، ويعملون بإشاراتهم . ولا يعلم ما فى الغيب إلا رب السموات والأراضين .

وعادت أنباء الحجاج والحجر الصحى على المحمل وركبه إلى الظهور بعد أن نزلوا بالطور . فلما كان ثامن أغسطس ، وسابع عشر صفر جاء الخبر من محافظ السويس إلى وزارة الداخليه بقيام المحمل من الطور إلى(رأس ملعب) على ظهر الباخرة(نجيله) فوصلها صباح يوم ثامن عشر صفر . قال وبعد أن يقضى فى رأس ملعب مدة الملاحظة الطبية يقوم إلى مدينة السويس فيصلها يوم الأحد . وأن قد قدمت الباخره سبين(٢٩٢) صباح اليوم أيضا إلى السويس مقلة سائر الجنود الذين كانوا فى طور سينا لانقضاء أجل الحجر فيه وكلهم بصحة جيدة ، ولم يمت منهم إلى ذلك اليوم سوى عشرين جنديا ، منهم إثنين بامراض عادية . وأخبر والى الحجاز وزارة الداخلية بان مائة وخمسين حاجا من المصريين من الفقراء لا يزالون فى جدة ولا يستطيعون مبارحتها لفقرهم . وطلب إن ترسل باخرة للقدوم بهم . فاهمت(٢٩٣) الداخلية بذلك وأرسلت كتبها إلى مجلس المحاجر تطلب التعجيل بإرسال باخرة للقدوم بأولئك الفقراء . فلما

(٢٩١) يتأمرون = يأتمرون .

(٢٩٢) سبين = شبين .

(٢٩٣) فاهمت = فاهتمت .

كان مساء حادى عشرى صفر وصل المحمل على القطار الخاص من السويس إلى القاهرة ، ونقل إلى (ميدان الحصوة) بالعباسية ، فأناخ ركبه حتى أتوا به إلى المصطبة على الرسم والترتيب المعتاد فى كل عام . وفرح الناس بمقدمه فرحا عظيما ، واطمأنت قلوبهم بعد الخوف من أنباء الوباء .

وكان قد شاع خبر قيام الأمير بيخته من دار السلطنة يريد تخت ملكه . فجعل الناس يتأهبون لمقدمه بعمل الزينة على البيوت ومخازن التجارة . فما هى إلا عشية حتى جاء الخبر من رئيس ديوانه إلى نائب الغيبة بأن الأمير لا يبرح دار السلطنة إلا بعد عيد جلوس السلطان المقرر عمله فى كل عام . فانكف الناس عن عمل الزينات . ثم جاء الطلب إلى عبده الحامولى المغنى الشهير ، وجماعة المغنين ، وأولاد الغناجلى المشهورين بالنفخ فى المزمار ، فسافروا جميعا إلى دار السلطنة لحضور حفلة ذلك العيد فى قصر الأمير ، وكان نفرا[٢٩٤] من أعداء الأمير المحازبين للسياسة الإنجليزية يشيعون أن هذه الأمور كلها ليست من الصحة فى شىء ، وأن العلايق بين الأمير ومتبوعه متوترة ، والمغاضبة مستحكمة ، وأن مكث الأمير فى دار السلطنة ناجم عن إمتناع السلطان من تسريحه بالسفر . فتحدث الناس فى ذلك كثيرا ، وكبر إهتمام أصحاب الصحف بتحقيقه . فكانت تأتيهم الأنباء متضاربة والأقوال مختلفة ، وصحف الإحتلال لا تلبو[٢٩٥] جهدا فى تجسيم الحادث وتشويشه .وظل الحال على هذا حتى جاءت كتب رئيس ديوان الأمير إلى نائب الغيبة بخبر ما ناله الأمير من حسن تعطفات السلطان ، وإقباله عليه ولا إقبال الأب الحنون على ولده ، ودوان[٢٩٦] سؤاله على عافيته ، وعن مسروريته ومسرورية والدته ، وأن الأمير خرج بخته[٢٩٧] الجديد المسمى(صفاء البحر) لزيارة بعض الجزر التابعة

---

(٢٩٤) نفرا = نفر

(٢٩٥) تلبو = تألو .

(٢٩٦) ودوان = ودوام .

(٢٩٧) بخته = بيخته .

للسلطنة العثمانية ترويحا للنفس ، وإجتلاء لمظاهر الطبيعة . وكان فى ركابه سائر رجال ديوان[٢٩٨] وبطانته الخصوصية . فقوبل فى كل مكان بمظاهر الإجلال والتعظيم ، وأوفد السلطان للقائه هناك بعض ياورانه العظام ، ورجال دوائره الخاصة . فلبث ثلاثة أيام كاملة ثم عاد إلى الآستانة وهو وجميع من فى ركابه على أتم ما يكون من الصحة والإنشراح . فطير نائب الغيبة خبر ذلك إلى الآفاق ، ففرح من فرح ، وامتعض من إمتعض من أولئك القوم ذوى الوجهين وأصحاب القلبين ، وبطل الإرجاف ، أو كاد وعاد الناس إلى عمل الزينات إحتفالا بمقدم الأمير ، وأهتموا بذلك إهتماما عظيما ولا سيما أهل الإسكندرية . فجمعهم محافظ البلد فى دار المحافظة وأبلغهم شكر الأمير لصدق عواطفهم ، وسألهم بناء على رغبة الأمير أن لا يتكلفوا إقامة الزينات عند قدومه لأنه يعتقد إخلاص الأهالى جميعا لعرش الإمارة . فازعنوا[٢٩٩] ولكنهم سألوه أن يستعيضوا عن الكثير بالقليل منها فأجابهم إلى ذلك . وبينما الناس ينتطرون قدوم الأمير وهم على ما هم عليه من الإهتمام بعمل الزينات ، إذ أرجف أصحاب القوم المحتلين بأن قد عادت العلائق إلى التوتر بين الأمير ومتبوعه ، وأن المغاضبة بينهما واقعة بسبب الوشاية الى أوشاها الغازى مختار باشا إلى المابين الهمايونى فى حق قبول الأمير لمن يدعى(سهل باشا الحضرمى) ، حتى لقد قالوا أن السلطان رسم بسئوال الأمير عن داعى قبوله لرجل كهذا بين بطانته غير موثوق بإخلاص[٣٠٠] لعرش الخلافة العثمانية ، وأن الأمير قلق من جراء ذلك وغير مسرح بمبارحة دار السلطنه حتى يعطى جوابا على ذلك . وجعل القوم يتنطقون ويبالغون فى الأمر ويتكهنون بما كان وما سيكون ، حتى خيل للناس أن الأمير[٣٠١] كبير والحارث[٣٠٢] معوق حقيقة لعودة

(٢٩٨) ديوان = الديوان .
(٢٩٩) فازعنوا = فأذعنوا .
(٣٠٠) باخلاص = بإخلاصه .
(٣٠١) الامير = الأمر .
(٣٠٢) والحارث = والحادث .

الأمير . وكثر تحدثهم فى ذلك كثيرا ، وكان[٣٠٣] يشغلهم عن تكميل معدات الزينة . حدثنى صاحب من المقربين من قصر الإمارة قال (لعلك ممن أشغلهم إرجاف أولئك الصنائع المفتونين ، وحديثهم ، عن توتر العلايق بين الأمير ومتبوعه بسبب حادث سهل باشا الحضرمى) . قلت الإرجاف كثير والحديث متفشى بين طبقات الناس والظنون مترامية ، فهل لك أن تخبرنى بخبر ذلك الحضرمى قال(إعلم إن سهل باشا هذا رجل من حضرموت ، قد وقع بينه وبين جماعة الإنجليز خلاف عظيم على أمر ليس هو موضوع حديثنا فى شىء ، فاشتدوا عليه ـ فلجأ إلي دار السلطنة العثمانية ونزل ضيفا على محمد فضل باشا . فاحطاطت[٣٠٤] به العيون وأكتنفته جواسيس المابين من كل جانب ونقلوا عنه ما نقلوه إن كذبا وإن صدقا . فلما أحس بالشر وأنه ماخوذ أخذمنتقم جبار ، فر هاربا من دار السلطنة من نحو عشرة شهور . وقد أصبح طريد الدارين أى طريد الإنجليز بحضر موت وطريد المابين بدار السلطنة . فلم ير آمن من نزوله على مصر ، فجاءها ونزل ضيفا على وجيه من وجهاء الإسكندرية ، فقربه ذلك الوجيه من أحد كبار ديوان الأمير ، وهذا بعد أن خبره وعلم من أمره ما أبعد عنه الريبة ، قربه من الأمير فقبله وهو لايدرى شيئا مما وقع له فى دار السلطنة ، وأحله ضيفا كريما عنده على الرحب والسعة . فلما عزمه[٣٠٥] الأمير على زيارة دار السلطنة سأله سهل باشا أن يكون فى ركابه إذا شاء الذهاب لزيارة السلطان ، فأجابه الأمير إلى ذلك ، فسافر معه . فلما علم رجال المابين بخبر مجيئه مع بطانة الأمير ظنوا أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأخذت عيون المابين وجواسيسه عنه ما شاءت ، حتى أرسل السلطان إلى الأمير يشير عليه بعدم لياقة قبول الضيف نظرا لعدم وثوق المابين بإخلاصه لعرش الخلافه . قال وهذا أمر لا يوجب نفورا ولا يقطع علاقة بين الأمير ومتبوعه كما يرجف أولئك

(٣٠٣) وكان = وكاد .
(٣٠٤) فاحطاطت = فاحتاطت .
(٣٠٥) عزمه = عزم .

المرجفون . أما قولهم بأن المابين سأل الغازى مختار باشا مندوب السلطان عن سيرة سهل باشا هذا وعلاقته بالأمير فلا نصيب له من الصحة ، لأن الرجل معروف عنه وهو من كبار رجال الدولة المشار إليهم ، ولا يصح أن يقال بأن السلطان رسم بتبعيد الرجل عن بطانة الأميركى لا يطلعه على أسرار الدولة وخفاياها كما يشيعون ، فى حين أن الأمير أعلم بها وأحوط بمجرياتها . والرجل قد أقام فى ضيافة الأمير ثمانية أشهر أو يزيد ، فإن كان ثمت فى نفسه شىء من ذلك فقد قضاه .قلت . سمعتهم يقولون أن الرجل كان عينا للمابين ثم لأمر[٣٠٦] إنقلب جاسوسا لاصاحب[٣٠٧] السياسات الأجنبية ، وعضوا فى إحدى الجمعيات السرية . فقال هذا والله ماليس لنا به علم . إن الجاسوسية فى بلاد السلطنة العثمانية عموما وحول عرش سلطانها خصوصا محنة إبتليت بها البلاد من قاصيها إلى قاصيها ، وأنت تعلم أن أصحاب التاريخ ورداة[٣٠٨] أخبار الدول والممالك يقولون الدولة والسلطان سوق للعلم والأدب بضائع العلوم والصنائع ، وتلتمس فيه ضوال[٣٠٩] الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والأخبار وما نفق فيها فنق[٣١٠] عند الكافة . قالوا فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأمن[٣١١] وسلكت النهج الأمم[٣١٢] ولم تمل عن قصد السبيل نفق به سوقها[٣١٣] الإبريز الخالص واللجين المصفى . وإن ذهبت مع الأغراض وماجت سماسرة البغى والباطل أهل السعايات نفق البهرج والزائف ، واكتنفتها المصائب من كل جانب . وقد قدر الله تعالى أن ينفق فى دولتنا على عهد سلطان هذا الوقت البهرج والزائف ، ويسود الوشاة أكلة لحوم البشر لمتاع

---

(٣٠٦) لأمر = لأمر ما .
(٣٠٧) لا صاحب = لأصحاب .
(٣٠٨) ورداة = ورواة .
(٣٠٩) ضوال = اصول   قراءة اجتهادية .
(٣١٠) فنق = نفق .
(٣١١) والامن = والمين   قراءة اجتهادية .
(٣١٢) الامم = الأمثل .
(٣١٣) به سوقها = بسوقها .

فى الدنيا قليل ، وما كنا والله نصدق أن هذا الملك المترامى يصبح تحت رقبة من[٣١٤] أولئك الجواسيس الطغاة ، يعزون من شاؤا ويذلون من شاؤا ، وأن هذا السلطان الواسع الكلمة العريض الجاه يجنح إلى تلك المهنة الشائنة والرأى الضعيف . ولا خفاك أن السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة ومكنته[٣١٥] هى المهكه والحالقه[٣١٦] تجمع إلى[٣١٧] الخصال المذمومة ، الغيبة ولؤم النميمة[٣١٨] ، والتغرير بالنفوس والقدح فى المنازل والأحوال ، وتسلب العزيز عزه وتحط المكين من مكانته ، والسيد عن مرتبته ، فلكم[٣١٩] فكم من دم أراقه سعى ساع لدى رجال المابين . وكم من جريم[٣٢٠] أستبيح بنميمة باغ . إنظر كيف ابتعدت عنه القلوب وتحرجت الصدور ، وأظهر النس[٣٢١] البراءة منه ، والحقد عليه ، تهببهم[٣٢٢] ولاذ بالإختفاء ، وضرب بينه وبين أقرب الأقربين إليه سيجا[٣٢٣] من حديد . فأوسع لأولئك القوم[٣٢٤] العمل وأفسح لهم فى الأمل ، وهيأ لهم سبل الوثيقة[٣٢٥] بالكبراء والأمراء حتى صغار الناس . ولم يزل هذا رأيه منذ إستولى على عرشه حتى أضاع جلال الملك الذى كان لأسلافه فى لب المعمور من الأرض ، وأطمع العمال فى الإستقلال بما فى أيديهم ، وجرأ الخصوم على الحط من مكانته وعزته ، والإستخفاف بسلطانه ، وامتدت عيونهم إلى متاعه ، وربما إمتدت أيديهم إلى أخذه إذا طال الأجل ، وظل على هذا العمل) فقلت :(قتل الإنسان ما أكبر شره ، إن الرجل إذا شهد

---

(٣١٤) رقبة من = رحمة .
(٣١٥) ومكنته = ومكنة .
(٣١٦) المهكه والحالقه = المهلكة والماحقة التى
(٣١٧) تجمع إلى = تجمع _ استبعدت الكلمة ليستقيم النص .
(٣١٨) ولؤم النميمة = واللؤم والنميمة قراءة اجتهادية . (ص ٢٤٥)
(٣١٩) فلكم = استبعدت الكلمة لتكرارها .
(٣٢٠) جريم = عرض قراءة اجتهادية .
(٣٢١) النس = الناس .
(٣٢٢) تهببهم = فتهيبهم .
(٣٢٣) سيجا = سياجًا .
(٣٢٤) يقصد الجواسيس الوشاة والنمامين الذين أحاطوا به وحالوا بينه وبين بقية شعبه .
(٣٢٥) الوثيقة = الوقيعة قراءة اجتهادية .

عند آخر فى باقة بقل[٣٢٦] فلا يقبل شهادته حتى يسأل الناس عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والأمانة والصيانة . ثم هذا الرجل بعينه ينم عنده بحديث فيه الهلاك وفساد الأحوال فيقبله بغير بحث ولا تنقيب ، وينزله منزلة الصدق الذى لا مراء فيه) فتأمل .

فلما كان يوم الجمعه ثالث عشر سبتمبر من السنة ، ورابع عشرى ربيع الأول سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف جاء الخبر من دار السلطنة بقيام الأمير يخته[٣٢٧] فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، وأنه عائد توا إلى تخت مملكته ، وأن سيكون وصوله إلى ثغر الأسكندرية فى مساء السبت أو صباح الأحد . فطير نائب الغيبة الخبر بذلك إلى الآفاق : قالوا وأنه عند ظهور اليخت يطلق مدفع واحد من طابية فايد باى[٣٢٨] تبشيرا بظهوره ، وعند دنوه من البوغاز يطلع[٣٢٩]

---

(٣٢٦) باقة بقل = أقه أو أوقية بقل قراءة ترجيحية ـ والبقل من البقول ـ كل نبات إخضرت له الأرض فهو بقل .وأبقلت الأرض أى أخرجت بقلها .
ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٤ .

(٣٢٧) يخته = بيخته .

(٣٢٨) فايد باى = قايتباى ـ قلعة قايتباى بالإسكندرية ـ تسمى برج الظفر أو برج (فاروس) ـ تقف على جزيرة صخرية تتصل بالساحل عبر طريق معبد يربط بينها وبين (طابيه الأطة) ـ تم تقوية هذه القلعة عام ١٨٥٢ وكانت تمثل حصنا قويا يتحكم تماما فى الميناء الجديد والمداخل الموصلة إليه . قايتباى قلعة مربعة البناء بنيت فى القرن الخامس عشر . تواجه الشمال والجنوب بطول ١٢٠ ياردة فى الشمال والجنوب . و ١٥٠ ياردة فى الشرق والغرب . وتضم أسوارها هذه أبراج إسلامية مستديرة Circular Saracenic تبرز من الحوائط . يضم الفناء الداخلى الكبير للقلعة برجا إسلاميا كبيرا ومسجد . وفى الزاوية الجنوبية الغربية كان يوجد منارة Lighthouse . كانت القلعة مصممة لتحمل طاقمين من المدافع على كل الجوانب ـ وكان الصف السفلى عبارة عن فتحات مضادة للقنابل Casemates بها على سطح الماء مدافع من معدن ثقيل فى الغرب والشمال والشرق . أما الصف العلوى فكان يطلق مدافعه من خلال كوات embrasures فى جدار القلعة . كان أقصى إرتفاع لحوائط القلعة فوق مستوى الماء هو حوالى ٤٠ قدم . وارتفاع نوافذ الضرب ١٤ قدم وعرضها ١٤ قدم أيضا . وكان سمك الحوائط بين الغرف ٤,٥ قدم . وفى البواكى ٥ أقدام . كانت نوافذ الضرب تغطى بحوالى ١٠ أقدام من التراب . وكان تسليح القلعة عام ١٨٥١ حوالى٩٣ قطعة مدفع بما فى ذلك سبعة مدافع مورتارmortar إلى جانب ٤٠ مدفع طوابى Fusils de rempart . تعرضت هذه القلعة لضرب مكثف من الأسطول البريطانى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ إستمر من الساعة الواحدة إلى الساعة الخامسة حتى تم تدميرها .

-Report on Egypt - War office - Intelligence Branch - London - 13 th July. 1882- HMSO - 1882 - pp . 318 - 319

ـ الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٨٧ ، ٣٩٣ .
ـ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث ـ ج١) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٥٧ .

(٣٢٩) يطلع = يطلق .

منها مدفعان ، وفى دخوله البوغاز يطلق ثلاثة مغافع[٣٣٠] ، ومتى نزل الأمير من اليخت تطلق الطابية واحد وعشرين مدفعا . فلما شاع الخبر بطل الإرجاف وأحجم المرجفون عن ترهاتهم وتأهب الناس للقاء الأمير ، وعجلوا فى إتمام معدات الزينة على النحو الذى أرادوه . فلما كانت ليلة الأثنين فى نحو الساعة التاسعة وصل اليخت متأخرا بسبب رداءة الوقود[٣٣١] إلى أمام الإسكندرية ، فرسى خارجا ولم يدخل الميناء فى تلك الساعة إتقاء الخطر . وفى منتصف الليل خرجت الباخرة(دقهلية) تقل جماعة الوزراء ومحافظ البلد ، وسردار الجيوش المصرية ، وبقيت راسية بجوار اليخت(محروسة) إلى منتصف الساعة السادسة من صباح اليوم ، وحينئذ صعدوا إلى المحروسة ، فأطلقت

---

(٣٣٠) مفافع = مدافع .

(٣٣١) الوقود = الجو .

(٣٣٢) طابية صالح = طابية صالح أغا بنيت أصلا بمعرفة الفرنسيين ـ لكن إضافات أضيفت إليها منذ ذلك الوقت . كانت الطابيه عبارة عن حاجز دفاعى redoubt مربع يواجه الميناء ، طول جانبه ١٢٠ ياردة عبر منحدر خندقى ـ أما واجهاته الغربية والجنوبية فكانت محطمة للخارج ـ لتغطية بوابات المداخل فى الواجهة الشرقية أضيف بناء جديد على شكل كوة غير منتظمة ذات نتوءات صوب الجنوب الشرقى بينما يوجد فى الإتجاه الشمالى الشرقى جدار طويل (١٧٠ ياردة) يحمى داخلية الكوات Lunettes ، ويتصل من الزاوية الشمالية الشرقية للحاجز الدفاعى ببطارية تحكم الميناء القديم وتشكل تقاطع نيرانى Cross Fire يحمى مداخل القناة والميناء القريب إلى القلعة . وعلى طول الواجهة وحول الحاجز الدفاعى يوجد خندق عميق (٥٠ قدم) ويحيط كذلك بالجانب الجنوبى ووجه الكوات . ومنحدر الخندق مكسو بصلابة بالأحجار ويصل إلى مستوى أعلى المتراس . وقاع الخندق تحت مستوى الأرض بخمسة عشر قدما ، باستثناء مقدمة الواجهة الشرقية للكوات حيث يكون فى مستوى سطح الأرض ، وأرض الطابية غير مستوية ويتكون المنحدر عن طريق تل منحدر . ويرتفع متراس الإستحكامات تسعة أقدام عن مستوى سطح الأرض . ويصل الجناح الشمالى من الكوات ومعسكرات المدفعية التى تشكل الجانب الجنوبى الغربى من البطارية ، جدار واقى Traverse يغطى الطريق الذى يصل الحاجز الدفاعى بالبطارية من ناحية البر ، وحلق البطارية عبارة عن حائط عادى ذو بوابات مركزية يجرى بين سلسلتى المعسكرات التى تشكل جانبيه . وخلف الوجه الشرقى للكوات حيث قاع الخندق على مستوى الأرض ومتواز معها يوجد سلسلة من المعسكرات الدفاعية . وللحاجز الدفاعى معسكرات أيضا فى الزاوية الجنوبية الشرقية مغطاة من الغرب بجدار واقى يجرى شمالا وجنوبا . وعند النهاية الشمالية للجدار الواقى وتقريبا فى منتصف الموقع يوجد مخزن البارود . ويركب على الحاجز الدفاعى عشرة مدافع ، أربعة منها فى الجانب الشمالى وتطلق نيرانها نحو الميناء ، وخمسة على الجانب المكسور تواجه الغرب ، وواحد فقط على الجانب المكسور يواجه الجنوب ، ويمكن للحاجز الدفاعى أن يستوعب ثلاثة مدافع أخرى أما الكوات فتستطيع استيعاب ثمانية مدافع . وللبطارية ثمانية مدافع ومدفعى مورتار Mortar . وتشكل طابية صالح مع طابية البرج نمرة ١٥ ، وطابية القمرية ، وطابية أم قبيبة سلسلة من الحصون تحمى الشاطئ الجنوبى لميناء الإسكندرية .

- Report on Egypt - op. cit., - pp. 315 - 316.

طابيـة صـالح(٣٣٢) مـدفـعـا إشـارة إلى ظهـور اليـخت . ودخل الوزراء على الأمـيـر بحجرته فهنأوه بسلامة الوصول ، ثم تحرك اليخت يمخر عباب البوغاز حتى دخل الميناء في الساعه الثامنة ، فأطلقت الطابية واحد وعشريم(٣٣٣) مدفعا . فلما كانت الساعة التاسعة رسى اليخت ، ونزل الأمير إلى زورقه الخصوصى مع الوزراء ، وعند نزوله أطلقت الدارعـة الإنجليـزية الراسـيـة فى المـيناء واحـد وعشرين مدفعا ، ثم سار الزورق إلى قصر الإمارة ولما صعد إلى القصر أستقبل جميع الأمراء من البيت العلوى ، والغازى مختار باشا ، وسائر من حضر فى ذلك اليوم من الأمراء وأكابر الموظفين . وبات ليلته تلك برأس التين ، وأصبح وقد عملوا التشريفة الكبرى ، فدخل عليه المهنئون أفواجا أفواجا من كل صنف ورتبة على الترتيب المعتاد . فرأيناه باش الوجه طلق المحيا كثير التلطف بالمهنئين ، كثير التساؤل عن حالة الزراعة والنيل والأمن العام . وفى غروب اليوم شق من وسط المدينة فى ركبه المعتاد . فوقف الناس له بالطرق والشوارع وحيوه ودعوا له دعاءاً حسنا للغاية . وما إستقر به المقام حتى جاءت بعض الصـحف الإنجليـزية غـاضـبـة من عـدول الأمـيـر عن زيارة طاسـوس(٣٣٤)

---

(٣٣٣) وعشريم = وعشرين .

(٣٣٤) طاسوس = ثاسوس Thasos ـ طاشيوز ـ جزيرة تقع شمال بحر إيجة فى اليونان ـ كانت تابعة للدولة العثمانية حتى الحرب العظمى ـ تشتهر بزراعة أشجار زيت الزيتون والخضروات . وهب السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ إيرادات هذه الجزيرة لمحمد على بموجب فرمان صادر عام ١٨١٣ نظير جهوده الحربية فى شبه الجزيرة العربية أثناء حربه مع الوهابيين . ظلت الجزيرة تابعة لحكام مصر بعد محمد على إلى أن شرع السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى(١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) فى سحب الإمتيازات التى حصلت عليها مصر قبل ذلك ـ فكانت أزمة الفرمان (١٨٩٢) . فى ١٨٩٥ حاول عباس حلمى إحكام سيطرته على الجزيرة ـ فشرع فى بناء قصر له فيها ، وتحسين أحوالها وتسهيل سبل المواصلات فيها ـ لكن السلطان عارض سياسة تابعه فى الجزيرة ورفض السماح له بالذهاب إليها . وترتب على ذلك أن أصبح هناك جفاء بين السلطان وعباس . تطورت الأمور فى الجزيرة عندما فرض ناظر الأوقاف الخديوية هناك ضرائب عالية على قطعان الماعز بسبب إتلافها لأشجار زيت الزيتون ، وتفاقم الأمر عندما إحتجز أعيان الجزيرة كرهائن حتى يدفع الأهالى ما عليهم . تذمر الأهالى واصطدموا بالقوات هناك وسقط قتلى وجرحى ـ ترتب على ذلك أن أمر السلطان بإرسال قوات لاحتلال الجزيرة وضم إدارتها إلى ولاية سالونيك ، كانت أزمة طاشيوز أحد أسباب تدهور العلاقات بين السلطان والخديو عباس حلمى الثانى وأحد أسباب إقتراب الأخير من سلطات الإحتلال التى سعى إلى الحصول على معاونتها ضد متبوعه .

ـ عبد المنعم الجميعى (الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٩ .

- Larousse Universel - Vol. II. p. 1085.

وقوله[٣٣٥] ، وقد كان أعلن رغبته فى الذهاب اليهما . قالوا فرسى أسطولهم فى البحر المتوسط فى طاسوس وقوله ، واستعد ضباطه وأميراله للقاء الأمير والإحتفال به ، فكان نكوصه عن الذهاب داعيا لضياع تلك الأهبة وذلك الإستعداد ، ودافعا بأصحاب تلك الصحف إلى تلك الضجة ، فرد عليهم أصحاب الصحف المحلية ردا جميلا ، وقد أشار بعضهم إلى عودة لورد كرومر من فسحته الصيفية إلى القاهرة على أثر عودة الأمير من دار السلطنة ، وقالوا إنه ربما كانت هذه المغامر[٣٣٦] من هناته المشهورة عنه فى معاداة الأمير كل قليل من الأيام .

وكان إلى هذا الحين لم تبطل المناوشة بين جماعة الحبشان وعساكر الإيطاليان حول كسلا وأطراف مصوع . فقد جاءت الأخبار من عاصمة الإيطاليان فى سابع عشرى سبتمبر من السنة ، فى ربيع الثانى سنة ثلاث عشرة ، باشتداد الحال واضطراب الأحوال ، وعلى إن الرأس منغاسية متحرك جدا ، ومتأهب للوثبة فى جيش عظيم للغاية . وأن الجنرال باراتيرى على أثر وصوله إلى مصوع ذهب لمقاتلة[٣٣٧] الجنرال (اريموندى) فى أسمرا ، ثم عاد إلى(أديكرات) وأخذ فى حشد الجنود ، وإعداد معدات القتال . فلما شاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية قامت ضجة أصحاب الصحف الإنجليزية من نحو التخوم أيضا ، وقالوا أن التعايشى يتأهب كذلك للوثبة على أصحاب المراصد بالتخوم لإشغال أصحاب الكلمة من كبار الضباط الإنجليز عن مساعفة الجنرال باراتييرى ، وأن الحرب أدنى بين أب قوسين[٣٣٨] . وكانت الكتب تأتى من التخوم إلى بعض كبار الناس بالقاهرة وأصحاب التجارة وكلها تدل على خلود أصحاب المهدوية إلى السكينة والإشتغال عن الحروب

---

(٣٣٥) راجع حاشية ٤٨ ص ٤٣٩٨ .

(٣٣٦) المغامر= المغامرة قراءة اجتهادية .

(٣٣٧) مقاتلة = لمقابلة قراءة ترجيحية .

(٣٣٨) أدنى بين أب قوسين = بين قوسين أو أدنى .

والكروب بحرث الأراضى ، وزرعها والعناية بها لاشتداد المجاعة فى سائر البلاد ، وموت الفقراء منهم جوعا كما تقدم القول . ومع ذلك فقد كانت أخبار التخوم تأتى إلى قصر الإمارة ووزارة الداخلية من جانب السردار مشوشة مضطربة ، كلها معميات وأحاجى ، والناس فى تساؤل عما سيكون من وراء كل هذه الإرجاف . وتارمت[٣٣٩] الظنون الغ[٣٤٠] ما سيكون من خطة لورد كرومر مع الأمير ووزرائه بعد عودته هذه المرة . فقد شاع أنه قدم[٣٤١] من هذا العام مزود من صاحب السياسة الإنجليزية بتعليمات سليمة[٣٤٢] ، وشىء من اللين والمجاملة ، وأنه لا يريد شيئا سوى أن يعيش الأمير وحكومته براحة وسكون . قالوا لأن خطة المعاكسة لم تفد السياسة الإنجليزية بشىء البتة ، ولا هى من الحكمة والسداد فى شئ . وتكلم الناس فى ذلك وود أهل الرأى لو تحقق الخبر وأن يجرى اللورد فى سنته الجديدة على مثال جديد من اللين وملاطفة الأمير . لاقانى صديق من أصحاب المناصب العالية فقلت له(يقولون اليوم أن عداء لورد كرومر للبلاد وأميرها قد استبدل فى هذا العام بردا وسلاما ، وأن وزارة المحافظين الإنجليزية نصحت له بأن يخفف من حدته ، ويلطف من شدته ما إستطاع . وهذه بعض صحفهم المعتدلة تشير إلى ذلك من طرف خفى ، فعسى أن يكون هذا النبأ[٣٤٣] وتلك النية خالصة لوجه الله تعالى) فقال (إعلم أن أحب شىء إلينا أن يكون هذا الصفاء واقعا والإخلاص متبادلا . لأننا لم نكن فيما نقوله عن جماعة الإنجليز وما نفعله مع قادة الإحتلال إلا مدافعين لا مهاجمين ولا مناهضين . وكل من يخطر بباله من أهل المناصب وأصحاب الخطط أو كل ذى حيثية ووجاهة يوما أن يكون هو المهاجم أو المناهض مع

---

(٣٣٩) وتارمت = وترامت .
(٣٤٠) الغ = الى .
(٣٤١) قدم من = قدم .
(٣٤٢) سليمة = سلمية — قراءة ترجيحية .
(٣٤٣) النبأ = النبأ صحيحا — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

علمه بقوة الإحتلال وشدة وطأته على البلاد وأميرها فهو الملوم المستحق العزل من منصبه ، ولن يجد مدافعا . نهم[٣٤٤] إن لورد كرومر لم يبق للمصريين شيئا مما قد يوجب التنازع والتباغض فيما بعد . فقد قبض على أعناق الكل ،ولكن لا خفاك إن الحياة السياسية أبدا كثيرة العثرات بعيدة الغايات ، فخليق به وقد ساب[٣٤٥] فى منصبه أن يسالم الأمير ، ويترك لأهل البلاد البقية الباقية لهم من الحقوق غير المضيعة . هذا إن خلصت النيات وصدقت مواعيد الخير وإلا فلا تثريب على المظلوم أن يتظلم كما لاعتب على المضروب أن يتألم) . فقلت (ما رأيك فى أخبار التخوم وحركة الحبشان وتأهب الإيطاليان) قال (أن حالة التخوم فهى على ما نعلم من خلود الدراويش إلى السكينة ، وعدم الميل إلى مناوشة أصحاب المراصد . وكل خبر يقول بغير ذلك فهو بهتان وكذب . وأما حالة الحبشان وجماعة الإيطاليان فعلى أشدها من القلق والله عليم بما سيكون ، فقد جاءت الأخبار الصحيحة منبئة بزحف الامبارطور[٣٤٦]) منليك فى جيش جرار لمطاردة الإيطاليان ، وأنه قد سير المدد إلى منغاسيا وأن الجنرال باراتييرى قد بارح البارجه[٣٤٧] ثامن أكتوبر من السنة ، تاسع عشر ربيع الثانى(أديكرات) على رأس تسعة آلاف مقاتل من المرتزقة قاصدا الجنوب لتبديد شمل جيوش منغاسية قل[٣٤٨] أن يأتيه المدد وتنضم اليه جيوش منليك فى[٣٤٩] (ماكونين) وقد جمعوا الجيوش الإستعمارية لوقاية مؤخرة عساكر باراتييرى . وأخذت دولة الإيطاليان فى إرسال المدد . وإنى أقول لك الحق أن أصحاب السياسة الإيطالية قد تورطوا فى سياسة هذا الإستعمار وخدعهم أصحاب السياسة الإنجليزية خدعة أن[٣٥٠] يخلصوا من شرها المستطير ولا خفاك أن إيطاليا شابة لم تبلغ من

(٣٤٤) نهم = نعم .
(٣٤٥) ساب = شاب .
(٣٤٦) الامبارطور = الأمبراطور .
(٣٤٧) البارجة = البارحة .
(٣٤٨) قل = قبل .
(٣٤٩) فى = و .
(٣٥٠) ان = لن .

القوة والجلد على الإستـعـمـار أشـدها ، وقـد تعـجلت فى دخولهـا فى مـصـاف صاحبات الإستعمار قبل أن تأخذ لنفسها الأهبة . وأنت تعلم أنها رغما عن قلة المال فإنها كثيرة الأماني والآمال . فلم تحسب لدهاء أصحاب سياسة الإنجليز حسابا حتى تمكن منليك مهج[٣٥١] أعنتهم ، والتغلب عليهم ، وربما فشلوا فى هذه الحركة الحديثة وذهب ريحهم . وانظر كيف أن ذلك الطاغية منليك قد مد يده إلى قيصر الروس يريد معاقدته على الولاء ، ومعاهدته على كيد الإيطاليين وإذهاب بأسهم وازلال[٣٥٢] سلطانهم الذى شادوه فى ذلك الصعيد . ولعلك تذكر أن القيصر أعجب بعزة منليك ، وأعانه على بلوغ قصده من إبطال تلك المعاهدة التى أسـاء صـاحب السـيـاسـة الإيطاليـة فى تأويلها[٣٥٣] ، يرمى بهـا إلى جعل منليك واحدا فى[٣٥٤] الولاة أو العمال التابعين إلى سلطنة الإيطاليان ، حتى إذا أرهقت الأيام أحـدهم غلبـوه على مـا بقى من ملكه وانتـزعـوه منه وزال(ملك يهوذا) من أرض الحبـشان . وها هم أولئك الحبشان يغصون بمكانهم ودولتـهم ، والإيطاليان وراء البحر ينادون الويل والحرب منهم) قال (وعندى أن هذا كله يقع لكل مجازف يكذب فى إنتحال الأمر ويرى ذلك الرأى الضعيف) أ .هـ .

وبينمـا النـاس يفكرون فيـمـا سيكون من جمـاعـة الدراويش والحبشـان على التخوم شرقا وجنوبا ، إذ جاء الخبر من دمياط إلى وزارة الداخلية بوقوع إصابات تشبه(الهيضة الأسيوية) لأحد عشر شخصا فى ثالث عشر أكتوبر من السنة ، وأن قد مات أثنان من الذين أصيبوا عقب الإصابة . فما زاع[٣٥٥] خبر ذلك حتى

---

(٣٥١) مهج = من .

(٣٥٢) وازلال= وإذلال .

(٣٥٣) يقصد شاروبيم معاهدة أوتشيالى Ucciali المعقودة عام ١٨٨٩ بين إيطاليا ومنليك الثانى إمبراطور الحبشة .

ـ راجع حاشية ٤٥٩ ص ٣٥٦ .

(٣٥٤) فى = من .

(٣٥٥) زاع = ذاع .

عم الخوف وجفلوا[٣٥٦] النزلاء وأنزعروا[٣٥٧] . واهتم أهل الحل والعقد بالأمر إهتماما كبيرا ، وسيروا الأطباء إلى دمياط لتشريح جثث الموتى وتحليل ما فى أمعائهم ، وتحقيق أسباب الوفاة ففعلوا . وقد أرسلوا شيئا من الأمعاء إلى الدكتور (بيتر) الطبيب المنوط بالتحليلات فى الإسكندرية ، فأثبت أن الإصابات هى من(الهيضة الأسيوية) وعمل بذلك محضرا . فاهتموا بالأمر كثيرا ، وسيروا الكتب إلى سائر المديرين والمحافظين وأطباء البلاد باتخاذ جميع الأسباب والوسائل الواقية من هذا الوباء المخيف . واشتد الأطباء شدة بالغة على أهل دمياط فى تطهير دورهم وتنظيف أجسادهم والعناية بمأكلهم ومشربهم . وأفرزوا المصابين فى خيام خارج البلد وقد أعدوها لذلك . واجتمع أعضاء مجلس الصحه والمحاجر[٣٥٨] وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم إستقر رأيهم على إرسال ثلاثة من أطباء المجلس إلى دمياط فسافروا من يومهم . وأنذرت

---

(٣٥٦) جفلوا = جفل .

(٣٥٧) وانزعروا = وانذعروا .

(٣٥٨) مجلس الصحة والمحاجر = مجلس الصحة البحرية والكورنتينات المصرية- شُكلَ وفقا للأمرين العاليين الصادرين فى يناير ١٨٨١ و ١٩ يونيو ١٨٩٣ ــ كان عدد الأعضاء الذين تعينهم الحكومة المصرية فى المجلس أربعة (رئيس المجلس وتعينه الحكومة المصرية ــ مفتش عموم الصحة البحرية والكورنتينات ــ مفتش صحة مدينة الإسكندرية ــ مدير القسم البيطرى بوزارة الزراعة) . كانت بعض الحكومات الأوروبية تنيب مندوبين عنها فى المجلس ــ وكان هؤلاء إما من الأطباء أو من أعضاء السلك القنصلى . كانت الجمعية العادية للمجلس تنعقد كل يوم الثلاثاء الأول من كل شهر لنظر الموضوعات الخاصة بالحجر Quarantine والصحة . وكان من أهم مهام هذا المجلس مباشرة الحالة الصحية بالقطر المصرى ومراقبة قيام ووصول المسافرين والواردات من الحيوانات وبعض البضائع بالبر والبحر . كانت مكاتب الكورنتينا والمحاجر الصحية موجودة بالميناء فى مدينة الإسكندرية ــ أما المحجر فكان وأماكن التطهير فى حى القبارى والمفروزه ــ وكان المعمل الكيماوى بجهة الشاطبى - أما الزرائب المخصصة لحجز الحيوانات فكانت فى المكس والمفروزه . وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك مكاتب للكورنتينات فى بور سعيد ــ السويس ــ الطور ــ دمياط ــ رشيد ــ الإسماعلية ــ القنطرة ــ القصير ــ أبى قير ــ البرلس ــ الغردقة ــ أبو زنيمة ــ السلوم - سيدى برانى ــ مرسى مطروح ــ العريش ــ سيوه .
ــ تقويم الدولة المصرية لسنة ١٩٣٣ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ .

زارة الداخليـة مجلس الصحة بالخبـر ، وأشـارت بالإسـراع فى إتخـاذ الوسـائل الواقية . وجعل أصحاب الصحف يطمنون الناس ويقولون أن فصل الصيف الذى يخشى فيه من هذا الوباء الأصفر قد تقلص ظله . قلت(ولم نعهد أن هذا الوباء فتك فى بلاد مصر فى أيام الصيف) . ومع ذلك فقد جعل أهل دمياط يهاجرون أوفاجا[٣٥٩] أفواجا . وكاثر[٣٦٠] مجلس الصحة من الإجتماع ، واتخاذ التدابير اللازمة حتى لقد كاد أن يضرب الحجر فى الموانى الأجنبية على صادرات البلاد المصرية ، وظهر الرعب الشديد على أهل البلاد جميعا ، وقد وضعوا ثلاث نقط صحية على السكة الحديدية وجهتى بحر دمياط القبلية والبحرية ، لمنع خروج المصابين وفرارهم . ومنعوا خروج الأسماك المملحة إلى البلاد الأخرى منعا لتسرب الداء . وسيروا طايفة من الجنود وأصحاب الشرطة لتشديد الحجر على البلد ، وأغلقوا المدارس والكتاتيب ، ومنعوا سفن النقل من الدنو من البلد ، وطاف أصحاب الشرطة على البيوت يحضون أهلها على النظافة وعدم إلقاء القذورات[٣٦١] أمام المنازل . وأكثر محافظ البلد من زيارة الجوامع والأضرحة ليمنع من بيات الأغراب وأبناء السبيل فيها . وقررت وزارة الداخلية إبطال سائر الموالد وأعياد الأولياء فى جميع أنحاء البلاد حتى يرتفع الوباء ، واجتمع الوزراء فى ظهر يوم الأبعاء سادس عشر أكتوبر من السنة بالأمير فى قصر الإمارة وتناجوا طويلا فى ذلك .فقرروا تشكيل لجنة عليا فى وزارة الداخلية لاتخاذ التحوطات الواقية ، ويكون من أعضائها جماعة الوزراء ومحافظ القاهرة وجماعة من الأطباء الأجانب والأهليين . ومع كل هذا فقد تسرب الداء إلى المنزلة والمنصورة وتفشى فى المنزلة تفشيا مريعا . ووردت الأخبار بذلك إلى وزارة الداخلية ، واختلف الأطباء فى الأسباب التى جلبت هذا الوباء المخيف إلى مدينة دمياط ، وتضاربت أقوالهم وتباينت آراؤهم . فمن طبيب زعم أنه ربما

---

(٣٥٩) اوفاجا = أفواجا

(٣٦٠) وكاثر = وأكثر .

(٣٦١) القذورات = القاذورات .

جاءت الجرثومة من نبش قبر من قبور الذين ماتوا بالوباء قبلا ، وهذا ما لا نعتقد له صحة . ومن آخر ذهب إلى أنه لا بد إن يكون أحد الفارين من بلاد موبوءة قد أتى بالمكروب . وهذا دليل قليل الإحتمال وإن يكن أقرب من الأول إلى التصديق ، وإنما القول الأرجح أن يكون قد وفد من الصالحية إلى دمياط . فقد كانت (الحمة التيفوثيدية) تفشت بالصالحية وفتكت فتكا ذريعا . ولم يكن إلى وقت ظهور ذلك الوباء بدمياط قد زالت من الصالحية تماما . ولذلك قد سير مجلس المحاجر جماعة من نفس الأطباء إلى الصالحية لتحقيق الأسباب الصحيحة . وقرر المجلس الصحى الذى أنشأ فى ديوان محافظة البلد إتخاذ الإحتياطات اللازمه على جهات متفرقة فى القاهرة ومصر القديمة ، وإنشاء ست حنفيات جديدة فى بولاق مصر ، وإثنتين فى قسم عابدين ، ومثلهما فى قسم الأزبكية يستقى منها الفقراء مجانا ، ويأخذوا ما يكفى منها لتنظيف منازلهم . وشددوا على ديوان الأوقاف بتصريف مياه بعض البرك ومراحيض المساجد القديمة . وجاء الخبر من جماعة الأطباء الذين ساروا إلى الصالحية لفحص أسباب الداء وعلة ظهوره بدمياط بأنه أسيوى بحت ، وأن لا علاقة له بمرض الصالحية الذى هو الحمى التيفوثيدية ، وأنه منقول إلى دمياط بسبب من الأسباب القوية . وتسرب الداء أيضا إلى (البصراط) (والنسايمة) (والكردى) (ومطرية المنزله) من بلاد البحر الصغير(وميت عاصم) من بلاد ولاية الدقهلية (والأحمدية) (والسنيطة) بولاية الشرقية . وجاء الطبيب (ملتون) الإنجليزى إلى ولاية الشرقية للعناية بحالتها الصحية . فجعل يطوف البلاد ويفحص بيوت أهل البلاد ، ويشدد عليهم بنظافة البيوت وأوانى طعامهم وملابس أطفالهم ، وهم على ما هم عليه من عدم العناية والإستسلام ، واتخذوا تجسس الأطباء وانتشار رجالاتهم فى البلاد ذريعة للإنتقام بعضهم من بعض . فكان إذا ساء أحدهم جاره أو غريمه ذهب ذلك الجار أو الغريم إلى صاحب الشرطة ، فيقول له سمعت الليلة أنينا فى دار جارى فلان فربما كان مصابا هو أو

أحد أفراد عائلته ، فلا يشعر الرجل إلا وقد كبس داره صاحب الشرطة ومعه معدات التبخير وجماعة كثيرة من جنده وبعضهم يحمل معدات التطهير ، وبعضهم يجر عربة حمل الموتى ، وبعضهم يحمل الأدواء والعقاقير . فيدخلون الدار على هذا الشكل المريع ، ويحملون كل من وجدوه من الرجال والنساء والأطفال على ظهر تلك العربة ويتراكضون بهم إلى المستشفى ، والناس خلفهم فى ضجيج ، وأهل البيت فى بكاء وصراخ . فإذا إبتعدوا بهم عن الدار جعل القوم الذين يحملون معدات التطهير يطهرون الدار ويرشونه بالجير المذوب وحمض الفنيك ، وأوقدوا بخورهم من الكبريت والغاز فيرتفع دخانه إلى عنان السماء ، ويملأ الدور المجاورة بل الحارة كلها فتضيق منه الأنفاس ، وتخرج النساء بأولادهن من تلك الدور حاسرات صائحات مولودات[٣٦٢] ساخطات على أولئك القوم أصحاب الشرطة . وربما ضربوهم بالمقشات والنعال القديمة . فكبر خوف الناس وعظم إضطرابهم ، وأوجس كل خيفة من عدوه وأوجس حتى ومن أقرب الأقربين إليه . فكان خوف الناس من أصحاب الشرطة أكبر من خوفهم من ملائكة الوباء وغلطة[٣٦٣] أكياد[٣٦٤] اللحائين[٣٦٥] .وقد كنت يومئذ متوليا منصب مدير أدارة أعمال المساحه العموميه المعروفة بفك الزمام ، وكان أحد مراكزى العامة مدينة الزقازيق . فلما حضر الطبيب (ملتون) الإنجليزى للأشراف على أعمال الأطباء الذين جاءوا إلى ولاية الشرقية لعمل التحويطات الصحية ، زارنى يوما فى ديوانى وسألنى أن أبطل العمل من الصالحية والسنيطة وسائر البلاد القريبة من ولاية الدقهليه ، فأجبته إلى ذلك وأبطلنا العمل . واتفق أننى كنت حددت يوما يجتمع فيه أهل بلدتى (الزوره) (وإنشاص الرمل)

(٣٦٢) مولودات = مولولات

(٣٦٣) وغلطه = وغلظة .

(٣٦٤) اكياد = أكباد .

(٣٦٥) اللحائين = اللحادين قراءة ترجيحية .

لنبيعهم بالمزاد العلنى ما جاورهم أو تداخل فى أرضهم من الأطيانِ الأميرية . فحضروا جميعا فى ذلك اليوم حتى غص بهم فناء الديوان ، وبينهم رجل من أهل(الزورة) يجاور أرضه من حدين قطعة صغيرة من الأطيان الأميرية وتجاور آخر من أهل البلد من حد واحد . وهذا يطمع فى أخذها ولكنه يعلم أن خصمه أكثر مالا وأحوج إلى تلك القطعه منه ، وأنه أقسم الأيمان المغلظة بأن لا يتركها إلى خصمه مهما بلغ ثمنها . وكان من نكد طالع صاحب تلك الإيمان أنه جاء فى ذلك اليوم عاصبا لصداع أصابه . فلما جلسوا فى فناء الديوان ينتظرون فتح جلسة البيوع جعل خصمه يشاغله بالحديث لحظة ، وإذا بمنادى البيوع ينادى أدخلوا ياقوم قاعة الجلسة . فتزاحموا إلى باب الديوان . وأقبل جماعة من أصحاب الشرطة يراقبون النظام ومنع الجلبة . فأسرع طالب شراء الأرض إلى أحدهم وهمس فى أذنه أن أنظر هذا الرجل العاصب فإنه مريض منذ البارحة وهو فى هذه الساعه ضيق الصدر كثير البصاق . فما سمع الجندى هذا الكلام حتى إنقض على الرجل كالنمرة الكاسرة وقبض عليه عند باب الديوان . وجاء آخرون فحملوه على عربة الموتى ، وأوثقوا يديه ورجليه وساروا به مسرعين وهو يصيح ويستغيث ويقول(إنا الله وإنا إليه راجعون ، إرحمونى يا أهل بلدى خلصونى) . والجند ينهبون الأرض نهبا حتى أدخلوه بيت المرضى وسلموه إلى جماعة الأطباء وقد سار خلفه كل من عرفه من أهل بلده إلا ذلك الشقى المحتال . فلما إنتظمت الجلسة وجاء دور المساومة فى تلك القطعة وقد كنت أعلم حاجة الرجل إلى شرائها بناء على طلباته التى رفعها إلى ، وأعرف كذلك معاكسة جاره وسعيه وراء أخذها منه ، فقلت أين فلان طالب هاته القطعه وما سبب تأخيره فتقدم خصمه وقال ، قد أصابه الوباء وهو عند باب الديوان ، فعرفه رجال الشرطه فحملوه إلى خيام المرضى ، وربما يكون قد مات إلى رحمة الله . فقلت ويحك وماذا تريد أنت . قال أطال الله بقاك لا أريد إلا شراء الارض وتسهيل الربح للديوان والعمر الطويل لك . فقلت كأنك قطعت كل أمل من

حياة الرجل ، فقال أى نعم . الباقية فى عمرك . فالتفت إلى كاتب الجلسة وقلت تبقى الأرض حتى يبرأ الرجل من مرضه فإن مات فتباع إلى ولده . أكتب ما قلته فكتب ، وقمت من ساعتى إلى خيام المرضى والتقيت بالطبيب ملتن وأخبرته بخبر ما فعله رجال صاحب الشرطة بالرجل ، وسألته أن يفحصه ويحقق علته لوجوده بين من حضروا إلى الديوان . فقام الطبيب وجعل يفحصه بعناية وتأنى ، فلم ير فيه علة سوى صدع فى الجبهة وهو قديم كما يقول الرجل . فسأل عن الشرطى الذى أتى به فدلوه عليه فسأله كيف علمت إصابة هذا الوباء(٣٦٦) . فقال همس لى بذلك نفر من بلده ، فنظرت إليه فوجدته عاصبا ، فتحققت أنه مصاب فأتيت به إلى هنا على عجل .فقال ملتن أكل عاصب مصاب بالوباء؟ قال لست أدرى . فضحك ملتن وضحكت وأشار بإخلاء سبيل الرجل فخرج يهرول وألقى بعصايته(٣٦٧) إلى الأرض وهو يقول رفعت(٣٦٨) غريمى عرفته ، ولسوف يلقى منى جزاءه ، وإنى لا أترك الأرض وإمرأته(٣٦٩) طالق ثلاثة إذا تركتها) والناس من خلفه يضحكون وينادون الميت قام .

وقدم الأمير بحاشيته ورجال ديوانه فى يوم الجمعة أول نوفمبر من السنه ، ثالث عشر جماد الأول سنة ثلاثة عشر وثلثمائة وألف ، ففرح الناس بقدومه وخرجوا للقائه . فركب فى موكبه من محطه السكة الحديد بالقاهرة إلى قصر الإمارة بين دعاء العامة من الرجال والنساء ، حتى نزل بقصر الإمارة بعابدين . فبات وأصبح وقد عملوا التشريف ، فدخل عليه المهنئون من الأمراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط ،وتزاحموا على بابه ، فكان كثير التساؤل عن صحة أهل البلاد وأخبار الوباء . ثم شاع أنه على عزم السفر إلى دمياط وزيارة

---

(٣٦٦) الوباء = بالوباء .

(٣٦٧) بعصايته = بعصابته .

(٣٦٨) رفعته = عرفت .

(٣٦٩) وامراته = وامرأتى .

سائر البلاد الموبؤة . فتحدث الناس فى ذلك كثيرا وقالوا عادة أجداده من التحجب عن العامة وعدم العناية بما وراء بابه ، وأثنوا عليه كثيرا . فما هى إلا أيام بعد أوبته حتى خف الوباء وتناقص الموت قليلا حتى زال واطمأنت قلوب الناس وفرحوا بالسلامه منه فرحا عظيما . قالوا وبلغت الإصابات كلها إلى يوم زواله عدد[٣٧٠] إصابة والوفيات أى الذين ماتوا جميعا عدد[٣٧١] كما أثبت ذلك ديوان الصحه وأصحابه من جماعة الإنجليز .

وظهر فى هذه الأثناء قايلا يقول أن قد قام بديار الحبشان أسقف من أساقفة القبط أصحاب الكنيسة الحبشية يدعو جميع الحبشان حاضرهم وغائبهم إلى محبة الإيطاليان فانحى[٣٧٢] بلادهم والإبتعاد عن الروسيين ، ويحضهم على إنجاز جماعة المقاتلين من الإيطاليان . فأكبر الأقباط هذا الأمر وأعظموه للغاية ، وسير بطريركهم إلى أساقفة الحبشة يسالوا[٣٧٣] أن يكتبوا له بحقيقة الواقع ، فأرسلوا يقول[٣٧٤] إن الذى أثار هذه المحنة هو الرجل الروحى المعروف باسم (القسيس تيوفيلوس) ، وأنه إنتحل لنفسه لقب أسقف . قالوا ولكنه غير فالح فى بدعته إن شاء الله ولا هو متبوع الرأى . قلت .(ولقد كان للمملكة الحبشيه كلها فى الأيام الغابرة أسقفا واحدا يسميه البطريرك المسكونى للأقباط الأورثوذكس . وظل الحال على هذا حينا من الدهر ، فلما إرتقى منليك عرش المملكة وتتوج بتاج ملك ملوكها جاءت رسله إلى البطريرك أبنا[٣٧٥] كيرلس الخامس ومعه[٣٧٦] كتب كنليك[٣٧٧] فى طلب رسامة أربعة

(٣٧٠) ترك المؤلف مكان الرقم خاليا .
(٣٧١) ترك المؤلف مكان الرقم خاليا .
(٣٧٢) فانحى = فاتحى قراءة ترجيحية .
(٣٧٣) يسألوا = يسألهم .
(٣٧٤) يقول = يقولون .
(٣٧٥) ابنا كيرلس = أنبا كيرلس الخامس ـ راجع حاشية ١٢٣ ص ١٠٥ .
(٣٧٦) ومعه = ومعها .
(٣٧٧) كنليك = منليك .

أساقفة لمملكته بدلا من أسقف واحد . فسر البطريرك بذلك وأجابه إلى طلبه . ولأجل بقاء النظام والترتيب القديم للكنيسة المرقسية[٣٧٨] معمول به كما رتبه أئمة الذسن[٣٧٩] ، أخذ العهد على أربعة[٣٨٠] على أن يقيموا من الحبشان أسقفا وأن لا يقيموا عليهم بطريركا قط ، وأن لا يحدثوا فى طقس الكنيسة حدثا يخالف ما قرره آباء الكنيسة منذ نشأتها . فساروا على هذا ، وعمرت بهم الكنيسة الحبشيه وازدهت ، وزالت منها البدع السيئة والعادات المستهجنة . فلما جاء جماعة الإيطاليان إلى ديار الحبشة فاحين[٣٨١] على ما مر بك سماعه ، وقد ظهر ميل منليك[٣٨٢] ورجال مملكته جمعا إلى دولة

(٣٧٨) الكنيسة المرقسية = الكنيسة القبطية هى الجماعة المسيحية الكبرى فى مصر ، ويتراوح شعبها ما بين ٤ -٦ مليون . عندما تمزقت الكنيسة المسيحية فى خلافات القرن الخامس حول طبيعة المسيح إنحاز أغلب المسيحيين المصريين إلى حزب المونوفيزتية Monophysite الذى قال بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وهو مبدأ تم إدانته فى مجمع خلقيدونيه Chalcedon عام ٤٥١ . لكن المونوفيزتية Monophysitism لا تزال تعتبر أساس العقيدة الرسمية للكنيسة القبطية . عبرت كلمة قبطى فى بعض الأوقات عن الكنيسة الأثيوبية نظرا للوحدة فى العقيدة والإلتصاق بالمسحيين فى مصر . ومع هذا فإن الكنيسة الأثيوبيه أعلنت إستقلالها عن البطريرك القبطى فى مصر عام ١٩٥٩ . ويرأس الكنيسة القبطية (بطريرك الكرازة المرقسية وبابا الإسكندرية ، والمدن الخمس وأثيوبيا) ، الذى ينتخب بواسطة الشعب القبطى ـ ويقيم فى الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة .
-Meindarus. O. F. A., Christian Egypt, Faith and life (1970) USA p. 255.

(٣٧٩) الذسن = الكنيسة .
(٣٨٠) اربعة = الأربعة .
(٣٨١) فاحين = فاتحين .
(٣٨٢) منليك = منليك الثانى Menelik II (١٧أغسطس ١٨٤٤ ـ ١٢ أو ١٣ ديسمبر ١٩١٣) إمبراطور ومؤسس دولة أثيوبيا الحديثة . عضو فى البيت المالك الأثيوبى ـ عمل كملك لشوا Shoa أو Shewa (١٨٦٥ - ١٨٨٩) أحد اقاليم أثيوبيا . خلف يوحنا الرابع Yohannes على العرش الإمبراطورى عام ١٨٨٩ بعد فترة الصراعات الداخلية المريرة . حدَّث منليك الجيش ، رفع مستوى الإدارة وقواها . نهض بالتجارة ، شجع التعليم ، وسيطر بكفاءة على طموحات الرؤساء الإقطاعيين . فى عام ١٨٩٤ منح إمتيازا لمد خط حديدى (أكمل عام ١٩١٧) من أديس أباباAddis Ababa إلى ميناء چيبوتى Djibouti الفرنسى . عندما ظهر خطر التهديد الإيطالى بادعاء الحماية على أثيوبيا ، لعب منليك بكفاءة على التناقضات البريطانية والفرنسية ضد الإيطاليين . فى عام ١٨٩٦ هزم الجيش الإيطالى هزيمة نكراء فى موقعة عدوة The Battle of Adowa فى أول هزيمة يوقعهاشعب أفريقى بقوة إستعمارية أوروبية . أعترفت معاهدة أديس أبابا (١٨٩٦) بالإستقلال الكامل لأثيوبيا . مد منليك أراضى أثيوبيا تقريبا إلى حدودها الحالية . خلفه حفيده ليج لياسو Lij Lyasu .
- Lexicon Universel Encylopedia, Vol 13 - p.. 297.

الروس[٣٨٣] وترددت الرسل بين المملكتين تحمل الهدايا والتحف وكتب المودة من العاهلين ، أكبر الإيطاليان هذا الأمر جدا وخافوا من شر عاقبته ، وأخذ القلق من صاحب سياستهم مأخذه . فأوعد[٣٨٤] إلى قائد جيوشهم فى مصوع أن يعمل جهده على إحباط أميال الدولة الروسية ، وإذهاب ريحها من تلك الأنحاء ، فلم ير من سبيل إلى ذلك إلا اجانب دعاة الدين . فدس إلى جماعة الأساقفه الغيظ ، وجعل يستميلهم بكل الوسائل والأسباب فلم يفلح . وذهبت مساعيه أدراج الرياح ، فانقلب إلى قسيس أسمه ثيوفيلوس يقال أنه من بيت القديس(نقلا هيمانوت الحبشى) صاحب الآيات والعجائب المشهورة عنه فى كتب الكنيسة القبطيه والكنيسة الحبشيه واستماله فمال ، وأرسله[٣٨٥] دعاته إلى أهل التفيره[٣٨٦] يدعونهم إلى محبة الإيطاليين والكف عن معاداتهم والإنصراف عن محبة الروس الذين هم إخوانهم فى العقيدة الأورثوذكسيه ، وقد جعل قيصرهم يدبر على خلاصهم من ربقة الإيطاليان . وجاء الخبر بذلك إلى الدار البطريركية للأقباط الأورثوذكس ، فنقله النقلة مقلوبا مشوها وقالوا

---

(٣٨٣) خلال تسعينيات القرن التاسع عشر ، وبينما كان الصراع جاريا بين القوى الأوروبية حول السودان الشرقى ، والمطامع الإيطالية فى هضبة الحبشة واقاليم أثيوبيا الشمالية بل وفى أثيوبيا نفسها تتزايد ـ بدأت المساعى الفرنسية تأخذ دورها عند منليك لتوسيع فجوة الخلاف بينه وبين إيطاليا تحقيقا لأطماعها السياسية والإقتصادية (فرنسا) فى أثيوبيا . وهكذا فبينما وجد منليك والفرنسيون أن مصالحهما مشتركة وقريبة ـ فإن الروس الذين كان مجال نشاطهم بعيدا عن المنطقة شرعوا فى إرسال مغامريهم للتجارة بالتماثل المفترض Supposed Similarity بين الكنيستين القبطية الأثيوبية (وهى كنيسة أرثوذوكسية) والكنيسة الأرثوذوكسية فى روسيا . بل وتذكر بعض المصادر أن المدفعية الجبلية الأثيوبية التى كانت تقصف القوات الإيطالية فى معركة عدوه ـ كانت تحت ملاحظة مستشارين فرنسيين وروس . كما تسجل المصادر أيضا أن البعثة الروسية فى أثيوبيا كانت تتوسع فى ذلك الوقت ـ وكانت تقارير الماجور وينجت Major Wingate رئيس مخابرات السردار كتشنر (وحاكم عام السودان فيما بعد) فى عام ١٨٩٦ تحمل شكل التحذير من النفوذ الفرنسى والروسى فى أثيوبيا . لكن الدعاوى الروسية فى أثيوبيا بصفة عامة لم تكن تتجاز العلاقات الدينية theological Kinship .

- Patricia wright (Conflicton the Nile) - op cit. pp.. 64, 66, 107, 118

(٣٨٤) فاوعد = فأوعز .

(٣٨٥) وارسله = وأرسل .

(٣٨٦) التفيره = التيجرى ـ أحد اقاليم الحبشة .

إن(ثوفيلوس) ذلك الحبشى أسقفا من أسافة[٣٨٧] الحبشة القبط وأن الإيطاليان إستمالوه بالرماء[٣٨٨] والبرطيل ، فدعا الحبشان إلى محبة الإيطاليان وكره الروس ، فاهتم بطريرك الأقباط بالأمر إهتماما عظيما حتى تحققت عدم صحته . وعندى أن الرجل قد بث روحا مضرا بقومه أوكاد ، وألقى بهم إلى هاوية لا خلاص منها حيث يدرى ولايدرى ، فلقد مرت على أوطانه القرون وهى حافظة لاستقلالها بين الغزوات والسطوات من كل عدو وعنيد وخصم شديد . وهو اليوم يريد سامحه الله أن يلقى بها فى أيدى الإستعباد وتحت أقدام الإسترقاق ، فيالله كم يفسد المأجورين من أحوال البلاد .

وكان إلى هذا الحين لم يأت خبر عما آلت إليه حالة الوزير نوبار باشا بعد ذهابه إلى ديار الفرنجة للإستشفاء من علته التى أصابته على ما تقدم بك بيانه .فلما كان يوم الثلاثاء خامس نوفمبر من السنة ، وسادس عشر جماد الأول سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف وصل الوزير فى صبيحة[٣٨٩] إلى الإسكندرية .فقابله سائر الوزراء وكثير من كبار الأجانب وأعيان البلد ، فلاقاهم معافى وعلى أحسن ما يكون من الصحة ، وسافر من يومه إلى القاهرة وتمثل بين يدى الأمير فلاطفه وهنأه بعافيته وبرئه من علته ، وتزاحم على باب[٣٩٠] الكبراء والعظماء والوجهاء وأهل المناصب وأصحاب الخطط للسلام عليه . وبات وأصبح وقد جعل يوالى إجتماعه بجماعة الوزراء ، حتى لقد شاع أنه ينوى عزل بعض المديرين والمحافظين وتولية جماعة من كبار المتقاعدين . قالوا وأرسل يستقدم عبد القادر باشا حلمى ليوليه منصب وزارة الداخليه ، وهو صاحب الحرب المشهورة مع مدعى المهدوية عند تخوم الدارفور . واستقدم أيضا كمال باشا الذى كان رئيس ديوان مجلس الوزراء ، فكادت الإشاعة

(٣٨٧) اسافة = أساقفة .

(٣٨٨) بالرماء = بالرشاء .

(٣٨٩) صبيحة = صبيحته .

(٣٩٠) باب = بابه .

تتحقق . فما هى إلا عشيه وضحاها حتى إنقلب الحال وتبدلت الأحوال وتقدم الوزير إلى الأمير فى إقالته من مسند الرئاسة ، وكان إلى ساعة مثوله بين يدى الأمير لم يعلم أحد من الوزراء من أمر إستقالته شيئا ، وبقى الخبر الذى حمله تنزيل[٣٩١] نفسه مكتوما عن الكافة حتى الساعه الثالثة بعد ظهر يوم الإثنين حادى عشر نوفمبر من السنة . فجعل بعضهم يقول أنه رأى عجزه عن الحركة والقيام بمهام المنصب لشيخوخته ، فمال إلى الراحة ، وبعضهم يقول أنه كان ينوى ترك المنصب من اليوم الذى أصابته فيه علته ،فنصح اليه أخصائه بأن لا يفعل حتى يبرأ من كسره وتعود إليه عافيته ففعل . وبعضهم يقول غير ذلك . وعندى أنه لما عاد من ديار الفرنجة وجعل يباشر عمل منصبه ، رأى أن أعمال وزارة الداخلية قد قلبها السير غورست مستشارها بطنا إلى ظهر ، ومشخا[٣٩٢] مسخا لا يقوى الوزير معه إلى إرجاع ما فات ولا التخلص من تبعة ما هو آت . فكلم فى ذلك لورد كرومر فلقى منه إعراضا ، فكبر عليه الحال وأعظمه وصمم على خلع نفسه والتخلص من عار الإستكانة والذلة . فدخل عليه[٣٩٣] الأمير من يومه وأنزل نفسه مختارا وخرج من حضرته ، فجاء لورد كرومر إلى قصر الإمارة وقابل الأمير فتكلما ساعة أو يزيد ثم إنصرف اللورد ، فسير الأمر[٣٩٤] فى الحال فى طلب مصطفى فهمى باشا فجاء إلى القصر فى نحو الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر ، وتمثل بين يدى الأمير لحظة لطيفة ثم خرج وقد تم تقليده منذ[٣٩٥]

---

(٣٩١) تنزيل = نزيل .
(٣٩٢) ومشخا = ومسخها   قراءة اجتهادية .
(٣٩٣) عليه = على .
(٣٩٤) الأمر = الأمير .
(٣٩٥) منذ = مسند   قراءة اجتهادية ـ وقد تعرضت نظارة نوبار الثالثة(١٥ ابريل ١٨٩٤ ـ ١٢ نوفمبر ١٨٩٥) إلى ثلاثة أحداث كبيره خلال عام ١٨٩٥ إنتهت بسقوطها فى نوفمبر من ذلك العام . كان أول هذه الأحداث ما أصاب صحة نوبار من تدهور اضطره إلى الإعتكاف لفترات طويلة وتغيبه عن البلاد للإستشفاء . . ومع هذا فإن صحته لم تعد إلى حالتها الطبيعية ، وقد عبر بنفسه للورد كرومر عن رغبته فى إعتزال العمل السياسى .
كان ثانى الأحداث هو ماجرى فى أرمينيا فى أواخر سبتمبر ١٨٩٥ من مذابح ارتكبها الأتراك ، وما اتخذته إنجلترا من موقف عنيف حيال الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر . ومن=

الرياسة وتقليد محمد عبانى باشا وزارة الحرب وبقاء بقية الوزراء فى مناصبهم . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فقابله كبار القوم وأهل المناصب العاليه بفتور ، ونقله أصحاب الصحف على إختلافها وعلقوا عليه تعليقا كله تخوف وتطير وتحذير من مستقبل شره مستطير . وقالوا وإذا كان ذلك الداهية الكبير والشيخ القدير الذى ذاق حلو المناصب ومرها وتقلب فى مراتب السياسة من أيام محمد على باشا الكبير إلى أيام أصغر أحفاده لم يقو على مناهضة عميد الإحتلال ولم يطق الصبر على هذا البلاء ، وقد ركب ذلك الركب(٣٩٦) الخشن لعله لا يلبس فى أمره ولا يعجز عن إدراك بغيته ، فكيف يكون حال هذا الذى تولاها ومكانه غير مكان الرجل ، وحاله غير حاله . وما ظنك برجل قد تربى سهل القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ، وهذا دأبه منذ دخل فى مصاف الوزراء ، وما سمعناه يوما جادل أحد . حدثنى صديق من أهل المناصب . قال(إختلف الناس فى مصير أمور البلاد بعد تخلى الوزير نوبار باشا عن منصب الرئاسة ، فلم أرى فى إختلافهم وتفرق مذاهبهم مسحة من الهدى والصواب ، وهم فى ذلك معذورون ، فإنى أعرف الرجل داهية قوى العزم عظيم الفكر كبير

= المعرف أن نوبار كان أرمنيا ــ وكان استمراره فى رأسة النظارة بكل ما يثيره هذا الإستمرار من حساسيات من جانب المصريين بالإضافة إلى الموقف الإنجليزى تجاه الآستانة ــ أمر غير مستحب .

أما ثالث الأحداث فكان موقف حكومة نوبار من مسألة عودة الخديو إسماعيل إلى مصر فى أعقاب اشتداد المرض عليه فى إستانبول وإحساسه بدنو أجله وطلبه من حفيده (عباس) السماح له بالعودة إلى مصر ليموت فيها ــ وما كان من رفض (نوبار) ــ بناء على طلب الإنجليز ــ هذا المطلب الذى كان عباس راغبا ـ عاطفيا ــ فى تحقيقه لجده .

ومع وفاة إسماعيل ــ فإن عباسا إمتلأ نفورا من (نوبار) واتجه تفكيره إلى إسقاطه ــ ولم يكن يحول دون ذلك سوى تداخلات المعتمد البريطانى (كرومر) وخشية (عباس) أن يؤدى اصراره إلى تكرار أزمة النظارة الفهمية (١٨٩٣) . لكن رغبة (عباس) فى التخلص من (نوبار) كانت قوية إلى حد إستعداده لتكليف عدوه (مصطفى فهمي باشا) بتشكيل النظارة الجديدة ــ وذلك حتى يغرى المعتمد البريطانى بقبول إقالة (نوبار) ــ وهكذا فإن تضحية (عباس) بقبول (مصطفى فهمى) رئيسا للحكومة الجديدة كانت هى السبب فى قبول بريطانيا بإسقاط نوبار .

ــ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

(٣٩٦) الركب = المركب .

الدراية ، أصر فى نفسه على ترك المنصب منذ تحقق أن السير غورست مستشار وزارة الداخليه إنتهز فرصة غيابه فى دار الفرنجة فبسط يده على سائر فروع تلك الوزارة ، وقلبها بطنا إلى ظهر ، فأصبح وهو الحازم الكبير العالم بقدر نفسه لا يقوى على إرجاع الأمور إلى نصابها . فبالغ فى كتمان ما فى نفسه حتي عن جماعة الوزراء الذين كانوا جلوسا معه فى قصر الإمارة ساعة تنازله . فلما تمثل بين يدى الأمير تقدم إليه فى قبول تنازله عن المنصب ، فأجابه إلى طلبه وأقاله . ولقد كانت بلغت منه الوحشة والقنوط مبلغا أيس[٣٩٧] عليه من مزيد ، فإنى لاقيته منذ يومين وحادثته فى بعض الشئون فكان لا يجيب عليها الا بالقبول[٣٩٨](نحن ماذا علينا؟ إذهبوا إلى فلان وإلى فلان من الإنجليز أصحاب المناصب) . قال(وكان هذا شأنه حتى أنزل نفسه وتركها لمن يتولاها) . قال وعندى أن من يتولى وزارة الداخليه اليوم إذا لم يكن ذا خبرة وحنكة وإرادة ثابته لم يستطع إلا أن يكون فى يد غورست آلة يحركها كيف يشاء وهذا ما لا يقبله الوزير معما[٣٩٩] ما يملكه من عظم[٤٠٠] وقدرة . فترك المنصب ليقبل عليه غيره ويحمل بحمله عنائه إن كان خبيرا حازما ويتمتع بهنائه إن كان من محبى الراحة والجمام) . قال(وأما مصطفى فهمى باشا فلعله ممن يحبون الراحة والجمام ويبتعدون عن كل ما فيه مغاضبة أو خصام . فإذا كان هو ذلك الرجل كما عرفناه فسيمتع نفسه بهناء المنصب وبهرجه ، وسيذهب مع الأغراض ويميل إلى الاستكانة كيفما مالت ، ويأتيهم طاعته عن رضاء وإصفاق . وربما بايعهم كارها أو طائعا على الموت الأحمر . يومئذ تتبدل الأمور ويقع المحظور وتكسر صورة الوطنية . وعلى قدر ما يبقى لنا منها يكون حظنا من مرافق الوطن ونوافله . وربما من حاجياته أيضا) قال . واعلم أنه معما[٤٠١] كان لذلك

(٣٩٧) ايس = ليس .
(٣٩٨) بالقبول = بالقول أو بقوله .
(٣٩٩) معما = مع ما .
(٤٠٠) عظم = عظمة .
(٤٠١) معما = مع ما .

الوزير[٤٠٢] من عزة الإستطالة ، فقد بلغت شدة أولئك القوم الإنجليز مبلغها ، وهو كما يعرف الناس غلاب لغلب[٤٠٣] منيته وتبرمه فى[٤٠٤] مراتب الرئاسة . فما ظنك بهم وقد خلالهم الجو وقل هرج جماعة الوزراء وزال الإنتقاض عليهم بزوال ذلك الشيخ الكبير؟ ووالله أنهم سيغلبون على ما بقى من الأمر واحدا واحدا ، وتنتقل السلطه من عميد إلى عميد رغم أنف كل عنيد . يقولون أن بغض الأمير لذلك الشيخ أنساه التأنى فى إختيار الخلف الصالح لمهمة الرأسة . وعندى أن الأمر على غير ما يتوهمون . فقد كان الأمير يعظم وزيره ، ويجله ويعرف مرتبته بين أهل الرياسات وأصحاب السياسات حتى لقد حسده على هذا خصومه وسجله على الأمير بطانته وأهل ديوانه . ولكم ما دس بينهم عميد الإحتلال من يلقنهم القول بأن حكومة البلاد إسلامية ، وأن دين سوادها الأعظم إنما هو الدين الحنيف . فليس من النصفة ولا من حسن السياسه أن يكون صدر وزراؤها[٤٠٥] نصرانيا . ولكم ما شوهدت هاته الكلمات السمجة الجارحة منقوشة على جدران بعض الأماكن فى المنافز[٤٠٦] الكبرى . كل هذا صنعه الإحتلال بيده وقاله بلسانه ، وظل يكيد للوزير كيدا حتى أقصاه عن كرسيه غاضبا ، وأجلس مصطفى فهمى باشا على منصته راضيا فرحا) . قال وإنى أشهد الله وملائكته على أن الأمير لم يكن ليرضى رياسة مصطفى فهمى باشا ولا أن يتخذه بديلا من ذلك الشيخ الفانى ، لأنه أعلم الناس بما بين الرجلين من الفارق العظيم ، ومبلغ قدرة كل منهما على مكافحة كوان[٤٠٧] هذا الزمان . ولكن وعد الإحتلال ووعيده وإرهاصاته وتهديده وكيد لورد كرمر عميده

---

(٤٠٢) يقصد (نوبار) .
(٤٠٣) لغلب = لقرب قراءة ترجيحية .
(٤٠٤) فى = من قراءة ترجيحية .
(٤٠٥) وزراؤها = وزرائها .
(٤٠٦) المنافز = المدن قراءة اجتهادية .
(٤٠٧) كوان = كوائن قراءة ترجيحية .

حمل الأمير على الرضاء مغلوبا حتى يأذن الله بالفرج القريب) قال . ولا تتقن[٤٠٨] بما يلقى اليك غير هذا ، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله سبحانه الهادى إلى الصواب) .
أ .هـ .

أقول واجتمع الوزراء وبينهم الرئيس مصطفى فهمى باشا ، وساروا إلى قصر الإمارة وتمثلوا بين يدى الأمير ، فأظهروا ولاءهم لعرشه وقبلوا يديه وانصرفوا . فزار مصطفى فهمى باشا الوزير نوبار باشا فى داره بخطة أولاد عنان[٤٠٩] . فأكرم الوزير لقاءه وحادثه طويلا فيما لم تصل الينا معرفته . وقد تحقق عزم الوزير نوبار باشا على مبارحة هذه الديار والذهاب إلى ديار الفرنجة . قال يبقى بعيدا عن متاعب السياسة ومقامات أهل الرئاسة . فاستأذن الأمير فى السفر ، فأذن له . فظل على عزمه حتى أتاه كتاب أصحاب سياسة الإنجليز بأن ملكتهم أحسنت اليه بوشام[٤١٠] نجمة الهند الكبرى ، وهو من أكبر نياشينهم وأعظمها قدرا . فهنأه كبار القوم وأهل السياسه وزاروه أياما متتابعة .

وصل

فى دور جديد وشــــر عتيـــد

تسلم مصطفى فهمى باشا عرش الرئاسة محمولا على أيدى عميد الإحتلال أو أعناق جنوده ، فلم يظهر بين جماعة الوزراء ذلك الفخور المختال كما ظهر(مصطفى رياض باشا) على عهد الخديو توفيق باشا يوم تولاها محمولا على أيدى صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس ، بل كان بينهم وديعا

---

(٤٠٨) تتقن = تأخذ قراءة ترجيحية .
(٤٠٩) خطة أولاد عنان = المنطقة المواجهة لميدان الجلاء والمجاورة لمستشفى الهلال الأحمر وشارع الجمهورية بالقاهرة الآن ـ قارن محمد حسام الدين (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٤ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
(٤١٠) بوشام = بنيشان .

متواضعا لين العريكة حلو الكلام ، ولكنه لا يملك من إرادته ما يملكه منها خصمه إذا جادله .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر نوفمبر من السنة ، وسادس عشر جماد الأول سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف ، إجتمع مجلسهم فلم يطل إجتماعه . وأصبح يوم الجمعه فسافر الرئيس إلى مزرعته بالمحلة الكبرى وعاد يوم السبت . وكان صاحب الأهرام قد أحس بشيء من النفور بين جماعة الوزراء ،أو هو أراد أن يمحص لهم النصح فكتب لهم كتابا مفتوحا في جريدته . يقول .(إلى السادة الوزراء المحتمرين[٤١١] ،إنكم من فضل ونعمة الأمير العزيز في أرفع مكانة تشرئب إليها الأعناق وتتمادى إليها المطامع ، ولكنها بمقدار ما ترفع أصحابها إذا أخلصوا واستقاموا وأحسنوا عملا ، تسقطهم وتذلهم إذا هم تزندوا وتعوجوا وأساؤا فعلا . قال والمسئولية القائمة عليها مناصبكم ميزان ذو كفتين . بمقدار ما يشرف ويرتفع في إحداهما قدر المحازمين الوطنيين ، وينحط في الأخرى قدر الضعفاء المنقادين لأهواء ذوى الأغراض والغايات . وأنتم أعزكم الله أوسع علما وأدرى بما قدمناه من المبادىء . وإنما نقول على سبيل التذكير لمن تنفعه الذكرى .

هذه الجلسة الأولى التى إجتمع فيها اليوم بعد إنحلال الوزارة السابقة وأنتم أنتم : رأسكم كبير منكم ، وانضم إليكم قرين[٤١٢] ليس بالغريب عنكم .ونحن نرجو أنكم كما أمضيتم جلستكم هذه بتمام الإتفاق على كونها

(٤١١) المحتمرين = المحترمين .

(٤١٢) يقصد محمد عبانى باشا ناظر الحربية والبحرية ـ فقد تشكلت نظارة مصطفى فهمى باشا الثالثة (١٢ نوفمبر ١٨٩٥ ـ ١١ نوفمبر ١٩٠٨) من نفس وزراء حكومة نوبار الثالثة السابقة باستثناء عبانى باشا الذى كان ـ يتولى منصب الوزارة الأول مرة ـ وكان قبل ذلك يشغل وظيفة تشريفاتى أول الخديو عام ١٨٩٣ ـ وفى ٥ أغسطس من نفس العام انعم عليه الخديو برتبة ميرميران (باشا) ـ وفى ٤ نوفمبر ١٨٩٣ عينه الخديو (سرتشر يفاتى خديوى) .
ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٩ ، ١٧٨ .

لم تعرض عليكم شؤون جسيمة ، فكذلك فى جلساتكم الآتية ألتى تكون موادها ذات بال ولا[٤١٣] تحدث فيما بينكم تفرقة بالرأى ، إلا من حيث ما يعتقد كل منكم نفعه للأيلاد[٤١٤] ، أو إضراره بها مع قط النظر تماما عن الخصوصيات أو الشخصيات . ومثل هذا الإتفاق لا يصعب على كريم شيمكم .

أنتم مهما تنوعت إعتقاداتكم وتباينت أفكاركم فى الأحوال السياسية مصريون ، وقبل كل شىء مصريون . فلا ذهلت عن ذلك عقولكم المنورة ، ولا بعدت عنه عواطفكم التى ينبغي أن تكون أحسن العواطف على البلاد التى وليتم أمرها بإرادة أميرها وأميركم .

ويقول أقوام إن وزارتكم لا تدوم لأن أمورا لا مساس لها بالمصلحة العامة ستدخل بين ما يجب عليكم وبين ما نحاسبكم من مثل هذا . ولو وقع لا سمح الله لكان فضل الأمير ضامنا إعادة الإتفاق وحسن العاقبة .

ثم يقول جماعة إن بعضكم يعتبر نفسه موجودا فى منصبه لغير[٤١٥] قومه . ومعاز[٤١٦] الله أن يحول عرض خارجي بين قلب المصرى والإشفاق ، إن لم نقل الأنعطاف على الأرض التى ولد فيها وأنمته ، والهواء الذى أحياه ، والقوم الذين إرتفع من بينهم محمولا على أيديهم ، والمولى الذى إصطفاه منهم وأرقاه عليهم ليصدق فى خدمتهم . إن ذلك ليكونن آخر الهوان لا سمح الله .

ثم يقول آخرون إن بعضكم يتأثر من معارضة البعض له فى رأيه أيا كان . وهنا[٤١٧] ما لا نصدقه حرصا على شرف المناصب العليا التى لا يقوم أقل عمل من أعمالها إلا بالمناقشات وتبادل القول والفكر . إن الناس فى غير المجالس

---

(٤١٣) ولا = لا قراءة ترجيحية .

(٤١٤) للإيلاد = للبلاد .

(٤١٥) لغير قومه = لغير مصلحة قومه أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٤١٦) ومعاز = ومعاذ .

(٤١٧) وهنا = وهذا .

الرسمية التى تتعلق بها مصالح عامة جسيمة لا يكاد يعتب أحدهم على آخر إن خالفه فى رأى وحاوره فيه . فكيف يكون ذلك ممن ولوا أمر الناس بصورة حكومة دستورية؟

وإننا أيها السادة مع تمام الإتضاع[٤١٨] لديكم والإحترام لمقامكم قد أيدنا[٤١٩] لكم ما يهمكم معرفته من مذاهب كبار القوم وعقلائهم فيكم ، ولا قصدنا إلا أن نخلص[٤٢٠] خدمتكم لولى النعم أفندينا المعظم ولإخوانكم المصريين .

ولا ريب أنه ليس فيكم من يفضل عنده المنصب الشرف والمراتب والكرامه وأنفع[٤٢١] الذاتى نفع القوم أجمعين ، وجعل الله هذه الأمة المنتظرة منكم الخدم الجليلة والفوائد الجزيلة تشكر عناءكم وتنشر ثنائكم)أ .هـ فكان بعض الوزراء يرى فى هذا الخطاب تذكرة وعبرة وبعضهم يراه سيئة أو تحزيرا[٤٢٢] من جانب ديوان الأمير . فأكثر أصحاب صحف الفرنسيس من مدح الوزير نوبار باشا والثناء عليه ، وقالوا لقد فاز أصحاب الإحتلال بأمنيتهم ، وقتلوا بخلعه لنفسه آخر رجال السلطة القديمة ، وتخلصوا منه كما تخلصوا من الوزير(شريف باشا) من قبله ، وأشاروا من طرف خفى إلى أن أولئك القوم الإنجليز يريدون أن يجهزوا على ما بقى لمصر من الإستقلال بإقامة (مستشارين) منهم فى جميع المديريات والمحافظات . وحزروا[٤٢٣] الأمير ورجال دولته من الوقوع فى هذه الهاوية التى لا قرار لها . وشاع خبر[٤٢٤] بين الناس فأكبروه ، ونقله أصحاب الصحف المحلية وعلقوا عليه ورده[٤٢٥] ردا

(٤١٨)الاتضاع = الإتصياع قراءة ترجيحية .
(٤١٩) ايدنا = ابدينا قراءة ترجيحية .
(٤٢٠) نخلص = تخلص .
(٤٢١) وانفع = والنفع قراءة ترجيحية .
(٤٢٢) تحزيرا = تحذيرا
(٤٢٣) وحزروا = وحذروا .
(٤٢٤) خبر = الخبر .
(٤٢٥) ورده = وردوه قراءة اجتهادية .

سمجا خشنا . فاستدرك لورد كرومر ، يقال وأكد للرئيس مصطفى فهمى باشا أنه لا يقع من ذلك شيء البتة وأنه رسم إلى السير غورست بأن لا يبقى موظفا إنجليزيا فى المديريات منذ ذلك اليوم . وقد حدث السير غورست جماعة من أهل المناصب يقول إن أقامة مستشارين من الإنجليز فى المديريات يعتبر عنده إستخفافا بكفاءته ودليلا على عجزه ، فهو يمنع ذلك بكل ما تصل إليه قدرته ، ومع كل هذا والناس لا يصدقون ويقولون إنها محنة لا بد منها .

وبينما الناس فى تفكير فيما عساه أن يقع من تنصيب أولئك المفتشين[٤٢٦] ونزع ما بقى من أيدى الحكام المصريين من تلك السلطة الضئيلة التافهة ، إذ علت صيحة أصحاب الصحف المحلية حول كتاب مفتوح خطه يراع كبير من ضباط الإنجليز الذين قضوا أياما من الدهر عند تخوم أوغندا . حاصل ما فيه أن فتح السودان المصرى وقهر مهدويته أمرا هينا وميسورا إذا هم أرشوا التعايشى وأجزلوا له العطاء . فظن أصحاب تلك الصحف أن هذا الامر مغرى على فعله لن[٤٢٧] لم يكن أمرا مقضيا . فجعلوا ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور ويقولون هاقد حصحص الحق وبان أن فرار سلاطين[٤٢٨] باشا والأب روسنيولى كان بالرشاء ولولا ذلك ما فك سلاطين ولا كسرت أغلال روسنيولى . واشتدت ضجتهم وساعده[٤٢٩] على ذلك أيضا أصحاب الصحف

---

(٤٢٦) المفتشين = مفتشى الداخلية الإنجليز .
ـ راجع حاشية ٦٣٥ ص ٣٩٧ .

(٤٢٧) لن = إن .

(٤٢٨) سلاطين باشا = راجع حاشية ١٥٦ ص ٢٩٩ . وكان سلاتين Slatin قد عاد من السودان خلال شهر مارس ١٨٩٥ بعد أن كان قد قضى فيها ثلاثة عشر عاما أسيرا عند الثوار المهديين . وترجع صلة سلاتين بالسودان إلي عام ١٨٧٩ عندما عينه إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) مفتشا ماليا هناك ــ وبعد بضعة شهور عينه حاكما على إقليم دار فور . وعند وقوع الثورة المهدية سلم مديريته للمهديين بغير قتال (أواخر ١٨٨٣) وتظاهر باعتناق الإسلام وتسمى باسم (عبد القادر) . وقد كان فرار سلاتين من يد المهديين عام ١٨٩٥ بمعرفة قلم المخابرات بالسردارية والذى كان يرأسه وينجت Wingate بك ــ لدى عودته أنعم عليه (عباس) برتبة الميرميران (باشا) .
ــ مذكرات محمد فريد بك ــ القسم الأول ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٣٤ .

(٤٢٩) وساعده = وساعدهم قراءة ترجيحية .

الفرنساوية ، وأكثروا من تقريع صاحب السياسة الإنجليزية ووخزه بقارص الكلام . وكاد كتشنر باشا السردار يتميز غيظا إذ إنهالت عليه التهم من كل صوب وتناولته الألسنة ذما وتجريحا ، حتى زال كل ريب فى أن كل حركة يأتيها التعايشى إنما هى بإيعاز من جماعة الإنجليز ، وأن وقوف الإنجليز عند التخوم إنما هو خدعة حتى يتم لهم ما يريدون من أخذ البلاد على ما يشاءون . سألت أحد كبار الجند عن رأيه فى هذه الضجة وما يعلمه من أمر التعايشى ، وكان قد قضى فى السودان حينا يقاتل الدراويش ومدعى المهدوية مع عبد القادر باشا قال . (إعلم أن الذى قاله ذلك الضابط الإنجليزى فى كتابه من سهولة الفتح بالرشاء والبرطيل وميل التعايشى إلى هذه الغاية الدنسة فهو حق لا مراء فيه ، وقول سمعناه مَن عز(٤٣٠) واحد من القوم الإنجليز منذ قامت جيوشهم بحماية التخوم ، وانبثت عيونهم بين أصحاب التعايشى ، واستمالوا أهل المراصد منهم بالرشاء . قال والرجل كما إشتهر عنه غنى كثير المال محب لجمعه بكل وسيلة ، ولذا قد جعل أخاه مستشارا له ، قاضى الأمر فى سائر الأحوال ، وهو يعول عليه فى كتمان سره والإنقياد لجميع أغراضه . ولأمين بيت المال عنده مكانة عالية وكلمة نافذة ، فلا قول لأحد من المقربين لبابه ولا قواد جنده فى شىء من شؤون المملكة ولا فى تدبير حركة القتال ومراقبة الإشراف . وذلك لحرصه على مملكته وحفظ سلطانه . قال فإذا تفهمت ذلك لا يسعنا أن نوصم الرجل بوصمة الرشاء لبيع ملكه أللهم إلا إذا كان ذلك من جانب أخيه وأمين بيت ماله ، فإنهما أول المرتشين ولهما عليه سلطة قوية فيما يشاءان عمله أو يريدانه منه ، فليس بعسير على القوم الإنجليز أن يستخدموهما فى مأربهم كأنهم يستخدمونه هو نفسه وينالون منه . قال ولقائل أن يقول كيف تمكن(الأب روسينيولى) أولا من الهرب ثم(سلاطين) ثانيا ثم جماعة من

(٤٣٠) نمر = غير .

(أسرى برميس[٤٣١]) ثالثا ، وهؤلاء قد فك عقالهم ونقد كل منهم خمسين ريال ووهبهم زادا ونوقا وأتبعهم خدمة ورجالا) قلت إن من يتأمل فى ما هو صائر فى المخابرات بين السودان وأصحاب المرابط بالتخوم . والأخذ والرد مع دعاة الخارجى يعرف أن لابد أن هناك سر لم يدرك بالحدس والتخمين إلى يومنا الذى نحن فيه ، وأنه بذلك السر قد فر أولئك الفارون لاسيما منهم سلاطين الذى لم يكن ليفارق باب التعايشى ليل نهار . وأنه لمن العجب أن يعيد الينا التعايشى أسرى بريس بعد فرار سلاطين ، وقد جاءتنا صحف الإنجليز ملأى بما وصل إليهم من أخبار تهيج التعايشى ، وزمجرته وعضه الأنامل غضبا على فراره ، وكيف أنه كاد يقتل كل كبير من قومه بسبب فرار سلاطين . ولعل القوم الإنجليز يتراسلونه بسلامة ملكه ويمنونه بالأمانى الكبار . فاستأثروه وحملوه على مجاملتهم راضيا . حتى إذا قالو أن إرسل جنودا إلى كسلا أو جيش جيوشك على جهات خط الاستواء أو إطلق دراويشك لمناوشة التخوم فعل غير ممتنع) ــ قال وهذا ما يجعلنى أقول أن القوم لا ينكبون عن طريقهم هذا المحمود حتى يدخلون السودان طوعا من التعايشى أوكرها وتؤول لهم فى[٤٣٢] أوغنيمة بعد نسف حصون التل[٤٣٣] الكبير . ومن يعيش يرى ، والحق من وراء ما هم فاعلون .

ولما كان ثانى عشر ديسمبر من السنة ، أى خامس عشرى جماد الثانى ، جاء الخبر من محافظ بورسعيد إلى وزارة الداخليه بأن مياه بحيرة المنزلة قد طفت على الشق الحائل بينها وبين حى العرب بذلك البلد ، فجرفته وفاضت

(٤٣١) برميس = باريس قراءة ترجيحية ــ وعن أسرى باريس ــ راجع حاشية ٤٦٩ ص ٥٤٧ .

(٤٣٢) فى = فئ .

(٤٣٣) ربما تكون عبارة (التل الكبير) قد وردت خطأ ــ فحديث شاروبيم عن السودان والتعايشى ــ وبالتالى فإن الحصون المقصودة قد تكون حصون (أم درمان) مقر الدعوة المهدية ــ وليس (التل الكبير) التى هزم فيها (أحمد عرابى باشا) فى سبتمبر ١٨٨٢ .

على منازل الحى المبنية من الخشب فأغرقتها ، والناس نيام فلم توقظهم إلا الأمواج تتلاطم على جدران مساكنهم ، والمياه تنحدر إليها ، فهبوا مذعورين ، وخرجوا على وجوههم حفاة عراة يصيحون ويولولون . وكان هذا يحمل شيئا من متاعه وذلك ينقل عياله ، وتلك تصيح واصبيتاه . وما هى إلاساعات معدودات حتى تحول الحى إلى بحيرة تمخر فيها القوارب لتنقل الناس وما بقى لهم من متاع . قالوا وإن أولئك الذين نكبوا بهذا الغرق قد كانوا نكبوا بالحريق على رأس هذا العام الميلادى . قلت وما إجتمعت هاتان المصيبتان على أناس إلا أنزلتا بهم كل المصائب وجعلتهم عبرة زاجرة لطف الله بهم وبنا . واهتم الأمير بهذا الحادث كثيرا ، وشدد على وزيره مصطفي فهمى باشا بالعناية بأمر المنكوبين ، فأرسلوا إليهم بكثير من الخيام والأغطية وشيء من المؤن ، وأقاموا أصحاب الشرطة على حراستهم أياما ، حتى رمموا ما تشعث من محلتهم وعادوا إليها . وكان هذا الفيضان الأول من نوعه فى ذلك البلد ، ولله فى خلقه شئون . وجاء من محافظ الإسكندرية فى ذلك اليوم بعينه أن السماء أمطرتهم بعد ظهر اليوم وطول ليلتهم مطرا هامرا أسال الطرق وملأ الازقة حتى كادت أسقفة البيوت تندك ، وهاج البحر على أثر هذا المطر هياجا عظيما للغاية ، فكانت الأمواج تتلاطم بشدة ولها صوت كصوت المدافع ، فأغرقت كثيرا من القوارب والسفن الصغار ، وتأخرت السفن الكبار عن مواعيد وصولها وأصاب ركابها ضيق عظيم حتى أعوزهم الطعام والشراب ، ووصلت الأنباء إلى رجال الميناء بغرق الكثير من المراكب الشراعية وقوارب الصيد ، وامتلأت الشواطىء عند الرمل وأبى قير وغيرها بأخشاب ما تحطم من تلك السفن ، فكان الخطب جلل والمصاب عظيما . وسقط برد كثير فى جهة مريوط واستمر سقوطه ساعات كثيرة حتى كسى تلك الأرض رداء أبيض ، قالوا أنه بلغ سمكه نحو أربعة سنتيمترات ، وهذا من فلتات الطبيعة فى ذلك اليوم أيضا .

ووصلت الأنباء متتابعة من مصوع بانتشاب الحرب وقيامها على ساق(٤٣٤) عند (أبلاكى)(٤٣٥) بين الحبشان وعساكر الإيطاليان .وقد مر بك أن الحبشان كانوا على قدم الهجوم على العساكر الإيطالية وقطع خطوط الإتصال بينها وتريق(٤٣٦) شملها ، وأن الرأس ماكونين قدأخذ أهبته لذلك ، فلما أتم ماكونين ما أراد سار بجيوشه حتى فاجأ فرقة الماجورتوزيلى بقوة تبلغ عددها عشرين ألفا ، وكان هذا(الماجور) معسكرا على بعد بعض أميال فيما وراء التخوم الإيطالية ، فاحاط به من كل صوب ، واشتد على الطلائع الإيطالية شدة بالغة فولوا جميعا الأدبار ، فتمكن من قطع المواصلات بين بقية العساكر(وقلعة ماكالى) . وقد ابتدأ القتال من الساعة الثامنة من صباح السبت الواقع سبعة ديسمبر من السنة وانتهى فى الرابعة بعد الظهر ، فظفر الحبشان بالإيطاليان ، وأعملوا فيهم القتل بحد السيف ، وغنموا منهم ألفين بندقية ومدفعية جبلية كاملة ، وعلى شيء كثير من المؤن والذخيرة والأمتعة ومعدات الحرب . أما أمبالاكى التى وقعت الحرب عندها فهى نجد يبلغ إرتفاعه ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر مترا ،وكان الماجور توزيلى نازلا فيه مع عساكره لأن الإيطاليين كانوا إحتلوه منذ عهد قريب ، وهو على بعد ماية وثلاثين كيلو مترا من جنوبى معسكر(أديكرات) . قالوا وأما الماجور توزيلى فلا يعلم عنه إن كان قتل أو أخذه الأحباش أسيرا ، ولكن الذى تحقق هو أنه لم يفلت من جنوده سوى ثلاثين ، وقد كانوا ألف وخمسمائة مقاتل(٤٣٧) .ولما ترامى الخبر إلى(قلعة ماكالى) التى

(٤٣٤) ساق = قدم وساق .

(٤٣٥) ابلاكى = أمبا آلاجى .

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٥ .

(٤٣٦) وتزيق = وتمزيق .

(٤٣٧) يتحدث المؤلف عن موقعة أمبا آلاجى (٧ ديسمبر ١٧٩٥) . خلال النصف الأول من تسعينيات القرن التاسع عشر ــ وفى أعقاب سقوط وزارة كريسبى وتولى رودينى السلطة فى إيطاليا ، أهملت إيطاليا مزاعمها فى بسط الحماية على أثيوبيا ـ تلك الحماية التى كانوا يزعمونها بعد توقيع معاهدة أوتشيالى مع أثيوبيا فى ٢ مايو ١٨٨٩ . فى الفترة التالية إنشغلت إيطاليا بتسوية مشكلاتها مع بريطانيا فى السودان الشرقى ــ والتصدى لتهديدات المهديين لأريتريا ــ فكانت معركة أجوردات فى ٢٧ يونيو ١٨٩٠ التى هزم فيها المهديون على يد القوات الإيطالية ، وكان إتفاق ١٥=

لم تبعد عن(أمبـلاكى)[٤٣٨] سوى خمسة وستين كيلو مترا قام(الجنرال أريموندى) بقوة لإنجاز[٤٣٩] توزيلى ، فصده جيش الحبشان وزجره ، فقهقر[٤٤٠] بمن بقى مسرعا حتى بلغ طريق(أديكرات) الواقعة على سبعين كيلو مترا وراء(ماكالى) لينتظر (الجنرال باراتييرى) قائدهم العام . قالوا ويظن أن مانليك زاحف على رأس جـيش عظيم من طريق أخـرى ليـقـضى على من بقى من جماعة الإيطاليـان ، وأن موقفهم قد أصبح حرجا وضنكا إذا تحقق إتجاه هذه القوة الثانية نحو (صنافه) . فقد طالما حاول رأس منعاسيا[٤٤١] أن يأتى هذه الحركة حتى أفلح وكاد يقطع بها الصلات بين الجنرال باراتييرى ومصوع . قالوا ولسوف تقضى هذه النصرة المؤثرة على نفوذ الإيطاليان فى مستعمرتهم القضاء العاجل وتعظم فى[٤٤٢] شـأن مانليك وتكبر هيبته فى أعين خصومه . قلت

= ابريل ١٨٩١ الذى منحت به بريطانيا إيطاليا حق إحتلال كسلا ، ثم كان إحتلالهم لكسلا فى يوليو ١٨٩٤ . خلال هذه الفترة كان الموقف فى أثيوبيا يتطور لغير صالح الإيطاليين ـ فقد كان منليك إمبراطور أثيوبيا يعمل على توحيدها كلها فى دولة قوية . ويحاول تكتيل كل زعماء بلاده للوقوف فى وجه الإيطاليين ـ فتحالف مع منافسه الرأس (منجشا) . ومع عودة كريسبى إلى الحكم فى نهايات ١٨٩٣ عاودت إيطاليا أحلامها فى السيطرة على أثيوبيا . ورغم الثورة التى قامت فى أريتريا ضد الإيطاليين فى ديسمبر ١٨٩٤ إلا أن الإيطاليين قررو الزحف على (عدوه) عاصمة تيجرى بعد سحق الثورة فى أريتريا . فى ٢٨ ديسمبر ١٨٩٤ تمكن الإيطاليون من دخول (عدوه) بعد أن أخلاها الرأس (منجشا) حاكم (تيجرى) . فى بدايات ١٨٩٥ وبعد نجاح منليك فى التحالف مع (منجشا) شرع فى الإستعداد عسكريا لمنازلة الإيطاليين . وفى المعارك التالية مع (منجشا) نجح الإيطاليون فى هزيمته وأعلنوا ضم (مملكة تيجرى) إليهم . فى ذلك الوقت كان منليك قد أصبح مستعدا لمنازلة القوات الإيطالية ـ وعندما علم الجنرال باراتيرى حاكم أريتريا بأن قوات منليك قد اتجهت شمالا ، قام بإرسال قوة إستطلاعية قوامها ألفى مقاتل لمواجهة قوات (منليك) ـ لكن طلائع جيش منليك بقيادة الرأس ماكونين حاكم هرر هزمتها هزيمة نكراء فى أمبا ألاجى فى ٧ ديسمبر ١٨٩٥ ـ شرع الإيطاليون فى إخلاء (عدوه) بعد إحراقها ـ وكان هذا إيذانا بفقدهم لنفوذهم فى (تيجرى) .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٣ ـ ١١٦ .

(٤٣٨) أمبلاكى = أمبا ألاجى .

(٤٣٩) لإنجاز = لإنجاد .

(٤٤٠) فقهقر = فتقهقر .

(٤٤١) منعاسيا = منجشا .

(٤٤٢) فى = من .

وماكونين قائد الجيوش الحبشية الذى تتوج بتاج هذا الإنتصار على جماعة الإيطاليان هو ذات الرأس بعينه الذى أرسله مانليك منذ عشر سنوات سفيرا إلى ملك إيطاليا وفوض اليه عقد عهدة الصداقة معه ، وهو رجل حاد الذكاء وافر العلم كبير الإطلاع على سياسة الدول مهذب فصيح اللسان . قال أصحاب الصحف الإيطاليه يدرى(٤٤٣) عند الحاجة أن يتكلم كثيرا ولا يفهم منه شىء ، شأن رجال السياسة المحنكين ، فهو السفير الذى كان يعتمد عليه مانليك فى تدبير الأمور وإدارة دفة السياسة الحبشية . فلما بلغ رومه عاصة الإيطاليان تنزله(٤٤٤) الملك ضيفا مكرما فى قصر(بيرافورى) ، وبالغ فى الحفاوة به وعملوا أمامه مناورة عسكريه كبيرة ، قالوا فكان يرقب حركاتها بانتباه تام ويبتسم إبتساما خفيفا . وقد سأله حينئذ أحد كبار الجند عن رأيه فى تلك المناورة فاجابه أنها أشبه بسباق الخيل . أما نحن الأحباش فإننا لا نظهر أنفسنا وقتا طويلا للعدو قبل مهاجمته كما يفعل جنودكم ، بل نهاجمه على غرة منه فى الوقت الذى لا يتوقع أن نهاجمه فيه ، وإذا لم توافقنا مهاجمته جهدنا فى أن لا يتمكن من إحصاء عددنا والوقوف على أحوالنا . ولما وصل نبأ أندحار العساكر الإيطالية إلى رومة قام أصحاب سياستهم وقعدوا ونادى عميذهم وهو(المسيو كرسبى) بخروج العساكر لنجدة من بقى من رجالاتهم . فاهتموا بإرسال المدد والمؤن ومعدات الحروب . ووصلت كتب صاحب سياستهم إلى(الجنرال باراتيرى) بالتربص وعدم مبارحة حصونه ، فتتربس(٤٤٥) حتى يأتيه المدد . وعلم أصحاب سياسة الإنجليز بنصرة الأحباش وتكلم أصحاب صحفهم فى ذلك . فمنهم من كان هازءا فى قوله مؤنبا ، ومنهم(٤٤٦) كان ناصحا لجماعة

---

(٤٤٣) يدرى = يُرِى قراءة ترجيحية .
(٤٤٤) تنزلة = أنزله .
(٤٤٥) فتتربس = والتترس .
(٤٤٦) ومنهم = ومنهم من .

الإيطاليان بترك تلك الأطراف المتناثة(٤٤٧) والفوز من الغنيمة بالإياب . ومنهم من أنحى على أصحاب السياسة الإنجليزية باللائمة ، واتهمهم بسوء النية وخبث الطوية ، لأنهم علة شقاء وبلاء الإيطاليان فى تلك الأنحاء ، بما زينوه لهم من إستعمارها وهونوه عليهم من استثمارها ، إذا هم اشتركوا مع العساكر الإنجليزية فى فتح الطريق إلى الخرطوم ، وقطع شأفة أصحاب المهدوية . ومنهم من نصح لأصحاب السياسة الإيطالية أن يتركوا الحبشة(٤٤٨) ما تركوهم . وجاء إلى بعض التجارة(٤٤٩) بالقاهرة ومصر كتبا من(مصوع(وسواكن)فى معنى ذلك . وما هى إلا أيام قلايل حتى ظهر الهرج بين مقدمى العساكر المصرية من الإنجليز ، وسافر السردار مسرعا إلى التخوم ، ثم جاءت كتبه إلى وزارة الداخلية وديوان الإمارة بقيام إثنى عشر ألفا من أصحاب المهدوية أو يزيد قاصدين مهاجمة كسلا واستخلاصها من أيدى الإيطاليان ، وأنه قد تم الإتفاق بين الدراويش والحبشان على ترك مقاتلة بعضهم لبعض والتضافر على قطع شأفة الإيطاليان ، واستخلاص البلاد من أيديهم بكل وسيلة ممكنة ، وأن الخوف عظيم من إتحاد القوتين وتضافر العدوين . ورسم السردار بإمداد حامية سواكن وتقوية أهل المراصد فيها .فسيروا بطائفة من العساكر إلى سواكن على ظهور السفن ومعهم شيئا كثيرا من المؤن والذخيرة ومعدات القتال ،وسافر كذلك نفر من كبار الإنجليز ، ثم علم بعد ذلك أن كل المدد الذى قام لنجدة (الجنرال باراتييرى) لا يكفى لهذه الحملة الشعواء ، وأن موقف الإيطاليان حرج وبقاءهم فى حصونهم أحرج ، وقد ثبت أن الرأس ماكونين ذلك القائد الباسل كتب إلى الماجور توزيلى قبل أن يهاجمه يأمره بالرجوع كما يقول مانليك ، فإذا لم يطع هاجمه وفرق جموعه شزرا ، وأن الإمبراطور قادم بعده . فلما لم يزعن(٤٥٠) ضربه

(٤٤٧) المتناثة = النائية قراءة ترجيحية .
(٤٤٨) الحبشة = الأحباش قراءة ترجيحية .
(٤٤٩) لبعض التجارة = بعض التجار .
(٤٥٠) يزعن = يذعن .

وجنوده تلك الضربة المهلكة . فلم يبق على أحد منهم إلا من طال عمره ولاذ إلى الفرار . وظل الحال على هذا والمدد متتابع ، وقد ظهرت على رجاله علامات الهرج والضجر حتى كاد صاحب سياستهم[٤٥١] يسقط فى يده ، وحتى بدأت الوحشة بينه وبين صاحب السياسة الإنجليزية . قال لى أحد كبار الجند المصرى ممن أقام زمنا طويلا فى السودان الشرقى .إن جماعة الإيطاليان غير مفلحين فى هذه الآونة وأنهم مدحورين لا محالة ، ولقد قيض الله لخدمة مصر أولئك الحبشان فضربوا(باراتييرى) وجيوشه تلك الضربة القاضية ، فأشغلوا الإيطاليان والإنجليز معا عنا وأضعفوا غايتهما فينا ، وزعزعوا أركان تحالفهما ضدنا . فإذا ظل الحال على هذا حينا كانت العاقبة خيرا والصبر محمودا إن شاء الله أ .هـ ومما إستوجب العجب أنه معلوم ومحقق من خزلة الإيطاليان ونصرة جماعة الحبشان وأخذهم الأطراف على من بقى من عساكر(باراتييرى) . فقد كانت الصحف الإيطالية تأتى ملأ[٤٥٢] بأخبار ميل الرأس ماكونين إلى مصالحة الإيطاليان واسترضائهم وبرد ما غنموه[٤٥٣] منهم عن رغبة ورهبة .ومرت فى هذه الأثناء من قناة السويس إحدى البواخر الإيطالية زاهبة[٤٥٤] إلى مصوع تحمل بعض المؤن والذخيرة ، وعليها أيضا عضو من دار الندوة الإيطالية إسمه(الكونت ماكالا) ذاهب إلى المستعمرة مع قائد من قوادهم أسمه (الكولونيل أفيسانو) . قالوا مكلف بمهمة خصوصية لتضارب الأقوال فيما هو صائربها واختلاف الروايات . فعندى أن من كان هذا شأنهم فلا رهبة تقع على عدوهم ولا رغبه فى طلب صلحهم ، لا سيما والقوم يعوزهم المال ومعدات القتال . فقد قالت إحدى صحفهم المعروفه(غازيت بيامونتيزى)

---

(٤٥١) صاحب سياستهم = يقصد وزير الخارجية الإيطالية .

(٤٥٢)ملأ = ملأى .

(٤٥٣) غنموه = غنمه .

(٤٥٤)زاهبة = ذاهبة .

أن (الجنرال باراتييرى) قد إضطر إلى الصرف[٤٥٥] المرتزقة من جنوده الأهلية لعدم وصول المال إليه للنفقة . وتقول جريدة(رومه) أن الجنرال هذا أرسل يطلب المدد الكثير ، إذ بات فى حكم المقرر إنضمام أهل المستعمرة الإيطالية[٤٥٦] أنفسهم إلى صفوف الحبشان ، فلم يرد إليه شىء من ذلك . قالوا وأما خسائر معدات القتال والذخيرة فى تلك المعركة الأخيرة فقد بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة بندقية ، وثلثمائة ألف خرطوشة كانت فى مخازن(أنتالو) ، وستة مدافع جبلية بذخائرها ، ومئونة كثيرة وخزينة الجيش ولم يكن بها إلا بضعة آلاف من الفرنكات . وقد كثرت أقوال صحف الإنجليز بشأن(زيلع)[٤٥٧] والتنازل عنها إلى جماعة الإيطاليان أو التسريح لهم باجتيازها . فكان أصحاب تلك الحصف[٤٥٨] يقولون إن ذلك أمر عسير لأنه يؤدى إلى خلاف بيننا وبين الحبشان ،ويضطرنا إلى إرسال حملة نحن فى غناء عنها ،حتى لقد قالت إحداهم بأن ليس فى وسع صاحب سياستنا أن نقدم[٤٥٩] إلى جماعة الإيطاليان

---

(٤٥٥) الصرف = صرف .

(٤٥٦) المقصود هنا مستعمرة أريتريا .

(٤٥٧) زيلع = ميناء يقع على الساحل الأفريقى لخليج عدن ـ كانت حتى عام ١٨٧٥ تخضع إداريا للواء (الحديدة) فى اليمن ثم ضمت إلى مصر عام ١٨٧٥ بمقتضى فرمان صادر عن السلطان العثمانى عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) . بعد فتح مصر لهرر فى أكتوبر ١٨٧٥ شكلت حكمداريه هرر وملحقاتها (١١ نوفمبر ١٨٧٥) وجعلت (زيلع) و (بربره) محافظتين تابعتين لهذه الحكمدارية . كانت (سواكن ومصوع) قد ألحقتا بمصر عام ١٨٤٦ عندما أستأجرهما محمد على ـ وكان قد سقط حق إلحاقهما فى عهد عباس (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) إلا أن إسماعيل استصدر من السلطان العثمانى عام ١٨٦٥ فرمانا بإحالة الميناثين إلى مصر . مع قرار إخلاء السودان عام ١٨٨٤ أخلت الحامية المصرية (مصوع) سنة ١٨٨٥ لتحتلها إيطاليا فى نفس العام . وكانت إنجلترا قد استولت على (زيلع) و (بربرة) عام ١٨٨٤ ـ أما (هرر) فقد عادت إلى الأسرة التى كانت تحكمها قبل الفتح المصرى (سلطنة هرر)عام ١٨٨٤ ثم استولى عليها الأثيوبيون عام ١٨٨٧ ،

ـ عبد العليم إبراهيم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) .

مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٨ ، ٢٠٥ – ٢١٨ .

ـ أنظر الخريطة ملحق رقم (٣)

(٤٥٨) الحصف = الصحف .

(٤٥٩) نقدم = يقدم .

الآن سوى ودد(٤٦٠) وانعطافه لا خلال(٤٦١) ذلك . إن تقدمهم وامتداد نفوذهم فى بلاد الحبشان غير موافق لمصالح الإنكليز . فرد عليهم صاحب جريدة(الكورسبوندانترا) إحدى صحف الإيطاليان الكبرى ردا جافيا شديد اللهجة ، إلى أن قالت(٤٦٢) . (فإذا كانت المصالح الخصوصية هى حالة كل سياسة فى أفريقيا ، فإن صاحب سياستنا لفى ضلال مبين . إذ هو يعضدكم أيها الإنجليز فى مصر وضد المصريين على عكس ما تستلزمه مصالحنا فيها ، وعكس ما تقتضيه عزلة قناة السويس . ومع ذلك فإننا نراكم ياقوم تديرون ظهوركم إلى إيطاليا وترفضون مساعدتها على أعدائها الحبشان وأنتم علة هذا البلاء المقيم وعقدة ذلك السر المستحكم) .

وقامت ضجة أصحاب ندوتهم واحتدم جدالهم بشأن النفقة اللازمة لتلك الحرب القائمه . فطال بينهم الأخذ والرد وأنحوا جميعا على صاحب سياستهم المسيو كريسبى باللائمة حتى لقد قال له أحدهم (أنك بعت جلد الدب قبل صيده ، فقد قلت فى برنامج سياستك للعام المقبل أن رأس منغاشيا(٤٦٣) قد عزل وأن ولاية التيفرة(٤٦٤) قد ضمت إلى أملاكنا ، فأضحك هذا الكلام أصحاب الندوة) فأنكر كريسبى ميله إلى تأسيس مستعمرة أفريقية . وذكر عهدة أو تسالى(٤٦٥) وإخلاف الحبشان عهدها ، ثم جعل يمهد فى دفع التبعة عن

---

(٤٦٠) ودد = وده .

(٤٦١) لإخلال ذلك = ولا شئ خلاف ذلك قراءة اجتهادية .

(٤٦٢) صحيفة الكوريسبوندنترا Correspondentra .

(٤٦٣) رأس منغاشيا = رأس منجشا ـ حاكم مملكة تيجرى فى أثيوبيا والذى كان يحرك الثورة ضد الوجود الإيطالى فى أثيوبيا فى التسعينيات ـ دخل الإيطاليون (عدوه) عاصمة تيجرى فى ديسمبر ١٨٩٤ بعد أن أخلاهامنجشا ـ فى أبريل ١٨٩٥ ضم الإيطاليون مملكة تيجرى بعد أن ألحقوا بالرأس منجشا عدة هزائم ـ توفى عام ١٩٠٦ .
ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩ - ١٨٩٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤٦٤) التيفره = تيجرى .

(٤٦٥) عهده اوتسالى = عهده أوتشيالى Ucciali ـ المقصود هو معاهدة أوتشيالى التى عقدت بين إيطاليا ومنليك الثانى إمبراطور أثيوبيا فى ٢ مايو ١٨٨٩ .

نفسه ومن معه من الوزراء وقال (أننا لم نتأخر عن إمداد(الجنرال بارتييرى) كل سؤله ، فليس الخطأ واقع علينا إذا كان الرجل لم يطلب كل ما يلزمه دفعة حتى يغلب ويتم إنتصاره) . فقام فى وجهه أحد النواب المتطرفين وقال(خير لنا أن نخرج جيوشنا من تلك القارة السوداء ويقوم شعبنا بالمحافظة على صوالحه وشرفه) .

وأسل رأس ماكونين(٤٦٦) إلى (الماجور كليانو) حاكم(ماكالى) يقول له(أنه يجب عليك قبل معاودة القتال إن تترك دم جنودك الذى أريق فى (أمبالاكى) يبرد وإلا فلا لوم علينا ولا تثريب) . ومن العجب أن المسيو(٤٦٧) كان يقول فى دار الندوة أن ماكونين أرسل إلى حاكم (ماكاله) فى طلب الصلح ، والكف عن القتال . وتفيد الأنباء الواردة من هرر إن عشرة آلاف مقاتل برح(أنطولو)(٤٦٨) عاصمة الحبشة بقيادة (رأس بركه) لتعزيز حامية(هرر) . فبالغ صاحب السياسة الإيطالية فى التعجيل إرسال المدد ، وأجهد النفس والخزينة فى إرسال النفقة ، والأنباء متتابعة بسوء المصير وكل هذه الحروب الدامية إنما هى على بلاد قد إنتزعوها من مصر غنيمة باردة فتأمل .

وعلت ضجة أهالى وادى حلفا وارتفعت أصواتهم بالشكوى مما هم فيه من ذهاب الأمن وتوالى هجمات أصحاب المهدوية على قراهم ، وإقلاق راحتهم وعدم إهتمام جماعة الإنجليز المرابطين بأمرهم ، ورفعوا إلى ديوان

---

(٤٦٦) راس ماكونين = حاكم هرر ألذى هزم القوات الإيطالية فى (امباألاجى) فى ٥ ديسمبر ١٨٩٥ . تولى إبنه (راس تفارى) حكم الأقليم بعد وفاته عام ١٩٠٦ (أصبح وليا لعهد الحبشة عام ١٩١٦ ثم إمبراطورا لأثيوبيا عام ١٩٣٠ باسم هيلاسلاسى Haile Selassie
ـــ راجع حاشية ٤٣٧ ص ٥٣٩ .

- Lexicon Universel Encylopedia. Vol. 10.- p.,13.

(٤٦٧) المسيو = المسيو كريسبى .

(٤٦٨) إنتوتو Entotto ـ إسم العاصمة الحبشية قبل إنشاء أديس أبابا عام ١٨٨٧ ـ إستمدت إسمها من تلال أنتوتو فى اقليم شوا الذى تقع به العاصمة أديس أبابا

- Larousse Universel- Vol. I.- p., 806.

الإمارة ظلامتهم حيث أرسلوا يقولون (إن أهالى مركز حلفا أصبحوا منذ إنكسار ولد النجومى معرضين لطوارىء الحدثان وهجمات الدراويش القساة فى كل آن ، والدليل على ذلك ما حدث فى هذه السنين الأخيرة من الغارات التى شنها أولئك الدراويش على التخوم ، كهجومهم على واحة بريس وقرية أدندن[٤٦٩] أخيرا ، والحكومة غير مبالية بأمرهم ، والأهالى مع عمدهم ومشايخهم حائرون ولا يدرون ماذا يفعلون .وقد باتوا عرضاء للدسائس السياسية الإنجليزية حتى ذهبت أموالهم وانهدرت دمائهم وراحت أدراج الرياح ، وهى حال لا يصبر عليها إنسان ، إذ ليس منها أمان على روح أو متاع . فما مولنا[٤٧٠] من كبار رجال الحكومة الإهتمام بهذه المسألة الخطيرة ،وتأمين سكان تلك النواحى على أرواحهم وأموالهم كما كان فى الزمن الماضى لمئلا يقال أن الإنجليز أفسدوا الأمن فى مصر لمآرب أخرى ، وهم يدعون أنهم نزلوا فيها لتعزيز جانبه وتوطيد دعائمه أ .هـ) فاهتم الأمير بهذا الأمر وكلم الرئيس مصطفى باشا فى ذلك ، وسير كتبه إلى السردار عند التخوم . قيل وتلطف فى معاتبته ، وأشار بدفع هذا الشر عن أولئك الشاكين . قالوا وجعل يراقب الحوادث بنفسه ويستعلم عن راحة أولئك الناس كل قليل من الأيام .



(٤٦٩) واحة باريس ، من الواحات الخارجة ـ كانت تتبع مديرية أسيوط فى ذلك الوقت ـ تتبع محافظة الوادى الجديد الآن (١٩٩٤) ـ أما أدندان فهى أحدى القرى النوبية بوادى حلفا . فى ٣١ يوليو ١٨٩٣ هاجم نحو خمسمائة من القوات المهدية واحة باريس بالواحات الخارجة وأقاموا بها أربعة أيام ثم قفلوا راجعين إلى السودان وأخذوا معهم أحد عشر شخصا منهم عمدة الواحة واثنين من مشايخها وموظف مصرى يعمل بالآبار . وفى الأسبوع الثانى من ديسمبر عام ١٨٩٥ أخلى المهديون سبيل هؤلاء الأسرى وأعادوهم إلى الحدود المصرية ـ ووصلوا إلى القاهر حيث أجرت نظارة الحربية استجوابهم .
وفى ١٢ ديسمبر ١٨٩٥ وردت إلى نظارة الحربية انباء تفيد أن الدراويش قد هاجموا قرية (ادندان) الواقعة على بعد ٣٠ ميلا من وادى حلفا في العاشر من ديسمبر وقتلوا ١٦شخصا وجرحوا سته أفراد وأسروا إمرأة وأربعه أطفال .
ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٨ ، ٢٤٩ .

(٤٧٠) فما مولنا =فمأمولنا .

آخر القسم الأول مـن المجلد الأول مـن الجـزء الخامس

من كتاب الكافى فى تاريخ مصر القديـم والحديث

لميخائيل بك شاروبيم

ويليـه القسم الثانى مـن المجلـد الأول

من الجزء الخامس بداية عام ١٨٩٦ .

** * **

EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY

Center of Documents & Contemporary
History of Egypt

AL-KĀFI

FI TĀRIKH MIṢR AL-QADIM WAL-ḤADITH

BY

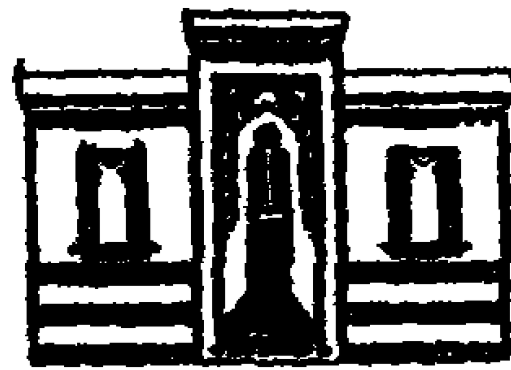
MIKHĀ'IL BIK SHĀRŪBIM

Vol. V

Tom I - Part I

Edited by

Dr. ʿABD AL-WAHHĀB BAKR



NATIONAL LIBRARY PRESS

CAIRO

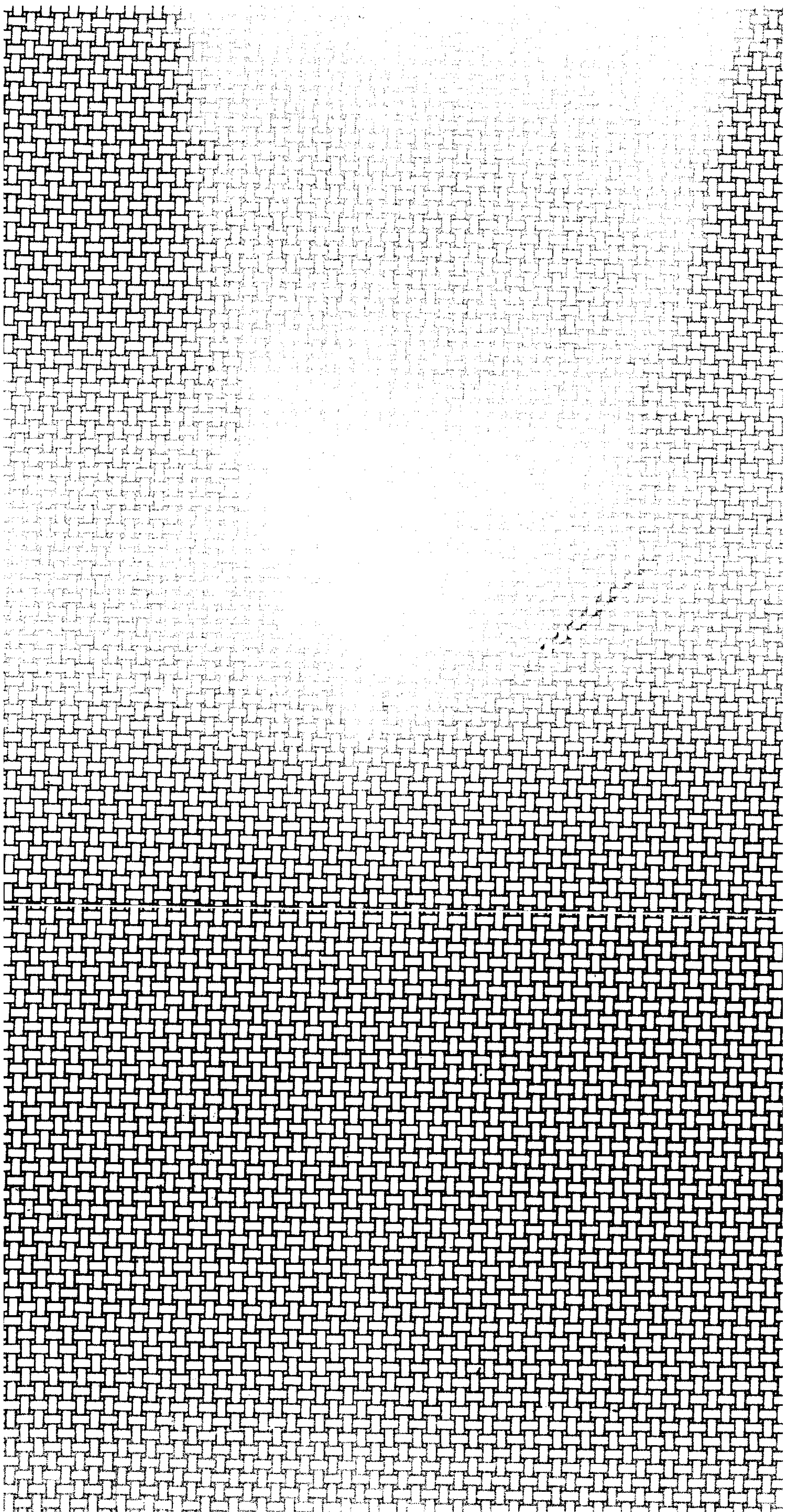
1998

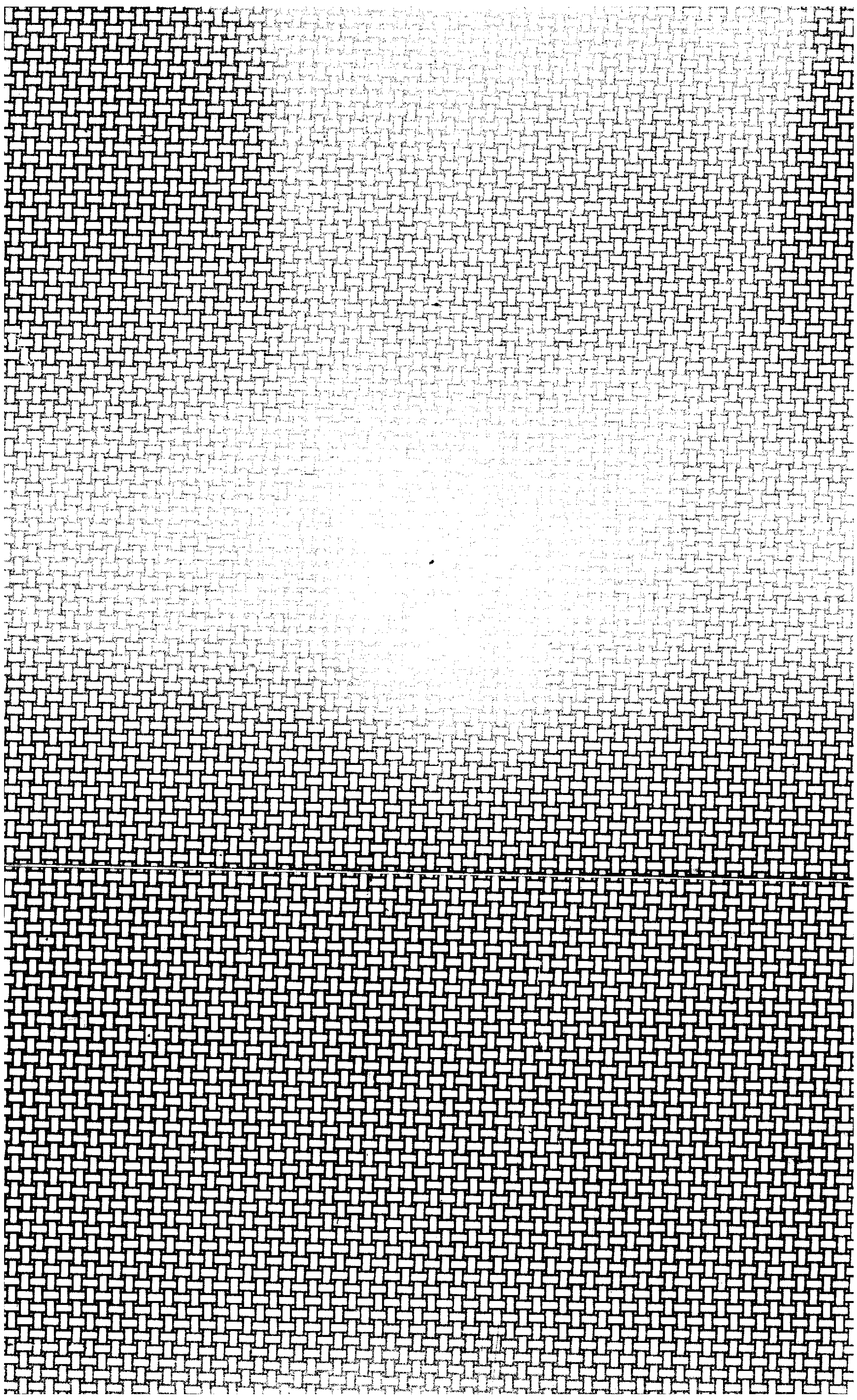
AL-KĀFI

FI TĀRIKH MISR AL-QADIM WAL-ḤADITH

BY

MIKHĀ'IL BIK SHĀRŪBIM





EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY

Center of Documents & Contemporary
History of Egypt

AL-KĀFI

FI TĀRIKH MISR AL-QADIM WAL-HADITH

BY

MIKHA'IL BIK SHARUBIM

Edited by

Dr 'ABD AL-WAHHĀB BAKR



NATIONAL LIBRARY PRESS

CAIRO

1998